مراعى القتل

فتحى إمبابى

الرواية الحائزة على جائزة الدولة التشجيعية 1994

فتحي إمبابي

مراعي القتل

رواية

الرواية الحائزة على جائزة الدولة التشجيعية 1994

ح

إمبابي، فتحي

مراعي القتل/ فتحي إمبابي - fathyembaby.com

روافد للنشر والتوزيع – طبعة ثالثة 2018 -القاهرة - ج. م. ع.

711 ص ؛ 22 سم

1-رواية

2-العنوان

أ – المؤلف:

رقم التصنيف: 813 .008

رقم الإيداع 15804 /2013

الترقيم الدولي I.S.B.N.: 978-977- 6370 -32 -0

روافد للنشر والتوزيع

تليفون 01222235071 2+

rwafead@gmail.com

www.rwafead.com

تصميم الغلاف: الفنان أحمد عبد الباقي

الجزء الأول

الفصل الأول

أجفل الليل مقلعا، والسيارة البيجو الاستيشن طراز *504* تنهب الطريق باتجاه السلوم، نظر إلى رفاق رحلته علّه يجد أحدهم مستيقظا، المبروك، نبيل، أبو رحاب، محمود، الجميع نيام. لم يمض على مغادرتهم القاهرة سوى ساعتين، انثنى للأمام، تجاذب أطراف الحديث مع السائق، محاولا من طرف خفي أن يثنيه عن سرعته الجنونية دون جدوى، عندما فشل مال جانبا إلى زجاج السيارة ينظر الصحراء والفراغ... غمغم وهو يتابع انسحاب الليل أمام أشعة السحر...

... كم من الأسباب دفعتك للسفر، نام يا ابن عبد الجليل واغفى... نام دا الطريق لليبيا طويل....

* * * *

– عبد الله... عبد الله... اصحى يا ولد... قوم نفطر.

لكزه محمود بقبضته القوية... قام غاضبا:

– إيه... عايز إيه... بالراحة يا أخي، الدنيا طارت؟

تدخل نبيل ضاحكا: قوم يا حضرة الصول، السرية عايزه تفطر.

– حد منعكم.

– نفطر بدون القيادة العامة؟

– ليه؟ الحرب انتهت من زمان، ده احنا مهاجرين كما الفارين من بلاد حاكمها الطاعون، كل واحد ريس نفسه.

عبر بناظريه سيارات البيجو الاستيشن الأجرة الواقفة أمام إحدى كافيتريات الطريق الصحراوي السريع. تساءل: فين أبو رحاب؟ تقدم نحوه شاب طويل القامة ضعيف البنية يبتسم في طيبة:

– تمام، أبو رحاب حاضر يا افندم.

– والله ما أنتم ح تجيبوها البر، تفطروا إيه...؟

* * * *

عادت السيارة تنهب الأسفلت من جديد وقد خلّفت وراءها الإسكندرية، لمحوا علامات الطريق تشير إلى مرسى مطروح، حلت عليهم نوبة من الابتهاج، لكز محمود خاصرة رفيقه:

– ح تعمل إيه لما ترجع يا واد يا نبيل؟

– أول ما أجمع القرشين أبعت لأبوي يدفع خلو رجل.

قاطعه محمود: شقة! واه...راغب تتجوز...؟

– لا... محل أدوات كهربا.

قال عبد الله يحذره: ما تسلم فلوسك لصنف مخلوق، لو كان أبوك، ما تآخذنيش.

ابتسم المبروك ومال يحدث الرفاق صاحبك الشك (واكله).

زام فيه مكشرا: وانت يا فالح ح تعمل إيه؟

ضحك الجميع، قاطعهما نبيل: المبروك ح يبعت فلوسه لمراته، يدح يدح ولما يرجع لا ح يلاقي فلوسه ولا مرآته.

ضحك المبروك باقتضاب، وأحمر وجه قال محدثا نبيل: وحياة دقني ح تلاقي أبوك متجوز بيهم على أمك.

قال محمود بابتسامة ذئب وانت يا حضرة الصول؟

نظر إليه عبد الله مغلولا: أني مش حضرة الصول يا ابن الأسيوطي

عقب المبروك: الواحد يعوز إيه، قراطين طين، دار وبهيمه، هذا والا نفر مياومه، قول لنا انت يا شيخ المنسر، ح تحوش طين؟

التمعت الابتسامة الساخرة على وجه شديد السمرة قوي التقاسيم، وضحك يستفزهم باستهزاء: طين يا ولد العم! صحيح فلاحين...بهايم يا بهايم...

قال المبروك مستنكرا: ليه يا صعيدي يا أحف، الأفندي دكتور بالجامعة ولا ناوي تفتح محل كوافير؟ ضج الجميع بالضحك للمفارقة، قال بغضب: لا يا فلاحين، يا عبيد الطين. أنا بدي بندقة.

قال عبد الله متفهما: ودي عايزه سفر لآخر الدنيا.

حدق فيه بنظرة ذئب يدنو من فريسته: يا بوي بندقة آلي مش فرد، لو كان على الفرد عندي منه عشرة، بدي آلي ونص آلي.

تساءل نبيل: ح تفتح مصنع سلاح؟

– دي لها طلب والتانية لها طلب، النص آلي تصوب من بعيد من قلب القصب والذرة، والآلي عشان تقش... فرح، ميتم.

قال عبد الله مقلداً لهجته الصعيدية: لا قتَّال قُتَلَة بصُح وصَحيح، إيه يا واد يا مبروك، خيبه على أمك، ما لقيتش إلا محمود، رايحين نسعى على رزقنا ولا نقاتل الليبيين.

- هم دول اللي اتبقوا من الفوج يا ريس، الباقي تعيش أنت.

– ليه يا فالح؟

- نسيت ولا إيه، الخمسة اللي فضلوا من انفجار كتيبة اختبار الصواريخ، ولا كنت عايز مستجدين معانا.

التفت إلى نافذة السيارة مؤثرا الصمت.

* * * *□

عادت السيارة تنهب الطريق، وقد برز بجوارها الآن شريط السكة الحديد، تابع الفلنكات فارغ الذهن، تتوالى على ناظريه أسماء المحطات الفرعية، من بعيد شاهد القطار واقفا بإحدى المحطات، تهادت السيارة قليلا حتى أوقفها السائق، نزل على عجل يبحث عن ناظر المحطة.

صفق نبيل بكلتا يديه: القطار الحربي يا رجالة، الضبعة معسكر تدريب الدفاع الجوي.

تـدافعوا في الأنحـاء، صـعد بعضـهم إلى رصـيف المحطـة، وبحث البعض عن مكان لقضاء حاجته، بينما بقي هو يراقب القطار وهـو يبدأ في التحـرك، تابعـه يتضاءل، ومؤخرتـه تقيء القضبان والفلنكات حتى غاب خلف الأفق، وهلة وسمع من يناديه، أفاق من سكونه واستدار يخطو باتجاه السيارة، عندما جلس عـلى مقعـده شـعر بالـدوار، اتكأ للخلـف ملقيـا برأسـه للوراء، وعاد يغمض عينيه تاركا لفيض من حمم الذاكرة تنهمر عليه.

* * * *

الفصل الثاني

- 1 -

منذ عام على وجه التقريب، وبعد انتهاء الخدمة العسكرية، ركب هذا القطار وسط المئات من جنود كتيبته قادما من الجبهة، متجها إلى مركز تسليم المهمات، وطوال الرحلة تحول فضاء القطار الحربي إلى خليط غليظ من أجساد الجنود والمخالي؛ الصخب والضجيج وصرخات الذكورة، القتال على حواف ظهور المقاعد وحملات الحقائب العلوية، الضحك حتى الجنون، والغضب حتى الانفجار، قبضات تلوح في الفضاء بانفعال صاخب، وأحذية عسكرية تفرك الأرض في عنف وهدير، وقد تحول القطار إلى سيرك كبير.

وسط أجساد الجنود الملقاة على الأرض تنقل على عكازه، قرد عجوز لا تسعه الحياة، ضاربا مؤخرة أحدهم، وموقظا آخر، متبادلا القفشات مع ثالث، في الضبعة أخذه صول

المقابلة في سيارته "الزل"[1] إلى المعسكر، بينما تحرك بقية الجنود سيرا على الأقدام.

بعد أن اختفي العدد القليل من الضباط، حاول البقية من صف الضباط السيطرة على الكتيبة دون جدوى، وعبد الله يتابعهم دون هوادة.

- يلا يا حضرة الصول خلينا نروح، عايزين إيه أنا أحضره في ثوان، أسامي، أرقام الجنود، محال إقامتهم، بطاقات، توقيعات...قول بس انت وأنا أخلص لك صنف شيء تبتغيه.

وبجهد جهيد امتلأت دفاتر وأوراق إنهاء الخدمة، ولم يبق سوى تسليم المخالى في الصباح.

بعد الغروب تجمع الجنود ليقضوا ليلتهم الأخيرة في الجيش، الطقس الشديد البرودة، والمعسكر الغارق في الظلام، ترشح جدرانه الجيرية برطوبة قوية تزكم رائحتها الملحية الأنوف، في منتصف الليل وزع العشاء الأخير، تناولوه في الظلام مستخدمين أصابعهم، والورق المقوى لعلب السجائر الفارغة بديلا للملاعق، أرز وسائل مخاطي من الباذنجان المطبوخ، بعد وقت وَزّع على كل منهم بطانيتين، لفوا بها أجسادهم، يتقون زمهرير الصقيع القارس.

في الصباح الباكر سلمت الفصائل عهدتها، وتسلم الجنود أوراق انتهاء الخدمة، وعلى طول الطريق الواصل بين معسكر الضبعة ومحطة القطار، امتد طابور طويل غير منتظم من شباب في العقد الثالث من العمر، يرتدون خليطا من الملابس الرخيصة الباهتة الألوان، جلاليب، قمصانا مربعات، ألوان

---

1) الزل: شاجنة جنود روسية الصنع

متنافرة، بناطيل قصيرة الأرجل، مُرَتَّقة من الخلف، ممزقة من الأمام، شباشب وصنادل بلاستيك، وأحذية مهلهلة بلا جوارب.

في الوراء كان الجيش؛ الطاعة والانضباط الأعمى، الخدمة الليلية الشاقة، طعام الجيش المزرى، والنوم على الرمال، رزالة صف الضباط، وقاحة وكبرياء وغرور الضباط، لديك واسطة أُعفيت من تكدير الخدمة الليلية، وهربت من خدماتهم التي لا تنتهي وفزت بتصاريح الإجازات، وربما أمضيت خدمتك بين أحضان أمك، فإن لم يكن!! سِف التراب سفا.

بالأمس كانت حومة الوغي، وكانت الحرب، وكان الموت، وكان الجبن، وكانت الشجاعة، وكانت الكرامة، وكان الهوان والقوة والضعف، والإقدام والإحجام. المستقبل!! اللعنة من لديه ذهن خال لكي يفكر في الغد.

مثلهم كان عبد الله يرتدي قميصا من المربعات الحمراء، وبنطالا رخيصا بلا لون، اشتراهما مستعملين من سوق (الكانتو) بمحطة مصر، أما السترة الصوفية، وبلوفر الجيش الرمادي، وحذاؤه العسكري، فقد اشتراها خلسة من أمين مخازن مهمات المعسكر لقاء مبلغ زهيد.

كان أول من أنهى أوراقه، وآخر من غادر المعسكر، جلس في كابينه السيارة "الزل" جوار صول المقابلة، وعندما لحق بالكتيبة على الطريق، أطل بنصف جسده العلوي من النافذة، يبادلهم والابتسامة تغمر وجهه عبارات التحية، وقفشات الطريق، كان أقدم من بقي على قيد الحياة بينهم، يعرفهم فردا

فـردا... مـن أي المحافظـات جـاءوا، وأي مهنـة يمتهنـون، قصصهم الخفية، أحلامهم، وعلام تنطوي النفوس.

في المحطة هلَّ القطار الحربي، قفزوا داخله من الأبواب والنوافـذ، مـن الرصـيف ومـن الاتجـاه المقابـل، عـاد الهـرج والصخب أقل من السابق قليلا، فالعودة إلى الموطن تشغل البال الآن.

في القطـار تجمعـوا هـذه المـرة حسـب مـواطن إقـامتهم؛ بحاروة ومن قبلي، منايفة وشرقاوية، لكنه ورفاقه القدامى من الفـوج (89)؛ نبيل، محمود، المبروك، أبو رحاب، ظلوا معا لا يفترقون.

في الإسـكندرية انهمـرت دمـوع الـوداع للدفعـة الأولى الـتي فارقتهم، وفي دمنهور وطنطا رحل آخرون، على طول الخط الحديـدي تسـاقط رفـاق السـلاح، كلما غـادر القطـار محطـة، وخف عدد الركاب، شعر بأن جزءا من جسده يفقده، في بنها ودع محمـد أبـو رحـاب، وفي شـبرا الخيمـة غـادرهم نبيـل، وفي محطة مصر غادر هو والمبروك القطار، تاركين محمود، وبقية الرفاق في طريقهم إلى الصعيد، حملوا متاعهم القليل وانتقلوا معا إلى الرصيف البحري في انتظار القطار المتجه إلى منوف.

- ٢ -

وسط زخات المطر الخفيف، وهواء الشتاء البارد المفعم بالحيويـة والانتعـاش، كانـت الأضـواء الكهربائيـة لرصـيف المحطة تنسحب دون عجلة أمام أضواء السحر الأولى، بعد نصف ساعة من قلق الانتظار أطلق القطار صافرة قصيرة،

تبعها باثنتين طوال، أطل من النافذة شاهد ذراع السيمافور تهبط لأسفل مؤذنة بالتحرك، لحظتها بدأت قبضة القلق تنفك قليلا عن قلبه، تهادت العجلات الحديدية، متنقلة عبر السكك المتوازية لعنق محطة باب الحديد وسرعة القطار تأخذ في الازدياد حتى بلغ سرعته الحقيقية.

عندما خلف وراءه القناطر الخيرية عابرا الكباري الحديدية لفرع دمياط، تلاشت آخر نجوم الليل، وأطل الصباح الباكر، وبرزت للعيان، وعلى امتداد البصر. الحقول المترامية الأطراف لدلتا نهر النيل، تحدها في اللانهائيات قبة السماء وأشعة اللازورد البنفسجية، الآن أصبح قلبه خفيفا طليقا، كقلب طير يمرق عبر الفضاء، وقد امتلأ وجدانه بالابتهاج، إنه يعرف الطريق، يعرف كل شبر فيه، ويحفظ أرقام أعمدة التليفونات الموازية للخط الحديدي، يتمتع برؤية العصافير الواقفة على أسلاكه، وقد دفنت رءوسها الصغيرة في أجنحتها بكسل الملوك، ويعلم أن المحطة القادمة هي دروة، والتي تليها الحِلواصي، وعندما تأتي سمادون لن يبقي على سدود سوى رملة الأنجب

عدَّل من وضع عكازه واعتذر بابتسامة خفيفة للرجل الجالس أمامه، مستمتعا بكون الآخرين ربما يظنون أن إصابته نتيجة وقوعه من ترام، أو صدمة سيارة مسرعة، وليست نتيجة لقصف مباشر من سرب لطائرات الفانتوم... من يهتم؟!

...ما أحلى نوافذ القطارات، انت تتحرك وأعمدة الهواتف تتحرك، والسماء والحقول المغطاة بأبسطة السندس؛ قمح وبرسيم، تتلاقى عند خط السماء، الخطوط الهندسية الرشيقة لقنوات الري، والطرق الترابية الصغيرة، تحفها أشجار

الصفصاف، والجميز، والتوت، والنخيل، وأكوام الردش[2]، والسباخ، والفلاحين والبقر والجاموس والحمير والجِمال تسير الهويني، حركة القطار السريعة تخترق الرياح، هدير الكباري التي يعبرها فوق الترع والمصارف، عجلاته الثقيلة تدك القضبان كما يدق الحداد سندانه، ثمة شيء يربض في انتظارك حيث يشق القطار طريقه مندفعا كسهم؛ قريتك... سدود....

في رملة الأنجب تودَّع المبروك، تشدد عليه والقطار يغادر المحطة.

- لازم تعدي يا وَلَه.

بعدها، يهاجمك القلق من جديد، الفرح، الشوق للأهل والخلان، الحنين، العشق اللي ما له حدود، الهوى المشبوب... سدود...

ضرب بعكازه الأرض، قام طويلا مديد القامة، عب الحقول والغيطان، والابتسامة شمس على تقاطيع وجهه الوسيم الضخم، وقف على باب القطار يلوك اللحظة بنهم وبطء، المزلقان القبلي، القطار لحظة دخوله الرصيف، مباني المحطة القديمة المصنوعة من حجر القرميد، صرير العجل على القضبان، تصادم العربات قبل السكون الأخير، الصباح البارد البكر، اندفاع العشرات عبر الأبواب؛ طلبة وطالبات في مرح وهرج، موجة ترتفع في الفضاء قبل أن تنهار متناثرة فوق شاطئ صخري.

---

2) كوم الردش: كوم من التربة الزراعية.

في الدقائق القليلة التي وقف فيها القطار على المحطة استقبله أقرانه بالأحضان، حيوه بحرارة غامرة، صرخت إحدى الفتيات:

- عبد الله ابن خالي محمد، حمد الله على سلامتك.

نزل بصعوبة. وعبد المرضي أبو النصر يصرخ به: يا عبد الله، عدي على الغيط تلاقي الحمار روّح بيه، وساعتين زمن وأنا جي لك يا وَلَه، حضر الجوزة والمنقد.

قاطعه ابن خاله محمود: حمار يا ابن الحمار، الجحشة على الرصيف الثاني مع الواد مسعود، عدي خدها يا وَلَه وروّح بيها، بس يقابلني في قطر حداشر.

- ليه ح نزوغ يا ابن ام الهنا؟

- اسكت وحياة أمك، هو اللي ح يزوغ...

أطل عبد المرضي من النافذة، ناداه والقطار يتحرك ببطء.

- الحاج محمد أبو حسنين عازم فتحي سليمان الشاعر، طهور ابنه، تابعه محمود: حظك يا عم، فتحي الشاعر يغني للهلالية تلات ليالي حد الفجر.

وقف على الرصيف، عيناه تتألقان بالبرق، ووجهه مشرق بابتسامته العريضة، وابن خاله يناديه من نافذة القطار الذي بدأ في التحرك، وثلاثة آخرون يبغي كل واحد منهم إعطاءه الركوبة.

- طيب يا جماعة، معاكم السلامة، هو المرواح للبلد صار مشكلة.

لما يرحل القطار ويعدك واقف على الرصيف، ينكشف الفضاء عن أجمل ما في الوجود، الهوى هو (سدود)... بين خضرة الأرض وزرقة السماء، يشق الفضاء مدنيتين طوال... الشمال جامع العَّلامية، المنتصف لدرب الوسطاني، وع اليمين صلبان كنيسة العذراء، يمتد بينهم خط دقيق مرسوم من أسطح الدور الطينية ومقاعدها... حزم الحطب... الدور الموشاة بأغصان الشجر.

الهوى هو سدود... ميل رصيف المحطة، السير بموازاة قضبان السكة الحديد، مساكن الدريسة، تعدي سكة القطر لحين ما توصل ترعة القراموص، تميل جهة الغرب، أكمة البوص مأوى الديابة، وعلى اليمين شجرة الجميز العتيقة، من هنا ترمي بالسلام لكل حي يسعى في الغيطان، أخوال وأعمام، أصحاب وخلان... المصرف الكبير، تميل يم اليمين، وتسير للجسر الحديدي، شوية زمن وتطل المقابر، أرمي بالسلام على الأموات اللي طواهم التراب، وابدأ في تلاوة الفاتحة والصمدية حداشر مرة، مرة للأهل، ومرة للخلان، والتالتة لأبناء المسلمين، والرابعة لأولياء الله الصالحين، والباقي لطلب الرحمة، ضريح سيدي العريان، خشب خالي من الكسوة فقير غلبان، يجاوره ضريح سيدي أبو عثمان، مسافة زمن وتطل الكنيسة، مدخل البلد الشرقي، إذا استمريت في المسير تصير في الغرب، كل شيء هنا محفوظ عن ظهر قلب.

الدوار الكبير، تحية وسلام لجدك المهاب عبد الجليل، انظره على فراش الموت، قَبِّل إيده وانحنى لقاهر الموت...

يسألك وكفه ترتعش: امتى ح تتجوز يا وَلَه؟

- ما انت عارف يابا[3].
- عارف، عبد الرحيم أخوك عويل زي ابوك، متعولش هم، لو تَخّلى الندل عنك، أنا ح جوزك.
- يعطيك طولة العمر يابا.

* * * *

آن الأوان للذهاب للدار... يوم ثقيل أمضيته في المندرة الكبيرة كنستها زينب مراة عبد الرحيم، فرشتها بالقياس[4] الجديد والمساند، والناس داخلة وخارجة في سلام وسؤال عن الصحة، وإذا ما كان كل شيء تمام؟ يحل الليل وتنام ملان؛ النفس شبعانة بدفء الناس، والبطن بجوز الحمام، ومثل هذا اليوم عدت أيام كثيرة، بلا لحم طبعا، الأهل والخلان، وأصحاب النسب اللي حضرت من كل النواحي، وانت في المندرة، تنام فوق المرتبة وحدك، أيام كانت لياليها جميلة، تعدي من غير فكر وقلق.

لما خَفَّت القَدَم عن الدار، خرجت تسهر مع الصحاب، وفي ليلة...الله؟!... دا الوعد من الموعود...فين المرتبة؟ أخذتها زينب، أرمي بجثتك ع الحصيرة، احنا كنا بنام في الخنادق ع الرمال... شوية ايام وأخدوا الحصيرة، شَوِّنوا أكياس الكيماوي

3) أبا: أبوي: يكنى الجد والأعمام والأخوال بابا.
4) القياس: حصيرة/ فرش من قش الأرز.

والتقاوي في المندرة... البطء في التفكير لم يمنع الذهن من شم ريحة مراة عبد الرحيم....

- يا امه... عبد الرحيم شَوِّن اكياس الكيماوي والتقاوي في المندرة، وأخد المرتبة والحصيرة، شوفي لي مكان أتَّاوى فيه.
- عارفة يا ضناي، لكن اعمل إيه؟ ... عندك المصطبة الكبيرة في وسط الدار، خد لك فيها جنب.
- ده كان زمان... يا امه ما عُدتِش صغير، ولاد ولادك نايمين البدن في البدن، لا فرق بين البنت والولد، النوم معاهم عيبة، زنقة وريحة هباب.
- يا ضناي ما كنش يتعز.
- المقعد اللي فوق.
- المقعد اللي فوق نعمات مخزنة فيه قمح ودُرة.
- والعمل
- آدي اللي في اليَدْ.

لحظتها صحي السؤال النايم في قرار العقل، يدق أجراس القلق، بكرة ح أعمل إيه، فين ح انام وفين نصيبي م الدار الكبيرة، كل واحد متاوي في قاعة من القيعان، يعني أرجع أعيش مع جدي في الدوار، وفين نصيبي من وِرْث أبوي في الأرض، وبكرة لازم أقدم التماس أسأل أمتى ح يُصرف تعويض إصابة الحرب، لازم أتابع العلاج الطبيعي، والعمل؟ الواحد زي الجدار العفي... أعيش بطَّال! من الصبح تخرج بالبهايم، ولا انت ناوي تعيش عويل!

... آهة... آه... يا ابن عبد الجليل... هو عبد الرحيم صار زي الزمن غدار؟ ولا المكان ضاق بالجميع!

أول يوم رحت فيه الغيط، الكلب لما علم حلف أغلظ أيمانات المسلمين إني أنتظر لما الإصابة تخف... بس ده ح ياخد وقت، واللي ناقص من العلاج حاجه تافهة، جلستين كهرباء كل شهر، يعني أقعد عاله عليكم، حتى شوف، وقمت شايل الفاس وعازق الزريبة. لم يعجبه... لم يعجب مراته ولا عبد الحميد أخوي، ولا حتى أمي... تاني يوم راح السوق، قمت من الفجر حَمِّلت الجمل والحمار، ركبت الجحشة وراهم وطلعت على الغيط، نظرات مراته كانت غريبة، عيون زجاج تخفي غضب، الصبر، لما رجع الكلب من السوق ذُهل، ما قال حتى السلام عليكم، بانت الدنيا سوده في وشه، ودار حول نفسه، وأنا مش فاهم فين الخطأ، ابن الجحش صار كل يوم يقوم بدري، ياخد الحمارة والبهايم وابنه وراه على الجحشة.

استفسرت: يا امه، ليه ما ترك الجحشة، أروح الغيط إزاي؟ أمشي ورا البهايم على عكاز!

- يا ابني أخوك بيقول... الجحشة تعبانة وانت زي البغل.
- هو شيء اشتراه لنفسه، دي البهايم ملك أبوي، يحكم على اللي يملكه.
- يا ابني بالفعل قلت له.
- يا امه وقال إيه؟

قال: أبوك لم يترك وراه بهايم إلا عياله، مالك انت ومال البهايم، أما الجحشة ح انزلها السوق يوم السبت، يبقي ياخذ

حمارتي وأنا نروح الغيط ماشي، عَلَّ هذا يعجبه ويعجبك؟ ح اعمل إيه؟ عيل ولازم أراضيه، هه... معلش أصله عاجز.

وقالت أمي كمان: هو بيسأل... انت ح تَفَلَحْ تاني ولا إيه؟

- ابن الكلب، وانت رأيك إيه؟
- أخوك عنده حق، انت برضه ح تَفَلَحْ، هو انت تقدر؟ مش عارفة يا ابني أعمل إيه؟

يا ولاد الكلاب... مين قال إني عاجز؟ مين قال إن أبوي كان بيفَلَّح من غير بهايم، فين بهايم الدار؟ وفين بهايم الشرك؟! طب والاهم، الأرض، فين نصيبي؟ يا الله... الله يا ابن عيد الجليل الله...ناس تعيش وتبرطع، وناس ما تلقى فين تنام!

- 4 -

الزمن قطر غشيم لا يرجع للوراء. تتساقط الأيام كما ورق الخريف، لما حَصلت ع التعويض من الجيش، عملت معجنة من الطين، وبنيت مندرة على راس الغيط، ولاد الكلاب بان الارتياح على وجوههم....

بلغني إن عبد الرحيم قال: أحسن ما يضيع فلوسه ع الحشيش.

قلت: والواجب نعمل مقاصة ع الدار، نصيبي فيها لا يقل عن نصيبه. يوم ما انتهيت من البناء، سألني: عايز مساعدة يا وَلَه؟

- ركب الخليفة وانفض المولد يا ابن ابوك.
- طيب أمك مستنياك ع العشا.

- ماعدناش نيجي، اليوم آخد هدمتي وارحل من هنا.

قال بحّمْقّة: ليه؟ ليه يا ابن أبوي مستعجل على الفراق.

ضحكت ساخرا: يا دموع الذئاب ما عدش فيه حبايب.

لما انتقلت للسكن في الغيط، خَفِّتْ القَدَمْ وانهد البدن، اليوم مرير والليل طويل أمضيه وحيد طريد الأهل، يتمدد الجسد في الفراغ، حصيرة، مشنة، عيش بتاو، صحن كبير، مخلل ومش، جبنة قريش، وعلى عتبة الشباك مراية مكسورة، مشط نظيف، مصباح جاز معلق ع الجدار، وفي الأركان (قُلّة)، منقد نحاس أخذته عافية من الدار، لحظتها قال عبد الحميد لأجل ما يرضى عبد الرحيم:

- ح تسرق يا عبد الله؟

شَّوحت له بغضب: نطق العبيط بعد كفر.

* * * *

الزمن قطر غشيم لا يرجع للوراء... الأمس مثل اليوم، والذكريات لهب تحت الرماد... أول ما وعيت على الحياة، زواج أبي بغير أمي، الحسرة والغم، بيعه المتلاف للأرض فدان ورا فدان، لو كانت أرض أبوه عبد الجليل كان دفنه في صحن الدار، لكنه ورثها عن أمه... فاتني وحيد في الحواري، الليل وعواء الكلاب، الانزواء في حزم الحطب أسير الخوف والبرد.

كل اللي وعيته أن الشتاء كان كالزمهرير، وفي حزم الحطب يتجمع المنبوذين، قطط، فئران، أبناء عرس وجان... وأن القمر في الليل يدعوك للعب والملاغية، تتحول الدور المغطاة بحزم الحطب، وأقراص الجلة لجزيرة من فضة مسحورة،

طايرة على حد السحاب بين السما والأرض، وأن الصباح البارد يناديك لاكتشاف النواحي.

للعلامية أربعة مخارج، إلى اليمين الناحية القبلية، أو تستمر إلى الشرق حيث الطريق لمنوف، وإلى اليسار درب الوسطاني، منه تصل للغرب؛ المطاوعة، والمخالفة، إذا أردت السير للأمام فإلى بحري؛ المدرسة، النادي، والوحدة البيطرية، دوار العمودية، وإن تخرج من بوابة العَّلامية لا يبقي سوي حروب الأزقة، يرحل بك الزمان، بلا أمان، بلا انسجام، تاركا فيك ندوب الجسد والروح، والرغبة في البوح.

* * * *

الزمن قطر غشيم لا يرجع للوراء، والذكريات لهب تحت الرماد، لما عثر عليٍّ خالي أبو خطاب في الطريق متصلب الأطراف، نايم في عز البرد، شدني، رفضت وعيوني تسأله فين كنت يا خسيس، حلف لي بالطلاق ما كانش يعرف، في الليلة دي نمت في حضن ستي مبروكة، وكأني نايم في محمة فرن، تتجشأ، تخرج الريح من جسدها، تهزني وأنا أبكي صعبان عليَّ نفسي. تقول:

- يا غشيم ما تزعلش... طب اسمع الحكاية دي، وتحكي عن الغريب اللي دخل مدينة الصمت العجيب، يطير الطائر الأبيض، يحط على راسه، ياخده على جناحه، يتركه على سرير الملك، وهو اللي ترك بلده في ليل مظلوم، وعشان كده كانت تقول يا بخت من بات مظلوم ولا بات ظالم، تحكى عن سيدنا الأمام عليّ لما خرج يحارب عكرمة المارد الجبار، اللي طوله

مية ذراع، وعرضه ثلاثين، وسيفه طول المدنة، وحصانه تقول جملين، لكن سيدنا عليّ هزمه، تعرف ليه؟ لأن ربنا من حكمته نصر الضعيف على القوى، وسيدنا عمر يبكي بدل الدموع دم، وهو ماشي آخر الليل خايف كما المجنون... آه يا عمر لو يكون في رعيتك من بات جعان مظلوم، طب فين تروح؟ وأيه تقول لما تقف أمام العرش ذلك اليوم؟

الذكريات لهب تحت الرماد، تبقي الأسئلة بلا جواب، يبقي ذهول العقل، يا ستي، نكرني أبي والأهل عادوني، لا في مرة دعوني، ولا بكاس المحبة يوم ودعوني... ترد تقول: ألا تعرف الشاطر حسن، لما هرب من ظلم أبوه لأنه عطف على جنية البحر وتركها تربي صغارها، رَحَلْ، تشيله بلاد وتحطه بلاد، حتى أن عثر على الشمعدان الغريب، لو ولعه الأمين تخرج له حوريات من الجنة، يغنوا يرقصوا حتى يطل الفجر ويحين أوان الرحيل، ترمي كل حورية في حجره كيس مليان دهب، وإن ولعه الظالم خرج له من العبيد سبعة، يضربوه بالسياط حتى ينبلج الصباح...

وألم تسمع عن الباب الأربعين، ذلك المجهول اللعين، والرخ العجيب، لما عبر أرض الظلام، وحط بالسندباد في البحور السبعة، في قاعها قصور ملك الجان، وبناته الحسان، يقضي مع كل واحدة منهم سمر الليالي، وفيض الحظ، ونيل المُرَامْ، ولما حان زمن الفراق قالت له بنات الجان: تلات شهور يا محبوب من كل عام، يحل علينا فراق الأحبة، تلات شهور ونعود، ويعود زمن الوصال ويجود، تلات شهور فلا ترحل، في القصر تسعة وتلاتين غرفة، تلاقي في كل منها ما

يجود به الوجود من جود، أما الغرفة الأربعين فمنها لا تقترب وإلا فالوعد من الموعود.

لغز غريب، تسعه وثلاثين يوماً مروا كما الحلم الجميل، في كل يوم فتحت غرفة، واليوم هو الأربعين، طب ليه لم يُخفي عني هذا اللعين؟

لما مرت الشهور الثلاثة، جلست بنات الجان الحسان في انتظار الرخ العجيب، يعود بأنسي جديد، والسؤال المضني ينهش صدورهن بالتعاسة، لماذا يبيع الإنس العجيب حسن جمالنا، وفيض زادنا وذودانا ويشتري المجهول...حب استطلاع أم فضول؟ رغبة في المعرفة أم عشق للمجهول.

الزمن قطر غشيم لا يرجع للوراء، والذكريات لهب تحت الرماد، جذور عميقة من الأسى، وبحور من الشجن، وأشرعة تدفعها رياح الوسن عبر الزمن...تبقي الأسئلة... يبقي ذهول العقل قدام السؤال...يبقي انعدام الأمان، يرحل بك الزمان، بلا انسجام، حامل ندوب الروح والجسد، ورغبة في البوح، والكون سكون مفتوح، للجنون، والمجون، ولهث الخيول، والركض بحثا عن مراعي الصفا.

* * * *

الفصل الثالث

سمعت والشوق بعيد واللي رماني راح... أبدا، وأنا وجدي مشبوب ومالي راح، طلعت على البحر رأيت على شط البحور طرّاح... طرح على طير وطاطا يمسكه... طار... راح... في مقال له مجنون ولا العقل منه... راح... قلت يا فتاح، المراكب اللي خدت خلي وطارت به... تلتق في شعب من المالح تصير ألواح...(*).

كنت في جلدي زي بعدي عن ملاحي
وأوثق صدهم قلبي جراحي
فسرت من الهوى قدرا وصاح
ألا يا ليل...هل لك من صباح. (*)

أذكر هذا الليل المسحور، وأنا في العاشرة من عمري، أتسلل من الدوار الكبير، والقرية خاوية من أُسرها، يحملها طائر الظلام الأسود في فضاء السكون، والضوء الزماني خليط

من وهج الأبدية الأصفر، وضباب القمر الفضي، ومصابيح الدروب الزيتية.

درب العَّلامية وصمته الليلي، بوابته العتيقة الموشاة بالطلاسم السحرية، المستنقعات الشرقية... أعدو كالملسوع، وقربة لجسد عنزة تعدو خلفي، عند الزوايا والأركان وخلف أعواد الحطب نقاط فضية، تتراقص على ذؤاباتها جنيات النار، أرجل الماعز، رءوس قطط مقطوعة تتناثر في دروب فضية موحشة، تنهشني كلاب الوحدة المسعورة، ساحرات الخوف العجوز، رعدة الموت، هاوية بلا قرار...ويلاه تلك الدروب الطينية الملتوية يفضي بي منهاها إلى المبتدأ... أضواء مصابيح الغاز، مكبرات الصوت، تجذبني بقوة إلى أرض الذهب... الآن أجدهم، جمع الناس العظيم متجمعين في رحابه في الجرن الكبير، خلايق ما لها عدد، باعة من كل نوع، بحر واسع من البشر، لما جلسنا، انتصب كل واحد فينا ينظر للأمام باهتمام، ننصت إليه، جالسا على الدكة المنصوبة فوق كيمان الردش العالي، شاعر الربابة... يغني عذابات الأمير أبو زيد الهلالي سلامة، يستعيد اعتراف القبائل به... كينونته ولمن ينتسب؟

إن مدحِنا النبي ما علينا ملام، اللهم صلي على بدر التمام، العلما العالمين، وأولياء الله الصالحين، والخضر، والمرسى أبو العباس، قال الراوي يا سادة يا كرام، كان في قديم الزمان، وسالف العصر والأوان، عرب من عرب الحجازية بأراضي النجود...عرب بني هلال، عرت عربه، أصحاب الركيز والحربة...

آه... آه من الدهر والزمن...ولا يوم إلا من العمر رايح(*).

* * * *

سبع جبال في الجنة...سبع رجال في الأرض....

أبوي أصابه الجنون، رما بي للهواء، بعد أن طاشت عصا الخيزران، وتهشمت على النافذة الحديد...تلات ليالي، السوط بالكرابيج، قضاء الليل مقيداً بحبل بشجرة الجميز المسكونة بالعفاريت، تتشابك أغصانها وجسدي، الخوف، فيض التساؤلات المريرة يعصف برأسي، يدفن بوجدي، لا يجرؤ أحد على التدخل...

ستي مبروكة اشتكته لأبوي عبد الجليل:

- ابنك محمد معلق عبد الله ابنه على جذع شجرة الجميز، الواد حَصَل له مس...كل ما يكلمني ينعى أبوه ويقول: "عزيني يا ستي في أب مات وهو لسه حي"...

يومها لمحته من أول الطريق وحده جي، مهاب كما الأعيان ورجال لهم سلطان، قوي كيف الجمل العفي، ما وقف أمامه

حد، نفض عني القيود، خدني من إيدي ودخل المندرة، ما لحقش أبوي يقف من الارتباك، قال له المهاب عبد الجليل الكبير كلام كله نذير ووعيد: يا متلاف يا ابن الكلب، تربطه تلات ليالي عشان عشرة قروش، وانت عايز ضرب النار على الطين اللي ضيعته، وحياة تربة أمك اللي ضيعت أرضها، لو كررتها تاني معاه... ولا لا يا بعيد، ما تستاهلوش، أنا واخده معايا...

لم ينطق أبي بكلمة، كان وجهه مَليان بالخوف، خرج المهاب قابض على إيدي، ومن كفه الضخمة انسابت شلالات الأمان. ما استني للعشا، خدني وراه إلى منوف على خيله، اشترى لي كسوة وهدمة، ولما رجعنا الدوار، واتلم الصحاب رأيت أمامي رجال من معدن ولا خيله، مال المهاب عليّ وقال:

- أبوك خاب لا تخيب خيبته، عبد الله يا ابني اللي ما لوش أب يشترى له أب، وانت ابن العَّلام الكبير اللي خَلَّف من الرجال صناديد، نصر، ورزق، وعبد الجليل، وعزام ومنصور، والعفيفي، وحرب، علام الكبير لما نزل أرض السدود وحده، كانت أراضي الشرق بور، شمر دراعاته وعَّمرها، ولما طرحت طرحت معها رجال صلايد، سبع بطون في العَّلامية غير الجيرة والصحبة والرفاق العزايز، انت ابن مين فيهم، اختار لك أب... إياك أسمعك تقول عزوني في أب مات وهو لسه حي.

قال الأمير جَرَامُوه والنار في الحشا... أسمع كلام أذكره مهما كان المصاب غالب... سعادة الدنيا قريب زوالها، أن مالت الأيام مالي ومالها، وأن مالت الدنيا عليّ اعتزالها، إن مالت الأحمال بأيدي عدلتها، لا خير في الدينا ولا في نعيمها، توطي عزيز الناس وترفع نذالها... ثمانية لابد للمرء منهم، وكل امرئ لازم له من فعالها؛ عسر ويسر واجتماع وفُرقه، وحزن وفرح وسقم كذالها... وعافية لا يِزال نعيمها... اسمع يا ابني وصيه من لسان حبيب... أحكم بشرع اللّه على الناس بحالها...(**)

ولا إيه يا عزام؟ الخال عزام ضخم ربعة، وجهه المحفور بطين الأرض من سمار النيل على راسه الطاقية معوجة... عَدَلها لقُدّام وقال: سدود جزيرة أخفاها النيل عن الزمان، فيها اللي جه عايم على بوابة، قذف بيها الفيضان، كما سيدنا نوح لما هرب من الطوفان، وفيها راهب مسيحي هرب من الطغيان، فيها الصعيدي اللي وصلها عايم على زلعة، وفيها ليبي فر من مطارده الطليان، أيام من الشقا، وأخرى من الهنا، وتالته يحيط بها العسف من كل مكان...

غانم من الشرق ومحمد علي في الشمال بالكفر، زايد في بهواش متحكم في مية الفيضان، نروح نطلب دورنا في الميه لأجل نروي، والأرض عطشانة، يرفض ولو حاملين التمن غلة وعنب مرجان، زمن للشقا لا يجد فيه المرء من هدمته سوى حبل تيل يداري بيه عَوٌرَته، وبالكاد قميص كتان، والدار فراغ، نلقط السعد(5) في الوسع... فحل البصل مع رغيف بتاو، لا ينحني راس فيك يا بلد، ولا باشا يتحكم ولا سلطان، وجت الثورة، جه معها الخير، انتظمت الميه، وانفتحت سكة العلم

5) السعد: نبات بري

للولدان، يا ابن عبد الجليل اللي مالوش أصل يصير عويل، ضعيف ماله ظهر... احكي له يا حاج منصور.

- زمان لما جدك العَّلام الكبير حط به الرحال في سدود، كانت أرض الشرق بايرة، شَّمر دراعاته في عزيمة وهِمَّة، وفي الفلاحة حط هَمَّه، فلح على وسع امكانياته، ولا حد هَمَّه، ولما صار الوقت خَلِّف من الولاد سبعة، عزوة وقوة وعلى العدا مَنَعة، سبع بطون يا ابن عبد الجليل والرياح في السما أربعة، رياح الجنوب والشمال والصبا والدبور، ومع الزمان صار له من الصحاب أحبة، اختلط النسب، والحي اتسع والخير يزيد ويفيض، ولما يزيد الخير تظهر الغربان... احكي له يا مصطفى...

أبوي مصطفي قال: في البدء كان الإنجليز بعد انتفاضة سعد، عسكروا في الشرق يمة المصرف الكبير، أعلنوا حظر التجول، حضر. عسكر الهجانة على الجمال، حاملين الكرابيج للي يخالف قانون الطوارئ، عسكروا عند الجسر القديم، هانوا ناس كتير، والأذى علينا حل، واحتل البلد تحت الحماية جماعة من العربان، أول فعالهم ذبحوا رجال أغراب بليل، في الصباح سلخوهم، علقوهم على خطاطيف الجزارة، داروا بالجثث على البلد يبيعوها لنا عنوة، أجبرونا ع الشراء بقوة الرعب والسلاح...

تاني فعالهم أطلقوا بهايمهم في غيطانا ترعى بلا رادع ولا حساب، لو النفر منا قصر. في خدمتها، ساعتها يحل العسف والظلم، يصبح الصباح كله هم وكرب، عصابة من الأعراب حاملة كرابيجها.

تالت فعالهم يوم العيد، هجموا على الدور بعد صلاة الفجر بغدر، ولموا مشنات وأقفاص الكعك، رموها في الشوارع والترع، لا تفهم سبب غبونها، لا أكلوا من كعكنا المسروق، ولا تركوه لعيالنا... عار، ومذلة... خرجت النسا والصبايا تنوح... يا قهر العَّلامية، خمس سنين استباحوا فيها الديار، وفي يوم أسود من ظلام الليل اعترضوا صبية من أهلك، كانت على النعناعية تملا وسط البنات الجرار.

بعد صلاة الجمعة، وقف الفتى العفيفي كالسبوع الكواسر، صرخ بعزم ما في قوته؛ "الموت ولا العار، يا رجال صارت من الخوف طبع النسا فيها غالب، اليوم يوم الرحى وما عاد بد من نزالها"... اضطرم لهيب الوغى، وقعة ولابد من سعارها، خرجت وراه العَّلامية وكل نواحي البلد أفواج ورا أفواج، والفتى مصطفي والعفيفي رافعين السلاح الأبيض، عبد الجليل الكبير حامل فلق النخيل يلف بيه، يطيح هنا وهناك، ونصر اتربص بهم وضِّرب الرصاص، تجريده م العربان وانكسرت، وعاد زمان الصفا والأمان وآه... آه للزمان القديم.

آه للزمان القديم... فاكر أنا سمية، قيلولة الشتاء الدافئ وصحن الدار، تدعوني للتسلل خلفها، القاعة والظلام، السقوط في حضنها المحموم أسبح كما المجنون... طاقة في جسد النسا وانفتحت، صرنا نعيد الكرة، أطاردها والدم فاير في العروق نار، تجرى إلى القاعة ، تطفي المسرجة ، يحل الظلام ، تصعد من بحراية الفرن لقبته، على حافته... لحظة عناق محموم، ينثني جذعها للخلف، تتمدد على سقف الفرن، وبغريزة الذكر اللي كان في قمقم وانتصب، أصعد لها، أبحث هناك بين الهضاب الطرية عن لطائف الورد، والزغب، أرشف

الرحيق وأزيز انتشار النمل في التصاق الجسد، إيه اللي لقيته يا ابن عبد الجليل؟

سر هذا أم عقيق مدفون، مارد خرج من جسمك، ولا دخلت جنان الحور... لله درك سمية... في قميصك المصنوع من الكتان الخفيف، وذراعك الأبيض العاري... لله درك سمية، وللظلام الذي تنوره شفايفك، ونهداك الخصاب، وشهد الرضاب، وذاك الزمان القديم.

الذكريات لهب تحت الرماد... بحره عمقها الزمن... يا ذهول العقل قدام السؤال، عراك النواحي وامتلاك الحواري، القفز فوق أسطح الدور لأجل سرقة كوز درة، نبادله بحتتين السردين، نعمل جمعية مع الرفاق، مين يشترى الشاي والسكر والدخان، خمسة قروش؛ حسن خليل أبوه في بعثة بالسعودية... مين يجيب الخبز؛ رضوان ابن عمي لأن لأمه في الناحية أشهى خبز، مين يجيب الزيت والطحينة. مين يجيب الراديو؟ أحمد عبد الحليم، أخوه رجع من حرب اليمن بفلوس كتيرة، وراديو يشتغل بحجارة "طورش"، وقماش صناعي ألونه زاهية لمراته وأمه، كما أنه حاش[6] أرض...

نجرى في الحواري على ميعاد في مقعد[7]، جسر ترعة، وفي الغيطان نجمع الخيار، نسرق الشمام والبطيخ، قرون الشطة والبادنجان، وليمة من الجبن القريش والمش، يتكنس المكان، يتنضف من التراب، يصير أجمل من سجاد القصور، هل يعطيك مخملها الوثير رائحة الأديم، والعبق الحار لروث البهائم، نلتهم الطعام زي الوحوش، نتراهن على أكل الدرة

6) حاش: اشترى أرض.

7) مقعد: حجرة علوية بالدور الطينية بالريف المصري.

المسروقة في الليل، عشرة ، عشرين، يولع جابر النار يشوى الدرة، يعمل الشاي أسود من هباب الحبر، طعمه مر حنظل، لكن لمذاقه حلاوة مذاق شفايف النساء الكنزة، ما تتركه خلفها من امتلاء، رطبها، طراوتها، وانتشاء بشهد الرضاب.

نرمى على جذوع الشجر جذوعنا، نتمدد ع الخيش، راكية النار، الحصر القديمة، تهب نسايم العصر الطرية، وصوت أم كلثوم يغنى عن الحب والنيل، وسعف النخيل، والثرى الذي هو من عيون البشر، والسهر الذي لا يقضي. على عمر، على أن تقضي. من الدنيا الوتر، والسما كون نملكه على امتداد المدى لا الحصر، وفيروز وعناقيد كرومها الليلكية، وناظم الغزالي وسمراؤه العيسوية، وعبد الناصر وأناشيده الحماسية، وبقية المائدة وما عليها من وليمة، وكل ما أعد لنا من أوهام جسيمة، للصلب على خوازيق الهزيمة...

* * * *

الشمس في منتصف السماء... مرسى مطروح على مشارف البصر... نقطة مرور، يطل راس ضخم لصول البوليس، يدفع بوجهه المتجهم داخل السيارة: جواز سفر أو بطاقة؟ معاك عقد عمل؟ تصريح سفر؟ دعوة زيارة؟ كل واحد يطلّع بطاقته أو جواز سفره، واللي ما معهوش ينزل يلا يا قفل انت وهو.. تنقبض الصدور... تتوقف الأنفاس... حديث قصير مع السائق، يخرج كل واحد جنيهين بلهفة وخوف، تجمعها الأيادي خفية، ترميها لكف السائق، ومنه إلى خارج السيارة، للبيه حضرة الصول، لحظة زمن وتعود السيارة للمسير.

* * * *

الفصل الرابع

- ح تكمل تعليمك؟
- وهوه ده سؤال...

- طب اسكت يا روح أمك... روح اسقى البهايم...روح الغيط... حِّمل السباخ من الزريبة. النهارده قلع الدرة. مش ح تروح المدرسة قبل ما نخلّص جَنِي القطن... فاضل يومين على دور الميه... روح علَّق البهايم على الساقية... تذَاكر... طيب يا فالح إزاي تأكل منين؟ أرعى أنا عليك عشان خاطر أمك...ما حدش اتعلم إلا وجاب لأهله مصيبة... العَّلام علام الحياة... عايز قرشين تيحيب قلم حبر... قوم... قوم... قلم لما يطْولَكْ... لما نجحت مسك عبد الرحيم ذقنه متوعدا:

- تفْ على دي إن نفعت، ولا كملت تعليمك يا ابن أمك...

أنا ابن امي ولا أنت... كانت تَخفي لك اللحمة في البرام، وتَخبي لك اللبن في محمة الفرن، ترجع من الغيط تلاقي عشاك لبن مسقي بالعيش القمح، واحنا نبات على الطوى...

آه... الغضب... الاختناق بالحزن... الشعور باليأس... وانت ماشي ورا الجمل محمل السباخ، تشوف أصحابك من الطلبة فرادى وجماعات فوق أسطح الدور، وعلى جسور الترع، يراجعوا دروسهم بصوت عالي يملا الفضاء، تشعر بالأسى والخجل، فين تختفي الكتب والكراسات؟ فين ملابس المدرسة؟ ... مش لاقيهم... يا ولاد الكلاب... القميص القديم والبنطلون مقطعين في الزريبة، وفي الجوار بقايا الكتب محروقة، مرمية في النشع خلف لدار... الغضب... عبد الرحيم استنفد قدرتي على المقاومة... لكن لو علمت يومها أن الفاعل مراته، كنت قتلتها...

لم يبق لي سوى الاستسلام، خرجت إلى الحقول أعمل نفر مياومة، كان هذا ما يرتجيه الكلب، إذ إنه قال لي بعد مضي تلات شهور من خروجي من الجيش، وسط مجلس حضرة أعيان الناحية: إيه اللي لك في الأرض، إيه اللي لك؟ كنت زرعتها ولا فلحتها، انت طول عمرك إما طالب فاشل، يا نفر صايع، طول عمرك تفلح أرض الغريب، عمرك ما زرعت حبة في أرض أبوك، إيه اللي لك في الأرض؟

الاختناق... كيف أحكي قصتي... ومن فين تصح البداية... من عبارة عبد الرحيم، ترن في الودان حتى الآن..."تروح المدرسة لحد ما عمرك يبقي 22 سنة ح تاكل منين؟ ح راعي عليك ولا على أمك؟"

ما هو الخير وما هو الشر؟ وليه الحق مخلوق ضعيف، منين تصح البداية؟ من مراة أخوك وهي تخطف اللحمة من قدامك وتعطيها لاخوها... آه... آه... يا عبد الرحيم، طول عمرك ابن ابوك، هو مزواج عاشق للنساء، وانت عاشق

لذاتك، جَشع أناني، مراتك حطّاك تحت باطها وانت حاطط عبد الحميد تحت باطك، وإبراهيم سارح لوحده سكة تانية، لكنه مثلكم، ما يفرق عنكم في شيء.

الكراهية... الكراهية حملتها لنا زينب مراة عبد الرحيم بنت الشيخ عبد السلام شيخ زاوية السبيل، تكرهنا مثلما كره هابيل قابيل، كراهية موروثة ، تجري في عروقها، في البداية بدأ الأمر مع عبد الرحيم، تقف خلف باب الدار في قميصها المكشوف، تبدأ في النداء ، تدعوه من بين أقرانه وأصحابه، يهرول نحوها، خايف لو تطل خارج الدار، تشاغله بالأشياء التافهة، تسأله عن أمور ممكن تنتظر، بينما تتكاسل في تقديم التحيات للمعارف والضيوف، تتفنن في لفظهم، تشعرهم بأنهم ناس غير مرغوب فيهم، تتفنن في الانفراد به، تنهمك معه في حديث هامس يورث أمي التي لم تشبع أحشاؤها بالجنون، يحاول التملص منها، تتركه بابتسامة واسعة وعينين تحملان نظرة خاصة، تهمس في أذنه:

– ما تيجي بقي... يلا... ما تيجي.

- في العصر... العصر يا زينب... استني لما يحين الليل، حرام، لا تولعي النار في الولية، جوزها هجرها من عشرين سنه. تشتعل بالغضب، كأنه سلبها حق من حقوقها، كل اللي طلبه أن تداري عن العجوز شبقها المجنون، لكنها كانت عديمة الرحمة.

– انت نجس... يا لهوي عمري ما شفت حد في الدنيا كده.

– تتبول ميه وانت واقف، أنا قلت لأبوي كده قال دي حاجة غريبة.

الفضائح... غباء أمك، وعري أختك نعمات، كل شيء في حياتهم الخاصة حولته لعار، كل شيء عادي ومستور، يتحول في لحظة إلى هجوم مباغت، تهديد مخيف بالفضيحة، في بلد كل ما تشتهيه الاستمتاع بلوك سيرة الغير، فإذا فاض به الكيل وصمد أمامها، تصاب بنوبة هوس، تشنج وانفعال، ارتفاع الصوت، الصراخ، يطل من جديد شبح الفضيحة، ويخيم الخوف والقلق... طب ح تشرح إيه للناس... كان يلعن نفسه، لو ضربها من أول مرة بالبلغة ما صار في هذا الحال، في مرة كادت أن تمزق ابنها نصفين، لحظتها رضخ، وانطوى مستسلما لطبعها.

خفت الأقدام من الدار التي كانت مفتوحة للجميع، ثم حوسب على الأوقات التي يقضيها بالخارج، والأوقات التي يقضيها مع أصدقائه على عتبة الدار، وانتهى الأمر في كل مرة يقضي فيها رغبة صغيرة، سهرة مع الأصدقاء، نفس حشيش، فعل خير، واجب لأمه، لأخيه، لقريب، إلى كشف طويل من الأكاذيب والاعتذارات، الوعود بعدم التكرار... وهي تعلم أنه كاذب، تستمتع به صغيرا ضئيلا كاذبا، خائفا من لحظة المواجهة، وعندما جاء أوان زواج عبد الحميد الأخ الأصغر، تربصت به حتى أوقعته في فاطمة، فتاة ضئيلة في حجم عود البوص، مكسورة من عائلة عرقها مكسور...

كان مشهدا مثيرا للضحك... قرب العصر. يحلو لها الخروج من باب المندرة في تثاقل وهو خلفها، تسخن الميه وتبدأ في مشوار بطيء غريب في ساحة الدار أمام كل من فيها، من المندرة إلى بير السلم حيث بيت القدم، حاملة الطشت والحلة والوابور والفوطة والقمصان النظيفة. يبدأ عبد الرحيم في الاستحمام أولا، ثم تتبعه هي، تجلس على باب الدار تمشط

شعرها... عبد الحميد يلكز فاطمة، يبدأ العرض المكشوف، في يوم قامت من المصطبة إلى بير السلم مباشرة، لم يعرجا لحظة على القاعة، ضحكنا حتى الموت... وضحك عبد الحميد بخجل، وصعدت زوجته إلى السطح هاربة.

- طب أعمل إيه. ما هو ابن المفحور عاملي فيها سبع... ماشي ومدلدل بيوضه ورا مراته زي ما تكون ربطاه بحبل، تقولش شب الجاموس، وهو نعجة.

الطمع لما يصارع الطمع يظهر وحش غريب، نعمات لما جوزها بنى المدبن[8]، ووسع تجارته في البهائم، وكان الوقت موسم خَلع الدرة، مالت على أبوها وطلبت منه تخزن الدرة فوق القاعة القديمة، وعينها على مدخلها المنفصل قبلي الدار... وفي الشتاء خزنت فيها القمح.

- معلش يابا... أبوس رجليك، عبد التواب ربنا فتح عليه، ومحتاج المدبن، لأنه صار يتاجر في البهايم.

أبوي وافق بامتعاض. سنة ورا سنة، رغم إن جوزها بنى دار كبيرة على النشع[9]، خزنت نعمات القمح في القاعة، والدرة على سطحها، ومع كل عام يهل، والجمال بتنزل الدرة في القاعة، يقول لها أبوي: ح تورثيني بالحيا يا بنت أم الهنا...

لما مات، أول شيء فعلته اشترت قفل، وأوصدت باب القاعة، مرت سنة، سحبت أردب ورا أردب، ومراة عبد الرحيم تطلع فوق السطوح، تطل من الرزانة[10] على القاعة، تعد الشوالات بصبر، لما فرغت القاعة من آخر كيلة قمح، كسرت

---

8) المدبن: حجرة واسعة لتخزين التبن والأدوات الزراعية

9)النشع: مستنقعات تظهر صيفا في دلتا نهر النيل، حيث تملأ منخفضات القري بمياه الفيضان.

10) الرزانة: طاقة في سقف القاعة للتهوية.

الباب، ولم يأت الصباح حتى كان باب الدار القبلي مخلوعاً، ومبنى مكانة جدار، لما شافت نعمات الجدار مكان الباب، جت تجرى تدخل القاعة من باب الدار، قالت لها زينب ببرود وعبد الرحيم وعبد الحميد ومراته جالسين في صمت: ما تعتبيش باب الدار، يكون في علمك، تيجي زيارة أهلا وسهلا، أما أن ظنك لكِ حاجة هنا... يابا لا...

ولولت نعمات ولمت كل اللي في الدرب، تصرخ بأعلى ما في وسعها: آه يابا... النهارده عرفت إن أبوي مات، القاعة دي هو تركها لي أثر منه، يا ناس يا هوة، يابا السيد، يا حاجة مبروكة، غيتوني... بنت الشيخ عبد السلام وجوزها الكلب بيكلوا عضمي الحي.

قام عبد الرحيم ثائرا، جرها من شعرها ورماها على باب الدرب وضربها بغل، كيف تسبه أمام الناس: إذا كان لكي راجل ابعتيه... وعاد يقول وعبد الحميد يهز راسه مؤيدا: هو عبد التواب لو ما كانش ربنا وسعها عليه، أنا كنت شيلته هو وعياله وبهايمه في عينيه، ونمت بعيالي وعيال عبد الحميد في الطل، لكن دي داره قد دارنا تلات مرات، هي بنت المفحور اللي عايزه تورّث ولاد الغريب في عيلة رزق.

يهز الشيوخ رءوسهم في تفهم... يقول أحدهم: دا كلام.

- إذا كان لها حق تاخده، أنا عمري ما أرضي بالحرام، لا يدخل جوفي منه لقمه، ولو كان مال قارون، ولاد عبد الحميد الصغيرين دول يناموا على السطوح، عشان هيه تخزن شوية قمح، ما يبني عبد التواب مدبن، عنده بدل المكان ألف...

الكراهية... من يزرع الكراهية بين البشر... لم يكتف عبد الرحيم بوأد مستقبلك الدراسي ولكنه وبعد عشر سنين يغتصب أرضك.

- أبوك كتب الحيازة بأسمى قبل ما يموت، اللي في قلعك انفضه، وآدي المجلس يقول كلمته، وإن ما عجبكش عندك المركز، النيابة، المحاكم، غيّر القوانين يا اخي.

صرخت في عبد الحميد: ساكت ليه، أنطق قول حاجة، مالك قاعد زي الصنم، مش أنتم اللتنين سرقتم ختم أبوي بعد ما مات، وختمتم الأوراق، بصَّمتموها ببصمة راجل روحه صارت عند ربه، بص يابا الحاج، تاريخ الحيازة قبل تاريخ الوفاة بيوم، أبوي كان يومها مات.

حاولوا تهدئته: اصبر يا عبد الله، بتقول إن التاريخ سابق الوفاة بيوم.

- قولي يا أمه، مش هو ده اللي حصل، أجلوا موت الراجل يوم لحد ما يسجلوا الحيازة باسم عبد الرحيم عشان مرات أبوي ما تستلمش ورثها في أرضه، بحجة إنها ما خلفتش، يمكن تتجوز الكركوبة، والأرض تخرج من العيلة، وَلَهفها هو في عبه... طب هو سرق مراة أبوي، طب يسرقني ليه؟

- يا عبد الله نعمل إيه دلوقت، يعنى عايز تِدَخَلْ أخوك السجن.

– حقوقي...

- ما انت ح تاخد تعويض من إصابة الحرب، والحكومة لازم تشغلك.

اختنق وهو يسمع عبد الرحيم يضيف من الخارج:

- وجاي له قرار بالتعيين في مؤسسة الطرق، قول لي بقي يابا الحاج، ح يشتغل ولاَّ ح يفلح، ولا ياخد القراطين يديهم لحد تاني يذرعهم شرك.

- ح أذرعهم بنفسي، لو عجزت يا أخي محدش غيرك ح ياخدهم.

- وأنا إيه يضمني... لا... الحيازة باسمي، واضرب دماغك في الحيط، أما الدار مش سايعة حد، تاخد فلوس، تطلع برة، وأعلى ما في خيلك اركبه.

– أعلى ما في خيلي، طيب...

خطفت أقرب عصا نزلت على نافوخ الكلب، وقع يدفع بأيده الهواء: يا ابن الكلب ح تموتني. ح تموتني يا ابن الكلب.

كان ممكن أقتله، لكني تركته باحتقار، رجعت لعبد الحميد، والصراخ مالي الدار، كان مستكين في ركن المجلس لا ينطق بشيء، هجمت عليه.

- وانت يا ابن المفحور يا عبد الحميد الكلب، شركة وأكلتوها أنتم اللتنين. وهويت بالعصا على وسطه، ما حاولش حد منهم ياخد تارة، لكنهم النسا... خرجت مراة عبد الحميد تولول بالصراخ في الشارع، أما زينب نبشت أظافرها في وجهي، وأنا متكتف بين ايدين الرجال، وتركتني بنزف دم.

الحياة تذكرة للجحيم... والليل الطويل ماله آخر، لما تآمن أخوك على تمن دمك... قرشك اللي حوشته من شظايا الموت، من الوقوف في الخدمة حامل السلاح، يومها كنت ح اشترى ستاشر قيراط ملك أولاد البدري حسن، زايد على الحاج سويلم منه لله وأخدهم، ليلتها ميل على أخوي إبراهيم زي شيطان الغواية وهمس:

- ناخد أنا وانت محل فول وطعمية شرك في الوايلي الكبير... الشغل في الأكل يكسب تلات أضعاف... فلوسك ندفعها خلو رجل للمالك، ونشترى بالباقي طلبات المحل، أما العّرق والشغل اتكفل به أنا، مكسبنا يصير بالنص، شوية ونوسع المحل، لما تَخَّلص الجيش يكون المحل تمام التمام، وانت لا عندك شغلة ولا مشغلة، إيدك في إيدي تمشي، والأخضر يجري في إيادينا، ببساطة ومن غير تردد، عمرك شفت محل فول وطعمية خسر، وبعدين رد بالك للمكان؛ الوايلي الكبير يسموه الصين الشعبية من دررزة الخلق فيه، وازدحامها.

فلوسي وكانت معاه، ما كنش ممكن اعطيها لعبد الرحيم، بطنه تساع مال بلد حرام، يا ترى كنت طمعان في ربح سهل، طب ليه ما كتبت عقد الشركة باسمي؟ تفكرت حتى تهت في الأفكار...يا ربي عبط مني... يا ربي لما أخوك يخونك! أكتب ورق على أخوي، طبعا يا ابن الحمار كان لازم تكتب، لأجل تحميه من نفسه، الزمن تغير والناس صارت غير الناس... ليه؟ ... تعرف إجابة السؤال، تعرف كما رد أبو زيد أسئلة سليط الجان؟ والله ما اعرف. يحل ذهول العقل قدام السؤال، أطلع أشتغل باليومية واسكت، ح تحاجي مين... ح تحاجي نفسك! ما ينوبك إلا حرق الدم، إيه تكون يا بن عبد الجليل وسط الخلق، حمار على ضهره غبيط، بهيمة على عينيها الغمة، فم ساكن في الكمامة، تجر في سواقي الخلق، وتحرث أراضي الغير.

يقول الحاج مسعود مما أصابه، ولا حد في دي الأيام سالم، مساكين أصحاب الهموم بحالهم، شتت عقولهم صاروا عدايم، الناس بارزات فيها بواشق، وفيها رخصات تلم الرمايم. (***)

* * * *

الحياة تذكرة للجحيم...لو كانت الأرض نصيبي ما كنش هذا طريقي... اليوم عرفت إنه مسافر في قطر الفجر، خرجت أدور عليه.

– ناوي أبيع نصيبي في المحل يا إبراهيم.

– ليه؟

– ح اتاجر في البهايم.

- يعوض عليك ربنا يا خوي، أنا كنت عايز أقول لك من زمان، ماجتش مناسبة، الراجل صاحب المحل ابن الكلب طلع مأجره لتلاتة غيرنا، ونهب الخلو، يعوض الله، بالقوة أخدت منه مية جنيه، خدهم ناقصين عشرة أتعاب المحامي.

سكت... أقول إيه؟ قلبي امتلأ بالمرار على الدنيا اللي غدرت بي وبه، دا خاطب من بنات مصر، ح يعمل إيه وح يخلص التزاماته إزاي، وعمره صار تلاتة وتلاتين سنة... بعد أسبوعين واحنا بنراضى أهل خطيبته، لأنهم طلبوا يفسخ الخطوبة، عرفت إنه دافع شبكة ومهر، اندهشت، طب منين؟ دا عمره ما احتكم على عشرة جنيه، كيف بألفين... يا رب العرش فلوسي، من فلوس الخلو! طيب وأنا ح اعمل إيه، أطلع أشتغل عامل باليومية...!! يا ولاد الكلاب... هو اللي اختار نهايته...نويت على قتله. اشتريت ساطوراً من سوق

السبت لأجل أقطع رقبته، لكن ربنا ستر، بعت المبروك نجدة من السما.

مبروك قال لي: صعيب الزمن... صار صعيب يا أخ لم تلده أمي، مفيش غير اللي قلته، جهز خلجاتك، خمس جلاليب صوف قديمة، بالطو تشتريه من سوق الكانتو، ونعدي ليبيا الشقيقة نلقط رزقنا.

- ما انت عارف... عندي قضية مع مؤسسة النيل، لمافيا الطرق والنصب.

- إيه المشكلة مع اللصوص ولاد الحرامية.
- جواز السفر.
- نعدي الحدود من السلك.
- وحدنا؟
- لا... ح ييجي معانا نبيل ومحمود.

صرخت: محمود بن جابر الأسيوطي...

- أيوه، والواد أبو رحاب.
- معقول... والله زمان يا صحاب.

* * * *

واحنا في ليل الخنادق، لما الفوج ياخذ نفسه قبل ما يهاجمنا الطيران الإسرائيلي كالعادة مع أول ضوء فجر، كنا نحكي ونفكر، يعمل إيه الواحد فينا بعد الحرب...

يقول محمود: ما قداميش غير حاجتين... الجبل أو السفر...يا طلع مع المطاريد... يا شد الرحال إلى ليبيا الشقيقة... وكان يضغط بفمه على الشقيقة.

– ربنا معاك.

– ما تيجي معاي يا ولد؟

أرد عليه بكل ثقة وبدون تفكير: وأسيب سدود!!

وه! يعنى يا أخي وراك الطين، ولا عم تشتغل ناظر زراعة.

- التراب في سدود دهب... هذا ما كان يقوله رضوان ابن عمي... تضحك البطارية[11] كلها، لأنه كان يحلى للعسكري مجند إبراهيم حسنين أن يقلدني... يسحب نفس عميق من الجوزة تجحظ عيونه، يطلقه قائلا: التراب في سدود دهب، ومية النعناعية خمرة تروي العطشان... والآن لم يبق أمامي إلا الرحيل معك...

* * * *

11) البطارية: طاقم مشكل من ثمانية مدافع مضادة للطائرات، وتقع ضم تشكيل فوج سرايا الدفاع الجوي.

قال الأمير حسن الهلالي: اصبر يا عم، لا تخف، اصبر على الأيام والمتاعب، احنا رجال أبطال، فرسان هلايل، عرب الهلالية، احنا نجير الجار ونحمي طالبنا، واللي يجينا هارب من المتاعب...

قال الأمير أبو زيد ونيران قلبه في حطب ولعونها: كنت يا نجد الأميرة زاهية، وكانت خيولنا يلعبونها، واللي جرى لما أجدبت نجد وأرضها، سبع سنين مجدبات تحسبونها، سبع سنين يا نجد ما مسك ندى، ولا هفهف البحري أعلى وطونها، وقالوا ترود الغرب ألا يا سلامة، رود لنا تونس وعال حصونها، آه... لو كان تحتي سالم القند يندحي، وفي يدي يماني يغلب البرق لونها، أنزل لسوق الحرب يا شائع السنا، وسوق المنايا بينا يربحونها، ولابد من لطمه على باب تونس، ولو كانوا بسيوفهم زربونها[12](**).

* * * *

ثمانون جنيها دُفعت لرجل يجلس على الناصية المجاورة لمكتب سفريات يقع في ميدان العتبة، بينما دفع الذين يملكون جوازات سفر عشرين جنيها فقط.

– ليه ندفع كل ده؟

أجاب رجل بلكنة ليبية ساخطة: تبي[13] تاخد في فلوسك؟ هيا غادي[14]، شنو[15]! سألتك تيجي هنا؟ وفر على نفسك وأدفع هناك.

---

12) زربونها: نقعت في السم.

13) تبي: تريد/ لهجة ليبية.

14) غادي: هناك/ لهجة ليبية.

أشار ناحية المكتب، تراجعنا بتخاذل: لا يا حاج...دا هو... احنا.

- انت تعدي مع أي مكتب أخر سلاكه، يرموك في بطن الجبل غادي حد الحدود، هنا تركب في العربة هادي، تعدي من بوابة الحدود وراسك مرفوعة، أنا ما ناخد من الفلوس شيء بُكَّلْ[16]، ح يا خد في هذا رُتَّب (وأشار إلى كتفه)، هادي خدمة نبي بها وجه الله، أنا سبب من عند الله، عشان انت، وهو، وهمَّ، رزق يوكل عويله وراه. الآن اتضح صوته؛ مصري يحاول التخفي وراء اللكنة الليبية، أضاف: عند الحدود تاخد بطاقة الإقامة، تعدي من بوابة الحدود رافع راسك، تمشي سليم، تعيش سليم، تِّحول فلوسك لمصر في البنك، لا سوق سودا ولا حرامي يسرقك، شنو بدك. صاح المبروك مبتهجا، كنا جميعا مبتهجين: تمام يا حاج وهو ده اللي نريد.

* * * *

امتد الطريق موازيا لشاطئ البحر، تنهبه البيجو الاستيشن والشمس في منتصف السماء، حدق في البحر حتى الأفق، والدموع تطفر من عينيه...يا ولاد الكلاب الموت في الحرب رحمة... رصاصة تمزق الدماغ...قنبلة تنسف الجسد... أما الموت في الحياة، لحم حي ينشوي على نار بطيئة، روح تتصِلب، نوم على الأشواك، عذاب على مهل.

15) شنو فيه: ماذا يحدث/ لهجة ليبية
16) بُكَّلْ: مطلقا/ لهجة ليبية

* * * *

يوم السفر كان يوم حضره جميع العرب من جميع الجوانب، أوصاهم الملك حسن الهلالي بوصية من لسان حبيب... أسمع يا عمي يا محترم كلام الحبايب:

"وِصِيتك يا أبو زيد مني رفقتك، لان قلبي عليكم في البعاد رعيب، وأوعى لأخوتك وانت مسافر، في الغربة يا أبو زيد ما في حبيب، لا تقيد النار وانت مسافر، النار توري والطريق صعيب، وإذا وقدتم نار في المساء، وطار منها لا يكون لهيب، وإذا وردتم الماء على ظمأ، خلوا لكم علي الطريق رقيب، اشرب شرب الديب وارتد في الخفاء، لان غدارات الزمان قريب، إذا انسألتم في علوم مدرسة، يحيى في فك الرموز عجيب، وإذا وقفتم بين يد حاكم، مرعي على رد السؤال لبيب، إذا نزلتم سوق للبيع والشرا، يونس معاكم يشتري ويجيب، إذا هاجمكم بالطريق ديابة، دياب بن غانم معاك وحرص، غدر الديابة صعيب، ح نروح بلاد الغرب وهم بوادي، لنا حدا البوادي حبيب... لنا طلبات يا أمير يا محترم، وأنا أعمل إيه لما الليالي تصيب، من قلة الحنا وقعنا على الجفا، ولا عاد يداوي جروحك يا نجد طبيب، يا دهر يا مشؤم غدرت بي، قلقتني ولا عاد المنام بطيب"...(**).

* * * *

الفصل الخامس

- 1 -

على سفح سلسلة جبال البطنان شمال غرب الحدود المصرية الليبية الممتدة بين البحر المتوسط وصحراء أفريقيا الكبرى، انطلقت الرياح تعوي وتعصف بالكون، تطارد المسافات على صفحة الوحل العميق، بينما اندرج البحر فسيحا يغوص علي حافة الأفق في الظلام البهيم، والليل لا يفصح إلا عن سواده، مطلقا من عقاله شتاء ثلجيا، وشلالات من المطر الوحشي، يشقها البرق بحسامه الفضي، تتوارى خلف وميضه بقايا أنوار مدينة السلوم الكابية، منازلها العتيقة ذوات الطابق الواحد، فندقها البالي الوحيد، رأسها الملقاة إلي الأرض في انكسار ومذلة، وهي تخفي روادها من مهربي المخدرات، والخمور، والعملة، والرقيق الأبيض، وتجار الرءوس.

على أطراف السلوم توقفت السيارة أمام إحدي تلك الدور الصفراء، دار حديث مع رجل كالح الوجه، أعطاه السائق مائة

ألف من العملة المحلية، ألقي الرجل بتعليماته إليه، وهو يوافق مستسلما، قبل أن يرحل دفع نحوه برجل في الخمسين من عمره، وامرأة عجوز تحمل رضيعا، وغلام صغير يدعي رضا، زجوا بأنفسهم وسط الجالسين قبل أن تعود السيارة للمسير.

كنقاط ضئيلة تهادت قافلة طويلة من عربات البيجو الاشتيشن طراز 504 مطفأة الأنوار، تتسلل متشحة بسواد الليل وغلائله، وعندما خلفت وراءها الطريق الأسفلتي، شرعت تتوغل بثبات وبطء فوق أحد المدقات الصخرية للهضاب المنبسطة الواقعة على الحدود المصرية الليبية.

جلس الركاب داخل السيارات صُفر الوجوه، متجهمي الملامح، ران عليهم صمت المخاض وألمه، ترقبًا لما سيسفر عنه المستقبل القريب، تعتصر نفوسهم القبضة الحديدية لمشاعر من خوف ودونية، ضربت بجذورها عميقا، تغذيها وحشية الهزيمة، وتمكن الفقر، وقدرية الفكر، تلك التي أينعت قبضة حديدية من قلق غامض موحش، إزاء المجهول القادم، ومشاق الغربة.

قفزت عيونهم من محاجرها، وهي تخترق زجاج السيارة الأمامي، تحاول أن تتبين شيئا ما في الأمام، فلا تصطدم إلا بالظلمة، وزخات المطر الشرهة، وأزيز مسَّاحات زجاج السيارة، في الخلف لم ير سوى انعكاس البرق على قافلة السيارات التي تسير خلفهم، انعطفت السيارات فجأة خارج المدقات إلى سطح الصحراء، أزت مفاصل السيارات بعنف، تقاوم تعرجات الأرض الحادة...

هز أحدهم الصمت: احنا رايحين فين؟

أجاب أحدهم بصوت واطي خوفا من أن يسمعه أحد: حد عارف.

- يعني مش ح نعدي من بوابات الحدود.
- يمكن ح يجيبوا حد معنا.
- همس نبيل: منين يابا... السلوم ورانا...

قال محمود: سلاكة يا ولد. وضحك دون خشية.

سلكاوية... !! حدث كل منهم نفسه... الآن تتضح الحقائق... ألم تكن واضحة من قبل! همس نبيل: الواحد زي العادة يحب يضحك على نفسه، احنا نترجي في اللي يخدعنا زي المريض يرجي في الدواء.

- يعني إيه يا وَلَه؟ همس عبد الله فابتسموا جميعا... كاد محمود أن يضحك، فأعاد عبد الله سؤاله يحاول الابتسام. إزاء إصراره أجاب محمود:
- يعني ح نعدي من السلك.
- آني سلك يا ابن المفحور.
- سلك الحدود يا روح أمك.

اهتاج منزعجا للإهانة، حدث المبروك غاضبا: سلك الحدود! واد يا مبروك، مش ده اتفاقنا... قال نبيل يهدئه: مالك يا وَحْش... سلك... سلك... فيه نص مليون مصري واخدين السلك ده قياسه[17]!

ران الصمت عليهم والحقائق تكشف عن نفسها، نظرا عبد الله تجاه الفتاتين متسائلا، أجابه نبيل: معانا يابا...

---

17) قياسه: رايح جاي/ عامية مصرية

واستطرد إزاء دهشته: فقر دكر، ما خلاش حد محترم في داره، قلب عبد الله كفه مشيرا ناجيتهما: وح يعملوا إيه في ليبيا؟

أجاب محمود: شراميط.

... طول الطريق ظل يحدق فيهم، يحاول أن يحد تفسيرا... لاحظ أن السائق يعاملهم بحرص، وأنهما جلستا طول الطريق صامتتين، تاركتين مسافة واسعة بينهما وبين الآخرين، وإذ تحدثت إحداهما لظروف قاهرة، فباستعلاء، وتكلف... لكن وجودهما أشاع لدي عبد الله بعضا من الاطمئنان، وعدم القدرة على التصديق... تشجع قائلا: إزاي الفلوس دفعناها ليه؟ ثمان ورقات من أبو مدنة.

سرت ضحكة خافتة... عند هذا الحد تتدخل السائق: دلوقت ح تاخد بطاقة إقامة ليبية، تعيش هناك محترم، لا تهوب منك الشرطة، ولا يأكل حقوقك أصحاب العمل، الجوازات المصرية عايزه منك جواز سفر، وعقد، وشهادة من التجنيد بأنك أنهيت الخدمة العسكرية، وتصريح من الجيش، وأمن عام وقومي، وشيء وشويات لا أول لها ولا آخر.

عقب المبروك: بعني موت يا حمار لحد ما يجيلك العليق.

قال السائق: حد معاه عقد عمل؟

أجاب الجميع دون تردد: لا.

- طيب شوفوا كيف تكون الخدمة... طبعا غير التوصيلة... يعني نشتغل ببلاش... وأصحاب العربيات من فين تاكل عيالها...

بدا أن كلامه مقنع... تشجع البعض: معانا لحد بنغازي يا أسطى

- يا ابني اطّمئن... شوية وتنزلوا، كل واحد فيكم يستلم بطاقة الإقامة بتاعته مختومة، واللي ما يلاقيش الختم الجمهوري الليبي عليها ما يخدش، وما يدفعش سامع انت وهو أنا بقول إيه... يرجع معاي وياخذ فلوسه مضاعفة، وعليها بوسة من مكتب العتبة.
- وبعدين، معانا ولا إيه؟
- ح تمشوا شوية، تلاقوا عربيات البيجو الليبية توصلكم بنغازي، وتعدى بيكم من قدام قسم الشرطة كمان.

سرت موجة من التوتر في السيارة، تنبه الراكبين على إشارات لكشافات ضوئية تتحرك لأسفل وأعلى ثم تنطفئ بسرعة، مالت السيارة باتجاه الضوء، برز رجلان ملثمان من قبائل أولاد علي مسلحين ببنادق آلية، توقفت السيارات في طابور طويل وأضاءت أنوارها الداخلية فبدت في الصحراء سلسلة من شموع باهتة.

سأل أحدهم السائق: كم تبي؟

نظر: إلى الخلف، وأجابه: عشرة.

قذف الملثم له بمجموعة من البطاقات، ألقى بها إلى نبيل، وهو يسأله:

- بتعرف تكتب؟

أجاب بحماسة: أيوه.

- خد... واستطرد: أكتب عليها اسم كل واحد وبياناته.

تلقاها نبيل بجدية وشرع ينفذ مهمته باهتمام بادئا بأصدقائه. مال السائق إلى الرجل العجوز: وانت نبي الأجرة؟

- كام؟

صرخ به السائق: يعني مش عارف عشرين ورقة يا خفيف.

- أني دفعت ستين جنيه في السلوم، للمعلم رشدي.
- احنا مالنا... هو انت راكب مع المعلم رشدي دلوقت؟
- لأ... معاك.
- خلاص يا أخي تدفع عشرين جنية.

أجابه الرجل مذعورا: بس أني راكب من السلوم.

- كل اللي فات كوم واللي جاي كوم.
- يعني إيه؟
- يعني أنا اجيبك من أسوان ببلاش، لكن دخلة الصحراء دي ولا بألف جنيه، أنا بغير فيها كل مرة أربع فرد كاوتش، غير السجن، لا وحياة أبوك ما تقطعش نفسي، دي لقمة عيالي.

السجن...كلمة أشاعت خلفها جو الخطر... لكن العجوز لم يأبه:

- ما أنا دافع يا حاج...أدفع مرتين.

ثار السائق وفتح باب السيارة مستديرا إلى الخلف مخرجا من تابلوة السيارة مطواة حادة كبيرة.

- تدفع مرتين وتلاتة يا روح أمك.

قال العجوز متراجعا إلى الخلف وهو يدفع للسائق ما يريده:

- أنا أعطيت الحاج، والله... قاطعه: اديت للحاج فلوس التسليكة والبطاقة، أما التوصيلة دي فلوسي أنا، يلا خلصني!!

أدخل أحدهم رأسه من نافذة السيارة مقطبا الوجه: شنو فيه؟

اجاب وهو يأخذ النقود: الأخ بيعمل فيها ناصح سأل الملثم: خلصت الواحد؟

كان يعني البطاقات فاستدار السائق للخلف: خلاص يا أفندي؟

أومأ نبيل بالإيجاب وهو يكتب البطاقة الأخيرة لعبد الله وعبد الله يؤكد بإصرار على نبيل أن يصيف اسم جده رزق.

قاطعه محمود ساخرا: هو حد عارف اسمك إيه يا وِلّدْ!

أجابه عبد الله بحماسة: أيوه عشان يطابق البطاقة الشخصية.

- ليه، هو انت تقدر تظهر بطاقتك الشخصية لحد؟

قال فاتحا عينيه الواسعتين مندهشا: وليه لأ؟

أجابه محمود بقرف وسخرية: لأنها مش مختومة يا غبي... انت بتقول لهم كده أنا سلكاوي... ضحك. هبطت حماسته من فوره لاستكمال اسمه، وعندما وضع البطاقة في جيبه شعر بأنها غير ذات قيمة... هتف المسلح: هيا وأشار إلى الأمام: خمس دقائق وتلاقوا البيجو الليبي بانتظاركم غادي...

خطف كل منهم حقيبته البلاستك الممزقة، واندفع خارجا يسابق الباقين، صدمتهم برودة الجو القارصة وزخات المطر، داروا حول أنفسهم هنا وهناك، وتعالت أصواتهم، لكن صيحات قاسية استقبلتهم بمناخيس[18] الرقيق، ومنذ اللحظة

---

18) مناخيس: جمع منخاس، وهو عصا النخاس

التي غادروا السيارات اندفعوا يهرولون تحت نباح المسلحين كقوافل الرقيق المطارد عند حواف الصحراء.

- ج -

على مبعدة انتصب شبح ضخم، ظل يقترب رويدا حتى وضح من بين الظلمة فج جبلي، بدا قبيحا دميما مترهلا كفرج عجوز، أديمه المجعد نبتت عليه نباتات الصحراء الشوكية.

ظلوا يهرولون كالنعاج، يساقون سوقا باتجاهه، وكلما عنَّ لأحدهم التريث، أو أن ينبس ببنت شفه، أمره المسلحون بالصمت، زمنا ثم كشف الفج عن منخفض صخري، نزلوا الوادي واحدًا خلف الآخر. استندت العجوز على أبو رحاب، في حين رفضت الفتاتان أن يعاونهما أحد، كادت الضامرة والأكثر كبرياء أن تسقط، لكنها أبقت على عنادها، مكتفية باستخدام حذاء واطئ أحضرته معها، وكأنها على دراية بما هي مقبلة عليه من سير خشن طويل.

غذوا السير في باطن الفج، وعندما صعدوا فوهته وجدوا بانتظارهم مجموعة أخرى من الملثمين، ضامري العود، يرتدون صديريات ملونة فوق قمصان وسراويل بيضاء، وعلى رءوسهم اعتمروا شنات[19]، أخفوا تحتها وجوها باهتة الملامح كاحلة السواد، وبشرة متجلدة كجلد النعال، لا يبز منها سوى عيون ناشزة... كان بعضهم يمتطي الجياد، مسلحا بالرشاشات والبنادق الآلية، تتدلى حول خصره خزن الذخيرة...

---

19) شنات: جمع شنة، وهي غطاء الرأس للزي الوطني الليبي

بلهجة آمرة وصوت هامس أشار كبيرهم إشارات ذات مغزى، من فورهم أُمرت القافلة بالتوقف والانبطاح أرضا، جلس الخمسة القرفصاء يحدقون بصمت في الظلام، وقد ألجمتهم الدهشة، إذ تجمع أمامهم ما يزيد على ألف وخمسمائة من المصريين، يوشكون على التسلل عبر الحدود الليبية... مئات من عمال وصنايعيه، فلاحون، أنفار موسميون، وأصحاب ملكيات صغيرة زاد فيها عدد الأبناء على عدد القراريط المملوكة، لصوص وعاطلون عن العمل، طلبه فقراء وفاشلون، هاربون من التجنيد ومن قضايا وأحكام، وموظفين ضاقت بهم سبل العيش، هربوا بسبب الانخفاض الحاد في رواتبهم... ونساء وفتيات قدمن لخدمة منازل أثرياء الليبيين ومتعهم الخاصة...

قطعان من الأغنام تجمعت في باطن الوادي، أخفت رءوسها داخل المعاطف، وقد تاهت ملامحهم وتداخلت بعد أن يئست من اتقاء سيل المطر، وصقيع الوحل، وبرد الشتاء الثلجي. انتحت النساء جانبا، وعندما فكر عبد الله أن يخلع معطفه ليعطيه للفتاة، مالت إلى حقيبتها، وأخرجت معطفا من البلاستك، ارتدته ثم جلست ساكنة لا تريم. ساعة أمضوها تحت سيل المطر والرياح تعوي فوقهم كالكلاب الضالة... مال العجوز يسأل المبروك الجالس بجواره: احنا هنا فين؟

وقبل أن ينطق المبروك سبقه صوت جاف: اقعد ساكت هسه.

- قلتم البيجو مستنيانا... مقعَّدِينا في ألمطرة والبرد ليه يا حاج؟

أجابته ضربة من مؤخرة إحدي البنادق انخلع لها كتفه، سقط إلى الأمام مصطدما بالمرأة العجوز التي انكفأت إلى الأمام وتحتها طفلها الوليد... كانوا يستمعون إلى اللكنة التي لن ينسوها طيلة حياتهم قط لأولاد على، ولألفاظ تنطلق في سرعة لا يفهم منها سوى التهديد الخطير الذي تنطوي عليه.

- كنك[20] يا تيس يا عرس، رَاَعْ[21] تنطق بكلمه ولا نضربك بالنار، عهد الله بنترك فيك هون للديابة.

بدأ الطفل في البكاء، لاطفته أمه بصوت خافت، وأخذت تهدهده دون جدوى، إذ أنه أبقي على صراخه، فانتحت به جانبا، وألقمته ثديها الجاف، صمت لفترة... ألمها جسدها، حاولت أن تُعَدل من جلستها، فعاد للصراخ، وعاد الصوت الأمر ينبعث من جديد يطالبها بإخراسه.

قالت تسترحمه: يا بني أصله سخن، باين جت له نوبة برد.

أخذه عبد الله منها وسار به جيئة وذهابا فصمت، كان الطفل محموما، عندما استعادته ثانية وهي تشكره سألها متعاطفا وهو يجلس القرفصاء: إيه بس اللي خلاكي تيحيبيه معاكي يا حاجة... حرام عليكي ح يموت منك.

قبل أن يساهم الآخرين في تأنيبها، أجابته بخشونة، بصوت سمعه كل القريبين: جيباه معايا اشحت عليه.

---

20) كنك: ماذا تنطوي عليه كينونتك/ ماذا تريد/ لهجة ليبية
21) رَاَعْ: ضع في اعتبارك/ لهجة ليبية

ألجمه جوابها، تراجع منسحبا في داخله كسلحفاة تختفي داخل صدفتها، وهلة ثم عاد رأسه تطل على العالم الذي يمتد أمامه... حدث المبروك دون وعي:

- الله يجحمك ويجحم أبوك واللي خلفوك مطرح ما راحوا، إيه اللي خلاك تيحيبنا هنا، ما كنا في بيوتنا مستورين.

ابتسم المبروك ولم يعره أحد اهتماما همس محمود:

- بَه روح يا ابوي... روح... السلوم وراك... قاعد ليه؟

أشار نبيل ساخرا للمسلحين: اسكت يابا، ولا يطخك بالنار.

أجاب محمود هو يكز على أسنانه، وعيونه تلمع في الظلام:

- والله نشق بطنه، احنا نروح ليبيا مش نحارب أولاد علي.

سمعوا استغاثات متفرقة، لمحوا المسلحين ينقضون على بعض المتسللين بالركلات، ويضربونهم بمؤخرات البنادق، وأحدهم يصرخ هامسا:

- قلت ما نبيش[22] واحد يهمس يا عرسات يا تيوس.

تحركت الدمدمات كموجة للمقاومة ما لبثت أن تلاشت سريعا، تاركة وراءها الصمت المطبق، وانكمش الجميع كل على نفسه، وظهر الرعب على وجه الفتاتين، حدق عبد الله جهة الشمال الغربي حيث انتصبت في العتمة القمم العالية لجبال البطنان، كأشباح عفاريت العالم السفلي، ترقبهم في

22) منبيش: لا أريد/ لهجة ليبية

تحفز، فجأة قفزت المرأة الصغيرة من جلستها، وهي تنحني للأمام في هلع، تظن أن ثعبانا يصعد ظهرها، من خلفها ظهر رجل أشعث في الأربعينات، برزت أسنانه المكسورة خلف ابتسامة بلهاء... لمحه أحد المسلحين فصرخ ينهره:

- بعد يا منصور... أيش تبي عندك؟

لم يتحرك بل استدار بوجهه ناحية الخادمة وأمسك يدها... جذبها برفق... قاومته تحاول أن لا تحدث صوتا... ساد التوتر الجالسين، وفتح عبد الله عينيه على محجريها... ابتعدت فاطمة عن المكان من فورها وهي في خوف شديد، وقفت وحيدة ترقبهم مبقية استعلائها على جنس الموجدين... في الظلام مد محمود يده، أمسك بقبضته الخادمة، وجذبها بقوة وسرعة خاطفة، فاجأت الرجل، لتصبح الفتاة بينهم، أدار محمود رأسه للفراغ، وقد كشف وجهه عن قسوة وتهديد بالغين، التفت حلقة منهم حولها... وجه وحيد كان ينظر نحوه في تحد وغضب... كانت المرأة العجوز على استعداد للعراك، نودي على الرجل ثانية، فابتعد وهو ينظر إليهم نظرة تهديد.

دقائق مضت عندما لمحوا الفتاة الأخرى تقترب منهم، وعلى مبعدة خطوة بجوار العجوز، وهي تنظر إليهم لأول مرة نظرة استغاثة، زمن طويل مضى. حتى عاد القلق ثانية ليجد مكانه بجوار الخوف... أشار نبيل بطرف إصبعه لأعلى الهضبة، حيث وقف أربعة أشباح، حملت الرياح أصوات الجدل المتصاعد منهم.

- كل دول وتقول لي ثلاثمئة رأس بس!

صرخ المهرب: توا[23] نعد لك فيهم يا رجل بيش تستريح.

- بقولك إيه. مش عايز نصب والله أنزل أعدهم واحد واحد... هات. كانت لهجته المصرية واضحة.
- باهي، معاك ثلاثمئة جنيه، أيش بتي يا راجل؟

قفز أحدهم يضئ الظلام بمصباح جيب كهربائيا وأخذ يتحول وسط المتسللين يعدهم، وتبعه الثالث مسلطا أضواء السيارة على المتسللين، ظهروا مفترشين الأرض على امتداد البصر.

نادي أعلاهم رتبة على المسلح غاضبا: تعال يا ابن القحبة. فاكرني داقق عصافير. وأصدر صوتا قبيحا، وعقب: ألف وخمسمائة جنيه ما ينقصوش مليم يا (....) أمك.

قفز المسلح متراجعا: أمرك يا سعادة البيه... أمرك يا سعادة البيه.

من بعيد جاء صوتا أمرا: يوم مطر ومقعدهم ساكتين... فاكر ح تهرب بيهم من الحكومة يا جحش... يلا يا صبحي.

أجاب المساعد العجوز مصطنعا الارتباك: حاضر يا باشا... حالا.

ابتعدت الأشباح متراجعة واختفت... وعندما تصاعد بكاء الطفل عاجلتهم الأصوات الآمرة:

- هيا... هيا يا فوالة... هيا يا تيس يا زامل[24] يا قواد.

قاموا قفزا وقد قدر لهذه العبارات أن تطن في مسامعهم لأمد طويل... انطلقوا في هرولة يهبطون قاع الوادي، والرغبة

---

23) توا: الأن/ لهجة ليبية

24) زامل: لفظ سباب ليبيي دراج، وتعني مثلي الجنس

تدفعهم في أن ينتهي هذا الكابوس... ضاق القاع شيئا فشيئا حتى أصبح ممرا ضيقا يركض علية طابور طويل من المتسللين، وطوال خمسة كيلوا مترات ظل المسلحون يسوقونهم كالأنعام، وهم يكيلون لهم أقبح العبارات.

من الاتجاه المعاكس لاح ملثمُ يجري في اتجاههم، وهو يأمرهم بالجلوس القرفصاء والصمت، ومن لم يستجب، دُفع به إلى الأرض عنوة... دفع أحدهم المرأة العجوز فبكى الطفل، هزَّ صراخه الفضاء، وفي لحظة كان حولها ما لا يقل عن عشرة شاهرين سلاحهم في وجهها.

- خرسيه يا مره... خرسيه يا قحبة يا شرموطة...

كان الطفل يلهث من الحمى، لم تجد سبيلا لإسكاته سوى كتم فمه بيدها. كانت هناك دورية من حرس الحدود الليبية تتلكأ في الأنحاء... ظل أربعة منهم بجوارها وسناكي بنادقهم مغروسة في رقبتها، والخامس ممسكا بخناقها لاويًا عنقها للخلف، وعيناه الناريتين تتوعداها بالموت... كادت سيدة أن تتبول من الرعب... أمسكت نفسها تقاوم ضعف أعصابها... وعندما طال انتظارها تسللت دون أن يراها أحد لتختفي خلف ربوة عالية، عندما رحلت الدورية خفف المسلحون من قبضتهم على العجوز، فعادت تضم طفلها إلى صدرها ثانية.

شق العتمة والسكون صغير طويل أعقبه عواء، وعندما عاد السكون ثانية أجاب الليل بصفير طويل أعقبه من نفس الجهة صوت ضربات متسارعة، تزايد الصوت بشدة واقترب، وقلوب الجالسين ترتعد ويعلو وجيبها، واشتدت الضربات حتى بدا وكأن الأرض ستندك في اللحظة القادمة، ومن جواره مباشرة شاهد عبد الله وقلبه يوشك على الانخلاع قافلة

طويلة من الحمير، تسير في خطوات سريعة متعاقبة، محملة بأحمال ثقيلة، صناديق خمور، ومخدرات، وأشياء أخرى كثيرة.

عندما نطق العجوز متسائلا: إيه ده؟ ... انغرز كعب أحد البنادق بين كتفيه، سقط البسيوني على الأرض، وهو يبكي صارخا في هستيريا:

– إلحقوني... إلحقوني ح يموتوني... ح يموتوني... والله العظيم ح يموتوني.

لم يفهم أحد شيئا، إذ بينما كانوا يعاونون العجوز على القيام وتهدئة روعه، شوهدت سيدة قادمة من الجانب الذي أتت منه الحمير، شعثاء، ثيابها في فوضى، وعلى وجهها وفي عينيها ارتسمت نظرة من الفراغ، عندما اقترب نبيل منها يستفهم الأمر. ابتعدت وأسرعت تغذ السير مع السائرين، بدأ الممر يرتفع ويعود للاتساع حتى انبسط الوادي عن السهل، برزت الصحراء وامتدت مسافات شاسعة والرياح تطوي البيد طيا، تخفي تحت أجنحتها قافلة المهربين، وبضائعهم السرية.

- 3 -

في خط طويل متعرج كثعبان يتلوى، تاركا أثرا باهتا على الرمال، قادت الحمير القافلة في طرق غير مطروقة، عابرة بها الحدود من فرجة في الأسلاك الشائكة، وتحت سياط المسلحين ركضت القافلة على الإيقاع السريع لحوافر الحمير، وهي تلهث بلا توقف باتجاه الأشباح الضخمة الجاثمة عند الأفق، وقد تخللت مياه المطر ملابسهم مختلطة بالعرق

الغزير، تلامس برودتها الثلجية أجسادهم المشتعلة بنيران العدو السريع...

ثلاث ساعات من العدو المتواصل يتناوبون حمل الطفل المستغرق في النوم، عندما بلغت القافلة سفح الجبل بدأت تهدئ من سيرها ويتحول الركض إلى خطوات سريعة محاولين صعود الجبال، لاح قائد القافلة هابطا من أعلى، وعلى وجهه علامات الجنون، يشير بهستيريا إشارات غامضة، صارخا بصوت واطئ:

- قعد يا فوال... الليبية ح يكشوفونا.

اندفع المسلحون يلقون بالرجال والنساء أرضا وأضواء كشافات حرس الحدود الليبي تمشط باطن الجبل بحثا عن قوافل التهريب وهم يصرخون:

- هيا يا فوال... هيا يا سلكاوي يا قحب... عَجِّل... أرقد يا تيس... مدت العجوز يدها هذه المرة من نفسها تكتم أنفاس طفلها... كان باردا صامتا، شرد ذهنها، لكن الخوف كبحه عن التفكير.

بعدها اختفت الأضواء، عادت القافلة إلى الصحراء تركض من جديد مبتعدة عن منطقة الحدود، متوغلة داخل الأراضي الليبية، مستترة بغلائل الليل الكثيفة، وقد بلغ التعب منهم مبلغه، كلت أقدامهم ووهنت بين الركض السريع، والسير الحثيث المتواصل، والكبوات المتلاحقة فوق الدروب الصخرية الوعرة، وأديمها المجعد ونتوءاته الحادة، وأعشابها الشوكية الجافة... الذين تمزقت أحذيتهم لقدّمها، والذين لم يتسن لهم سوى صندل من البلاستيك، أنساهم الرعب والفزع المسيطر من التخلف التشققات الدامية، وقطرات

الدماء التي انسالت خلفهم على رمال الصحراء، اللحظات القليلة التي كانوا يتوقعون فيها الراحة، حملت الرياح والأمطار بردا ثلجيا نخر عظامهم، وتصلبت مفاصلهم.

من داخل الصحراء برزت العيون التي تلمع في الظلام لقطيع من أبناء آوي، انتشرت الهمهمات والفزع المستطير، لحظة وكان الجميع يجرى، تلهب ظهورهم سياط النخاسين، وقد أمسك نبيل والمبروك بالمرأة العجوز، وحمل عبد الله الرضيع، وتعلقت فاطمة بمعطفه، تستمد منه القوة على الجري، والشجاعة من الخوف الذي أمسك بتلابيبها، على حين تأخر محمود وأبو رحاب لمساعدة الدسوقي الذي حَلَّفْهما بألا يتركاه، وإلا سوف يموت قطعا، مشيرا إلى العواء الذي يطاردهم، متوعدا كل من تسول له نفسه بالتخلف، والجميع يفكر في المصير المظلم الذي أوقعهم في أرض غريبة، بين السفاحين من أولاد على، والأنياب الفتاكة لأبناء آوي.

طلقات الرصاص التي دوت في الفضاء طقطقت لها شعورهم. همس عبد الله: كلاشنكوف روسي يا وَلَه... استدار العجوز للخلف محاولا العودة هاتفا: ح يموتنا... ح يموتنا... ح يقتلونا.

جذبه محمود، وصرخ نبيل به معنفا: ولاد على بيضربوا النار ع اللي يرجع... قوم يا عم دسوقي... إيه إلى جابك، انت مش قد السفرية دي... دلوقت هم يوصلوك بالسلامة، وانت تروح تشتري المسجل والراديو وتغل دنانير...

عقب محمود بسخرية: الموت وانت راجع ومعاك الدنانير مش دلوقت... عاد يهتف صارخا: ما تتماوتش... قوم ماحدش فاضي لك.

- عايز أرجع، أرد لمصر تاني، رجلي انكسرت,, والنبي يا عم، ربنا يعطف عليك وعلى ولادك، سبني أرجع، ولادي بنات... ولايا... مفيش حد غيري يربيهم... استطرد وهو ينقاد لهم... الكبيرة عندها خمستاشر سنة، مرضيتش تسلم على وأنا مسافر، الولية أمهم عيطت وقالت لي: "قعدتك وسط البنات سُترة"... أنا عندي دكان جزماتي محترم... بس ما عدش حد بيفَصَّل، دلوقت كله بيشتري مَكَن... الْرَزق وبيع، الشيطان وزِّني، ضحك بعقلي، قال لي أكل العيش يحب الخفية، سافر هات قرشين، أقلب الدكان حاجة توكل عيش... يا ريتني سمعت كلام الولية... بس أنا مش فاهم... هو احنا رايحين نحارب إسرائيل، ولا رايحين جهنم... دي بلاد عرب، مسلمين.

مال على نبيل يسأله: باين عليك ابن حلال والنبي ما تسيبني... انت مربي ذقنك ليه، سني؟ هز نبيل رأسه نفيا... استطرد... السني برضه كويس بيعرف ربنا... بس النبي ما تسبني هنا...حبيبك النبي يا شيخ... عشان العيال...

- مش ح سيبك يا عم دسوقي محدش منا ح يسيبك... اطمن...
- اسمعني يا ابني، أنا عندي لك هدية ... أصلي حبيتك... طول عمرك ح تدعي لي... بنتي... هو فيه أغلى من الضني، معلش زمانك بتقول الراجل كبر وخَرَف.
- ... الواد ميت! همس عبد الله لنفسه، ولما لم يسمعه أحد توقف، توقفت خلفه فاطمة، جذب نبيل هامسا في أذنه بصوت سمعته الفتاه:
- الواد ميت!
- واد مين؟

- ابن الولية اللي قدامك. نظرت إلى الطفل يكاد يغش عليها...

عقب محمود:

- عارف... أني شايفه ميت من ساعة ما رفعت إيدها عنه.

سأل نبيل: فين؟

- واحنا مستخبيين من دورية الحدود الليبية.

همس لعبد الله: أسكت انت دلوقت...

كان عبد الله يرتعد، مد يديه بالطفل إلى نبيل، لكنه تجاهله، وتقدم إلى الرجل العجوز يساعده، تاركا عبد الله خلفه يدمدم:

... ست سنين حرب... لّميت في أشلاء الصحاب ما اهتز لي طرف، ولا ارتعش م الخوف جفن كما اليوم... الولية قتلت ابنها... دا يوم أسود من الحبر... غم... إيه اللي شرد فينا زي الكلاب الضالة، منك لله يا عبد الرحيم يا خوي، منك لله يا بوي...أه يا ابن عبد الجليل، الواد ميت من زمن، واحنا نجري بيه مش حاسيين... طب ليه؟

شعر بضغطة على ساعده، كانت تجذبه، أصابته الدهشة وهو يسمعها تواسيه: كل واحد فينا بياخد نصيبه... نظر إليها وعقله مصاب بالشلل، وعاد ينظر إلى الأمام، زمنا طويلا مضى. حتى تحرر ذهنه، لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يسألها: وأيه اللي جبرك؟

شعر بالاضطراب الذي سببه لها... لم يشعر بالذنب، قالت:

- باشتغل مدرسة، وأنا رايحة للعمل، مقدرتش استني الإعارة.

نظر إليها غير مصدق، توقفت عن الحديث، تركت معطفه وعادت تختفي داخل استعلائها الخاص، عندما توقفت القافلة للراحة قال نبيل: كدابة... لا يمكن لمتسلل الحصول على عقد عمل في الحكومة الليبية، مفيش قدامها غير أن تعمل شرموطة.

انتحي بها جانبا: انت معاك عقد عمل؟

شعرت بالامتعاض...ثانية...لماذا يدس أنفه...: لا.

قال صادقا: ترجعي أحسن، مستعد ارجع معاك للسلوم، اركبك القطر وارجع.

نظرت إليه في غيظ وبلاهة، وعيونها تقول له. كم انت حمار، بغل. فهم ما تود قوله، عقب متراجعا: حرام تتبهدلي، أنا خايف عليك.

كانت تود أن تصرخ في وجهه... إلى الجحيم انت وخوفك المزعوم... إلى الجحيم بالخوف الدنيء لجميع الرجال...لقد ظل يردد في أذني سبع سنوات متواصلة: خايف يا فاطمة أرجع يوم من الجبهة لا أجدك... وأنا أعطيه كل ما أملك؛ مشاعري، ثم جسدي عندما طلبه متحججا باستشهاده القادم، حتى أزيح عنه خوفه الدنيء... من ملامح الغضب استطاعت أن تتحكم بصعوبة في أعصابها قائلة: أنا رايحة لخطيبي، هو مجهز لي العقد وكل حاجة.

...خطيبها مين؟! ... من هذا الذي يترك عرضه لهذا الخطر، ثم كيف يُسمح لفتاة بالسفر إلى رجل دون زواج، مستحيل، في الأمر شيء غامض، لو أنها قالت أخي أو زوجي.

توقفا عن الحديث، وعندما انطلقوا للعدو ثانية أمسكت هذه المرة بمعطف محمود.

- 4 -

طيلة ثماني ساعات من العدو السريع في الظلمة وتحت سيول المطر الغزير، صاعدين هابطين وهاد ووديان جبال البطنان، تركت القافلة مدينة مساعد خلفها، وسلسلة من النجوع الصغيرة، متوغلة باتجاه مدينة البردية، كان البرق يضيء السماء فلا يكشف إلا عن سحنات صلدة، نبتت عليها شجيرات القفاز الداكنة، تبرق عيونها بالفظاظة، وأسَارير الغلظة والاحتقار، فجأة برزت أضواء السيارات، أصبحوا قريبين من الطريق الرئيسي، فاندفعوا يرتمون على الأرض، ثم ما لبثت أن اختفت، لتعود من جديد تظهر من علو شاهق، أضواء خافته تمر وتنحني على صدر الجبل وتختفي تاركة آثارها الباهتة في العيون، ومشاعر عنيفة من الخوف والحنين والرغبة في العودة إلى أمن الوطن وترابه، وتذوب الأضواء، وتبقي الظلمة الحالكة السواد من جديد، حل التعب بالجميع، الشكوى المتصاعدة قوبلت بالعنف والقسوة، ورغم المدقات الجبلية الوعرة، وسطح المسير الصخري، لم يسمح لهم بالوقوف للراحة، إلا على مشارف مدينة قصير الجدي.

عندما جلسوا أخيرا، مدت المرأة العجوز يدها تأخذ طفلها، هزَّ عبد الله رأسه بعصبية: لا لا يا حاجة خليكي مستريحة. جلست القرفصاء تبغي الراحة، وهلة ثم استدارت

إليه تأخذ طفلها، دفعه إليها مكتئبا متجهما وعيونه تشع باللمعان:

- البقية في حياتك يا حاجة، انظريه من سكات، املي عينك منه عشان ندفنه على سنة الله ورسوله، وبلاش صوات وزعيق وربنا يعوضك فيه.

لم يكمل، خطفته وهي تصرخ به: الله يرحمه؟! ده عايش، مين قال إنه مات أنا سيباه حي.

فتحت على الطفل لفافته، رأت زرقة الموت تسكن جسده، أغلق عبد الله فمه وعينيه، صرخت تضمه وهي تبكي، جذبوه منها بصعوبة، جرت وراءهم تطلبه والخوف يملأها أن يدفنوه حيا، فلما عجزت انحنت تولول وتعفر رأسها في التراب.

بكت فاطمة هي الأخرى، وضمت المرأة المكلومة بين ساعديها، أما سيدة فبدأت تنهنه، حفر عبد الله ونبيل والمبروك مقبرة للطفل. حاول المسلحون دفن الطفل عنوة بغرض التحرك، غمغم محمود، وعيونه الضيقة تضيق بالغضب والإصرار:

- ح نصلي عليه يا ولد، انت مش مسلم ولا إيه؟ بَعَدْ شوية، تيمم يا وِلّدْ.

فعل الخمسة يتبعهم عشرة آخرون، صلوا على جثمان الرضيع، وبينما كانوا يهيلون عليه التراب، ألقت سيدة بنفسها على الأرض بهستيريا، تمرغ جسدها في الرمال، تصارع أشباحا غير مرئية، التفوا حولها يهدئون من روعها، لم يع أحد ما حدث... تقدم منها أحد المسلحين، ذلك الرجل الذي خطفها منه محمود من قبل، وعلى وجهه ابتسامة صفراء لمنتصر.

انثنت إلى الخلف تتشبث بقدمي محمود تحتمي به، وكأنها تهرب من الموت القابع حولها وهي تصرخ:

– أبعدوه، أبعدوه عني، أخدوه، عرضي مني سرقوه.

تساؤلات أطلت من الخلف... سرقوها. سرقوا إيه ولاد الكلاب؟ اخذوا منها إيه؟ تراجع الرجل للخلف مختفيا، لا يحاول أن يخفي الاتساع المتزايد لابتسامته الصفراء.

– والنبي معاك ورقة وقلم؟

كانت المرة الأولى التي تحدثت فيها فاطمة مع نبيل، أجابها مسرعا:

- أيوه.

- عنواني أهوه..أومأت بعصبية يمكن حد يسأل عليه.

مدت يدها تعطيهم العنوان، وكأنها غريق يمد يده لطوق النجاة. كسر الظلام وأحاديث هامسة هتاف بعض المهربين الجاف:

– هيا يا فوال، هيا يا سلاكة، قوم فز انت وهو.

عادت القافلة للمسير تاركة وراءها رأس الجدي، زمنا قصيرا واختفت قافلة الحمير بأثقالها، كان صياح الديكة يأتي من النجوع القليلة المتناثرة، قبل بزوغ الشمس وقف كبيرهم على جواده مشيرا إلى الطريق الأسفلتي الرئيسي:

- هيا شنوا بيكم يا مصرية، نشهد الله جبناء، هيا، عدوا غادي. أشار باتجاه الشمال الغربي وقال: ساعة وتوصلوا طبرق، حاجي حد ييجي يم الشرطة، وإلا يردوكم غادي لمصر.

صاح الدسوقي: الله...والعربات البيجو. الثمانين جنية؟

تألقت عينا قائد الملثمين بالسخرية، ولولا الحذر لضحك نبيل وعبد الله ومحمود، جذبوه والملثم يشير ناحية الطريق: غادي، هناك على الطريق... هسة[25] شوية زمن وتلقي فيهم.

أشاح الدسوقي برأسه ساخطا: هسه...هسه...زهقنا من هسه بتاعتكم دي. تجاهله الملثم ونادى على فتى ضئيل الحجم، وهو يشير إلى فاطمة: مصباح، مصباح. جاء الفتي على عجل، استطرد: خليها معاك، ترى عليِّ منتظرها على رأس الطريق، أعطيها له وأرجع طول. واستدار عائدا.

- باهي...حاول الفتي وعلى وجهه ابتسامة بلهاء خطرة الاقتراب منها، صرخت متراجعة إلى الخلف، وهي ترتعد من الهلع، وتحتمي بعبد الله. تساءل نبيل: انت عايز منها إيه؟ أجابه مستفزا: أنا... وأيش أسوى بيها... نوصلها!

اختفي الملثمون، وتنفس المتسللون الصعداء، تطلعت إليهم وقد سقطت عنها أقنعة الاستعلاء لتحل محلها نظرات الذعر والاستنجاد. قال نبيل مقلدا بصوت عالٍ لهجتهم الفظة:

- باهي احنا معاك حد المكان اللي تبي توصلها فيه.

سارت القافلة بانتظام، وما لبثت أن تفرقت جماعات، قليل من استمر، أما البقية فقد ألقت أجسادها المتعبة في شعاب الجبل، على رأس الطريق وقفت سيارة "بيان فيو" وبجوارها وقف شاب فارع الطول، نادى بلكنة ليبية: مصباح... مصباح...

25) همسة: لحظة/ الآن/ لهجة ليبية

التفتت الفتاة باتجاه الصوت... بدا أنها تعرفه، أشارت إليه واتجهت نحوه، همس عبد الله لنبيل بحديث قصير، ثم التفت نحو فاطمة يناديها، توقفت عن السير وعادت نحوه، تبادلا حديثا طويلا وهي تهز رأسها، بالموافقة وتنظر منخفضة الرأس إلى السيارة، فلما انتهى حيته بحرارة وأسرعت باتجاه الشاب، الذي تلقاها بترحاب، وقبل أن تدلف إلى العربة حدثته وهي تشير باتجاههم، نادت بصوت عال: سيده... تعالي

عَدَت الفتاة نحوها، وقبل أن تبلغها نزلت فاطمة من العربة عائدة باتجاههم، حيت كل واحد منهم، وهي تشد على إياديهم بحرارة، ثم استدارت راحلة مع رفيقها الشاب، يتابعونها بأنظارهم. عندما غابت السيارة عن الأنظار، قال عبد الله: أهو تاخد (سيده) معها توصلها للمهندس المصري اللي ح تشتغل عنده.

قاطعه محمود: انت صدقت يابا، دا شغل.

- دي أعطيتني أسمه، وعنوانه. قال المبروك: احنا مالنا، مُلكْ ومنظمه سيدك، ح نعمل إيه دلوقت؟ هتف الجميع: نقعد...نريح شوية.

أشار نبيل إلى فوهة خرسانية ضخمة، تعبر أسفل الطريق من خلال منخفض في باطن الأرض، يقع أسفل الوادي: هناك.

برزت أضواء سيارة عابرة على الطريق، اندفعوا جميعا في ذعر نحو النفق يختبئون، عندما بلغوها واحد خلف الآخر كان التعب قد أنهكهم وهد قواهم، رأى محمود الدسوقي وعبد الله يتجولان داخل النفق الخرساني، نادى عليهم: بَعِّد من عندك يا

ولِدْْ، ترى ما تعرف أن كان حداك متاوي دياية، ولا ضباع هربانة م المطر...

تراجع العجوز، وتباطأ عبد الله لوهلة، ثم عاد متحاشيا المتاعب، وخاصة الآن حيث يلزم النوم، جلس جوارهم القرفصاء، لا يدري كيف ومتى نام.

* * * *

استيقظ عبد الله على المياه الغزيرة المندفعة، قادمة من قمم الجبال والهضاب العليا، وقد ارتفعت لأكثر من مترين، وجد نفسه يعوم في مخاضة، وقد تبللت ملابسه وبلغت المياه وبرودتها عظامه، كانت الشمس في الربع الأخير من السماء، ملبدة بالغيوم، تقبض أشعتها ببخل وكسل، وقد كف المطر، وكأنه يجهز نفسه لجولة جديدة، من حربه الشرسة التي أعلنها ضد المتسللين.

ثمة ضربات مكتومة لشيء يرتطم بالجدار ضاعت مع المياه المندفعة في غزارة، قام ينفض المياه عن نفسه وملابسه! كان جسده منهك القوى، مدمرا متصلبا من قسوة البرد، والألم ينبح من كل قطعة فيه، ساقيه، فخذيه، والأيسر على الأخص، كعب قدمه وأصابعه، لم يكن ثمة شيء سليم، لعن المبروك وحظه وقدره، وكل من أشار عليه بهذه الرحلة السوداء، وهو يفكر أنه يتعين عليه إيقاظهم جميعا، مد يده يستند على شيء يساعده على النهوض، فارتطمت بشيء طري ثقيل يحتك به، توجس خيفة، استدار ينظر خلفه، أصابته رعدة وقف لها شعر رأسه، كانت يده تستند إلى ساق منتفخة،

اسْوَدَّ جلدها مثل كلب نافق، وأسفلها برز حذاء بيادة ممزق حول قدم شديدة التورم، خطف بصره الألوان العديدة لذيول الجلاليب والمعاطف السوداء المهترئة، والبناطيل الرثة القديمة الممزقة، حاول النهوض لكنه تعثر، ارتكز بيده على شيء رطب أخر، فاحت على الفور رائحة الموت، صرخ من الرعب والوجه الأزرق المنتفخ يطل عليه مثل بالونة تشوهت ملامحها، وعيون غائرة تحدق نحو الفراغ، كانت كف يده مرتكزة على فم رجل امتلأ بالأعشاب، وأتربة سوداء تنسال من جانب الفم، اصطكت ركبتاه، وخارت قدماه، والجثة تتحرك قليلا، لتعود لتصطدم بالجدار الخراساني، نهض يصرخ: قوم يا وَلَه، قوم انت وهو، فِزْ يا ابن المفحور، ح نموت هنا يا ولاد الكلاب، جثث ميتين، جثث ميتة يا وَلَه.

استيقظوا واحداً بعد الآخر، وأمامهم كانت تسبح سبع جثث لمتسللين مصريين، تسد مدخل مخر السيل، والمياه تعبرهم إلى الجانب الآخر من الطريق، كانت سيول الأمس قد جرفتهم، بينما هم في طريق العودة إلى الوطن.

* * * *

الفصل السادس

- 1 -

منذ الصباح الباكر اصطفت سرايا الدفاع الجوي في ساحة مركـز تـدريب أنشـاص، القلـق والـزمن يمضى. بطيئـا متلكئـا، يترقبـون السـاعات القليلـة القادمـة، تـدق أسـماعهم الأصـوات المكتومة الآتية من بعيد لانفجار القنابل الناجمة عن قصف الطيران الإسرائيلي للخطـوط الخلفيـة لجبهـة قنـاة السـويس، وعـلى الطريـق الخـارجي لسـاحة المعسـكر، تجمـع قـول[26] الحملة، طابور طويل من سيارات الجيب وشاحنات الجنود السـوفيتية الصـنع، وعربـات الـزل، محملـة بمهمـات الجنـود وصناديق الذخيرة، وقد تجمع حولها سائقوها يتحركون في عجلة وسرعة ونشاط، يتممون على إحكام رباط مدافع اللواء،

26) قول: مركبات الحملة / مصطلح عسكري

ومحطات الرادار المحملة على الشاسيهات بمؤخرات سيارات الكراز الضخمة.

في الثانية عشرة ظهرا، كان قد مر على وقوفهم ست ساعات متواصلة، وقد بلغ بهم التعب مبلغه، ينهش صدورهم قلق الانتظار، أي مشقة كان عليهم أن يتحملوها، يلقى بهم في أرض الطوابير التي لا تنتهي... سؤال ميت يطرق عقولهم، يعجز عن إدراك المغزى العميق لنسيان القادة لهم، وإهمالهم لوجودهم، سواء أكان ناجما عن إهمال متعمد، أو حرصا على أن يكونوا على أعلى درجات التحمل والصبر.

في منتصف الساحة بقي في طابور الذنب الجنود الذين قَدموا متأخرين عن ميعاد أوبتهم من الإجازات، يركضون بالخطوة السريعة، حَامَلين المخالى على ظهورهم، وصيحات صف الضباط تشق الفضاء.

- جاي متأخر يا خول انت وهو، فاكر نفسك بترعي في غيط أمك، ولا رايح تيجيب الغدا للمحروسة، بالخطوة السريعة، للخلف در، المخلة أعلى الذراعين، بالخطوة السريعة للأمام سر، يلا، يا عسكري نشف دراعك، وإذا ما نشفش ح نشف دمك. للخلف در، للخلف در، للخلف در، أنا ح أوريكم يا كلاب، عشان كل واحد ييجي في ميعاد انتهاء أجازته، لازم تفهم يا روح أمك انت وهو إنك سيبت الملكية، أجري يا دفعة... ها... مين مش عاجبه الإهانة، عشان أدخله السجن، ها...

كان المساعد أول فرحات يصرخ فيهم بعنف يستفزهم:

- مين الراجل فيكم، يا نسوان لابسة طرح، عشان أحطه في السجن، فيه مصنع هناك بيحول الرجالة نسوان، مش

عمليات جراحية يا محمد يا حسن، لا فيه مسجون هناك (.........) قد كده... وأشار على طول ذراعه... كل واحد يفهم إن الأوامر أوامر، واحنا بنتعلم الضّبْط والربط هنا عشان ما ترحش تموت على الجبهة، عايزينك ترجع لامك يا روح امك، وشَّك للأمام والمخلة على ضهرك وسلاحك قدامك، للأمام زحف، ازحف يا عسكري، ازحف يا حبيبي، وطي راسك يا روح ماما، رأسك ماتترفعش عن وش الأرض، عشان ما تكونش هدف سهل للرصاص، ازحف يا عبد الله، شايف عنابر النوم اللي هناك، ازحف، بتعيط يا عسكري يا مره!

مسح الجندي إبراهيم حسنين الدموع من عينيه، ما أثار المساعد، هاجمه ودفعه بعيدا: بتعيط يا خول، إيه اللي جابك متأخر؟

عاد للبكاء ثانية: ماكانش معاى فلوس.

- ده انت بتركب نص أجرة.
- وحياة ربنا المعبود أنا جاي نص الطريق ماشي.
- ليه يا عسكري يا نص؟
- أبوي طلق أمي، وأخواتي سايبهم من غير فلوس يا افندم...

أجابه بصوت قبيح: وانت بقي ح تحارب إزاي، ما تَنَشِّف دموعك يا عسكري يا مره، اللي في البيت تنساه، انت مترحل على خط النار، يلا أجرى، ما زوغتش ليه؟

- الكمساري مسْكني للشرطة العسكرية... لكن هربت.

- إوعى أشوفك بتعيط، الجيش مصنع الرجال، مفيش مكان لمرة.

- تمام يا افندم...

تابع عبد الله ما يجرى لإبراهيم، نظر إلى حيث العنابر هتف:

- نهار أسود من الحبر، دي على بعد كيلو متر.

كانت العنابر تقع في جهنم الآن، شعر بأن جسده لن يمكنه من الصمود، لم يكن قد نام طيلة أمس، حتى جسدها لم يكن قادرا على تذكر ملامحه، أوشك على أن ينهار، ولكنه ظل يقاوم، وببطء شديد زحف متسائلا... إلى متى يمكن أن يصمد الجسد، ومن أين يستطيع أن يأتي بكل هذه الطاقة.

كان قد وصل الكتيبة بعد أن أمضى إجازته الثالثة في قريته، والتي حصل عليها والجنود التسعة الأوائل في الرماية بالذخيرة الحية على الأهداف المتحركة بالتعاكس بالفرقة، كما فعل سابقا جاء متأخرا عن تمام العودة بعشر ساعات، على حين غرة تلقاه ثلاثة من ضباط صف الكتيبة عند المدخل في تجهم، أشار المساعد الضبع إلى أحد الأركان القصية خلف مبنى القيادة، عندما حاول التلكؤ، لكزه المساعد أول عبد المسيح في كتفه:

- حتى انت يا عبد الله دا انت مرشح أومباشي.

- هو فيه إيه بس يا افندم... قالها عبدا لله بود...

صرخ فيه صف الضباط بسخط: يلا يا عسكري هناك... عندما دار حول المبنى فاجأه صوت الرقيب شحاتة يأمره بسخرية وقرف: أقلع يا عسكري يا رقة...

باغتته المفاجأة، وقبل أن ينطق وجدهم جميعا عراة، يقفون في ملابسهم الداخلية والبرد ينخر عظامهم.

- دلوقت كل واحد فيكم ح يعرف معنى التأخير، النوبة دي تكدير يا دفعة انت وهو، أما النوبة الجاية وشرف أمي محاكمة عسكرية، شغل المدنية أنساه، احنا في الجيش، حلو الكلام... همهم البعض، عاجلهم صارخا، وصوته يزعق في أرجاء المعسكر: وما اسمعش ولا كلمة.

صمت الجميع وكلما مر بهم صف ضابط أو ضابط هز رأسه متوعدا:

- (تلت) المعسكر متأخر! طب يا كلاب...

عندما أصبح الجو دافئا صرخ فيهم المساعد فرحات: انصراف لمدة نص ساعة، تروح تحمل مخلتك، وتلبس السترة كاملة، وتجمع في أرض الطابور.

صاح إبراهيم من الخلف: ليه يا افندم؟

- عشان نكمل طابور الذنب يا روح أمك، انت بقي طابور لوحدك، وحياة أمي تكدير مخصوص.

بعد نصف ساعة بدأ طابور الذنب، عاد المساعد فرحات ينادي: للأمام جرى... المخلة أعلى الذراعين... للخلف در... شمال در... للخلف در... تمرين نمره 9... نمره 6... للأمام جرى... للأمام زحف...

والمخالى على ظهورهم زحفوا كما لم يزحفوا من قبل، جلسوا القرفصاء ووقفوا، وكرروا الجلوس والوقوف عشرات المرات، والمخالى على أكتافهم أو حاملين لها أعلى سواعدهم، في الواحدة ظهرا بدأ الجنود في التساقط وهم يلهثون بعنف، وقد بلغ الإجهاد بهم مبلغا شديدا، سقط بعضهم مغشياً عليه، لكن أحدا لم يأبه بهم... قبل أن يسقط عبدا لله، ناداه الملازم أول احتياط محسن عبد القادر:

- تعال يا عبدا لله... قام إليه جريا...
- خذ تسع عساكر وروح هات الأكل...

نظر إليه بامتنان فضحك: اجري قبل ما فرحات ينادى عليك.

في الثانية ظهرا وكأنما أحد الضباط تذكر أن اللواء في انتظار أوامر التحرك إلى الجبهة، وأن الكتائب يجب أن تكون جاهزة للرماية بالنيران ضد طائرات العدو قبل أول ضوء... نودى على الصول عبد المسيح:

- اجمع العساكر يا حضرة الصول.

-ج-

من طابور الذنب شكل الفوج 89 للكتيبة الثالثة، ووزع بقية الجنود على السرايا الأخرى، نادى عليهم الصول عبد المسيح، وهم يقفون أمامه متهالكين في إعياء: انتم بقي الفتوات بتوع الكتيبة، القرنات، العيال المدلعة بتاعة بابا وماما، اللي مقطعين السمكة وديلها، وحياة أمي لأكون حاطط سريتكم على شط القنال مباشرة، وأشار بيده لأعلى، أول حاجة يقابلها الطيران الإسرائيلي في سكته، أنا راح منى ثلاث كتائب، عشان كل واحد منكم ينام في حضن امه لحد الفجر.

جاء عبد الله بالطعام، وبدأ الجنود في التململ، وبدا للصول أنه لن يستطيع كبحهم عن التدافع نحو أزانات الأرز الساخن، وقبل أن يقرر صرفهم، سمع الجنود قائد معسكر التدريب ينادي على العقيد عادل صبري بصوت عال:

- يلا يا عقيد عادل صبري، نادي على اللواء بالإخلاء...

كان العقيد يقف على بعد خمسين متراً يحادث قادة سراياه، استدار إلي قائد المعسكر متجهاً نحوه: يا افندم أوامر التحرك لسه ماجتش.

- يا سيادة العقيد وجودكم هنا انتهى، اتفضل خد اللواء وغادر المعسكر.

رفع العقيد كلتا يديه وكأنه في ورطة: يا سيادة العميد يعني أخرج باللواء في الشارع، اقعد بالعساكر تحت الشمس.

صاح به العميد غير راغب في المناقشة:

- تقعدهم في الشمس تقعدهم في الضل، أنا كلامي واضح.

- ح اضطر أخليهم يخندقوا، احنا ح ندخل خط النار بعد ساعتين من التحرك، ولازم نجهز خلال خمس ساعات... مقدرش أجهدهم دلوقت في الحفر.

لم يكمل إذ أن قائد المعسكر صرخ بعنف:

- انت ح تشرح لي حالتك النفسية ولا إيه، كل الكلام ده ما يهمنيش يلا يا حضرة الضابط، خد عساكرك واخرج بره المعسكر.

أنزل العقيد يده مستسلما، نادى على رئيس عمليات اللواء المقدم غبريال لإتمام عمليات جمع الجنود وإخلائهم. لم يكن أحد من الفوج 89 قد ازدرد شيئا من حفنة الأرز التي في يده حين نودى على الكتيبة بالتجمع، جرى الجنود هربا من التكدير، وصرخات صف الضباط تُنَادى عليهم بالحضور في ساحة أرض الطابور، قاوم عبد الله فوجه المتعب دافعا إياه

نحو الطابور: يلا يا دفعة... يلا يا واد انت وهو على الطابور، مش ناقصين تكدير تاني.

نودى عليهم بالتحرك خارج أرض المعسكر، خلال نصف ساعة كان اللواء يعبر بوابة المعسكر، وجنود السرية ينظرون إلى طعامهم في حسرة، وقفوا بجوار ناقلات الجنود في حيرة، صعدت بعض الأفواج إلى الناقلات في فوضى وبقيت الأخرى تفترش الأرض.

أصدر العقيد عادل أوامره بالتحرك، تدافعوا صاعدين الناقلات، خمسة كيلومترات، ثم تهادت العربات ثانية على حافة الصحراء، وعاد الجنود ينزلون، وقد صدرت لهم الأوامر بتغطية الناقلات، وعربات المدفعية، والمدافع، والرادار بشبكات التمويه. ساعتان ونصف مضت قبل أن يتناول جنود الفوج طعامهم، تدافعوا نحو الطعام في جوع ونهم، الأرز البارد، وقطع اللحم بدهنها المتجمد، وسائل مخاطي من الكوسة المطبوخة التي تلاشت معالمها، البعض أكل بأصبعه، والبعض صنع من ورق علب السجائر المقوى ملاعق للطعام، وعلى الأرض تناثر من الطعام أضعاف ما أكلوه، ولما انتهوا استلقوا حول حوائجهم جائعين.

- العساكر جعانين يا افندم

ضحك الملازم أول محسن وقال لعبد الله: عارف... تعال.

سار إلى مقدمة القول، وأمام المقدم غبريال أشار محسن إلى عبد الله كي يذكر شكواه: قول يا عسكري؟

قاطعهما المقدم مشجعا: قول يا عبد الله... عايز إيه؟

أدى عبد الله التحية العسكرية واقفا في انتباه:

- عساكر الفوج جعانة يا افندم.

كمن لدغه عقرب هتف المقدم:

- جعانة... أكلوهم... هو فيه حد يجوع في كتيبتي.

- لا يا افندم، دي سرية طابور الذنب مالحقتش تاكل.

- اصرف لهم أكل فورا، اصرف تعيين قتال، تعيين بارد، معاهم سجائر ولا لا!؟... أكلوهم، ده احنا قدامنا ليلة كرب.

بينما كان عبد الله يجهز التعيين نادى عليه الملازم مدحت عبد الجواد الصافي:

- بسرعة يا عبد الله أوامر التحرك جت.

انتقل الخبر كالهشيم، نودى عليهم بالانصراف ثانية، فتفرقوا في تخاذل والضيق يخقنهم، بعد أن سرت بينهم الأنباء بأن التحرك سوف يبدأ بعد غروب الشمس، لتأمين اللواء ضد الطيران المعادي.

قال عريف مؤهلات طارق صبري بنبرة متعالية: طب ما الكتيبة عريانة، إيه يعني اللي حاميها من الجو. واستطرد: ما احنا مرصودين دلوقت منهم. يا ابني دول بيطلعوا طلعتين طيران في اليوم على ارتفاع 25 كيلومتر، يمسح المنطقة من السويس لبورسعيد.

سرت أمواج القلق بالفوج قبل أن يستطرد ضاحكا بسخرية: أوعى حد يكون فاكر إن احنا ح نسقط الطيران الإسرائيلي، ولا ح نوقع الميراج زي العصافير؟

قال المبروك متسائلا: (أمال) ح نعمل إيه؟

أجاب مستفزا الجميع: احنا مهمتنا تطفيش الطيران الواطي، والاسترحام على نفوسنا... عشان صواريخ سام (2)

تصطاده، وعمر سام (ح) ما اصطادت عصفوره، مش حتى طيارة ميستير.

كان تعاليه ونبرته تنم عن عالم ببواطن الأمور... هذه المرة دفعه عبد الله بشدة، فسقط جانبا وهو يقول ببرود: تسمح تسكت عشان ننام.

كانت المرة الأولى التي يتعرف كل منهم على الآخر... هب طارق صارخا: إزاي تتجرأ وتزقني يا عسكري، انت عارف بتكلم مين؟

- يعني بكلم قائد الفرقة يا خي.

وتركه جانبا... حاول طارق الاشتباك معه لكن أحدا لم يمكنه، تفرقوا بحثا عن دقائق للراحة، وقد خفف فعل عبد الله من عبء حديث العريف عليهم.

ربض اللواء على الرمال نهبا للقلق، يتطلع أفراده إلى الاتجاه الذي تأتي منه أصوات الانفجارات خافتة، فينتابهم التوتر، وكلما مضى الوقت أمضهم الانتظار، فإلى هناك سوف يتحركون بعد قليل، وكلما عنَّ لهم التفكير في الساعات القادمة، نفرت أعصابهم وأخذوا في الدوران حول أنفسهم، يتحركون في الأرجاء حول الناقلات، وفوق الكثبان الرملية، تغوص أحذيتهم الثقيلة في الرمال، ويدبون الأرض بأقدامهم كجياد تتأهب للركض تاركة آثارًا سوف تمحوها الرياح بعد قليل.

-3-

تحت ظل إحدي الناقلات استلقى عبد الله متوجعا، فكر في أنه سيذهب حيثما يأتون، ولم يلبث أن راح في نوم

عميق... في أول أجازه له بعد أن قضى خمسة وأربعين يوما متواصلة في مركز التدريب فوجئ بهم في داره، وجوه غريبة لنسوة وأطفال كانوا يتحركون بسهولة ويسر في ساحة الدار، عندما جلس على المصطبة قيل له "المهجرون"، أتوا من السويس وبورسعيد والقرى القريبة من القنال، فبعد أن فرغت إسرائيل من الجيش في 67 أخذت تقصف مدن وقرى الجبهة بضراوة، لم يكن أحد يريد الهجرة من دياره، بعدما أصبح التعايش مع القصف اليومي للجبهة أمرا معتادا، لكنها الحكومة التي أصرت.

في الأيام القليلة التي أمضاها بالقرية علم أن الأبنية الحكومية قد أخليت لهم، المدارس والوحدات الاجتماعية والطبية والبيطرية، والمجلس القروى، والدور القديمة الخالية من أصحابها، ودوار العمدة القديم ومدابن أثرياء القرية، والغرف الزائدة عن الحاجة والقيعان غير المطروقة، كان أغلبهم نسوة وأطفال وفتيات في سن الشباب، وشيوخ وعجزة، وقليل من الرجال والشبان العاطلين، تكدسوا في المنادر والقيعان الضيقة، عائلات بأكملها، وأسر كاملة تقاسمت الحجرات ببطانية أو ملاءة علقت على حبل، لتفصل بين أجساد متلاحمة مع حاجياتهم، أما حوائجهم فكانوا يقضونها في دورات المياه الحكومية المشتركة، يتقاسمونها في مركز الشباب مع أعضائه من لاعبي كرة القدم والطائرة، وقوت يومهم يحصلون عليه من الإعانات الحكومية، خمسة قروش لكل طفل وخمسة عشر للشخص البالغ، وعدا الملابس والأقمشة الرخيصة المصنوعة من التيل والكستور الرديء، وقليل من جوالات الدقيق وتعيينات الشاي والسكر والزيت التي لا تكفي.

قرب تجمعاتهم انتشرت الغرز الصغيرة، وظهرت المناضد والكراسي المصنوعة من خوص النخيل لأول مرة في القرية، وقُدِم عليها الشاي والقهوة والجوزة لشرب الدخان والحشيش في الخفاء، ولعب الورق والنرد والقمار وزجاجات البيرة والعرق، وكل موبِقات المدن الساحلية، ومع الوقت رحل منهم كل قادر على العمل، ولم يتبق سوى العاطلين والعجزة.

في دور الفلاحين ذهبت النساء للعمل منذ الصباح الباكر، في أعمال الغسيل والطبخ وكنس الأرضيات الترابية، وغسل القمح والذرة، وحمل الحبوب لماكينات الطحين وغيرها من الأعمال اليومية الصغيرة، وفي نهاية اليوم تَعُدْن بقليل من الطعام لأبنائهن، وقروش وبعض الملابس القديمة الممزقة يسترن بها عورات بناتهن.

مع المواسم الزراعية خرجوا للعمل في الحقول، تعثروا في البداية فقد كان البعض من نساء المدن، والبقية من قرى الصيد المتناثرة على القنال والبحر، كان انتشار الفتيات منهن حاسرات الرءوس كاشفات عن سيقانهن في ثيابهن القصيرة مع ظهور الغرز، مثار استياء أهالي القرية، ثم ما لبثت النساء أن ارتدت الطرح والثياب السوداء الطويلة، محاكيات القرويات، دون أن تتخلين كليةً عن الطبيعة الخاصة بنساء المدن والقرى الساحلية، طرحة على رداء ضيق أو إزار قروي أسود تَرِك مفتوحا يكشف عن مطلع نهود قوية.

حول أماكن إقامتهم ظهرت تجمعات واسعة من شباب القرية، يتطلعون نحو الفتيات والنسوة بنهم وصمت مشوب بحب استطلاع، تحول مع البعض إلى قصص صغيرة، علاقات ومِّشاكسات لا تلبث أن تتحول مع حالات السكر إلى فضائح

وحـوادث شـغب فيمـا بيـنهم، وتجـارة للمخـدرات والسـوق السوداء لأنواع الشاي والسكر والزيت، وغيرها من السلع التي شَحَّتْ في زمن الحرب.

في دار أبيه، قطنت إحدي الأسر في قاعة قديمة، فتح لهم بابها الذي يقع على الناحية القبلية، وبينما كان يتناول طعام العشاء مع إخوته وأمه، سُمعت أصوات شجار عالية تأتي من القاعة، هنيهة وما لبث أن تحول إلى صراخ نسائي، قفزوا إلى هناك، كان الكهل يصرخ غاضبا والخمرة تفوح من فمه، وهو يسـب ويلعـن كـل شيء، بـدءا مـن الأخصـائية الاجتماعيـة، والقرية وهؤلاء الفلاحين، حتى الحكومة والوطن والله ذاته.

- أنا بناتي شراميط؟؟ يحرق دين العالم... أنا أبيع أولادي، مفيش رب يحاسب الظَلمة، أتشردنا من أراضينا وتظلمنا في كل حتة... ما احنا كنا في بلادنا لاقيين اللقمة الحلال.

رأى عبـد الله طفلـة صـغيرة في الثانيـة عشرـة مـن عمرهـا تتقدم نحو العجوز، وثغرها يفتر عن ابتسامة مشرقة.

- هـدى نفسـك يابـا... هـدى نفسـك... دول بيضـحكوا معاك، هو انت غريب عنهم، وأخذت تربت بكفها الصغير على ظهـره. وكأن العجـوز قـد اسـتجاب لهـا فأخـذ يلهـث ويشـهق بالبكاء.

- كل جاموسـة بقـرة هنـا ينظـر لنـا باحتقـار ذي مـا نكـون جـرب... بنسرق عرقهم! ليه هـو احنـا يا ناس ما لناش بيوت وأحسن من بيوتكم دي، دا الواحد مننا كان ينزل البحر يطلع لؤلـؤ... قالهـا وهـو يهـز يديـه الاثنين معـا: لؤلـؤ يـا بقـر مـش

جلة[27]... وقام خارجا وعلى باب الدار زعق بعلو صوته: يا عالم يا بهايم... يا فلاحين...

قمن خلفه جريا؛ الطفلة الصغيرة وأمها وأختها؛ امرأة صغيرة في الحادية والعشرين من عمرها، في حين جلست فتاه في الخامسة عشرة بأحد أركان القاعة متكومة على نفسها تبكي، دفعته النساء للدخول، وهن يعتذرن في قلق للحشد الذي تجمع من الدور المجاورة، خوفا من أن يتحول تهور العجوز إلى اشتباك مع أهالي القرية.

خرج عبد الله وإبراهيم، يهدئان من روعه، وقع الكهل على الأرض والكحول يفوح من فمه، دفع بعبد الله جانبا في عصبية بالغة -لم يكن يعرفه-موجها حديثه لإبراهيم: احنا هنا عندكم من شهر، الباب والجدار، واحد، حد سمع لنا صوت.

هز إبراهيم رأسه نفيا وأخذ يطيب خاطره:

- معلش يا عم صديق اللي ما يعرفك يجهلك.
- لا... أنا بقول بأعلى صوتي، احنا أشرف من الشرف.

استدار ناحية حفيدته: بنت يا عيشة انت تعرفي حد من الشبان دول؟

صرخت: أنا يابا... أبدا ورحمة أبوي. وأخذت تبكي بشدة.

- أعطيت حد منهم صورتك...

شهقت: أنا...!! يا مصيبتي، يا فضيحتي. لطمت خديها واندفعت تبكي. لم تستطع الأم الصمت فأخذت تسب وتشتم من جرُأ على مس عرض ابنتها وكان هذا ما ينتظره الكهل فقد

---

27) جلة: روث البهائم.

اندفع إلى ساحة الدار الداخلية وعاد ومعه فأس صغيرة، وقف بها في وسط الدرب يتحدى من يجرؤ على سبها.

لَمَّح عبد الله للحضور بأن الرجل سكران، اقترب منه ببطء يحاول تهدئته، كاد أن يصيبه لولا أن أخوه إبراهيم أمسك به من الخلف، وبدون أذى أدخلاه إلى القاعة، وعندما علمت المرأتان بأن عبد الله أخو إبراهيم ذابتا خجلا، وأعلما الكهل من فورهما، وفي حين لزمت المرأة الصغيرة الصمت، وجلست الأخرى على مبعدة، ظلت الأم تتأسف له طوال بقائه بينهم، وتتأكد أنه لم يصب بأذى، وهي تصر على ألا يغادرهن دون أن يتناول الشاي.

-4

في الصباح أطلت عليه الطفلة الصغيرة خيرية بوجهها الأبيض المشوب بحمرة تقارب شعرها الكستنائي المسترسل طويلا خلف ظهرها، وثغرها الذي لا يتوقف عن الابتسام والضحك:

- صباح الخير يا سي عبد الله، ما تزعلش من جدي، أصله تعبان، وكلام الناس يخوف، السلام عليكم يا سي عبد الرحيم، أزيك يا خالة زينب، أنا طالعة السوق مش عايزه حاجة أجيبها معاى، راح تجى بكرة يا سي عبد الرحيم.

- أيوه يا خيرية، ادعى لنا يا خيرية.
- أنتم يا سي عبد الرحيم، ناس طيبين وربنا يبارك لكم.

صاحت بها أمها: امش وبطلى رغى يا مفعوصة.

- انت غيرانة ليه... والنبي ما حد زيهم في البلد، السلام عليكم.

رد لها الجميع السلام واستطرد عبد الله. ح تيجي بكرة يا خيرية؟

- فين يابا عبد الله؟
- الغيط يا خيرية.
- أنا طالعة مع عبد الرحيم الخولي، يا رب يكون عندكم بكره.
- لا يا خيرية اللي ح ييجي عندنا بكرة الحاج عمر.
- ده حظ إيه الوحش ده، والنبي لغيب وأجي بكرة أساعدكم.

ضحكوا... قال لها مبتسما: ده احنا نتبارك.

ردت الأم والطفلة معا: الله يبارك فيك يا عم عبد الله.

وأضافت الصغيرة: ربنا يعلى مراتبك ويهديك ويهدى سرك، ثم ضحكت تستطرد: ويسعدك ببنت الحلال اللي تهنيك، قرش يا امه أجيب حلاوة.

استنكفت المرأة ألا تفعل، فألقت في يدها في الخفاء بنصف قرش، صاحت بها: هو فيه النهارده حد يبيع حاجة بتعريفة يا مه.

كزت الأم أسنانها وهي تزجرها: يعنى هو انت بتاكليها يا حسرة، دا انت بتوزعيها على كل من يقابلك.

أجابت الطفلة العنيدة: خير يا امه خير.

* * * *

في المساء وسط ضباب الحشيش، أصر رضوان عبد الجليل، وأحمد عبد الحليم، وحسن مرعى، وهَزَّ بقية الحضور رءوسهم بالموافقة، على أن كلهن عاهرات... نساء المدن عاهرات، واستطرد حسن خليل كَفَهِّيم: وخاصة نساء السواحل. قالها بإيماءة أنجز بها كل النقاش، وطول ثلاثة عشر يوما هي أيام الإجازة، كمن عبد الله للمرأة الصغيرة يتابعها في صبر وترقب، مسقطًا عليها عينيه بنظرات صريحة واضحة، تخترق كل جسدها، كانت تكبره بثلاثة أعوام، ناضجة ضامرة الجسد قمحية اللون، في عيونها السوداء سكون البحر وعواصفه، جاء زوجها، بقي أسبوعًا أقامه معهم ثم رحل عائدا إلى القاهرة بحثا عن عمل، تجاهلته في البداية، تروح وتجيء في أنحاء الدار، تهرب منه، لكنه لاحقها بنظراته في صبر دؤوب، وجال في جسدها يتفحصه قطعة قطعة، لم تمض أيام حتى بدا عليها الاستسلام، وتلاقت نظراتهما في صمت، كلما مضى بهما الوقت كان يشعر بعينيه تغوص في عيونها، وكأنه يسقط في بحر لا قاع له، وهي تتلقاه أحيانا في غضب وعصبية... وهلة، ثم تعود ثانية لتستسلم لنظراته المكشوفة في قلق.

كلما اقترب ميعاد انتهاء إجازته كان يلح عليها في نظراته، بعد أن كان البدء عدائيا متكبرا واثقا أنه سوف ينال امرأة سهلة، صار ليله حلما يصرخ بالشوق، والتعب، والإرهاق، وتحولت نظراته إلى رجاء ووله، وشوق بارح، مرة شعر بعيونها تبتسم له فامتلأ بالأمل الجميل، في ظهيرة اليوم السابق لسفره أمسكت بخناقه هستيريا أن ينالها، وحديث الأصدقاء الصريح والمتكرر عن سهولة الحصول على نساء السواحل يدق ذهنه طوال الوقت، وكأنها دعوة صريحة منهم بأن يفعل.

- مد إيدك تنولها. هكذا قال له ابن عمه حسن.

قال في استسلام ومودة كاشفا عن وجده: وزوجها؟

انفجر الجميع بالضحك، عنفه رضوان: قوم يا ابن الكلب... قوم... انت رحت الجيش...!! قوم يا نطع يا ابن النطع من هنا أحسن (.......) يقف علينا.

- 5 -

نادت عليها أمه تسألها إن كانت ذاهبة لإحضار الزلعة، أن تحضر معها البهائم أثناء عودتها. خرج وراءها يتابعها عبر دروب القرية من بعيد، بعد أن عبرت الكنيسة رأته فأصابها الخوف، عند الزريبة وجدته أمامها قال مضطربا وصوته يعانده: البقّرة جوه مربوطة في آخر الفحل[28].

دارت حول نفسها في حيرة، ثم استدارت مختفية وسط عيدان القطن، وهي لا تدرك إن كانت ما فعلته صوابا أم خطأ، أما هو فقد رأى دخولها الغيط موافقة صريحة منها، سار خلفها، شعرت بخشخشة في عيدان القطن، لكنها لم تجرؤ أن تنظر وراءها، وبينما كانت تنحني لتفك البقرة من عقالها، شعرت به خلفها قامت جانبا، أمسك بها يضمها بعنف، دفعها إلى الجوالات الممتلئة بالقطن، وهي تهتف به أن يتركها دون جدوى، كان فتيا عفيا وقد فار دمه الحار، لم يعد قادرا على الشبق الذي ألهب عروقه، ضغط عليها بجسده وسط جوالات القطن.

---

28) الفحل: قناة صغيرة لرى للأراضي الزراعية.

كادت أن تختنق، دفعها إلى الخلف وهى تقاومه، ولكنه كان يندفع إليها بقوة ورائحته تغمرها تمزق خياشيمها، وأخذت السخونة تنتشر في أجزاء جسدها رويدا رويدا، كانت مهانة، وعندما عجزت عن المقاومة تجمدت تحته في سكون، ضمت ملابسها حول جسدها، وأشاحت رأسها، قبل أن يبلغ الذروة وحيدا شعر ببكائها، لحظتها لم يستطع أن يتوقف إذ كان مندفعا كالسيل، وعندما أفاق من نشوته وانقلب، قامت تزحف على أربع وهى تبكى بأسي وضياع، مدت يدها تبحث عن مقود البقرة كأعمى فقد شيئا، ثم استقامت تسير نحو الجسر، تابعها مندهشا ثم ما لبث أن حل الحزن والمرارة محل المتعة.

- 6 -

عندما استيقظ، كان أحدهم يهزه بعنف:

قوم... قوم اللواء ح يتحرك...

كان الظلام مخيما، والجنود تجرى باتجاه الطابور حيث اصطفت السرايا والأفواج. أعطى التمام من قادة الأفواج إلى رئيس العمليات الذي تحرك باتجاه رئيس أركان اللواء، العقيد عادل صبري، الذي تقدم للأمام مؤديا التحية لإعطاء تمام اللواء إلى قائده اللواء حسين الغمري، كان طويلا مستقيم القامة عريض المنكبين وجهه أبيض وشعره كثيف، نظر أمامه مستطلعا، ألفين من الجنود وصف الضباط والضباط وقفوا في انتباه، وقد خيم الصمت عليهم، عندما تحدث كان صوته

قويا هادئا، تشوبه نبرة الجدية والثقة، ازداد الجنود تماسكا، يستلهمون الثقة من قائدهم:

- دلوقت كل واحد فيكم أنهى تدريباته الأولية، اكتسبتم اللياقة البدنية اللازمة، اتدربتم على الأسلحة الشخصية، اتدربتم على منظومة عمل سلاح الدفاع الجوي، ومعنى المنظومة أن كل سرية، كل فوج، كل كتيبة من الكتائب تعتبر مع بقية السلاح، فريقاً واحداً يؤدى عملا كبيرًا، مهمته الدفاع عن منطقة من أرض الوطن المقدس.

صمت قليلا ورنين حديثه يتوالى في أسماعهم، استطرد وهو يؤكد على مخارج الألفاظ: معنى منظومة. أن كل واحد فينا سواء جنديًا أو صف ضابط، أو ضابطًا، دلوقت أحب أقول إن كلنا سواسية، كل واحد فينا يقوم بعمل معين، العمل ده جزء من عمل كبير، وكل ما أتقن كل واحد عمله، نحصل على نتائج أفضل، أول هذه النتائج تأمين حياتك الشخصية، ثم الدفاع عن حياة إخوانك في الفوج والكتيبة، ثالثا: وهو الهدف الأكبر؛ الدفاع عن الوطن ضد عدو لا يتوانى عن قتل الأطفال والنساء والعَّزل، إسرائيل كيان بنى على اغتصاب حقوق الآخرين، كيان بنى على التوسع، ولا يستطيع أن يتوقف عن التوسع، زي الجرثومة لا يوقف انتشارها ويقتلها إلا المقاومة، عايز أقول، النهارده احنا بندافع عن أرض الوطن (ارتفع صوته)، مفيش مكان لعسكري جبان، وهذا ستعرفونه جيدا على خط النار، الجبن والخوف أقصر طريق للموت، أنتم دلوقت أنهيتم فترة التدريب، يمكن كان فيه ضغط عليكم شوية، لكن دا كان في المؤخرة، في الجبهة لا مكان لإهانة جندي أو التصرف معه بشكل غير لائق أو غير قانوني، جنودي

كرامتهم في السماء، لأن كرامتهم من كرامة الوطن، لكن لازم يكون واضحً إن الضبط والربط، وطاعة الأوامر العسكرية بدون نقاش أمر ليس فيه جدال، والجندي الذي لن يطيع الأوامر ستقرر عقوبته في المحاكم العسكرية... وأضاف بصوت واطئ لم تسمعه السرايا البعيدة، وكل من يحاول الهرب ستكون عقوبته الضرب بالرصاص فورا، وسرايا البوليس الحربى عندها الأوامر بذلك... واضح...

سرت الهمهمات بين الجنود للحظات ثم عاد الصمت ثانية، أستطرد: المهمة الملقاة على عاتق اللواء تأمين إحدي المناطق التي يستخدمها الطيران الإسرائيلي ممرا لاختراق الجبهة العسكرية إلى الجبهة المدنية، سنصل مواقعنا الجديدة خلال ثلاث ساعات، وقبل أول ضوء لازم كل بطارية، كل فوج، كل كتيبة تكون أعطت التمام بالاستعداد وجاهزة للتعامل المباشر مع العدو... التعليمات التفصيلية ح توصل لكم في موعدها. أما التعليمات العامة فهي بوضوح؛ أولا... لحظة ما أنهى كلامي وتُعطى تعليمات التحرك، كل كتيبة تتحرك خلال خمس دقائق إلى الناقلات، مفيش ضوضاء، مفيش اضطراب، مفيش أضواء، أضواء السيارات الخارجية والداخلية ممنوعة، التدخين داخل السيارات فقط، ثانيا... احنا متوجهين للشلوفة، هذا المكان يستخدمه الطيران الإسرائيلي ممرًا لاختراق الجبهة، في الغالب مدخل القوة الضاربة لسلاح الطيران الإسرائيلي، ثالثا ... وعاد صوته للارتفاع: لازم تكون البطاريات جاهزة للعمل الساعة الرابعة صباحا، لأن الطيران الإسرائيلي سيهاجمنا الساعة الخامسة...

سرت همهمات بين الجنود تعبر عن ضيق الوقت، ثم ساد الصمت ثانية وعاد اللواء يصيح بأعلى صوته: كل جندي لازم يتعلم حاجة، لا يوجد شيء اسمه المستحيل، الجيش بيقولك اتصرف، قدامك ست ساعات، بعدها لازم تكون كل البطاريات جاهزة، في انتظار الأوامر بإطلاق النيران...

أعطيت الأوامر بالتحرك، وأخذ الجنود أماكنهم داخل الناقلات، وبدلا من أن تسود الرغبة بالتلكؤ، وتأخير موعد وصولهم إلى الجبهة، أمسكت بتلابيبهم رغبة عارمة بسرعة الوصول كسبا للوقت، وتجهيز مواقعهم قبل شروق الشمس، وقد أحكم القلق والترقب بخناقهم، انتظارا لقدوم الصباح ومعه الجحيم...

- 7 -

تحركت القافلة العسكرية ببطء، والمطر ينهمر بشدة، وقرب الكيلو 101 من طريق القاهرة السويس، أوقفت الشرطة العسكرية الثلث الأخير من القافلة، وعندما نزل الرائد هشام من سيارته الجيب يسأل عن أسباب التوقف، طالبه ملازم أول من الشرطة العسكرية بأوامر التحرك، صاح: قدام مع قيادة الكتيبة.

- طب انتظر هنا.
- انتظر؟! أنا لازم أكون مجهز الكتيبة قبل أول ضوء.

لم يكمل كلامه إذ اقتربت سيارة جيب من التقاطع، نزل منها عقيد من الشرطة العسكرية، هتف به والضجيج الهائل

لمحركات الـدبابات يـداهمهما: خـذ جانـب الطريـق بسرعة، وانتظر حتى يعبر لواء المدرعات الطريق...

استدار الرائد يلقي أوامره بالاصطفاف على جانب الطريق، لكن أحد السائقين نفذ صبره، فانحرف متقدما من منتصف القافلة على الطريق المعاكس، وخلفه تقدمت بقية الكتيبة، أصابت الفوضى الطريق، نـزل ضباط المدرعات يسبون ويلعنون غباء الدفاع الجوي، تعالى الصراخ، والشرطة العسكرية تهدد بإحالة سائقي شاحنات الدفاع الجوي للمساءلة، لكن حجزهم يزيد الطينة بلة، إذا ما وقفت الشاحنات كالجثث في عرض الطريق، كاد ضباط الدفاع الجوي يشتبكون مع ضباط المدرعات بالأيدي، والرائد يصرخ في ضباط الشرطة العسكرية: افهم يا سيادة العقيد كل مهمات الكتيبة، ومحطات الرادار، وحدات الربط، لازم تكون في وضع التشغيل قبل الفجر، تاخدوا السائقين! الساعة السادسة صباحا ح تلاقي مهمات اللواء خردة محروقة بالنابالم.

على أقصى الجانب الأيسر للطريق تقدم سائقو المدرعات في الاتجاه المعاكس، اندفعت الدبابات يسبقها هديرها يهز الأرض، وما كاد مرور اللواء المدرع ينتهي، حتى أصبحت البقية الباقية من الدفاع الجوي مبعثرة، ونصفها مغروزًا في الأوحال، بعد ساعة من العبث أشار عليه الملازم أول مدحت بأن تتحرك جميع الناقلات حرة الحركة من طراز كراز إلى الأمام، حيث تحل المدافع ومحطات الرادار، وتعود للمساعدة في جر العربات المغروزة.

نودى بالتقدم للأمام فتحرك ثلثا الكتيبة، حلت سلاسل الجر، وعادت الشاحنات مسرعة تناور للوراء، وبدأت من فورها

في سحب العربات المغروزة واحدة خلف أخرى يساعدها الجنود. في الثانية صباحا دخلت بقية الكتيبة الشلوفة، وفي انتظارها وقف العقيد عادل صبري، والمقدم غبريال يشد كل منهما شعره غيظا، لم ينتظرا تفسيرا، بل نودى على الضابط بسرعة توزيع السرايا على المواقع والبدء فورا في عمليات التجهيز.

- 8 -

على مساحة خمسة كيلو مترات مربعة وزعت الكتيبة، اتخذ الفوج 88 موقعه على الجناح الأيمن بجوار التبة السحرية، جاء موقع الفوج 89 في الموقع التالي، كان المطر ينهمر بشدة، وطوال الليل سابقت الأفواج الزمن من أجل الانتهاء من التجهيزات اللازمة، وعلى محيط دائرة نصف قطرها مائة متر، وُزِّعت سرايا وحدات الدفاع الجوي، المسلحة بمدافع (19 C K) الآلية عيار 100 مم، المضادة للطائرات سوفييتية الصنع، التي تعمل على الحاسب والرادار، بمدى مؤثر خمسة عشر كيلو مترا.

كان عبد الله ضمن طاقم تشغيلها البالغ عدده أثني عشر فردا هم أفراد البطارية، وحولها تناثرت وحدات الحماية المدفعية المساعدة من عيار (7، 12، 14.5) مم، والأفراد المسلحين بالصواريخ المحمولة على الظهر من طراز سام (7)، والقادرة على التعامل مع الطيران المنخفض. كانت المهمة رفع الأهداف لأعلى (3) كم، وبعدها تقوم الصواريخ من طراز سام (2) بالتعامل مع الطيران المرتفع، وفي المنتصف خندقت رئاسة الكتيبة.

الصيحات الغليظة والخلافات الحادة التي نشبت بين الجنود حول المدافع، وكيفية ضبط مواقعها، كانت تنتهي بإشارة من الملازم أول محسن عبد القادر وهو يدور مسرعا بين سرايا الفوج يحاول أن يطمئن... في السرية الأولى نشب صراع بين عريف مؤهلات طارق صبري وعسكري عادة عبد الله عبد الجليل رزق، كانا دائمي الخلاف حتى انتهى الأمر بأن هدده عريف السرية طارق صبري بالحبس.

كان المدفع موضوعا على انحدار شديد للجزء الأمامي من تبة الحماية، وكان لابد من ضبط أفقيته، وإلا فإن دقة النيران ستنحرف بالميل الحادث، بإصرار شديد أمر عبد الله أفراد السرية بإعادة ضبط المدفع.

صرخ فيه العريف: انت ح تشغلنا على مزاجك يا فلاح يا قفل!

- لازم نضبط خط النار يا افندم يا محترم. المدفع مش مضبوط.
- ح تضبطه انت إزاي يا فالح؟

- نشوف أرض مستوى... أشار إلى الخلف على بعد عشرة أمتار.

صرخ العريف: عايز تموتنا، ساعتين يا ابن المجنونة لضبطه، لا... ووجه حديثه لبقية الجنود باستمرار المدفع في موقعه الحالي

- دورني مكتب... قالها عبد الله بإصرار.

ربت العريف على كتفه باستخفاف:

- بعـدين... بعـدين يـا روح أمـك، وح ادخلـك السـجن كمان.

دفعـه عبـد الله في صـدره وانحـني يفـك المـرابض، قـائلا: مادام مش ح دورني مكتب دلوقت، أنا ح اضبط المدفع، يلا يا واد انت وهو، رجع المدفع لورا.

على الأرض المستوية جرى ضبط المدفع بسهولة، وبعد نصف ساعة كان المدفع ينتصب مستويا في موقعه الجديد، وقـد انخفـض منسـوبه بتراجعـه إلى الـوراء، فانعـدمت الرؤيـة المباشرة، وبينما انتشر الرضا بين جنود السرية، جرى العريف يحـل المـرابض ثانيـة، وهـو يضرب رأسـه في هسـتيريا، صارخا بأعلى صوته:

- وح نشوف الأهداف إزاي يا روح أمك ... يا ناصح؟

وقف عبد الله في طريقه ممسكا بخاصرته من الخلف ملقيا به في الوحل، حدثه بقرف تشوبه: هو احنا بنشوف طائرات، احنـا بضرب عـلى الـرادار، حمايـة المنطقـة اللي فـوق المـدفع مهمة المدافع المساعدة، دلوقت لازم ندى تمام بالاستعداد للضرب وبكره بالليل نشوف مكان أفضل.

لم يفهم أحد من الجنود شيئا، كل ما عقب به العريف هو سباب مقرون بالتهديد بالمحاكمة العسكرية: وحياة أمي وأمك لأكون محولك لمحاكمة عسكرية لعدم إطاعة الأوامر يا ابن الشرموطة، بس اصبر عليّ للصبح. نظر إليه في غضب وهز رأسه دون اهتمام منهمكا في اختبار عمليات التشغيل، وحتى أشـعة الشـمس الأولى لـم يعـط أي فـوج مـن اللـواء تمـام الاستعداد للضرب.

كانـت الصـيحات المتبادلـة بـين قـادة الكتائـب وقـادة الأفواج، عبر أجهزة اللاسلكي تنبئ عن وجود عطل في وصلات الربط، وعندما بلغت الساعة الخامسة نادى قائد اللواء على الكتائب بإعطاء تمام تجهيز المواقع المساعدة، وطيلة خمس دقـائق كانـت البطاريـات الثمانيـة للفـوج 89 تعـطى تمامهـا بالانتهاء من تجهيز المواقع، ما عدا البطارية الأولى التي لم تنته من تحميل صناديق الذخيرة.

صرخ العريف طارق بهسـتيريا: أخرتنا يا روح أمك عشان ضبط المدفع، أهو الطيران ح يهجم علينا، دلوقت ابقي خلي ضبط المدفع ينفعك لما تقف قدام المحكمة... نظر إليه في صمت وكأنه يقول لـه... مش وقته الكلام، واستدار يجرى، وخلفـه بقيـة طـاقم البطاريـة نحـو صـناديق الـذخيرة، كانوا جميعا ينقلونها وكأن شياطين جهنم تطاردهم.

عندما جاء الملازم أول محسـن عبد القادر يحـثهم عـلى الانتهاء من عملهم، اندفع نحوه العريف طارق شاكيا، واضعا مسـئولية التـأخير عـلى عبـد الله، صـمت المـلازم لفـترة ودار حـول المـدفع، وعنـدما اطمـئن لوضـعه غمغـم: خـلاص كـده كويس، ما دام المدفع مضبوط خلاص، يلا يا رجالة شهلوا في نقل الذخيرة، ابعت لكم عساكر تساعدكم.

جاءتـه إجابتان في نفس اللحظـة... فبينمـا أجابـه العريـف طارق بالإيجاب، أجاب عبد الله: لا يا افندم، احنا ح نخلص كما البرق، ونعطى سيادتكم تمام. هز الملازم رأسه واستدار، وهو يقول: بسرعة... بسرعة يا رجاله، ما فيش وقت.

عندما اختفى الملازم هتف طارق ببغض شديد، وبصوت لم يسمعه سواهما، ملوحا بأصبعه الأوسط: ح تعملي فيها بطل يا (......) أمك، فتوه، شيل على دماغك، يا عين اهلك.

كانت الساعة قد أصبحت السادسة، عندما أعطت البطارية الأولى للفوج 89 تمام انتهاء تجهيز الموقع، وفي قلق وترقب، وجميعهم يتطلعون نحو السماء، انتظرت الكتيبة نتيجة السباق بين إصلاح كابلات الربط والرادار ووصول طائرات العدو المهاجمة، كان الجميع يدخن الآن، تنفسوا عبق الدخان على لحم بطونهم، التي لم تتذوق أية أنواع الطعام منذ غروب شمس اليوم السابق، دارت عليهم سرايا التموين بالإفطار، فتناولوه فوق مدافعهم بين متمهل ومسرع وقلق، وعندما جاءت أباريق الشاي الساخن غمغم الجندي إبراهيم وهو يدق على بطنه منشرحا: دلوقت الواحد يموت مستريح...

رد المبروك: أيوه يا عم... فطرت وشربت الشاي، وبتحبس بدخان

- فكرك الواحد محتاج إيه؟ لقمة كويسة وينام شبعان.

صرخ عبد الله: قوم يا وَله، الرادار اشتغل.

قفز الجميع نحو لوحة الأهداف، شاهدوا فوق شاشتها السوداء نقاطا صغيرة بين محاور التقاطع، والدوائر المتمحورة، سمعوا أصوات الضباط من قادة الأفواج تتصاعد عبر أجهزة اللاسلكي، علموا أن الرادار التقط أحد الأهداف، وأن المقدم سمير السباعي لم يعطى تمام تشغيل مرسل كابل الرادار المحوري.

في السابعة والنصف بالضبط، وقف شعر رؤوس جنود الكتيبة، وجهاز الأنذار على المدافع يطلق صفيرا متقطعا، منذرا بوجود معلومات عن أهداف معادية، كانوا يواجهون الحرب لأول مرة.

انطلق الكل يجرى في فوضى واضطراب إلى مواقعهم على المدافع، في أماكنهم وقف الجالسون وجلس الواقفون، منتظرين طائرات الموت وقصفها الجهنمي، وقد شدت أعصابهم أوتاراً على الحد القاطع لسيف انتظار الموت.

على لوحات المُستقْبِل ظهرت الأهداف المعادية، ثوان طويلة مرت، وقد ساد الصمت الكامل الكتيبة، من قاع الفضاء أخذ يتنامى الأزيز الثقيل لصوت الطائرات المهاجمة، أرخى جندي مجند عادة عبد الله عبد الجليل جسده، منسابا على مقعده بالمدفع، وأعصابه تشتد رويدًا رويدًا، ولحم جسده يلتصق بالحديد يتشرب مسامه، طابق طبة ضرب النار على الهدف مرددا على مسامع الجندي مجند مؤهلات متوسطة نبيل المنوط بالزناد... اضرب... اضرب... اضرب يا وَلَه... اضرب يا وَلَه...

سمع العريف طارق صبري صوت العقيد ينادى عبر أجهزة اللاسلكي وحدات الرادار صارخا: وصلت الكابل؟ رد على يا ضابط يا خول.

صرخ طارق بجنون: اوعى... اوعى تعملها يا ابن الكلب...

نظر عبد الله إلى نبيل، وعيونه تطق بالشرر، قال بصوت خافت، وعيونه تقفز بينه وبين شاشة المستقْبِل:

- اضرب... اضرب... اضراااب........ كان نبيل يفهمه الآن، وكلما بلغت مسامعه كلمة اضرب خافتة، فهم أن إشارة الضرب

الحقيقية لم تعط بعد، ويداه تقبض على الزناد، جسده هو الآخر كان يتصلب بعنف واستماته...

سمع الطاقم صوت العقيد عادل على اللاسلكي: سرية الكهرباء.

- أيوه سيادة العقيد.
- الكابل وصل؟
- حالا يا افندم.

- يا ولاد الكلاب، تلات ساعات تقولي حالا يا افندم، عاد يصرخ، وقد بدا الاضطراب وفقدان الأعصاب واضحا في صوته:

- اللواء ح يروح في شربة ميه من غير ما يضرب طلقة واحدة.

على أطراف الكتيبة انحنى عبد الله يصوب مدفعه، وقد التحمت مسام جسده مع صلبه البارد... عندما ارتفع أزير الفوج الأول من الطائرات المهاجمة صرخ بأعلى صوته ونبيل يجاوبه من فوره:

- يا ابن الكلب... يا ابن الكلب... اضرااااااااب...

في غمضة عين كان الجو ينفجر بطلقات المدفع من عيار 100 مم... لحظات قصيرة كان بقية الجنود يتأكدون من حقيقة أن ثمة مدفعا من الوحدات بدأ بالفعل في التعامل المباشر مع العدو... بعدها كانت بطاريات الفوج 89، وجميع مدافعها المساندة من طراز 5 و14 و7 مم تعمل في فضاء الموقع جميعها...

تابعت بقية الأفواج باندهاش بالغ طلقات مدفعية الفوج 89، وهي تندفع إلى السماء، ثم تنفجر على مسافة ألفي متر... هلل جنود الفوج بطرب، كانت النيران تطلق في المدى، وهم ملتزمون حرفيا بمهمتهم... التطفيش... وقف العريف طارق صبري أعلى التبة، ينادى على فوجه بالتوقف دون جدوى، وهو يصرخ في عبد الله:

- دمرتنا يا ابن الكلب... الكابل الآلي لسه ما اشتغلش، وانت كشفت البطارية للطيران المعادي... ح تكشف الكتيبة كلها... دمرت الكتيبة واللواء كله... أنا ح اضرب عليك بالرصاص... لم يهتم به أحد... ساد الصمت لفترة... صرخ العقيد عادل صبري: البطارية 88 ما بتضربش نار ليه؟!...

صاح المساعد أول أحمد فرحات قائد البطارية، بثقة بالغة، سببها شعوره خالي المسئولية: التوصيل الآلي لم يتم يا افندم.

– (أمال) البطارية 89 بتشتغل إزاي يا حمار...

كان المساعد أحمد حسن فرحات عاجزا عن الإجابة... ظهر صوت عريض يشوبه التوتر وكأنه يدخل مكانا محرما عليه:

– احنا شاغلين مانويل يا افندم.

جاءه صوت العقيد صارخا: شغالين إيه؟

عدل عبد الله من صوته المضطرب: احنا شاغلين مانويل[29] يا افندم.

29) مانيول: يدوي

- احنا... انت مين؟؟

أجاب عبد الله وقد شعر بأن آخرته قد دنت: عسكري مجند عادة عبد الله محمد عبد الجليل رزق الفصيلة الأولى الفوج 89.

- فين الضابط اللي معاك؟
- حضرة الضابط في قيادة الفوج بيشغل الكابل المحوري يا افندم.
- ولا صف ضباط؟
- لا يا افندم...

حاول العريف طارق أن يشكوه للعقيد ليخلي مسئوليته، وبينما كان يحاول خطف جهاز اللاسلكي، سمع رئيس عمليات اللواء المقدم أشرف غبريال يصرخ في قادة الكتائب: شغل مانيول... يا افندي انت وهو...

دخل اللواء الغمرى هذه المرة على اللاسلكي هادئا:

- طيب يا حضرة المساعد فرحات ما تشغل مانيول... يا ملازم أحمد.

لم يكن هناك رد... ساد صمت لفترة على أجهزة اللاسلكي، كانت الانفجارات المروعة تدوي في الفضاء مخلفة وراءها الدخان المتصاعد واللهب... عاد رئيس الأركان ينادى الفوج 88 ثانية، لم يأته سوى الصمت، للحظة دخل أحد الأصوات على اللاسلكي ثانية:

- الفوج 88 انضرب يا افندم.

تنهد الرجل يتنفس غضبا: مين اللي بيتكلم؟

- عسكري مجند عادة عبد الله محمد عبد الجليل رزق يا افندم...

ساد صمت قصير، ثم جاء صوت اللواء الغمري:

- طيب يا رقيب عبد الله... تقدر تشغل البطارية نصف آلي؟

ساد الصمت... فعاود اللواء السؤال: تقدر يا عبد الله؟

لم يكن هناك بد من الإجابة، قال في حيرة: إزاي يا افندم؟

- هو الضابط محسن لسه مجاش؟
- لسه يا افندم.
- بتعرف إنجليزي؟

لم يستطع أن يجيب بالنفي، فكر كالبرق... اعرف إنجليزي...!! أيوه، أولى إعدادي وتانية إعدادي... وبّقّالي سنين لم تراه عيوني.

- أيوه يا افندم.

قال اللواء بهدوء: عندك زر التشغيل عاده؟

- طبعا يا افندم ما انا مشغل مانويل يا افندم.
- زر التشغيل على الحرف M دلوقت... صح.
- أيوه يا افندم.
- ارفع زر التشغيل عند الحرف HA.
- تمام يا افندم... ح اضرب يا افندم...

كانت الكتيبة كلها تتابع الحوار الدائر بين قائد اللواء الغمرى، والجندي عادة عبد الله محمد عبد الجليل رزق...

قبل أن يتدخل في الحوار الدائر عبر أجهزة اللاسلكي أحد الضباط الجدد قائلا:

- دي حروف روسي يا افندم مش إنجليزي.

هتف عبد الله: تمام يا افندم المدفع شغال نصف آلي.

- تمام يا رقيب عبد الله.
- عسكري مجند....

قاطعه قائد اللواء بصوت حاسم: تمام يا رقيب عبد الله...

قطع الحوار صوت نقيب سرية الكهرباء وهو يصرخ:

- تمام يا سيادة اللواء... تم توصيل كابل الرادار.
- يا عبد الله.

أجابه بثقة: تمام يا افندم شغال آلي يا افندم...

كانت سماء الكتيبة قد تحولت إلى حقل من النار... ارتفعت الطائرات المهاجمة لأعلى وقد باغتتها المفاجأة... تابعها الجنود وهي تنحني لأعلى تطاردها صواريخ سام من طراز (2).

* * * *

الفصل السابع

- 1 -

الشمس تشرق مرتدية وشاح السحاب... وجهها القلق يقشعر بلسعات البرد... والرياح على سفح الأديم الصخري خيول لاهثة، غير عابئة بتلك الجراثيم التي تحث السير باتجاه طبرق.

تسلق المتسللون متناثرين المسافة الواقعة بين قاع الوادي والطريق الأسفلتي، اختفى متجهما داخل مجرى السيل... نادى عليه أقرانه:

- اطلع يا وَلَه... اطلع يا عبد الله...

استدار أبو رحاب هابطا نحوه، صرخ عليه محذرا: رايح فين يا ابن المفحور؟

شاهده داخل النفق منحنيا يلملم الجثث الملقاة في فوضى، نظر المبروك مبتسما في إشفاق، بينما وقف نبيل مصعوقا، وقد خطر له أنه يسرقهم، أمطره الجميع بوابل من الأسئلة: بتعمل إيه؟

- يا ابن المجنونة! إيه جرى لعقلك؟
- يلا وحياة ابوك، يلا نمشي من هنا.
- هو دا وقته يا عبد الله؟

بابتسامة حزينة كان يجيبهم: يا جماعة الصبر... هم دول مش لهم أهل ح ينفطر قلبهم عليهم، نعرف أسماءهم عشان نقول لأهاليهم. اعترض الجميع يريدون الرحيل من فورهم دون جدوى، إصرارهم تراجع أمام يديه، وهي تجمع بهمة وإصرار أشلاءهم المبعثرة، وتعيد الهندام إلى جثثهم التي بعثرها السيل، لم يحتمل نبيل رؤية يديه تتسلل بين أجسادهم المنتفخة وملابسهم، تخرج أوراقهم، تراجع للخلف يقيء القليل الذي في جوفه، لم يقبل عبد الله قيئ رفيق السلاح، رفع نحوه رأسه، ونظر إليه رافعا يديه لأنفه يشمها بجلال غاضب:

- ريحتهم زي الورد، دول شهداء، وعمر جثة الشهيد ما يصيبها العفن، فاكرين إيه؟ اللي يموت في عمله شهيد، واللي يموت في الطريق شهيد، خايف من إيه انت وهو؟

مال ناحية الجثث يجرها من القدمين، ويصفها على الأرض، تقدم المبروك يمد يد المساعدة، وتبعه محمود وابو رحاب، حملوا الجثث السبعة لقطعة عالية من الأرض، ساعدهم نبيل وهم يغطونها بالمعاطف، في حين وقف صانع

الأحذية بعيدا، وإذا حدث واقترب أحد تراجع للخلف مبتعدا، أقاموا عليهم الصلاة، عندما انتهوا توقفوا لا يفهمون ما ينوى عملـه، دار بعينيـه في الفضـاء، ثـم اتجـه ناحيـة كومـة مـن الحجارة، قال موجها حديثه للمبروك: ندفنهم.

أحـاط الجثـث بالحجـارة، تبعـه الآخـرون، عنـدما انتهـوا صعدوا للطريق، قال البسيوني يتملقه: والله ابن حلال، ثواب الميت التعجيل بدفنه، ودي جثث تعفنت شوف لها قد إيه في الميه والعراء.

قاطعه بإصرار ورأسه يغلى دون علة مفهومة، حتى أنه بدأ يعنف نفسه بشدة أمام رفاقه: والله أبدا عمر جثة الشهيد ما تتعفن، طيب انت شميت ريحتها، هو نبيل ما نامش جنبهم طول الليل والنهار، لو كان فيه عفن، أو كانت جثة كلب ميت كان حد فينا قدر يهّوب تحت.

قاطعه نبيل ساخرا: يا عم أنا نمت زي القتيل، لو كنت نمت في قبر كنت نمت، الباقي عليك، وأضاف ساخرا: انت كنت نايم عليهم. ابتسم الجميع.

- كفاية، لكل جثة قرين، روحهم حواليك تترجاك، تقول ادفني.
- وحضرتك عملت فيها فُنْط ودفنتهم، يلا يا فالح.

لـم يسـتطيعوا أن يكتمـوا ضـحكهم الصـاخب هـذه المـرة، قـاطعهم: كمـان تسـخروا مـنهم، زمـان أرواحهـم بتـدعي لكـم عشـان الحجـرين اللي دفنـتهم بـيهم، حكم روح الشـهيد تظل تحوم حول جثته لحد ما تندفن، أنا عارف.

صـمت الجميـع وانهمكـوا في سـيرهم، تحسـس في جيبـه بطاقـاتهم وأوراقهـم الـتي تحـكى عـن شخصـياتهم... حـدث

نفسه... أنا عارف... جثة الشهيد عمر ما يصيبها العفن، تشمها تلاقي ريحتها ورد، عطر، أنا صفيتهم 24 شهيدا، جثث تركتها دانات الخمسمائة رطل، وقصف النابالم زي الفحم، واعدهم اسم اسم، وعمرى ما انسى اسم واحد فيهم...

سار على جانب الطريق، مبتعدا عنهم يردد في غضب... إبراهيم عبد الحليم... فلاح من القليوبية، محمد الخولى... فلاح من المنوفية، حسن محمد فرغلي... فلاح من سمالوط، بنوب دانيال... فلاح من أسيوط، عبد العزيز الجمل... مدرس من قنا، علاء عبد العليم صديق... منادى سيارات من الزيتون، رائد صدقي السيد راجل... وليس كل الرجال رجالا... حافظ أسامى الباقيين؟ ... طبعا... عن ظهر قلب...

غد السير يا ابن عبد الجليل، واتقدم للأمام، وارثى الصحاب اللي خطفهم الموت بدون اهتمام ولا تجلة

- 2 -

غد السير يا ابن عبد الجليل... اترك وراك الأسفلت والمدقات المطروقة... اترك وراك سلامة المدن إلى مراعى الخطر والموت... اخترق الرمال باتجاه الكتيبة... كل شيء حولك يحترق... الأسبوع التانى من يونيو عام 1969، أول يوم ترجع فيه الجبهة بعد إجازة... زئير الطائرات الإسرائيلية وصليات المدفعية المضادة للطائرات، وانفجارات القنابل تسرح في كل مكان...

عجرود المحطة قبل النهائية لمدينة السويس، القصف مسموعا كأنه فوق رأسك... على رصيف القطار قلت لإبراهيم: انزل يا وَلَه... طقطقت عيناه بخجل:

- أنا يا عبد الله فاضل لي يوم مبيت في الاجازة، ح اعدى على خالي في السويس النهارده.

تلوح له بقرف والقطار يتحرك مبتعدا، تلمح ضحكته الباهتة الخبيثة على وجهه اللئيم، تصرخ عليه: روح نام في حضن أمك يا عسكري يا عَرّسْ... تقفز لمؤخرة إحدي ناقلات الجنود الواقفة خارج مبنى المحطة بانتظار العائدين من الاجازات... قبل الكتيبة بعشرة كيلو مترات أصر السائق ألا يتحرك خطوة واحدة للأمام...

- طب وبعدين يا حضرة الصول؟

- يا بنى الطريق مضروب بالقنابل، اللي عايز يرجع معاى يرجع...

- طب وكان على إيه المجيء!

قفز جميع الجنود خارج الناقلة لم يرجع أحد، دقائق وانقسمت الكتلة الكاكي جماعات صغيرة، أخذ كل منها اتجاه وحدته، وحدي كنت بلا رفاق... تعرف طريقك يا ابن عبد الجليل؟ طبعا اعرفه... على بعد خمسة كيلو مترات، أربعة بيوت تقف على مفترق الطرق، مهجورة متهدمة، لا تزال آثار قصفها علامة، تأخذ المدق الترابي، تسير بلا توقف حتى تشاهد على مبعدة صفحة المياه الزرقاء لقناة السويس، على الضفة الشرقية ترى جنود ونساء الجيش الإسرائيلي على شاطئ القناة، يرتعون بلا مبالاة، ودون رادع... أسرع اذن يا ابن

عبد الجليل علك تصل للرفاق، أو عَلَّك تصل إلى حتفك الجميل...

إوعاك تموت بقصف مدفعي، أو دانة من دانات الهاون، أو صلية رشاش عوزي يحمله جندي مشاة... حتفك الجميل عرس تقيمه لك طائرات الميراج والمستيير... حتفك الجميل أن تمزق بشظايا صاروخ جو أرض... مجموعة طيارين مدربين جيدا... سرب يصعد من مكان مجهول خصيصا لأجلك... لأجل قصفك... انت وكتيبتك وسلاحك الوحيد المنوط بحماية القوات... لما القوات الجوية عاجزة عن المواجهة... ليه ينعم الطيارون بحياة مرفهة مبجلة، وأنا في الحضيض... أسرع الخطى يا ابن عبد الجليل... أسرع الخطى فالرفاق في انتظارك.

قبل الكتيبة بثلاثة كيلو مترات، كان الدخان واللهب يتصاعد من كل مكان... وقد ازدادت حدة القصف وكثافته، وبدأت القنابل تنفجر على مسافات قصيرة، يلاحقني صفيرها... أشعر بالقلق يأكل في جتتي... أجرى... أقفز إلى الحفر اللي تركها القصف... أهتف ملوحا بحقيبة الكتف الصغيرة... أموت بقصف مدفعي! مستحيل، إما جوى وإلا فلا...

صوت انفجار بالغ القوة، ثقل شديد يدفعك من الخلف للأمام... لحظات ما قبل النهاية؟ ... الاندفاع... السقوط على الوجه... لا ليس هو الموت... إنما أحد الجنود رمى بكل ثقله عليك، دافعا إياك إلى حفرة من مخلفات القصف، تبعد أمتارا قليلة عن منطقة انفجار إحدي دانات مدافع الهاوزر الثقيلة،

استدار ينظر بدهشة إلى الانفجار الحاد، والدخان المتصاعد منه...

صاح به الجندي: انت مجنون رايح فين؟

أجاب مندهشا وهو ينظر إلى موقع الانفجار: رايح الدفاع الجوي.

لم يسمعه، جذبه بعنف: تعال اجري وراي...

قفز يسبقه ناحية خنادق سرايا المهندسين... زحفوا داخل الملاجئ، سأله الجندي: انت جاي منين يا دفعه؟

- السواق راسه وألف سيف لازم يرجع، رمانا على راس الطريق على بعد 7 كيلو متر.

ضحك سائله وحدثه ساخرا بصوته ذي الرنين:

- سواق انهزامي، كان لازم يوصلك لهنا.

لم يشتم عبد الله رائحة السخرية صاح:

- أقوم لازم أوصل الكتيبة فورا.

سأله محدثه مندهشا: ليه وراك حاجة مهمة؟

- القصف فوق راس الكتيبة بالضبط.

ردد محدثه عبارته وهو يستلقي على قفاه من الضحك: القصف فوق راس الكتيبة بالضبط، وعايز تقوم تروح هناك، زعلان أحسن يفوتك نصيبك منه، طيب يا أخي ده ادعى إنك تقعد... واستطرد في جدية مبقيا على ابتسامته: أقعد أستريح، دخن سيجارة وانا أعمل لك شاي.

أوقد نيران قطعة سبرتو جاف تحت كوز الشاي، وهو يقول بسخرية: إيه يا دفعة عامل فيها عنتر، ماشي وسط

القنابل ولا حد عاجبك، قيس يستعرض سلاحه قدام خيمة الحبيبة، الأخ اسمه إيه؟

- عبد الله.

حدثه هذه المرة بجدية: مستغنى عن حياتك ولا لابس حجاب الموت، ثوان وكنت رحت فيها، مستعجل على الموت من أجل الوطن.

أجاب باستهتار، وهو يلاحظ السلسلة التي تحوي رقم محدثه العسكري، وجوارها يتدلى صليب فضي صغير: الموت ح ييجي ولو البني أدم مستخبى في حجاب مستور...

عاد مضيفه للسخرية: يا سلام، يا أخ بلاش استهتار...

سأله عبد الله: اسم الكريم إيه؟

- منير.

شكرا يا منير، والأخ منين؟

- من الباجور.

انتبه عبد الله وتحدث مبتهجا: الباجور... معقول ده احنا بلديات.

- ليه يا عبد الله ما كنت كويس، هو انت منوفي؟
- منوفي وأفتخر، ومن قلب المنوفية، عصارة المنايفة.
- لازم منوف.
- تمام يا وحش، بلدنا جنبها... أنا من سدود.

- سدود! طيب دي يا عبد الله معرفة زي الزقت. وارتفع جرس صوته حاملا مزيج من السعادة والحياة: منوفي يا راجل، يا ريت كنت سبتك تموت، نريح البلد من واحد منوفي.

– الله الله، ليه هو انت مش منوفي ولا إيه؟

- منوفي، منوفي يا حبيبي، وقال مقلدا إياه... منوفي وافتخر، بس على إيه؟ مش عارف، فتح عبد الله عينيه المتألقتين واتسعت ابتسامته...

– انت بقي معصور من المنايفة.

أشار إلى داخل الخندق حيث جلس جندي ضئيل الجسم: أهو من شبين الكوم، مكفر سيئاتنا، يعني تعمل سيئات زي ما تحب تكتب على حسابه.

قال واقفا: يا أخ ما انت راخر منوفى، ح يروح منك فين، وعلى العموم أنا ابعد عنك تلاتة كيلو، تدخل الكتيبة تسأل على رقيب عبد الله عبد الجليل رزق، الفوج 89، تجد ألف من يدلك.

نظر إليه وهو لا يزال جالسا، باندهاش ضاحك: يا أخي كتيبة إيه، الكتيبة زمانها أُبيدت، تلات أيام والطيران الإسرائيلي والمدفعية الثقيلة شغالين قصف فوقها. مزعلين الطيران الإسرائيلي في حاجة؟

لم يستجب للممازحة، سأل منزعجا: اللواء الثامن... معقولة!

– بالتحديد قصف مباشر.

– ياه، طيب يا أخي وسايبني قاعد...

نظر إليه مستغلقا: معاك حق... كنت أسيبك تموت

– أشكرك بس السلام عليكم.

حـاول أن يبقيـه دون جـدوى إذ أصر عـلى الرحيـل، لـم يتوقف عن الجري باتجاه الكتيبة، في هذه المرة قطع الثلاثة كيلومترات الأخيرة عدوا...

* * * *

كانـت الحرائـق تشـتعل في كل مكان، وقـد غـطى الـدخان الكتيبة، والجنود مبعثرون على الأرض في إجهاد وإعياء بالغين، وقد ارتسمت على وجوههم معالم الذهول... ناداه صوت به رنة غامضة: عبد الله... عبد الله... كان المساعد عبد الوهاب الضبع، لم ينطق بكلمة سوى أسمه ولم يفهم، استدار باتجاه مقر القيادة متوقعا كارثة، لم يكن الأمر يخص قدومه متأخرا عن تمامه بساعتين.

من عـلى بعـد مائـة متر لمحهـم، كتلـة رصاصيـة داكنـة ما لبثت أن اتضـحت. خطـوط عريضـة اصـطفت عـلى مسـافات متقاربـة، جـد السـير ثم عـاد يجـرى، كانت الجثـث الـتي قضى أمرها قد صفت بعناية وغطيت ببطانيات الجيش الداكنة...

... مين اللي مات ومين بعده حي، أحـزن يا أبو زيد الموت كان هنا وفر... كان لازم أكون معاهم. صف طويل من الجثث. عشرات الجرحى والمصابين... اتمهل قبل ما تمد أيدك وترفع الغطاء تكشف عن الموت والدمار... الجثة الأولى...

صرخ ضـابط حـديث برتبـة نقيـب: بتعمـل إيـه عنـدك يـا عسكري؟

تراجـع ينظـر إليـه برجـاء، نـادى العقيـد عـادل صبري عـلى النقيب:

- اتركه يا سامح. هز العقيد رأسه لعبد الله وقال بتعاطف: شوف يا عبد الله... أشار للمساعد جميل عبد المسيح: يا جميل... عبد الله ح يتعرف عليهم، وسجل اللي ح يقوله لك، اتعرف عليهم يا عبد الله.

... طبعا ح تعرف عليهم... كل واحد فيهم حتة من جتتى، كل واحد أكلت معاه عيش وملح، كل واحد أمه طبخت لنا جماعة... كل واحد جه بلدنا... كل واحد لحمة اتغرز في صلب المدفع مكان لحم التانى، كل واحد اتغطى ببطانية رفيقه لما كان البرد أشد من الثلج، يدفي بنفس الآخر... بصوته، بنفس السجائر، ينفخها في كباية الشاي، تلف علينا واحد واحد وتدور، بالغذاء اللي كنا نطبخه سوا... كان حد يستجرى ياكل وحده... أتعرف عليهم؟ ما أنا عارفهم...

... إبراهيم عبد الحليم فلاح، جندي عادة، يشتغل بالمواسم عند أصحاب الأراضي، كفه وقدمه الخشنة دي الشقوق فيها عرض الصباع، لون شقوق الأراضي البور، تدل عليه وبلا شك، هو تالت الأبناء لأب له من الأولاد ثمانية، ولا يحتكم على تلات قراريط، عمره ما فكر في الزواج لأنه لا يحتكم على مليم، ولما يجوع كان يقتات على اللِبان، اللي ينمو شيطاني مع البرسيم...

وهذا الشحات محمد الخولى... فلاح، وجندي عَادة، يشتغل راخر نفر بالموسم عند أصحاب الأراضي، مقابل أربعين كيلة قمح، وتوب قماش يستره، وخمسة جنيه يصرفها على الدخان والمعسل، أما يوم الخميس؛ يوم ذبيح اللحم في البلد كان يعدي عليه وعلى داره غم، لأنه كان يمضي اليوم بدون طبق رز أو حتى خبيزة شايطة... عمرة ما صرف قرش

من فلوس الجيش كان يحاصر نفسه مع الجوع في زنزانة الزمن، وفي الإجازة ينزل على أمه يعطيها الفلوس، عشان تصرف على تلات بنات وولدين...

وده محمد فرغلي من سمالوط. التاني في أخواته، لأب عنده تلات فدادين، ورغم أنه خاطب بنت خاله، وكان يعزها، كان يقول الموت في الحرب أشرف من إني أموت ضحية تار قديم، وبرغم أن وجهه كله محروق، ومش باين له ملامح إلا إني أعرفه من جسده المهاب ومن خاتم خطوبته... آه... خد يا حضرة المساعد عبد المسيح أسمها محفور عليه... صابحة. يا ويلها لما تعرف...

وده السيد رياض القط... جندي مؤهلات متوسطة، منوفي ولا يعمل، قبل الجيش كان عايش في بحر من الحشيش، اللي كان يكسبه يصرفه على الكيف، جسمه المنحول جلد على عضم وعروق إيديه النافرة، وقلبه المليان بالكراهية لكل شيء، أخوه اللي سافر الكويت من غير ما يرسل أي مساعدة لأبوه اللي متجوز اتنين على أمه اللي ماتت وهو بعد في اللفة...

وهذا عبد العزيز الجمل... آه... أصرخ بعزم ما في وسعك... آه... يا عبد الله أبكي وشوف حتة تسند عليها جسمك المنهار... إزاي يا جميل الوجه يدمروا الجمال في وجهك... هذا الفم المفتوح، صمت أكيد على صرخة... آه... وهذه العين المفرغة من الحياة، وهذه البشرة المحروثة باللهب، وجبهتك تلك التي طارت وسط الدمار، ومعاها شعرك الغزير... آه يا عبد العزيز...

- هو انت تعرفه؟

صرخ عبد الله: ده عمره ما عبس في وش حد، ولا رفض لإنسان طلب، لو فتحت قلبه دلوقت ح تلاقيه لبن حليب. انظر المنكب العريض، والسواعد المفتولة، والقامة الطويلة، والقوة اللي تهد الجبل، وصبر الجمل، عمرها ما فكرت في أذية حد...

فين هي جبهته. ح تدفنوه من غير جبهته... اسحب الغطا... أيوه أشوفه أنظره... تقولي أعرفه... اكتب بمداد الدم... إبراهيم حسن العطار... جندي مؤهلات متوسطة وفلاح نفر مياومة، ساعات يشتغل على الجرار، أبوه مات صغيرًا، ولم يترك لهم هو وتلاته شيئًا، أمه صارت ضريرة، أخوته رحلوا هنا وهناك، وكان غرضه يتجوز بُنَية طيبة تخدم أمه في الدار... راح ابنك يا أم إبراهيم، علّ معاش الحرب يعوضك؟!

وهذا سالم شعبان محمد شعبان... جندي عادة من قليوب البلد، أول ما فتح عينيه على الدنيا، كان لأمه مكان معروف أمام سور المدرسة، وابور وطاسة وحلة تعمل فيها الفول والطعمية، أول شيء عملته، فتحت القاعة الوحيدة بالدار اللي لها واجهة على الشارع، عملت دكان صغير، لما جاب معاه الخير طمع فيها أخوها الكبير، اغتصبه منها، طردها، رجعت بعدها للمكان اللي فتح عينه عليها وقعدت قدامه؛ سور المدرسة، تبيع الفول وتقلى الطعمية لأولاد المدارس...

وهذا نبيل عبد السلام مرعى... جندي مؤهلات متوسطة... حريف كورة شراب، قامته القصيرة، جسده الضئيل، راسه اللي دايما راميها قدامه كأنه يقيس بيها حجم الأشياء، والسؤال عن

إيه تكون، اتربى في الشوارع، لأن الشقة اللي تعيش فيها أسرته لا تسع هذا العدد من البنات والبنين، عايشين في حارة من حارات شبرا في أول دور، شقة من حجرتين، والباب مفتوح يطل على الشارع، أبوه الموظف الصغير في دائرة محفوظات، كان يرجع عايز ينام الضهر، مراته لأجل ما تريحه كانت ترمى العيال في الشارع ما تسأل عليهم إلا في معاد الأكل... كان مشاغب، سواء مع الأشياء أو مع البشر، لا تستطيع أن تعرف الفارق في اختياره للأشياء، طيب أو شرير، حرامي محتال، محترف نصب أو فاعل خير، لأنه كان في اشتباك دايم مع الناس، وأيده عمرها ما كانت ترتفع للقتال من غير مفك، يحل ويربط في الأجهزة، لأنه كان فنى تليفزيونات، يلقط رزقه من هنا وهناك، مرة يصلح الحاجة أحسن من أصحابها الأجانب، ومرة يمسك السلك يقعد يوصل في دوائر الجهاز ، يحرق له عشرين مقاومة لحد ما الجهاز ينطق وهو يضحك.

- الجهاز ده خمسمائة مقاومة، إيه المشكلة لما يتحرق عشرين، هو يعنى الجحش صاحبه ودانه مضبوطة ع السمفونيات... تلاقى محروق 50% من مقاومتها... اتكل وهات الفلوس... وإن ما معكش مش مهم. فيه رب أهم.

وهذا حسن محمد عبد الرازق الشهير بمحمد الاقرع... جندي عادة بلطجي، وحرامي، محترف مهاجمة المنازل، وتخصصه هجام، لما تزنق معاه يتاجر في الحشيش، علامات القتال على النواصي والحوارى السد... أهه... واضحة... بشرته المحروقة بمية النار... ضربة السكين بطول الخد وعلامات الجنازير، و فخد متشرط بمشرط حاد، وأثار ضربات

"بَشّل"[30] عميقة متوالية، تركها صبيان تجار المخدرات في الحافظية، علامات على وجهه، لما حب يقاسمهم بيع الحشيش... صلبوه على عمود نور، وكتفوه بالسلاسل في عز الضهر، ونزلوا فيه ضرب بالجنازير، ولما لم يتب ربطوه على عريش عربية كارو وشرطوا له رجله اليمين، تركوه حتى طلوع الصباح ورجله تنزف دم، وقبل ما يقبض روحه ملاك الموت حملوه لمستشفى الساحل القريب، وقالوا إنهم قرايب له، ثم تركوه وتركوا له كيس قديم فيه خلجات... من ساعتها يقول: "نسيت من أين يذهب الناس لشبرا... سرحت في ترماى العباسية والسيدة زينب والمطرية أبيع فلآيات وامشاط ودبابيس، الهم مش عايز يفوتني، لقيت في بيوت العالم المسافرة صيد ثمين"...

لما حاول ينفش ريشه على الفوج، أتصدى له الرفاق، واظهروا له حمَار العين، هددوه بالسجن العسكري إن مد أيده وسرق شيء، من ساعتها وفيه اتفاق معلن وواضح، يسرح بعيد عنا يلقط رزقه زي ما قال..." يا جماعة، الفوج دا بيتي وداري وأنتم أهلي وأخواتي، وأنا ما لي في الدنيا أهل، هو فيه بني آدم يسرق أهله، أو يمد أيده على حاجة من حاجات بيته"...

ياهو... سليمان الدبس... كَيَيَف حشيش... جندي مؤهلات متوسطة... وعامل خراطة م المطرية، يشتغل في شركة مصر للأدوية... مهرج كبير، وأحيانا ممثل ولاعب كرة، وأحيانا يصيبه الجنون، يدور يلف يصرخ كطير مذبوح، يهّوش

30) بَشّل: جمع بشلة-سلاح من موسي حاد، يستخدمه البلطجية.

في الفضاء بخوف، وكأن عين خفية تحدق فيه، أحيانا يصيبه الاكتئاب، ولما يصفي تلاقي إنسان وديع لا يؤذى نملة، طب ليه يا سليمان جرى ما جرى... وليه يوم في الأرض ويوم في السما؟

- قدمت في الكشف الطبي شهادة بأني أمضيت في مستشفى المجانين شهرين... قال لي عميد طبيب: ليه؟ سيكوبتك ولا مصاب بعقدة فرويد. قلت له فعلا أنا عندي عقد كثيرة، ولكن لما استفهمت منه إيه المقصود من عقدة فرويد، قال ابن الحمارة "حب الابن لأمه".

قلت له: مين في الدنيا م يحبش أمه... يعنى حضرتك مثلا بتكرهها!

ضحك اللئيم: طب يا سليمان م انت عاقل أهو، وبجح كمان، يلا بلاش دلع... غيره.

... الله! طيب هو يعرف إيه عن حياتي؟؟ أنا تاسع ولد في عيلة عددها حداشر فرد، ما تجوزش فيها حد... يعنى لما استني في الطابور، اتجوز بعد عشرين سنة، أبوي نجار إيده زي خُفْ الجمل، لما حاول يعلمني مهنته كان بيضربني القلم يرميني من الحيطة الشمال للحيطة اليمين، في مرة منورتش الدكان في الليل، حدفني بالشاكوش، عمل لي جرح قطعي وتربنة في المخ، ورغم أن صنعة أيديه تيجيب دهب، فلوسه كانت تروح في شرب الكحول وأكل الكباب والكفتة آخر الليل، نشمها فقط، لكن لا تدخل جوف أحد... أمي بعد ما كانت ترصنا زي السردين على السرير، اللي نايم مزنوق، واللي مِدَّارى في ركن تحته، واللي صاحي يخوض في لحم اللي نايم ، كانت تقوم بالليل تشترى الكباب والكفتة، ويقعدوا وحدهم في ركن

الصالة، يبلبع كل واحد نصف كيلو، واحنا نايمين بطونا خاوية على الخلاء، صاحيين نأكل مع الملايكة ريحة اللحم المشوي، وإذا حد نطق صرخ أبوي فيه "ع الشارع يا ابن الكلب، انت زي الشحط، أخرج أصرف على ورحك، كفاية أني متاويك في حتة من البيت."

... الله طب جيبتونا ليه، فرويد لو نام ولحمه في لحم أخته كان مخه وقف، لو شعر بإنسان أخوه يحتك فيه كان عقله نشف، فرويد لو قعد سجين ريحة اللحم المشوي وبطنه على الطوى خمستاشر عام لازم يجن، صراخي ما حدش فاهمه، أنا لما تيجيلي الحالة دماغي توش بريحة الكباب، لحمة نيئة أبوي بعتني بها لأمي سوَّتها في الفرن وخبتها عننا، آه يا ولاد الكلاب تسرسيوا فينا زي الشخاخ... الله!! ... ما أنتم وإيمانات المسلمين كل واحد فيكم شخة هباب... كل واحد فيكم شخة شختها أمه، شوف البنى آدم بيعملها كام مرة في اليوم، وأهي بدل ما في بيت الأدب، تعملها في السرير، وتقوم وكلها قرف، وكأننا براز، دمل جديد واتفقع، حد فيكم يقدر يقول لي إيه الفايدة من حياة أسوأ من الموت والبراز، اسكتوا بقي وابعدوا عني لحسن تعبت... مين يعطيني حتة أفيون امضغها تحت ضرس العقل... أسكته، أخليه ينام، يغفل عن الألم لحسن لما بيفكر الدماغ يسخن...

يمسك سليمان راسه بأيده ويسرَح ويقول... الظاهر أنا ح تيجيلي النوبة ولا إيه، شاي تقيل يا عبد الله من بتاع بلدكم، قلت اسمها إيه سدود؟ حد يعيش في بلد اسمها سدود، هي ناقصة ما هي مسدودة من كل ناحية... الله يرحمك يا سليمان، طلبت الموت، أخدته...

... ويلى... اوع... أوعوا يا ولاد الكلاب، وانت كمان يا علاء، احبس البكا في القلب يا ابن عبد الجليل، لا تجعله يتنفس في الصدر، مين ح يبكى الفتى الطيب، مين ح يبكى كتلة الفحم الساكنة الآن، كنا جميعا نقول الطفل البريء علاء عبد الرحيم صديق... في البداية ظنناه مؤهلات وجهه الأبيض المحمر مرسوم بابتسامة ملائكية، الحاجبين التخان على جوز عيون واسعة تضم بحر من الصفاء، بؤبؤ شديد السواد، كل هذا يجزم إن الفتى كبير العَلامْ، وإنه من ولاد ناس كبار، في البداية العريف طارق سَلِّمه أحسن مكان في الفوج، وبطانيتين جُداد، لما عرف إنه أُمي لا يعرف الفرق بين الألف وكوز الدرة، وإنه يشتغل في وكالات بيع وتأجير السيارات، منادى، مغسل وعامل نظافة، وساعي يعمل شاي وقهوة، سحب منه كل هذا باحتقار...

أنظر احشاء الجسد القوى الربعة طلة خارج البطن المحترقة بشظية في حجم الكف... كنا نقول عليه ماكينة ديزل كاتربلر، يشتغل طول النهار والليل للغير بدون مقابل، فقط انت قول يا علاء أرمى نفسك في البحر عشان خاطري، يفعل وهو مبتسم، عرف فيه الصولات والضباط الخصلة دي، استخدموه مرمطون... ينادى عليه خمسة في وقت واحد، وما كان يقول لحد منهم لا... منقذه الوحيد كان الملازم أول محسن عبد القادر... كان يقول له: يا علاء متسمعش كلام حد، وأي حد يقول هات حاجة، قول له حضرة الضابط محسن قال لي ما تعملش حاجة لحد، وسيبنى أتصرف...

مفيش فايدة، لما يشوفه يلف كعب داير على الصولات وحضرات الضباط، يقول بغيظ: مش قلت لك يا علاء. وكان

هذا يزيد عليه الألم: معلش يا فندم أصل فلان عايز كذا، وفلان عايز كذا، المرة دي هم أصلهم... بس أنا.

حتى زملاء الخدمة تفننوا في الهرب من تلبية طلبات القادة، وأن حدث ففي تثاقل، لأن علاء ما كنش يعرف كلمة لا، تحولت مطالب ضباط وضباط صف الكتيبة، ورغباتهم غير المحدودة على رقبته خيوطًا مشدودة، تظهر الحيرة والأسف والاعتذار الكبير للغير على وجهه، كما يبان الانزعاج على وجه البراءة الجميل...

... أنا بضحك، شايفني ابتسم، طبعا لأن أبوه اللي هاجر من عشرين سنة من أسيوط، أخده في أول أجازه له، سافر به غصب عنه، وخطب له بنت عمه التي لم يرها من قبل ولو مرة، كان يقول أبوي ح يخطب لي بنت عمى من أسيوط.

- حلوه!!
- ما شفتهاش، بس المصيبة متعلمة، معها دبلوم تجارة، وأنا ما عرفش أفك الخط. كان الملازم أول محسن يقول: طيب إزاي يا علاء هو انت صغير!

تقولي بتضحك ليه، لأن هذا الذي يملك وجه الشمس، صار الآن مشوها فاغر الفاه، الرأس منحنيا على الكتف بشكل غريب، من غير الممكن أن يستقيم، يبدو أن الرقبة مكسورة، لأن لحم الذقن مصهور، خلف عظمة الترقوة، وأن الوجه الجميل صار بلا فم بلا عينين بلا أنف، والأذن واحدة غير موجودة والثانية ساقطة ناحية القفا، وأن الحاجبين الثقيلين لم يبق منهما سوى جلد أحمر وبقايا شواء، كل ده لحم أسود محروق ومتفحم، احملوا هذا الطفل السعيد، أراهن بعمرى إن علاء لما طلب قابض الأرواح روحه لم يعترض، ربما قدمها له

بشهامة وعن طيب خاطر، وابتسامة، وربما باعتذار عما تكلفه الموت من مجهود.

***   *   *   ***

أول هجوم للطيران الإسرائيلي المباشر على الكتيبة كان بعد ما عسكرنا بأسبوع... في البداية كان يعدى في مهمة على الجبهة يزرع فيها الدمار والموت، نرصده، نتحرك إلى المدافع في نظام، لا أحد يعاكس أحد، لا تقاعس عن الواجب، نشوفه جاي طيران منخفض نتعامل معاه، يرتفع تطارده صواريخ سام(2)، لحظتها تغمرنا الحيرة والتردد، نشعر أننا قمنا بواجبنا، لكن صواريخ سام(2) مصممة للدفاع ضد الطائرات التي تحلق على ارتفاعات عالية، لا تقل عن ثلاثة آلاف متر، ولا يستكمل سرعته القصوى (2.5)ماخ، إلا على ارتفاع سبعة كيلومتر، في البداية يتفادى الطيار المدى الفعال للمدافع المضادة للطائرات، ينقض من ارتفاع 3.6 كم، مع مناورة حادة حال رؤيته للصاروخ، تفلت الطائرة بسهولة، لضعف قدرة الصاروخ على المناورة على هذا الارتفاع.

ما كنا أدركنا أنه وضعنا في حسابه بعد، بعدها بزمن تعودنا أن ننصت لصوت كل مدافع الكتيبة ال (م.ط.) لأن خروج مدفع معناه حدوث ثغرة في حائط الدفاع الكبير... صحيح لم تسقط مدافعنا طائرات، ولكن كما كان يقول الملازم محسن، احنا جزء من منظومة كبيرة لمقاومة الطيران الإسرائيلي، لشل فاعليته، وحماية القوات المحيطة...

بعد أسبوع هوجمنا بشكل مباشر... طائرتان طراز ميراج (2)، رصدناهم على شاشة الرادار، دورة واسعة في السماء ثم

اختفيـا، وفجـأة مـن عـلى ارتفـاع شـاهق ظهرتـا في تشـكيل انقضـاض واحـدة خلـف أخـرى... هـوت الأولى وهى تـدور في حلقات حلزونية، وقرب الأرض استقامت بمواجهتنا مباشرة، وفي لمح البصر أطلقت صاروخين جو أرض باتجاهنا مباشرة.

قبل أن تدوى الانفجارات الرهيبة، قفز الجنود في جميع الاتجاهات؛ حبات الفشار على قطعة جمر ساخن، آخر من رأيتهم؛ حنفي بسطرمة، طارق صبري، رحمي الوكيل، جرى الثلاثة تاركين مدفعهم للفراغ، لم يبق من أسلحة البطارية سـوى مـدفع 100 مـم، ظـل يطلـق صَـلِّيات متتابعـة باتجـاه الطـائرة الـتي عـبرت فـوق رءوسـنا مباشرة... أذكـر ضـجيجها المدمر، وطلقات مدفعها الفيكرز، وانفجار الصواريخ ناشرة الدمار في الفوج.

سـبعة نـربض حولـه؛ نبيـل يـونس عطيـة، عبـد العزيـز الجمـل، مـاهر مسـيحة، عبـاس العبـد الشـهير بعنـتر، أحمـد عباس، محمـود الأسـيوطي، صرخـت في عبـد العزيـز الجمـل: المدفع ال 14 مم تعرف تشغله؟

- روح أنت... انت تدربت عليه.
- والمدفع؟

دق جهـاز إنـذار المـدفع بوجـود معلومـات... دفعـني عبـد العزيـز بعنـف وهـو ياخـد مكـاني عـلى طبـة ضرب النـار: روح... المدفع بيشتغل آلي، وصرخ في ماهر مسيحة: اضبط الطلقات وسيبها تعمَّر أوتوماتيك، عمَّر يا واد يا محمود.

شـديت نبيـل: تعـال... فهـم وقـام وراي يعمَّـر لي. قفزنـا إلي عربة المدفع في انتظار الهجوم الثاني، من بعيد ظهر الهدف، نقطتـين في السـماء، بينمـا ارتفعـت إحـدي الطـائرات عاليـا،

اتخذت الثانية مسارها باتجاه الكتيبة مباشرة، تحصد أرواح الجنود بمدافعها الرشاشة، لم يفتح عبد العزيز الجمل النار، قال لي فيما بعد: الأول لما هجم فاتح مدافعه الرشاشة، قلت! أنا عرفت ديته... ننتظر الثاني، هو اللي ح يضرب بالصواريخ، وكانت الأولى قد عبرتنا ولم نكن قد انتهينا من تجهيز المدفع بعد، الآن ظهرت الأخرى، هوت من السماء وقبل الأرض استقامت باتجاهنا، على مدى الرماية، شكل المدفعين ستارا من النار حامى الوطيس، المفاجأة جعلت الطيار يرتفع مُطْلقِا صواريخه القذرة بعيدة عن الفوج.

عندما ألقت الطائرتان بحمولتيهما، وانثنيتا عائدتين إلى الشرق، انزاحت سحب الدخان الكثيفة مخلفة وراءها الحرائق تشتغل في كل مكان، في الأرجاء تناثر الجنود على أرض الكتيبة وداخل الخنادق، نصفهم كان يدفس وجهه في الرمال، يدفعها بعنف وكأنه يحاول الاختباء من الموت، والنصف الآخر منثور وسط الحرائق، منكمش على نفسه من الذعر، مثل الأجنة في الأرحام، وحده سليمان الدبس يضحك من الجنون، يصرخ في هيستريا... يدق رأسه في جدران الخنادق، والجنود ينظرونه من بعيد... جذبته للخلف، عينه مولعة بحمار الدم... نظر إلي... عرفني، مسكني والرعب يتلبسه...

– عبد الله، عبد الله طلعني من هنا... اليهود ح يموتنا...

حنفي بسطرمة الممدد أمامي الآن... كان هناك... أبوه الثرى يملك مصنعا للبسطرمة، في يده يبرق خاتم ذهب كبير، وساعة "رادو" يتباهى بها. يقول:

– انظر مستحيل يحصل لها خدش...

كان معاه فلوس كتير، لما يرجع من الإجازة حامل معاه اللحم الشهي، يملا فضاء الخندق برائحة الشواء، عندما تعوى بطون الجنود بالجوع، يتجهم وجهه، يصبح شديد القسوة، غير مسموح لأحد أن يحدثه الآن، يخرج ويدخل معه صول التمام، أو المسئول عن الإجازات ويشرعان في التهام اللحم دون اهتمام بأحد.

حنفي بسطرمة الممدد أمامي الآن، لم يدخل الخنادق مع الجنود، جرى ناحية التبة المسحورة، لم يستطع الدخول فجلس يعوى بجانب الجدار، أذكر أننا طول بقائنا في الكتيبة، وحتى استشهاده، كنا نسأله:

– إيه اللي وداك ناحية دشمة السلاح يا ابن الغبي؟

- ذكائي!! عقلي قال لي هناك يا بسطرمة يا ذكي، التبة المسحورة مصنوعة من الخرسانة القوية، ما كنتش اعرف إن الدشمة مستهدفة بالقصف لأنها مخزن ذخيرة الكتيبة.

يرد محمود: مخك معفن من أكل البسطرمة يا ابن الجزار...

عندما تكرر الهجوم في اليوم الثاني، وزعنا أنفسنا على بطاريات الفوج، كل واحد منا مسئول عن مدفع، عندما بدأ القصف جرى خمسة، كانت الفكرة المسيطرة على العقول، أن الهرب من جنب المدافع هو النجاة... جرينا وراهم وهات ضرب بالشلوت والبونيات...

- قوم يا ابن الكلب يا جبان، قوم، هو فيه مهرب من الموت، قوم دافع عن نفسك يا ابن المرة، ودَورْنا في المعسكر ضرب، وربما بحكم العادة وتكرار القصف صار اللي يموت، يموت على سلاحه، أما الثلاثة الأوائل عبد العزيز الجمل وماهر شفيق وأحمد عباس العبد، فقد نالوا وسام القيام بأعمال بطولية، أهم الثلاثة متمددين تحت غطاء الموت جنبا لجنب...

... لا... يا موت يا لعين... ماهر شفيق ، فارس بين الرجال... نجار موبيليا من جزيرة بدران، وحاصل على مؤهل فنى متوسط... كان يحول الأشياء المشوشة من حوله إلى شيء منظم مرتب، وتلك التي ما عدش فيها نفع لأشياء نافعة؛ أدوات للطعام وشرب الشاي والقهوة، ولعب السيجة والشطرنج، شماعات، مجزمة، مطبخ موجود به كل ما تشتهى النفس من مشهيات الطعام، راديو وخلافه، مرة جاب معاه تليفزيون قديم، خلى نبيل عطية يصلحه، كان مسئول تموين الفوج غير الرسمي، تحول خندقه إلى مزار للكتيبة، ضباط كبار قصدوه، يصنع سراير لأطفالهم، حجرات نوم، مكتبة، انتريهات، جن مصور، معجون بمية العفاريت، يحوش كل قرش يصنعه من عرق يديه:

- اليوم رحت أنا وأبوي للمعلم بنوب تاجر الفراخ، دفعت له نصف خلو الدكان في العمارة الخامسة اللي ما تبنتش، دا عالم ولاد كلب، المعلم بنوب يحتكم على تلات فدادين على حدود بهتيم، القيراط 175 مترًا، اشتراه بخمسة وثلاثين جنيها

والنهارده يبيع المتر بخمسين جنيها، ما يبنيش عماير ليه!!...
بعد شهرين يقول: النهارده دفعت مقدم المنشار، منشار آلي أصل المستقبل للخشب الصناعي، يجر الضباط الكبار بهدية صغيرة مصنوعة من الخشب الجميل، ولما يطلبه لحاجة يكون الثمن إجازة، وزبائن جدد من حبايب الضباط.

وجهه دائما رايق تحت شعر غزير، وبرغم إنه الآن خالي من التعبير، إلا إنك تحس بقوة من يبتسم ابتسامة صفاء فيها حياء الرجال، ورغم جسده الممزق بطلقات الفيكرز، وذراعه المجهول مكانها الآن، وأحشائه الممزقة بشظايا القنابل، ورغم أنه ظل ثلاث ساعات عايش مُعَذّبْ من الألم، إلا إن ابتسامته الخفية لا تزال موجودة جواه، تفيض من الوجه الجميل بالصفاء، لا تدرك إذا يقصد الحياة الجميلة اللي كان بيحلم بيها، أم سخرية من غدرها المهول.

* * * *

الفصل الثامن

- 1 -

في القطار المتجه إلى منوف جلس يفكر ساهما، مر جندي طويل القامة، وعاد ليقف قبالته، قذف بحقيبته لحمالات الحقائب، وألقى بنفسه إلى جواره، عندما تعرف عليه، سأله: الدفعةسلاح مهندسين؟ هز منير رأسه بالإيجاب وقال: يا راجل ده أنا قاعد من ساعة.

- معلش أنا في ظروف صعبة... والدي تعيش أنت.

شعر منير بالصدمة... قال بحزن: البقية في حياتك.

في سرادق العزاء لاحظ منير اضطرابه، سأل أخوه عن السبب، قال إبراهيم وهو يبكي: الحاجة تعبانة... قبل أن يرحل أنتحى بعبد الله جانبا: لو الحاجة محتاجة رعاية قول... لي أصدقاء ح يساعدوها مجانا.

قال بشك: يا عم خليها على الله.

قاطعه: ليه تحرمها من رعاية مضمونة؟ ح تخسر إيه؟

فكر عبد الله لوهلة قبل أن يجيبه: فعلا معاك حق

- خلاص أنا نازل مصر بكره، نتقابل في مستشفى الدمرداش.

* * * *

في مدخل مبنى العيادة الخارجية وقفت، طالبة في التاسعة عشرة من العمر، ضامرة العود رشيقة القوام، في وجهها سمرة وجاذبية أخاذة، وابتسامة من ذلك النوع المتآلف مع الحياة، ترتدى طاقما من الجينز، تحمل كتبها على صدرها... مسحت ممر الاستقبال بعينيها المتألقتين... عرفته من زيه العسكري والمرأتين الريفيتين اللتين تصحبانه، تقدمت نحوهم مباشرة بابتهاج، شدت على يده بقوة:

- عبد الله مش كده، منير في كلية الطب منتظر الدكتورة آمال وسوزان وجاي على طول.

أفتر ثغره عن ابتسامة واسعة وهو يتابعها تشد على يد أمه وأخته بحرارة بالغة، وقد أصابه الخجل، قبل أن يفيق من اضطرابه حدثته:

- أنا عرفتك من الزي العسكري، منير حكى لي عنك.

نظر إليها معربا عن دهشته. لحظتها ظهر منير، وخلفه وقفت طبيبتان امتياز، تدَّخل على الفور: انت بتحكي له؟

- أيوه.

- معـاك حـق... اسـتدار يحـدث البقيـة... كـان الظهـور المفـاجئ للـواء الـدفاع الجـوي في ممـر الطـيران الإسرائـيلي بالشـلوفة مثيرا لسـخطه، ولقرفنا احنـا كمـان، انـدفع يمشـط المنطقـة شـبر، شـبر بالقنابـل مـن كل نـوع، في أعنـف قصـف واجهته المنطقة، ومن أول ضوء ثبت الجنود في الخنادق، ما في جندي رفع رأسه فوق الأرض... استطرد: وفي لحظة ظهر حضرته... ضحكت وعيونها تغوص في عينيه، زاد اضطرابه... واحـد مـاشي خـط مسـتقيم، طالـب مجتهـد رايح مدرسـته... ضـحكوا... رايـح يقابـل حبيبتـه ومتـأخر عـن ميعـاده. ارتفـع الضحك وبدأت أمه وأخته تبتسمان وهو يذوب خجلا...

استطرد منير: واحد رايح يروى لحسن تفوته نوبة الري، حاجـة كده، واحـد مـاشي في منتهى الجدية، والقصـف ينهمـر زي المطـر ولا هـو هنـا، عشر دقائق وكتيبة المهندسين تنظـر نحوه، لما قرب مني اندفعت، رميته (وهو ما شاء الله) ناحية خندق التموين القريب، مش عارف السبب يمكن لأني شعرت أن القنبلة القادمة ستطيح به، وفعلا كان انفجار القنبلة على بعد عشرة أمتار، في المساء أخبروني أن الجنود كانوا يتراهنون على اللحظة التي سيتحول فيها هذا الثور إلى اشلاء... استدار يسأله: كنت سرحان في إيه؟

احمر وجهه بشده... قال بعد لحظات من التفكير:

- المدفع... طقم المدفع...

همست الطبيبتان لمنير: الدكتور وصفي أستاذ الباطنة وصـل... لحظات ونـدخْل لـه... اسـتطردت وفـاء: يا سـلام... مش كنت في إجازة، أكيد للفوج جنود احتياط...

صعب عليه أن يشرح لها دوافعه: لازم أكون في الفوج مع طاقم المدفع، أنا المسؤول عنهم، اقعد!؟... دا الفوج بتاعي... لو بطارية مدفعية تعطلت أو حدث بها خلل، الفوج ح يتأثر.

قالت بعدم تصديق: وانت المسؤول عن كل ده.

هز رأسه نفيا قال والتردد يملأه: فيه أفراد تحب تستخبى وراء أعذار، ورغم قلة عددها ممكن تأثر على بقية البطارية.

نظر لها باستعطاف بأن تتفهم صدقه... هزت رأسها بفهم... شعر بالضيق يغمره، ليس في حاجة لميوعة وسهولة كلمات بنات المدن، ابتعد عنها، لم يكن هناك أثر لمنير، دار يبحث عنه، لم يلبث أن ناداه مشيرا له بإحضار والدته، تحركوا جميعا باتجاه العيادة، على بابها أشارت الطبيبتان له ولأمه فقط بالدخول، طيلة نصف ساعة متواصلة جرى الكشف، في النهاية تقرر لها دخول المستشفى لإجراء مجموعة من التحليلات الطبية... خرج عبد الله سعيدا، وبينما كانت أمه تدعو لهما بأن ينولهما العَدَل[31]، كان عبد الله يشكرهما بعرفان ومودة...

قالوا: لا لا انت ح تضحك علينا، احنا عايزينك تحرر مصر...

ارتبك ثانية: السخرية، قال بتأذي: دي حاجة كبيرة...

قالا بصدق: طبعا، عارفين يا بطل، انزعج ثانية، وعندما ألتفت يبحث عن صديقه، شاهدهما، هو بقامته الطويلة، وفاء تكاد تلتصق به، تتطلع إليه، وعيناها غائبتان في عينيه،

31) العدل: الزواج.

يتهامسان غير عابئين بأحد، تراجع بنظراته، وكأن عينيه كشفت شيئا محرما.

هذا يوم الارتباك، لأن آمال عبد السلام وسوزان العياط الطبيبتين اللتين توليتا رعاية أمه، توجهتا ناحيتهما مباشرة دون حرج، أمسكت وفاء بكفي منير تربت عليهما، وبينما كانتا تطلعان منير على الموقف، انتبهت لغيابه... نادته... جاء يقدم قدما ويؤخر أخرى، حدثته سوزان، وكأنها تحادث أخا لها، وقد بدت في ردائها السماوي، بعد أن خلعت معطفها الأبيض قطة سامية شرسة لا تتوقف عن الضحك: اسمع يا عبد الله، انت تروح وتجي بكره مهمتك انتهت.

قاطعها منير: أنا عايزه.

هزت كتفيها بود: عوزه... ما قلتش حاجة.

قالت آمال وكانت قد أصبحت أقربهم لقلبه، لا هجوم مباغت ولا حذلقة بنات المدن: انت بتشتمنا بقي ولا إيه، خلاص ماما بين أيدينا.

... فكر... تتحدث عن أمي... استطردت سوزان: انت مهمتك انتهت، بتقولوا إيه في الجيش، تمام يا افندم، ماما احنا مسؤولين عنها، بكره الصبح ح نيجى أنا وآمال ومعانا وح نباشر كل التحاليل المطلوبة، واستطردت تتحدث بعملية وصداقة... أحسن تيجى بكره بعد الظهر، أشارت لأمه بأن تتبعها وفي يدها تذكرة الدخول.

قال منير: نقعد شوية في الكافيتريا ونرجع الساعة تلاتة تطمن عليها، وتمشى مستريح موافق؟

*   *   *   *

جامعة عين شمس تودع الستينيات بحلوها ومرها، وتقف على مطلع السبعينيات تستقبل الرعب القادم، جامعة عين شمس والثالوث الحيوي المقدس... العلم والعشق والتمرد... البوابة الحديدية، الأبنية الضخمة يحيط بها العشب، في باحاتها تجمع الآلاف من الطالبات والطلبة، وعلى ظهور السيارات مثنى وثلاث وجماعات... للجميع أحلام لا حدود لها لابد لها من التحقق، ليس ثمة شيء يدعى مستحيلا، ليس ثمة مستقبل مظلم، بل نجوم ليس عليك سوى أن تمد يديك تقطفها.

في كافيتريا حقوق بحث ثلاثتهم عن منضدة خالية، فلما جلسوا قام منير يُحضر طعاما، عارضته بحزم: أنتما ضيوفي وفي كليتي. قال منير بسخرية: ضيوف إيه يا ستي، انت لسه بتاخدى مصروف من بابا...

شعر عبد الله باستيائها، قامت وقام منير وراءها لمساعدتها، جلس وحيدا ينظر في أنحاء الكافيتريا الواسعة، لاحظ امتلاءها بفتيات شديدي الاشتهاء ينظرن نحوه بلا اهتمام، جاء منير أولا: ها عجبتك واحدة منهم. أجاب ضاحكا بالنفي، ذهب منير ثانية، عندما جاءت بادرته بالحديث، حته كُباية شاي، إنما تمام، عارفة أنك بتشربه حبر. ضحك وهي تسأله: احكى لي عن الجبهة.

فتح كفيه متسائلا: زي إيه؟

- معاملة الضباط.
- تمام.
- فيه بنات في الجبهة؟

أجاب متسائلا: تعمل إيه؟

قالت بإخلاص: تحارب.

ضحك على سجيته، كانت المرة الأولى في هذا اليوم التي يضحك فيها، أطلق لضحكته العنان... تابعته بضيق أولاً، ثم ما لبثت أن فهمت موقفه. قالت بغضب وهي تبتسم: إيه اللي يضحك يا سي عبد الله، مش عاجبك إن المرأة تدافع عن وطنها، ولا الوطن مقصور على الرجال والمرأة ملكية خاصة لكم.

أجابها بصوت واطئ: العفو يا أستاذة... واستمر يضحك.

- طب بتضحك ليه؟

تدخل منير وكان قد حضر: إيه... فيه إيه؟

- حضرته مش عاجبه ان المرأة تحارب؟

- طبعا، وانت كنت منتظرة إيه؟

- منتظرة إيه... انت بتحامى له؟

- الله... هو كان قال لك أنا تقدمي، دي قناعته، أقنعيه بوجهة نظرك.

- طبعا، أنا محامية ودي مهنتي... واستطردت ضاحكة... لو فشلت تبقي مشكلة... تدخل عبد الله محاولا مراضاتها، وقد شعر أنه تسبب في مشكلة بينهما... حدث نفسه... خدها على قد عقلها، رغم أنه لم يستطع أن يخفي السخرية في تألق عينيه: يا أستاذة وفاء، طبعا الست المصرية راجل ولا كُل الرجالة...

نظرت لمنير بتشفي، وجدته لا ينظر إليها، ويكاد يستلقي على قفاه من الضحك وهو ينظر إلى عبد الله. عادت تنظر

عبد الله بغصب، كان يحاول أن يكتم ضحكة قوية، فلما عرف أنها كشفت سره، ضحك ضحكة مكتومة احتراما وتوقيرا لها. ابتسمت وقالت بجدية: مش ذنبك إنك ما شفتش امرأة مصرية تحارب، دا ذنب قيادتك.

- احنا مش محتاجين لستات، الرجالة لسه مخلصتش.
- اسمح لي بسؤال.

هتف مخلصا: تفضلي...

- انت شفت ست بتحارب؟
- لا.
- والمجندات الإسرائيليات؟

شعر بالدهشة: أيوه بس حضرتك عارفة إن عدد. قاطعته واستطردت بتفهم: فهمت، التعداد السكاني لإسرائيل صغير جدا -هز رأسه موافقا- استطردت: مش ده الموضوع... شاهدت منير يبتسم لها ابتسامة صفراء... كيف تستطيع وسيلة اتصالكما وهي اللغة أن تنقل الفارق الشاسع في ثقافة كل منكما... نظرت إليه بتحد فأدار عيناه عنها... قالت: القضية مش تعداد سكاني أو أن الاحتياج للمرأة مرتبط بالظروف، المرأة الفيتنامية تشارك في جيش التحرير الشعبي، وتكافح ضد الاحتلال الأمريكي. لم يبد عليه الفهم، استطردت: المرأة في الريف المصري تعمل جنبا إلى جنب مع الرجل.

قاطعها: لكن مبتمسكش الفاس وتعزق... في أعمال خشنة على الست...

- لا... العلم أثبت أن المرأة أكثر احتمالا من الرجل، وتطور التكنولوجيا يقلل من نسبة الأعمال الخشنة... الموضوع موضوع علم مش جهل... ما من مجال خاضته المرأة وفشلت فيه. قال وهو يبتسم ابتسامة واسعة بها لؤم:

- بس ربنا قال كده: الرجال قوامون على النساء.

لقد سد عليها الطريق كيف تعبره؟ على أنه عاجلها بضربة قاصمة، واستطرد وابتسامة تتسع بتشف ودود: يعنى حضرتك مخلوقة من ضلعه... كان يشير إلى منير... كان يقول أيضا هذا آدم الخاص بك وانت حواؤه... نظرت إليه وإلى منير ببلاهة، أنه يُعِّرض بعلاقتها بمنير، في جزء من الثانية كان ثلاثتهم يضحكون بجنون يلفت الانتباه... لم يتوقفوا عن الضحك... وعلى رءوسهم وقف بعض الأصدقاء يشاركونهم ضحكًا دون أن يعلموا سبب الضحك...

- أهلا سيد، أهلا أبو كمال.

- أهلا منير، خير الضحك خير.

قال منير وهو لا يزال يضحك: تعال شوف وفاء تناقش عبد الله حول حرية المرأة. أجابت بشراسة: لا تستخف بموقفي.

- يا ستي آسف.

قالت بضحك: الأسف ما ينفعش، ممكن وأشارت لخديها بطرف أصبعها... كانت تعنى أن يقلبها. قال بابتهاج: من كل قلبي...

قال كمال بهدوئه المعتاد: ده انت الخطأ معاكِ مكسب.

قالت باعتداد بالغ: ده مش مسموح بيه لأي حد.

مد سيد يديه ضاحكا: ولا أي أي... ولا زي زي...

نظرت إليه بتحد: لك تعليق؟

تراجـع مستسـلما: لا يـا افنـدم.. تعلـيقي الوحيـد هـو الصمت...

- تمام ولا تملك غيره.
- احنا قلنا حاجة.

تدخل منير: نتكلم في المهم.

قاما بضم مائدتين أخـريين... وبينما كانوا ينتحيان طرف المائـدة، اسـتأذن منير عبـد الله منضـما لهمـا، في حـين بقيت وفاء معه.

قال سيد متسائلا بطرف خفي عن عبد الله: ممكن يكون مباحث.

اسـتاء منـير: الراجـل دفعـة وبلـديات والدتـه بتتعـالج في الدمرداش.

- مفيش سبب يتعرف علينا بالقرب ده.

- ليـه؟ أخـده وامشيـ، ثـم يـا أخي انـت في قلـب كافتيريـا حقـوق، مكان عـام، يعـنى تحـت عـين المباحـث، حتـة جهاز تسجيل.

تـدخل كمـال بتـؤدة: سـيد قصـده، لـو كان مخـبر مـش لازم نحطه في وسـطنا، وإذا لـم يكـن، فمـن خـلال علاقتـك بـه فهـو مرشـح للانضـمام لنـا، في الحالـة دي برضـه مـش لازم يتعـرف علينا.

- انـت غريـب يثـيرك وجـوده، ولا يثـيرك إن تكتشـفنا المباحث، منطق مش مفهوم، وعلى العموم ممكن أمشي. أنا وهو.

- لا... لا... مـش مهـم دلوقـت، لكـن المفـروض نـأمن اجتماعاتنا.

* * * *

فكر بابتهاج في الفتاة الصغيرة الجالسة... جمالها، أنوثتها، حجتها، قدرتها على المناقشة، شراستها في مواجهة أصدقائها، أكثر ما أثاره تعبيرها على عواطفها بوضوح ودون مواربة، شيء مثير يراه لأول مرة، وبرغم هذا لم تكن بعيدة عنه، كان قد رآها في الأميرة شامة، وهي تختبر الملك حسان في ساحة الميدان والسفيرة عزيزة وهي تستقبل الأمير يونس رغمًا عن أبيها، ها هي فارسة أخرى من بنات العرب.

- سرحان في إيه؟

قال بابتسامته المتوهجة: في الملك سرحان.

نظرت إليه بعين ونصف مستفسرة.

- في الملك سرحان والأميرة شامة.

فتحـت عينيهـا عـلى سـعتيهما تطلـب المزيـد، خاضـا في حديث طويل عن الملك حسان والأمير أبو زيد، والأميرة عاليا، وعـن عزيـزة ويـونس، وكانـت عيناهـا لا تتوقـف عـن الاتسـاع والدهشة، وكأن عالما جميلا يُفتح أمامها لأول مرة، فهمت أنه يطريها، وبينما كانت تكتب أشعاره التي يمليها عليها، كان يلمح الطاولتين تتحولان إلى خمس، والعدد القليل الذي كان جالسا حولهما يقـارب العشريـن، شـباب وفتيـات يتحـدثون باهتمـام

بالغ، وكلمات متناثرة حملها الصمت والانفعال، أصل العائلة وديكتاتورية الطبقة العاملة، وموقف الفلاحين المعدمين، وسيطرة إدارة الجامعة على النشاط الطلابي، وحرية تكوين الجماعات الطلابية، وحرية الصحافة، وجماعة الثورة الفلسطينية، ومجلات الحائط، أحكام الطيران، وعمال حلوان، وإعادة التوازن الطبقي في الدخول، وانتشار الفقر وشيوع الفساد في الحكم، ورأسمالية الدولة، وقيامها بدور المستغل لفائض قيمة العمل، والأخطاء المذهبية لدى السوفييت، والإمبريالية العالمية، وحرب فيتنام، وثورة ظفار، أربع ساعات مضت حتى بدأ الجالسون في الانصراف.

توجه إليه منير: ها. نقوم نشوف الوالدة؟

قام على الفور مجيبا: بالطبع.

بعد أقل من عامين شاهدها بميدان التحرير فريسة يعتورها جنود الأمن المركزي من كل جانب، لم تكن قط تلك الفتاة الناعمة التي تجالسه، بل نمرة شرسة تقف أعلى النصب الحجري بمنتصف الميدان، وسط الآلاف من طلاب الجامعات المصرية، يطالبون بالحرب، وهي تهاجم عسف النظام واقتحامه للجامعات المصرية فجر الرابع والعشرين من يناير لعام 1972، والقبض على رفاقها وإيداعهم سجني القلعة والاستئناف.

* * * *

الفصل التاسع

- 1 -

منذ الصباح الباكر والأمواج المتفرقة للطلاب تتجمع في ساحات الكليات المختلف على غير هدى، تتلمس أحداث اقتحام الأمن المركزي لجامعة القاهرة وكليتي طب وهندسة عين شمس، قبل أن تتحول إلى إعصار هادر يتلمس مواطئ أقدامه خارج الجامعة، لعرض قضيته على الشعب، الحصار الذي قامت به قوات الأمن المركزي على الطرق الرئيسية المؤدية إلى المؤسسات الدستورية يدفعه إلى الاتجاه إلى الشوارع والأحياء الشعبية المحيطة، العصى. والهراوات تقبع في استقباله، الدفء والمساندة في الأحياء الشعبية.

اتفاق خفي للتجمع في ميدان التحرير، وطول هذا النهار احتل الطلبة الميدان جلوسا، ومن على المنصة الحجرية للنصب الرخامي الذي كان من المفترض أن يكون قاعدة لتمثال

عبد الناصر، ألقيت الخطب المعادية للنظام، وهوجم بشدة الطابع اللاديمقراطي لعهد عبد الناصر، على حين توقف الأمن المركزي عن التدخل مكتفيا بحصار المفارق المؤدية إلى الميدان...

عندما أزف الليل خفت أعداد الطلبة تدريجيا، وحول النصب الحجري جلس عشرات المعتصمين من أجل رفاقهم المودعين بالسجون، ينشدون ويغنون لهم في العراء، وقد احتل النصب الحجري جمع من الشعراء والفنانين والمثقفين؛ أحمد فؤاد نجم، أمل دنقل، محمد سيف، والشيخ إمام، وفي المقاهي المجاورة، أيزافيتش، على بابا، أسترا، لاباس تجمع البقية منهم، وعلى أطراف الميدان وقف عبد الله في زيه الكاكي الصوفي وسط جمهرة من المارة يتابع الأحداث. ناداه منير:

- تعال... لماذا تكتفي بالمشاهدة عن بعد؟
- يا عم انا جيت معاك، فيه مشاركة أكتر من كده.
- زي ما تحب.

- عايز إيه يا مجنون، أقف على حته في الميدان واخطب، كفاية أنتم... استطرد يحذره: لو انقبض عليك ح تبقي مشكلة، سجن حربي.

- مش ده المهم.
- أيوه يا خوي... إيه المهم؟
- كل اللي قدامك ده ما يعطيش انطباع بالأهمية!
- عايزين تحاربوا، ما تروحوا تحاربوا!!
- يا عبد الله النظام مش كفء للحكم، فكيف بقيادة حرب؟

- ومين يملك الكفاءة؟

- مستحيل الوطن ملك الشعب، يفتحوا حوار مع الناس، ح يدخلوا حرب لابد من حشد كل قدرات البلد للحرب، لابد من إطلاق حرية الأحزاب السياسية، تقليص التفاوت الطبقي، لا يمكن لنظام غير ديمقراطي أن ينتصر على رأسمالية متقدمة، لا ينتج تحالف الفاشية العسكرية مع بيروقراطية الدولة سوى الفساد.

اقتحمتهم وفاء تجمع تبرعات لشراء طعام للمعتصمين، أصر على أن يساهم... قالت: واجب علينا للجبهة. لكنه أصر.

- تعال معي. وعقبت... محتاجة حماية.

كان التوجس يزداد شيئا فشيئا، وجنود الأمن المركزي يقفون في تربص على حواف الميدان، وفي مداخل الشوارع الجانبية بانتظار إشارة الانقضاض على الفرائس... عندما عبرت صفوفهم أطلقت صفيرا حادا.

- لولاك لنهشتم رءوسهم.

- يا ستي مش ح يعلموا حاجة.

- تفتكر!

هز رأسه مؤكدا، كان على يقين من أنه ليس ثمة ما يدعوا لاعتراضه.

وسط العشرات تابعها على بعد وهي تسير بين المفترشين الأرض بألفة، توزع سندوتشات الطعام... ولا ميت راجل، يا حظك يا منير، عبرت ذهنه أسئلة كثيرة، كيف تجرؤ على المبيت خارج منزلها؟ وكيف تقبل أسرتها؟ وكيف تملك هذه

المقدرة على صنع هذه العلاقة الوطيدة مع هؤلاء المئات من الناس؟

كان الليل يوغل في سدوله... والجو الزمهرير يطبق على الجالسين في الميدان، وقد تناقصت أعدادهم في انتظار الصباح المقبل، ومعه يوم جديد من المظاهرات والاعتراض الصاخب، على حافة كوبري المشاة العلوي(32) المحيط بالميدان حلق الغربان، موجة خفيفة مرت بالمعتصمين، أفراد تجرى في الأنحاء، توجهت على آثرها الرءوس ناحية كوبري المشاة الحديدي الأسود، صرخ منير: أنا ح اختفى، يلا يا عبد الله.

هزت رأسها موافقة، لكنها لم تتبعهم، وتوجهت نحو جموع الجالسين تلتحم بهم، شعر بالدهشة وأصر على البقاء، على ناصية شارع طلعت حرب وقف يراقبهم عن بعد، وهم يلتفون حول الكعكة الحجرية، وعلى كوبري المشاة العلوي شاهد صفا طويلا من جنود فض الاضطرابات والمظاهرات يحملون الدروع والهراوات، وعناصر البوليس السري تحيط بالميدان من أعلى، أنهم يكشرون عن أنيابهم حان أوان الوليمة الليلية.

في الفضاء كان السحر يكشف عن نفسه، وعلى الأطراف الخارجية للميدان غادرت فصائل الأمن المركزي تحت إمرة صغار الضباط في زيهم الأسود مواقعها بالشاحنات إلى الميدان لتبدأ إحكام الحصار.

---

32) كوبري المشاة العلوي: في سبعينيات القرن الماضي جري إنشاء كوبري علوي لتسهيل حركة لمشاة في ميدان التحرير ، تمت إزالته في ثمانينيات القرن الماضي.

- ٢ -

الحصار... القبعات والخوذ... الدروع والهراوات... الزي الأسود والوجوه القاتمة... تداخل المعتصمين، يلتصق كل منهم بالأخر... فتية وفتيات يفترشون الأسفلت البارد... متحلقين حول الدائرة الحجرية... متشابكي الأيدي... ضامين الصفوف، يهتفون، في نسق يخاطبون الجنود المهاجمة:

- احنا أخواتكم... احنا ولادكم... احنا بنعمل كده عشان كم...

دقائق طويلة مرت قبل أن يطل الصوت القاني لسنابك الخيل، أعطي أحد الضباط من رتبة عميد أمره بالهجوم، فاندفعت الخيالة تدهس الجالسين، محاولة لشق صفوفهم، قبل أن يتقدم الجنود انهالت قذائف الطوب، كانت هذه المرة ضعيفة خالية من الكثافة الضرورية لأحداث الدفاع اللازم، وصل المهاجمون إلى أهدافهم بسهولة، هاجموا الجالسين على أطراف الكعكة البشرية بعنف بالغ، تشبث الجالسون بالأرض، عندما وضح لرجال الأمن أن المعتصمين في وضع لا يُمكِّنهم من المقاومة، وقد أنهكتهم تظاهرات اليوم السابق والسهر طيلة الليل، غيروا من تكتيكاتهم وبدأوا في الانقضاض عليهم فردا فردا. شاهدها وهم يقتربون منها، وقفت من فورها تواجههم بعنف: أي واحد ح يلمسني ح قْطَع إيده... توقف الجنود في حيرة، استطردت وهي تصيح بأعلى صوتها جاذبة أعداد متزايدة من الحضور والمشاهدين:

- أنا هنا بمارس حقي الدستوري، والدستور ينص على حق التظاهر والاعتصام والإضراب.

ازدادت حيرة الجنود، تقدم نحوها شخص متأنق في زي مدني يرتدى نظارة سوداء فاخرة، خمنت على الفور مهمته، كان أحد ضباط الأمن السياسي، صرخ بها معنفا:

- أي بيت محترم م يسبش بنته في الشارع لحد الفجر.

أجابت بلهجة عدائية حادة: بيتي أحسن من بيتك، انا هنا في البيت الكبير، الوطن اللي بعتوه لإسرائيل يا حضرة الضابط.

انقلب العالم، إذ اعتورها الجنود من كل جانب، جرى عبد الله نحوها، وضباط الأمن السياسي يسبونها: اخرسي يا شرموطة يا بنت الكلب.

من بين سبعة من الجنود مد عبد الله يده يشارك أعدادًا من الطلبة والرجال يمدون يد المساعدة، لقد أنقذوها بالفعل، لم يكن يصدق أن هذا ممكن الحدوث، لقد تقدم نحوها محتميا، بزيه العسكري، والآن يتعين الهرب من المكان، همس بصوت سمعته جيدا: ادخلي القهوة بسرعة.

لكنها لم تفعل، لم تهرب، واستغلت مساعدتهم لها جميعا، وتخليصهم لها من بين يدي الجنود لتقتحم الطريق مباشرة إلى الضابط الأنيق، لم يكن منتبها لها، داهمته المفاجأة، صفعة دواية على وجهه وهي تصرخ به معنفة إياه:

- انا مش شرموطة يا كلب، انا أشرف من جهازك كله.

امتلأ المكان بالجنود، هاجمتها جحافل الذباب، اختفت بينهم، ما تبقي منها في الذاكرة، جسدها الرخص الضامر محمولا بين أيديهم، يكشف عن أسراره شعرها المضموم، جبينها العالي، ذراعيها وساقيها لا يتوقفا عن المقاومة، ورأسها المهري يجفل بالغضب... ما تبقي منها... جيبة سوداء، جاكت من الصوف الداكن، وجسد ضامر يُلْقَى به إلى مؤخرة

إحـدي شـاحنات الأمـن المركـزي، مـا تـبقي منهـا... عيناهـا المتألقتان تشعان بالسعادة والألفة تبحث عنهما في الأرجاء... والشـاحنة تخـتفي في اتجـاه أحـد معسـكرات الأمـن المركـزي، لمحته، لوَّحت له بيدها، أجابها مندهشا إذ كانت تبتسم.

كان الصـباح يطـل، والميـدان يكشـف عـن نفسـه رويـدا رويدا، وقد أخلى من الزمرة التي كانت تحتله منذ قليل، عادت حركـة السـيارات تغـزوه عـلى مهـل، متجاهلـة الأحـداث الـتي وقعت منذ قليل؛ سيارة خاصة صغيرة، عربة أجرة، سيارات الصحافة توزع الجرائد، سيارتان للنقل العام ينزل منها أولئك الـذين يبكـرون في الـذهاب إلى أعمـالهم، يتحركـون في سرعـة وعجلة من أمرهم، دقائق بطيئة تناول طعام الإفطار، بعدها داهـم الميران جحافل من السيارات العامة والخاصة ومئات المارة.

توجـه شـطر النيـل وهـو غـير مصـدق لمـا حـدث... لقـد ذهبت للاعتقال بقدميها، كيف لمنير أن يتركها وهو يعلم أن مصيرها السجن، لغز يصعب فهمه، كان حائرا، ساعات طوال أمضاها أمام النيل يتابع أمواجه المتلاحقة، قرب الضحى قام متوجهـا إلى ميدان التحرير، عازما على السـفر إلى قريتـه وقـد أصبح العيد على الأبواب...

الدبيب المنتظم، كتل الأصوات الخافتة تجيء وتروح بها الرياح، أشياء لم ينتبه لها جيدا إلا عندما لاحظ هرولة الناس في أنحاء الميدان، وهلة وبرزت شاحنات الأمن المركزي، الأمر يتضح ثانية، يبدو أنها بقية من مظاهرات مناوئة للنظام، كانـت الحركـة تـأتي بكثافـة مـن شـمال الميـدان، صـعد كـوبري

المشاة كي يستطيع أن يرى أفضل، زمنا مر حتى اتضح أن الأمر مختلف.

على امتداد البصر. شاهد عشرات الآلاف من طلبة جامعة عين شمس قادمون من شارع رمسيس ويقتحمون الميدان، وهم يهتفون لمصر، وتحرير سيناء، والمطالبة بالحرب، من جنوب الميدان كان شارع قصر العيني كتلة بشرية تتحرك في هدير صاخب، تابعها تقترب ببطء من الميدان، الطلائع الأولى للقاء الجامعتين كان صاخبًا مملوًّا بالفرح، كان يجب أن ترى هذه الحشود، آلاف من طلبة وطالبات يتبادلون الأعناق، آلاف من طالبات مثلها اكتظت بهن المظاهرات... لو استطاعت أن تراهن، كان هذا ليسعدها، لكنها سبقتهم في المجيء وبكرت بالذهاب... كان يجب أن تأتي في المواعيد الملائمة، استدار يخترق البشر مندهشا... لقد بكرت في المجيء والرحيل.

- 3 -

امشى. يا ابن عبد الجليل في طريق الحياة الطويل... امشى. علّ طبرق صارت قريبة... باق يوم من المسير... امشى. يا ابن عبد الجليل في طريق الحياة الصعب... مين كان يصدق أن الخلائق دي كلها من مصر، امواج تزحف ورا امواج، تجد السير بين حافة الأسفلت وهاوية الجبال، لو مرق واحد شمال تدهسه السيارات، ولو انحرف لليمين يسقط في الفراغ والصخور، ما هذا الزحف العجيب، بحر شاطئه يبتدئ من وادى النيل التعيس، سنابل قمح مكدوده، عيون زائغة من الخوف، اقدام منفوخة ورمها السير الطويل... يا رب الشمس

نزلت للغروب، والمطر الغزير، والسير في الليل البهيم، وهذا الزمن اللئيم. وضوء السيارات يكشفك، يفصحك، يعريك من هدمتك، وخمس جلاليب تحت المعطف الرث القديم، والهلع من انحرافها ناحيتك أو من صرير فراملها، وقوفها، فجأة ينزل منها رجل البوليس:

- مصرية... !! فواله!! وين بطاقتك؟ نبي[33] نشوف هويتك، ما معاك طبعا يا تيس... يا قحب... يا قواد... سلكاوي!!

تحكى عن العفريت يطْلعّ لك... الفرار... الفرار... صرت عجلات البيك آب وهي تتزلق على الطريق الأسفلتي المبلل بالمطر، في لحظات اختفي مئات المتسللين السائرين على جانبي الطريق، نزل شاب مرسل الشعر ضعيف البنية وتبعه رجل في الأربعين، صائحا: هسه أنتم تخافوا من الشرطة، تعال يا أخ، تعال، أنا بنقلكم لطبرق، تعال ما تخاف يا أخي، احنا أشقاء خوت.

بين الخوف من الشرطة والأمل في سيارة تخلصهم من آلام السير الطويل، نشب قتال على المؤخرة، ثوانٍ وتكدست السيارة عن آخرها، عشرون رجلا تسلقوها من الخلف، الرعب من المستقبل القريب والبطالة في سوق العمل، ونبيل يصيح على عبد الله كالمصروع، يلح عليه أن يمد يده كي يتعلق بها: خذ أيدى يا عبد الله، خد أيدى وحياة أبوك... يخترق عبد الله الحشد الكثيف من الداخل قادما نحو صديقه فلا يستطيع، يدا محمود ومبروك تجذبانه عنوة ضد رغبة

33) نبي: نريد/ لهجة ليبية

الجميع، تعلق على الأكسدام، يرجوا ألا يلاحظه صاحب السيارة فيمنعه من الركوب، وفي الطريق وقف عشرات المتسللين ينظرون إلى السيارة وراكبيها في حسرة، ثم ما لبث أن جمع بعضهم شجاعته واستدار راحلا...

- باهى يا إخوان أنا ننقل فيكم لطبرق، حد يبي درنة؟

صاحب الأغلبية: أيوه يا أخ، نروح معاك درنة... واستطرد آخرون بحماس: احنا معاك، مكان ما تودينا، بنى غازي... همس أحدهم: ما كفاية طبرق.

نهره الجميع بصوت خافت: طبرق إيه، النفر فيها شهريته (8) دينار ورغيف تاكل فيه طوال النهار... اسكت انت إيه اللي فهمك؟

كان قد صمت منذ زمن، لكن خوفهم جعلهم على استعداد لأن يمطرونه لومًا وتقريعا. قال السائق الليبي: طيب، باهى، باهى توا نروح درنة... هيا توا نبي الأجرة.

ساد الصمت وكأنهم يتمنون أن ينسى الرجل مطالبتهم بالنقود، تساءل أحدهم على استيحاء: كام؟

- اثنين دينار لطبرق وخمسة دينار لدرنة.

همهم البعض: كثير، الله الغالب، ندفع.

نزل رجلان لم يكن معهما نقود، صاح فيهم الرجل في سخرية:

- تبي تروح طبرق بلوش...

دفع الباقون في تثاقل، عندما تحركت العربة أز مساعداها من ثقل الحمولة، وبينما كان هناك ثمانية على الأقل معلقين على المؤخرة، تنخر عظام أرجلهم وسواعدهم الرياح الباردة،

كان الباقون يشعرون والبلل يغمرهم بالارتياح، وأمواج من اللذة الدافئة بعد التعب الشديد، وقضاء ليلة تحت المطر المنهمر، بعد عشر دقائق توقفت السيارة، نزل سائقها، ودار عائدا إلى المؤخرة.

- باهى يا اخوان، هسه مركز الشرطة خلف الصخرة هادى.

وأشار إلى منعطف في الطريق: أنتم تنزلوا هون، تدوروا من وراء هذا الطريق، تبوا غادي، خمس دقائق مسير بعد الشرطة تلاقوني واقف منور أنوارى الحمرا بانتظاركم.

قاطعوه: فين... فين يا اخ، هي طبرق فين؟

- نصف ساعة نعدى ناكل لقمة ونشرب شاي، ونرحل (طول)[34] لدرنة، هيا، هيا، بسرعة خمس دقائق لا غير.

تساءلوا في شك خجول: خمس دقائق فقط؟

أجاب بلكنة ممطوطة: إزاي يا راجل، خمس دقائق ما تزيد واحد، وكمان حاسبوا تعدوا يمين الجبل أحسن المسير مقطوع بمخر السيل، هيا ما في وقت.

عندما أصبح النزول لا مفر منه، نظر كل منهم للآخر مستسلما، وتساقطوا إلى الأسفلت، جرى أحدهم عابرا الطريق، ثوان وكان الجميع يعدون وراءه، يداهم كل منهم شعور بأنه لو تراخى لحظة للحق الجميع بالسيارة، وتركوه وحيدا للطريق، وطوال عشر دقائق من الجري المتواصل، ونصف ساعة من المسير السريع والعدو المتقطع، لم يظهر بالطريق سوى السيارات المسرعة، لم يتوقفوا إلا عندما

34) طول: طوالي أو على طول/ لهجة ليبية

ظهرت أضواء نقطة المرور الحقيقية، لقد نصب عليهم السائق، ورحل ومعه مائة دينار تخصهم.

الجري والمسير الأخير قضيا على ما تبقي لديهم من طاقة، في البداية سقط العجوز، وتبعه نبيل، والمبروك، وبقي محمود وعبد الله واقفين... قال محمود: ح تقعدوا، البرد والمطر ح ياكل عضمكم...

- وان مشينا نموت...

- انا ح موت... قال الدسوقي، لكن محمود عقب بإصرار: لا... إذا قعدتم نار والعة تفور من كفوف القدم، تنتفخ مثل خف الجمل.

- احنا مشينا قد إيه؟ تساءل المبروك.

عقب أبو رحاب وهو يلهث: من العشية حد دلوقت، اربعة وعشرين ساعة من المسير.

قاطعهم نبيل: استني، العلامة ورانا مكتوبة بالعربي والإنجليزي مائة كيلو.

ردد المبروك ساخرا: بالعربي والإنجليزي، خريج الليسيه يا ابن عطية. ضحك الجميع.

- بتعرف تكتب يا أخ؟ ... أخونا يكتب زي العبيط... قالها محمود غامزا لانهماك نبيل بجدية في كتابة بطاقات الإقامة المزيفة.

هز نبيل رأسه غاضبا، قال عبد الله غير قادر على الكلام من شدة الضحك:

- يعنى حد فيكم كان فاهم يا قرنات.

- وفاضل كام يا علامة؟

– مائة وثمانين كيلو متر، لا... نقعد.

قال محمود بجفاء: قوموا، قوم يا واد يا مبروك قوم يا عبد الله لحسن تلاتة بالله العظيم امشي. واسيبكم... ومال ناحية نبيل. بتعرف تكتب يا أخ؟

انتشر الضحك ثانية... استطرد: قوم يا أخ أحسن لو قعدت هنا مش ح تقدر تقوم واصل، رجلك تنتفخ... وتشد زي جلد الكلاب الرمة المنفوخة، قوم يا طرى يا ابن الطري... اللي ح يصبح عليه الصبح هنا ح يصير مثل اللي دفنتموهم الظهر، والله هم وجدوا من أحسن إليهم ودفنهم وصلى عليهم، أما أنتم مش ح تلاقوا إلا انياب الديابة والضياع تنهش جتتكم... قال لعبد الله: قوم يا حضرة الصول، يلا، هه أنا ماشي... واستدار راحلا...

قام عبد الله يتبعه الآخرون، أما العجوز فلم يستطع... نادى عليهم:

– انتظروني يا رجاله، حرام عليكم ح اموت هنا وحدي.

صرخ عليه محمود: ح نسبقك وانت الحق بينا، شاهدوه يحاول القيام ولما بدأ السير كان يميل بجسده يمنة ويسرة كمن يسير على كرات مستديرة، بعد فترة لم يعد يراه أحد؛ إذ اختفي في الظلام العميق.

* * * *

الجزء الثاني

الفصل العاشر

- 1 -

طبرق امرأة تلقى بساقيها البضاوين بنعومة بين أحضان البحر، نصفها السفلى في عناق دائم معه، لا يتوقف عن لثمها بأمواجه الهادئة المتتابعة، ونصفها الآخر يصعد رويدا رويدا ليتكئ على صدر الجبل، وعلى جسدها الصغير تطير النساء الصغيرات في سياراتهن فراشات عاشقة...

على أبوابها الشرقية وقف خمسة من جنود من بطارية الفوج 89 الفرقة الثامنة دفاع جوى، خلفهم تمتد صحراء العطش، وأمامهم كانت المدينة الصغيرة تنام على سفح الجبل يخيم عليها الليل، وأضواء الشوارع الباهرة تنعكس على سطح البحر الداكن.

امتنعوا عن دخولها خوفا من الشرطة، وناموا على أعتابها بعد ثلاث ليال ويومين من السير وسط الزحف الطويل المتواصل، المشحون بالقلق والخوف والتوتر، ومحمود يسوقهم كسائق ماهر صلب، يقود قطيعا من جياد تطاردها قوافل الذئاب الجائعة.

في الضحى استيقظوا لينظروا المدينة تحيا يوما من أيام الشتاء الناعم، تناولوا إفطارهم عند برّاكة[35] بالطريق، شطائر من الخبز الإفرنجي الأبيض محشو بالفاصوليا المعجونة بأرتال من الهريسة[36]، تناولوا الشاي المحلى بكثير من السكر، ودخنوا السجائر بشراهة ثم تحركوا نحو المدينة.

كان المتسللون يملأون قلب المدينة وقد غصت بهم الطرقات، جحافل من الجراد والذباب والهوام الضالة التائهة، ممددون على أرصفة الطرقات والخرائب دون عمل، وقد ظهرت عليهم علامات الجوع والإعياء، وعيونهم الزائغة تعبر عن شعور بالمهانة والمرارة والحيرة، وإسقاط ما في اليد من حيلة، وبرغم أن أهالي طبرق كانوا يعاملونهم دون غلظة، إلا أن سوق العمل كان المدمر الحقيقي للبقية الباقية من كيانهم.

- نبي عمل؟
- ما في عمل بُكَّلْ[37].
- نبي عمل، الله يرضى عليك يا حاج؟
- تطلع الجبل ترعى في الغنيمات؟

35) براكة: حجرة أو كشك من صفيح التنك
36) هريسة: شطة حارقة/ لهجة ليبية
37) بُكَّلْ: مطلقا / لهجة ليبية

- وناخد في كام؟
- - تمانية دنانير وتاكل وتشرب.

تساءل أبو رحاب مبتسما وهو يجد أول عرض بالعمل!

- في الأسبوع!
- يا راجل في الشهر، أيش تدير، تبي عشرة دنانير؟
- عشر دنانير إيه يا حاج داني ناخد ضعفهم وانا في ببلدي وبكرامتي.

تساءل الرجل بلؤم: أيش... شنو انت تبيع في كرامتك هون... ليش مهندس أنت، تكذب على يا مصري، أنا حق النبي ندور في مصر كل شهر، وأعرف أيش ياخد العامل هناك، سبعة جنيهات ونصف. يعني تنين دينار في الشهر، أنا نعطى فيكم الثلاث أضعاف، أيش تبوا يا راجل، تنهبوا!

- يا حاج دا كل زمان.
- تبوا تخدموا ولا نهزر.
- لا يا حاج يفتح الله.
- باهي يا أخي معاك الله.

* * * *

ستة عشر يومًا أمضوها على قهاوي وأرصفة طبرق. تأتي سيارات المقاولين في الصباح الباكر، فيتقاتل العمال على موطئ قدم دون سؤال عن الأجر أو مكان العمل، ويتراجعون بعد قتال دامٍ، يتحسسون أقدامهم المتورمة تشوبها حمرة وردية تشتعل نارا، يدخلونها في الأحذية المهترئة بصعوبة

وألم، ويخرجونها من الأحذية بعذاب أشد، وفي آخر الليل يتوجهون إلى العراء للمبيت.

– رجلك عامله إيه؟ سأله المبروك بقلق.

أجاب وهو يهز رأسه: نار مولعة والله العظيم، معْرَفش... إذا كنت ح أقدر امشي عليها تانى ولا إيه؟

– وريني... أخرج عبد الله كف قدميه من داخل الحذاء متألما.

– الكف، بطن القدم.

- وفخدك؟ كان يقصد موضع إصابته في الحرب، هز عبد الله رأسه باطمئنان: لا... مفيش حاجة.

عقب مبروك بلا مبالاة:

- لا... ان كان على كفوف القدم فكفوف اقدامنا كلتنا نار مولعة والحمد لله؟ معلش، كنا فاكرين ح ناخد إقامة... ضحك الخمسة واستطرد: وقال إيه... ح نوصل بنى غازي بالبيجو... استدار محدثا عبد الله: خايف أكون ورطتك في طابور البيادة ده، ميتين وسبعين كيلو متر بياده، حرام والله، ده هم يلوى الحديد.

- يا عم، حديد ولا يهمك، نصيبنا نشوف بلاد العرب، وأهل العرب، وكرم العرب، ربك أمر علينا بالعلقة دي.

علق محمود ساخرا: أحسنت يا عم الشيخ.

في اليوم السابع عشر تربصوا منذ الصباح الباكر على رصيف القهوة، ومع أول عربة هلّت، قفز الخمسة، ولم تمض نصف ساعة حتى كانوا بأعلى الجبل، أمضوا مع خمسة وثلاثين عاملا أحد عشر يوما من العمل المتواصل، حفروا

خلالها قواعد ثلاثة بلوكات من المساكن الشعبية، وصبوا خرساناتها المسلحة، لم يعطيهم المقاول سوى خمسة دنانير ونصف، صرفوها على الطعام والشراب، وفي ليلة اليوم الثامن والعشرين وكانت أجسادهم قد استعادت قوتها. وقفوا على باب طبرق الغربي يودعون المدينة التي لم تبق عليهم طويلا، لحظات وبدأوا المسير غربا باتجاه درنة.

- ج -

تلاشت طبرق في الوراء، وفي الأمام امتد الطريق إلى درنة طويلا، مائتا كيلومتر تمتد عبر سلسلة من المنحنيات الطويلة، تحفها هضاب موحشة، لا تلبث أن تبزغ من خلفها القمم العالية للجبل الأخضر... وطوال الليل جَدُّوا المسير دون توقف، أربع عشرة ساعة من السير المتواصل، التقطوا أنفاسهم مرتين على قارعة الطريق الأسفلتي، يتناولون الخبز الجاف دون غموس سوى السكر رخيص الثمن، والمتسللون يعبرونهم كقطار بلا مؤخرة، جماعات وراء جماعات مثقلين بجلاليبهم المتعددة، ومعاطفهم المهترئة، وعلى رءوسهم طواقي وشالات بيضاء، وجوه متهالكة من التعب والإنهاك الشديد، بعضهم لا يزال يرتدى أحذيته، وآخرون يحملونها على أكتافهم، وعندما يعودون للسير كانوا يعبرون مئات منهم، جالسين أو ممددين على الأسفلت يطلبون الراحة من عناء الطريق وربما الراحة الأبدية.

... الموت. الجحيم. أم جهنم الحمرا. إيه لزوم الحياة إذا كانت هكذا تعبا، إذا كان العمر سلسلة من الشقاء... كنت فاكر أن الحرب آخر الليل... وإن الصباح في التو جاي... لكن هذا الليل طويل ما ألعنه!!. مكتوب له يكون بلا صباح...

ألا يا الليل هل لك من صباح...

قالها الملك سرحان وهو أسير بلاد العجم... بس احنا في بلاد العرب، لكن نفاية... ليه المرار والدمار البطيء... هو كان للحرب غاية!!

سدود... سدود مملكة النعيم... عشق الوجود... قبلة على ثغر الحبيب... الهدوء الجميل في المكان... بساط خضره مسترسل تحت قبة السما، ذؤابات الشجر، سعف النخيل، يبرق بشمس الأصيل... سدود واحة في الجحيم... طوف من أربع حيطان، وبعدها الطوفان، بحر هائج تعبره بلا ربان...

هذا الذي يحدث تحتار فيه العقول، كأن المرء واقف قدام باب مغلق، مفتاحه مع جنى أخفاه في قاع البحر، والنفس ساحة للمعارك، لا تعرف مين العدو ومين الصديق، احنا عرب ولا حثالة من البشر جايين للشحاذة على الطريق.

- ما تخاف... الراديو في ليبيا كل يوم يدعو أي مصري بأن يتوجه للإدارة للحصول على الجنسية الليبية، تعطيك حق المواطنة كاملة، سكن، إقامة، تجارة والمقاولات، تصير حقوقك كما الليبي.
- بس مين يقدر؟
- مين ومين، مين اللي جعل حياتنا جحر من الجحيم؟

- 3 -

هذه رابع ليلة من المسير المرير، بعده لم يزل الطريق إلى درنة طويل... يتحرك المتسللون جماعات وراء جماعات جوار السور الحديدي الممتد جانب الطريق لحماية السيارات من الهاوية، جيش جرار يجِدْ السير في امتهان إلى الأمام، وفي الخلف عشرات الألوف، طابوا طويل يتلوى مع منحنيات الطريق الصاعد كتف الجبل، تحفها هاوية بلا قرار، الظلام والفزع من السيارات صرير إطاراتها عند المنحنيات وهي تسابق الريح تكاد تلامسنا، امتي يا ليل تطل درنة؟

السماء غيمة من الضباب الكثيف، فتحت كل ما تحمله من غضب، أعاصير الرياح، عواصف، مطر، يا رب، قدر هذا أم امتحان؟ مستحيل أن يكون هذا المصير الفلاحين في حكمتك، البرد ثلج ينخر العظام، كل ما نرتديه من ثياب حتى السراويل مبلل بالمياه، لا يوجد أمامنا إلا المسير، كيف نعلم بالمصير... القدمان كُتلَتا ورم مغروزة في الجحيم، نار، لهيب، آلام تنهش قاع الدماغ، فيض من النقح الفظيع، والأحذية سيور جلد، قيود محكمة، من يخلع جزمته، ينتفش حجم القدم زي قطعة سفنج، تكبر تصير كما قدم الفيل، تمسها بأصبعك تنغرز، يتحول الاحمرار لزرقة الجثث المتعفنة، أن تعيد القدم للحذاء فهذا هو المستحيل... سعير... لهب... الآن سير على الأسفلت الطويل.

حافي القدم يا ابن الكلب، حافي يا ابن المفحور... حافي، كف القدم والورم على الأسفلت جرح يتكئ على حواف

الصخور، ينغرز على الأشواك سعير مهول، مسيح يا ابن عبد الجليل... مسيح!؟

ألا يا محمد، اليوم صرنا غالبه، عار ومذلة وغربة مرة وهوانا، كنا في وطنا أولاد أصول أسيادا، ألا يا فجر أشحت عنى الودادا، خليتنى لليل قد خاصم الصبح كادا... فين الخيول يا أبو زيد، فين النفير للحرب، فين السيوف والرماح، فين الرايات والبيارق، شط القتال حاربت أنا... حاربت حرب الديابا، كيف يا وطن أنذل ذل الكلابا...

فين الخيول يا أبوزيد فين الورق والدوايا، فين اللي عن ما جري، يحكوا ويكتبونا، إن اللصوص في الوطن، الآن يحكمونا... إيه المصير... إيه المصير يا رفاق ما تقوللنا، خرج الغلابة جيوش، عند العرب يشحتونا...

ظلمتني يا وطن... ليه يا وطن تظلمونا؟

- 4 -

زعق صرير فرامل إحدي عربات الشرطة في الفضاء، لحظة وقوفها حولت أضواؤها التحذيرية المكان إلى حالة من الذعر، والهلع، نزل شرطيان في معطفيهما الجلديان يمسحان المكان بمصباحيهما.

- شرطة... بوليس... اهرب يا وَلَه...
- نُط يا ابن الكلب وراء السور الحديد...
- نام على كتف الطريق...

... في مكان ما ثمة خطر يفتح فوهته على مصراعيه ينتظر الضحايا... زلات أقدام... صوت حجارة تنزلق للهاوية،

صرخات عميقة في الظلام... عواء طويل، وصدى مكتوم ردده الجبل ثلاث مرات... ثلاثة عشر من المتسللين سقطوا في قاع الجبل، تحدث الشرطيان في غضب عادا إلى سيارتهما، لم يكلفا أنفسهما عناء النظر...

تجمع العشرات من المتسللين، أطلوا برءوسهم لأسفل، لكن الظلام والهلع أصاب الجميع بالشلل.

– بعيد قوي، مؤكد ماتوا ولم ينج أحد.

– ممكن يكون حد عايش؟

– صحيح!

- اسكت يا وَلَه... اسمع فيه صوت بعيد... أنات ألم... ح نعمل إيه؟

– هو انت شايف في الظلام شيء.

– يعنى نتركهم كده.

وقف ساهما ينظر في الظلام مستسلما وقد هزمه الشعور بالعجز، بينما كان البعض يفحص المكان بحثا عن طريق للنزول إلى القاع، تسربت أعداد قليلة خافضة رءوسها، تبعهم البقية، دقائق وخلى المكان من الجميع، وبقي صوت تحذير للقادمين... خذ بالك... امشي من داخل السور يمة الأسفلت، فيه تلاتاشر سلكاوي، أيوه مصرية سقطوا في قاع الجبل... لكزه في الظهر، وكلمة صارمة في الأذن: يلا نمشي يا عم... تقدر تعمل إيه؟

عندما استدار كان محمود ينظر إليه في غضب... هز نبيل رأسه ناحية الأمام مشيرا إليه بالسير: يلا.

– والبنى أدمين اللي في قاع الجبل؟ قاطعة محمود:

- هي دي جثث ح تصلى بينا عليها، جرى إيه يا حضرة الصول، دا جبل واعر، واقف عدل تمد رجلك خطوتين تسقط في هاوية ما لها قرار، لا تعرف كيف تكمل نزولك، ولا تعود تقدر تصعد لفوق، مصيدة، ان كنت شاطر انزل لهم؟

عقب المبروك وأبو رحاب: يلا يا عبد الله، ادعى لهم بالرحمة. غمغم بصوت منخفض: الرحمة تجوز للموتى، دول مش محتاجين للدعاء، محتاجين يد المساعدة. دفعوه... سار مطاطي الرأس، ونبيل يقول: عايز تنقذهم بلغ الشرطة.

حدث نفسه... ابلغ الشرطة وارجع مصر... صدمه العجز... دفعه بآلية شديدة للتقدم إلى الأمام... الضعف والخوف... العجز والتسليم في الغربة... فات أوان الرجوع... واللي مُقَدَّر كان... تعرف إيه عن منازل الجبل، تهبط في دروب مجهولة، وفجأة الطريق ينسد، ترجع ما تعرفش تطلع، ما سمع أحد صوت ارتطام أجسادهم بالأرض... يعنى هاوية بلا قرار... سير إذن... استسلم... إيه! ... انت شايل هم الدنيا ليه... إيه بمقدورك يا ابن عبد الجليل... ح تعمل المستحيل! ... امشي خلفهم مطاطي الراس ودراعتك معلقة بيد الصحاب...

انظر أمامك، على كتف الطريق عادت جيوش المتسللين، جماعات وراء جماعات تجد المسير بمذلة وهوان إلى الأمام، امتي تطل درنة... يا أبو زيد... من هنا مريت... أبو زيد مين يا ابن الكلب... أبو زيد عبر ليبيا وخلفه كتائب الفرسان، وتجريده من العسكر... أبو زيد مين يا ابن المفحور... ده احنا فلاحين غدر بينا اللي في البندر، وشلة الجالسين في قصر عابدين...

امشي يا ابن عبد الجليل، سير في هذا الليل الطويل، ولا تغنى لقوم بعد اليوم... سَمَكْ. قدرك ابلَعُه من سكات... الممات...

الهـرب مـن الشرطة... البطالـة... ضـعف الأجـور في سـوق العمل... مصر تتقيأ جوفها في تعب... مئات الألوف؛ فلاحين... عمـال... صـنايعية... أنفـار مواسـم... شـباب تلفظهـم كـأنهم الجرب... طاعون... أبناء حرام... أولاد سفاح... وكأنه لم تكن هناك حرب كنا حطبها... ما هذا العبث في مصير الأمس؟ ما هذا العبث في مصيرنا اليوم؟

- 5 -

عربـة بيـك آب وقفـت يقودهـا عجـوز وغـلام بجانـب الطريق، حدسوا أن السائق يسألهم الصعود، قفزوا دون أن يسألوا السائق شيئا، لحظات ووجدوه يقف خلف السيارة يطالبهم بخمسة دنانير لكل واحد منهم. هتف عبد الله: حرام تكون بتضحك علينا، تمشي عشر دقائق وتقول نقطة مرور. صاح به العجوز بتوحش يحمل تعالي: راع أنا نقول الحق مش نكذب يا مصري، أنا نتركم قبل درنة بعشرة كيلو متر، باهي!؟

بعد نصف ساعة وكانوا قد شعروا بالاسترخاء، توقفت العربة فجأة واستدار إليهم قائلا: هيا يا إخوان، تعدوا نقطة المرور هادى وأنا ننتظر فيكم بعدها.

لم يستطع أحدهم أن يجادله، إذ كانت نقطة المرور تقع بالفعل على بعد ثلاثين مترا، وعندما حاول محمود أن يطالب باستعادة جزء من المبلغ المدفوع ليضمن وجود السيارة بعد نقطة المرور، صاح السائق به بغضب من مست كرامته وأهين: ترى انت يا فوال تكذبني يا مصري، كيف أعطيك النقود بعد ما ركبت يا تيس، يشهد ربي إن كان فيكم حدا

يفهم، برقت عينا محمود، وبمجرد أن حاول أن يمد يده يمسك بخناق الرجل، حتى وجدوه يصرخ بهم:

- حاجى تعمل شيء نادى على الشرطة يا بو بكر.

قبل أن ينزل الغلام كان أربعة من المتسللين يلثمون يده، يرجونه العفو عنه، وأنهم سيسرعون ليستديروا حول نقطة المرور، وأخذوا يحلفونه بالله ومحمد وبأيمانات المسلمين أن يرأف بهم ولا يخدعهم، وأن ينتظرهم، وهو يرد عليهم في غضب: أيوه، أنتظركم، أنا أخذ في فلوسكم وأجري، هذا حرام، أنتم تهينوني هيك.

- احلف.

- ترى تكذِّب فيّ ثانى يا مصري!!... ما أحلف بُكّلْ.

عادوا يهدئون من روعة، ويستحلفونه ثانية أن ينتظرهم، وهو يكرر نفس العبارات: هذه إهانة يا مصري، والله ما أقبلها، وعندما سارعوا ليستديروا حول نقطة شاهدوه يشرع في العودة إلى الوراء، وقف البعض يشهق مدهوشا.

قال محمود: ابن الهرمة عملها...

برغم ذلك انطلقوا جميعا خلف الآخرين يلتفون حول نقطة المرور... آمال كاذبة، وسلوك قهري اسمه عدم التصديق، وربما عشق الضحية لانتهاك الآخر المتواصل لها... انت أقدامهم على الصخور من الألم، وهم يقفزون فوق الأراضي الصخرية للجبل والمنحنيات القليلة، وعلى الجانب الآخر من نقطة المرور انتظروا طويلا لكن أحدا لم يأت...

قال عبد الله: ابن الكلب، لو ما كنتش طاهر زي ولي.

عقب محمود: أنا شايفه بعيني راجع يحمل في بهايم تانية.

قال نبيل: تعمل إيه؟ الناس بتتعلق في الحبال الدايبة.

سمع صوت أحدهم يتهم محمود بأنه السبب، نظر إلى عبد الله هز رأسه متعجبا، غمغم: الناس صارت غريبة، عارفة مين بيدعك رءوسها في الوحل، ولا تستنكف أن تقبل يده، وتدعى له بطول العمر.

بعد ساعة من الوقوف في العراء سمع المبروك عبد الله يئن في خفوت... أمسك بذراعه: مالك، فيه حاجة؟

- تعبت.
- كلنا تعبنا... رجلك؟

- بالضبط... الألم مكان الجرح، وفي كل حتة من جتتي...التفوا جميعا حوله... استطرد: الجزمة نار في كف القدم، نقعد ننتظر حتى الصباح.

تقدم نحوه نبيل: تاخد جزمتي، واسعة على قدميك.

- وانت تمشى إزاي؟
- مالكش دعوة...

عارضة محمود: انت ما فاهمش، رجليك مواخداش على الأرض، انت ابن بندر، خد جزمتي انا، تلبس كام؟

- جزمتي 44، أكبر نمرتين.

عندما خلعوا عنه نعليه صرخ، شاهدوا تهتك الجلد الخارجي، القدم المنتفخة، سرت في جلودهم قشعريرة... حاول المبروك دفع الحذاء فلم يدخل، توقف في حيرة. شتمه محمود: انت بتحسس عليه. دفع الحذاء بعنف دفعة خاطفة... يلا، يلا... كان عبد الله لا يزال جالسا غير قادر على الحركة.

- راجل ولا لا... اسمع يا وِلْد تقعد هنا ما تسوى شيء، قدامك أسبوع حد ما تستطيع السير، تاكل وتشرب منين وتروح من المطرة والشمس فين؟ ما نوقف إلا في درنة.

وقفوا حيارى... مال عليه المبروك: دي ساقه مصابة؟

- عارف... مال يكشف عنها، كان بها احمرار خفيف... قوم، قوم. جذبه لأعلي... حمل علي، حمل يا وِلْدْ، ما تشرق الشمس إلا ونكون في درنة لو حاملينك على ظهورنا... غمغم حزينا... يا ليل امتى يهل صباحك؟!

الصباح الصباح... الليل الليل... المطر والشمس غايبة خلف السحاب... الألم في العقل قطر حديد ماشي يدك الدماغ، يبحر العقل في ليل يشق غمامة، علَّه يصل لصباح.

ترك جسده يحرك قدميه بآلية، وكلما شعر بالتخاذل استلهم عزيمته من أحلامه، مرددا مع كل خطوة يقطعها... لأجل شراء الطين... لأجل شراء غيط الحاج رزق... لأجل شراء بهايم... لأجل بنا دار جديدة على الجسر القديم... لأجل أبني اللي ح يتولد حزين... في الرابعة ظهرا اقترح نبيل الجلوس لكن عبد الله رفض.

... لو جلست مش ح قوم... المسير... المسير... وعلامات الكيلو مترات على الطريق قطرات مياه لبشر يسحلها قيظ العطش، متاهة الصحراء، كلما عبروا علامة صاروا أشد ظمأ من ذي قبل... يستمر المسير، في تعب وسعير من لهب.

مع أضواء الصباح الأولى برزت ملامح الهضبة العلوية لسهل (الفتايح)، منذ هذه اللحظة أصبحت علامات العشرين كيلو مترا الأخيرة لدرنة من أصعب المسافات، وكأنهم بعد على حدود طبرق... العشرة كيلو مترات الأخيرة جاءتهم بالفرح

والابتهاج الشديد... وبرغم كل شيء تسارعت خطواتهم، عندما بزغ قرص الشمس الأحمر من الشرق كانت درنة تطل من بعيد...

* * * *

الفصل الحادي عشر

- 1 -

بجوارهم وقفت إحدي السيارات، نزل سائقها للتبول، لاحظ نبيل علامات إحدي الشركات المصرية العاملة في إنشاء المباني... نادوا عليه جميعا:

- باقي كتير على بوابة المرور؟

أشار إلى الأمام: منحنيين وتظهر البوابة.

نظروا إليه بتساؤل... قال: عندك طريق الجبل تنزلوا المدينة من حي باب طبرق، أو تتجهوا يم البحر إلى الطريق القديم الهابط حول محطة الرادار، تدخلوا درنة عبر الساحل.

كالوا له الشكر والمديح... همس أحدهم: لم أفعلها في حياتي.

تشجع أبو رحاب، تقدم عائدا إليه وعلى وجهه علامات الاستعطاف:

- والنبي لو سمحت، ما كلناش من يومين.

هز الرجل كتفيه بضيق واستدار راحلا، بعد دقائق شاهدوه يعود ثانية، ألقى لأحدهم بدينار، التقطوه ككلاب جائعة... وعلى الطريق كان المئات يجدون السير في طريقهم إلى المدينة، وقد نفذت نقودهم ومؤنهم، ومن الشمال سقطوا عبر المنحدر الهابط من هضبة الفتايح إلى ساحل المدينة ومنها بلغوا حي الساحل.

الطعام... كوب من الشاي... السجائر... أنفاس الدخان... ذهب نبيل والمبروك وعادا بعد هنيهة، أحضرا معهما خبزا، وجبنا، وبصلا أخضر، وعلبة فول، وسجائر، وبجوار أحد المنازل الكثيرة التي لا تزال تحت الإنشاء جلسوا، في دقائق معدودات افترسوا الطعام الموجود، والتهموا الفول دون ملح أو زيت، وعندما شربوا الشاي مع دخان السجائر كان العالم قد أصبح تحت أقدامهم، تمدد البعض ونام تحت ظل المبنى، وتجمع الآخرون حول النار.

- أباه... حمد الله على السلامة يا رجالة، وصلنا درنة، ياه.

- والله العظيم تلاتة لو اعرف ما غادرت دارنا.

قال محمود بخشونة: الطريق قدامك، وقف عربية شرطة توصلك متريح حد مساعد، خد القطر وارجع لأمك غنى جنبها... ضحك الجميع.

- لقمة العيش ما عدتش بالساهل.

- صلى على النبي يا شيخ... ربنا يعوض صبرنا خير، اسمعوا نصيحة لوجه الله، كل واحد ياخد في أجره يوم بيوم، وما تبقي لك درهم عند واحد سوا ليبي، سوري، فلسطيني، خاصة المصري، تشتكي لمين؟ للشرطة! يرموك للحدود كيف الرمة، السلكاوى هنا مالوش حقوق.

انخفضت رءوسهم وهم يطبعون كلامه في ذاكرتهم، وعندما أطلت امرأة وفتاة من نافذة في ردائيهما الذين يخفيان وجهيهما، التمعت عيونهم المطفأة، ودب في عروقهم سحر نساء درنة، لكن هذا لم يدم طويلا، إذ أنه بعد ساعتين عاد الجوع ينهش بطونهم.

صاح فيهم محمود: ما نام الليلة إلا ومبيتين على عمل.

مضى نهار اليوم الأول، وهم يمشطون المدينة بحثا عن عمل دون جدوى، في المساء اضطروا للتسول ثانية، تساءل عبد الله إذا كانوا قد جاؤوا للعمل أم للشحاتة، وإذا ما كانت المرأة التي عبرت معهم الحدود أكثر منهم بُعدا للنظر، ربما يسفر الصباح عن شيء أفضل، ناموا على الطوى في أحد الأحواش المهجورة التي لا تزال تحت الإنشاء، كانت ليلة رهيبة بلغت درجة الحرارة فيها ثلاثة تحت الصفر، لم يعفهم وجودهم في المدينة من البرد القارص، إذ كانوا على مبعدة أمتار من البحر، وطوال الليل كانت الرياح الباردة تنخر عظامهم، حتى بدا لهم أن السير على الطريق أرحم من النوم تحت سماء دون غطاء.

في اليوم الثاني استيقظوا والجوع يقرصهم، سعى بعضهم للتسول، وكان ذهاب المبروك للاستجداء قد شجع عبد الله

ونبيل إلى النظر باستعطاف في وجوه المصريين، على أن أحدا لم يأبه بهم، في إحدي المرات صاح بهم أحد المصريين: يا أخي روح، أعطى مين ولا مين وأنتم ألوف، لو صرفت مرتبي مش ح يكفيكم شاي في يوم، اتكل على الله، شوف لك شغلانة انت وهو...

فتح عبد الله ذراعيه: حكمة ربنا.

بعد مضى نهار اليوم الثاني، دفعهم الجوع دفعا لتلمس منة الآخرين بجوار المطاعم ومحال البقالة، واقفين في ضوء الحوانيت وخلفها حيث كان طابور من الوجوه المصفرة الكالحة تختبئ في العتمة، مادة أيديها إلى المارة في ذلة وانكسار، أعداد قليلة من النقود لم تكفهم خبزا، وعندما أوغل ليل اليوم الثالث كانت معنوياتهم قد انهارت تماما. لقد اكتشفوا أن سوق العمل بدرنة متخم هو الآخر بالألوف، وليس في حاجة إليهم، فعلى الهضاب العليا للفتايح وعلى امتداد الجبل الأخضر. كانت الشركات التابعة لأوروبا الشرقية وتركيا وإيطاليا وكوريا قد أقامت معسكراتها، مكتفين ذاتيا بكل أنواع العمالة من جنسياتهم، حتى الطباخين والسائقين، كانوا يستوردون كل احتياجاتهم ماعدا الخبز، مما أضعف الطلب على العمالة المصرية على وجه الخصوص وأضر بها إضرارا شديدا.

أتى الليل الرابع حاملا رعب المبيت في العراء، كان الجو قارص البرودة، تحلقوا حول النيران، بعد أن أتوا على الخبز القليل الذي غمسوه في الشاي والسكر، وأمضوا الليل يتناقشون، وبطونهم على الطوى في البقاء يوما آخر، أم الرحيل إلى بنغازي في الصباح الباكر والعودة إلى قسوة المسير،

في صباح اليوم الخامس وقفت سيارة بيك آب، نزل منها شاب في الثامنة عشرة وصاح بهم: تبوا خدمة؟

قفزوا في مؤخرة السيارة قفزا، عندما حاول محمود أن يسأله أجورهم كادوا أن يفتكوا به مرة ثانية، ساروا للعمل من فورهم، كان عملهم حفر خط للمجاري، لقاء دينار وربع الدينار يوميا، وفي الليل ابتنوا برّاكة من الطوب الأسمنتي وغطوها بألواح الصاج، بعد عشاء وفير وشاى وسجائر ناموا كما لم يناموا من قبل، ناموا وكأنهم موتى يفترشون فراشا وثيرا من الحرير، في الصباح قام كل منهم منتعشا بعافية جمل... وطول اثنى عشر يوما متواصلة ظلوا يعملون بكد، وعندما تسلم كل منهم ثمانية دنانير، مخصوما منها ما استدانوه لطعامهم، اشترى كل منهم حذاء كاوتش، وسترة من الصوف الرخيص، وعندما انتهى العمل لم يغادروا البرّاكة اتقاء لعناء الشتاء القارص، خمسة أيام دون عمل وبدا لهم أن قسوة الحياة سوف تعصرهم ثانية بخيبة الأمل.

في اليوم السادس قدم عليهم الشاب الليبي الذي عملوا معه في الأيام القليلة الماضية بصحبة شاب سوري أشقر، في الحادية والعشرين من عمره، لوجهه أنف معقوف ضخم وخصلات شقراء، وضع يديه في بنطاله المصنوع من الجينز وبدأ الحديث، وعندما يتحدث السوريون في الأعمال والأسعار فإن الجليد يكسو وجوههم وينعدم الإيحاء، ويصير لصوتهم نبرة باردة، وبين النظر في عينيك مباشرة والنظر في الفضاء يكون عقله مركزا حول ما يريده.

التف حوله العمال المصريون ينظرون إليه وإلى عربته المرسيدس في بلاهة. لم يكن ثمة مجال طويل للحديث،

سألوا عن مكان العمل، والنوم، ومتى يتسلمون نقودهم، أما قيمة اليومية لم يتطرقوا إليها، كان الرجاء في قيمة الأجر أقوى من الوقائع العقلية لأهمية الاتفاق، كل ما حاولوا التعبير عنه في سذاجة هو مقدرتهم على العمل.

قال أحدهم بلهجة بلهاء: بس يا عم حضر. الفاس واحنا ناكل الأرض أكل... وشمر آخر عن ذراعيه وقال بحماس: وجهك السمح يبشر. بالخير، كلنا أمل فيك، وأخذ يدعو له كامرأة عجوز... روح يا شيخ باين عليك راجل طيب، ربنا يكتب لك في كل خطوة سلامة، روح واطمن احنا ناكل الصخر عشان خاطرك.

هز السوري رأسه بازدراء، وكأنه يستمع لأسطوانة مشروخة من كثرة ترديدها: باهي، باكر بعدى عليكم في الفجر، تكونوا جاهزين.

تعالت صيحات التأكيد، وتحولت إلى محاولة مستميتة للحصول منه على قسم بحضوره، وألا يبحث عن سواهم.

منذ الفجر جلسوا في انتظاره، وحتى الضحى لم يُبدو له أثر، عصفت بهم خيبة الرجاء، بعدما حل الخوف من الجوع والليل الثلجي، وأخيرا جاء، قفزوا إلى مؤخرة سيارته البيك آب في عجلة وصمت، خوفا من تحول الواقع إلى كابوس هستيري، دقائق وكانت السيارة تصعد الفتايح.

عندما بلغوا الموقع شمروا عن سواعدهم من فورهم، بينما تكاسل محمود وبقي ملتصقا بأبي نديم، وقد نصب نفسه رئيسا للأنفار، وعندما قفل الشاب السوري راجعا إلى المدينة، طلب منه أن يحضر. معه موقدا وآنية وأكوابا وخبزا وشايا وسكرا وعلب السردين وجبنا محفوظة، وذهب محمود

ليتشاغل ببناء برَّاكة من الطوب الأسمنتي، عرضها لا يزيد على مترين ونصف.

أحضر السوري لهم ما طلبوه، وأضاف تنكا كبيرا من البلاستيك لمياه الشرب، وبطانيتين مهلهلتين، سرقوا مثلهما من شركة لحفر الآبار، وأعطاهم خامسة بعض المتسللين الذين يعلمون بإحدى مزارع الدواجن القريبة رأفة بهم.

عندما جاء الليل تمددوا على أرض رملية مبللة بالمياه، كانوا برغم كل شيء في العراء. مطر لا يتوقف، ورياح صرصر تضرب البرَّاكة، تنفذ سهامها المسمومة من بين شقوق الطوب والسقف لا يعوقها شيء، في آخر الليل طار السقف، خرجوا وهم يضمون أذرعتهم إلى صدورهم من البرد الزمهرير، يجمعونه بصعوبة، وعندما جاء الصباح استيقظوا وكأنهم لم يناموا قط.

مع كل صباح يهل كان يعبرهم المتسللون القادمون من طبرق، متشابهين في الوجوه، متشابهين في الإعياء وتسول العمل والخبز، وإن وجدوا عملا جلسوا القرفصاء في وجوم، يبدؤون في الكشف عن أقدامهم التي عمها الالتهاب بين الزرقة والاحمرار، وقد ضاقت بها الأحذية، يخلعونها بصعوبة والآلام تعتصرهم عصرا، ثم يتقدمون في صبر وقوة تحمل تنوء بها الجبال إلى معاولهم، يتقاسمون أماكن الحفر، فإن لم يجدوا العمل تسولوا الخبز في إعياء بالغ، يواجههم على الأغلب جدار من الصمت، فلا يبقى أمامهم سوى أن يستديروا في خجل إلى الخلف، راحلين نحو المجهول.

عمل محمود قليلا ثم توقف تماما، وتحول إلى متابعاتهم، وقضاء طلباتهم، والسير خلف السوري، حاملا له شريط

القياس، أو الخرائط، يومان وبدأ يورد عمالاً للحفر، يحضرهم من الطريق، يعملون طوال نهارهم لقاء وجبة غذاء، ثم يقوم بترحيلهم ليلا، في اليوم الرابع توقفوا جميعا عن تناول أي أنواع الطعام توفيرا للنفقات، واكتفوا بأكل الخبز مع الشاي والسكر في الوجبات الثلاث، كان سعر كيلو السكر خمسة دراهم، وتوقف السوري عن إحضار الطعام لهم، وحتى المياه توقف عن حملها في سيارته، فكانوا يضطرون لإحضارها بالتناوب من مكان يبعد ثلاثة كيلو مترات، حيث مزرعة الدواجن عند مدخل سيدى عوف...

- ج -

اليوم رحل أبو نديم ورحل معه نبيل في عربته المرسيدس، كان قد علم قدرته على صيانة الأجهزة الكهربائية، فسأله إذا كان يفهم في مد شبكات الكهرباء، فصاح نبيل: مهنتي

- تعرف كيف تعمل توصيلات المنازل؟
- دبلوم صنايع قسم كهرباء، وتسع سنين خبرة.
- وإذن ليش تعمل عامل مياومه؟
- حكم الظروف يا أبو نديم...

رحل أبو نديم ورحل معه نبيل... رحل ولم يترك سوى ثلاثة عشر دينارا، وعندما غاب في الطريق، كأنما السماء تنتظر رحيله، إذ لم تمضي ساعتان حتى غابت الشمس خلف الغيوم الكثيفة، وازدادت سرعة الرياح، ومنذ العصر أخذ رزاز المطر في التساقط، وعندما أتى الليل انخفضت درجة الحرارة ثلاث درجات تحت الصفر، وفي اليوم التالي لم تظهر الشمس قط،

وانطلقت الرياح الباردة على سهب درنة العلوي من عقالها خيول لاهثة، تنفس من منخاريها برودة قطبية، وفجأة فتحت بوابات الجحيم، كانت حبات الثلج تتساقط مندفعة كطلقات الرصاص.

في البداية غمر الجسد والعضلات الدفء، ولكن التوقف لحظات عن العمل كان يحمل معه شرا مستطيرا، حيث يختلط العرق الساخن بالبرد القارص فيسقط الجلد في نهر ثلجي، تتجمد الأصابع على مقبض الفأس، لكن ما بال القدمين المفلطحتين المنتفختين الملتهبتين من عناء السير تتصلب في قاع الحُفَر الممتلئة بمياه الأمطار الثلجية، فتتحولان من لونيهما الأحمر الوردي إلى غشاء من المطاط الأسود الترابي المستهلك القديم، تحوط به هالات من الزرقة المتسخة، وتتضايف الأصابع المتكورة بالورم الثقيل، فتصير كتلا من الرصاص المعلق، صلدة لا تتحد ولا تنفصل عن كف القدم.

أز الكريك وضربة الحجاري... مين يحكى عن اللي في جوفي ومين يولع ناري... احفر قبرك يا ابن عبد الجليل، واسمع لصوت الأزمة والكريك... بوم به... تشيك... تشاك... اسمع الصوت ده واحفظه... لحنه وغنيه...

تكره مين ولا مين... عبد الرحيم اللي اجل موت أبوك يوم عشان يزور حيازة الأرض باسمه، ولا أمك اللي اشتريت لها من فلوس الجيش، لحمى الحي، جاموسة تحلب لها جبن ولبن عشان ما تحتاجش إمارة مراة عبد الرحيم... بعدها قالت لك:

"عقد الشرك باسمى مالكش في الجاموسة ضافر، ولا حتى ديل تعمل به منشة تقعد بيها على بوابة العَّلامية".

... أكره إبراهيم... خطف مني تحويشة العمر من راتب الجيش وبدل المحل الشرك، دفعه مهر وشبكة لكلبة من مصر... خدعته ورمته رمي الكلاب... ألعنه ولا العن لصوص الأسفلت... مافيا شركات الطرق...القوة والضعف... آ آ آ آ آ آ آ هـ... هل تقبل الإهانة في الاستسلام للشقاء... أم إن القوة في الصبر عليه... ويلي إذا ما كان بعد الصبر... إيه؟

البرد ينخر في العظام يصلب القدم، يجلد بأسواطه الإيدين والأصابع... الحب والكره... الظلم والاستبداد... اليأس والإحباط... الموت والشقاء... البؤس والأحلام وخيبة الأمل... العمر اللي راح هدر... لم تعرف في يوم طعم السعادة ربما تكون الجنة لك... آ آ آ هـ سريعة ومباغتة... آ آ آ آ هـ... الألم في الحشا نار قايدة... الجوع خبيزه سايطة... واللحمة حلم بعيد المنال... عايز إيه يا ابن المفحور... كفاية عليك... خبز مغموس في سكر وشاي منذ الصباح حتى سكوت الكلاب عن النباح...

البرق والرعد والرياح تعوى في البيادي، والبشر في منازلهم ممددين على فراش الدفء، وجحافل الفلاحين في العراء، أوقدوا النيران وملوا البطون بالشاي ودخان السجائر، النوم، يدَّفِّي كل واحد بحضن رفيقه من صفير الرياح، تقتحم شقوق الحيطان حاملة حبات المطر...

ساعتان واستيقظ الجميع، والمياه صنابير ثلج مفتوحة من السقف، إذا حمى النيام رءوسهم كشفوا عن باقي الجسد والقدمين، مين يتخيل سيمفونية العذاب اللي تعجز عن فعلها أعتى جهابذة الطغاة، قطرات ثم خطوط من الثلج تطرق مناطق من الجسد تحيلها مراكز لأوتار تفتل على أطراف

العصب، الصداع... الألم... الجنون، ليس ثمة مهرب لا بالخروج إلى العراء ولا بالبقاء في فراش الخشب الطافي على برك المياه.

السقف صار مَنْخُلاً كبيرا، قطرة خلف قطرة، لا نوم ولا يقظة، قطرة على الساق وأخرى على الدماغ، على الظهر، البطن، الجحيم مجسدا، التنبه، اليقظة، ثم الانتباه ثم الانتظار ثم محاولة الهرب، ثم الاستسلام، بعدها تصبح قطرة المياه التي تسللت عبر أكوام الأغطية الفقيرة من بطانيات وملابس وخشب، دويًا هائلاً في الراس؟ ده احنا بشر، عذاب... هلاك... تعب، النظر إلى السقف نشاهد تجمع قطرات المطر، هجومها الوحشي... لسعات العقارب، لدغ الثعابين، مرة... مرتان... ثلاث... ولا مفر... ويُجَنْ العقل في انتظار الصباح.

ألا يا ليل، هل لك من صباح؟

جاء الصباح وحيدا ولم يجئ، كانوا ينتظرون قدومه وبصحبته الخبز والطعام والشاي والسكر والسجائر والنقود، والطبيعة المتوحشة تمضغهم، تلوكهم بتلذذ شبقي... جاء الصباح ولم يجئ أبو النديم.

-لم يأت! ... تركنا! ... يتعب نفسه ليه ويجي في هذا الجو اللعين؟

– تلاقيه نايم متغطى وجنبه دفاية.

– أو في حضن مرة.

– يتركنا كده، مقطوعين في صحرا، لا أكل ولا مية.

تحامل البعض وعاد للحفر، وتبعهم الباقون يحاولون نسيان جوعهم، لكن المطر عاد يسقط بشدة فغادروه إلى البرَّاكة، وشرعوا يقيمون سقفا من ألواح الخشب، عسى أن يمنع سقوط المياه، وعندما جاء الضحى أصابهم اليأس من قدوم السوري، ذهب بعضهم لشراء طعام بالدينار الوحيد الباقي، وآخرون لإحضار المياه، وتجمع الباقون داخل البرَّاكة، وقد تدثروا ببطانيات تنساب منها المياه.

عاد الليل يحاصرهم بالظلمة والمطر، أوقدوا النيران مستخدمين ألواح الخشب الجديدة الخاصة بالبناء، وبعد مقاومة شديدة ذهبوا للنوم وكأنهم ذاهبون إلى جهنم، أرضية البرَّاكة وحل، برك مياه، يغوصون بأقدامهم حينا وحينا يتمددون، أي ليل أسود من هذا الليل الطويل ولا عزاء، المسير في العراء أقل قسوة من النوم في هذا السعير.

النوم عذاب، قيوده أقوى من سلاسل العبيد، الضيق، تنافر الجسد، برد ثلجي، نهش الحواس، الترقب، الانتظار، الانكماش على الجسد، التوتر النفسي بما لا يطاق، التكوم في الوحل، التمدد، العضلات تشدها سلاسل التوتر، متى ينتهي هذا الليل ويشرق الصباح.

لا يشرق الصباح يأتي معتما وقد أنهكهم السهر، خمس ليالي دون نوم، الضعف يغالبه الصبر... الصبر المميت من آلاف السنين، هل يأتي السوري، يأتي الليل منتظما لا يخلف مواعيده قط، ولا يأتي السوري، تنفد أعواد الكبريت وتتلاشى ألسنة النار.

- حد يروح يشحت كبريت وخبز من عمال المزرعة، أو يستلف فلوس.

رفضوا، من يقرض سلكاوى وعابر سبيل، لا اسم، لا هوية، ولا عنوان...

- لم يحضر ابن الكلب.
- أنا جعان. السماء بتنزف دم... دم صاحي من دماء البشر...
- ما عدش في السما رحمة.

صاح محمود بغضب: هو فين ربنا يعنى مش شايفنا.

- بلاش كفر، يمكن اختبار.
- اختبار ده ولا احتقار!
- يلا قوم ع الحفر...

ضحك عبد الله قال والكل يبتسم من القهر: يا أخي حفر إيه؟

همس المبروك: نرحل.

- فلوسنا!
- بلاش الفلوس، القوة كلها مصابة والخسائر مائة في المائة، حمى. تعب. هلاك... ننسحب.
- لفين؟ ولإمتي؟ لسه الانسحاب قدرنا.
- يلا، نام، ناموا علّ الموت قريب.

في المساء بلغ الإعياء مبلغه، ظهر المرض على الوجوه... سقط خمسة صرعى الحمي، واستقبلوا الليلة السادسة وقد أقسموا متعاهدين أن يقتلوه.

- عليَّ الطلاق لافتح دماغه بحجر.

– والله لا كون كاسر له السيارة، ح اكسر دماغه في الزجاج...

- زجاج سيارة! اقسم بالله العظيم ما إلا راميه في الحفرة دي واردم عليه حي.

جاء الصباح ظهرت الشمس ثم غابت وتوقف المطر، في الضحى ظهرت المرسيدس، جاء أبو نديم ومعه صاحب العمل الليبي، كان وجهه مشرقا مورد الخدين، لا يبدو عليه أي شعور بالخطأ، رآهم جالسين القرفصاء في صمت، كالحي الوجوه، كل منهم منطو على نفسه، متضائلا كشجرة جميز خربة، واحد فقط نطق، تحدث عبد الله: والله حرام، احنا مش عرب!

أجاب السوري بوجه متلبد وصوت بارد، وبتكلف تختلط فيه اللهجة الشامية باللهجة المصرية: إيه، كلنا عرب، عايز إيه أنت؟

- كيف يا راجل تتركنا ست أيام في المطر، لقمة معفنة مش موجودة.

تحدثوا حاولوا أن يشرحوا له آلامهم دون جدوى، تعجز الكلمات أن تحكى عما حدث، في النهاية فشلوا في شرح أي شيء، كانت المأساة مرسومة على وجوههم المغبرة الكالحة.

قال السوري وهو يهز كتفيه: ليش يا إخوان، لكم خمسة أيام على الطريق، قولوا لي الطل أم البرَّاكة... إيه مو منطق، انت ما كنت عبد عندي، بتروح وقت ما بدك تروح، انت ما تميزت في العالم بالصبر، ليش تغضب إذن؟

أشياء كثيرة قالها، وأخرى قالوها، ولم يفهم أحد شيئا. عقب:

- وأنا مالي، مسؤول أنا أكرى[38] لكم حوش؟

اندفع الليبي معنفا إياهم: كنكم، يا مصرية؟ شنو تبوا من الرجل، كان في بنى غازي ولا يعرف بمطر ولا غيره.

كتموا عذاباتهم بعد أن أطاح بكل مبرراتهم... خفضوا رءوسهم في استسلام، همس أبو رحاب: بنغازي، طيب عايزين ناكل.

كمن ينفض عنه جربا أو طاعونا، انتفض السوري وكأنه يطيح بحشرة سامة علقت بملابسه: ما تروح تيحيب لنفسك الأكل، مش مسؤول أنا، أطفال أنتم؟! أمام نظراتهم البلهاء تدارك ثانية: طيب عايزين إيه؟ أنا نبي نفهمكم إن إحضار الأكل مو مسؤوليتي وإلا أصير ما اشتغل، تحدث محمود وقد نفذ صبره:

- يا عم عشان خاطر النبي مسئوليتك، مسئوليتنا، احنا هلكنا من البرد والثلج والمطر، وانهد حيلنا، كرامة للنبي والمسلمين، ست ليال ما دقنا طعم النوم، والله والله العظيم لازم أكون مصور قتيل هنا.

- طيب... طيب... قالها وأسرع راحلا بسيارته مع كفيله الليبي.

تناولوا الغداء، وتحاملوا على أنفسهم، وعادوا للعمل ثانية، فتى بقي وحيدا في البرَّاكة، كانت الحمى تفتك به، في المساء استغرقوا في النوم، أبو رحاب نام نوما مضطربا، حركة ما في البرَّاكة جعلته يستقيم جالسا، على ضوء أشعة القمر التي تخللت الشقوق، رأى محمود الأسيوطي، يلوط الفتى المريض

---

38) أكرى: استأجر/ لهجة ليبية

المستغرق في النوم، لأول مرة في حياته شعر بخوف شديد، بعدها لم ينم إلا وظهره للحائط.

حضر المهندسون اليوغوسلاف لاستلام الحفر، تجمعوا يلتقطون أطراف الحديث، وعلى وجوههم ارتسمت علامات عدم الفهم والبلاهة. سأله محمود: سلمت الحفر؟

يرد بلغطة: الحفر... يصمت ثم يعود قائلا: لا دي عايزه عشرين، يعني ناقصين 30 سم المهم الاجناب تتصلح.

- يعني إيه؟
- تخرطها بالسكين.
- أيوه، أيوه، سهلة خمس دقائق، عايزين فلوسنا.
- كلموا أبو نديم.
- درهم مفيش لما تخلصوا الحفر.

بعد يومين سألهم أبو نديم: تحفروا في صخر؟

- لا... قالوها في نفس واحد.
- باهى أنا نجيب غيركم...

منذ هذه اللحظة جن جنونهم، وعصف بهم القلق على نقودهم، توقفوا مرة أخرى عن العمل متسائلين، في البداية تحدثوا بخجل.

- احنا لنا فلوس قد إيه؟

أشار بأنه اشترى لهم أغراضا وطعاما وشرابا وشايا، واستطرد: عطلتم الحفر! الآن وفورا سأحضر غيركم من على الأسفلت لاستكماله، بدى أرجع ما لاقى حدا في البرَّاكة من اليوم، مفهوم. أجابوا جميعا باللهجة الليبية: باهي، حسابنا ونرحل، اليوم نزلنا، عارفين إن العمال كتير.

- أنا ننزلكم درنة! كل واحد يروح منكم لحاله... على رجليه.

- على رجليه، على رجليه!

- أيوه يا أخي، كيف ما أجِيتُمْ، على رجليكم، كيف الصراصير، عرِفْتُمْ كيف.

ركب سيارته وعلى مشارف الأسفلت نادى على عمال فاندفعوا نحوه بالعشرات: بدكم تعملوا؟

قالوا في نفس واحد: أيوه، الله يعمر لك بيتك يا بيه.

- أيوه والنبي يا عم عندك شغل؟

كانوا موتى، أشباحا تسير على الطريق، قال رافعا يده مهددا بشروطه: بدى أعرفكم؟ متر الحفر ثلاثين درهم. الواحد بده يعمل خمسة أمتار في يوم ياخذ في دينار ونصف.

عندما رأى عبد الله ورفاقه العمال أصابهم الغم، لكن منظرهم آثار الشك لدى العمال القادمين، فاتخذوا طريقهم عائدين نحو الأسفلت، ثارت ثورته، رأهم يشعلون النيران في ألواح الخشب الجديدة... تجهم وجهه وركض يركل الخشب المشتعل بحذائه وهو يصرخ: ممنوع واحد فيكم يشعل النار بالخشب الجديد، ادفع فيه فلوس أنا مش جيبه بلاش، أنتم بهايم ولا حمير، ما تعقلوا؟

قال عبد الله: طب نتدفى إزاي، والشاي، إزاي نقاوم البرد؟

- باهى اخصم منكم حق الخشب، وحياة أمي لأخصم حق الخشب، إذا تكرر هذا أطردكم من هنا، وأصير مبلغ عنكم الشرطة.

عندما أزف وقت الحساب تجمعوا حوله في اهتمام شديد وترقب، وهو ممسك بورقة وقلم، ثم قام يقيس عمق حفر القواعد، ويكعبها مختارا أصغرها حجما، جمع وضرب وقسم، كان ما حفروه يساوى سبعة وستين دينارا، تهللوا فلما خصم ما وصلهم من خبز وشاي وسكر ومكرونة وأرز وثمن الآنية وبراد الشاي وجيركن المياه، بلغ المجموع واحدا وعشرين دينارا، ثم خصم خمسة دنانير، فأصبح المتبقي لهم واحدا وأربعين دينارا، ثم ذكر أن محمود أخذ خمسة وعشرين دينارا، فكان ما تبقي لهم هو ستة عشر دينارا.

لم يتبينوا الأمر للحظات، وخيم عليهم الصمت لمدة، والمأساة تتصاعد في داخلهم، ستة عشر دينارا لعمل أثني عشر نفرا يصير لكل منهم دينارا وربعا، هي كل ما حصل عليه لقاء عمل استمر أحد عشر يوما.

قال عبد الله: متأكد إن الحساب مضبوط؟

أجاب ونظرة الاحتقار والاستخفاف تملا وجهه.

- هيء... بلي، الحساب مضبوط، واللي مش عاجبه بيصير يشرب من البحر.

- شوف يا باشمهندس، احنا بينا وبينك ربنا، إوعاك تظن إنك تظلم حد وربنا يسيبك.

لم يشأ أبو نديم أن يضحك على بلاهتهم:

- إيه طبعا، ربنا بده يحاسبني والحساب يوم الحساب.

قال آخر لزميله: نحلفه على المصحف إن الحساب مضبوط فاستخفه الآخر... قال عبد الله بصوت سمعه السوري: قالوا للحرامي احلف قال جالك الفرج...

صاح به السوري: ليش انت تقول هيك، ما أسرق عرق حدا، أنا ما مسكت الشريط، وأشار إلى محمود، مصري هو اللي قاس، لازم تعرف إنه أخذ مني خمسة وعشرين دينار، ما عطاكم منها شيء.

صاح محمود: دي فلوس أصحابها أخذوها...

صرخ به: كم واحد إجة؟

- عشرين واحد.

- خَرابة أنتم، إجة عشرين واحد، وإذا؟ أنا عطيتكم حقكم.

قال المبروك: وليه خصمت خمسة دنانير.

- تنزل تصلح الحفر تاخدهم. تعالت أصوات الاحتجاجات، قال: والصبح آجي ما بدى أشوف وجه بني آدم في البرَّاكة، فهمتم كيف؟

أعاد محمود جرد حسابتهم، استقبلوه بشك، لكنهم لم يستطيعوا اتهامه، نظر المبروك وأبو رحاب لعبد الله، وجدوه صامتا لا يتحدث، لكن عيونه كانت تتملأ بالشك. قال محمود: أبو نديم ما غافل حد في درهم، لو فعل ما أقبلش.

قاطعة أحدهم: أنا ح ارجع مصر. وقال اثنان إنهما سيرحلان باتجاه الغرب. قال الأول: انت ما تحسب حق الشاي اللي كنت تشربه من عندنا. كشر أبو نديم من وجهه، وأحنى رأسه غاضبا: مالك أنت، جايب لكم طلبات أكثر من اللي حسبتها، تحب ادخلها الحساب؟

وقفت عربة جيب تقطر مُعدَّة ضغط الهواء، وبها أربع فؤوس للحفر بالصخر، نزل منها أحد اليوغوسلاف. سأل أبو نديم كي يحضر من يكمل الحفر؟ نادى عبد الله والمبروك وأبو رحاب للعمل على معدة الحفر الآلية، توجهوا إلى مناطق الحفر.

لم ينتبه أحد لثلاث عربات لاندروفر وعربة بيك آب، وقفت فجأة... شخص ما قال: مكتب العمل... الشرطة... اختفي الأربعة في قلب الحفر منغرزين في الوحل.

هتف أحد رجال الشرطة الليبية بالمتسللين: هيا، تجمعوا كلكم بالبرَّاكة، فيه جريمة قتل وسرقة، ترى واحد يهرب اضربه بالنار. دفعوا بهم إلى مؤخرات البيك آب كالنعاج وقد سقطت قلوبهم في أقدامهم، بكى بعضهم وغامت عيون الآخرين بعدم الفهم، والشعور بالفشل والحزن والضآلة.

* * * *

على السهب الفسيح الممتد حتى السما، تحده من الجنوب الحواف الصخرية للجبل، ومن الشمال يمتد البحر حتى الأفق، هرب الجنود الثلاثة حاملين ملابسهم على ظهورهم يَجدون السير خوفا من مطاردة الشرطة، على بعد ستمائة متر كان محمود يجرى خلفهم وحيدا تحت رذاذ المطر، زمنا قليلا حتى اتحد أربعتهم في نقطة صغيرة تهبط درنة عبر الساحل الشمالي.

*   *   *   *

الفصل الثاني عشر

-1-

حضروا إلى درنة في أول توت، أحكى عن الغرام والهوى ولا أحكى عن الموت... قال الفتى يونس بن سرحان صادقا... كنا بنجد سالمين نجاور النبـي، نجير الجار نكرم جميع الغرايب، يا ليتنا لما انتوينا نغرب، كنا اتوينا في لحود الترايب، بعد ما كنا نكرم الضيف عندنا، صبحنا نقول مين يتاوى الغرايب، أنا جعان يا خال والجوع كاوينى، الجوع ده دايما يورى المتاعب.

قال الأمير أبو زيد الهلالي سلامة: يا يونس اركب ع الجمل، وبيع هذا العقد في بلاد المغارب، يونس لبس في الحال مكي من مكة المكرمة، عباية حرايرية وشاشة مقصبة، وعقال حرير محبوك ع الحواجب، إلى تونس الخضراء دخل والهم راكبه، كل صبية تقول له اتفضل عندنا، ده البيت خالي من جميع المعايب(**).

1974 درنة الصبية وقد عمتها البطالة، شوارعها تعج بالعاطلين من المتسللين المصريين، حملت الهجرة معها أيضا حثالة المجتمع المصري، وشكا الليبيون من سرقات المنازل والمحلات ليلاً، وانتشرت حوادث القتل التي اتهم فيها لصوص الإسكندرية، عند نقاط تقاطع طرق المدينة الرئيسية وأمام إشارات المرور كان يقفز إلى نوافذ السيارات العابرة أطفال عرايا، وغلمان، ونساء عجائز من المصريين، يدسون رءوسهم داخل السيارات للشحاذة وطلب النقود، في الأماكن النائية وجدت جثث لمتسللين قتلوا بغرض السرقة والنهب، وكان القتلة من أبناء جلدتهم المصريين.

في اليوم الثالث من مغادرتهم الفتايح عمل عبد الله وأبو رحاب مع نبيل وبعدها بثمانية أيام تبعهما المبروك ومحمود، وكانا قد اضطرا للاستدانة من نبيل الذي تحسن وضعه المالي بعد عمله الجديد مع أبو نديم.

في طريق عمله متنقلا عبر أحياء شيحة والمنار وباب طبرق، كانت مسام جسده تتشمم عبق المدينة الجميلة التي جلس البحر تحت أقدامها عبدا عاشقا، يغسلها بأمواجه المتلاحقة وهي تخوض بساقيها مياهه، تشرع نهديها لرياح المتوسط، تلثم جدائل شعرها الأسود الأجعد الغزير البارح

الطول، تحمله الرياح لتلقى به بنعومة على ظهر الجبال قبل أن تعبره إلى نهايات الصمت الصحراوية... من صنع عيون الدرناويات، وريثات بنات الأندلس؟ زرقة البحر...اتساعه وعمقه... أم الجبال الداكنة... الشوق إلى الأفق... أم كرومها الأندلسية التي توسدتها منازلها وأحواشها وتهادت على عبق عطور عرائشها...

بعد أن وجد نبيل المأوى والنقود ومشط شعره الغزير المجعد وهذب لحيته الكثيفة، واشترى بنطالين من الجينز، وسترة جلدية وقمصانا ملونة داكنة وحذاء جلديا، كان يعبر المدينة بقامته الطويلة، وجسده الرياضي الممشوق، تطل من وجهه الأسمر عينان باسمتان متفائلتان، يمرق عبر الطرقات قافزا الأرصفة، ومفترقات الطرق، مسرعا إلى عمله، مستقيم الاتجاه عابر عشرات من الطالبات السافرات في طريقهن إلى مدارسهن، وفتيات أخفين وجوههن، تومض عيونهن الساحرة برقا من خلف شق الجرد[39]، يستمتع بنظراتهن وابتسامتهن الصريحة إليه، يلمح التفاتتهن وإيماءاتهن لصديقاتهن عنه، وإشاراتهن المختلسة إليه، تتابعه ضحكاتهن الرنانة بجرأة، وعقله الباطن يحذره من نساء ليبيا وفتياتها الحسان، ليس له من حق سوى أن يعمل، وهو المازجرى[40]، الفقير، الحقير، المتسلل عبر أسلاك الحدود.

كيف يحق لك: أن تقترب من إحداهن، ثم إن هناك ما هو أسوأ، الشرطة والسجن، وعنف الوطنيين إزاء الأغراب، ورغم

39) الجرد: رداء وطني ترتديه المرأة الليبية، يغطي جسدها تماما، من أعلى الرأس لأخمص القدم، ولا يبق منه سوي شق صغير عند الرأس، تنظر من خلاله بعين واحدة إلى العالم.

40) مازجري: الأشخاص من غير الوطنيين الليبيين

انكماشـه إزاء هجـومهن المباغـت، لـم يتركنـه لحالـه، وأصـبح يسير وهن خلفه، يطلقن تعليقاتهن باللهجة الوطنية تداخلها اللهجة المصرية.

– يا حلو... يا جميل.

– يا قمر يالماشى... مازجرى؟

– إزيك كده.

– هدى شوية... هدى. وانت معدي.

لـم يعـد يسـتطيع أن يكـبح نفسـه مـن الابتسـام، فتوالـت التحيات وتكـررت، كان أحيانا يبـدأها فتـأتي إجابـاتهن مشرقة جميلة... مشاكسة بصوت عال:

– صباح الخير

– صباح الورد يا جميل

– صباح الفل...

أصبح سعيدا، وابتنى بينه وبين العبث جدارا. يروى ظمأه ويشبع وجدانه من هذه الوجوه الجميلة، والقدود الممشوقة، والعيـون العابثـة، ورنـين الضـحكات الأنثويـة المنغومـة المشاكسـة، مكتفيا منها بصـداقات الصـباح العـابرة، وعنـدما ينتهي يوم الشـقاء ويرحـل للنوم يصطحب معه هـذه الزهـور الملتحفـة بقطـرات النـدى، فـلا يحـس أرقا ولا يشـعر بوحـدة، وكلمـا جـد يـوم توطـد عملـه، وفي آخـر كل شـهر يحصـل على دخل مجز، وبدأ يفكر في أخذ مقاولات صغيرة من الباطن.

في صباح أحد الأيام كان يسير متوثبا في طريقه إلى عمله بطريقته المعتادة، وخلفه عبد الله وأبو رحاب اللذين توفقا بغتة، وأمامهما صرت فرامل إحدي سيارات الفيات الصغيرة، صوت آلة التنبيه التي أُطّلَقَتْ جعلته يقفز إلى الأمام صاعدا الرصيف المقابل، عندما استدار غاضبا، كانت تنظره شزرا، قبل أن يتفوه ببنت شقة، عاجلته في غضب واحتقار:

- كنك تعدى كيف المسطول، ما تباهت[41] السيارة أمامك؟

أجاب بغضب: إزاي الطريق للي يعدى الأول.

أجابته بعصبية: أيووووه... يعني كنت أعدى فيك، هسه أصير غلطانة، غبي ما يفهم.

- عدى، تعالجيني على حسابك، وتحضري كل يوم المستشفى عشان تطمني على روحك أنك مش ح تدخلي السجن، بشوف هدا الجمال يطل علّي كل يوم.

عندما انتهي كانا يبتسمان... استطرد: باهي حصل خير...
أجابته بوعيد: آيوووووه.... تباهت قدامك...

أجابها بغضب: وانت تباهتي قدامك.

- أنا أباهت قدامي! كيف أقود سيارة من دون ما أباهت قدامى، ناصح أنت؟!

– يمكن سرحانة في حاجة صح ولا لا؟

41) تباهت: ترى / لهجة ليبية

صرخت مثل نمرة شرسة: أيش تقول، أكون سرحانة في أيش.

ابتسم بتواطؤ: الله أعلم، خلاص حصل خير، ولا محصلش. مع السلامة...

ابتسمت بعبوس: مع السلامة.

منذ البداية فاجأته بهجومها المباغت، إشارات متوالية مستخدمة ضوء السيارة الرعاش، تلاحقه ابتساماتها خلابة، إيماءة الرأس البدري، وإشراقة الوجه الجميل، ما كان يثير جنونه حدوث هذا وهي منفردة أو بصحبة امرأة عجوز، شايب أو إحدي صديقاتها، فقط عندما يكون الجالس بجورها رجلا شابا، كانت تكتفي بالإشارات الضوئية السريعة والابتسامات الخافتة، تومض على محياها كالبرق.

هذه المرة لم يستطع المقاومة... نَمِرة متوحشة في منتصف العشرينيات، تجلس خلف مقود سيارة صغيرة مسرعة... من يستطيع مقاومة وجهها الخمري الدقيق الملامح، عينيها الواسعتين شديدتي السواد، فمها الصغير المزموم، شفتيها الثقيلتين، شعرها الأجعد الغزير المسترسل حتى الأرداف، نهديها الثقيلين، جسدها البض المتصل بخصر رشيق، درنة من يستطع أن يقاوم سحر نسائك حتى لو كان مصيره الموت... اللعنة الآن، الآن... اسمها؟ أين تعمل، ومن أين تأتي، أين تقيم؟ ماذا تريد؟ ما الذي يمكن أن يحدث بعد؟

بسرعة متزايدة تحول إلى كائن منقسم بين جسد يقضي حوائجه من عمل ومأكل وشراب بآلية شاردة، وعقل معلق من نقطة صغيرة شديدة التركيز، الشيء الحقيقي الوحيد، اللحظة العابرة للقائهما، وكل ما حولهما من زمن هو ما قبل وما بعد،

ليس سوى عالم من استعادة لهذه اللحظة؛ قلق الانتظار الممض، ظهور السيارة في أول الطريق، قدومها من بعيد، لونها وطرازها المعهود، وميض ضوء السيارة الأمامي، الإشراق، الابتسامة، إيماءة التحية يردها بانبهار وَوَلَه، عبور السيارة واختفاؤها في المنعطفات، اللعنة إذا كنت أنا المقصود، اللعنة إذا كان ما يجرى مجرد وهم وأضغاث أحلام، كان ذهنه عاجزا عن التصديق.

توالت الأيام وتوالت معها اللقاءات العابرة، يستنشقان عطر صبابة الوجد، هو واقف كالمشدوه وصوت عبد الله يفيقه.

- خلاص يا عم شفت الحبيب نروح شغلنا؟

يرد أبو رحاب: هو سامعك، الواد عقله تاه يا وِلّدَاه.

- اسمع يا أبو رحاب، احنا نطلع من الصبح على الشغل طوالي، نجهزه، هو ييجي على مهله، أركب أنا قرون... لا ... ميحصلش.

* * * *

التفكك العقلي والانشداه، والمحاولات المضنية للإمساك بالوهم، وخطة مجنونة لمعرفة مسكنها، من أين تنعطف سيارتها، الطريق الذي يمتد طويلا ملتويا عبر أحد الأحياء الخاصة بالوطنيين، الخوف والفكر يضنيانه... كيف يصل إليها؟

عندما انتقل للعمل بالطابق الرابع لمح أحد أجهزة المساحة ملقى جانبا، وقف ينظر به من النافذة، كانت درنة

كلها تقع أسفله، ثلاثة أيام يتابع حركة السيارة الحمراء الصغيرة، حتى فطن إلى المنطقة التي تنتهي إليها، ومنطقة عملها. لم تستوعب ما يحدث سريعا، ربما غير مكان عمله، فجأة فطنت أنه على مبعدة شارعين من مسكنها، أصابها الذعر، عبرته متجاهلة إياه، في اليوم الرابع كان يقف على ناصية الشارع الذي تسكنه، في هذه المرة نظرته في غضب ساخط، كيف تجرؤ؟

توقف من فوره، وعاد يعبر طريقه الذي التقيا فيه المرة الأولى، ثمانية عشر يوما التقته بتجاهل تام، كانت تشعر بالخوف، وكان قد وَطَّنْ نفسه على أن كل ما حلم به مجرد سراب في صحراء ليبية، في اليوم التاسع عشر خرج مبكرا إلى عمله ميمما شطر مكان عملها، ومن خلال فرجة صغيرة من زجاج نافذة سيارتها ألقى بقصاصة ورق ملونة كتبها بخط ديواني لطيف...

منين أجيب صبر يغويني على بعدك، وأنا اللي هجرت المنام والأهل من بعدك، أسمع منادى ينادى في ظلام الليل: يا اللي ابتليت بالغرام اصبر على وعدك... وأنا ذنبي إيه...(**)

في اليوم التالي كانت إشارات سيارتها الضوئية تناديه، وابتسامتها شمس تشرق على كونه، عندما قاربته حيته بإيماءة الوجه الشهي المدور وصوتها يباغته:

- صباح الخير...

نظرها مشدوها، عندما اختفت سيارتها في المنعطفات طار في الفضاء مثل طير هرب من قفصه... لحظة اللقاء الصباحي وحدها هي سقف العلاقة، حدودها ليس أكثر، هذا ما تريده، أليس كذلك؟ ألم تعاقبه عندما حاول أن يتجاوز

حدود المكان، كيف وهجومها أصبح أشد ضراوة، الآن صارا يتخاطفان في كل لقاء عابر عبارتين سريعتين، تلقى إحداها من نافذة سيارتها.

- صباح الخير

يجيبها وهي راحلة: صباح الفل.

تفاجئه في اليوم التالي مقلدة اللهجة المصرية: ازيك...

فيجيبها حالما وقد ارتسمت على وجهه كل معالم عدم التصديق:

- أنا!

فتميل برأسها، تطير معرَفَتُها كمهرة سعيدة تنتشي بذاتها:

- منو يكون... لآخر!!

يهز رأسه، وعيناه التائهتين تتملي منها ومن الفراغ الذي يحيط بها:

- جفاني النوم.

صرت فرامل سيارتها، ووقفت تنظر إليه مشدوهة وقد ألجمها الصمت، أصوات نفير رتل السيارات الذي وقف خلفها دفعها لأن تفيق، ببطء شديد تحركت، وهي لا تستطيع أن ترفع ناظريها عنه، ولأول مرة ظلت تنظره من عاكس المرآة حتى اختفت في الطريق، بعد يومين أسقط في سيارتها التي تقف أمام المستشفى التي خمن أنها تعمل بها بقصاصة أخرى.

الليل أهو طال ووعد الحب فات زمنه...

واللي زمانه مضى لم عاد ييجي زمنه...

أوعدتني بالوصال والوعد فات زمنه...

في اليوم التالي عجزت أن تفعل شيئا، لم ير وسيارتها تبزغ من بعيد سوي أضواء تحييه، وعندما تواجها تلاقيا في نظرة طويلة لم ينبسا خلالها ببنت شفه... عيناها الدرناويتين نفذتا فيه كنصل السيف، شطرته نصفين وأخرجت قلبه، حطمته وحملت بقاياه معها، وأجسادهما ترتجف في تواصل ورغبة، امتلأ المجال الذي يفصلهما بعبق الجنس الجميل، وعندما افترقا كانت الرغبة في العناق تحيل أجسادهما أشلاء، يوم ويومين وثلاثة، أبقيا على صمتهما تاركين العنان لأجسادهما تتحرق للآخر، شوقا عنيفا وهوىً ووجدا مشبوبا.

في اليوم الرابع عندما عبرته لم تنظر نحوه، كانت تنتظر أن يفعل شيئا ما، ولما لم يفهم ما تريده شعر بالمهانة، ولم يعد يسعى للقاء، أطلق لحيته وانكب على عمله، وفي الصباح الباكر وبعد أن يؤوب إلى الحوش مشتت الذهن تائه العقل، كان يخرج هائما في طرقات درنة، يحوم حول منزلها ومكان عملها في مستشفى درنة العام.

الهوى القديم، وذكرياته العاطفية بالوطن، لم تكن شيئا يسيطر عليه كما هو الآن، الهوى القديم على نواصي حارات القاهرة محض مغامرات ساذجة، سحر المغامرة، أم سحر الغموض في مدينة نساؤها محظورة على أبنائها، أم هو الهوى الخالص لامرأة فاتنة محرمة...

طوال طريقها ظلت تتلفت في وجوه السائرين بحثا عنه، أحيانا كثيرة كانت تراه ولا تستطيع الحديث معه، فتستمر في طريقها والكمد يغلبها، مرة والشارع خال من المارة رأته قادما

خلفها، توقفت بجانب الرصيف وعندما حاذاها، هتفت معاتبة.

- أنا شنو[42] عملت... كنك[43] تهرب مني؟

أجابها في شرود: كيف وانت لا تفارقيني. عادها الذهول وعاد نفير رتل السيارات الذي اصطف خلفها يفيقها، وعادت تسير والغضب يملأها، شنو يبتغي المصري؟

أعرض كل منهما عن لقاء الآخر، وكلاهما لا يتوقف قهريا عن التفكير فيه والبحث عنه ثم يتجاهله إن لاقاه.

في ضحى أحد الأيام فوجئت به أمامها، ملقى على أحد الأسرة، مصابا في ساعده الأيسر بقسم الاستقبال بالمستشفى.

بادرته بارتياع: شنو بيك؟

- مش عارف، الطبيب بيقول شرخ في عظم الساعد.
- كيف حدث هذا؟
- اختل توازن السلم تحتي؟
- وليش ما تدير بالك؟

رفع رأسه نحوها، كان العرق الغزير ينسال من وجهه... عاد ينظر إلى الأرض صامتا... لوهلة لم تفهم ما يعنيه، ولما بلغها مقصده بشكل ما امتلأت بالغضب، دقت الأرض بقدميها وغادرته ساخطة وعلى الباب سألته:

- جاك[44] الطبيب؟

---

42) شنو عملت: ماذا فعلت/ لهجة ليبية
43) كنك: ماذا تنطوى عليه كينونتك/ ماذا تريد/ لهجة ليبية
44) جالك: اتاك

هز رأسه بالإيجاب. قالت وكأنها أدت واجبا ثقيلا عليها وهي تصفق الباب خلفها بعنف: باهى...

اقتحمت برأسها الباب ثانية تصيح به: عملت أشعة؟

- نعم وشاهدوا الشرخ.

خرجت ثم عادت تدفع برأسها من الباب تقول بآليه: باهى... توا ندور في الطبيب بيش يدير لك جبس، عادت إليه بصحبة طبيب هندي وعاد إليها هدوءها، بينما كان يلتقط أنفاسه، وأثناء تجبيس الطبيب لساعده، سمعها تحادث زميلتها:

- تدري؟

- شنو؟

نظرت في عينيه مباشرة، واستطردت: سافر الفلسطيني، وأبوي يريد يؤجر الحوش لاشكبليية[45]، أنا ما نريد.

أجابتها صديقتها وهي تضحك: صحيح!؟

ضحكت لتعريض زميلتها: نعم إزاي شنو تظني!

عندما انفردا جمع شجاعته وسألها، فين يسكن والدك؟

نظرت شزرا: ليش تسأل؟

- استأجر الحوش.

التمعت عيناها، صمتت لوهلة تفكر ثم قالت وهي تغادره:

- كنك ما تعرف؟

- والله ما بعرف...

---

45) اشكبلي: رجل أعزب، غير متزوج/ لهجة ليبية

نظرت إليه غير مصدقة.

- أقسم لك بالله ما اعرف... صدقيني.
- ما كنت تقف عنده تشترى أغراض.

* * * *

بعد يومين وقف نبيل وقد أصلح من هندامه أمام منزلها المكون من طابقين بمدخلين منفصلين، مدخل للطابق الأرضي من الطريق الخلفي، والآخر للعلوى يطل على الشارع الرئيسي، عرج إلى الحانوت الواقع أسفل المنزل، وسأل صاحبه العجوز عن مكان يستأجره للسكن، أشار نحو الطابق السفلي:

- غرفتين وصالة... تسكن وحدك؟
- معي أربعة.

قال بامتعاض: ما يزيدوا بُكَّلْ[46]... حتى واحد زيادة. نطردكم باهى؟

- باهى... والأجرة؟
- عشرين دينار.

لم يجادله، استطرد: باهى تعدى غادي في المغربية تاخد المفتاح.

في اليوم التالي جمعوا الأغراض القليلة، أكثرها صنعوه بأيديهم من خشب الصناديق التي تستورد فيها السلع المختلفة، كما يفعل أغلب المصريين على اتساع دخولهم

46) بُكَّلْ: مطلقا /نهائيا/ لهجة ليبية

ومستوياتهم الاجتماعية في الغربة، أسرة، دواليب، أرفف، خزانة ومائدة طعام للمطبخ، أما الباقي فكانت أشياء قليلة اشتروها من مدرس مصري انتهت إعارته؛ تليفزيون صغير أبيض وأسود، مسجل، كراسي مستهلكة، أواني للمطبخ، وفي المساء أنتقل خمستهم للسكن الجديد.

بعد أيام قليلة وأثناء عودته من العمل وقف عبد الله حائرا... كانت السيارة الحمراء الصغيرة تقف أمام الحوش، لوهلة ظن أن صاحبتها بالداخل... دخل على وجل فلم يجد أحدا، لم يحاول أن ينبه نبيل، وبقي صامتا، في المساء لاحظ أنها لم تتحرك من مكانها، لم يجد بدا من أن يلمح لأبو رحاب بالأمر، الذي ضحك بلؤم، سأله السبب أخذه من يده على الشرفة الداخلية، في الطريق اعترضهما نبيل، فانطلقت ضحكة محمود ثانية ونبيل يصرخ به:

- اسكت يا ابن الكلب، اسكت عشان خاطري...

تساءل عبد الله: يعني وقفت عند أخوك الغلبان.

غمز له أبو رحاب، فنهره نبيل ساخطا: يا ابن الكلب، يا دودة يا خبيث يا ابن الخبيثة، استطرد محدثا عبد الله: فلاحين جايين من ورا الجاموسة... فلاحين عايشين بالخبث...

همس أبو رحاب: صاحبك ح يتجوز.

انفجر الجميع في الضحك، ضحكوا، كأنهم يستنفذون كل ضحكات العمر الأخيرة... جذبه المبروك: تعالى...

في الشرفة أشار محمود، ونبيل ينفجر غيظا إلى الملاءة المنشورة في الطابق العلوي، لم يبدو على عبد الله الفهم، أشار أبو رحاب لورقة ملفوفة بدقة لا ترى ومثبته بطرفها جواب غرامي، الواد عنترة.

عـادوا للضـحك بعنـف وهـو يـدفعهم إلى الـداخل، وطـوال الليل تساءلوا وهم يتندرون عليه كيف جاء بهم إلى هنا؟ رويدا رويدا بدأ يحكى لهم...

- 3 -

من مقصده الجنة يصلى على النبي... نبي الهدى مبعوث من أهل غانم، لولا النبي لم كان شمس ولا قمر... عليه من صلى ينول المكارم. أنا عندي دوا لـلآه، أداوى مين وخلى مين، شيء على الوسايد وشيء مجروح وكله أنين... قالت عزيزة بنت الوهيدى معبد سلطان تونس الخضرا:

يا مي زي مين سيدك... قالت زي القمر لو زال السحايب، قالت عزيزة يا مي: وازى عينه. قالت عيون غزلان والكحل غالب، قالت عزيزة يا مي: وازى منسقه... قالت: يسبى بنات العرايب، ثمانين جارة حاوروه على لقا، ولا واحدة إلا وترسل كتايب، ولا واحدة إلا ترسل ليونس المرسال يرتد خايب، قالت عزيزة: آه... آه يا كبر بلوتي... نار قلبي زايدات لهايب...

قالت عزيزة... إيه السبب لما أبوي ظلمني... بنى لي قصر علاه في البنى، فرشه حرير من العجايب... داير كراسيه مرصع بالدهب، وأعجب يا ناس من العجايب، إيه فايدتك يا قصر يا مشؤم من غير حبيب، لا مين يلاعبني شطرنج والاعبه، واعيش وياه ونبقي حبايب.

لو كان زمان الهنا يسمح يجيبه، وأعيش مع الحبيب في مطايب، أنسى اللي راح وياه، وأقول السعد خادمني، وألفه ما بين الشف واللف والغطا، وأضمه لحضني زي ضم الحبايب(**) ...

في المساء طرق الباب، قام نبيل يفتح، وأمامه وقف شاب في السادسة والعشرين من عمره قصيرا ضامر الجسد.

- السلام عليكم... أنا حميدة، الشايب يصير حماي.

خمن من فوره أنه زوجها، اضطرب وهو يصيح مرحبا: اتفضل...

كان قد دخل دون انتظار لدعوة أحد، وكأنه يقول لهم بغلظة أنا صاحب الحوش... دفع برأسه في أرجاء البيت بوقاحة، ارتسمت على وجهه علامات الاشمئزاز، استدار راحلا لكنهم اندفعوا يستبقونه.

– والله لازم شاي، حلفنا بالله.

– باهي...

عندما جلس تساءل بأنفة وكأنه لا يعلم: مصرية؟

– أيوه.

سأل في لؤم ظنوه تبسطا منه: الإسكندرية؟

- لا أنا من القاهرة وعبد الله والمبروك من المنوفية ومحمود من أسيوط، وأبو رحاب من بنها، زرت مصر؟

هز رأسه برعونة.

– عمل؟

- أنا نعدى غادي كل ثلاث أسابيع نتريحوا، ونتفسحوا، ونسكروا تمام، ونجيب في عمال وهيك أغراض ونيجى.

قال نبيل متفاخرا: عجبتك مصر؟

- يا أخي جميلة بس ترى فقر، المصرية شنو تبي تقول؛ بقشيش... في الجمرك بقشيش... عسكري المرور بقشيش، الأوتيل بقشيش... البواب بقشيش، وأنا ننزل في سيارتي بي. أم. دبليو، ترى غالية واجد[47]، وفي يوم نزلت ما لقيت

---

47) واجد: جدًا / لهجة ليبية

العجلات... الأربعة انسرقوا بعز النهار... ساعة يا راجل... لمحهم يضحكون فاستطرد: ترى نحنا نرى الذهب ملقى على الأرض ما يمد واحد منا يده... لا... لا... المصرية غلابه واجد.

بدأوا يشعرون أنه يتعمد إهانتهم حاول نبيل أن يرده بلطف... فكر كلمتين في العظم نسمعهم والسلام:

- يعني... مش بس دي مصر، مصر فيها حاجات جميلة.

أجاب بحماسة وكأنه يلتقط خيطا يبحث عنه: نعم النسوان... أنا نعدى إسكندرية ترى الشراميط غادي متوافرات... متوافرات كتير... كيف تعيشوا يا مصرية... منين تدير بالك منين تجدهم.

قال نبيل محاولا التحدث بلباقة: كل بلد فيها الوحش والحلو... وعقب عبد الله مصطنعا أسلوب صديقه: النسوان اللي تقابلهم خدَّامات، فقراء... ضحك حميدة وقد لمعت عيناه: انت تقول هذا... المرة اللي تحضر فيهم لي زوجها عميد في الجيش، وما تحضر إلا نسوان كيف تقولوا يا مصرية، على سنجة عشرة، أزواجهن في مراكز مرموقة... ممثلات وطالبات جامعة... أنا ننزل في شقة مفروشة في سيدي جابر. ما تدري كيف... تاني يوم يدق الباب طالبات المدارس الثانوي... والله يا شيخ حتى إعدادي يجن[48].

...لا فائدة؛ ابن الكلب رأسه وألف سيف إن كل مصرية شرموطة،... قال نبيل في غضب:

- اللي يسمعك يقول كل البلد شراميط...

- لا أنا ما نقول هيك.

48) يجن: يأتين/ لهجة ليبية

وقام يبغى الرحيل، كان واضحا أنه نزل كي يفرج عن نفسه قليلا بإهانتهم...

تبادل محمود وعبد الله النظر في غضب، قال نبيل في لهجة حزينة غير قادر على ابتلاع الإهانة: لما تعدى مصر بلغني، ح عرفك المصري على حقيقته... كان يريد أن يستطرد قائلا: إن المصري شهم وراجل، والمرأة المصرية تصون عرضها... كانوا يريدون جميعا أن يقولوا أشياء كثيرة يدافعون بها عن أنفسهم وأعراضهم، لكن بدا الأمر لا يجدي.

– شكرا يا أخي، توا نشوف، باهي السلام عليكم.

لم يعجب محمود أن يمضي الأمر هكذا... أشاح له بيده قائلا:

- ترى أسمع بنات الإسكندرية، أنا أعرفهم بنات بحر يطوك في جيبهم، لكن جرب تروح الصعيد، وحاول تدور رأسك هيك ولا هيك... تتقطع جثتك حتت حتت، لا تعرف الكلاب لك طريق جُره.

اصفر وجه الشاب... قال محاولا التراجع: ترى أنا ما نقول إن كل المصريات أقحاب وكأنه قد زاد الطين بلة، وقبل أن يجيب أحد، دفعهم عبد الله للداخل، خرج نبيل لتوديعه، وعندما عاد سمع محمود يصيح في غضب: طب وحياة أمك لتشوف... عندما رأى نبيل أمامه قال: لازم ترفع راسنا يا ابن الكلب.

كان يعرض بزوجة الشاب واستطرد... الراجل بيقول نسوان مصر فاتحة له أفخاذها، وهو ابن الكلب الوسخ مراته شرموطة، لو يعرف ان هي اللي جابتنا هنا، يقول إيه.

عقب المبروك ضاحكا: يطق يموت.

قال عبد الله: لازم تاخد بتارنا.

نظر إليهم نبيل بعتاب... وقال موجها حديثه لعبد الله: حتى أنت...

قام ناحية الشرفة، جذب خطابه الصغير وعاد. صاح به محمود:

- نويت على إيه يا وِلْد؟
- خلاص ما دمت عرفت زوجها لا أستطيع الخيانة.

قال عبد الله متجهما: معاك حق...

صرخ محمود: معه إيه؟... خيانة مين؟ اللي تسكن فوق شرموطة.

نظر نبيل نحوه في غضب: أحترم نفسك، أنا من اللحظة دي قطعت صلتي بها، مش عايز أسمع كلمة عنها.

- جميل، اتركها لي، أعرفها أن البندرى (.......) طرى، ما تقول راسي إلا والصعيدي.
- طب حاول تقرب منها...

نظر إليه محمود بغدر: ح تعمل إيه؟

- حاول وح تشوف...

تدخل عبد الله محدثا محمود بنبرة تهديد:

- جرى لك إيه، مخك الصعيدي ح يتجنن علينا، قال لك مالك دخل يعني مالك دخل، ح نهزر.

- وانت محروق على إيه... أختك ولا من عيلتك.

تدخل مبروك: لا يا قفل، يا ابو مخ تخين، حاجة صاحبك ما ترفعش عينك عليها، حتى لو يرميها في خرابة... واستطرد ساخرا: يا صعيدي يا ابن الأصول.

استسلم محمود على مضض وقاموا إلى فراشهم، في الأيام التالية خرجوا مطأطئ الرءوس، وعندما رآها نبيل لم يرفع رأسه في وجهها وبقي متجنبا إياها.

في العاشرة ليلا سمع المبروك صوت ارتطام شيء في الشرفة، وعندما خرج وجد جردا[49] قد سقط من الطابق العلوي. وتوالى حدوث ذلك مرتين، وكان على أبو رحاب أن يعيده، فهزاله وضعف جسده يبعده عن الشبهات... في المرة الثالثة أدار محمود لهم ظهره، مغمغما، بصوت سمعوه جميعا:

- فوق قحبة شرموطة. وتحت صبي مرخى ماله في النساء، صرنا (......). كانت كلمة قبيحة...

في اليوم التالي لاحظوه يخترقها بنظرات ذئب وقحة، وابتسامة صفراء سافرة، كاد أن يتعرض لها بالحديث... لولا نبيل، دفعه إلى الداخل بعنف، عندما دخل عبد الله والمبروك، فوجئا بنبيل يأتي مندفعا من المطبخ شاهرا سكينا طويلة تجاه محمود... ومحمود ينتظره في برود... اندفعا يحتجزانه.

- بتعمل إيه يا مجنون.
- ح صور قتيل هنا.

49) الجرد: عباءة نسائية ليبية تخفي كل جسد المرأة ولا تبقي سوى شق لعين تري العالم من خلاله.

دفع أبو رحاب بمحمود إلى الخارج بكراهية وهو يصرخ به: إيه... ما عندك دم. أجابه دون أن يتحرك من مكانه: عندي، بس دم حار مش ميه، اتركوه، اسمع الجرد هذا ما يرميه شيطان من السما، ترميه مرة راجلها هاجرها، لبوة عايزه راجل يطفى النار اللي في حشاها، الجرد ده ترميه لك عشان تروح لها كيف المرة، أنا عارف أنك مش فاهم شيء، وانت اللي مخك قفل مش أنا. قاطعه نبيل وهو يحاول الفكاك من أسرهم: أنا مرة يا ابن المرة.

- هـا... حسـك تشـتم، هـادى هي المـرة الأخـيرة، دي عـاداتهم، عـدى ليهـا، كفايـة زوجهـا شـايف نسـوان مصر شراميط، مفيش داعي يا وِلْدْ العـم تقـول هي الأخـرى رجالـة مصر نساوين، أنا مش قاعد أهنا، واخد خلجاتي وطالع أنام في الموقع...

حل الهدوء بالجميع على الفور، وظهر على نبيل حزن ممزوج بالندم، جلس القرفصاء... قبل أن يرحل، صاح على نبيل الذي استمع إليه صامتا: أوعاك تقول إن الصعيدي عقله في (......) ها... أوعاك تقول خاف منك... أيووه...

هز عبد الله رأسه كي يغادر المكان، فاستدار خارجا وهو يلقى السلام: السلام عليكم... جاوبه الجميع بلا ضغينة، حتى نبيل أجابه بصوت خافت، وقد بدا إن شكا في موقفه يخامر عقله.

* * * *

أول من السلم تسلم عزيزة...

عقلي كمل من بعد ما كان غايب

تانى من السلم تسلم عزيزة...

قلبي معاك يا أعز الحبايب

رابع من السلم تسلم عزيزة...

الأرض ملك يمينك بساتين، بحور وكتايب

خامس من السلم تسلم عزيزة...

أنا ح أعملك سلطان بوالى ونايب

سادس من السلم تسلم عزيزة...

لخاطرك أبوي يروح الترايب

عاشر السلم ميت ألف سهلا ومرحبا...

وكل سلالم البيت تقول لك مراحب(**).

طوال الأسبوع عصفت به الأفكار، وهي تختمر في ذهنه، وفي يوم سفر حميدة المعتاد إلى الإسكندرية بقي في الحوش، راقبه حتى مغادرته درنة، في هذه الليلة تسلل قرب الفجر خارجا دون أن يشعر به أقرانه، وقف عند صندوق كهرباء إضاءة الطريق يتلفت حوله، فتحه بأداة خاصة، نزع سكين الكهرباء... جذب أحد الكابلات ثم أعاد السكين ثانية، عندما تسلل عائدا كان الطريق مظلما... في الصباح الباكر خرج وحيدا، وعلى إحدي النواصي التي يقل بها المارة، وقف يغلبه ضعف السهاد، ليلة لم ينم فيها من التفكير، وكلما اقترب

موعد قدومها كان عقله يحثه على إلغاء ما ينوي فعله، فيراوده عقله بسؤال آخر، وماذا بعد؟

ما يفعله تطور حتمي لما حدث قبلا، يشجعه في ذلك ظواهر الأحداث، ألم تسأله السكن بمنزلها... لماذا تفعل امرأة ذلك؟ هل تم هذا صراحة؟ سقوط الجرد مرة وراء الأخرى، أكان مقصودا أم مجرد صدفة؟ محمود الصعيدي السفاح... يهز رأسه مفكرا... لا شيء مؤكد... ارحل... في الرحيل السلامة... لا... ابقي يجب أن تنتهي هذا المغامرة لشيء ما، ربما السجن، فلتغامر إذن، السجن في درنة، ربما السجن في مصر. أما السجن في ليبيا، لا... عزم على الرحيل قال لنفسه بارتياح... ليس عن خوف ولكن عن حكمة... طالعه من الذاكرة وجهها القمري، فضرب رأسه بقبضته هاتفا... ولكني أحبها.

في السابعة صباحا بزغت كشمس خريفية باردة، دفء سيارتها الصغيرة الحمراء تقطع الطريق باتجاهه، ووجهها الشهدي يلوح من خلف الزجاج الأمامي، رياح الشبق تسبقها إليه، وقف ينظر إليها في ثبات، وعندما تلاقت عيونهم هز رأسه لأسفل، وشفتيه تنبس بصوت خفيض: الليلة... بدا عليها عدم الفهم... ربما لم تسمعه، في مرآة العاكس أشار بأصبعه إلى أسفل مكررا لها بشفتيه "الليلة".

في طريق عودتها كرر لها الأمر، في هذه المرة دفعته هواجسه لأن يغامر برفع صوته... "الليلة"... خيل إليه أنها هزت رأسها علامة الموافقة، لكن كيف له أن يتأكد من شيء.

أمضى اليوم والقلق يقتله، عندما أزف المساء كانت مصابيح الطريق مطفأة بينما بقيت أضواء المنازل والحوانيت

تغمره، عزم على أن يبدأ مغامرته في منتصف الليل بعد أن ينام الجميع، في الحادية عشرة قام على صوت ارتطام شيء بالشرفة، قام مفزوعا يخشى استيقاظ أحد وعقله الباطن يحدثه بحدوث مكروه، تسلل إلى الشرفة فوجد الجرد ثانية، طواه بين يديه، غير راغب في ارتدائه... الاطمئنان القليل الذي راوده بسبب سقوط الجرد دفعه لأن ينفذ خطته من فوره، تسلل يتلمس مواطئ قدميه، كان الطريق معتما إلا من أضواء بعيدة شاحبة، وعلى الناصية لمح شبحها من خلال النافذة المضاءة. حث الخطى إلى باب الحوش الرئيسي. دفعه بحرص كان مفتوحا. عندما بلغ بسطة السلم العلوي، وقف لاهثا يستمع إلى ضربات قلبه تدق بعنف، وقد امتلكه التردد وكل ما فيه يعصف به أن يعود... كمين؟... صُنع لي كمين.

- نبيل... نبيل... تعال... الباب مفتوح... صعد درجتين مشرئبا برأسه، كان الباب مواربا... جاءه صوتها الهامس ثانية:

- تعال... تعال... كنك تخاف.

صعد وقلبه يسقط بين قدميه.

- ما تخاف... تخاف ليش الشايب والعجوز ما يصحوا بُكَّلْ[50].

قبل أن يدخل سألها: وحميدة؟

قالت باستهانة: غادي في مصر يدور في عمال...

وقال والخوف يعصر بقبضته الحديدية قلبه: يمكن يرجع. ضمت حاجبيها في انتصار: توا هسه متكلم في الترنك من الإسكندرية، ما ييجي قبل أربعة أيام... باهى.

---

50) بُكَّلْ: نهائيا

تـنفس الصـعداء... مـدت سـاعدها مـن خـلال البـاب الموارب... جذبته إلى الداخل، فوجد نفسه على حين غرة داخل منزلها، وقد أغلقت الباب عليه...

لوقت طويل جمد مذهولا عن نفسه لا يستطيع الحراك، جفف عرقه الغزير لا يتوقف عن اللهاث، أعطاها لفافة.

- شنو هذا؟

- الجرد... مش انت اللي؟

أسكتته بيدها: اسكت اسكت... تفضح فينا!

ابتسم وهو يهمس: هو أنا يعنى ناقص.

- تعال...

أمسكت يده تجذبها برفق، عبرت به الصالة نحو غرفة نومها، دخلا، وبعد أن أغلقت الباب بالمفتاح تركته، وبغته قفزت إلى فراشها الوثير... وقفت ثوان والفراش يصعد بها ويهبط، قبل أن تسقط متكئة على ركبتيها العاريتين، وقد أثنت ساقيها أسفل ردفيها، ضمت يديها أمامها وأراحتهما بخفة أعلى فخذيها العاريين.

وكأنه يستعيد وعيه التائه... بدأ يمسك بملامح المكان المتسع... غرفة النوم الإيطالية الفاخرة الصنع، الأسقف المزين بالثريا، الإضاءة الخفية لا يدرك من أين تأتى... ستائر الدانتيل الأنيقة، قطع السجاد الثمين، وأنثى نمرة، نصفها السفلى شبة عار، تهتز على فراشها الناعم الوثير هبوطا وصعودا، تنظر نحوه بابتسامة مطمئنة تسبر غوره... عندما بدأ ينظر إلى عينيها مبتسما... نادته برقة: تعال.

دقائق طويلة ظل فيها يدور على مهل حولها وحول الفراش، يتطلع إليها، يقف وهلة يرشفها كقهوة صباحية، ثم لا يلبث أن يبدأ في الدوران عائدا إلى حيث بدأ، وهي في منتصف الدائرة، تدور معه، ترقبه وهي تملا به ناظريها. يرتكن بجذعه إلى الحائط مغمضاً عينيه، يأسرها في خياله، يتعبدها وحيدا...

... قميص نومها "البيبي دول"، تصل حافته أسفل أردافها، ويتوقف بكنار من الدانتيل الأبيض كاشفا عن سروالها الداخلي... ذراعين لينتين، وكتف يبيع عمره كي يلثمه، وفخذّي مهرة صغيرة قوية... جدائل شعرها الأجعد الفاحم السواد، عباءة تتوج جسدا مرمريا صب من الرخام... ربما التعب أو الإرهاق دفعاه أن يجلس على حافة الفراش معطيا لها ظهره، وقد خبأ رأسه بين ذراعيه مندهشا، اندفعت تجلس بجواره، والتفتت رافعة رأسها لأعلى تنظره...

– بتخجل!

لم ينطق، استطردت وهي تفك ذراعيه عن رأسه:

- مصري مو هيك؟

– أيوه... نطق بصعوبة... اسمك إيه؟

– ما تعرف اسمي. بس أنا نعرف اسمك...

نظر إليها مبقيا على تساؤله فأجابت:

– سلمى...

همست مقلدة اللكنة المصرية: بيفكر في إيه الجميل؟

ابتسم لسذاجة العبارة وجمالها حتى أن وجله انزاح عنه في لحظة:

- مش مصدق...
- مش مصدق شنو؟

لم يجبها، تراجع للخلف مستندا بجذعه العريض على وسائد الفراش، ونصفه الأسفل يتكئ على الفراش، وقدماه على الأرض...

همست ثانية: مش مصدق شنوا الجميل؟

- مش مصدق أني هنا، قريب منك، يعزلنا عن العالم جدران أربعة، وحيدين بعد أن كنا نلتقي لحظة خاطفة...

ألقى برأسه إلى الوراء مغمضا عينيه، رافعا ذراعيه إلى أعلى، محاولا أن يستقل بوجوده، مستعيدا وحدته، اندفعت إليه كالبرق دونما إرادة، تلقى بجسدها على صدره المكشوف، وبين أحضانه...

تلاطم النهدان والجسد اللين اخترقا ضلوعه... صدمة الشبق الجميل... شلالات الورود الثقيلة المرطبة بالندى ترتطم بجسده... مستقبلا أمواجها الوردية العاصفة، ورياح عطر جسدها تدفعه إلى برازخ الهوى وجزر الصفاء...

عبثت بأزرار قميصه بعصبية... مد يديه ينضوه عنه، انتظرت حتى فعل، ثم دفنت رأسها في صدره العاري، واستكانت بساعديها تحت إبطيه، وهي تهمس:

- أديش انتظرت هادا.

رفعت رأسها نحوه: اتركني أنام بحضنك وكفى...

غاصت بوجهها في صدره، سمعته يهتف:

- أحبك... أحبك... أحبك... أحبك...

ظل يرددها طويلا، وهي تصغى له دون أن تنطق، مدوخة برائحة جسده الفرعوني الفارع...

لم يدريا كم من الوقت مضي، ربما ثلاث ساعات، ضمها برفق، وهي ساكنة لا تريم... استيقظ عندما شعر بالبلل يغمر صدره... كانت تبكي... مد أطراف أصابعه يعبث في جدائل شعرها، رفعت إليه عينيها طويلا، غاص كل منهما في الآخر...لم يدر ماذا ألم به... كان مُدْلها في حبها...

- بحبك...
- قوام هيك... تكذب عليّ؟

هز رأسه نفيا كان عاجزا عن الكلام...

- أنتم يا مصرية تقولو كلام معسول...
- أنا قلت!

ضحكت من خلال دموعها وصاحت بصوت مرتفع:

- توك نطقت.

تحدث بلهجتها: أيش أقول؟

- أي حاجة، غنى. قولي حاجه أي حاجة... قول بحبك... قول...

همس: أنا بحلم...

هتفت وهي ترفع رأسها: صحيح... ولا تضحك عليٍّ... صمت لم ينطق... جذب رأسها ناحيته وهمس: نامي... نامي على كتفي...

- أنام... انت تملؤني...

نامت ونام... وعندما استيقظ وجدها تلثم عنقه... تركها مستمتعا بشفتيها، تغرقه بقبلاتها، قبل أن يميل إليها يقبلها، وعندما فعل. ألقت بظهرها إلى الفراش، واستقبلته في حنين جارف...

كان يلثم كل جزء من جسدها ببطء، يتجرعه على مهل يشربه في وَلَه، كانت تنظره، وعيونها تتسع عن دهشة غامرة، ولما بدأ يلثم أطراف أصابع قدميها اندفعت تجذب رأسه نحوها، تضمه إليها، تمنعه وكأنها تربو أن يفعل... تخلص منها برفق فلما فعل عاد إلى قدميها يلثم أطراف أصابعها، بوجْد ووَلَه وعشق مشبوب، وجسدها يحل به الشبق الحاد... قبل أن ينتهي رفع رأسه هَامسا:

- أحبك... أحب كل جزء في جسدك... أحبك... لم يحدث في عمري أني وقعت في سحر زي سحرك...

وانحنى يعيد لثمها من جديد... باطن قدميها الوردي... عندما صعد لساقيها انحنت تلتف به... نعومة الأزهار في ملمس بشرة فخديها... البطن الكثيب... مالت بجذعها إلى الخلف تتمطى في نشوة غامرة... أدارها في رفق فانسابت معه كلحن موسيقى، طراوة الندى على الأرداف... عندها بدأت تهمس بأنات الوله ولسعات لهيب تأتيها من لثمات شفتيه تمسح ظهرها في بطء وهدوء...

عائدا إلى النهدين، مخفيا وجهه في أمواج نهرها السحري، يرشف مياهه السلسبيل... صاعدا إلى العنق... رافعا رأسه يلثم وجهها... كانت تبتسم في سعادة... دفعته للخلف وقامت إليه تلتهمه بعينيها... مد يده جاذبا جدائل شعرها الليلي

يتشممه وَلَّها، جاعلاً منه خيمة من الليل تحيط به... جُنَّتْ. اندفعت تعانقه في صخب وشوق جنوني.

وعندما تركها بعد الفجر بقليل، والظلام لا يزال يخيم على المدينة، ظل طوال يومه يردد اسمها... سلمى... سلمى... سلمى...

* * * *

في صبيحة اليوم التالي وكان الجمعة، انفرد عبد الله به... قال له: كنت فين طول الليل؟

لم يجبه وبقي صامتا... قال له دون غضاضه: احذر... علمتني الحياة في بلدنا لا يوجد السر الذي يعيش طويلا... غربتنا سببها لقمة العيش يا صاحبي، رفقتنا ما كانت عيش وملح وبس... دي رفقة سلاح... لو حد عرف من الشارع باللي حصل ح يسحلوك، ولو نجيت من السحل، ح يكون السجن في انتظارك... وانت لا معاك إقامة ولا هوية... تظن أننا جينا لهذا الغرض... لم يجبه نبيل، تيقن أنه لم يصغ إليه...

في صباح السبت خرجا سويا، وفي ناصية الطريق أطلقت إليه ضوء السيارة من بعيد. ابتسمت هذه المرة لكليهما، حيت عبد الله، واستمرا هي ونبيل يبتسمان في تواطؤ، قبل أن تعبرهما، أرسلت إلى نبيل إشارة خفية من أصابعها، ثم غابت في حواري درنة ودروبها...

في هذه الليلة، وبرغم ابتسامتها الودودة إليه بوصفه صديقا لنبيل، عزم عبد الله على الرحيل.

*   *   *   *

الفصل الثالث عشر

- 1 -

على باب الحوش وقفت سيارة بيك أب، نزل منها أبو نديم ومعه شاب ليبي، يعمل سائقا على خطوط طرابلس درنة، رحبوا بهما، ودعوهما للدخول لكنهما كانا متعجلين، بابتسامة الرجل المطمئن الواثق من نفسه خص أبو نديم عبد الله بالسؤال: شو، كيف حالك؟

أجابه بابتسامة أعجز من أن تخفي اكتئابه: بخير يا عم أبو نديم، تفضلوا ادخلوا، اشربوا شاي.

قال أبو نديم: والله، صار فيه شاي! مش مصدق...مبروك فيه شاي ولا لا؟

أجابه: طبعا... صحيح بتاع نبيل، لكن بكرةِّ (نرده) لْه.

نظر له نبيل بغضب: الحوش مش غريب على أبو نديم...

قال الليبي: معلش، سامحنا يا أخي احنا في طلب وبدنا نرحل فورا.

تساءل أبو نديم: بتعمل إيه (توا)[51]؟

فقز قلب عبد الله من حلقه: أنا!

- إيه أنت، فيه حدا غيرك.
- أعمل مع نبيل، لكن إذا عندك شغل ما فيش مانع.
- باهى الأخ فرج الفرجانى يبى راجل أمين، وشِّغيل يخدم عنده، ويقدر يعتمد عليه بمزرعته وأنا قلت إِلّه[52]، بعرف راجل مؤدب ومليحة أخلاقه، وهلا جئنا لعندك... أيش تقول؟

كان حديث أبو نديم اللبق كافيا لجعله نفسيا مستعدا لقبول أي شروط، فقليل من الكرامة لديه وصون ماء الوجه بمال الدنيا، ولهذا عندما سمع الحديث، ورأى الليبي يؤمن على كلام أبو نديم، نسى. عمله مع نبيل والسفر إلى بنغازي، وغمره شعور بالشكر والعرفان للسوري.

- مرحبا أبو نديم تحت أمرك، بس لازم تشربوا الشاي.

قال الليبي: شكرا، شكرا.

---

51) توا: الآن / لهجة ليبية
52) إِلّه: إليه / لهجة شامية

عقب أبو النديم: يا أخي على كل حال، المهم بدك تشرفني عند الأخ على، ومن ناحية الفلوس، تأكد آخر كل شهر بتوصلك على داير الدرهم، والرجل مقتدر ولا يأكل في عرق عماله.

- أيوووه... عقب الليبي

ظن عبد الله أن راتبه لن يقل عن خمسين دينارا، فقفز قلبه بين ضلوعه، وأبو نديم يستطرد قائلا: أما السكن والآكل فسوف يتكفل بهما الأخ على، اسمع إذا قصر في شيء، أنا المسئول، مع الأخ علي، ح تكون في غاية الانبساط.

قاطعه عبد الله: باهى يا عم أبو نديم، (وكان يخاطبه بعم، رغم أنه يكبره بسبعة أعوام)، مادام جيت لحد هنا، أنا أعمل من غير فلوس خالص عشان خاطرك.

قاطعه أبو نديم غاضبا، غامزا له من طرف عينيه، دون أن يهتم بالليبي: كيف خيو... كيفك تقول هيك كلام، وتسوى شغلات فارغة، أوعاك وَلَه، حقك تاخده على داير درهم، عرقك ما تفرط فيه، ليش أنتم هيك يا مصرية.

واستدار يحدث الليبي: ولا لا أخ على.

أمن الشاب على قوله في أدب: احنا ما ناكل حقوق الناس، نروح من ربي فين، الله خالقني نروح جهنم، أنا وباتى[53] نخاف الله.

عقب أبو نديم: غدا الأخ على... سأله: أمتي بدك تعدى عليه؟

53) باتي: أبي / لهجة ليبية

- في العشية.

استطرد أبو نديم: تجهز أغراضك من شان تقعد فوق في الجبل، ما تنزل كل يوم ولا حتى كل أسبوع... باهي.

في هذه الليلة حدثه نبيل على فراش النوم: فاكر حمدي... المدرس السلكاوى اللي كان معنا واحنا نعبر الحدود.

- ماله؟
- أخذ الجنسية.
- إزاي وهو دخل ليبيا سلكاوي.
- راح مركز الشرطة، طلبها وأعطوها له.
- ويستفيد بها إزاي؟
- كان معاه شهاداته.

أشاح المبروك بيده: الجنسية توفر كل شيء، سكن وعلاج وتعين في الحكومة على درجة كبيرة... يعمل إيه؟ شهر ما يقدر يخرج من الحوش، تعرف لو الحكومة في مصر عرفت!

قال نبيل: إيه ح تعمل يعني، هو لقى ياكل في مصر. وما قعدش، كمان مدرس، يعنى روح الأطفال بين أيديه، (أمال احنا نعمل إيه؟

سأله عبد الله: بتفكر تاخدها؟

شعر بالحرج: مش عارف إيه رأيك؟

- حد يترك مصر، الناس تروح مصر واحنا نتركها.

- ج -

جلس منتشيا في مؤخرة السيارة نصف النقل، واضعا أغراضه القليلة بجانبه، عندما غادرت السيارة الطريق الأسفلتي القديم، منعطفة إلى مدق ترابي يتلوى مخترقا الوديان، صاعدا الجبل الأخضر في انحرافات حادة، شاهد الشجيرات القزمية تغطي سطوح الوديان والجروف، وقمم الجبال بخضرة داكنة، شعر برعدة البرد والجو تتكاثف فيه الغيوم منذرة بمطر غزير، في الأنحاء شاهد براكات الرعاة المصنوعة من صفيح التنك، تتناثر في أرجاء الوادي وسفوح الجبال، وقد بدت كأشباح تقف وحيدة وسط السكون المخيم على الفضاء.

بعد ساعة ونصف بلغا برَّاكة من صفيح التنك، شيدت على قمة هضبة ممتدة الأرجاء، وخلفها ارتفع الجبل في انحدار مباشر، في الأمام ومن حيث قدموا كانت الهضبة تنحدر ببطء نحو الشرق، حتى تصل إلى بطن الوادي المنبسط الأرجاء. وقفت السيارة، دعاه الشاب للنزول وأخذ طريقه للبرَّاكة هاتفا به:

- توا نجيك...

دفع الباب ودخل تاركا عبد الله واقفا بجوار السيارة، وسط جو زمهريري، يحدق في البرَّاكة والسور الصفيح المحيط بها، ينتهي بحظيرة الأغنام وجرار قديم متهالك، ظل ينتظر عودة الشاب ليدعوه للدخول، وينقذه من هذا البرد القارص دون جدوى، تشاغل عن الانتظار بالتفكير، لم يكن يعرف بالضبط طبيعة عمله، تساءل أين تقع المزرعة؟ لكنه وعلى امتداد

النظر لم تكن ثمة أرض تصلح للزراعة، خمن أنها ربما تقع خلف هذه التلال، خالجه قدر من السعادة لمجرد أنه سوف يعمل بالزراعة... فليتركوا الأمر لي وسوف أحيل أرضهم جنة، لو أنهم يعطونه الأرض مشاركة بدلاً من الراتب، والله من مصلحتهم... ليه لا... لكن ما بال على لا يخرج، الوقوف في البرد غير العمل فيه.

عاد لتأملاته متخيلا ابنة الرجل، وهي تكشف في خجل شديد عن جزء من وجهها الأبيض المدور، تطارده عيونها النجلاوان بنظراتهما أينما يذهب، تدخل عليه مكان إقامته فيهرب منها للعراء... قطع عليه أفكاره فَتح باب البرَّاكة، خرج على وخلفه شيخ عابس الوجه، متجهم الملامح، في العقد الثامن من العمر، ارتدى الملابس الوطنية؛ شنة[54]، وصديرية مزركشة حمراء، وقميص يصل لركبتيه، وسروالاً أبيض، تقدم نحوهما وعلى وجهه ابتسامة واسعة مطمئنة، والشايب يهتف بابنه: هذا هو المصري... شنو اسمك.

أجاب متلعثما وهو ينظر بحيرة إليهما عبد الله...

- تبي تخدم؟

قال في نفسه... وعلام جئت إذن: نعم...

- باهي.

قذف إليه ببطانيتين قديمتين، إحداهما مهترئة، والأخرى لازالت متماسكة، استطرد العجوز: هاك فرشك وغطاك، اتمدد هناك. وأشار إلى جوار السور. همس عبد الله معترضا على نومته في العراء: في الظّل!؟

---

54) شنة: طاقية، غطاء ليبي للراس

قاطعه الشايب: باهي، توا نام هَكٍ[55]، وبعدين نسوى في برَّاكة.

لم يكن أمامه خيار، نفض عن خاطره أحلامه، وتخيلاته البهيجة في يأس، وحل محلها الإحباط والمرارة، وبعد أن أعياه البحث عن مكان مستو وجد على بعد خمسين مترا مكانا مغطى بالحشاش.

مد إحدي البطانيتين والتف بالأخرى، شعر بالبرد يقرصه، قام يرتدى ملابسه كلها، شدد من التفاف البطانية حوله وتمدد، قبل أن ينام، أقسم بالله أنه لو طرق باب يهودي في ليلة من ليالي الصيف وليست كهذه، لتخلى له عن حجرته التي ينام بها إكراما لغريب، لكن هؤلاء!! رقد في العراء، والبرد ينخر عظامه، حتى بات موقنا بأن ما سوف يجمعه من دنانير لن يكفي لعلاج الروماتيزم الذي بدأ ينتشر في جسده.

قبل أن تشرق الشمس على حافة الأفق كان الشايب ينغزه بعصاته يوقظه، فتح عينيه على وجهه الضامر العبوس، متوقعا أن يدعوه إلى داخل البرَّاكة كأقل من كلب حراسة دون جدوى، ألقى الشايب له بالإفطار، شرب الشاي الأسود الثقيل المحلى بالسكر مع بقايا الخبز، والباقي من طعامهم مخلوطا بمعكرونة باردة مغموسة في هريسة[56] شديدة الالتهاب، عافها في الأيام الأولى... كيف بالناس تفطر على معكرونة، لكنة الجوع؛ علمه أن يلتهمها التهاما فيما بعد.

55) هَك: هكذا: لهجة ليبية

56) هريسَة: شطة شديدة الالتهاب

حين أنتهى، ألقى إليه الشايب بجراب به رغيف ضخم من الخبز البيتي، ورأسين من البصل وعلبة من المعلبات الفارغة يستخدمها في عمل الشاي، ومقنن من الشاي والسكر، وبعدها رحل على ثلاثمائة رأس من الماعز والأغنام، يقودها كلبان، أحدهما قوى الشكيمة متوحش، والآخر مستسلم يتبعه كظله، إن هاج عليه خفض رأسه وأذنيه، ووضع ذيله بين قدميه الخلفيتين صاغرا ذليلا.

في رحلة يومية طويلة يأخذ الجميع؛ الأغنام، والكلبين، وعبد الله طريقهم إلى الوديان والجبال بحثا وراء الكلأ، والمراعي الغنية بالعشب الأخضر، وعندما تقارب الشمس للسقوط خلف الأفق، يبدؤون جميعا في العودة، خلف الكباش التي تعرف طريقها جيدا، يدفعها ظمأها إلى مورد المياه القائم بجوار البرَّاكة.

توقف العجوز عن إيقاظه، واعتاد النوم في حظائر الغنم، طلبا للدفء، تقية شر الرياح وتمده ببعض الحرارة، أياما يأخذه النوم من شدة الإنهاك فترحل الأغنام باكرا دونه، لحظتها يتلقى سيلا من اللعنات تمطره بها المرأة الشابة الصغيرة، فيما بعد تعَّود أن يربط قدمه قبل النوم بحبل يتصل طرفه الآخر برأس كبير القطيع، عندما يبدأ الكبش في جره يسارع بالنهوض، حيث يجد مخلاته معلقة على سور التنك، وبها طعامه اليومي ودخانه وعصاه، فيخطفهم، ويسير راحلا خلف الأغنام، تاركا إياها تأخذه إلى أي اتجاه، وتحط به في أي مكان، وعندما تصبح الشمس في كبد السماء ويحين وقت القيلولة، ينصب عصاه مثبتا بها قطعة من قماش الخيام، واضعا نصف جسده تحت ظلها، تاركا الباقي للشمس.

في الأيـام الأولى ظـل يبحـث عـن شـجيرة تمكنـه مـن أن يستظل بظلها، عبثا وجد، ولما كان من العسير عليه أن يستريـح قليلا أو يجلس لـدقائق دون أن يقـوم لإحضار عـنزة شـاردة أو غنمة تباطأت متلكئة خلف الغنم، صار يتأخر كثيراً في العودة حتى ينهكها، وعندما تأتي القيلولة يستلقي تحت خيمته، تأخذ الغنم في النوم زمناً طويلاً، ويتمدد تحت قدميه الكلبان، بعدها يعكف على تناول طعامه، خبزاً مغموسا في الشـاي والسكر، وأمامه تمتد الأرض داكنة بالخضرة، بالغة العمق والاتساع، الثنايا والطوى خلف الطوى، وبين كل منها اتسعت المسافات وتحـدبت، وتتابعـت المنحـدرات والهضـاب، واحـدة خشـنة كعجز امرأة عجوز، وأخرى ناعمة كنهد فتاة بكر لم تجد اللذة إليهـا طريقـا بعـد، وجسـد الأرض مغـطي بالزغـب الأخضر، شجيرات صغيرة ونباتات عشبية.

في الـوراء أطلت السـماء عليه كما هي منذ عبوره الحـدود، غيوم داكنة وأفق ضبابي بارد ورياح تشـد عليه وتقسـو، ثـم تلين، وفجأة تدنو منه وتهاجمه بعنف، كان الأفق يبعث في نفسه الارتياح وسط طبيعة جـرداء وسـماء غيومها ثلجية، سرعـان ما رحلـت أحاسيسـه الباهتة بالراحة والجمال، وحل خلفها نزوع الملل الشديد، فيميل إلى النوم من تعب ومشقة التجوال خلف القطيع، التي كان يشعر معه بأنه سيد مطاع على رعيته، يركل هذا ويضرب تلك بالعصا ويدفع ثالثة، يطلق الكلب وراء مـاعز غابـت في ثنايا الجبـل، ولا يلبـث أن يتمـدد وسط الطبيعة الباردة، يلمح منحدرا شاهقا وقمة لجبل تطل عليه، غيوم تتجمع في الأفق، طيور تحلق من شاهق ثم تهبط في حلقات مستديرة، تغـوص في قـرار جـرف صخري عميـق، تختفي ثم تعود محلقة إلى أجواز الفضاء، ويقوم بحثا، عن

أرض عشبية يدفع إليها القطيع، ويرى أخرى حجرية متصلبة يحدق بها وقد كستها أنواع غريبة من نباتات شوكية.

ما لبث أن تماثلت المناظر والمشاهد، وأخذت وحدته تؤرقه يوما بعد يوم وبدا العمل ثقيلا على النفس، ملولا باعثا على الضيق، يمضي يومه في آلية محضة، ينام مبكرا ويستيقظ مبكرا، وطوال يومه يسير مرهقا خلف القطيع، يجمع الضال منها ويدور بها في رحلة لا تنتهي، يسرق القيلولة ويعود بعد أن يهلكها ويهلك هو، تنبعث من جسده وملابسه المتسخة رائحة الغنم النتنة، ويمتلأ جسده بالحشرات القذرة... قمل وبراغيث وحشية. ما أن يصل البرَّاكة حتى يجد (نورية) ابنة الشايب الهجالة[57]،في انتظاره، تفتش في الأغنام، وهى تمطره بلسانها السليط، تراعيها وتطيبها وتداويها، تولد الحامل منها، وتحذره من ذلك، وتوصيه على تلك، تحاسبه، هذه لم تأكل، ثم تعدها في سرعة وبراعة، وعندما تتأكد من سلامة القطيع، تأخذه جميعا إلى حيث تسقيها من عين بالوادي، فإذا انتهت ألقت إليه عشاءه المصنوع دوما من المعكرونة المملوءة بالهريسة، تتوسطها قطعة من الدهن، وأحيانا أمعاء الماشية، فإذا انتهى سعى للهروب منها ومن لسانها السليط الموتور الدائم الحنق، حتى ولو لم يكن هناك ثمة شيء... عشرات الأسئلة تعود أن يستمع لها ولا يجيب:

- كنك... ليش رجعت بدري؟
- كنك... ليش رجعت متأخر؟
- كنك... الآكل مو عاجبك؟

57) الهجالة: المرأة المطلقة أو الأرمل / لهجة ليبية

- كنك... ما تراعى في الغنمات؟
- كنك... تباهت في الغنمات؟
- كنك... نايم قريب؟
- كنك... نايم بعيد؟
- ليش... ما بتستحم؟
- ريحتك صارت منتنة... الميه واجد؟
- على أيش تستحم... ما في ميه... ويلي... تلاقي عندك وقت!!

وهكذا لا تجد المرأة الصغيرة ما تفعله طيلة نهارها وليلها سوى عبد الله، العبد الذي أرسله الله لها، تفعل به كيفما تشاء وهي تتيه إعجابا بذاتها، وكأنها نورية بنت الحاج فرج الفرجاني العالم العَلامة والحبر الفهامة، التي وجدت في عبد الله الحمار الذي ستحوله بغلا، بينما إذا تحدث أبوها عن معارفه الجمة وخبراته العريقة، فكأنك تحادث أحد علماء الفقه والسنة، أما العجوز فإذا حدث ورأى وجهها من خلف الجرد، فكأنه رأى وجه قط متورما مستنفرا، شديد الغضب والعبوس، قتلت نوريه فيه كل إحساس بالراحة والبهجة، فمنذ التقى بها في اليوم التالي لوصوله، تخيلها أنثى خجلي، تخفي وجهها عند رؤيته، تلقي إليه بتحية الصباح، مكتفية على عادة الليبيين بكلمة "خير"، لكن تخيلاته كما كانت دائما قاصرة ساذجة، إذ وجدها سافرة الوجه، ممتلئة العود ترتدى الرداء فوق سروالها الفضفاض المملوء بالرسوم الزاهية لا تناديه إلا هاتفة:

- هيا... هيا يا فوال.
- وين الغنمات راحت.

- أرجى فيهم، عجل، هيا... هيا يا تيس.
- هاد جرابك...

وإذا لمحته يتلكأ خرجت تنهره صائحة: هيا يا مصري... هاك المخلة.

- سَجِّدْنا يا فوال.

شعر بجرج عميق في كرامته، الكلبة مرغت أنفه في الرغام، منذ عبوره الحدود والإهانة تلاحقه كظله، أما أن تحقره امرأة بهذه الكيفية، تكنيه بفوال لا طعام له سوى الفول الرخيص الذي تطعم به البهائم.

كانت في ذهابه وإيابه تكنيه قائلة: المصري هذا... الفوال هذا...

- دير بالك على الغنمات يا فوال.

- هيا... تبي تاكل، آيووووه الفوال مصروع على الأكل، وتارك الخرس تجوع؟! كان يحدق فيها غاضبا دون أن ينطق بحرف، ويرحل والجوع ينهشه، يحادث نفسه كالمخرفين... إذا لم آكل هنا، أين آكل إذن، ربما تريدني ألوك الصبار مع الغنم، كانت إذا أشارت إليه ففي احتقار، وفي صوتها نبرة مملوءة بالازدراء وكأنها تلقى بمخاطها، دون أن تتجشم مشقة النظر إليه.

أنتابه إحساس بالضآلة الشديدة... شعر أن أجره هذا إنما عن شحاذة وليس عما يبذله من عمل شاق، أو حتي مجرد طعام يومه، تحطمت نفسيته، وانهار جسده، وأصبحت رحلته عذابا جديدا من الإرهاق، كل شيء صار مسخا، وعاد

المطر للسقوط مرة ثانية، غزيرا شديدا متواصلا لا يتوقف إلا لفترات قصيرة ثم يعود للانهمار.

في الليلة الثالثة لسقوط الأمطار استيقظ في منتصف الليل، كان يسبح فوق سيل من المياه يجرى من تحت جسده... استيقظ مبتل الملابس، وطوال الليل ظل يفكر في الدخول للبرَّاكة، يتقدم نحو الباب مرة بعد المرة يريد أن يطرقه ثم يتوقف خجلا، لابد أنهم سوف يفتحون له، ما بالهم لا يفتحون؟!. ألا يشعرون بسقوط المطر، أأطرق الباب؟ لعلهم نيام... لا... لا تفعل... انت لا تعرف ماذا قد يفعل معك الشايب... يا الله الرحمة.

هكذا أمضى الليل مستيقظا حتى كف المطر عن السقوط، في الأيام التالية اشتد المطر ثانية فشرح للشايب آلامه طالبا منه أن ينام داخل البرَّاكة لكن الراجل رفض، فطلب منه أن يبنى له البرَّاكة التي وعده بها لكن الشايب لم يهتم.

* * * *

في أحد الأيام عاد متأخرا كعادته فوجد نورية تفحص القطيع كعادتها، لم يكن قد جلس بعد حتى صاحت به:

- هوه... هوه... تعال يا فوال...

قام إليها متثاقلا ولم يكن قد تناول طعامه، مقلدا لهجتها: تبي شنو؟

هاجمته بصوت حاد كرنين الجرس: نبي كيف ما نبي، وين الغنمة، تراك ضيعتها؟

– شنو غنمة.

– غنمة ناقصة، يا ناقص تراك بعتها.

انتفض كمن لدغه عقرب: غنمة ضايعة، مستحيل... عديتيهم؟

- من غير ما نعدهم، فيه غنمة ناقصة، وين ضيعتها؟

جاء الشايب والعجوز من الداخل على صوتها، أصيب بالارتباك، صاحت فيه العجوز بصوت جاف خشن: لم يفهم من كلماتها التي اندفعت كطلقات مدفع رشاش سوى أنها تشتمه: كنك ما تدير بالك على الغنم. يا تيس يا قواد، يا زامل، تبي تاكل حرام يا ملعون.

جذبها الشايب للخلف بلطف، ثم واجهه مكشرا الأنياب، ملقيا إليه بمصباح كهربائي... صاح بهم عبد الله: تروى شوي. تروى شوي... أنا نروح نبحث عنها، ليش تشتموا، عبد أنا عندكم ولا إيه، اشتروتوني من سوق العبيد!؟

- هيا... هيا يا فوال اذهب... ابحث عنها، ترى والله أنك حرامي، يا كلب، يا ابن الكلب. أشاح لهم بيده، لم تكن لديه أي قدرة على العراك، وخاصة مع رجل عجوز وامرأتين، أعطاهم ظهره ورحل باتجاه سيره اليومي بحثا عن العنزة، وهو يغمغم...

سير يا ابن عند الجليل... في هذا الليل الأسود الطويل... لم أشلاءك المبعثرة... ده الفلاحين نفاية... هو كان للحرب غاية...

- 3 -

سير يا ابن عند الجليل... في هذا الليل الأسود الطويل... لم أشلاءك المبعثرة... ده الفلاحين نفاية هو كان للحرب

غاية... هذا الليل الأسود الطويل يخيم على موقع الكتيبة، والساعة لم تبلغ الخامسة صباحا، وانت في طريقك إلى مقر القيادة كي تستلم تمام إجازتك، شخص ما نادى عليك في الظلام من مطبخ الميدان... إبراهيم عبد الفتاح:

- عبد لله... عبد الله رايح تستلم تصريح الإجازة؟

نظر نحوه مندهشا: إيه اللي عرفك يا دفعة؟

- العريف طارق صبري.
- مال طارق الزفت ومالي؟
- وحياة أبوك أنا طالبك في خدمة.
- خير
- أنزل الإجازة دي بدالك.
- مقدرش، أنا طالع دين أهلي، أعصابي ح تنهار.
- وأنا ح تجوز.
- تتجوز!
- أي والله.
- طب وأعمل إيه، ما تتجوز بعيد عني.
- ما هو اللي ح يتجوز محتاج إجازة يا عبد الله يا خوي.
- وهي حبكت معاي، ما تروح تاخد اللي انت عايزه منهم.

- ما انت عارف، الإجازات موقوفة، وأنا رتبت كل حاجة البلد كلتها مستنياني.

- يا أخي أتنيل، مستنيين أم كلثوم ولا عبد الحليم حافظ، روح أجري بلا نيلة.

- الرائد هشام قال لي عبد الله الوحيد اللي وافقوا له على القيام بإجازة، اتصرف معاه، أبوس ايديك، وحياة أبوك، الله يرضى عليك.

مال يقبل رأسك فتراجعت معترضا: خلاص، خلاص يا إبراهيم.

- وافقت. وافقت، يا سلام على الجدعان، أحب راسك، أبوسها.

- خلاص يا عم، أنا رايح أسحب لك الإجازة، من عند الصول عبد المسيح.

صرخ وهو يجرى لأسفل الخندق، يصلح من ملابسه ويرتدى اليبادة:

– لا... لا وحياة أبوك، أنا اللي ح روح له.

– انت خايف أرجع في كلامي؟

- أبدا والله... فلما صار بجانبك قال ضاحكا: مين عارف يا خوي. وانطلق يجرى باتجاه مقر قيادة الكتيبة. تضحك وتصرخ فيه:

- يا ابن الكلب، مش مستأم... شيء ما أوقفك عن الحديث، شيء ما جعلك تصرخ به في جنون.

– اوعى... اوعى يا إبراهيم... إبراهيم.

الانفجار الذي دوى في الفضاء ألقى به عشرة أمتار في الفضاء، عندما أفاق بصعوبة، قام نحوه يجرى وهو يصرخ:

- دا ح يتجوز يا ولاد الكلب، عروسته مستنياه، لسه ما دخلش دنيا... آه يابا... آه... آه يابا... مات إبراهيم بصاروخ

جو أرض، مالوش أثر، الواد مالوش أثر يا ولداه، مين فينا اللي كان ح يموت، أنا ولا انت يا ريتني كنت أنا، يا ريتنى كنت أنا.

في ثوان معدودة كانت الانفجارات تدوي في كل مكان بأرض الكتيبة، وقد تحول فضاؤها إلى قطعة من الجحيم... نار وَلَهب. غبار ودخان... دوَّر على العنزة يا ابن عبد الجليل... لا... دور على مدفعك... عنزة مين ولا حتى جمل... سيبك من ولاد الكلب، دور على طاقم مدفعك... الدخان لا ترى منه كف اليد... أنا فين... فين اتجاهك... أجري هنا وهناك... فقدت الاتجاه... تتعثر في جثث مبعثرة... أيوه إيه ده... سلك تليفون اتصال الوحدة... امسك به وأجرى وراه، علّهُ يدلك ع اللي بتبحث عليه.

يا الله... ما هذا الدمار. لحم وعظام متنتورة... أشلاء مبعثرة ومجاري من الدماء... تلات مدافع مدمرين... جهاز ربط الطبة ومكبر الزاوية مبعثرين ع الأرض... ماسورة المدفع وزنها طن وطولها تسعة أمتار محنية للأمام... الصلب صار كنافة... هو ده النابالم!

- عبد الله كنت فين؟ ناداه نبيل.
- إيه موقفك؟

- مدفعنا والمدافع أرقام تلاتة وسبعة دمرت، خسارة السرية 27%

- وبقية المدافع.
- هرب الجنود.
- كام واحد من الطاقم فاضل؟

أجابه محمود: سبعة.

شغل مدفع رقم اتنين. وأنا جاي، ح تقدروا؟

- نقدر على أمه، مادام شغال، احنا قلنا كده بس الخول طارق صبري!

- ماله؟

- هو اللي منعنا.

- والملازم أحمد حسن.

- تعيش أنت.

- والملازم مدحت؟

- ما انت عارف، تلاقيه مستخبى في حفرة برميلية، متبول على نفسه.

برقت عيناه وصرخ في رفاق السلاح: اطلع على المدفع وإن كلمك الكلب طارق أضربه بالرصاص، معاك طبنجة؟

- لا.

- فين جثة الملازم أحمد؟

- هناك، جرى ناحيتها، نزع المسدس واستدار يبحث عن بقية السرية.

الذعر... الذهول... إسهال الجنود وسقوط شعر بعض منهم... وأمامه حشر إثنا عشر جنديا هم طاقم المدفع رقم أربعة أجسادهم حشرا في أحد الخنادق، يحتمون بساتر رملي... قفز يركلهم بأقدامه صارخا، تبلغ مسامعه دمدماتهم في رعب.

- احنا غلابة... احنا غلابة يا رب...

- قاعد ليه يا روح أمك، قوم يا ابن الكلب قوم، ربنا على المدفع هناك مبيستخباش في الخنادق... قوم يا ملعون هو ده وقت الركون...

نظر إليه قائد الطاقم بغضب وقفز نحوه ينشب أظافره في عنقه وهو يصرخ به: وانت مالك يا ابن الكلب... دفعه إلى الأرض بعنف جانبا وسقط فوقه مصوبا فوهة المسدس على رأسه.

- أقسم بالله العظيم أضربك بالرصاص... والتفت ناحية البقية.
- حد فيكم معترض... وعاد يصرخ كالمجنون ثانية.

- ده تهمته هروب... اللي مش ح يرجع يشتغل على مدفعه ح أعدمه رميا بالرصاص... وأنت... يا جبان.

فقز الجنود وكأنهم في حاجة إلى من يدفعهم إلى مدافعهم... كان أول من عاد للعمل، مدفع رقم (2)، صوت طلقاته التي دوت في الفضاء أعاد للفصيلة اتزانها، نظر ناحيته كان محمود يصرخ به ضاحكا:

- تمام يا وَلَه...

أجابه وهو يستدير باتجاه المدافع الأخرى: تمام يا ابن الكلب... دقائق وارجع لكم... من بعيد كان قائد البطارية رقم ثمانية يجرى نحوه.

- فيه عطل في المدفع يا عبد الله.

أجابه وكلاهما يجرى سويا باتجاه موقعه: وطاقم المدفع...

- كلهم ع المدفع... لكن الحاسب والرادار متوقفان عن العمل...

- وأيه يعني يا وَلَه... ضغط على أجزاء الاتصال الكهربائية هنا وهناك، وعندما استجاب الرادار للعمل كمستقبل صاح بهم.

- تقدر تشغل نصف آلي يا جندي... انتظر... نتأكد من تشغيل ربط الطبة... صعد على الموجة، كان الجهاز قد أصبح قادرا على مطابقة الطلقات مع الهدف... قفز خارج المدفع، وطاقمه ينظرون إليه يتابعونه في ترقب لا يدرون ماذا ينوى فعله... صاح بأعلى صوته:

– مدفع رقم تمانية جاهز للضرب... اضراااب.

وكأنها إشارة الحرب... قفز الجنود على المدافع بجنون، فرق خيالة تدك الكون، ترمح لساحات الوغى، وعلى السما تحفر، حقولا من لهب وساترا من النيران.

قبل أن يبلغ مواقع القتال الأخرى، كانت المدافع المتبقية من السرية تعمل جميعا الآن، عاد إلى مدفعه، لم يحاول أن يستعيد مكانه على جهاز التوجيه، وقف بجانب جنود مناولة الذخيرة الذين كانوا يعملون جاهدين لتلقيم المدفع بالطلقات زنة المائة رطل بعد أن فقد الطاقم خمسة من الجنود.

في الساعة الرابعة عصرا، توقف القصف بعد يوم مرير ظلت فيه الطائرات الإسرائيلية تهاجم اللواء طيلة النهار، قاموا يدفنون أشلاء الشهداء في الرمال، من بعيد ظهر العريف طارق صبري مخفض الرأس.

قال محمود معرِّضا: عبد الله يا ولد أبوي، هي عقوبة الهروب من الخدمة إيه؟

قاطعة أبو رحاب: الضرب رميا بالرصاص.

ضحك البقية... عقب المبروك: كل من كان جبان النهارده ح ينتقل من خط القتال، يرجع مصر.

- ليه! ده انت بتحقق له مناه، مكانه الخدمة في المطبخ، بوفيه السادة الضباط عشان ما يحدث تأثير سلبي على الروح المعنوية للجنود.

لم ينبس طارق ببنت شفه وإنما ألقى بجسده إلى فراشه دافسا رأسه في جدار الخندق، دقائق طويلة مضت قبل أن ينطلق في بكاء هستيري... المبروك الوحيد الذي لاحظ تبوله على الفراش، قام يبحث عن عبد الله، وجده بالخارج وقد أقعى على ركبتيه يطارد أعدادا من الفئران الصغيرة، وردية البشرة تتشمم بأنوفها جثث الشهداء صرخ: نهار أسود... إيه اللي جاب الفئران دي هنا، ح نلاقيها من الصواريخ ولا من التيفويد.

- انت غبي، هي جثة الشهيد تنتن طول عمرها، شم يا ابن الحمار، ريحتها مسك، عنبر، شم ودفع كفيه للتين حمل بهما الأشلاء في وجهه.

- ابعد عني كتك البلى، يلا، يلا نلحق السرية، والصباح رباح... لم يأبه به واستمر يدارى أشلاء الرفاق ويغمغم... هو الطيران بيعطى حد فرصة يلتفت وراه.

في الثانية صباحا نودى على الجنود بالاستعداد للانسحاب فورا... دخل الرائد هشام يتعجلهم. قال يرد على أسئلتهم: إخبارية من المخابرات، الطيران الإسرائيلي ح يقصف اللواء بالنابالم مع أول ضوء.

صرخ نبيل: مستحيل، اصحى يا وَلَه، صحي كل العساكر، قصف بالنابالم!! يعنى ح يقضوا علينا.

- بالضبط، لهذا السبب، اللواء لا يستطيع المقاومة.

تساءل محمود بغضب: الانسحاب... ومين يحمى الممر؟

قال الرائد: لا يوجد أمامنا حل غير الانسحاب، خسائر اللواء بلغت 60%، نرجع المؤخرة نوضب أحوالنا وبعدها نرجع لاحتلال موقع القتال من جديد.

- الوضع صعب والطيران الإسرائيلي يرتع بلا رادع، احنا تبهدلنا، خسائرنا مرتفعة بلا نتيجة.

- هو فيه طيران سقط النهارده؟

- لم يبلغ أحدا، صواريخ سام (2) تأثيرها ضعيف، وبعدين؟

- ده الوضع الحالي، نعمل إيه؟

بدأ الجنود من فورهم في إتمام عملية الانسحاب والضباط يستعجلونهم، حملوا صناديق الذخيرة وأحكموا ربط المدافع وأجهزة الرادار بمؤخرة سيارات الكراز، في وقت قياسي انهوا مهمتهم على غير ما توقعوا، عندما أصدر قائد اللواء الأمر بالتحرك قفز الجنود للشاحنات باتجاه مطار القاهرة الدولي، حيث عسكر اللواء بجوار كتيبة اختبار الصواريخ.

- 4 -

1969 صباح أحد الأيام، تنبه على الفوج *89* بقدوم وفد على مستوى عال من قيادة السلاح، يصطحب زوار أجانب

للتفتيش على اللواء، في الضحى وقف جنود الفوج كلٌ أمام مدفعه في وضع انتباه... القبعات التي شاهدوها تقترب ناحيتهم أثارت القلق والخوف، همس قائد البطارية، رقيب عبد الله عبد الجليل بجنود مدفعه.

- خايف ليه يا عسكري يا مرة، رُكَبَك بترتعش... أُمَّال لو تعرف إنه قائد السلاح، ح تعمل إيه؟

- قائد السلاح... يعنى إيه؟

- مش ضروري تعرف أحسن تموت، وبعدين يا إبراهيم مفيش جبان يستنى في البطارية فاهم، أثبت ده هجوم من القيادة مش من الطيران الإسرائيلي.

من بعيد ظهر جمع من قادة السلاح يرتدون ملابس الميدان يرافقهم الزوار الأجانب بملابس التشريفة، كان واضحا أن بينهم شخصيات عظيمة الأهمية.

- انتباه...

عندما اقتربوا شد عبد الله من جسده، وبدا أنه ينظر إلى الفراغ، في الوقت الذي كان يحدق في جموع القادمين، وأمامه مباشرة عَبَر كل من رئيس أركان الدفاع الجوي، ورئيس العمليات، وقائد الفرقة واللواء الغمرى قائد اللواء، ورئيس مجموعة الخبراء السوفييت، وخلفهم جاء المارشال استافسكى قائد قوات الدفاع الجوي السوفييتي والمكلف من الرئيس جمال عبد الناصر بوضع خطة الدفاع الجوي، كان يحادث قائد أحدث أفرع القوات المسلحة المصرية.

وقف القائدان أمامه مباشرة، شد من قامته وكأنه على الشفرة الحادة لنصل سكين، استدار القائد السوفييتي ناحية

المدفع المضاد للطائرات ال 100 مم طراز KC19 وأشار قائلا:

- مدفع جيد...

أجابه قائد السلاح منفعلا: نعم... مدفعية ثقيلة من طراز جيد تجيد تطفيش الطيران المهاجم، ولكن نحن في حاجة لإسقاطه، تعلمون سيادتكم أن تطفيش الطائرات موقعيا لا يبطل خطرها، ولا يجبرها على العودة. واستطرد يقول ما سوف يقوله عبد الناصر في الكرملين بعد أسابيع قليلة: ببساطة دفاعنا الجوي لا يتمكن من منع الغارات الإسرائيلية في العمق المصري، ولا يستطيع أن يبطل أو يقلل من نشاطها فوق مجموعات القتال الرئيسية غرب القنال.

تقدم المارشال خطوتين إلى الأمام متابعا السير، وهو يستدير للقائد المصري يحدثه بلطف: أفهم مشاعركم، أستطيع أن أفهم أيضا ما تقصدونه، سوف ترى يا عزيزي الجنرال.

تابعا السير باتجاه مقر القيادة... استطرد أحد كبار القادة المصريين:

- إن أهم ما نريد أن نوضحه، سيادة المارشال، هو أن كافة الأسلحة المرسلة من طرفكم قد تم استيعابها من جانب القوات، ولكننا لن نستطيع أن نكسب حربا بهذا المستوى من التسليح.

- هذا ما يقوله خبراؤنا أيضا.

- سيدي المارشال... أصر على التوضيح، بعد هزيمة 67 استطعنا أن نعبر مرحلتين هامتين في تاريخ القوات المسلحة المصرية، الأولى وهي الصمود، والثانية هي المواجهة، وعلى

نطاق سلاح الدفاع الجوي تم استكمال الأجهزة القيادية والرادارية، وبدأ السلاح يعمل كفرع رئيسي. في القوات منذ ما يقارب نصف عام، والآن نحن على أهبة الاستعداد لدخول المرحلة الثالثة، مرحلة التحدي والردع، والتي تمثل نقطة التوازن الاستراتيجي للحرب ونقطة الانقلاب والتحول في مسارها، لكن كيف؟

... كي يتسنى لنا دخول هذه المرحلة، في المقدمة يلزم لنا أن نشل فاعلية الطيران الإسرائيلي، أجهزة التشويش والإنذار المبكر، أجهزة الكشف المنخفض من الرادار، تحسين فاعلية طائرات الميج 21، طائرات تبلغ العمق الإسرائيلي، صواريخ قادرة على المناورة ضد طيران العدو المتفوق وإسقاطه.

- اليوم موعدي مع السيد الرئيس جمال عبد الناصر لتقديم تقريري، سوف تجدونه مقنعا للغاية، إنني متعاطف معكم، صدقني.

– لن ينسى لكم الشعب المصري صنيعكم.

ابتسم أحد الخبراء السوفييت الواقفين في المؤخرة يستمعون للأحاديث الدائرة بين قائدهم والقادة المصريين همس لأحد زملائه:

– ولكن كثيرا من ضباطهم يكرهونا.

– يكفينا ناصر.

- لا... إنه يقيم جهده المعنوي لدى ضباطه على الدين، ولهذا لن نصير رفاقا قط.

- أليس هذا طبيعيا، لقد انهزم في الواقع، وانطفأت هالته السحرية، يجب أن يقدم شيئا آخر مقنعا.

- إنهم يقيموننا على أسس أخلاقية، فنحن بنظرهم نفتقد إلى الأخلاق بالمفهوم الديني، وكأنه ليس ثمة أخلاق خارج الدين، عندما تنتهي الحرب سينسى. هؤلاء البشر. ما يزعمونه صنيعا قدم إليهم، سيركلوننا في مؤخراتنا بالأقدام.

– إذا حدث سيكون هذا خطيرا.

كانوا قد بلغوا مبنى القيادة. مال واحد من القيادات العليا للسلاح على اللواء الغمرى، وقال له: سوف تتولى مع طاقم الخبراء الروس المناقشة، يجب أن تفهم ما يدور في خلدهم، وترسل تقريرا عاجلا قبل الاجتماع مع قائد الجيش.

انسحب القائد المصري وهيئة القوات وضيوفه الأجانب، عندما رحلوا، دعا اللواء الغمرى بقية الضيوف إلى قاعة الطعام، كان العقيد عادل صبري في انتظارهم، أشار له بسرعة تجهيز البوفيه، فأعطى أوامر للضابط المختص وعاد نحوه متعجلا.

– إن شاء الله خير يا سيادة اللواء.

- خير بإذن الله، إنهم متجاوبون، لكن اتجاه القيادة السياسية يسعى لتوريطهم عسكريا.

– هم ح يتورطوا أكتر من كده إيه؟

- سنطلب حضور أسراب مقاتلات جوية بكامل أطقمها، ولواءات صواريخ من طراز سام(3) وسام(6) بأطقمها السوفيتية أيضا. للعمل على تغطية سماء الجبهة الداخلية.

- معقول! وهل يكون الحل في استبدال القوات الإسرائيلية بأخرى سوفيتية.

- الريس قلق على الجبهة الداخلية من الاختراق الإسرائيلي المتواصل، أستطيع أن أفهم نفسيته.

- ولكن دون أن يختبئ تحت عباءة الجيش الأحمر، كيف نأمن لهم، وهم لن يقبلوا بالنظام الشيوعي بديلا؟

نظر اللواء الغمرى إلى العقيد عادل صبري ما أثار ارتباكه... كان يفكر لقد أثار حديث العقيد عادل حيرته، وهلة وبدا أن شيئا ما اتضح له...

قال للعقيد بغضب: ماذا تستطيع أن تفعل فرقة كاملة من صواريخ سام وعدة أسراب من طائرات الميج على الأمن القومي، إذا جاء خطر ما فمن الداخل، والشيوعيون المصريون، والمشايعون للسوفييت قلمت أظافرهم، وهم الآن يدورون في فلك الريس، والمعادون لهم... هه... ببساطة هم معادون لهم، عقيد عادل.

- سيادة اللواء.

- انت غبي، لم يطلب الرئيس فرقا من المدرعات أو المشاة، على العكس إذا كان يتعين علينا خوض الحرب وإحداث النصر، يجب أن نتغلب على شكوك السوفييت بشأن قدرتنا على استخدام أسلحتهم في مواجهة السلاح الغربي، خاصة إذا كان الذي سيقوم باختيار هذه الأسلحة هم أنفسهم، ستدفعهم ضرورة تأمين قواتهم على تقديم منظومة السلاح المناسب، وفي حالة فشلهم ستدفعهم كرامتهم لاستخدام أنساق متطورة من السلاح، تورط السوفييت في الحرب المباشرة كارت تأميني ليس فقط لكسب الحرب، ولكن ربما توخى المفاجآت.

1970 الأسبوع الاول من يناير، تسلل الطيران الإسرائيلي عبر الأجواء المصرية مستخدما الأنواع المتقدمة من طائرات فانتوم وسكاي هوك، التي وصلته حديثا من الولايات المتحدة الأمريكية، وقد عجزت محطات الرادار المصرية عن التقاطه، بسبب طيرانه شديد الانخفاض، وقام بقصف خاطف للمناطق العسكرية في التل الكبير وأنشاص ودهشور، وعندما جرى تقييم الموقف من قبل القيادة السياسية والقيادة العليا للجيش، خاصة أن الأولى شعرت بالانزعاج من حدوث قلق وتزمر شعبي، تبين أن أهم مشكلات الحرب تنحصر في أربع قضايا.

أولها: ضعف شبكة الدفاع الجوي على الإنذار المبكر واكتشاف وتتبع الطيران المعادي على الارتفاعات المنخفضة. ثانيا: ضعف المدى الفعال لطائرات ميج 21 العاملة مع الدفاع الجوي وضعف قدرتها على المناورة. ثالثا: الفاعلية المذهلة لصواريخ سام (3) في التعامل مع الطيران المعادي. رابعا: أجهزة التشويش الإلكترونية.

الأمر يستلزم إذن إقامة حائط من الصواريخ بطول الجبهة، وعمق ثلاثين كيلوا مترا لحماية السماء من برطعة الطيران المعادي، ولتقديم غطاء وحماية لمنطقة العمليات المقبلة شرق القناة من الطيران المعادي، مما يعني أهمية استكمال وتجهيز التحصينات الدفاعية والقوة الضاربة من صواريخ سام(3).

نقطة الانقلاب والتحول في مسار الحرب... نقطة التوازن الاستراتيجي تبين للقيادة العليا المصرية أن الأسباب الأربعة التي تعـوق شـل الطـيران الإسرائـيلي وتـوفير الحمايـة الممكنـة للمدرعات، وقوات المشاة المصرية، أثناء حرب التحرير، بإيجاد سماء مؤمنة ضد الطيران الإسرائيلي أمر ممكن، إذ كان يتوافر لـدى السـوفييت؛ أجهـزة الكشـف الـرادار للطـيران المـنخفض، والمحركات التي تتيح مدى طيران أوسع لطائرات الميج 21، وقد جرى الاتفـاق عـلى حضـور فرقـة كاملـة مـن صـواريخ سـام(3) بأطقمها ومعداتها وأفرادها من الجنود السوفييت، بالإضافة إلى ثلاثـة لـواءات جويـة مكونـة مـن 95 طـائرة مـن طـائرات مـيج 21 المعدلـة بمحركـات جديـدة طـراز (ي 511) إضـافة إلى طياريهـا وأطقـم المتابعـة الأرضـية مـن السـوفييت للعمـل في العمـق المصري، إضافة لخمسين قاذفة مـن طـراز سـوخوي، وأربعـة أجهـزة رادار مـن نـوع: (B-15) والقـادرة عـلى كشـف الطـيران المنخفض والإنذار المبكر عنها.

وتم الاتفاق على تدريب ثلاثة أطقم من لـواءات صـواريخ سام(3) من الأفراد المصريين ومثلهم في مصر. وقد تم ذلك في الأيـام الأخـيرة مـن ينـاير 1970، حيـث جـرت مباحثـات عـلى مستوى القيادة المصرية العليا والقيادة السـوفيتية بالكرملين، رأسها كل من عبد الناصر وبريجينف سكرتير الحزب الشـيوعي السـوفييتي وحضرهـا القائـد العـام للجـيش المصـري الفريـق محمـود فـوزي، ووزيـر الـدفاع السـوفييتي المارشـال جريشـكو والوفود المرافقة لهما.

1970 مطلع شهر فبراير قام الجيش بتكليف كافة شركات المقـاولات تحـت إشراف سـلاح المهندسـين بإنشـاء اثنـين

وثلاثين موقعا لصواريخ سام (3) بالإضافة إلى الدشم اللازمة لإيواء اللواءات الجوية الثلاثة التي تم الاتفاق عليها في مباحثات موسكو، وما يستلزمه هذا من الدفاعات والتحصينات اللازمة، وكذا مراكز القيادة والسيطرة والمواقع التبادلية والهيكلية، كان المطلوب شاقا ويلزم الانتهاء منه خلال 40 يوما حسب اتفاق موسكو الأخير.

25 نوفمبر 1970 وصل الدعم السوفييتي تحت حماية الأسطول السوفييتي إلى ميناء الإسكندرية، ترك بعض وحداته في الإسكندرية، وتمركزت الغالبية في مواقع الصواريخ التي كانت تشغلها لواءات الدفاع الجوي المصري حول القاهرة، وتمركزت الألوية الجوية لطائرات الميج 21 المعدلة بطياريها السوفييت، في قواعد جاناكليس وكوم أوشيم وبني سويف...

منذ هذا الوقت بدأ الدفاع الجوي يزحف ببطء باتجاه غرب القنال، عندها شعر العدو الإسرائيلي باقتراب الخطر.... وبدأت معركة بناء حائط الصواريخ الرهيبة.

* * * *

- 6 -

كانت الامدادات تصل إلى اللواء لتعويض خسائره التي مني بها في الشوفة، وتسلم خمسة مدافع ثقيلة جديدة من طراز (KA19 -100mm) استولى على إحداهما هو وطاقمه، على أن رؤية المدافع الجديدة الموجهة راداريا من طراز شيلكا عيار 22 مم، والتي تطلق أربعة آلاف طلقة في الدقيقة، جعلته يقدم طلبا من فوره للالتحاق بها، رأى المقدم غبريال أن طلب

عبـد الله مشرـوع ووافـق عليـه دون غضاضـة، وبعـد تمـام الطابور ناداه منتحيا به جانبا وقال له: أنا وافقت على طلب التحاقـك بوحـدات الشـيلكا... انـت مؤهـل للعمـل عـلى الصواريـخ...

- ألـف شـكر يـا افنـدم... وعنـدما ذهـب لمقـر القيـادة لاستلام الموافقة التقى بالعقيد صبري الذي استفسر منه عن سبب وجوده، بعدما شرح له الموقف، هـز رأسـه رافضـا، عنـدما رأى الألـم عـلى وجهـه قـال لـه ملطفا:

- أصل المقدم غبريال زي ما انت عارف حمار، أنا ما عنديش مانع تنتقل لوحدات الشيلكا، وانت الوحيد من طاقم المدفعية الثقيلة اللي ح أخليه ياخد فرقة للتدريب عليها، بس المشكلة مش هنا، احنا يا عبد الله بنعتـبرك مسـئول عـن الفـوج 89 مـش بـس عـن بطاريتك، أنا عارف إن الملازم مدحت ولا له أي قيمة في الفـوج، أول مـا يحصـل ضرب، يرقـد في حفـرة ولا يسأل في أحد، مدفع عطل، ميزان محتاج ضبط، رادار فقد الاتصال والرؤية، هو مش هنا، هو (.........) على نفسـه، ضـابط(....)، احنـا عـارفين مـين الـلي بيشـغل الفـوج، و بعـدين لازم تفهـم، المـدفع بتاعـك بيتحمـل عبء كبير في الدفاع الجوي لحد النهارده، خلاص، ثم أن فيه ترقية جاية لك... ها... عايز تنتقل؟

- لا يا افندم... وألقى بالتحية العسكرية.

- انصراف.

* * * *

... لم يا أبو زيد أشلاء كرامتك المبعزقة... فين خيولك تحمى رايتك الممزقة... دا الفلاحين نفاية... هو كان للحرب غاية... نادى على الغنمة وأبحث عنها في كل ركن، تحت كل حجر، وراء شجيرة والخوف يقتلك... يا ليل... أمتى يهل صباحك، انظر الجبال من حولك... أشباح تعوي... مردة تتربص بك... تنوى الانقضاض عليك... الليل عويل يلفعك ببرده... يقشعر البدن المنهك ويظل المسير... تبحث في المغارات، وتحت الجسور، داخل الحجور المظلمة عسى أن تجدها ملقاة في مكان ما، أو ربما وحش كاسر يفترسك، ينط في كرشك ديب جعان، أو تفاجئك حية نايمة في مكان.

ياه من كثرة الأوهام... صرت تتمنى الموت الجليل... آه يا ابن عبد الجليل. راتبك مؤكد خسرته... هذا العذاب... عذاب الجسد أو عذاب العقل... هذا الليل الأسود طويل ما له نهاية. خاصم الصباح وولى شطر البداية... دا الفلاحين نفاية... هو كان للحرب غاية... لم يا أبو زيد أشلاء كرامتك المبعزقة... فين خيولك تحمى رايتك الممزقة.

نور السيارات السريعة على الطريق الرئيسي- تومض من على بعد... رد أدراجك تجر أذيال الخيبة، وضوء الصباح يتعلق بحواف الشجيرات تحركها الرياح، شياطين ترقص من حولك، حفلة من الرعب والجوع والتعب...

مع بزوغ أشعة الصباح دار حول العين التي يشرب القطيع، وجدها هناك ورغم أنه كان سعيدا، إلا أنه أيضا كان غاضبا، فُقدت العنزة من نورية... يا أولاد الكلاب... لقد وجدها على

أي حال... عاد يحملها بين ذراعيه غاضبا لاعنا شقاء جسده وروحه.

كانوا جالسين يشربون شاي الإفطار، والشايب يتحدث غاضبا موقنا بأنه هرب، والجميع يوافقونه، يندبون حظهم لضياع الغنمة، وضياع المصباح الكهربي، عندما شاهدوه قادما من على بعد، حاملا الغنمة بين ذراعيه، شاهد الابتسامة على وجوههم لأول مرة منذ قدومه.

هذه المرة دعوه لتناول الطعام معهم بالداخل، وكأن الشفقة تسللت إلى قلوبهم رغما عنهم... ولأول مرة أيضا تناول المعكرونة ساخنة، وجلست نورية تصنع له الشاي، وقبل أن يفيض به شعور العرفان... قالت له بصوتها الآمر:

- عبد الله... هاك المخلة قوم خوذ الغنم...

وبرغم أنها نادته لأول مرة باسمه دون فوال ولا المصري هذا، إلا أنه فغر فاه مندهشا، كان يود أن يقول إنه متعب، منهك، يريد النوم لكن الكلمات وقفت في حلقه، في صمت أخذ منها المخلة قبل أن تصيح به، تنهره نهرتها المشهورة

- سَجِّدْنا...

قال لها: يبدو أن إمامكم ما يبي الصلاة بكم.

- شنو تقول؟

أشاح لها بيده غاضبا، ولم ينبس بكلمة... رحل إلى الخارج في هدوء، ناظرا إلى الأرض وقد تهدلت كتفاه... قبل أن يغادر السور الخارجي نادى على الشايب:

- حاج فرجاني... بدى فلوسي... الشهر خلص...

أدار له الرجل رأسه وقد أخذته المفاجأة، عندما أفاق، هز رأسه وقال:

- باهي... باهي... باهى يا عبد الله وين ما ترجع تاخد في فلوسك...

* * * *

الفصل الرابع عشر

- 1 -

نجاة... طوال الطريق كان يستعيد وجهها، نجاة التي تسكن قبالة دارهم، نجاة التي كانت بالأمس القريب لا تعدو بالنسبة له سوى طفلة، يذكر يوم كانت تقف مع خيرية الطفلة السويسية المهاجرة، تنظران إليه، تتهامسان قبل أن تتقدم خيرية نحوه بادئة بالسلام، مقلدة لهجة الفلاحين:

- السلام عليكم
- عايزه إيه يا بت؟
- عايزه خالتي.
- مش موجودة... يلا من هنا؟

لم تتغير الابتسامة على وجهها قيد أنملة، حتى الشعور بالضغينة لم ينبت داخلها، استدارت تقول له: يوه... يابا عبد الله... أصبر شوية هو أنى ح أكل من داركم حتة.

هـز رأسـه متجهمـا يتابعهـا وهي عائـدة إلى صـديقتها. همست لها:

- يا أختي دا عصبي.

أجابتها في غضب: يتعصب على امه ابن المفحور.

ضحكتا معا... فلما غادرت نادى على نجاة، كانت في الثانية عشرة من عمرها، خمرية اللون، تنم عيناها السود عن جاذبية عميقة تنام على بحيرة من الهدوء.

– اوعاكي أشوفك ماشية مع البت دي تانى فاهمة ولا لا.

كان يقبض على ساعدها بشدة، شعرت بالألم فأمسكت بيده تدفعه عنها... قالت بصوت منغوم أثاره: الله... طيب... سيب إيدي، أنا واقفة مش ح مشى.

فلما تركها بادرته بالسؤال: هو انت خايف منها ليه؟

– سوء سلوكها.

ضمت وجهها بابتسامة مشاكسة: يعنى إيه؟

أصيب بالحيرة... ماذا يقول. قالت تخرجه من ورطته:

- بتحب واحد.

قال مفزوعا في غضب: أيوه ما انت عارفة.

هزت له خصرها: طيب وأيه يعنى هم حرموا الحب... ما أنى بحب.

– بس يا مايصة، يا بنت المايصة.

تراجعت ومن بعيد استدارت نحوه: عارف بحب مين يا عبد الله يا ابن أبوي محمد بن عبد الجليل رزق.

– مين يا مفعوصة. والله لأقول لأمك خضرة.

- مش ح أقول لك... يا أعمى يا ابن الأعمى. صفقت باب الدار في وجهه، تاركة إياه يضرب كفا بكف.

لم يكن يعلم أن خيرية قدمت إليه لتجذب انتباهه نحوها، ولم يكن ليفكر في طفلة... ذلك كان الماضي، ورغم أنه خطب أخريات، فنجاة هي الطفلة التي نضجت، وأصبحت بنت العشرين، والتي سيقترن بها حال عودته للوطن، رغما عن أهله جميعا.

في مساء ذاك اليوم دخل عليهم دارهم، وهم يتناولون طعام العشاء وفي يده عصا، عندما رأته قامت من أمام الطبلية، تجرى تبحث عن مكان تختبئ فيه، طاردها، وانهال عليها ضربا وهو يصرخ بها:

– تحرمي تتقصعي وتدلعي يا بنت خضرة، والله لأربيك.

لم يتحرك أحد للدفاع عنها... لا أبوها ولا أمها ولا أحد من أخواتها، تسأله أمها بدون اهتمام: حصل إيه يا خوى؟

– مصاحبة البنت خيرية.

– حرمت... الحقيني يا أمه.

أجابتها أمها: خليه يربيك... انت عايزه شوية تربية، أنا كمان ح أقطع جلدك. عندما خاب ظنها في أمها صرخت في وجهه كقطة غاضبة: سيبنى... سيبنى يا ابن المفحور... يا أبو مخ تقيل، سيبنى يا ابن الكلب... وتصرخ... الحمار أبو مخ زي الحمير...

كانت تريد أن تصرخ قائلة... بحبك... لكنه ساعتها لم يعطيها الفرصة.

قبل أن يسافر سفريته المطينة بالنيلة هذه عرف بعد ثماني سنوات مضت، اليوم بلغت العشرين، قلب يتفتح وجسد ينضج، يزداد في عينيها الخمول والنعاس، تطارده بعيونها، فإذا التقيا توقفا برهة، ثم يعاودان المسير كل إلى طريقه، بعد خروجه من الجيش أخذت عيونها تتسلل إليه رويدا رويدا، والآن بات يبحث عنهما في الذاكرة.

-ج-

في المساء لم ير الشايب ولم يحاول أن يسال عنه، كان متعبا، علم أنه يرقد في فراشة مريضا، وعندما أخذت نورية الغنم لعين الماء وعادت كان يغط في نوم متقطع، شعر بها تلقى بشيء إليه، حشية قديمة، دفعها أسفل جسده المصلوب من النوم فوق الأراضي الصخرية، سمعها تسأله: متزوج أنت؟

أجابها من خلال نومه بصوت ناعس: لا.

فأعادت سؤالها... أجاب بصوت لا يزال واطئا: لا...

سمعها تحدث نفسها وهي تدلف خارجة، غابت قليلا ثم عادت ومعها عشاءه مبكرا عن كل يوم، نظر إليها متعجبا، كانت تسير مكشوفة الرأس، يتدلى شعرها منتشرا على كتفها حتى منتصف ظهرها، تاركة سمانتي ساقيها البضاوين مكشوفتين تحت سروالها المربوط بقماط أسفل الركبة، انتبه

على صوت أنثوي مغناج يتلوى بين الشهيق والزفير فأصاغ السمع تبين له أنها تحادثه:

- إشكبلى مجروح... ها يا مسكين.

غالبه النوم فلم يلتفت لشيء آخر... وفي صباح اليوم التالي كانت تطارده... تَحْتَك به... تفاجئه بأسئلة غريبة:

- كيف تعيشون مع ولاياكم يا مصرية...

أجاب متعجبا: زي الناس.

قاطعته بغضب وكأنها أمسكت به، وهو يكذب كذبة مكشوفة، أو كأنها تعرف ما يحاول أن يخبئه خجلا: لا... ولاياكم باردات...

نظر لها غير قادر على الفهم

- راعى أنهن مْطاهرات... وهذا ليس بالدين...

سألها مستفسرا غير مصدق ما سمعه: شنو؟

ضحكت منتصرة انتصار السادة، وعادت تقول ببطء حتى يشرب كل كلمة تقولها: ولاياكم مْطاهرات، وهذا ليس بالدين...

قام خارجا، ينظر إليها شذرا، يود لو يطلق عليها جام غضبه... حدث نفسه... كأننا قُصَّرْ وهم الراشدون.

وفي اليوم التالي ناولته إفطارا شهيا، زبد وعسل نحل، ومعكرونة ساخنة، وطبق من الفاصوليا البيضاء، التهم الزبد وعسل النحل، وأكل من الباقي، جمع ما تبقي وخبأه في علبة طعام مستعملة، وأخذها معه للمراعي، عندما أزف أوان طعام الغداء، فوجئ بها وقد وضعت له طعاما مطهوا، وعلى حين غرة بقطعة كبيرة من اللحم، قام مذعورا وهو يشك إن كان

هذا لحما حقيقيا يؤكل أم خدعة، ظل مترددا لفترة طويلة، يقف ويسير قليلا، ثم يعود ناهرا الكلاب عن الاقتراب منه، الجوع وحده دفعه إلى المغامرة بتناوله

في المساء أعادت عليه أسئلتها، تشاغل عنها بالاستغراق في النوم... في منتصف الليل حلم بأن وحشا هائلا يجثم بثقله فوقه، يكتم أنفاسه، وهو يقاومه غير قادر على الحراك... وعندما استيقظ أنتفض مذعورا... كان هناك بالفعل شيء ضخم يجثم فوقه، يلوك عنقه بفمه... دفعه يتخلص منه بعنف، ووثب إلى الخلف متراجعا... عندما تعودت عيناه الظلام، رآها متكومة أمامه، عارية كما ولدتها أمها، جاء صوتها خافتا ساخطا:

- كنك يا فوال... هدى روعك يا فوال. ليش تخاف... تعال... تعال يا تيس... باهت في... كنك تخاف كيف المرة... تعال... أشارت إلى مكان بجوارها حيث افترشت الحشية... نظر لها غير مصدق، والخوف يشل مقدرته على التفكير السريع... تقدم نحوها مسلوب الإرادة... كان مذعورا يرتعد في هلع، وذهنه هناك في البرَّاكة مع أبويها... عندما جلس مستندا، على ركبتيه بجوارها... كان جسده وعقله جثة هامدة ليست بها ذرة من القدرة، أو الطاقة على فعل شيء... كانا مقيدين بسلاسل التعب والرعب...

جذبته لأسفل، فوجد نفسه فوقها تضمه بشبق، ونهداها ينغرزان في لحمه وساعداها وساقاها يهصرانه هصرا... حاول أن يضع شفتيه فوق شفتيها المذمومتين فحادت بهما عنه... جذب ذيل جلبابه لأعلى... شعر بفخذيها ساخنين ملتهبين، ولفترة طويلة كانت تتلوى تحته دون توقف، تصاعد عواء

ظمئها تصرخ به أن يلجها، وهو لا يستجيب، يحاول أن يثير شبقها بأية وسيلة دون جدوى، إذ أن عقله كان يفكر في صوتها المرتفع الذي سيكشف عنهما دون محالة، وعقله الباطن يأتيه بالمصيبة الأكبر، وهو أنه متعب منهك مصاب بالبرود...

ماذا يفعل مع هذه البقرة الشبقة التي تحثه في صراحة وقحة، ترجوه النكاح... وكأن أفكاره تواردت إليها... المصري هذا بارد... لا يتجاوب معها... كان جسده جثة هامدة تتمدد فوقها في سكون، وقد تجمدت مشاعره، دفعته بجفاء... نصبت جذعها بكبرياء... كان لا يزال نصفه السفلى فوقها... اللهب الذي يغلى في صدرها، والنار التي اشتعلت في جسدها ولم تجد من يطفئها، وجدت طريقها عبر أنفاسها الحارة، والشرر الغاضب الذي كان يصليه جحيما وبغضا وكراهية، تحملها إليه نظرات عينيها... هتفت به وهي تدفعه بعيدا عنها ليسقط بين الغنم:

- كنك يا تيس... يا زامل... يا قواد... تباهت في وتخدعني. مدت يدها تغطى فخذيها المكشوفتين وتسوى شعرها وملابسها... أنا تضحك على، بصقت في وجهه، وقامت وكل ما فيها يشتعل حقدا...

- فوال...هيا. هيا يا فوال... عدى بره.

طردته من حظيرة الغنم للعراء... قام مطأطئ الرأس... نظر إليها نظرة بؤس ورجاء. ولكنها ولت بوجهها... ود لو يقول فقط... كنت متعبا، لكن بصقة أخرى أطلقتها تجاه الأرض... وأدت الكلمات في حلقه، ابتلع إهانته، وتمدد فوق إحدي البطانيات في صمت

-3-

في صباح اليوم التالي عزم على تحاشيها، لكنها لم تخرج وأرسلت له العجوز بالطعام، أمضى يومه يقطر ذلاً ومهانة، يتحسس مكان البصقة، عندما جاء وقت القيلولة داهمه وجه أنصاف بعنف، كان يطل عليه منذ غادر السقيفة، كل ما يتذكره شعور مبهم بأنه يُعامل بمثل ما عومل به مهجرو السويس من أهالي قريته، رجالهم المهانون ونساؤهم العاهرات المباحة، تماما كما ينظر إليه حميدة ونورية... ما الفرق؟ المرأة الشابة حاولت اغتصابه، تماما كما فعل مع أنصاف في حقلهم، وهو الآن أقل حتى من قيمة أنصاف وأهلها من المهاجرين، في المساء ناداه الشايب ولم يكن قد تناول طعامه الملقى بجوار البرَّاكة وقد تجمعت فوقه الحشرات والنمل وكأنها جمعته له من القمامة.

قال له: غدا ستخرج بأغنام أخي مفتاح معك، تعرف مكانهم؟

أجاب بالنفي، أشار تجاه الشرق: هاك... خلف مخر السيل... آه ترى تعلم... يوم تنام عندي... اليوم الآخر عند أخي الحاج مفتاح، عشاك عنده غدا.

خرج صباحا دون أن يلقى بالا لأحد... أنصاف... أنصاف المهاجرة من السويس، والذي وعد أبناء عمومته وأصدقاءه أن ينالها، دون أن يأبه بمشاعرها، وما كان يجرؤ لو أنها فتاة من قريتهم... ألم تحاول نورية اغتصابه لم تبتسم حتى في وجهه... ألم تكن سوى جلاده... سوط يلهب ظهره، وعندما أرادته امتطته ليلا وهو يغط في النوم، دونما أي إشارة وكأن

الأمر لا يخصه... لم يكن ما فعلته معه أقل مما فعله محمود الأسيوطي، وهو يسرق لذته مع الفتى المحموم وهو يهذي... إعياء وتعب وشعور بالقرف، وإحساس مروع بالذنب.

أنصاف وزوجها التائه بين البطالة والمخدرات ولعب القمار... حشيش وبرشام وحقن، وعائشة طالبة الإعدادية... خيرية التي تعمل بالدور حينا وآخر بالغيطان... جدهم صياد السمك العجوز التائه، وأمهم المصابة بالصرع وانتظار الإعانة من الحكومة، ما الفرق بين المهاجرين في الوطن، والمهاجرين خارج حدوده... أنصاف التي توقفت عيناها عن أن تلتقي بعينيه، وإن حدث كان يرى الفراغ... خيرية بنت الثانية عشرة وحديث القرية... تمازح الجميع بلا استثناء وتفيض بابتساماتها المشرقة، ووجهها الأبيض الصبوح... يمامة ترى كل من حلق في الفضاء ليس سوى حمام وديع، وهم صقور وعقبان، حِدَاء وغربان... لا ترفض دعوة أية فتى صغيرا أو كبيرا للوقوف معها... لا تتوقف عن إعطائهم أي شيء تملكه قطعة حلوى، خبز، زجاجة مياه غازية، والذين يشاهدونها تمازح الآخرين يظنون بها الظنون، والجميع يرى بعينيه الآخرين ينصبون شباكهم حولها على قارعة الطريق.

- تحدثت معها.
- واشترت لي حلاوة.
- قابلتها اليوم على النعناعية...
- هه... وعملت معها إيه؟
- ح نعمل إيه يعني...

ويكتفون بالصمت تاركين لمخيلة الآخرين تفسير ما تهيئه خيالاتهم المريضة، عما يمكن حدوثه في تلك الأماكن الخالية البعيدة.

في صباح ذاك اليوم الدامي الذي اغتصبت فيه، عبرتهم وهي ذاهبة لجنى القطن، في أسمال بالية، تغطى رأسها بمنديل محلاوي، وهم جالسون على الترعة لري غيطهم... مالت تحييهم: صباح الخير يابا عبد الرحيم، صباح الخير يابا عبد الله، إيه اللي بتعملوه، الميه ح تخلص من الترعة...

أجاب عبد الرحيم: ليه يا خيرية، الخير كتير والميه ح تفيض من على الجسر، أزي حالك يا خيرية.

- الحمد لله، عرفت أنكم هنا قلت آجي أصبح عليكم.

أجابتها أمه: تصبحي بالهنا يا خيرية، إيه اللي معاك... ابتسمت في طيبة وفرح شديدين: شوية أكل ح أفطر منهم، وكان طعام غذائها...

أسرعت تفك الربطة وتدعوهم للأكل معها...

صاح إبراهيم: والنبي أنا جعان... وقام نحوها.

صرخ به عبد الله: يا أخي ده غداها.

قالت بعتاب: توك اتكلمت هو اللي زعلان من حد يكمله...

شعر بالخجل واستطردت وكأنها نسيت كل شيء.

- يوه... لما الغدا ييجي يبقي تتدبر.

قال: والله لأكل يا خيرية، بس على شرط.

- شرطك مجاب يابا عبد الله.

- تتغدى معانا.

ازدهر وجهها وأحمر خداها وأضافت، وكأن عرضه هذا شهادة عفافها: أجي... أجي... هو أنا عويلة، أمشي- أحسن اتأخرت، الواد جعبري رخم وابن كلب.

- لما يعدى أكلمه ياخد باله منك.

قالت برجاء شديد: أيوه والنبي يابا عبد الله، أحسن دا وحش ومعاملته نجسة.

قامت مسرعة... بعدها عبرهم جعبري الخولي ولم يحدثه أحد، من يتذكر هموم طفلة مهاجرة... عندما جاء وقت الغداء، حاولت أن تعبر الحقول باتجاه حقلهم... حيث قطع جعبري عليها الطريق.

انتظروها طويلا... عندما أوشكوا على إرسال أحد أبناء عبد الرحيم لها سمعوا بكاءها... كانت تسير ممزقة الثياب، تبكي في فزع وحيرة، وجمع غفير من عمال المياومة يحيطون بها في ضجيج... وجعبري يسير وسط ثلاثة من الرجال يحلف أغلظ الأيمانات بأن الطفلة تتبلى عليه.

نظرة الاستجداء التي امتلأت بها عينيها... ورغم أنه قام هو وإبراهيم وأوسعاه ضربا، لكن شيئا في الدنيا لن يزيح عنها نظرات الفزع والشعور بالضآلة وعدم الفهم... كانت بينهم قصيرة صغيرة جميلة تنهال على وجهها الأبيض المستدير المرسوم بدقة أنهار من دموع... تنظر حولها لا تسمع شيئا سوى الطنين... لا تفهم سوى أن شيئا فظيعا حدث لها... شيء مخيف غير حياتها منذ لحظة التي انقض عليها هذا الوحش الكاسر.

في هذه الليلة كان العويل ينبعث من قاعة المهاجرين بساحة الدار الخلفية... وقد تجمعوا ينعون مصائبهم...

اغتصاب خيرية وعودة أنصاف بعد أن طردها زوجها لضيق ذات اليد، وقبل العشاء انبعث الصراخ ثانية، كان هذه المرة شديد وتبعته نوبة صرع الأم، صفير ضعيف يأتي من زمن سحيق، ثم يتصاعد متماسكا عنيفا مفاجئا طويلا ممتدا، جرى الجميع نحوها، كان جمع كثيف من النسوة من المهاجرين وأبناء القرية يواسونهم.

في آخر الليل عندما فرغت القاعة، بقي عبد الله يسمع العجوز الذي تمسك ببقائه، هو يتجشأ سكران بعد أن خسر هو الآخر نقود الإعانة التي تخصهم جميعا على مائدة القمار في إحدي الغرز، وهو يشرب الكحول الأبيض، كان الدم ينزف من جبهته بعد أن حاول أن يسترجع نقوده.

في الأركان انزوت البنات تبكي، وعندما استيقظت الأم تحولت القاعة إلى هستيريا، سب ولعن وبكاء في آن واحد وهي ترى الشهر القادم أسود من الهباب ممتلئا بالجوع والعرى والاستدانة، وعبد الله يحاول أن يهدئها دون جدوى، حذرتهم أنصاف، فانزوا ينهنهون في صمت، خيرية وحدها اندفعت في صدره تبكي:

- خدني عندكم خدامة يابا عبد الله، فين انت يابا، رحت فين وتركتنا. ارتفع صراخ الفتيات وبكت أنصاف... وفجأة سقطت الأم على الأرض كقطعة من الحجر، اندفعت إليها أنصاف، وتجمع حولها أطفالها، وبقي الجد بعيدا صامتا.

ارتعش وجهها وبدأت أسنانها تصطك تجز على لسانها تكاد تقطعه، هبط قلب عبد الله، وشعر بالرعب ودفعت أنصاف بمنديلها في فم أمها، جرى عبد الله يحضر طبيبا،

أعطاها حقنة مهدئة، ونعمات منحنية قرب أذنها تبسمل وتحوقل:

- بسم الله الرحمن الرحيم، لا الله إلا الله محمد رسول الله.
- يا جماعة الخير... ما تضيقوهاش كده بكره تُفرج.

هاجمته أنصاف: ليه ح يرجع الفلوس اللي راحت في القمار.

- لا... يصطاد، الشبك موجود، هو فيه حد يرمي شبكته كده؟

قالت أنصاف: بنقول كده مش عاجب. جاوبها صوته الأجش:

- بساريا. أنزل اصطاد بساريا.

- يا عم انت مش عارف فين السمك، سيب الموضوع ده عليَّ، بكره نخرج في نص الليل.

في مساء اليوم التالي خرجا إلى مكان يبعد ثلاثة كيلومترات بجوار عزبة فوزي، قرب قرية بهواش، في الطريق حدثه العجوز ورائحة الخمر تفوح من فمه.

- الناس تسألنا ليه بطّالين؟ اشتغلوا أنفار في الفلاحة، ولما الواحد يشتغل يضحك عليه الفلاحين، صدقني اشق حاجة على الإنسان إنه يغير مهنته اللي ورثها عن أبوه وجده، الفلاح يرمى البذور يرويها وينتظر، يطلع المحصول على الجاهز، لكن الصيد!! البحر زي المرة المومس ما تكشفش عن كنوزها إلا للي يدفع أكتر، البحر داهية، ممكن تتوه في نوه، ممكن

يلتهمك، تسقط في قراره، وطوال الطريق يحدثه عن البحر والشوق والأنواء والجينات والعطش والطيور والبر.

بجوار عزبة فوزي خلعا ملابسهما عدا السراويل، نزلا يخوضان في المياه الباردة حتى بلغت خصريهما، أوقفه العجوز قرب الجسر، ثم أخذ يثبت الشبكة في قاع المصرف بعصى طويلة، واحدة خلف الأخرى، سارا في الاتجاه المعاكس للتيار، على مبعدة مائة متر من الشبكة الأولى ثبتا الثانية، وفي المناطق المملوءة بالأعشاب ألقى العجوز بشباك صغيرة، ثم صعدا إلى الجسر بانتظار بزوغ القمر وصعود السمك إلى سطح المياه، أشعلا نيرانا وتناولا الشاي ثم غطا في نوم عميق، قبل الفجر بساعتين سمع حركة بجانبه فوجئ بأنصاف توقد النار، سألها مندهشا عن سبب حضورها:

– مساعدة هو الرجالة بس اللي تساعد.

نظرت إلى العجوز واستطردت في غضب: هو السكران ده يقدر يصطاد بصنارة... قوم يابا... قوم كُل.

أخرجت من قفة صحنا به جبن قريش وحادق وخبز بتاو[58]، وضعته في وعاد ممتلئ باللبن الساخن... سألها بحسن نية:

- الله... الله جبتي ده منين؟

قالت وهي تضع أبريق الشاي على النار:

- إذا كان شرفك يمنعك لا تأكل.

قاطعها: لا أكل... أكل. صباح الخير

[58]) خبز بتاو: خبز مصري يصنعه الفلاحون منذ القدم من حبوب الذرة، ويمتد إلى عهد الفراعنة

ضحكت: أيوه كده... كل وانت ساكت.

قال العجوز: فلاح، ضحكت عليك، لازم تطبخ لك صينية سمك على حق... زمت شفتيها... قال عبد الله: طبعا... وآكل صوابعي العشرة وراها...

نظرت إليه في وجوم وكأنها تتذكر ما جرى منذ عام فانكمش على نفسه، وتشاغل بشرب الشاي.

نظر عبد الله إلى المرأة الصغيرة الجالسة يرى قميصها ملتصقا بجسدها الملفوف ونهديها الطائرين يطلان من عشهما، نادته فقاموا لجمع الصيد.

- غوط الميه، حوالي متر وربع.
- ادعى وتوكل.
- يا رب... حتى ولو كان بساريا.

تقدم العجوز والمرأة على الأطراف، واتخذ موقعه بينهما في الوسط، شعروا بثقل الشبكة بين أيديهم وقد بدأت تتقوس في المنتصف.

- عبد الله... ربنا ح يجازيك خير... عبد الله يا ابن الناس الطيبين لو لي ابن زيك، أو بنت كنت جوزتها لك.

اصطدم قاع الشبكة بحجر ثقيل، غاص يزيله بصعوبة، ثم عاد إلى المنتصف، يرى بعض الأسماك تفلت من ثغرة بجوار الجسر. حذرها فعدلت الشبكة، وبدأوا مرة أخرى حتى بلغوا مسافة خمسة أمتار الشبكة الأولى، كان السمك يقفز على سطح الماء كبيرا ضخما، بلطي، قراميط، ثعابين، خرجت تجرى تحضر جولات من الخيش، وأخذوا يجمعون الصيد

الوفير، استخف الطرب بالعجوز وهو يرفع الجوالات بقوة متزايدة.

- خلاص يا أم أنصاف خلاص، سددت الدين اللي على.

قاطعته أنصاف: وانت مالك؟

- ليه السمك ده يجيب ستين جنيه، ح أنزل بيه السوق.

- هو انت ح تشوفه إلا في الطاجن، انت تروح تقعد على القهوة، وأنا والبنات ننزل بيه السوق.

- وتعبي... وسهري

- ولا ح تشوف مليم... فاهم ولا لا.

قال معرضا بعبد الله: هو انت فاكره إنه عمل حاجة، ده فلاح، يعني إيه، مش ح أخد حاجة.

- ولا مليم تاكل باقي الشهر منين؟

صعدوا الجسر. يتقدمهم العجوز، وهي خلفه في غضب، زلت قدمها فسقطت متراجعة إلى الخلف مصطدمة به، ثوان مرت وجسدها يرتكز عليه، وبين التيار الدافئ للمياه، والجو البارد كان جسده يرتعش... قال العجوز محرونا كطفل صغير: أنا ماشي... أجمعوا أنتم السمك الباقي.

قالت: ليه هو فيه سمك تأني.

- أيوه خليه يقولك على مكانه، أو اتركيه الموجود يكفي.

- نتركه، ليه لاقين ناكل، أقعد ما تمشيش من هنا لحد ما ننتهي.

هز رأسه غير مبال، سار ثلاث خطوات وسقط متعبا، قال قبل أن يغط في نوم عميق: حقي، فاكراني ح أشتغل ببلاش.

قالت بلوعة: يا ربي الدنيا ضاقت عليَّ، عايزه الموت

كانت تفكر بالعجوز الذي خذلها، والفتى الذي يقف جوارها عاريا، وما إذا كان عليها أن تدفع له شيئا، كادا أن يتجمدا بعيدا عن الماء، قفزت في المياه وأخذت تسبح، خلعت عصابها فانهمر شعرها الأسود يسبح فوق المياه، وقد تعرى ساقاها عن آخرهما،

بلغا الجسر المواجه، وبمشقة أخذا يجمعان السمك من بين الأعشاب والبوص الكثيف، كانت الشباك ممتلئة بالسمك الصغير، تركها تهرب مكتفيا بأسماك البلطي، والقراميط الكبيرة، ألقى به إليها فأخذته في مشنة الطعام، غمر المكان ضباب كثيف، نادت عليه فصاح يخبرها عن مكانه، كان ينتظرها في منتصف المجرى، لم تره، هذه المرة وقعت بين ذراعيه غامت عيناهما معا، كانت المياه تبلغ صدرها، دفعته تحاول التخلص منه، أمامه شاهد نهديها يتأرجحان، وهما يسبحان فوق المياه، لم تستطع أن تحافظ على توازنها، كادت تسقط فتعلقت به مرغمة.

قال هامسا: حورية من الميه.

أجابت وعيونها العميقة مثبتة في عيونه تخترقانه:

- بلطية... وانت الصياد.

جذبها فسقط جسدها بين ذراعيه، التصقا جسدا لجسد، أمواج من النشوة اشتعلت لها أجسادهما الفتية، قوة قاهرة لم يستطيعا منها الفكاك، وكلما حاولت جذبها إليه برفق، فتعود إليه منومة، وأخيرا استسلمت في عذاب وهي تهمس:

- كنت عارفة قبل ما اجي إن ده ح يجرى.

فقد توازنه وعندما قام وجدها تقف على مدى خطوة، تنتظره لا تحاول الهرب، عندما ضمها ثانية وجدها ترتعش من القشعريرة، دون وعى مد يديه ينضو عنها قميصها، وأمامه كانت تنتصب عارية، ونهديها أشرعة تبحر فوق أمواج النشوة.

غابا في قبلة طويلة اصطكت لها أسنانهما، دفعت بلسانها في فمه، رشف رضابها الحلو، فغابا في غيبوبة، وعندما أفاقا كانت عيونها قد رحلت بعيدا، أمسك بعودها يجذبها نحوه، وشعرها الناعم ينسال على كتفيها كظل عميق. همست:

- مش عايز تقول لي بحبك... أضحك على وقول لي كلمة ترضيني.

كأخرس فقد النطق لم يستطع، كان صوته محبوسا داخله، وعقله لا يفكر إلا في رضابها الحلو، ونهديها الصلبين، وملمس بشرتها الناعم، المغطى بالمياه، حقول خضراء عفية مبلله بالندى، لم ير نظرة الحزن والضيق على وجهها، كانت رائحتها تملأ خياشيمه، بإصرار تقدم إليها، على الأقل كان يعرف هو ما يريده.

- امتي ح ترجع الجبهة.

نظر إليها مندهشا: بكره بعد العصر.

- خليك للصبح. كان هدفها واضحا.

- لازم أسلم نفسي للوحدة قبل منتصف الليل.

طأطأت رأسها لأسفل مؤمنة على قوله... فكرت بغضب... الانحلال لا يأتي صدفة... الكلب نالني... أشعل النار بأحشائي واكتفى... الرجال ذئاب وكنت أظنه طيبا... فكرت بفزع إذا كان عليها أن تجد رجلا تبيع له نفسها كي تطعم هذه الأفواه، هزت

رأسـها مصـممة... الانحـلال لا يـأتي صـدفة...بعد فـترة صـمت قالت بلهجة هستيرية، تحاول أن تخفي اضطرابها بالابتسام:

- تعـرف لقينـا عشرـة قـروش في جيـب البـت خيريـة... اضـطرب صـوتها وهي تسـتطرد متجهمـة: اغتصـبها بعشرـة قـروش، انـت أعطيتـني أكـثر، وأضـافت وهي تنفجـر في بكـاء وعويل حزين: تفرق إيه عن جعبري يا ابن عبد الجليل...

وضع ذيله بين ساقيه ولم ينطق ببنت شفة

- 4 -

قبل العشاء غادر برَّاكة الحاج فرج الفرجانى ورحل باتجاه أخيه، كان يقيم مع امرأته وابنته وزوجة ابنه وطفليها، وقف على باب البرَّاكة مترددا لا يعلم ما إذا كانت هي المقصودة أم لا، لا يـدري مـاذا يقـول، نـادى بصـوت خافـت، أطلـت المـرأة الصغير فتراجع وهو يهمس:

- هـادى برَّاكـة الحـاج مفتاح الفرجـاني؟ أنـا جـاي مـن عنـد خوه الحاج فرج.

- ترى انت المصري اللي تخدم في الغنم؟ هز رأسه مؤكدا.

لم يتحرك خطوة، شعر وكأنه كمين أعد له، ظل واقفا في العراء حتى خرج له الشايب.

– ادخل... ليش تقف عندك، تعال يا أبني نرجى فيك.

دخل منتحيا ركنا قصيا.

– خوي يمدح ويشكر فيك واجد...

هز رأسه مندهشا وسمع العجوز تقول: راك ما تعشيت...

قال في خجل: أكلت يا حاجة

- إمتي يا ابني؟

أجاب في اضطراب: بالمرعى...

- وي... هادا كلام...

نادت على زوجة ابنها أن تأتي له بعشاءه... وقالت: راك تيجي هنا في المغربية بيش تتعشى. وتبات هنا، ما تخجل، إذا ما بتاكل هون... وين تاكل يا مسكين؟

عندما جلس شعر أنه يأكل لأول مرة منذ غادر دارهم، المكرونة الساخنة. الأرز وطاجن الخضار المصنوع في الفرن، الخبز الطازج، قطع اللحم الضخمة أخذ منها قطعة وترك الباقي تأدبا، لكنهم أصروا أن يستكمل طعامه كله، برغم شعوره بأنه ليس سوى شحات وعابر سبيل يأخذ طعام وجبته من على عتبة دار سيده، فقد أصر أن يكتفى، بعد تناول الشاي أعطاه الرجل علبة سجائر كاملة، وعندما حان النوم أخذه لسقيفة من التنك، بها فراش من مرتبة ووسادة رخيصة من الإسفنج مغطاة بفرش، وبطانيتان نظيفتان، ولم يكتف الشايب بل أحضر له بطانيتين أخريين قائلا:

- ترى الليل يا أبني برد واجد، إن شاء الله تنام مرتاح...

وكما أكل كما لم يأكل من قبل، نام كما لم ينم من قبل، وطوال الليل يلهج بالشكر للرجل وأسرته، وعندما استيقظ كانت الشمس في كبد السماء، قام يجرى هنا وهناك على القطيع، والخجل والخوف يمسك بتلابيبه.

نادت عليه العجوز: يا مصري... يا مصري... تريح يا أبني، اليوم خرجت زاهيه بالغنم، قال كلام كثير كله اعتذار وأسف،

برغم أنها لم تفهم كلامه، فهمت العجوز مقصده فأخذت تهدئ من روعه.

– الشايب راك تعبان اليوم، تريح وغادى تخرج بالغنم.

في هذا اليوم عاد للنوم، لم يستيقظ إلا بعد غياب الشمس، كان جوع جسده للنوم بلا نهاية، ولو استطاع لنام أسبوعا كاملا، قام يغسل ثيابه، وعندما بلغت الساعة منتصف الليل أصروا أن يقيم معهم هذه الليلة أيضا، وعندما ذهب في صباح اليوم التالي للحاج فرج نظرته نورية في غضب لا يخفي تعجبا، كان نظيفا مغتسلا صفف شعره وحلق ذقنه فبدا وسيما، لم ترحمه كعادتها.

- ترى... هاك الفوال... ترى جاي تتمخطر، سَجِّدْنا بيش تاخد الغنمات.

تجاهلها متجهما، وطوال الأيام التي أمضاها لديهم أبقى على وجهه جدارا ثقيلا من العبوس لا يرد لأحد حديثا، ولا يحدث أحدا، وعندما عوفي الحاج فرج الفرجاني من مرضه، سأله نقوده وهو يمنى نفسه بالخمسين دينارا التي قدرها له، برغم ضآلته وشعوره بأنه يستحق ليس أقل من مائة، قال لنفسه: يكفي حقنا القانوني احنا سلكاوية... وطوال ثلاثة أيام ظل يطالب الشايب بنقوده وهو يجيبه:

- غادي ننزل السوق نجيب لك فرش... هسه أعطيك عشر دنانير.

يرفض بغضب: عايز فلوس الشهر كلها.

وتمضي الأيام والحاج فرج يراوغه، ويمنيه بنقوده يوما بعد يوم، فبدأ يوطد نفسه على قبول دينار وربع مثل عمال درنه، خمسة وأربعين دينارا في الشهر... معقولين... وهكذا أخذت

أحلامه في التقلص، عندما سأل مترددا الشايب عن بقية راتبه، وهو يأخذ مكرها عشرة دنانير أجابه:

- توا أخذت عشر دنانير، ترى تحسب الأكل والسكن، يبقي من راتبك ثلاثة عشر دينارا، حقك من حق الله، أنا ما تجادل في عرق مسلم.

انفجر يصرخ:

- سكن إيه... وأكل إيه... أنا نايم في الطل، تحت المطر من يوم ما جيت، يا عالم يا كفرة... تقولي مسلم... عشرة أيام والدنيا تمطر عليَّ، وانت يا حضرة المسلم رامي لي بطانية مهلهلة تعمل إيه في السيول، جنسكم إيه، تلاتشر دينارا بعد خدمة شهر وعشرة أيام، تأجر لي الطل، وأرض ربنا وتقول لي سكن، ده أنتم يهود، هو يعنى الواحد لأنه ما معهوش إقامة تاكلوا حقوقه...

خرجت المرأتين ووقفتا مندهشتين في عجب... لم يكن أحد يتوقع له أن يثور... كان لا يزال يصرخ: رغيف الخبز بقرش... تحسبه عليه ثلاثين يوم بتلاته دنانير.

هتف الرجل مشيرا لابنته: وهادي... ما تخدم فيك وتطبخ طعامك.

- ليه قاعد في فندق خمسة نجوم، خدمة عشرة بالمائة، وعلى إيه المكرونة البايتة الساقعة، ولا الخبز المعفن، قسما بالله العظيم تلاتة ورب العزة، أنا لو مراتي بتقدم لي أكل زي ده لأكون ممرمغ بيها التراب، ورامي عليها يمين الطلاق، أنتم فاكرينا إيه غنم، دي تخدم فيِّ، ليه تكذب وتقلب الحقائق، تخدم فيّ وهي ماشية وراي بالكرباج، تقول عبد... مصري هذا... الفوال... كنك يا تيس... كنتم تاكلوا إيه قبل النفط، ما

كنتوش تلاقوا، كنتم تيجوا عندنا نرحب فيكم وتشاركونا لقمتنا، دا أنتم لسه ساكنين في الصفيح.

انفجروا بالضحك، ولم يكن يهدئه سوى ضحكهم.

– طيب... طيب، تبي أيش، أيش ترغب؟

- نتحاسب... أنا متفق أمام أبو النديم مع ابنك ناخذ خمسين دينار في الشهر.

– باهي يا ولدى نتحاسب... كم تبغي؟

قال حزينا: خمسة وثلاثين دينار.

– خمسة وعشرين.

– ثلاثين ما ينقصوا درهم.

– باهي غادي نروح السوق ولما نرجع نعطيك قروشك...

– أنزل معاك.

– ليش... وتترك الغنم؟

أشار ناحيتها بغضب: هي تسرح بهم.

تراجعت إلى الخلف وصاحت بصوتها الممطوط بغضب:

– أنا... نسرح في الغنمات.

صرخ فيها وهو يتجه نحوها مهددا: أيوه... أُمَّال مين كان يسرح بهيم قبل ما آجي... العفريت! ... وصرخ يقلدها وهو يهز وسطه... أنا... نسرح في الغنمات... لا... أبوي يطلع من التربة عشان خاطر عيونك.

تراجعت مذهولة وهي تهتف بغنج:

– وي... عبد الله.

نظر لها مدهوشا: عبد الله! ... أول مرة تنطقوا اسمى، شهر وعشرة أيام، أول مرة حد ينطق اسمي... دا أنا نسيته... روح يا فوال... تعال يا فوال... المصري هذا... المصري هيك... إيه يا عالم يا ظلمة.... يا عالم ياللي ما فيش في قلبكم رحمة.

ضحكت نورية: وي... ترى نحن نهزر معاك وترى انت تحصر في نفسك يا مسكين... طب قول...

أشاح بذراعيه على آخرهما: مش ح أقول... اليوم باكل عند أخوك وبكره... راع أنا أنزل درنة معاك بالسيارة.

في السوق وقف عبد الله حانقا مشدوها، والرجل يبيع ثلث القطيع بألفين وخمسمائة دينار طلب نقوده لكن الشايب أبى، وقف يضرب كفا بكف.

- ترى أعطيهم لك فوق بالجبل نحوشهم لك... لكنه لم يتركه إلا بعد أن أخذ عشرة دنانير، حذره الرجل بأن يكون جاهزا للرحيل قبل عشية اليوم القادم... هز رأسه بغضب، ورحل مؤكدا حضوره.

* * * *

الفصل الخامس عشر

- 1 -

بلغ الحوش في الظهيرة، وجدهم يتناولون طعام الغداء، استقبلوه بترحاب وشوق كبير، وبينما كانوا يتبادلون الحديث عن الأحوال الزقت التي يواجها كل منهم، شعر عبد الله بشيء ما في الجو، كان نبيل منسحبا عنهم مستقلا بغرفة له وحده، ومبروك ينظر إلى نبيل ولا يتوقف عن الضحك، وعبد الله يحاول الاستفسار عن السبب دون أن يثير حرجا لنبيل المنفرد بنفسه، ينظر إلى المبروك شذرا، على أية حال خمن عبد الله الأمر، لكن المفاجأة هي دعوتهم له كي يصعد معهم للطابق الأعلى، نظر مندهشا، أنتحى به المبروك جانبا، همس وهو يكتم ضحكته: صاحبك مطين الدنيا، حميدة طلبه بنفسه يمد أسلاك كهرباء جديدة لشقته.

- حميدة!

انتحى عبد الله بنبيل ركنا: شقتها... شقتها يا نبيل يا عاقل!

- حميدة والله ما لي دخل.
- يمكن هي؟
- ولا هي.
- متأكد... صمت
- احذرك، ده خطر عليك. أجابه بالصمت فاستطرد: بتحبها؟

غامت عيناه خلف ضباب كثيف: رُد عليَّ بتحبها؟

هز رأسه بالإيجاب.

- وهي؟ صمت...

- وأخرة الحب ده... ح تدخل السجن، سيب درنة روح بنغازي، ارجع مصر.

- مقدرش، أنا في حياتي لا حبيت ولا ح أحب زي ما حبتها.
- ليه... فيها إيه؟

عندما صعد عبد الله وراء نبيل أدهشه الرياش الفاخر لغرفة النوم وبقية المنزل، عادت من عملها في الثانية والنصف ظهرا، حيتهم بحرارة أثلجت صدورهم، وظلت في حضور أمها على خدمتهم دون توقف، تحدثهم وتمازحهم فلما غابت افتقدوا غيابها، لقد أشعرتهم بأن علاقتها بنبيل علاقة بهم جميعا، علاقة تقاسموا فيها الأدوار، هي المعشوقة وهو الحبيب، وهم الأصدقاء والأهل، في نهاية اليوم ظهرت حاملة عشاء فاخرا، يحوي ما لذ وطاب، هللوا لنبيل، ضحكت وقالت: راعوا كلوا. أيووووه... أنا نحب المصرية واجد.

أصابهم هياج مكتوم، وقبل أن ترحل عقب أبو رحاب ملمحا لنبيل: والمصرية تحبك كتير.

نظرت إليه مبتسمة دون خجل وفي تواطؤ، وكأنه أذن للجميع بأن يكونوا على سجيتهم، فانطلقوا يضحكون بسعادة. عندما نزل عبد الله لم يكن لديه شيء ضدها، بل شعر بميل نحوها، وعندما التقت عيناه بنبيل، ابتسم له بتشجيع قائلا:

- حرص من زوجها، يدبر ملعوب وأنتم غارقانين في بحر العسل.

أجابه بحرارة وانفعال شديدين: ماتخافش... عجبتك.

- نصيبك يا عم، لهطة قشطة، وقلبها جوهرة، وكمان بتموت فيك.

سأله لاهثا: إزاي عرفت إزاي؟

- بقي أنا ح اعرف، وانت مش ح تعرف، جرى إيه يا نبيل...

قاطعهما أبو رحاب: نبيل أترك لنا عبد الله، الراجل بكره ماشي، أيوه يا عبد الله، قول فضحتنا، ركبت عليك المرة من هنا وانت نمت من هنا، طب هو ده وقت نوم يا ابن البهيمة. امتلأ فضاء الغرفة بضحك صاخب، وطوال الليل كانوا يتحدثون، لم يناموا، فقد كان لأحاديثهم شجون، لاحظ تحسن حالتهم، التليفزيون والثلاجة القديمان، المطبخ الممتلئ بالطعام...

قال أبو رحاب: تفاح يا حضرة الصول تفاح...

قام يرقص ويغني مصفقا: تفاح، تفاح، كل يا خوى، تلاقي الشجر نبت على جتتك من مضغه كل يوم، كُل تفاح بس خد بالك أحسن تموت من الخضة يا عين أمك.

عندما انتهوا من شرب الشاي، قال وقد شعر بأنهم أحسن منه حالا: آخد فلوسي من الراجل وأجي أقعد معاكم؟

خيم الصمت عليهم قال المبروك: آخر الشهر ما فيش عمل بدرنة.

قاطعهما أبو رحاب: احنا نروح بنغازي يا عبد الله.

في صباح اليوم الثاني قابلا أبو نديم صدفة، استقبلهم استقبالا حسنا، وأصر على أن يأخذهما إلى حوشه، وهناك اشتكى عبد الله من الشايب، قال له أبو نديم: خد فلوسك وما تترك فلس، أنا أقول لك آهه، وما تخاف انت تعمل عمل وتاخد أجر، ولو ما بده إياك بيطردك، العمى، الليبي تخاف منه يحتقرك بيذلك، تصير رجل، بيعاملك معاملة حسنة، بيحترمك، وعموما أنا (ماخد) شغل كتير في بنغازي، تعرف مؤسسة النصر، عمر ببوزي، توا نبني في معسكر كبير لسلاح المدفعية، هاك العنوان ولما تاخذ فلوسك وتزهق تعال عندي ببنغازي.

-2-

عندما صعد الجبل حاول أن يجعل عشاه ونومه يوميا عند أسرة أخي مخدومه دون جدوى، كان هذا يثير الشايب والعجوز ونورية، يدمدم الشايب في غضب: يبي يروح لمفتاح بيش ياخده يعمل عنده...

تهاجمه نورية: عليش تبي تغادرنا، ناكل فيك احنا، عجب والله عجب، وأيش تاكل غادي؟ فيثيرها: أكل ما حصل بُكًّلْ.

ترد عليه بسخرية: تاكل حلاوة؟

فيتجاهلها منصتا إلى راديو صغيرا اشتراه من درنة، فتصرخ به:

- سمعت؟

يطفئ الراديو وينظر نحوها: آكل هناك أحسن من هنا.

تسأل مندهشة جرأته: شنو؟

يقول وهو يهز يديه وقد استعاد عدوانيته: آكل أكل بشر، بنى آدمين، مش أكل الحيوانات والكلاب ده. يستطرد بنفاذ صبر، والله تاعبة نفسك وما ح تفهمي.

يجن جنونها: أنا ما تفهم، أنا ما تفهم؟

– وكمان ما تعرفيش تطبخي.

دخلت البرَّاكة تشتكي أمها، "الفوال هذا يشتم في، يقول أنا ما نفهم".

جاءها صوته من الخارج: طبعا أيش فهمك انت في الطبخ، مكرونة مكرونة مكرونة، فيه في الدنيا حاجة أسمها طبيخ، خضار اسمه بامية، بسلة، ملوخية، رز، فاصوليا خضرا، لوبيا، على فكرة ما اسمعك تقوللي فوال تانى، ما أنتم تاكلوا الفاصوليا زي الفول بالضبط... أيوووه... راك تقوللي فوال تانى. وعندما انتهى لم تجرؤ على الخروج، كانت تولول وترغى مهزومة.

في أحد الأيام انهمر المطر غزيرا، فلم تخرج الغنم للرعي، منذ الصباح الباكر ذهب يغسل ملابسه ويستحم، نادى عليها طالبا آنية فلم تفهم، أخذت تردد عليه شنو، شنو تبي، فتركها

مقتحما البرَّاكة إلى حيث الحلل والأواني، وجلس يطبخ بالخارج، في البداية نظرت إليه باحتقار، ثم أخذت تدور حوله من بعيد، تتشمم الأكل، تراقبه وهو يقطع البصل، والطماطم، والثوم، وعندما طلب منها حق الفلفل، سألته: تبي شيء آخر.

هز رأسه نفيا، لكنها أحضرت له حقاق، وزجاجات البهارات المختلفة، فأخذها وعندما انتهي، افترش الأرض وصنع مائدة كبيرة، وامتلأت الأطباق بالطعام، نادى على الشايب فجاء وزوجته دون معارضة، وجلسا يأكلان في تلذذ ونهم، لم تجرؤ على الجلوس معهم، رغم رغبتها في تذوق طعامه، تجاهلها فشعرت بحرج في كرامتها، وعندما وضعت طعامها صاح بها: ترى أنا أترك لك في أكل واجد، خذي الحلل، اليوم تتغدى على حسابي.

أثنى العجوزان على الطعام، بعد الشاي تمدد تحت شجرة شتوية، يستمع إلى جهاز الراديو الصغير يدندن بالغناء، ويدخن السجائر مستلقيا على العشب حرا، تابعها بنظرات صريحة واضحة أثارت فيها الارتباك، بعد أيام أصيب الشايب بوعكة فانتقل للإقامة الدائمة عند أخيه، بعد أن أخذ راتبه عن الشهر المنصرم.

-2-

في أحد الأيام كان سائرا وراء القطيع في طريقه اليومي المعتاد، قرب الظهيرة لمح نورية تقف في قاع الوادي وسط عدد صغير من الغنمات، ظل يسير في حلقات دائرية متتابعة شيئا فشيئا، هبط القطيع باتجاهها، وكأنه يشم رائحتها، كان

كل منهما ينظر إلى الآخر يستبطن داخله، يحمل الأثير أفكار كل منهما للآخر فكرت المرآة الصغيرة لو حاد عني (........) لو جاء لي مباشرة.

وكان يفكر... الآن نحن وحيدان أنا وانت يا بنت الفرجانى... التقت عيناهما ثانية... تلاقيكي فاكراني مرة، والله لأشقك نصين... أصابتها الرعدة ربما في الثلث الأخير من المنحدر ربما في منتصفه.. رآها تتطلع نحوه بثبات دون أن تحيد عنه عينيها قط.

وطوال المسافة من منتصف المنحدر الذي يدور منه هابطا وحتى قاع الوادي، حيث كانت تقف في منتصف القاع تتطلع نحوه بثبات... عرف ما تريده وعرفت أنه قادم إليها... وكلما حاد بعينيه ناحية الغنم كانت عيناها المثبتتان عليه تعيده إلى أسرها بقوة أشد، ووضوح أكثر... عندما بلغ قاع الوادي توجه إليها مباشرة.

على مبعدة عشرين مترا سمعها تثرثر... تزأر... تدمدم... تجز على أسنانها... ويداها تعبث بمئزرها، لمحها تفك تكة سروالها، وتلقى به إلى الأرض بين قدميها، دفعته تتخلص منه إلى الوراء، وقد برز أمامه نصفها السفلى وينتصب زاهيا متحديا، اندفع يهاجمها كالمجنون... عنيفا... منتقما... شرُ ما كامنُ فيها، كان يتعين عليه أن يهاجمه، أي نوع من الشر. لا يدري وكيف يهزم شيطانها إلا أن يمزقها أشلاء... تشابكا بالأيدي، تقاتلا بوحشية... مزق قميصها وهي تضربه وتركله بيديها وقدميها معا...

قبض على معصميها دافعا بهما إلى وراء ظهرها، فتقوص نهداها صاعدين إليه، يحتكان بصدره بقوة... نشبت أسنانها في كتفه لبؤة ثائرة... صرخ من الألم. دفعها يتخلص من

أسنانها... أمسكت به تنشب أظافرها في جسده، جذبته إلى الأرض... سقطا وسط الغنم يتقاتلان وهي تشتمه بصوت أجش:

- تعال يا تيس.. تعال يا زامل.. تعال يا قواد.. تعال يا فوال.. أنا نبيك.. أنا نبيك في حشاي.. يا قحب يا قواد.. كان يلهث هو الآخر هامسا: وأنا أكرهك.. أكرهك يا بنت الكلب.. أكرهك.. أكرهك بنت الفرجاني..

تقلبا وسط الأغنام بين العشب الأخضر والأرض الخشنة الجافة.. كلما حاول أن يلجها قاومته، ناشبة أسنانها في أي جزء تصله من جسده، فيندفع دون إرادة يصفعها بعنف... لما أنتبه لشدة عنفه حاول الانسحاب، لكنها تشبث به، والتصقت بجسده كغريق.. وهي تردد: تعال يا تيس.. تعال يا زامل.. تعال يا قواد.. تعال يا عرس يا فوال.. أنا نبيك.. أنا نبيك في حشاى.. يا قحب يا قواد

كان أمامه طريق واحد دفعته إليه دفعا.. اغتصابها عنوة.. هذا ما كانت تريده.. عاكفا على قتل شيطانها ضربها بقسوة... العنف... جسده الدامي.. اندفاعه في فضاء مظلم... جواد ثقيل تدك سنابكه أحشاءها.. بعده تبلغ الزبى.. صراخ لصوت لا يمت إلى البشر بشيء.. صوت قادم من أعماقها ما لبث أن تحول إلى عواء شبقي يتردد صداه في أرجاء الوادي.

كره الصباح والليل، صباح من السير الطويل، وأغنام ترعى تأكل وتشرب وتمرض وتهرب وتكبر وتسمن وتباع بآلاف الدنانير، وهو لا يأخذ حتى دراهمه، وليل أُستأجر عبدا لنشوة مازوخية أو سادية لا يدري، لا يمضي ليلة إلا وتشهد السقيفة او حظيرة الأغنام والساحة المحيطة بالبرَّاكة قتالا ضاريا بين

وحشين كاسرين، يأتي الصباح وجسده مُدمٍ من أظافرها، أسنانها، العشب الجاف والأرض الخشنة.

يوما ما قالت دون أن تعي: ليش تبي تاخذ قروشك، تبي تتركنا، راعي[59] إنك تحلم، كان واضحا له أن المرآة تمسك به من خصيتيه، وأن شيئا لن يمكنه من الفكاك منها، لهذا لن يرى فلسا إذ لم تضمه سجون درنة أو البيضاء، أولا وساعتها لن يرى شيئا على الإطلاق... ارحل إذن... ارحل إذن يا ابن عبد الجليل...

في منتصف إحدي ليالي شهر فبراير خرج الشايب يبحث عن ابنته، سمع صوت خربشة في حظيرة الغنم فتوجه هناك، وأمامه رأى حيوانين عاريين يتقاتلان بعنف وشهوة، هبط بالعصا على جسديهما يفك اشتباكهما الجسدي، أصاب عبد الله الفزع، قفز محاولا القيام، لكنها تشبثت به واللذة تفتك بها... تقتلها، تظنه الذي يقوم على ضربها بالعصا... لقد بلغ حافة الخطر، يحيق به شر مستطير... الهرب... ليس ثمة سبيل سواه، وفي التو واللحظة...

بصعوبة استطاع أن يتخلص منها... مال مسرعا يجمع أغراضه ويرتدى ملابسه تحت ضربات الرجل العجوز، واندفع يجرى هابطا الجبل، تتبعه الرجل لكنه تاه منه في الظلام، وطوال الليل أخذ يجرى في المسالك غير المطروقة متجنبا الطريق الأسفلتي، كان يعلم أن الرجل لن يتوقف عن مطاردته. عندما تسللت أشعة الفجر، اتجه ناحية الطريق الأسفلتي مباشرة، عبره متجها إلى درنة عبر الفتايح من الجهة الأخرى للجبل.

59) راعي: ضع في اعتبارك / لهجة ليبية

* * * *

الفصل السادس عشر

- 1 -

في العاشرة صباحا بلغ درنة، صعد إلى حيث التقى بأصدقائه في مكان عملهم، حياه المبروك من أعلى سلم خشبي وهو يرمم بمونة الأسمنت مكان حفر الكابلات، سأله عن بقية الرجالة، أجابه بأن نبيل يمد أسلاك الكهرباء في العمارة الأخيرة، ومعه محمود وأبو رحاب، وأنه يقوم بالتشطيب خلفهم. سأله إذا ما كانوا قد اصطلحوا؟، فأجابه أن الزمن كفيل بكل شيء، سأله المبروك إذا كان سيبقي طويلا، أجابه مندهشا:

- مين... أنا؟
- يعني... أنا! مالك... الجبل خلَّى مخك تخين؟
- أيوه مش راجع.
- ليه... عملت حاجة؟

- هو فيه حد هنا بإيده يعمل حاجة.
- هه ومين اللي عمل، الشايب ولا المرة.
- اللتنين... أنا جاي هربان.

التفت المبروك مفزوعا: يا نهار أبوك أسود، قتلت حد، سرقت حاجة.

هتف غاضبا: جرى إيه يا مبروك، جرى إيه، انت مالك مرعوب ليه، أنا ناقصك، قولي فين العمارة اللي بيشتغل فيها الجماعة، العالم ركبها الجبن، دا عيشة تكفر.

- ما تزهقش، نص ساعة وأروح معاك.

بينما كان يحكي لهم قصة هروبه، لاحظ الطعام الشهي، الدم الجاري في عروقهم، الصحة الموفورة وراحة البال، والدراهم التي تخرج بسهولة من محافظهم، أصابه الإحباط واليأس... عقب محمود:

- ما تروحش معاهم، تنام معاى في البرَّاكة، الراجل عارف الحوش.

عقب نبيل: أفضل... تلاقيه جايب الشرطة وجاي يدور عليك.

- ليه؟
- تهمة زور، فاكر يتركك!

تدخل المبروك وابتسامة ساخرة تملا وجهه موجها حديثة لنبيل:

- ولما انت ناصح، مش خايف من التهمة اللي بيجهزها لك حميدة.

أصفر وجه نبيل، وضحك أبو رحاب معقبا: على نار هادية.

نظر عبد الله مستفسرا... فلما ظل نبيل صامتا سأله: فيه إيه؟ قال المبروك وهو يحدق في نبيل بطرف عينيه: مش ح يقول لك...

فكر... ناس تحب وناس تاخد ضرب الصرم... قال بلا مبالاة أزعجتهم: هو حر... بقولكم إيه، أنا نازل من الجبل مفلس، عايز أنزل الشغل من بكره. تبادلوا النظر.

- فيه إيه.

قال المبروك: أنا قلت لك، أسبوع والشغل كله يخلص، المشروع في التشطيب.

شعر بالإهانة وإحساس بأنه الخاسر الوحيد، قال غاضبا: هو أنا ح أخد شغلك يا مبروك شوفوا لي شغل في أي مكان.

تدخل محمود: مالك يا عبد الله، المبروك ما قال شيء غلط، يا سيدي أني تعبت، تعال اشتغل بدل مني.

نظر عبد الله إليه شذرا: الله... أنتم ح تتجبوا عَلَّي!

قال نبيل: يا عبد الله الموضوع مش كده، انت عصبي ليه. البطالة خانقة درنة والعمال نايمة على الأرصفة.

قال محمود: احنا أسبوع واحد ونسلم الشغل، وناخد فلوسنا ونتكل على بني غازي، ريَّح معانا أسبوع ونطلع كلنا، والشغل هناك جاهز في انتظار وصولنا.

- شغل إيه؟ قال أبو رحاب: أبو نديم

- إيه مش كفاية من أبو نديم.

قال نبيل: الراجل ما أخد عرق أحد، غير أنه ذوق ومؤدب... انت اللي حظك مش مضبوط. وافقه الجميع. قال

معترضا: والفتايح! قال محمود: فتايح إيه هو فيه حد كان فيه نفس يشتغل.

– ونبيل... معانا ولا قاعد؟

صمتوا جميعا، وتشاغلوا في تناول الطعام.

-ج-

"أول كلامي من مديح المصطفى الهاشمي سيد ولد عدناني، يونس مشيٍ على الرمل ما بين أثر... وغاص قدمه بألبس الصواني... قالت عزيزة بنت الوهيدى معبد... أبيات شعر صنفتها بمعان:

يونس لا تبكى بكاك ضرني، غطى على قلبي وعاق لساني، انظر صبية أصبحت في حضرتك، عرجون ثريا وسيف يماني، الرأس منها مثل رأس يمامة، والِشعر مسبول على القمصان، والوجه كالقمر المُنار، أكبر من القدح الكبير أعياني، والحاجبين كما قيس الرجا، سبحان ربى كحل عناني، الأنف منها كالحسام مجردا، في يد فارس نازل الميدان، والفم منها مثل خاتم دهب، أسنانها لولى، والشفف مرجان، والصدر صادر تحت النتر، نهودِها رمان على الأغصان، والبطن طيات الحرير ولينه، مطوي معلبك[60] حي للسلطان، والسرة منها كما فسقية، بالمسك والزبد ضوت ألوان، من تحتها تلقى جنينة هاوية، مفتاحها من داخل القمصان، يا بخت من ينفتح له بابها، يقضى زمانه في الصفا غرقان، انظر يا يونس إلى قصرها، بأربع بوارج شاهق البنيان، أفضِل ما قلنا نصلى على النبي الهاشمي من خص بالقرآن..."(**)

60) معلبك: لَبِ َ اللَّحْمُ : يَبِسَ، صَلُبَ

بعد عناق مشبوب أناخت سلمى برأسها على صدره... مد أصابعه في شعرها... شعرت به بعيدا عنها... سألته: وين صرت هسة... بعدك ما معي.

- الشغل قرب ينتهي... لازم أسافر مع الجماعة.

قامت تحتضنه مهددة: ما اسيبك بُكَّلْ... راع تمشي امعاهم وإلا قدمي على قدمك. أشاح بيده معبرا عن استيائه.

- اووووه... خبرني يا قلبي... شنو بك، أيش فيه، شنو مشكلة، تبي فلوس. زاد استياؤه... شجعته على أن يبوح بما يريد قوله، غمغم:

- قلقان... مش مستريح.

- من شنو يا حبيبي؟

أغمض عينيه: أنام على فراش غريب. وصمت.

قفزت بغضب وصاحت به: تنام على فراش رجل غريب، ومع زوجته، مو هَيكِ... وأشارت بأصبعها إلى الفراغ... تقصد التيس هذا، حميدة، هذا مو فراشه، وهذه مو شقته ولا حوشه، وأنا مو مرته، شنو زواج بالاسم وخلاص هيك...

كانت ثائرة... استطردت دون أن تعي: وي.. الكلب هذا يعدى مصر يدور في شرموطات وأنا أعيش كيف الهجالات[61].

حاول نبيل أن يهدئ من روعها دون جدوى، استطردت: يحسب في مو عارفة، عبيطة أنا، ترى انت تخدمه، والا كنت قتلته بيدي ها دول... لعنة تطيح به يا أخي.

قال ببطء: إيه الفرق بين اللي يعمله واللي احنا بنعمله؟

---

61) الهجالات: الأرامل والمطلقات/ لهجة ليبية

تراجعت مبتعدة عنه تنظر إليه بغضب ممزوج بالدهشة: لشنو... هه. ليش تهين في... راك تحسب في شرموطة يا نبيل... تحسب في شرموطة... ما في فرق؟ ياه... أمسكت رأسها بكلتا يديها تعصرها بغضب معذب... تراك من يوم دخلت هنا وانت تحسب في شرموطة.

أحاطها بذراعيه في لهفة وهو يردد: أبدا يا عمري.

– طب على أيش تقول هيكٍ؟

– مش قادر... حال لا يمكن نستمر فيه.

– أيش ما بدك... أنا وراك...

قال بعجلة ما لبث أن اكتشف فيما بعد مقدار سذاجته: تطلقي...

صرخت به في فرح: وتتزوجني...

– وأتزوجك.

- تتزوجني وأهرب معاك لمصر. وهو يوافقها بحماسة ورغبة عارمة يود لو تتحقق كان يعلم في داخله أن أمرا كهذا لن يحدث قط.

- اسمع ترى لو تركتني بقتل واحد فيكم، اطمئن... بعرف كيف أحصل عليك... هو اللي يظل كيف المصيبة قدامى...

- تعالى، مش ح سيبك، أطلبي الطلاق، ساعتها نلاقي حل نتزوج هنا، نتزوج في مصر، المهم نتصرف بشرف.

* * * *

- 3 -

"أول ما نبدى نصلى على النبي، نبي عربي للمؤمنين حبيب، يقول الفتى مرعي: نعم إيها الطير الذي سكن العلا، على شرف عالي علوه عجيب، سكنت العلا لا كان هذا مرادك، ولا مثلك يرضى بدا التعذيب، تأكل من أكل الملوك وشربهم، وتنام على خاص الحرير رطيب، قاعد في خير وعز ونعمة، وغيرك يقاسي من الأمور صعيب، أعلم يا ذا الطير أهلكم تراحلوا، إلى الغرب، دل بهم دليل لبيب، وتبقي غريب الدار مالك مرافق، ومسكين من كان يعيش غريب..."(**)

بعد انتهاء العمل في مشروع حي باب طبرق، وقف نبيل بودعهم على باب الحوش.

- حتى واحد يبقي معاى.

صاح محمود: العمال عندك في درنة، زي الهم على القلب.

- يا أخي عايز واحد منكم

قال عبد الله يا نبيل الوضع صعب، آن الأوان نطلع بنى غازي وما في داعي نتشتت.

قال أبو رحاب: والله قلبي مش مطمئن إنك تقعد هنا، تعال واخزى الشيطان.

قال نبيل بسعة صدر: الله يسامحك.

- احنا خايفين عليك.

صرخ أبو نديم: هيا يا إخوان، سيارة أجرة أنا!

صاحوا جميعا خلاص يا عم أبو نديم.

كان قد وعدهم أن يوفر عليهم مشقة الطريق، والسير الطويل، وألاعيب سائقي سيارات الأجرة، أن يقوم بتوصيلهم حتى مدينة البيضاء ثم يتركهم لوجود نقطة مرور حاكمة على مدخل كوبري وادي الكوف، هناك يتعين عليهم عبور الوادي عبر الجسر الحديدي القديم، وقد أوفى بوعده. تحركت السيارة المرسيدس، صاح عبد الله مخاطبا نبيل وهو يطل عليه من نافذة السيارة: - خد بالك من نفسك يا نبيل، العنوان معاك، أنا ح أجيلك زيارة.

نظر الجالسون في مؤخرة السيارة إلى مدينة درنة، وهي تتلاشى في وهن تحت زخات المطر الغزير، وكلما عنَّ لأحدهم أن ينظر إلى الأمام انتابه ذعر من المجهول القادم وحش ما كان قابعا فيهم، ينكس رءوسهم، يلتهم نفوسهم ببطء، وكلما اتسع السهب، وامتلأ الفضاء بالرحابة الممتدة للهضبة العليا للجبل الأخضر، شعروا بالعالم الفسيح يضيق بهم، يأخذ بخناقهم، يسحقهم، يخلع عنهم جلودهم ويعرى روحهم ثم يلقى بها لعراء عاصف.

وداعا درنة، وداعا أيتها المدينة المزيفة، وداعا أيتها الشمس المستوحشة الهاربة دوما خلف الغيوم والمطر، وداعا درنة الجميلة، يا من تشهدين أعجب مشهد في تاريخ مصر، رحلة الهلاك الجماعية لشعب النيل، بركة المماليك الأغاوات والإنكشارية، بركة العسكر، بركة المنسر بركة العلق اللي يمتص دمك، بركة السلطان الجالس على عرشك.

دخلوا مدينة البيضاء في الثامنة ليلا، وأصر أبو نديم أن يكون العشاء على نفقته، تناولوه في أحد المطاعم، ودعهم أبو

نديم، وشكروه بحرارة وعرفان، وودعوه بحسد مكتوم، وهو يؤكد عليهم أنه ينتظرهم بمعسكر الفويهات ببنغازي.

تسكعوا في أرجاء مدينة البيضاء وشوارعها الفسيحة، تنقلوا بين أسواقها، شاهدوا واجهات محلاتها التجارية المكدسة بالسلع والأجهزة الكهربائية، كل منهم يمني نفسه بهذا وذاك، ورائحة وشكل الفاكهة الطيبة من كل نوع، يؤرق شهيتهم، يقسوا على أفئدتهم دون رحمة، قبل مغادرتهم المدينة في العاشرة ليلا حملوا معهم طعامهم المعتاد، خبزا، وشايا، وسجائر، وكبريت، وزجاجة ممتلئة بالجاز، وعلبة طعام محفوظ فارغة لصنع الشاي، على الطريق الإسفلتية تحدثوا أحاديث تافه قليلة، ثم حل الصمت التام، أمام قسوة الليل وبرودة الطقس، وكلل الجسد أما السير الشاق الطويل.

تتداعى الذكريات كالسيل، في البداية تطل كما تطل رءوس الفئران من جحورها، فإذا وجدت السكون في الخلاء، خرجت تنهش الأحياء والأموات لا فرق، كان يتوق لحلقة سهر ليلية حول موقد الشاي والمعسل مع الأصدقاء، حلقات الذكر، شاعر الربابة فتحي سليمان يحكى قصص أبو زيد الهلالي والأميرة شامة، وعيون النساء الناعسة، وليالي الأفراح والمآتم، وأيام الفرح والشقاء، كان يتوق لظل أشجار الصفصاف والجميز الضخمة والكافور العالي، والجلوس مع الصحاب على جسور الترع، وسط نسائم الهواء المنعشة، غمغم يباكت نفسه...

أهه... يا ريتك يا أبو زيد ما غزيت.

* * * *

الفصل السابع عشر

- 1 -

1970 أحد الأيام الأخيرة من فبراير، صدرت الأوامر للفوج 89 بالتقدم باتجاه الجبهة، أجرى سائقي شاحنات الحملة التمام على إحكام ربط المدافع والمعدات بعربات الكراز. في كابينة إحدي النقلات جلس بجوار السائق، وفي السابعة ليلا بدأ اللواء في التحرك من مطار القاهرة الدولي، حيث شقت الحملة طريق الإسماعيلية الصحراوي، كانت الشاحنات مطفأة الأنوار تنهب الطريق بثبات.

كان يوما ممطرا، تطلع للسماء، يرى مجموعات السحاب تخفي قمرا باهتا، ونجوما تتناثر في أرجاء المجرة، تابعها وهي تسير بمحاذاته لا تفارقه، والبرد يغزو جسده رويدا رويدا. على بعد حوالي خمسة وسبعين كيلومترا من القاهرة انحرف القول

جنوب الطريق الأسفلتي، وطوال نصف ساعة ظل يشق طريقه على الطرق الترابية الموحلة، وسط حدائق الفاكهة وأشجار المانجو التي كانت تشكل مصدرا طبيعيا للتمويه.

في البداية رأي أعدادا من ناقلات الجنود تقف على جانبي الطريق، لمح بريق السلاح يلمع في الظلام، شيئا فشيئا ظهرت العشرات من صواريخ سام (3)، محملة على شاحنات الزل (157)، مئات الجنود تجلس القرفصاء بانتظار الاشتباك مع العدو، وجوههم السمراء الصلدة، وعيونهم المحدقة للمجهول القادم، عشرات السيارات المحملة بالزلط والرمل، وحديد مُصنع، وأسمنت، وقطع خرسانية سابقة التجهيز، مئات المدنيين من عمال التراحيل، نساء ورجال جلسوا جماعات متناثرة تحت الأشجار، وقد خيم عليهم الصمت، لا يستطيعون إيقاد نار من أجل كوب شاي، خوفا من وهج يكشف عنهم.

بين فنية وأخرى كان يرى الوجوه الشقراء للخبراء السوفييت ونظراتهم مليئة بالترقب، الآن تبدأ نقطة التحول التاريخية للحرب، كانت حرب الاستنزاف تكاد توشك هي الأخرى أن تنحو منحي آخر، أمام قيام الطيران الإسرائيلي بنوع آخر من الاستنزاف للقيادة السياسية المصرية، بعد أن أبقي مئات الألوف من الجنود قيد الخنادق، واستدار يهاجم الأهداف المدنية للحصول على صك بقبول الهزيمة، والاعتراف بالتفوق الساحق للعسكرية الإسرائيلية.

كان مهتاجا، يشعر أن مسئولية ضخمة قد ألقيت على عاتقه، وعلى عاتق سلاحه الأقل تأثيرا والأقل فاعلية، الآن يتعين عليه وعلى سلاحه المرور بالدفاع الجوي من عنق

الزجاجة، وهو حماية عملية الدفع بصواريخ سام (3) للجبهة من خلال استراتيجية جديدة؛ مواجهة سلاح الطيران الإسرائيلي من داخل جدار من التحصينات يمتد مائة كيلومتر على طول الجبهة، بعمق ثلاثين كيلومترا، كانت المهمة واضحة تماما، وهي الحماية الجوية لسلاح المهندسين أثناء قيامه بعملية إنشاء قواعد الصواريخ، ثمانية عشر منشأ خرسانيا سيتم تحت القصف، الآن صار يتعجل الوصول، ثمة حرب ضروس قادمة.

بلغ اللواء مواقعه في الساعة الحادية عشرة والنصف مساء، وُوجهَ المقدم أركان حرب غبريال بعاصفة من قائد كتيبة المهندسين، من على بعد مئتي متر كانت إحدي سيارات الجيب تأتي مسرعة، وأمامه مباشرة صرت فراملها، ونزل منها ضابط أركان حرب برتبة عقيد، وخلفه نزل أحد الخبراء السوفييت صرخ حانقا: يا سيادة المقدم ده انعدام للمسئولية، حضرتك المفروض تكون هنا من امبارح.

– ليه يا افندم...

– حضرته مش عارف، جميل والله، كتيبتين، واحدة صواريخ، والثانية مهندسين وثلاث شركات مقاولات في انتظارك.

– أوامر التحرك وصلتني اليوم، وأنا لا أستطيع التحرك نهارا.

– لا... كان لازم تكون هنا امبارح.

فتح المقدم غبريال ذراعيه مستسلما: سيادة العقيد، الأمر مش بأيدي.

– أُمَّال بيد امي.

- ممكن تكلم سيادة العقيد لما يوصل.

هو لسه سيادة العقيد ما وصلش؟

- طب حضرتك نناقش الموقف، يمكن نقدر نتصرف لحد ما يوصل.

في اجتماع مصغر حضره ضباط كتيبة المهندسين، وعدد من الخبراء السوفييت، وضباط اللواء عرض العقيد المشكلة، ماذا ينبغي أن نفعل الآن... نبدأ عمليات الإنشاء أم ننتظر حتى الغد...

تساءل المقدم غبريال: إيه المشكلة؟

كاد العقيد أن ينفجر غضبا، تدخل أحد ضباطه متشككا:

- سيادتك عارف سبب وجودكم هنا.

- حمايتكم...

وكأن العقيد وجدها، صاح ساخطا: وامتى ح تتمكنوا من حمايتنا؟

قال المقدم ببراءة: خلال ساعة يكون اللواء مستعدا للتعامل مع طيران العدو.

نظر إليه العقيد بتمعن: تقدر فعلا؟

- يمكن قبل كده... واستدار إلى ضباطه: بسرعة وزعوا الأفواج وأعطوني التمام فورا خمسة وأربعين دقيقة مفهوم...

لم يفكر أحد من ضباطه إذا كان هذا ممكنا أم لا، كان هذا أقل من معدلات التجهيز ولكنهم سيفعلون، صاحوا جميعا وهم ينطلقون ركضا للخارج:

- تمام يا افندم...

وبقي هو لنهاية الاجتماع... نظر العقيد لضباطه من سلاح المهندسين يستعلم موقفهم، شعر بهم يتململون في عصبية يرغبون الانطلاق من فورهم للمواقع، لوهلة خاطفة عنّ له أن يستشير خبراءه، قال كبيرهم عبر المترجم:

- لدينا اختياران، الأول البدء فورا بعد إعطاء تمام من سلاح الدفاع الجوي، وهذا يجعلنا متأخرين ثماني ساعات عن معدل الإنشاء، والاختيار الثاني الانتظار حتى مساء الغد، والبدء مع آخر ضوء، وعيب هذا تعريض القوات للاكتشاف بواسطة الطيران المعادي، حتى لو كان السبب عامل الصدفة...

تدخل الملازم منير عياد من سلاح المهندسين: في كل الحالات احنا متأخرين ولابد من البدء الآن فورا.

صاح العقيد مستفسرا بضيق: كيف؟ على عاتق من تقع مسئولية التأخير اليوم، خاصة إذا تم اكتشاف كل هؤلاء غدا أثناء العمل صباحا... استطرد الملازم منير عياد: انتهينا من تخطيط للتحصينات، ونستطيع تعويض التأخير بالعمل في المواقع الرئيسية والتبادلية معا، كل شيء في انتظار البدء، ويحب أن يكون معلوما لسيادتكم أن أي اكتشاف لعمليات الإنشاء على طول الجبهة تجعلنا بالفعل متأخرين، إذا كنا متأخرين ثماني ساعات، الانتظار حتى الغد يجعلنا متأخرين أربعه وعشرين ساعة.

قال سيد بيومي مهندس إحدي شركات المقاولات:

- سعادتك، نقدر نبدأ بورديتين عمل.

قال العقيد: هي نوبة حماسة والسلام، ما انت لما تشغلورديتين ح تفقد وردية آخر اليوم جرى إيه يا باشمهندس سيد.

أجابه بحماس ورجولة أولاد البلد: أبدا يا افندم، أناح نزل ورديتين دلوقت، واسحبهم بعد ثماني ساعات، الساعة التاسعة صباحا تستلم الوردية الثالثة العمل، في نهاية الوردية ممكن لأي وردية من الورديات اللي اشتغلت دلوقت تستلم العمل، الله... يا افندم... احنا بنعمل كده في الحياة المدنية، مش ح نعمل كده في الحرب.

مسد العقيد شاربه ونظر دون إرادة ناحية المترجم، الذي أشار له بأن الخبير متفق مع وجهة نظر ضابطه، قبل أن يعطي الأمر ببدء العمل في الإنشاء، صاح الملازم منير عياد: شيء هام، نظروا ناحيته مستفهمين، يجب أن يقوم الدفاع الجوي بتمويه أسلحته ومعداته، ربما نتمكن من تأخير اكتشاف العدو.

طرق غبريال المنضدة ووقف غاضبا: كان لازم تعرفوني الموقف من البداية.

غادر الاجتماع مسرعا يطلب من ضباطه إعادة توزيع الوحدات، مع اتخاذ مواقع تمويهية، على أن يتم ذلك على مرحلتين حتى لا تسود الوحدات حالة من الفوضى.

وكأن حجرا ضخما ألقي في بحيرة تعلوها صفحة واسعة من المياه الراكدة، الأمواج البسيطة المتتابعة انتهت إلى أمواج هادرة من الحركة، أول صوت كان لمولدات الديزل، دقائق وتحول الموقع الكائن على بعد مائتي متر إلى شعلات مضيئة متناثرة، في البداية بدأت عشوائية غير منتظمة، ولم تمض

نصف ساعة حتى صارت على شكل دائرتين منتظمتين، هما موقع التحصينات الرئيسي والتبادلي، وهلة كان هدير محركات الحفارات المجنزرة والبلدوزرات تتحرك باتجاه الضوء وخلفها عشرات العمال، دقائق وتحولت المواقع لسحابة من الغبار.

مع آخر اليوم الثاني لبدء العمل كانت البلدوزرات قد انتهت من حفر اثنتي عشرة حفرة، بعمق ستة أمتار على مساحة مائة متر، إضافة إلى ستة مداخل منحدرة لإمداد القواعد بالصواريخ، توجه نصفها لاستكمال حفر مداخل التحصينات بالمواقع التبادلية، وتوجه الباقي للعمل في حفر ملاجئ الأفراد، وعشرات من عمال التراحيل يعملون الآن على تسوية المواقع التي يتم حفرها.

ربض وراءهم طابور من عربات خلط الخرسانة، تتوثب لصب أرضيات وزرات اللانشر، وتحصينات مقر القيادة والسيطرة، ما إن انتهى العمل من التسوية حتى بدأت عربات الخلط في صب حمولاتها من الخرسانات. في السادسة والنصف أعيدت إضاءة الموقع، وكان فريق من الحدادين يعمل على قدم وساق في تثبيت الهيكل الحديدي لعدد خمسة ملاجئ للأفراد والإيواء والإعاشة وملاجئ لماكينات الديزل بعمق ثلاثة أمتار، والمهندس سيد بيومي يسوطهم للعمل دون توقف، عندما شرع النجارون في العمل، أشار عليهم الملازم منير عياد بالانتهاء من تدعيم الجزء الخاص بالقواعد أولا، ولم تمض ساعتان حتى فوجئ الحدادون والنجارون بعربات الخلط الخراسانية تقف فوق رءوسهم من جديد، امتلأ الموقع بالصراخ وتصايح الأسطوات:

- هـو احنـا خلصـنا حاجـة، الخرسـانة دي ح تبـوظ يـا باشمهندس

رد الملازم منير بجفاء: ما تبوظ، يا حاج حسن دعمت القواعد؟

- لسه يا باشمهندس،

- لسه وصرخ بجنون... برة... برة... انزل يا دفعة دعم القواعد، انزل انت وهو..

في ثـوان قفـز جنـود كتيبـة المهندسـين، ممـن يمتهنـون النجـارة والحـدادة، والـذين أعـدهم احتياطيًـا للمـدنيين، واستطرد صارخا: أول ما التدعيم ينتهي تدخل عربات الخلط للصب فـورا... واسـتدار إلى الأسـطوات مـن المـدنيين، هـو أنا بشـتغل عـلى سـقف عمـارة، ولا بصـب قواعـد سـور مدرسـة، لا... كل واحـد هنا لازم يعـرف احنـا بنسـابق المـوت، النهـارده عدى على خير، بكره مش ح يعدي، بكره الصبح لازم الملاجئ دي مش بس تتصب، وكل متر يجهز ح يتم صبه.

للحظة كان المهندس سيد يقف فوق رأسه ينفذ ما يبتغيه دون نقاش، لم يعارضهما الرجال بل اندفعوا يعملون بالكيفية التي يطلبونها ليس فقط كما يبغيان ولكن بأكثر مما يحلمون بـه، عنـدما انتهـوا طلـب البلـدوزرات للـردم، عارضـوه و لـم يستطع مقاومتهم، كان كل من في الموقع من عمال ومهندسين وصـنايعية وضـباط يقومـون بـالردم بارتفـاع مـتر فـوق دشـم المـلاجئ، وكانـت المواقـع الهيكليـة لـم يبـدأ العمـل بهـا بعـد ، وبينما كانت تجري أعمال التسوية كانت الخلاطات قادمة من بعيـد، حيـث تـم صـب طبقـة مـن الخرسـانة العاديـة سـمكها عشريـن سـنتيمترا عـلى عمـق مـترين مـن سـطح الأرض وعـاد

الرجال للردم مرة أخرى لارتفاع متر وأعيد الصب طبقة أخرى من الخرسانة العادية.

في الساعة الثانية من صباح اليوم الثالث، كان قد تم ردم سبع دشم من ملاجئ الأفراد، وغرف الديزل، ومركز التحكم والسيطرة، وعلى الفور أدخلت ماكينات توليد الكهرباء ومعدات الاتصال والسيطرة وأجهزة إلكترونية تعمل مع صواريخ باليستية، وتم تركيب الرادار، وتم تمديد كابلات التوزيع بين مراكز التحكم والسيطرة وقواعد إطلاق الصواريخ، وحتى الخامسة مساء لم يكن قد تم صب سوى خرسانة قاعدتين لإطلاق الصواريخ وحفر خمس قواعد في الموقع التبادلي.

انتحى الملازم منير بالمهندس سيد جانبا، وحدثه بضرورة الإسراع بصب أرضيات الوزارات موقعيا، وليس بواسطة الخلاطات الميكانيكية، تفهمه على الفور، بعدها شوهد الملازم منير عياد يجري باتجاه مقر قيادة الكتيبة، وأمام العقيد قال باهتياج:

– الكلام ده مش نافع يا سيادة المقدم.

نظر نحوه بانزعاج: ليه... فيه إيه؟

– لازم نسلم الدفاع الجوي تحصينات قواعد الصواريخ بكرة الصبح، وخلال الأربع والعشرين ساعة القادمة يتم تسليم المواقع التبادلية، أنا مقدرش اضيع اللي تم عمله ببساطة.

– وح تضيعه ليه؟

– ثلاثة أيام ولم يكتشفنا الطيران الإسرائيلي، كفاية كده، لإن المؤكد إنه ح يكتشفنا بكره.

- طب وأيه العمل.

شوف سيادتك... أولا... مركز التحكم والسيطرة لكتيبة الصواريخ جاهز تماما بكل معداته، لكنه من غير صواريخ!! ثانيا... تم حفر أربعة وزرات لقاذفات الصواريخ، باق صبهم، ولو اكتفيت بعربات الخلط فلن ننتهي منهم قبل ثلاثين ساعة، واتناشر ساعة قبل أن يتمكن أحد من استخدامها، والآن عندي اقتراحان يتم التركيز على الانتهاء من سد جوانب الوزرات بأكياس الرمال للوزرتين في نفس الوقت، أو يتم تحميل كافة عربات النقل المتوفرة بالموقع بالزلط والأسمنت والرمل باللوادر، وندفع بها إلى أرضيات الوزرات الأربعة في نفس الوقت، ويتم خلطهم على الناشف بواسطة الأنفار مباشرة في الموقع ويتم إضافة الماء وتتفرد في مكانها.

تحمس الضباط للفكرة، وقبل أن يعترض العقيد، قدم الملازم منير تفسيرا أكثر دقة: مطلوب للقاعدة الواحدة عشر نقلات من الزلط، ونصفها من الرمل، فإذا وفرنا عشر شاحنات وعدد اتنين لودر يمكن إنهاء عملية نقل التشوينات خلال ثلاث نقلات لكل سيارة، وفي خلال ساعتين أو ثلاث ساعات على الأكثر يتم تشوين مواد الإنشاء في قواعدها، في الوقت ذاته سيكون العمل جاريا بأشد ما تكون عليه الهمة في عمليات خلط الخرسانة وفي موقع الصب.

قال المقدم كلمة واحدة: نفذ

* * * *

في العاشرة من صباح اليوم الرابع رصدت أجهزة الرادار طائرتين للعدو، صدرت تعليمات إلى الوحدات بعدم التعامل معها من دون أوامر من قيادة اللواء، ثوان قليلة وكان الجميع

يتابع طائرتين من طراز سكاي هوك يعبران سماء الموقع باتجاه الغرب، لم تمض خمسه وأربعون دقيقة حتى كانت الطائرتان تعبران الموقع باتجاه العودة، فوق الموقع مباشرة حلقت إحدي الطائرتين في دورة واسعة ثم عادت تلحق بزميلتها باتجاه الغرب.

أعطيت التعليمات برفع درجة الاستعداد، كان اللواء بانتظار هجوم من العدو، طوال خمس ساعات من الترقب لم يبد شيء في الأفق، وبرغم وصول تحذيرات من قادة لواء الدفاع الجوي لكتيبة المهندسين بقرب حدوث قصف من الطيران، لم يخفف العمال من وتيرة عملهم، بل تضاعف أعدادهم، واندفعوا يحاولون إنجاز عمليات الحفر، اللحظات التي أخذ فيها قرص الشمس الأحمر يهبط بتثاقل مريع، ارتفع التوتر لأقصى. مداه، فلما غابت ولم يظهر في الأفق الطيران الإسرائيلي ساد الارتياح، وخفضت وحدات الدفاع الجوي من درجة استعدادها، عندما انتهى الجنود من تناول عشاءهم غطوا في نوم عميق.

في الثانية عشرة ليلا سلمت كتيبة المهندسين الموقع الرئيسي. لكتيبة الصواريخ، هلل الجنود وكبروا، وقفز سائقو حاملات الصواريخ إلى مقاعدهم، وهم على أحر من الجمر، يتنافسون ليكون لهم شرف السبق بإدخال الصواريخ إلى مرابضها، عندما خرجت أثنتا عشرة حاملة صواريخ إلى العراء، أصدر قائد كتيبة الصواريخ لباقي الحاملات بالتوقف والعودة للاختباء داخل الحدائق، وعاد يجري ليقوم بالإشراف على تثبت وضبط منصات الإطلاق، في ذلك الوقت كانت كتيبة سلاح المهندسين قد انتهت من صب خمس قواعد تبادلية،

ومركز للتحكم والسيطرة، وأوشكت على الانتهاء من حفر المواقع الهيكلية.

- ج -

عندما دق جرس التليفون كان المقدم غبريال يتولى مهمة ضابط مناوب اللواء، عندما رفع السماعة أنتبه على الفور، كان على الطرف الآخر اللواء جلال الغمري... قائد اللواء.

إيه الأخبار يا غبريال؟

تمام يا فندم.

موقف الوحدات عندك إيه؟

كله تمام.

التجهيزات؟

تم الانتهاء من المواقع الرئيسية والتبادلية وجار العمل في المواقع الهيكلية، طائرتان من طراز سكاي هوك عبرا أجواء الكتيبة في الظهيرة.

- إيه... كرر المقدم ما ذكره توا ولكن بالتفصيل، فسأله اللواء...
- الله... موقف كتيبة المهندسين كان إيه وضعه؟
- كان جاري الحفر يا افندم.

هتف اللواء بسخرية: طب وهم ح يجولك ليه يا افندم، هم ح يقصفوا التراب، قول لي الحالة عندك إيه في الكتيبة؟

- تمام يا افندم.

تمام يا افندم... رددها اللواء وهو يفكر... يعني انت رافع درجة الاستعداد؟

- لا يا افندم.

أجاب منزعجا: لا يا افندم! طب موقف كتيبة المهندسين دلوقت إيه... لسه بيحفروا؟

أجاب بحماسة: أبدا يا افندم على وشك صب أرضيات الدشم.

لحظتها تحول الحديث لغضب صاعق:

جرى إيه يا غبريال، انت معرض لقصف جوي ليلي خلال خمس دقائق، العقيد عادل فين، أكيد نايم على ودانه، عساكر اللواء وكل العمال والناس الغلبانة دي ح تورح منكم في داهية، وأنتم المسئولين عنهم، أرواح الناس مش لعبة يا حضرة الضابط، أجرى هاته على السماعة لا ابعت واحد يصحيه، وروح انت ارفع درجة الاستعداد القصوى في اللواء، هو أنتم رايحين عندكم تتفسحوا.

- تمام يا افندم.

- يلا بسرعة... يلا غور من وشي.

خلال خمس عشرة دقيقة استقبلت شبكات الرادار العاملة مع الدفاع الجوي إشارات الإنذار الأولي، لسرب من أربع طائرات من طراز فانتوم (4)، تساءل العقيد عادل صبري. هو كتيبة الصواريخ جاهزة للاشتباك.

قبل أن يجد إجابة أسرع يحذر عبر الهاتف قائدي كتيبتي سلاح الصواريخ والمهندسين بوجود طيران معادي، أصيب قائد كتيبة الصواريخ برعدة، وهو يرى كتيبته وصواريخه

طعاما شهيا لطيران العدو، كالمجنون أصدر أوامر بإطفاء أنوار المواقع جميعها مبقيا على أضواء المواقع الهيكلية.

- يلا يا وَلَه، اصحي يا ابن الكلب انت وهو.

ترك مدفعه، وانطلق يجري يبث الروح المعنوية في فوجه، عندما تأكد من أن الثمانية مدافع مستعدة للقتال عاد يجري نحو مدفعه، في هذه اللحظة اتخذت طائرتان من السرب المهاجم وضع الهجوم الغاطس، في لمح البصر اشتعلت السماء بطلقات المدفعية المضادة للطائرات، ثوان وتجاوبت معها الطائرتان، دوى الفضاء بانفجارات القنابل زنة خمسمائة رطل وتفريغ الهواء، وقبل أن يتلاشى تأثير الهجوم الأول، كانت الطائرتان الأخريان في وضع الانقضاض.

عندما رحل سرب الطيران المعادي كانت السماء صافية وعلى الأرض الإصابات فادحة، إذ تم تدمير دشم المواقع الهيكلية بإصابات مباشرة، ورغم ذلك تنفس قائد كتيبة الصواريخ الصعداء، لو شاهد الطيران مواقع الصواريخ، لو شاهد العربات وهي تصطف محملة بالصواريخ بانتظار انتهاء التجهيزات لجن جنونه، ولما توقف عن القصف ولعاود الهجوم سربا وراء سرب، ولم يكن ليرحل إلا وقد قلب المنطقة رأسا على عقب، والآن يجب الانتهاء من عمليات تجهيز الصواريخ قبل أول ضوء.

جرى العاملون بالورديات الأخرى نحو المواقع، كان هناك ثلاثون قتيلا من المدنيين، جميعهم من عمال التراحيل، ومهندس مدني هو المهندس سيد بيومي، لم يكن هناك كثير من الجرحى سوى بعض سائقي عربات خلط الخرسانة، أما الجثث فكانت سليمة إلا من خيط رفيع من الدم ينسال خلف

الأذنين نتيجة التعرض لحدوث خلخلة مخيفة في الهواء، لقد استلزم جمع جثث الموتى ساعتين، عندما انتهوا من إجراءات إخلائهم من المواقع، كان هناك الملازم منير عياد بصحبة فنيي الكتيبة يعيدون تخطيط الموقع الذي انهار على مبعدة عشرين مترا منه، عندما أنتهى تقدم سائقو معدات الحفر الثقيلة، لم يكونوا بانتظار دعوة من أحد، على الأقل كان لديهم شعور دفين بأنهم ليسوا معرضين للقصف.

في الصباح الباكر قام ثلاثة من الخبراء السوفييت بالمرور على مدافع الوحدات للتأكد من ضبطها، وإعادة تشغيل أية أعطال جرت بها، أثناء الفحص سمع دوي أنفجار هائل يأتي من منطقة المواقع ساد الارتباك، رفع الجميع ناظريه للسماء بحثا عن طيران معاد، خاصة وحدات المدفعية، فترة طويلة مضت قبل أن يدركوا أن الانفجارات ناجمة من قنابل موقوتة تم إسقاطها من العدو أثناء غارة الأمس، هذه المرة كانت الإصابات فادحة بين سائقي معدات الحفر.

استدعى قائدا كتيبة المهندسين سرية الألغام للبحث عن القنابل الموقوتة بالمواقع وإزالتها، توقف العمل وساد جو من الإحباط، وقبل التاسعة سمع صوت نساء تزغرد، نظر الجنود حولهم بقنوط، على أنه لم تمض دقائق حتى أنتشر خبر إنهاء كتيبة الصواريخ لتجهيزاتها، وإعطاء التمام بأنها قادرة على التعامل مع الطيران المعادي.

أثناء إجراء التمام على تعويض الذخيرة صادف عبد الله في طريقه منير عياد، صاح به: الله... ألف مبروك، من عسكري لملازم مرة واحدة، طب إزاي؟ ضحك منير، وحكي بصوته الجهوري وهما يتبادلان العناق:

أبـدا... بنلعـب شـطرنج في أمـان الله مـع المقـدم قائـد الكتيبة، فوجئنا ببرقية للمقدمة تطلب التحفظ على جنود الكتيبـة مـن المهندسـين المجنـدين، وإرسـالهم لمقـر قيـادة السلاح، قولنا إيه الموضوع، رحنا لقينا الدفعة كلها هناك، أربعين مهندسا، دخلنا وجدنا اجتماعا كبيرا من الرتب الكبيرة، شرحوا لنا الموقف الخاص بعملية بناء جدار الصواريخ، قالوا إنهـم دعـوا جميـع شركات المقـاولات في مصر للمشـاركة في عمليـات إنشـاء القواعـد، قلنـا طـب ودخلنـا إيـه، قـالوا أنـتم الأصـلح في التعامـل مـع شركات المقـاولات، كل واحـد يـنزل العباسـية يشـترى دبـورة ويعلقهـا عـلى كتفـه، وكـده دخلنـا الاجتماع جنودا وخرجنا ضباط.

تألقت عين عبد الله: يا عم مش كده أحسن...

زفـر منير زفـر حـارة وتنهـد: والله يـا عبـد الله إن كان فيـه الخير ما كان رماة الطير، أدي مهنـدس من أكفا المهندسين مات النهارده نتيجة القصف، ولسه باقي المواقع الهيكلية، عن أذنك يا عبد الله، وراي شغل كتير.

- إزاي الأستاذة وفاء.
- ممتازة، وانت فين؟
- هنا على طول.
- ح نتقابل، سلام... ورحل.

لم يره ثانيا، ففي مساء اليوم التالي غادرت كتيبة سلاح المهندسين الموقع، بعد أن انهت مهمتها، وقامت على تسليم المواقع الهيكلية لسلاح الصواريخ.

* * * *

- 3 -

1970 كان قد تم الانتهاء من إنشاء النطاقين الأول والثاني لحائط الصواريخ، وفي أواخر مايو صدرت الأوامر للواء بالتحرك شرقا إلى جبل الشهابي، وطوال الطريق إلى الموقع الجديد، كانت تحذيرات قيادة اللواء لقادة الوحدات، بأن معركة فبراير التي دارت بين اللواء والطيران الإسرائيلي شيء، والمعركة القادمة شيء آخر، الآن يبذل الطيران المعادي أقصى محاولاته لمنع إنجاز الحائط، وأن الدفاعات المصرية تقاتل بشراسة و تبني القواعد تحت القصف المتواصل، وهو يستخدم أفضل طائراته ويكثف القصف اليومي بشكل جنوني، مائتا طلعة في اليوم يستخدم فيها قنابل زنة ألف رطل، إضافة لقنابله الموقوتة، وتفريغ الهواء.

المعركة القادمة معركة مكشوفة، ليس ثمة أشجار للمانجو وليس ثمة حدائق فاكهة، ستصل قوات الدفاع الجوي أولا، يجب أن تنهي الوحدات تجهيزها في أسرع وقت لتأمين سماء الموقع، ثم تبدأ كتائب المهندسين عمليات الإنشاء فورا. وكلما زادت التحذيرات ازدادت الوجوه صلابة.

الموت، ما هو الموت؟ سؤال لم يكن يراود ذهنه على هذه الشاكلة، كان السؤال يصاغ بكيفية أخرى، الموت، شيء حقير، لا ينبغي التفكير فيه، لكن إذا كان على الإسرائيليين أن يهاجموا، يتعين إذن أن تكون هناك مقاومة شرسة.

يتعين عليهم آن يعلموا أن في هذا الوطن رجالا لا تخاف الموت، رجالا لا تأبه بالموت في سبيل الدفاع عنه وتحرير أرضه المدنسة باحتلالهم لها، السماء الآن أشد صفاء، وإن غَدًا لناظره لقريب.

قبل شاطئ البحيرات المرة بخمسة وعشرين كيلومترا أخذت الشاحنات تصعد المدقات الوعرة لتبات الجبال بصعوبة، مبطئة من سيرها حتى عسكرت على مبعدة خمسة عشر كيلو مترا من شاطئ البحيرات، كان كل شيء واضحا في العراء، مجموعات الإنشاء المدنية، كتيبة المهندسين، تلال الزلط والأسمنت، آلاف الشكائر الفارغة التي تم استيرادها من الهند، والتي ستستخدم بعد ملئها بالرمال لسند وزرات الصواريخ، السرعة في اختبار مواقع البطاريات، السرعة في ضبط مدفعية الدفاع الجوي، أشباح المهندسين والمدنيين والعسكريين تتنقل في ساحة الميدان مع قادة كتيبة الصواريخ والخبراء السوفييت، تختار أماكن موقع القاعدة الرئيسي والتبادلي والهيكلي، هدير البلدوزرات يصم الآذن، مئات الجنود والعمال تشرع في بناء الخنادق لحمايتها أثناء القصف، ثم تندفع تملأ الشكائر بالرمال، وتشونها حول المواقع المختارة لحين الانتهاء من حفرها.

أعطيت التعليمات لقادة الوحدات بالتنبيه على الجنود بالاستعداد لهجوم محتمل مع أول ضوء في الفجر، جنود وحدات الدفاع الجوي تغفوا قليلا قبل بزوغ الصباح، فليس هناك سوي أربع ساعات للنوم، والباقي تغيير السترة، خلاقة الذقن، وربما غسيل الجوارب.

... محتل من الفجر، حتى الساعة الثامنة مساء، في الثامنة صباحا برزت النقاط الصغيرة على شاشة الرادار. صاح محمود:

- ولاد الكلب، مش ح ناخذ نفسنا.

أجابه نبيل: عرفوا إزاي؟

قال المبروك: يهود يابا، ما تخفاش عليهم دبة النملة.

قاطعهم جندي مؤهلات وديع بصوت هادئ: يا اخوَنَّا ده شيء محسوب، لو أنا قائد في غرفة القيادة الإسرائيلية، وحاطط قدامي خريطة، لكل قاعدة صواريخ تم بناؤها لحد النهارده، لازم أتوقع القواعد اللي لسه ما تبنتش ح تكون فين... ضحكوا.

- العالم العَّلامة والحبر الفهامة، وديع ميخائيل.

أجابهم: لا... العارف بدين الله، بديع الزمان الهمذاني

نظر إليه بغضب: ح تتريق يا جرجس يا عضمة زرقا يا ابن الكلب يا نصراني...

الاهتزاز النفسي الخفي لم يلاحظه أحد، ولكن الصدمة التي ألجمت الجندي الحديث الانضمام للوحدة لتعويض خسائرها في الأفراد، جعلته يعود لصمت غاضب، كان ضئيل البنية يرتدي عوينات للنظر، حاصلا على دراسات عليا في الفلسفة، لم يفكر كثيرا في سلوك عبد الله العدائي تجاهه، لأن الأخير عاجل الطاقم بنداءاته التي تمهدهم نفسيا للاشتباك.

- يلا يا واد انت وهو، يلا يا ابن الكلب... واد يا نبيل... واد يا نبيل... اضرااااب...

الحمم التي التهبت بها السماء، والقصف الذي عم الأرض، انقضاض الطائرات الثمانية، اثنين تلو اثنين، سبطانات مدافع الشيلكا تدور حول نفسها دورة محمومة، الحرب، سيل طلقات المدافع الثقيلة المضادة للطائرات، الانفجارات المدوية، الجنود والعمال يَعْدُون بجنون نحو الخنادق، يختفي من فوق مسرح القتال كل أنواع الحياة، وتبقي وحدات الدفاع الجوي تقاتل حربا ضروسا غير متكافئة بين خصمين، أحدهما يصل بنصل سيفه الباتر إلى قلب خصمه يدمره، والآخر ينمو من جديد لا ينثني عن العودة للحياة مهوشا خصمه بسلاح لا يطاله قط، وكأنه لا يملك سوى أن يلقي في وجهه حفنة من الغبار كي يخلع عنه قدرته على دقة الإصابة.

تنتهي إغارة للعدو، يخرج جنود سرية إزالة القنابل الموقوتة لتأمين المواقع، ثم يخرج العمال المصريون كالنمل الحاشد، يسارعون في استكمال ما بدأوه، لا تمنعهم شدة القصف، ولا حجم الخسائر، ولا الموت الذي طال رفاقًا كانوا يتنسمون الحياة منذ قليل، ولا الأشلاء التي تتناثر في المكان مختلطة بالدم القاني.

تبدأ وحدات الدفاع الجوي في حصر. خسائرها وتعويضها، انتظارا لغارة جديدة؛ تعويض الذخائر، إعادة ضم الوحدات، تقفيل زوايا الضرب، إعادة ضبط المدافع، ضبط المدي والرؤية، هيدروليكية القواعد، تنظيف السبطانات، مطابقة طبة ضرب النار، مفاتيح السلاسل، مراجعة دوائر الزيت، إعادة ضبط ربع دائرة المدافع، ضبط الميزانيات الأفقية والرأسية، وأخيرا معنويات الجنود؛ الجرحى أولا، ثانيا: جمع

أشلاء القتلى، مدح ضباط معدنهم من معدن الرجال، يدورون على المدافع كالنحل، يباشرونها تحت القصف، إصلاح وإعادة ضبط أي عطب بها، رفع الروح المعنوية للجنود، تقريظ الذين يتميزون بالشجاعة، السب والسخرية لأولئك الجبناء والمتخاذلين، للذين قبعوا في حُفَرِهم البرميلية تحت القصف، حيث الموت الأسود أقل احتمالاً، يسارعون بالاختباء، وهم يظنون أن الجميع منشغلا عنهم بفعل الحرب المجنون، وأن أحدًا لن يظن بوجود جندي هارب مختبئ في مكان ما.

خمسة عشر يوما تحت القصف اليومي... تحمل لهم طائرات العدو ملاك الموت، خمسة عشر يوما من الجحيم وقاعدة الصواريخ تتضح صورتها أمامهم وهي تبنى بعزيمة النمل، ثلاث وزرات لقاذفات الصواريخ، إحدي عشرة حفرة تم الانتهاء من حفرها، لكن لماذا التوقف عن عدم استكمالها.

- - تم قصف الشاحنات التي تحمل الخرسانة سابقة التجهيز، وهي في طريقها من المصنع بالقاهرة إلى الجبهة...

أخرج أحدهم صوتا قبيحا: والعمل؟

... العمل... تُوقف العمل في ساحة الميدان، أو البدء فورا في حفر المواقع التبادلية لحين وصول الأسقف الخرسانية السابقة التجهيز.

... العمل... القتال ضد العدو لمدة ثلاثة أيام، مجانا، القتال ضد العدو ليس فقط مجانا، ولكن على أفواج الدفاع الجوي أن تدفع ثمنا غاليا.

اليوم الخامس عشر. بلغت الخسائر ثلاثة أفواج كاملة تم محوها من الوجود... اللعنة... أما الفوج 89 فقد كانت خسارته خمس بطاريات.

- نحن نتآكل.
- ما هي خسائرك...
- 65%
- يا نهار أسود.
- كما قلت سيادة اللواء، الموقع كله معرض للفناء.
- اليوم تصلك التعزيزات.

همس وديع ميخائيل: الليل ما أعظمه... لو تحول اليوم كله إلى ليل لا تشرق شمسه.

- وامتى توصل التعزيزات
- في الليل.
- طب ولو لم يكن هناك ليل.
- كان ح نرجع منازلنا زي الغنم الضال مستسلمين للعدو، لولا الليل ماكناش نقدر نتحرك من مكانا، ما كان هناك صمود، أو إعادة بناء للجيش، ما كان هناك حائط للصواريخ، كل كائن في الدنيا يقدر يقاوم لو أراد، دائما فيه شيء مختفي، لو شغل البني آدم عقله ح يلاقيه، لو تواءم معه، لازم يتمكن من المقاومة...

قال نبيل: أيوه يا عم اتفلسف علينا، ما انت فلسفة.

هز رأسه نفيا: دي بديهيات الصراع من أجل البقاء.

قال عبد الله: من سبعة وستين واحنا نحتمي بالليل، امتى نخرج للنهار. ردد لنفسه... مستعجل على النهار يا ابن عبد الجليل.

- مش المرة دي، المهم وصول التعزيزات، إذا لم تصل في هذا الليل ح يكون صباحنا أسود من ليل العفاريت، ح يكون صباح من جهنم.

في الصباح عندما جاء الطيران الإسرائيلي كان ناعم البال، لم يكن يتوقع أن اللواء استعاد خسائره.

قال وديع ميخائيل: إزاي تعرف يا عبد الله.

- إحساس داخلي، شعور يا للي ما عندك شعور ولا إحساس.

- معاك حق... أنا فاهمك.

- أيوه يا جرجس، أنا بتعامل مع الطيران من زمن، أشعر بالطيار في طيارته، أتخيل شكله منظره، أفهم شعوره، هو عايز يقتلني، عايز يزهق روحي، ما عرفش إذا كنت ح اموت بطلقة فيكرز تنزع عن القلب الحياة، أو أموت بشظية تهشم الدماغ، أو تدخل البطن تمزق الأمعاء تخرجها من مكانها، عمرك يا جرجس فكرت تخرج أمعاء إنسان من بطنه، عمرك فكرت أن الأمعاء في مكان غير المكان، هو ما يهموش، ياه، مش انت فيلسوف، آهه، فكر في دي، أنا مش قادر أموته، أنا حاسس إني ضعيف، صحيح كل شوية يكلمونا عن المنظومة اللي تعمل في نسق واحد، لكن كلام، إيه قيمة الكلام أمام الحقائق، واحد يرمي عليك ألفين رطل من القنابل، وانت كل اللي تقدر عليه، تهشه بمنشة زي ما تكون بتنش دبان (ذباب)، ها ها

هـا... بـس هـو مـش (دبانـة)، ده فـانتوم (أف – 4) وسـكاي هوك...

... أنا زهقت يا جرجس، نفسي أتخلص من عجزي، نفسي أشعر بأني قادر على الانتقام، نفسي أشعر بالطيار الإسرائيلي وهـو في كابينتـه يرتجـف، وهـو بيقـرب مـن مـدى قاعـدة الصواريـخ، يعمل لي ألف حساب، يتخيلني كما أتخيله، انت فـاكر إنـه يشـعر بينـا، أبـدا، احنـا حشـرات قدامـه، يدهسـنا بجبروت وأحيانا بإهمال، لكـن للأسـف لا يسـمح إلا لحملـة المؤهلات العليا بالالتحاق بكتائب الصواريـخ، الله يلعنك يا عبد الرحيم يا خوي ولن أكف عن لعنك، انت اللي منعت عني فرصة التعليم، تعرف يا جرجس كان أفضل لك تكون في سلاح الصواريـخ، عموما بعد ما ننتهي من بناء هذه القاعدة ح اقدم طلبا رسميا بالالتحاق للعمل على مدافع الشيلكا، إيه رأيك يا جرجس تقدم طلب معاي، كان عبد الله يخاطبه الآن مباشرة، ولـم يكـن وديـع ليقبـل أن يقـيم علاقـة عـلى هـذا النـوع مـن الدونية... أولها استلاب اسمه.

– أنا مش اسمي جرجس سيادة الرقيب عبد الله.

– انت زعلت، لا أنا بضحك معاك...

– مش ع طول، جرجس جرجس، أنا لي اسم، إزاي وبأي حق تسحب عني اسمي.

الجدية الـتي تحـدث بهـا وديـع، انعكسـت عـلى عبـد الله بالشعور بالذنب.

– ع العموم أنا اسف، حد في بطاريتي يزعل مني، اسألهم، ده المـوت بيحـوم حولينـا بمنجلـه، أوعى تكـون زعـلان، هـو

الموت يفرق بين مسيحي ومسلم، ده الوطن في خطر يا خوي، في محنة، يصح نكون إخوة، وأنا غلطان، راسك أبوسها.

* * * *

اليوم السادس عشر... يوم مُر... هل رأى من أخرج طائر الموت من قمقمه ما يفعله، هل رأى العابثين بأرواح الضحايا أشلاءهم المبعثرة، هل رأى القادة ما يدفعه الضحايا ثمنا لجهلهم، هل رأى عبد الحكيم عامر وقادته، جيشه الممزق في صحراء سيناء قبلما يخوض الحرب وبعد الهزيمة، كان يجب أن يُمرغ وجهه في دمائهم، أن يأكل عفن دود شباب في ربيع العمر، تآمر مع الموت وأودى بحياتهم، عندما أراد العودة لقيادة الجيش، أه، هل رأى فكر في جنوده الذين ماتوا بلا ثمن في الرمال، شوية نمل، حشرات، شغيلة نحل لا تساوي شيئا، لأن متوفر منها كتير وبلاش، الفلاحين، هه، عبي منها في المخالي والقفف وانت مطمن، وأرمي بيهم في الفلا بإهمال.

ما هي طبيعة النظام الذي أبقى وحافظ عليه، وأيه مبررات ساذجة قدمت اعتذارا على بقائه على رأس جيش في حالة حرب متواصلة منذ *1948*، خمسة عشر عاما ينخر السوس والحشيش والمخدرات والفساد والشللية والعسف والاستبداد في الجيش، وأمن قومي تقوده قيادة سياسية تعلم جيدا أنها قد شنت لتوها حربا على العالم، فأصبحت معرضة لخطر داهم، لحرب ضروس، هذا وطن لا يحترمه قادته، هذا وطن لم يتعود أن يحاسب أحدا على جرائمه، من يدفع ثمن إذلالي وذلي وضياع الحياة مني.

اليوم السادس عشر... يوم مُر... ماذا جرى بالضبط، لماذا جاءت اللوريات المحملة بقطع الخرسانة السابقة الصب بعد

الفجـر بقليـل، لمـاذا تـأخرت، لمـاذا تـأخر ظهـور الطـيران الإسرائيلي هذا اليوم بالذات، هل تم رصد اللوريات في الطريق، من يعلم... ما إن ظهرت اللوريات حاملة القطع الخرسانية حتى ساد هياج الموت، لقد اندفع كل من في المواقع من عمال الترحيلـة المئات مـن الرجـال والنسـاء، ومعهـم جنـود كتيبـة المهندسـين، والعشـرات مـن جنـود كتيبـة الصـواريخ الـذين قتلهم الملل وهم يتحرقون شوقا كي تبدأ القاعدة في العمل، حتى احتياطي وحدات الدفاع الجوي اندفعوا لمواقع العمل يسـاعدون في تفريـغ اللوريـات، حمـل الوحـدات الخرسـانية، تركيبها، الانتهاء من الحفر، ملء شكائر بالرمال، ومن يجد عملا وقف يساعد بالكلام أو النظر، وعلى حافة الهضبة العليا لجبل الشهابي، وقف جنود الأفواج العاملة على أسلحة الدفاع الجوي ينظرون في ابتهاج لمارد النمل الذي خرج من حفرته.

– نقـاط عـلى شاشـات الـرادار... نقـاط عـلى شاشـات الرادار.

عبارة التحذير التي صدرت عن جندي يتبول... من جرى إلى أيـن؟ مـن بلـغ مـدفعا وأخـذ وضـع الاسـتعداد... مـن وضـع إبهامـه عـلى زنـاد السـلاح... وضـغط... إذ بـدأت المذبحـة... طائرتان من طراز (F-4) انقضتا في هجوم غاطس فوق مواقع الإنشـاء، ارتفعتـا فجـأة في هجـوم نمـوذجي، لا يلـقى مقاومـة أرضـية، في زمـن تعـرض قلـيلا للغايـة، مطلقتـين جحيمـا مـن قنابل النابالم، إصابة مباشرة للأعداد الغفيرة، تلك التي تعمل، وتلـك المحلقـة حولهـا، بغـرض المشـاهدة، أو المسـاهمة بالدردشة...

لم يفق أحد من الصدمة قبل قيام الطائرتين الأخريين بقصف مماثل، وبينما عادت الطائرات للطيران على ارتفاع منخفض عائدة للشرق، انطلقت صَلِّيات المدفعية المضادة للطائرات، ضعيفة، ثم ما لبثت أن هدرت بعنف في سماء صافية ليس بها طائر للصيد، دقائق طويلة ما لبث أن أخذ دوي المدفعية في الخفوت شيئا فشيئا حتى صمت، وفي ساحة ميدان الحرب حيث مذبحة من البشر، ما الذي حدث، إذ اندفع كل من في المواقع يجمع أشلاء مائة وستين جثه أحرقها النابالم وشوه معالمها، لكن المدافع ما لبثت أن دوت ثانية، كانت تستقبل السرب الثاني المهاجم لخصم يريد أن يكبح ما تفعله بضراوة، هذه المرة قصفت الطائرتان مواقع الإنشاء ثانية، ملقية بقنابلها المفرغة للهواء، وتلك الموقوتة لترتفع الخسائر إلى ثلاثمائة وسبعين جثة، الطائرتان الثانيتان تأخرتا في الصعود من طيرانهما الواطئ، ليواصلا التقدم للأمام صوب وحدات الدفاع الجوي ذاتها، ثوان قبل قصفها بقنابل النابالم.

جهنم الحمرا، أربع طلعات متواصلة من القصف بالنابالم، خسرنا فوجا أصيب إصابة مباشرة، وخسر فوجنا بطاريتين وتلات بطاريات في أفواج أخرى.

متى يأتي الليل، لو ينشر الله الظلام على صفحة الشمس، اللعنة نحن نخسر بشراسة، مدافع انثنت مواسيرها وانحنت باتجاه الأرض بفعل النابالم ذاب الحديد فكيف باللحم الآدمي.

هناك على ساحة ميدان المعركة، حقل الكتان الذي بزغ فجأة مزروعًا في لحم عمال التراحيل، حقل الكتان الدموي

المخلوط بلحم ودم عمال وعاملات التراحيل، طرحهن السوداء، وملابسهن الزاهية، سيقانهن التي لا تزال تحمل الخلاخيل النحاسية الرخيصة، سترات الكاكي مخلوطة باللحم والدم، أقدام وسيقان متناثرة مشوهة وأجساد عارية منحنية انحناء الأجنة في بطون أمهاتها، حقل الكتان الدموي، السترات الكاكية، والطرح السوداء، لرجال وشباب ونساء صغيرات السن، لحم وعظام، قطع مختلطة بالرمال، تتناثر في أرجاء الصحراء.

اليوم السادس عشر... يوم مُر... انتظرنا نهايته على أحر من الجمر، بقينا ننتظر قدوم الليل طوق نجاة، فلما جاء أطل علينا هم الصباح، ماذا سنفعل، ماذا ستفعل كتيبة المهندسين؟

في منتصف الليل جاءت الأوامر باتخاذ مواقع بديلة لتغطية الموقع التبادلي، وكان علينا أن نفعل ما كنا نظنه نجاة لنا، وتمويها على الطيران المعادي، كان هناك عدد من الحفر النموذجية الناجمة عن القصف يمكن استخدامها دشما للملاجئ.

في الصباح وقفنا نشاهد الموقع التبادلي في حيرة غير قادرين على التصديق، كانت البلدوزرات قد أتمت حفر وزرات القاذفات وموقعي الرادار، وتم تأمين الجنود، ولم تمر ساعة حتى كان كل الجيش نملا يعمل من جديد، بدأ في صف وحدات الخرسانة السابقة التجهيز فوق الملاجئ، حفرت البلدوزرات الملاجئ الباقية، لم يأت ملاك الموت اليوم، يبدو أنه مشغولا بمهمة أخرى في مكان آخر على الجبهة، في الرابعة ظهرا كانت تجري عمليات الردم وعمل طبقات حماية للملاجئ من

الخرسانة المصبوبة موقعيا، وفي الثامنة مساء كان العمل قد انتهى منها، بينما كان العمال لا يزالون يقومون بالانتهاء من سند جوانب الوزرات.

في الثالثة صباحا جاءت الأوامر بالعودة إلى المواقع الأصلية قبل أول ضوء، وتم إظلام الموقع التبادلي الذي أصبح منذ الآن الموقع الرئيسي، شريطة ألا يتنبه العدو لوجوده ولا يبدو عليه أي أثر للحياة فيه، حتى تنتهي كتيبة الصواريخ من تجهيزه للتشغيل، في الساعات الأولى من الفجر قامت سرية الإشارة بمد خط تليفوني بين الموقع وقيادة وحدات الدفاع الجوي لتحذيرهم قبل وقوع الغارات، وللتمكن من الاختباء الفوري.

- 4 -

اليومان الثامن عشر والتاسع عشر، يومان اقتطعا من الجحيم، إذ ألقى على خط الجبهة عشرون ألف طن من المتفجرات، ما يساوي قنبلة ذرية، مضى اليوم الأول بأعجوبة، إذ لم تتوقف الغارات طوال اليوم، وعندما جاء الليل تنفسنا الصعداء، آن لنا أن نستريح قليلا، عندما تمددنا في الخنادق قال محمود:

- جهنم الحمرا يا بوي، شاي أسود يا عبد الله،

استطرد المبروك: اسود من الحبر، علَّ هذا اليوم يفوت على خير.

قال عبد الله: منين ييجي الخير والطائرات ترمح في السما، تصرخ تنادي هل من مبارز، حتى ملت السؤال، كل اللي نعمل نغبشة في السما.

قاطعه نبيل: قوم اخرج لها، اركب حصان أبو زيد، طير بيه في السما، ضربة سيف هنا وضربة سيف هناك، ينتهي الموضوع، نرجع بيوتنا ندعيلك، الله يسلمه عبد الله عبد الجليل رزق.

- تتريق عليّ يا ابن الكلب.
- أبدا... والله بقول الصدق.
- شايفني هفيه... مسخرة أهلك.
- ماتجبيش سيرة أهلي واحترم نفسك.
- قصر لسانك لأحسن أقوم أضربك بالبلغة.

فتح نبيل فاه غير مصدق: تضربني بالبلغة، ده كلام عيب ما يخرجش من لسان إنسان مؤدب.

- واضرب اللي يتشدد لك.

تابع عبد الله حديثه وهو يقصف نبيل بإحدى أواني الطعام، حاد عنها بصعوبة وفي لحظات كان يمسك في خناقه، تدخل الباقين إلا أن كليهما تبادلا اللكمات والركلات بعنف حاد، وعندما استطاعوا أن يبعدوا كلا منهما عن الآخر، وكانا لا يزالان يرغبان في العراك، صرخ عبد الله في المبروك وأبو رحاب:

- الكلب كان نايم على المدفع النهارده، بيتعولق، الطاقم كان ح يموت بسببه.

رد نبيل غاضبا: أنا يا كداب، ولا انت اللي وجهت المدفع شمال، أضرب على إيه؟

- وانت مالك... تنفذ الأوامر وبس.
- ما نفذش أوامر مش فاهمها.
- الكلام ده تقوله بعد انتهاء المهمة، أما أثناءها فموضوع تاني، مش عاجبك اترك البطارية.
- أما تشوف حلمة ودنك، أنا اللي ح أنقلك.

ما كانا ليتوقفا لولا سماع تحذير بهجوم جوي إسرائيلي، قام الجميع يجرون إلى مواقعهم، كانت الساعة الواحدة ليلا عندما بدأ الهجوم الليلي للعدو، في البداية لم يفهم أحد شيئا، إذ أن الليل تحول على حين غرة إلى نهار، شوهدت مواقع البناء واضحة الآن.... البلدوزرات الثلاثة، وزرات قواذف الصواريخ، وذرتا الرادار، ملاجئ الجنود ومقر القيادة والسيطرة ولم ينته الحفر بها، كل شيء كان واضحا خاصة عشرات من عمال وعاملات التراحيل، والجنود والمهندسين، وهي تجري نحو الخنادق تتقى الرعب القادم حاملا لهم الموت،

في المساء كانت القنابل المضيئة تحيل المواقع لبقعة من ضوء الشمس، ما الذي يجري هناك، كان عدد من الجنود يجرى حاملا أزنات الطعام للموقع التبادلي، عندما بزغت السماء بالضوء أصيبوا بالذعر، كانوا على مبعدة عندما تولتهم طائرتان انتهيا من القصف، وشرعت تلتقطهما بطلقات الفيكرز فردا وراء آخر.

هل شاهد الطيار أزانات الطعام فانتبه إلى أنه ثمة من يحتاجها، أم أن لعبة الموت واللهو باصطياد البشر. كانت أشد

نشوة من أن يعي ما يجرى في الخفاء، هل سيكتشف الطيران المعادي الموقع التبادلي، لقد انتهى منهم جميعا خلال ثانية، قنبلة تفريغ الهواء، أفضل سلاح للذين يتلهون فوق سطح الأرض، أما ساكنو الخنادق فلهم أنواع أخرى من مناجل الموت.

- 5 -

تواصل القصف من الواحدة وحتى الثالثة صباحا، تمدد الجنود يريحون أجسادهم المنهكة على الرمال، دون أن يغادروا مواقعهم تاركين فرد الرادار، لتلقي إنذارات الطيران المعادي، في الرابعة جرى إنذار كاذب قام له الجنود كالمجانين، ولمدة ساعة كاملة اختفت فيها النقاط الصغيرة على شاشات الرادار ولم يظهر الطيران المعادي قط، قبل التوجه للنوم تحرك الجنود إلى خطوط تخزين الذخيرة على بعد مائة وخمسين مترا، لعشرين دقيقة قام الطاقم بنقل خمسين صندوقا من الذخيرة، كان وزن الدانة ستة وثلاثين كيلو جراما، وطوال عملية النقل كان وديع متأخرا عن بقية الجنود، حاول جنديان من الطاقم أن يسخرا منه، لكن محمود زأر في وجهيهما بعنف.

- اخرس يا وِلْد انت وهو.. وتابعه نبيل مستوحشا.
- جرى إيه يا (....) أمك، هو ده وقته.

لم يفهم عبد الله لماذا أثاره تدخل محمود ونبيل بهذه الشراسة للدفاع عن وديع، كان غاضبا متوترا، حدث نفسه أنهم أحرار، ووديع ليس ذنبه ضعف بنيته، لكن ربما يلزم أن

يفهم ضعفه، في المرة الأخيرة دفع عبد الله وديع بفظاظة عن الصندوق الأخير، مستضئلا حجمه، وضعف بنيته، نظر إليه وديع في صمت حزين. غمغم يبرر ما فعله... يجب نقل الذخيرة بأسرع وقت أولا.

قبل أن يتمدد للنوم حدث نفسه... الذخيرة... الذخيرة... لم يبق في الخط الأول للإمداد سوى خمسين صندوقا، يجب نقل إمدادات من الخط الثاني للخط الأول، لو استمرت الحال على هذا الوضع سيحدث عجز في الذخيرة... قام يجري باتجاه مقر القيادة، في الطريق ناداه الملازم أول مدحت، حدثه عن مخاوفه لكن مدحت لم يع خطورة الموقف، واكتفي بطمأنته بأنه سيتولى إبلاغ رئيس عمليات الكتيبة وقال محذرا:

- ارجع لبطاريتك... أوعى تغادر موقعك.

لكن الوقت لم يمهل مدحت لنقل تحذيرات عبد الله لرئيس العمليات، إذ أن الطيران الإسرائيلي عاد للظهور من جديد، جرى مدحت كعادته نحو حفرته البرميلية، وطوال القصف الذي استمر حتى الساعة الثامنة مساء لم يرفع رأسه من حفرته، وكلما عنَّ له أن يبلغ أحدا بقرب نفاذ الذخيرة عاجله القصف الحاد، وما كان القصف الحاد يعوقه عن الذهاب لمقر قيادة اللواء، لكنه الخوف القابع تحت سلسلة الأعذار الواهية، ثمة أحد سيقوم بالإبلاغ، من المؤكد أن عبد الله قد أبلغهم، لكن أن تغادر الحفرة... عمرك! ... مؤكد أن أحد الضباط اكتشف حدوث العجز أثناء مروره... لكن ألست أحد الضابطين، إذن لابد أن الجنود أبلغوا الملازم محسن عبد القادر... محسن عبد القادر مات في الشلوفة... اهرب بحياتك إذن.

لم تمض خمس عشرة دقيقة حتى أطل الرعب من جديد، كان الطيران المعادي يمارس القصف بجنون، وكانت القنابل زنة ألف رطل، وتفريغ الهواء شديدتا التأثير، ولم يكن هناك خيار أمام وحدات الدفاع سوى المقاومة، اليأس ما قيمته؟ ... الموت هو المصير الأكثر احتمالا وقبولا، في الوقت نفسه كان عبد الله يشعر يقينا أن الملازم قابع في حفرته البرميلية، ولم يبلغ أحدا بالكارثة المقبلة، عض نواجذه في قلق مرعب، ملتصقا بالفولاذ مصوبا تجاه سرب الفانتوم القادم، وهو يغمغم... يا جبان يا ابن الكلب، أقسم بالله العظيم لو حدث عجز في الذخيرة لأكون ضاربك بالرصاص.

في الثامنة صباحاً وبين الدقائق القليلة التي يتيحها انتهاء الغارات جرى الطاقم ناحية خط الإمداد الأول للذخيرة... لم يكن هناك شيء...

- يا أولاد الكلاب... مين استولى على الاحتياطي بتاعنا...

قال وديع: الظاهر ان خط الامداد الاول نفذ من باقي البطاريات.

أجابه بغضب غير متقبل تدخله في الحديث، وكأنه السبب:

- ولاد الكلاب... ده احتياطينا... يروحوا ياخدوا من خطوط الامداد الخلفية.

فكر وديع، ربما يخاف إن أخذ مركزه، سأوضح الأمر. قال نبيل بلهجة تلطف الجو: مش مهم يا عبد الله مين اللي ياخد، احنا خدنا هم أخدوا، كلها في النهاية طلقات بتطلق على العدو...

صرخ في عنف وعصبية: انت مش فاهم حاجة، مين ح يقعد يحمل الذخيرة من الخط التاني، عارف يبعد قد إيه يا حمار.

نظر إليه نبيل مصعوقا بينما استطرد وهو لا يلاحظ ملامح الامتعاض تعلو وجوه الطاقم: صناديق احتياطي الذخيرة على بعد ثلاثمئة متر، مين اللي ح يشيلهم، هه، قولي يا فالح

لم يجبه أحد وإنما استدار محمود يتبعه بقية الطاقم: يلا يا رجالة نحيب الذخيرة، مفيش وقت.

هذه المرة تبعهم متخاذلا، حدث نفسه غاضبا... فاكرين نفسكم جدعان، فاكريني مرة أبدا يا غلابة... اكتفي بالصمت، كان يسيطر عليه شعور حاد بارتقاب الهزيمة، في هذه المرة لم ينزل عن مكانه بالمدفع، لم يجري كي يتابع بقية البطاريات يصلح من أعطالها، يعيد ضبطها، كان ثمة شعور حاد لديه بأنه يفعل أشياء كثيرة، أكثر من الجميع هل كان هذا هو السبب الحقيقي... لا... هذه المرة لم يكن موقنا من النجاة، كان الفوج يعمل الآن بآلية، دون حماس، وبدا أن الطائرات الإسرائيلية صارت أشد توحشا؟

- طبعا يابا، دي أنواع جديدة من الطائرات... وطيران ما بيخلصش.
- إسرائيل حد يقدر عليها.

كان الفوج ينهار، لم يبق سوى أن يقفز جندي ليختبئ في دشمة كي يتبعه الجميع، لكن هذه بطارية عبد الله عبد الجليل، لم يحدث لها هذا منذ أن طابق لأول مرة طبة ضرب النار ولقم مدفعها وانطلقت الصَلّيات تزغرد في السماء.

قال بصوت خاله غير مسموع: ح نموت...

لـم يجاوبـه أحـد، كـان نبيـل ومحمـود يقـودان الطـاقم باستماتة.

في المرة الثالثة ذهبوا فيها لإحضار الذخيرة من على بعد ثلاثمئة متر لمح الملازم مدحت يطل من حافة خندقه، جرى نحـوه وقفـز ممسـكا بخناقـه، عنـدما حـاول جنـود الطـاقم أن يتبعوه، لفك الاشتباك بين ضابط الفوج وبينه، ناداهم نبيل بحزم: كله يحضر. هنا... يلا... يلا... عايزين نجيب ذخيرة يا رجالة، اللي عايز يعيش يطلع يجيب ذخيرة، اللي عايز يموت يروح يشوف شغلانة يلعب فيها.

عندما عادوا وجدوه في انتظارهم، جالسا على مدفعه وعلى وجهه ابتسامة صفراء... تحدث، ولم يكن هناك من يسمعه أو يهتم به: ما ضربتوش... قرفص في قاع الخندق وغطى رأسه بأيديه وبكي، ح اضربه... قال كفاية اللي أنا فيه يا عبد الله. رجعت قلت لنفسي ح تضرب مرة. لم يجاوبه أحد وإنما ظلوا في مـواقعهم وعـلى وجـوههم الصـمت والترقـب والشـعور باقتراب الكارثة، وعندما بدأ الهجوم للمرة التاسعة منذ فجر اليوم كان ستار النيران ضعيفا والوحدات تتهاوى.

فكر وديع... ماذا يحدث للبطارية والفوج... هو... هو عبد الله الذي يشيع فيهم روح الانهزام... لم يدر بالضبط ما الذي دفعه للقول أثناء إحدي لحظات التوقف بين الغارات... إن ظهـور صـواريخ سـام (3) سـيخفف العبء عن الوحـدات... ثارت دهشته عندما تحدث عبد الله غير مصدق:

- وامتى بقي ح تظهر سام(3)؟
- حالا.

- ح تنجم يا جرجس...

نظر إليه بغضب وهو يقول لنفسه، إنه فقد الأمل، اعطه له ثانية وإلا سيدمر الفوج. كان وديع كبيرا الآن.

- جرى إيه يا رقيب عبد الله... انت خايف ولا إيه؟ وكأن حية لدغته بدا أن معركة ثانية ستبدأ، صرخ يدافع عن كرامته: أنا!

- أيوه انت ح تضيع الفوج، كتيبة الصواريخ استلمت مواقعها امبارح، وح تشتغل خلال وقت قصير... ولحين ما تتعامل مع العدو لازم نوفر لها الحماية.

- وقت قصير... انت بتحلم.

- بحلم ما بحلمش، مش ده المهم، لو تقاعسنا لحظة عن إحضار الذخيرة من جهنم الحمراء ستطاردنا طلقات الفيكرز كالذئاب، فاهم، الطائرات بتقصف وترجع لقواعدها، لكن لو بدرت بادرة واحدة من وحدات الدفاع الجوي بأننا سلمنا، أو أن ذخيرتنا نفذت سنفتح للطيارين شهوة القتل، سيلتقطوننا كالحشرات الضالة. كان عبد الله يستسلم له، فاستطرد يحدثهم بصوت منخفض بثقة تنتقل إلى بقية الطاقم في رسوخ: ولما تبتدي كتيبة الصواريخ في الاشتباك مع العدو لازم نكون موجودين، الدفاع الجوي منظومة متكاملة تعمل في نسق، ساد صمت لفترة صغيرة قبل أن يستطرد: وانت عارف يا عبد الله... انت اللي قلت لي هذا الكلام أول ما استلمت العمل في بطاريتك.

مات وديع ميخائيل وَلَه دين في عنقك كما مات أخوك محمد الصغير... عض بنان الندم. ليه يهين المرء إنسان لم يمسه بسوء... الرغبة الوضيعة في إثبات الذات... كسر إرادة

الآخــرين وســحق مقــاومتهم، قــدرتهم عــلى الــرفض... أم الاســتبداد... مـات وديـع ميخائيـل كمـا مـات أخـوك محمـد الصغير ولُه دين في رقبتك... صفعة الكف الغاشمة واستصغار نفس بشرية... عض بنان الندم يا ابن عبد الجليل... نفذ ما علمـه لـك صـاحب العوينـات، هـذا الضـئيل الحجـم... أتـرك مكانك، مدفعك مليان بالرجال.

– نبيل... خد مكاني... المدافع أرقام خمسة وستة وتمانية توقفـوا عـن القصـف، وقفـز يجـري صـارخا: قاعـد ليـه يـا ابـن الكلب.

– المدفع مال لليمين...

– ما أنا شايف... قوم يا دفعة، قوم يا وحش، حط أيدك في إيدي... هيلا هوب... هيلا هوب.

– اسند يا وَلَه بالحجر اللي جنبك.

– لا غلـط يـا ابـن الحمـار حركـة المـدفع وارتـداده يهشـموا الصخر... تعال مد أيدك احفر تحت الجنب الشمال... تمام... بـس كـده سـيبني أضـبط هيدروليكيتـه... تمـام... يتراجـع للخلف... يصرخ بأعلى صوته...

– مدفع رقم ثمانية جاهز للضرب... اضرررااااااب.

تخرج الطلقات صَلّيات متتابعة، ينطلق نحو مدفع أخر...

– يلا يا رجالة... فيه إيه؟

– ما تحاولش... طبة ضرب النار ما بتعملش...

– تمام... يبقي كلكم تنقلوا الذخيرة لبقية المدافع... حد عنده اعتراض... أجابه قائد الطاقم مندهشا: ليه؟ شيل ذخيرة

أم ضرب النــار، كلــه خدمــة في الحــرب... ح تهــرب فــين م الدمار... يلا يا دفعة مد إيد المساعدة للرفاق...

يرجع لمدفعه يطمئن... يقابله محمود بصخب: كل شيء تمام... يبتسم لوديع يقول: أسمعها منه... قال وديع بابتسامة وصــوت الأفنــدي غــير صــوت الجنــود: كــل شيء تمــام... يضحكوا...

- ما عــادش فيه ذخيرة، كل اللي باقي سـبعة وخمسـين صــندوقا... ظهــر الارتيــاع عــلى الوجــوه... وعقــب المــبروك: والعمل؟

صمت الجميع... أبو رحاب اللي قال: فيه سيارات الكراز محملة ذخيرة..

- امتي شفتها؟

- امبارح قبل العشا...

هتف عبد الله وقد تحول عقله وجسده إلى وتر مشدود: فين؟

- قبل تبة موقع كتيبة المهندسين.

- اسمعوا يا رجالة، أنا رايح أدور عليها. وقال بتصميم: لا ح جيبها... واستدار يجري.

- عبد الله...

أوقفه وديع ميخائيل... فالتفت إليه...

- انظر هناك...

نظر الجميع حيث أشار وديع جهة اليسار، تسع شاحنات زل طراز (157) تحمل ثمانية عشر. صاروخا سام (3)، تتحرك باتجاه الموقع التبادلي لقواعد الصواريخ.

صرخ محمود وهو يشير باتجاهها: تسلم أيدكم يا رجال.

هتف أبو رحاب في هياج: يوصلك بالسلامة.

هلل وكبر الجنود وجرى عبد الله يبحث عن سيارات الكراز.

سيارات الكراز... لم يبق من الذخيرة في الخط الثالث سوى مائة صندوق... أجري إذن بحثا عن صناديق الذخيرة... غارة واحدة وينهار خط الدفاع... اللهاث... الخوف من عدم وجودها... يمكن تكون وهم... أو مهمات لكتيبة المهندسين... لكنها كانت هناك، أوز واقف بثقة وثبات... يأه... تنفس الصعداء... المهم الذخيرة... مستحيل يكون بيها.

- - محمل إيه يا حضرة الصول؟
- - ذخيرة...

قال بتحدٍ وقد تجمع حولهم سائقو الشاحنات: ذخيرة لسلاح المهندسين.

- لا الدفاع الجوي... قفز فوق الشاحنات... هي بالضبط... طلقات مدفعية (100مم) م ط.
- اطلع معاي بسرعة، الذخيرة نفذت مننا.
- يا سلام... حضرتك أخرس... مشير لصوت المدفعية.
- يعني هي الحرب شيء بيخلص.
- آسف ما عنديش أوامر.
- أبوس رجلك مش وقت العناد، أنا سايبهم ومفيش غير خمسين صندوق ذخيرة، بعدها ح تبقي طيور مدبوحة يشويها النابالم.

- روح هات أوامر. مقدرش أغامر بالتحرك.
- لو مش ح تتحرك دلوقت، مش ح تلزمنا ولا يعود لها نفع...

بدا على الصول ملامح التفكير... استطرد يحاول تعضد موقفه:

- 48 ساعة قصف متواصل، ما حدش داق طعم النوم، إزاي تكفي الذخيرة، احسبها انت وخليك مسئول أمام ضميرك... نظر المساعد إلى سائقي الحملة يسترشد بهم، لم يكن هناك اعتراض، قال أحد السائقين:
- جرى إيه يا رجالة احنا ح نتعازم، يلا قبل ما يفوت الأوان.
- استني لما الغارة تنتهي.
- لا... انت تستحق الإعدام...

أجابه الصول بغضب: ليه يا عسكري؟

- لأنك ابن كلب حمار... ورفع إصبعه مشيرا إلى السماء...

الطيران لا يزال يواصل القصف في حين أن صوت المدفعية صمت، انت المسئول عن المذبحة اللي ح تحصل بعد شوية.

تقدم سائق منه قائلا: أنا جاي معاك... اللي عايز يلحقنا.

قفز بجوار السائق...خمسمائة متر هي الطريق إلى الوحدات:

- بأقصى سرعة... تفتكر حد ح ييجي ورانا.
- كلهم.

- أبدا أربع شاحنات فقط.

- مش واخد بالك، انظر وراك تشكيل مفتوح عشان ما نبقاش صيد سهل للطيران الإسرائيلي، الصول ربيع مش جبان زي ما انت متصور.

- أُمَّال ليه عمل كده؟

- زي ما قال لك الأوامر، العقلية السائدة تشل أي قدرة على الحركة، ممكن اللوري يدمر، لو كان لنا عمر ساعتها ألف واحد ح يحاسبني، سين وجيم... ليه غادرت موقعك من غير أوامر، إلى أخره.

في الثلاثمئة متر الأخيرة كانت سماء وحدات الدفاع الجوي قد تحولت إلى سحابة غبار، لهب، نيران في كل مكان، دخان ضباب، صراخ المصابين من الجنود، مطاردة الطائرات لهم باستماته، انتشار آثار القصف الناجمة عن الهجوم المباشر.

- فين بطاريتك؟ أشار نحوها متسائلا: ليه؟

- نوصل الذخيرة لأقرب مكان ممكن...

قبل مائة المتر الأخيرة غرزت الشاحنة، كانت الشاحنة واضحة للعيان، انطلق نحوها عشرات الجنود، كان يعلم أن الشاحنة ليست في حاجة إليه الآن، انطلق يعدو ناحية بقية طابور الشاحنات، قفز ناحية الثانية يوجهها ناحية فوجه ولما اطمئن، وزع الشاحنات باتجاه بقية الثمانية، ثم عاد يجري باتجاه بطاريته، كان الطاقم يعمل بانتظام، ودون كلمة مد يده يحمل الصناديق الذخيرة على كتفه، وانطلق باتجاه مدفعه، شاهد الجنود يعدون بهستيريا، وكأن مسا أصابها. يحملون صناديق الذخيرة إلى البطاريات.

- أوعى يا وديع... أوعى يا وديع... نام على الأرض، وأيه الفرق.

ضربة عنيفة في مؤخرة الظهر ارتج لها الجسد الضئيل المنحنى للأمام من ثقل الحمولة وهو لا يزال يجري، الرطوبة التي بللت سترته، والوهن الذي أصاب قدمه، جعله يترنح كالسكران، قام وديع لا يأبه لشيء وهو يعاود الجري، عشرين خطوة وانثنى يلتف حول نفسه ساقطا على الأرض.

- وديع... وديع... الصوت والصدى... الطائرات وطلقات الفيكرز... السماء واللهب والضباب والدخان... السحاب الترابي، الفضاء الأغبر الأصفر... خمس رءوس تجري حوله... عبد الله، نبيل، مبروك، وأبو رحاب، ومحمود يحملونه على نقالة، قام الشاب الصغير بعنف نصف قومه... قال بوهن: اتركوني.

كان الطيران الإسرائيلي يمزق اللواء شر تمزيق

- مستحيل انت نزف منك دم كتير... لازم ننقلك لمستشفى الميدان.

- ليه؟ لم يجبه أحد.. كان قد أصيب بإصابة مباشرة من طلقة فيكرز.. والجنود يجرون حوله مكبرين.. الحمد لله.. الله أكبر.

للمرة الثالثة تخطئهم إحدي الطائرات وبجوارهم مباشرة مر سيل طلقات الفيكرز مثيرا غبارا كثيفا في الأرض.. في المرة الرابعة اهتزت الناقلة بعنف.. أمامه مباشرة مر خط الطلقات من الناحية اليسرى.. نظر نحوه، كان وديع ميخائيل ملقى على الأرض وقد أصابته طلقة فيكرز إضافية في مقدمة الرأس.. تحلقوا جميعا وانحنوا حوله يهزونه في جنون..

عندما تيقنوا من أن منجل الموت حصده، بكوا... بكوا جميعا... جَعَرَ عبد الله للمرة الأولى وصرخ بصوت دوى في الفضاء.

- أهــــــه... أهــه يابا... عيني عليك يا أمير... عيني عليك يا سيد الرجال...

وانحنى يبكي، وانهمر الجميع يشهق بالبكاء، لم يكونوا يبكون فتى اختلفوا حوله حيا، واتفقوا عليه ميتا، كانوا يبكون كل شيء الآن، هزه أبو رحاب ببطء وهو يشير إلى السماء، كان هناك شيء يتحرك على غير هدي على السماء... ثلاثة من صواريخ سام (3) تشق أجواء الفضاء، خيم الصمت، وحبس كل من في الموقع أنفاسه، يتابع الحرب التي بدأت في السماء.

في البداية بدا، وكأن الصواريخ الثلاثة انطلقت بلا هدف، بلا غاية، ثم ما لبث أن لوحظ ازدياد بالغ في سرعتهم التسارعية، ثمة أهداف في الفضاء، ثلاث طائرات واحدة في المقدمة، انحناءة مفاجئة من صاروخين، وإصابة مباشرة، انفجارات تتهاوى في إثرها طائرتان.

غمغم عبد الله...

... تحية له يا وَلَه. تحية له... مع السلامة يا وديع... مع السلامة...

بعدها أصاب المواقع جنون هستيري، لم يستغرق عودة المدفعية للمشاركة في المطاردة من جديد دقائق، غمغم عبد الله وهو يقفز على مدفعه من جديد.

- الآن تكتمل المنظومة.

* * * *

سدود واحة وسط الخراب الحزين.. يصح تلاقي فيها ناس تكره بعضها.. يصح تلاقي فيها بشر مُدَمَرة.. يصح تلاقي فيها الجهل والحماقة محتلين العقول... يصح تلاقي فيها الفقر وقلة الحيلة مع الزمن.. لكن الجوانح تنطوي على جذور عميقة، نفوس غنية بالمودة... سدود اهرب إليك وأعود، خارج حدودك لا اتصال أو وصال.

ريحة ترابك زعفران، أما الحياة هنا نفط وغضب.. صديد أسود.. سدود أهرب إليك وأعود والعن اليوم اللي تولدت فيه في هذا العصر. وكل العصور السابقة، لأن هذا الوطن تعلم أن ينهزم أمام الغزاة، لأن هذا الوطن تعلم ألا يحترم قادته أبناءه، أن يفتح صدره للأغراب بلا حساب..

من يستطيع أن ينقذ جسدي من المراعي النووية القادمة.

* * * *

الفصل الثامن عشر

يا ليل أنا والخيل لما تكحل بالدما، والريح لما في البر زاد مداه، من ريس البحرين منهم واشتهر، والمنحدر م المستقر أهو تاه، هاتوا الميدان بينهم وفرقوا حدوده، لقوا الميدان كالبحر زاد أساه، والخيل زي مراكب الميه، والريح جاي عاصف بكل أساه، حرص على الشاغول وأوعى الملهمة، وإن زاد عليك البحر لو غضباه، إن زاد عليك البحر وهبط قوام... اركن إلى البر وشوف لظاه، لما البيارق والرايات م السما تختفي، وين تذهب الخيول يا بو زيد... ويلاه...(**)

- 1 -

ما إن قطعت البقية من جنود الفوج (89) الخمسة كيلومترات الأولى حتى شعروا وكأنهم عادوا إلى الطريق الطويل من مساعد إلى درنة... الألم يصعد ببطء إلى المفاصل، وعضلات القدم تئن طوال المسير... اختفت المدينة وراءهم، حادوا عن الطريق الإسفلت الرئيسي خلف أقرانهم من المتسللين، هابطين وادي الكوف، عبر طريق قديم مهجور، طابور طويل من النمل الدؤوب يجد السير باتجاه شق من شقوق الأرض. كان وادي الكوف يفتح ذراعيه في استعلاء، ناصبا شراكه المصبوغة بلون الليل الأسود للبائسين القادمين عبر الحدود، وعلى سطح الجبل كانت الشجيرات القزمية العميقة، تولول في صراخ وعويل الرياح والأعاصير، بينما الأرض بقاع الوادي تتربص بهم منفرجة الساقين بانتظار انقباضة الشبق الأخيرة.

هبط جنود الدفاع الجوي وسط جحافل المتسللين إلى قاع الوادي في عجلة، عبر ممر جبلي متعرج يتعثرون في الوحل والأحجار والنباتات الشوكية الحادة، وهم يشاهدون أضواء السيارات تعبر الطريق، وبراكّات متناثرة، تومض عن بعد كعيون جني في نومها.

من الظلام الحالك برز كوبري وادي الكوف الجديد، عملاقا شاهقا كشبح جني ضخم غرز قدماه في قاع الوادي، ومد يديه تحملان قبة السماء، تستمطر منها اللعنات على أهل الأرض، وقد فتحت فوهات الجحيم، تُعمد عرس القتل القادم... يومين والمطر الغزير ينهمر دون توقف، وللحظات برز القمر، شاهدوا على إثرها فج الأخدود العميق للوادي الذي اكتسى ببساط العشب الأخضر والأشجار المتناثرة، وفي الجانب الأيسر الواطئ لمحوا الجسر الخشبي القديم لوادي الكوف، جروا جميعا نحوه، حيوانات ضئيلة مذعورة، تفر بحثا عن ملجأ من الطبيعة الوحشية المهولة.

تحت الجانب الآخر من الجسر؛ تمدد أبو رحاب في العتمة متعبا منهكا يتقى المطر، بينما تجمع البقية أسفل الجسر متَّقين قطرات المطر القليلة التي تتسرب من خلاله، زمنا طويلا لم يتمكنوا من إشعال النار، قبل أن يستسلموا لحظهم العاثر ويخلدوا للنوم، عثر المبروك على بقايا أغصان أوقدها البعض من قبل، اشتعلت النار أخيرا، تحلقوا حولها يحمونها من الرياح ويستدفئون بنارها.

على ضوء النيران والتماع البرق شاهدوا موقعهم، كانوا جالسين في قاع الوادي على رأس فوهة الأخدود العميق الواقع بين الجبلين الشاهقين لوادي الكوف، وعلى ارتفاع شاهق

شاهدوا أضواء السيارات تدور دورة واسعة قبل أن تعبر إلى الجانب الآخر من الجبل بواسطة الكوبري المعلق للوادي، أسفله يسقط حائطا الجبل عموديين، ويأخذان في الانحدار بتسارع قرب القاع حتى حافة الأخدود، يفصل بينهما شق ينحني بشدة قادما من الجنوب، ليمتد شمالا متجها إلى البحر، وينتهي إلى جرف عميق ينشق نصفين، يلتف كثعبان ضخم حول صخرة عالية، تبدو وسطها مثل جزيرة معلقة في بحر من الفضاء.

عندما التقطت الخياشيم رائحة الشاي وأطراف النار، تسلل الارتياح للنفوس، غمسوا الخبز في الشاي، وتناولوه بلذة وعلى مهل... قال عبد الله متسائلا:

- القعاد في الدار أحسن ولا الخروج في طلب الرزق.

ضحكوا... قال المبروك: تقول ألغاز... الدين والرسول يحضوا على الخروج في طلب الرزق. عقب محمود: الله يلعنه رزق إذا كان دا شكله.

قال المبروك: ماتكفرش.

قال عبد الله بصوت متعب: وأيه علاقة ده بالكفر، ولا تقول إن ربنا مسئول عن اللي وقعوا من فوق ظهر الجبل، ولا تقول دي مشيئة من عنده، لا دا الفساد، فساد من صنع البني آدم، الجيش الماشي قدامك دا منهوب ولما يرجع ح يُنهب من جديد، تجار العملة ونقاط البوليس، خلو الرجل وشلة المنصر وحفنة من العسكر، وطول ما الجهل معشش في العقول ح نظل عرضة للنهب العظيم.

قال أبو رحاب: بكرة لما تدوق طعم الدينار، حالك ح يتغير.

عقب نبيل: أيوه يا عم هانت... بكره لما تاكل التفاح بسعر الفول المدمس، قلبك يطرى وصدرك يستريح.

- هو باين فيها تفاح ولا سم.

قال: المبروك يُرَوّح عنه: ما تَصَعّبْ عليك نفسك يا ابن عمى، ح تُفْرَجْ، بكره ترجع لامك والمسجل في يد، والحتة الحرير في يد، قيراطين أرض وتدهن الدار، تشترى جاموسة تحلبها تعوم في اللبن والقشطة، ولا إيه يا واد يا محمود.

- حرير إيه وكشمير إيه، أنا نجيب بندقية آلي ومسدس تسعة مللي برتا ألماني.

اعترضه أبو رحاب من مكانه الذي تمدد فيه متهيئا للنوم:

- يا كداب يا ابن الكلب، مش قلت إن عندك برتا تسعة ملى.

تحدث عبد الله مندهشا: مش تشترى أرض أحسن لك.

نظره باحتقار: تانى أرض... أرض يا ابن عبد الجليل... فلاح ابن فلاح... أنا منيتي رشاش وأطلع الجبل... الحرب انتهت وعبد الناصر أبو الغلابة مات، واللي يحكم البلد لصوص، القاهرة ترقد بين أحضان أثرياء النفط، يشتروا نسوينا بالدولار، سبع سنين نحارب والنهب صار شغال يا ولد، تعال أحكى لك عن إتاوات النهب المنظم بمشاركة السادات وعائلته وجيهان ورجالة عصره، هه... عايزني أصير فلاح يا ابن الفلاح، تستعبدني حتة أرض، والسادة المشرفين، والجمعية الزراعية، وبنك التسليف المحترم... ر و ح غُور من قدامى... الله ينعل أبو الفلاحين على اليوم اللي خلقهم فيه.

تدخل المبروك: في درنة قالوا الواحد في بنغازي ياخد اتنين دينار يومية.

- صُح... ستين دينار في الشهر يضيع نصهم في الأكل والشرب وإيجار السكن، وثلث النص لتاجر العملة السوداء اللي يحول لك فلوسك، يعنى تحول عشرين دينار.

عقب محمود: ولما تشتغل شهر وتقعد أسبوع يتبقى عشر دنانير، يا جمال النبي.

انكمشوا وشعور بارح بالضآلة يمسك بخناقهم، داهمتهم البرودة ثانية، واشتدت الظلمة في المكان، وامتد السكون يطبع الكون بصمته، تمدد أربعتهم للنوم، وألقى كل منهم بأفكاره إلى حيث الدفء والنوم العميق، تحت سقف وجدران أربعة، لم تمض الساعة حتى غطوا في نوم عميق.

صوت مكتوم انبعث في باطن الجبل، دبيب بطيء تصاعد صوته، وازدادت حدته... فتحوا عيونهم في دهشة، يتساءلون إذا ما كان ما يسمعونه حلما، أم أن باطن الجبل يغلى ويزبد، جلسوا القرفصاء كل منهم ينظر إلى الآخر، ليس حلما إذن بل هو الجبل ينشق باطنه. لم يسعف الوقت أحد ليسأل رفاقه، فقد ارتفع الصوت فجأة، وكأن الجانب الخلفي للجبل يُدَك بمطرقة ضخمة تهز جذوره... من على حافة الفج سمعوا أبو رحاب يستيقظ متسائلا:

- إيه ده؟
- حد عارف...

ارتفع صوت شخص غريب: يمكن عربية...

- هو دا صوت عربية؟ ... الله! ... إيه اللي ح يجيب عربية هنا؟

أحاديث تناقلها المتسللين بسرعة، والصوت يزداد عنفا وعمقا حتى صار يصم الآذان... صدمة قوية ارتفعت لها رءوس النيام ينظرون إلى السماء باندهاش، لن ينسى. عبد الله عيني محمد أبو رحاب، وهو ينظر نحوهم متسائلا، إذ أنه في طرفة عين انخفض الصوت لحظة وكأنه يتلاشى، والجبل يهتز من تحت أقدامهم وأجسادهم... تراجع الثلاثة إلى الخلف، ولأعلى قليلا دون وعى، وقبل أن يفيق النيام من جلوسهم؛ اندفع شيء لامع يبرق تحت سماء الليل قادما من فوهة الأخدود، كانت موجة منخفضة من المياه، تلاشت تحت أقدامهم.

لم يترك لهم وادي الكوف الوقت الكافي كي يفهموا، إذ قبل أن يفيق النائمون من دهشتهم، اندفع من جوف الوادي صوت رهيب مصحوب بموجة عالية من المياه، دفعت الجميع أمامها، إلى فوهة الفج. جرى الثلاثة دون وعى يحتمون بدعامات الجسر، صرخ محمد أبو رحاب: الحقني يا عبد الله... مرتين فعلها... إحداهما كانت شديدة القرب منه، أما الثانية فقد جاءت من بعيد، بدأت قوية ثم تلاشت، وتلاشى صداها الذي تردد في جوف الهاوية، لمحوه هناك قريبا منهم متعلقا بكلتا يديه بإحدى الشجيرات النابتة في قلب الفج، وبجواره متسلل آخر متعلقا بكلتا يديه في أحد الأحجار، يصرخ في هستيريا في آخر يمسك بجلبابه من أسفل الفج:

- سيبنى يا وَلَه حرام عليك يا ابن المفحور سيب الجلابية، أنا عندي عيال... ثم بكى وهو يرجوه أن يتركه...

صرخ عبد الله: أبو رحاب... جايلك يا وَلَه... جايلك... امسك نفسك يا محمد...

وجرى يخلع ملابسه... ردد الجبل تدانى صوت محمد أبو رحاب:

- الحقنى يا عبد الله، الحقنى يا عبد الله.

كان الصوت يحمل إيمانا بأن عبد الله سوف ينقذه... التشجيع الذي أطلقه صوت عبد الله لصديقه لم يسمعه أحد، إذ سحقه الصوت الذي طرق الجبل بأعنف من سابقيه، في هذه المرة اندفع السيل حاملا أحجارا ضخمة وجذوع أشجار هائلة ليسحق أحدها أبو رحاب، وتأخذه وتأخذ عينيه المفتوحتين رعبا إلى البحر المتوسط.

فغر الثلاثة أفواههم هلعا وهم يرون صديقهم يهوى إلى قاع الأخدود، وأمامهم كان السيل يندفع حاملا أحجاره وعشرات من الرجال... كان أحدهم يشهق وهو يحاول التعلق بشيء، ثم لا يلبث أن يغطس ويطفو ثانية وعلى وجهه ارتسمت ملامح الشقاء والارتياع، والاستسلام البائس لقرب النهاية التي تنتظره، وسَيَّره إليها قدر غامض طالما سيَّر حياته بين شقوق الألم والحاجة.

طوال ساعتين كاملتين وقفوا متشبثين بأماكنهم وقد غمرتهم المياه الباردة حتى تخشبت عظامهم، لم يعودوا قادرين على الحركة، لا يصدقون أن أحدهم سينجو، أو أنهم قد فقدوا واحدا منهم، أخذت المياه تنحسر. تدريجيا ولو لم تفعل لكانت مقاومتهم قد انتهت.

في بطء شديد أخذوا يتحركون صاعدين باطن الجبل بصعوبة بالغة، وكأنهم يفرون من موت محتوم، عندما بلغوا مكانا آمنا سقطوا في إعياء بالغ.

جمعوا أشلاءهم المحطمة وذهب عبد الله يجمع شيئا يوقد به نارا، لكنه غاب، أصاب رفيقيه القلق، قاما يبحثان عنه، وجداه جالسا في الظلام في إعياء خلف ثنية بالجبل يشهق ويبكي صديقه الذي خطفه السيل والجبل، رنة صوته التي ناداه بها ترن في مسامعه؛ وتؤرقه في شجن. عندما حاولا أن يواسياه، همس:

- قال لي الحقني يا عبد الله، طيب وأنا كنت أقدر اعمل إيه، طيب كنت اعمل إيه، كنت أعمل إيه يا محمد يا أخوي، آاااااه يا محمد، آاااه يابا، آاااااااااه يابا.

كان يوما غريبا إذ إنهم شاهدوا قرب الظهيرة عربة لاندروفر تقترب منهم، لم يتحركوا، لم يحاول أحد منهم الهرب، جلسوا مستسلمين للقادمين غير أبهين بهم، شرطة كانوا أم أي كائن كان، وبنظرات مستغرقة في الألم شاهدوا ثلاثة من الرجال الليبيين ينزلون من اللاندروفر، يتقدمون نحوهم في هدوء حاملين أشياء، وعندما اقتربوا منهم ألقوا إليهم بطعام وكساء، وقبل أن يستديروا راحلين ألقوا لهم بثلاث بطانيات صوفية، تدثروا بها مقرورين وعيونهم لا تطرف، وثلاثتهم في استغراق مستسلم وألم وحزن عميق.

* * * *

على طول الساحل الليبي، وبين منطقتي المرج ودرنة، انطلقت سيارات يقودها ليبيون، محملة بالأغطية والطعام

والملابـس، تبحـث عـن المتسـللين المصريـين تـوزع علـيهم الطعام والغطاء معا.

* * * *

الجزء الثالث

الفصل التاسع عشر

- 1 -

قبل شروق الشمس دخلوا موقع معسكر المدفعية غرب بنغازي حيث السكون يقطعه عواء الكلاب، وبجوار مبنى صغير من الحجر الجيري المسقوف بألواح الزنك؛ جلسوا القرفصاء، شيئا فشيئا زحفت أشعة الصباح تطرد العتمة يصحبها قدوم سيارات الموظفين والعمال، أجناس شتى، ليبيين ومصريين، فلسطينيين وسوريين ولبنانيين، سودانيين ومن تشاد، اقترب منهم حداد فلسطيني يدعي جواد، سألهم:

– بِدكُّوا في عمل؟

– نعم، نبغي عمل، أي عمل.

أومأ برأسه علامة الفهم: توا نقول للحاج حميدة يدبر لكم في عمل.

لم يكتف المبروك، قام خلفه يرجوه: والنبي يا أخ، عشرة أيام من غير شغل. قاطعه الفلسطيني بقرف: خلاص قلت لك أنتظر، مين ما ييجي الحاج حميدة.

أجاب المبروك متراجعا بصوت خافت: حاضر يا بيه.

بدأت الحركة تشتعل في المبنى المواجه، حجرة المهندس، حجرة الصراف، الحجرة الكبرى ظلت مغلقة. من البوفيه الكائن بجوار دورة المياه القذرة أطل ملاحظ ليبي يُدعى مصطفى، في الخامسة والثلاثين من العمر، طويل القامة، سكير، بطيء الحركة، ويداه لا تفارقان جيبيه، لا يتحدث إلا لماما، يخفي رأسه ووجهه بكوفية شامية، عَبَرَ الفسحة الأمامية لمبنى إدارة المشروع ثم وقف أمامهم، عدَّل كل منهم من جلسته وسارع بالوقوف... قال:

- توا تدوروا في الخدمة.
- نعم... ندور في عمل هنا يا عم الحاج... احنا نشتغل بدراعتنا زي الرهوان.

قال باستهزاء وعلى زاوية فمه ابتسامة لامبالاة:

- والرجال سلاكة ولا معاهم بطاقة عمل.

تراجعوا إلى الخلف ببطء، أفعى عبد الله يأسا... استطرد الملاحظ الليبي، وهو يضحك، وقد تجمع حوله عدد من العاملين بالموقع:

- يعنى من السلك الدبلوماسي.

انفجر الجميع بالضحك وهم يتندرون عليهم، تريث الملاحظ قليلا، ثم قال وهو يلتفت راحلا: باهى... توا ييجي الحاج حميدة.

انفض الجميع من حولهم لفترة وقد أصابهم الوهن، عَبَر فسحة المبنى فتى صعيدي حاملا صينية عليها أكواب شاي إلى حجرة المهندسين. ثم خرج متجها ناحيتهم وأمامهم جلس القرفصاء.

– محسوبكم بدري من المنيا، من وين الرجالة؟

أجاب محمود: أسيوط يا ولد العم.

– أحسن الناس.

أضاف عبد الله: منوفي.

– زين الرجال بلد الريس، أي خدمة يا رجالة، أنا نخدمكم بعيني.

تدافعوا: فيه شغل هنا، نلاقي خدمة يا عم بدري، ساعدنا الله يطول في عمرك.

– وه يا بوي طبعا تلاقي، فيه عمل واجد، دول يرجوا في عمال عدد شعر راسهم.

– والأجر.

– دينار ونصف في اليوم... مليح؟

– أيوه صح... مليح.

– كمان الساعات الإضافي، يعني الواحد يحصَّل اتنين دينار في اليوم، ستين دينار في الشهر.

– وهم يحصلوا ضرائب من سلكاوى.

– يا عمى، يحصلوا الضرائب ما يحصلوا، المهم الصافي اللي تحصله في أيدك دول.

– بس حضرتك عارف يا عم بدري.

- وه حضرتك، أنا نشتغل في البوفيه، نعمل في الشاي والقهوة والكازوزة وتقولي حضرتك!
- يا عم بدري، عايزين نطمن، عايز أقولك... احنا سلكاوية.

ضحك: وأيه يعني كِلتنا هنا سلكاوية، من رجال السلك الدبلوماسي يا بوى، أحسن مهنة، العَيِّلْ في مصر يمحص عينه بالمدرسة، وما يقدر يدخل السلك الدبلوماسي، بده وسايط، أما احنا... دور عينك تلاقي كل المصرية اللي هنا سلاكة، وكلهم على ربك المجيد.

- يعني نلاقي عمل، طمنا الله يرضى عليك.
- توا يظهر الحاج حميدة.
- مين الحاج حميدة؟
- الكل في الكل هنا، يشغل في العمال والمهندسين، صاحب العمل تارك له كل شيء في الموقع يديره كِيف ما يريد، أعمل لكم الشاي.

هتف عبد الله: ينصر. دينك يا شيخ، والله العظيم تعمل طيب، فلوس.

- خلى فلوسك في جيبك، ليه تعملوا فرقة، أنتم ضيوفنا لحين ما تشتغلوا، وحق النبي توا تشتغلوا وتعيشوا معانا، هنا يا بوى صحبة ورد... نقوم نعمل الشاي تقيل، شاي مصري بصحيح.

سأل عبد الله: فيه مهندسين مصريين.

غام وجهه قليلا: كانوا تنين، واحد استقال راح ما عدش ييجي والثاني طردوه.

قدمت سيارتان رسم عليهما شعار نسر مجنح، وحوله كتب مؤسسة النصر للمقاولات لصاحبها عمر بوزى، غمز بأصبعه ذراع عبد الله وهو يشير إلى شاب ينزل من إحدى السيارتين.

– مهندس عارف، فلسطيني، يا أخي حية، يلدغ ما تعرف من وين.

نادي عليه فقام يجرى وهو يهمس لهم: توا نجيب الشاي.

في السابعة صباحا انفتح باب الحجرة الثالثة بعنف، وخرج كالعاصفة، رجل رِبعة متوسط القامة، متين الجسد يرتكز بجذعه على قدمين مقوستين، عينان حادتان كعيني ضبع، في الخامسة والأربعين من العمر، وجه غليظ شديد السمرة، غزير الشعر، وشارب أسود كث كأنه خط ثقيل على فم ضخم بفظاظة، يرتدى فانلة ثمينة داكنة اللون تفوح منها رائحة عرق قذر، وبنطالا من الجينز مثبت بحزام جلدي عريض، اختفي تحت ثنية كرشه الضخم الذي تدلى أمامه، وقد جمع طرفي بنطاله داخل رقبة حذاء طويل يُستخدم في مواقع العمل، لم يلتفت لأحد، عندما خرج مصطفي دخل وهو يصفق الباب خلفه بعنف.

- ٢ -

أمام مائة وخمسين عاملا وقفوا في طابور، وحولهم عدد من سائقي المعدات والشاحنات والفنيين، قام الملاحظ الليبي بتوزيع العمل طبقا لتوجيهات الحاج حميدة، حفر وردم وإنشاء أرصفة، تكسير خرسانات، تفريغ الأسمنت ومواد

البناء. نادي مصطفى: أحمد أبو اليزيد، صالح عبد الرحيم، محمد أبو حسين، تنظيف عنابر النوم، أمين محمد، إبراهيم حسين، عبد الرحيم حسنين، حفر قواعد ورشة الدبابات وردم مخازن الذخيرة، واستمر ينادى على العمال فيخرجون من الطابور يتجمعون في مجموعات خلف المشرف القائم على عملهم، نادي على أمين أبو اليزيد، يوسف حنا، تكسير خرسانات أعمدة مبنى السينما.

صاح أحدهم: يا عم مصطفي ده شغل واعر، فيه عمال كتير.

صرخ مصطفى: كنك تعدَّل عليَّ، اقفل فمك يا تيس.

في هذه اللحظة انفتح باب الحجرة الثالثة بعنف، وخرج الحاج حميدة عاصفة مكتومة، وعلى وجهه تكشيرة صامتة... سأل مصطفي بصوت خافت مملوء بالوعيد ويداه وسطه: منو هذا؟

أجاب مصطفي وهو يدير رأسه إلى ناحية أخرى، يحاول أن ينهي الموضوع:

- واحد من المصرية.

لم يكتف، أعاد السؤال والشرر يتطاير من عينيه وأسنانه تصطكان:

- نبي نعرف منو هذا، ما تخبي عليٍّ، قول.

قال مصطفي مستسلما وهو يتحاشاه: أمين أبو اليزيد.

كاشفا عن وجه بشع، كشر عن أنيابه ينوى التهام فريسته، هبط الحاج حميدة إليه: شنو تبغي يا تيس، تعال... خرجت الكلمة أمرا لا مرد له... تعال... تفرقت صفوف العمال عن

أمين، وقد ذهب لونه، والحاج حميدة يخترقهم ووجهه يتقلص ويكز على أسنانه وهو يصرخ: تعال... تعال يا عرص... تعال لا لا، لا تذهب، تعال يا قواد، يا فوال، يا خنزير.

توهجت عيناه بشعلة الغضب، وأمامه جلس أمين القرفصاء يغمغم طلبا للرحمة، وقف العمال والفنيون والخوف والذعر يلجم ألسنتهم، حتى المهندسين والموظفين وكانوا جميعا من غير الوطنيين، وقفوا ينظرون وهم يحمدون الله أنه لم يخلقهم مصريين، انحنى إلى الأرض ممسكا بحجر ضخم، قذفه به، حاد العامل عن الحجر مغمضا عيناه، فلم يصبه، فاندفع نحوه والزبد يسيل من فمه، وكل جسده ينتفض بهستيريا، وسيل الشتائم والسباب يندفع دون توقف؟

عندما طاله انطوى أمين على نفسه يردد: معلش يا حاج... في عرضك يا حاج.

وكلما استمر أمين في الاستعطاف ازدادت حالة الحاج حميدة العصبية والنفسية سوءا، وكأن طلب الضحية للرحمة تطلق داخله زبانية جهنم، فينهال عليه ركلا وضربا بالأقدام، لم يكن يجرؤ أحد على أن يقترب منه سوى بعض السائقين الليبيين الذين أحاطوا به يسترضونه، وكأن ماء باردا حط عليه، لم يكن يستطيع رفض طلبهم، فعاد دون أدنى مقاومة، وهو يصرخ بالنهاية الحتمية لمسرحية البغي والاستبداد وتصرف الأسياد فيما يملكون من عبيد:

– قفِّل حساب العرص هذا اليوم واطرده، دين ربك...

من أعلى درجات السلم استدار يحادث العمال: نبي تيس... خنزير يتكلم، ربي الشيطان يا كلاب، بيش أدهس رأسه بالكوندرة[62].

خفض العمال رؤوسهم في صمت وقد أنتابهم إحساس بخزي وعار مكللاً بالجبن، في حين تابع الملاحظ الليبي مصطفي توزيع العمال على أشغالهم.

بعد قليل شوهدت مجموعة من العمال يتهامسون حول أمين، بعدها قام يحاول استرضاء الحاج حميدة، انطلق الشرر من عينيه وهو يخرج مندفعا كالسهم، ويهوى بكفه على وجهه، فسقط منقلبا على ظهره لأسفل السلم... وكأن سقوطه فاتح لشهية رجل سادي، فانطلق خلفه يطارده ركلا بالأقدام، والعامل يتحاشاه منكس الرأس يبكي مبتعدا ككلب أجرب... بجوار الحائط جلس منتظرا نقوده... صرخ الحاج حميدة بالبدري: أذهب وقول للخنزير هذا يجلس بعيدا، آخر النهار نعطيه راتبه.

* * * *

62) الكوندرة: الجزمة

وتبسمت الرياح يوم مولد النبي، سبع مدن للنبي يبيِّضّونها، هنيئا لعين تنام الليل بأكمله، تبات مسرورة وهي فرّحِونْوها، وأنا عيني بدلت النوم بالسهر، تبات على ما شافت عيونها، أبو زيد سحب سيفه وجا رقد، جل الذي لا ينام ولا يغفلونها، مرعى مع دياب يتسامروا سوا، بكلام زي الشهد إذا دوَبِنُها، ألا والنقي سيبت من عقالها، على الشجر قطفت تفاسير لونها، جُم العبيد ستين عبد من الحرس، حوشوا الجمال عن الشجر يتلفونها، قام الأمير يحيى بن سرحان يردها، هجموا العبيد بسيوفهم يكيدونها... حُوش الجمال عن الشجر، سرعة بلا مهل... قال ضيوف وواجب عليكم تكرمُونها... ضيوف عندنا لكن تلفتم الشجر، قطوع جنسنا هواش لضيفه يصونها، طعنوا مرعى في فخذه طَبْ ع الثرى، يجرى دما ع الثرى ينزفوها، جَزَع الأمير يحيى أخوه مما جرى، صاح صيحة عالية من بطونها، اصحي يا خال أبو زيد وانظر ما جرى، ألا قتلونا العبيد في حصُونها، أبو زيد نايم لكن على حس يحيى صحي، بالعجل نظر وزاغت عيونها، يرى مرعى مجروح والدم ينزف، وستين عبد بسيوفهم يرمحونها، هجم الأمير أبو زيد يومها بلا مهل، تمساح في لجة إذا أطلقونها، تخضع سلامة أبى التخضع يجيبهم، عبيد بَجَمْ عقولهم يخربونها، سحب الحسام يومها قوام وجرّده، جرّد يماني يغلب البرق لونها، هجم أبو زيد ع الحرس يومها بلا مهل، يماثل إلى البحر يَمْ وفك عيونها.(**)

- 3 -

كان أغلب مقاولي الباطن من جنسية كبير مهندسي المؤسسة، سوريين، وكان يدعى (زياد)، وعلى حين كان المهندس المشرف على الموقع فلسطينيا، إلا أن المتحكم الرئيسي في المشروع كان الحاج حميدة، وفي ظل هذه الأوضاع فقدت السيطرة كلية على المشروع، وتحول إلى سلسلة من الأخطاء، تتبعها سلسلة من محاولات العلاج، دائما كان هناك الحاج حميدة، وكلما ازداد تخبط المهندسين ازداد الحاج حميدة شهوة وتسلطا وسيطرة، وكيف أنه يعانى الأمرين في متابعة العمل وإصلاح أخطاء الآخرين، وهو يتباكى على الخسائر المتلاحقة التي يعانى منها عمر بوزى، بسبب عدم إخلاص مهندسيه وعماله، وعدم وفاء المازجرية[63] لرب عملهم، كان يحب له أن يطلق عبارته الأثيرة:

– يشهد ربى... مسكين عمر بوزى... مسكين.

تولى السودانيون قيادة عربات خلط الخرسانة الألمانية الصنع، لما اشتهر عنهم من السماحة، الآليات والمعدات الثقيلة كانت من نصيب الليبيين، كانوا مهرة في قيادة آليات أعمال الطرق والتسوية وإزالة الأتربة، واشتهر منهم جبران ومفتاح... مزاجيان جافا الطباع، طيبا القلب، مدمنان للويسكي وبقية أنواع الخمور المهربة، متعتهما السفر إلى الخارج لشراء المتعة من عاهرات القاهرة وبيروت وروما وعواصم أوروبا الشرقية، كان معهما سائق لبناني يُدعى

63) المازجرية: غير الوطنيون الليبيون/ لهجة ليبية

(سمعان)، على وجهه ملامح إجرام. وعلى عكس السائقين الليبيين الذين كانوا على خلاف وشجار دائم مع الحاج حميدة كان سمعان صديقه الودود، ورفيق سهرات الحشيش والخمر...

سائقو الجرارات كانوا من المصريين، عملهم الأساسي نقل الخشب والأسمنت والجير والبلاط ومواد البناء، يقومون بتحميلها على المقطورات، وإنزالها على أكتافهم، كان عملا شديد الإرهاق، وعلى وجوههم ملامح الخوف والتعب والبؤس، كل منهم وحيد بذاته، ولم يكونوا أقل عبودية من عمال جلدتهم، إذا لم يسلم أحدهم من صفعة أو ركلة من الحاج حميدة... وتحت هؤلاء جميعا من فنيين ومهندسين ومديرين للشركة، وفي أدنى طبقات سلم العمل، أختص المصريون بالعمالة اليدوية، ومعهم أقلية من التشاديين الكسالى.

- 4 -

في العاشرة صباحا دخلت الموقع سيارة مسرعة من طراز فيات (132)، كبح سائقها الليبي الشاب مكابح السيارة أمام مبنى إدارة المشروع، ناشرا موجة من الغبار أعمت عيونهم، وجعلتهم يتنفسون بصعوبة، نزل منها رجل في الخامسة والخمسين من عمره، طويل القامة ضخم الجثة، ترتكز رأسه على رقبة غليظة، تبينوا من الوهلة الأولى أنه مصري، وبينما كان يصيح في السائق ينهره، قفز محمود جاذبا حقيبة الرجل من المقعد الخلفي ووقف خلفه، عندما استدار المهندس عبد العليم بك يبحث عن حقيبته، مد محمود رقبته في تصاغر:

- الشنطة معاي يا سعادة البيه.
- هاتها.
- ورب العزة ما يصير تدخل عليهم شايل شنطتك، أنا أحملها عنك يا بيه.

اعتدل عبد العليم بك قبل أن يدخل وعلى وجهه ملامح الحيرة، كيف سيتقبلونه، لكن ظهور الحاج حميدة جعل ابتسامة واسعة تنفرج على وجهه بالسعادة وهو يتقدم نحوه، والحاج حميدة يبتسم بترحاب وترقب، وعندما جاء سمعان سائق اللوري ظهر الارتياح كاملا على وجه المهندس المصري، الذي ترك لسمعان إدارة الحديث عن الأسعار، والعمولات، والهدايا، والرشاوى التي سوف يدفعها، وأماكن تشوين المواد، ومعدلات التنفيذ، والتسهيلات التي ستقدمها المؤسسة لعمله، أما سبيل حصوله على العمل فبتوصية خاصة إلى عمر بوزى قدمت له من مصر، وبينما كانوا يتحدثون عن موعد بدء العمل، والمواقع التي سيتولى مقاولاتها عبد العليم بك، استدعى الحاج حميدة المهندس الفلسطيني (عارف)، الذي لم يكن يستطيع هضم دخول مقاول مصري الموقع، بعد محاولات عنيدة أثار فيها العراقيل خرج الجميع، أشار عبد العليم إلى محمود أن يتبعه وفي طريقهما للحاق بالجمع سأله:

- صعيدي؟
- طبعا يا سعادة البيه أنا ما خدمتش سعادتك إلا لما عرفت إنك مصري، والله عرفت قبل ما سعادتك تنطق.

قال عبد العليم في شرود: اسمك إيه؟

- خدامك محمود.

- من فين يا واد يا محمود؟
- أسيوط يا سعادة الباشا، وتحت أمرك، صدري يسد عنك الرصاص.

ضحك عبد العليم: رصاص إيه يا محمود انت فاكر نفسك في البداري ولا أبو تيج، معاك إقامة؟

- ما أقصدش يا ابن الأصول، أني قصدي اخدم فيك، بعدين مين امعاه إقامة يا سعادة البيه.
- ح أكلم سيد يشوف لك شغلانة.
- نبوس الأيادي.

- 5 -

مر عليهم مصطفي عدة مرات دون أن يتذكرهم... في الحادية عشرة والنصف، تململوا، أشار له عبد الله إن كان يرغب في بقائهم أم يرحلون، فهز رأسه عائدا إلى المكتب، دخل على الحاج حميدة، ثم خرج عائدا إليهم، فقاموا إليه جريا، ساروا خلفه مسافة خمسمائة متر باتجاه برَّاكات العمال، وهو يتلكأ بهم هنا وهناك، خائضين في تلال من التراب الناعم. بعد انتهاء نوبة العمل الأولى ظهر رجل في الخمسين من عمره، ناداه الملاحظ الليبي باحترام:

- عم عطا الله، الثلاثة ها دول بلدياتك من الصعيد.

قال عبد الله: أنا منوفي.

صاح به عطا الله: باهى يا أخي صعيدي ولا منوفي مصري والسلام.

- يا عم عطا الله ها دول العمال ينزلوا خط المياه غادي، فيه مكان يناموا فيه؟
- حتى إن ما كان فيه، نعطيهم فرشتنا، مرحب بالرجالة، واسم الكريم.

ذكر كل منهم اسمه ومصطفي يحدثه قائلا:

- كريم يا عم عطا الله والله كريم.
- وه... عجب يا بوى، اللي مالوش خير في أهله مالوش خير في حد، ولِّي انت وما عليك يا خال.

* * * *

الفصل العشرون

- 1 -

للمـرة الأولى منـذ دخـولهم بـني غـازي ينتـابهم شـعور بالارتياح، وسقف يضمهم بعد قضاء أحد عشر يوما يتسولون العمل على أرصفة ومقاهي حي الفنـدق، للوهلة الأولى غشي عيونهم ظلام كثيف، ثم ما لبث أن كشفت البرَّاكة عن نفسها رويدا رويدا، جزر ضوئية وسط بحر من الظلمة، لحزم من أشعة الشمس تخترق الشقوق والثقوب المتناثرة من بين ألواح الخشب التي بنيت منها، الكآبة والقذارة متلازمان، على المدخل تناثرت أحذية قديمة متهالكة ممزقة ثنيت كعوبها، وبقايا علب لحم وسمك محفوظ، ودلو مملوء بماء طعمه مالح، وبجواره آخر ممتلئ بالماء الآسن والفضلات، وفي الجانب الآخر من الباب منضدة صغيرة من أخشاب البناء المستعملة، اتسخ سطحها بالدهون والزيوت فاكتست اللون

الأسود، عليها وعاء للجاز وعدد من الصحون، خلفها مباشرة عُلق على الجدار أرفف خشبية، صُفت فوقها علب الشاي، والسكر، والملح، والخضراوات المعلبة، والزيت، وبقايا الخبز والبصل، ودفتر قديم اتسخت أوراقه وانثنت، يُستخدم في كتابة الخطابات، وعلى جوانب البرَّاكة أنتشر الهباب الأسود المتصاعد من دخان الوابور، وبقايا الخشب المحترق المستخدم كوقود لصنع الشاي، وشرب الجوزة، والتدفئة شتاءً، بطول الحجرة صُنع بأيد غير ماهرة سريران من بقايا أخشاب البناء بارتفاع مترا، وضع فوقهما حشية كبيرة من الإسفنج، اتسخت واهترأت وضاعت معالمها، على أطرافها شرائح عارية قذرة من الإسفنج السميك تستخدم وسائد عند النوم.

تحت الفراش اصطفت حقائب السفر مغبرة بالتراب، وفي جميع الأركان تناثرت ملابس متسخة، وأخرى قديمة، وبقايا آنية، وأكواب، وموقد غازي لا يعمل، وعلى الأرض بقايا طعام، وجرائد مصرية وليبية قديمة، وبطانيات موزعة من قبل الموقع تستخدم للنوم، أما الضوء فلم يكن يهزم الظلام في البرَّاكة أبدا إلا ساعة الظهيرة، عندما تجبره الشمس على النزوح من خلال شباك وحيد صغير.

على خط المياه وقف ثلاثتهم بين عشرات من المتسللين المصريين وعدد من التشاديين شمروا عن ملابسهم، قبل أن يهوى بفأسه أجال بناظريه حوله، كل شيء غريب، لا يمت لهم بصلة... بصق في يديه مباعدا ما بين ساقيه، قبل أن يهوى بفأسه على الأرض... هاتف جعله يردد مسحوقا وهو يهوى بفأسه... تحيا الجمهورية العربية المتحدة... من يوم ما خطت رجلك

عتبة المدرسة، ياما هتفت انت والألوف في طابور العلم، وتحت القصف اليومي للطيران المعادي، وحتى عبرت أسلاك الحدود ما فرقت بين مصريتك وعروبتك، الآن تدق رأسك... فوال... وتيس... ومهزوم... لم يتبق من مصريتك سوى الاستمتاع بكونك حيوانا يأكل الفول، أما عروبتك فتُسحب عنك، كخائن تنتزع عنه جنسيته.

... شهرين يا ابن عبد الجليل من العذاب والهوان، وجيبك بعده خالي، «تطلطم» تطلب لقمة العيش. لو أقدر أَلِمْ خلجاتي وأعود.

أزيز عاصف يطلق رياح من الغبار، ضجيج آليات ضخمة، صراخ العمال والسائقين، شاحنات كبيرة مكدسة بمواد البناء تفرغها الأوناش، سيارات خلط الخرسانة تلقى بعشرات الأمتار منها، جرارات تنقل كميات هائلة من خشب البناء، ولوادر تُحَمّلْ مئات الأمتار من الأتربة على لوريات وبلدوزرات تسحق الأرض سحقا، تحيلها إلى سحابة من الغبار الناعم، تكتسح من أمامها أشجار الغابة الصغيرة وتزيلها من الوجود، نظر إلى أعلى حيث السماء مغبرة، التقطت عيناه قرص الشمس لفترة وجيزة، أسقطها إلى الأرض ممتلئة بغبار وعمى مؤقت، فرك عينيه وعاد يرفع الفأس لأعلى ويهوي بها إلى أسفل.

... احفر يا ابن عبد الجليل، عَلَّ حد يفهمك، ليه تولدت، إن كان الشقاء مكتوب على جبينك، بسن قلم بوص وخط نسخ، ليه ييجي البني آدم للحياة ونصيبه منها حياة الأموات، ليه لما دخلت التعليم فشلت، ولأي سبب نجيت من الحرب، وقصف رقاب الرفاق بالجملة، إن كانت النتيجة هذه الغربة، يوم للمهانة ويوم للذل، وليه أرضك يزرعها غريب، وانت هنا

تقتات كما الحشرات الضارة في أراضي الغربة، تتسول وعلى دراعك لفيت جبيرة معقدة من المسكنة والخوف.

هذا الخط الطويل المحفور في الصخر تمر الأيام عليه ولا ينتهي، هذه الحفرة تشبه اللحد، عرضها عرض إنسان، والشمس في كبد السما نار صافية، ما أبشعها من حفرة، ما أحنها من قبر في الغربة، لو تمددت يمكن تموت وتستريح، يمكن ييجي الحاج حميدة يركل جسدك الميت بقرف... هيا... اضرب الصخر بالحجَّاري، وحَمّل التراب بالكريك، واعزف اللحن العظيم... لحن الضآلة في زمن الغربة... دراعاتك... ما لك سواها تعينك ع البقاء... ارفع راسك مع الفاس، واحمد الله عند رفعها وعند سقوطها، حتى ينتهي هذا اللحد اللعين، أو تنتهي أنت... يتمدد الصدر وينكمش، ينخر زي حصان يركض على سفوح البوادي، رأس الفاس محتاجة تخشين، مسمار قوى، أو قطعة حديد.

ترتفع سرعة الرياح ثم تتلاشى، لحظات ويحل السكون في الجو، بعدها تلتهب الحرارة ويحل الاختناق، من على بعد تقترب الرياح المحملة بالرمال، حَل موسم العجاج، خرج الرجال من خط الحفر يحتموا، تمتلئ العيون بالغبار، غمض عينيك وقوم انسحب خلفهم.

حل موعد الغداء. صاح بهم الملاحظ الليبي... هيا... فتوجهوا فرادى وجماعات تجاه برَّاكاتهم غرب الموقع، أمام الحانوت الوحيد الذي يملكه الحاج حميدة، وقف عامل تشادي ينهرهم بلكنة عربية مكسرة عن دخول الحانوت، رغم

أن السلع كانت رديئة، فأن الأسعار كانت مرتفعة، اشترى ثلاثتهم علب السالمون، وعلب الجبن الدنماركي المنتفخة، فتحوا إحداها فاندفع في وجوههم رزاز من هواء فاسد، أعرضوا عنها في البداية، ثم ما لبث (المبروك) أن أضاف لها الملح وقطع الخيار والطماطم، وبدأ يأكل... عندما لم يتوقف تشجع الآخرون والجوع يدفعهم... قال أحدهم:

- مغص المعدة ولا رمى النعمة.
- يا خوي كُل من غير فلسفة.

*   *   *   *

تمر الأيام والحفر لا ينتهي... احفر يا ابن عبد الجليل. ما رأت عيني سورياً واحداً يحفر، فلسطينيا أو لبنانيا، الحفر، صب الخرسانات تفريغ الشاحنات، عمل المصريين وحفنة من التشاديين... احفر يا ابن عبد الجليل.

- كم الساعة؟
- ليه اشتقت للعشا؟
- يا أخي قول الساعة كام؟
- واه... زعلان ليه يا ابوي... الساعة تلاتة.
- باقي ساعتين.

غمغم في غضب... لا بد من الشاي.

عبر الحاج حميدة بجوارهم صاح: وين محمد السوداني؟

أجابه مرعى بحماس: راح مع حضرة الباشمهندس عارف.

- شنو باشمهندس هذا، ما في باشا هون، باشا عندكم في مصر، هو مهندس عارف وفقط توا نشوف "الزَبْ"، واستدار مبتعدا.

قال عبد الله: لازم باش وحضرة.

أجابه مرعى بصفاقة: أقول عارف حاف.

... امتى ييجي محمد السوداني بالشاي... احفر قبرك يا ابن عبد الجليل حتى يكون صالح لجثتك وجثة اللي خلفوك، الرحمة علينا تجوز قبلهم، أقلها ماتوا في أرضهم وسط أهاليهم مرة واحدة ورحلوا إلى الأبد، أما الموت هنا موت النفوس، ما أبشع هزيمة النفس، انسحاب الشرف في الذات مثل فار مذعور، ما أبشع عذاب النفس، تنفس الوحل، محمد السوداني ظهر حاملا براد الشاي، أقعد تحت الظل وأرشف الشاي الجميل مع أنفاس السيجارة، افتكر خيبتك، وبعدها ارجع لقبرك، عدّل من القدمين في الحفر.

قفز الحاج حميدة فجأة وخلفه أحد المهندسين، ضرب كوب الشاي الذي وضعه مرعى على الأرض بقدمه على حين غرة، طار الكوب في الهواء مخلفا وراءه رزاز الشاي الساخن، وقبل أن يضرب ضربته الثانية كانت عينا محمود تشكل حائطا منيعا من الشرر، أما المبروك، فقد أخفي كوبه ملقيا به خلفه، وبتحد عنيد رشف محمود الشاي على مهل، أمسك الحاج حميدة بمرعى من قفاه، متغاضيا عن محمود، صائحا في وجهه:

- يدخلني ربي جهنم، أحترق كيف الشيطان إن ما كان عمر بوزوى يخسر. ماله يا قواد، ليش الكسل، وين ضميرك يا تيس، مش تاخد فلوس، إيش تعمل من ساعتين ونص، ما في

شيء بُكَّلْ، حتى الدرهم حرام فيك يا بغل، كيف نديروا بالنا على مال الراجل المسكين، ربي الشيطان مسكين عمر بوزوى.

اقعى مرعى أمامه يرتعش خوفا، دون أن يجرؤ أحد على التدخل لمساعدته، وكلما زاد انكماشه واسترحام عينيه، اشتدت عصبية حميدة، وانفجرت براكين ساديته.

- تعال... تعال يا عرص... تعال هنا... كنك تجرى يا خنزير.

جاءه العامل مثل حمامة تذهب إلى ثعبان فاغر فمه، ضربه بقبضته الحديدية في جنبه. صرخ العامل وسقط على الأرض فاندفع يركله في بطنه ومؤخرته، والسباب يندفع من فمه كالسيل مسترحما السماء والنار والشياطين على عمر بوزوى إزاء هذا النكرة الفاقد الضمير. في حين كان المبروك يعمل لاهيا عن كل شيء، وقف محمود باستهانة كاشفا عن نفسه للحاج حميدة يتحداه، وأمسك عبد الله توتر عدواني بالغ، لكن الرجل تحاشى النظر ناحيتهما، تجمع بعض المقاولين السوريين والسائقين والملاحظين الليبيين، قال أحد السوريين:

- يا حاج هدى نفسك، ليش بعدك تضربه، شو ما بدك اعمل يا رجال لكن لا تضربه مثل حيوان، أعطيه حسابه واصرفه والله معك ومعه.

همس شاب سوري في أذن مرعى:

- ما بدك تروح الشرطة، الإخوان يشهدوا معك، كلنا بنشهد معك.

لم يكن مرعى مستعدا لسماع شيء من هذا، أبقى على نفسه متكورا يبكي لاعنا السوريين قبل الليبيين، كيف أذهب للشرطة،

يرحلوني على مصر أرجع أهز ديلي زي كلب جربان، لا... الصبر، هنا أقبض أجرى على داير مليم آخر كل شهر، هنا أحسن من غيره، خليه يسامحني، أنا غلطان، أبوس نعليه، أشرب في شاي وقت العمل، لك حق يا حاج... الراجل الكبير محرَصك على ماله، لك حق، أنا الغلطان.

هز الشاب السوري رأسه وقال حزينا: غلابة يا مصريين.

صاح الحاج حميدة لاهثا وجسده ينتفض: هيا... هيا يا فواله، تابعوا الخدمة، كنك يا ها (..........) ليش واقف مِتَنح، ميل، ميل يا فوال، ارفع البالة لأعلى يا فوال.

في الليل لعن ارتعاده، قال: كنت خايف يقرب ناحيتي مش عارف ح اعمل إيه؟

قال عم عطا الله: وي... وي... ليه يا ابني، أرض الله واسعة، فتح عينك فيه يخاف ويبعد عنك، كيفه كيف الضبع ما يشم إلا في الجيفة.

- نعمل إيه يا عم عطا الله، جينا بنغازي على رجلينا، الواحد ما عاد يعرف الصح من الغلط، الجبن من الحذر، الكرامة من صبر الندالة، السعي للرزق من حد الإهانة، دي لقمة هم، مغموسة ذل ودم.

- الصبر يا ابني، ربنا حكم علينا بالصبر، قوم، قوم نروح عند الواد كريم، قاعدين يغنوا ويرقصوا.

- ج -

أشرق الصباح ثانية كما اعتاد أن يفعل كل يوم، واصطف العمال أمام المكتب في طابور منتظم، كل يحمل فأسه وبالته، صاح بهم مصطفى:

- اليوم ننزل شكاير أسمنت من اللوريات، كل واحد ياخد معاه خلجة لأجل يحمى نفسه من الأسمنت.

همس محمود: يا ابوي، واد يا مبروك، النهارده يوم أسود من الكحل، قول لعم عطا الله وعبد الله يرجعوا حالا للبرَّاكة.

لكن عطا الله رفض... حدثه محمود متوسلا: تعال يا راجل في عرض النبي، عشان خاطر العيش والملح، غطى جلدك، الأسمنت حامى.

- وايه يا أخي اللي ح يجرى؟
- انت حر يا عم عطا الله.

تركوه مسرعين ناحية البرَّاكة، غطى محمود كل قطعة مكشوفة من جسده، لم يبق سوى العينين، وعلى الأنف وضع قطعة من القماش القطن، وارتدى كل منهم قفازا بلاستيكيا، وأدخل بنطاله في جواربه، رابطا إياه بحبل.

في العاشرة سال العرق غزيرا مختلطا بحبيبات الأسمنت الملتهبة تكوى الوجوه والأعناق، كل جزء من الجسد تجد الحبيبات المصنوعة في جهنم طريقها إليه، فتحة بنطال، كم قميص، ياقة متسخة، ابيضت وجوه العمال التشاديين السوداء وكأنها اكتست بطبقة من الجير الأبيض المتسخ، وألهبت العيون كفجوات الجحيم، والجميع يجرى دون توقف بين اللوريات والمخزن حاملين أكياس الأسمنت على

ظهورهم، وحرارة الشمس تكوى الأبدان، والكل يلهث كجياد تجر أثقالا في مطلع حاد. صاح عطا الله:

- يا بوى كنت فاكر ساعة ونخلص.
- قلت لك يا عم عطا الله.

* * * *

الفصل الحادي والعشرون

- 1 -

في المساء وقفت سيارة فيات أمام البرَّاكة، نزل منها رجل في أواخر الثلاثينيات، طرق الباب قبل أن يدفعه داخلا:

– الريس محمود هنا.

– أيوه... أتفضل محسوبك.

أنا جاي من طرف عبد العليم بك، إن شاء الله ح تكون الخفير بتاعنا، تقدر تحرس العدة والخشب؟ تحولت عينا محمود لعيني ذئب وهو يردد لنفسه... دلوقت السفرية ح تحلو.

– أباه، أنا أحرس بني غازي كلتها يا بوى، اقعد اشرب شاي... والحاج حميدة؟

- بسيطة، الحاج حميدة حبيب الباشا. سار خلفه يودعه، وعاد يفرك كفيه طربا.

منذ أن بدأ محمود العمل لدى عبد العليم بك تابعه كظله، يحمل حقيبته، يعد له الشاي والقهوة، ويقدم له المثلجات، وقد سرق لسيده كرسيا نظيفا من الموقع، وجعله خصيصا له، ما أبهجه كثيرا، على هذا المقعد كان يجلس عبد العليم، ضخم الجثة، أسمر البشرة، تغضن وجهه الضخم الغليظ، خلف نظارته تقبع عينان قويتان، وأنف بارز إلى الأمام، سكيرٌ عنيدٌ، يعب الخمر ليلا حتى تنضح من مسام جلده مصحوبة بعرقه الحار، كان سمعان سائق المعدات يحضر له حال قدومه للموقع، ينجز له أغراضا ويساعده باللودر، بدا الأمر غريبا في البداية، وسادت الظنون بكونه مرتشيا، أو ربما يشارك عبد العليم بك مائدة الشراب ليلا، الوحيد الذي فسر لهم سر ما يحدث محمود...

- له يا أبوي... سمعان دا أخو عشيقة عبد العليم بك، لبنانية جابها معاه من بيروت، عبد العليم بك كان مقاول كبير في مصر قبل الثورة. يقاطعه سيد: قبل عبد الناصر ما يجيب الفقر معاه، يستطرد محمود: أتأمم في 57، وخرج من مصر معهوش شيء، في لبنان بقي مليونير كبير قوى، دلوقت يزيد في ماله الزايد.

وعندما يهل في الصباح يجلس أمام طابور الحفر الطويل، حيث يستقبله محمود مصطنعا ابتسامة واسعة على وجهه: "إيه الجمال ده... سجاير أمريكاني، يا عم أعطينا مما أعطاك الله، السجاير الوطني حرقت صدورنا". يعطس وهو ينظر مبتسما للآخرين، يضحك عبد العليم، يجيبه بصوته العريض:

"الحمد لله... خد". يمد محمود يده ويأخذ العلبة، لكن عبد العليم يكشر عن وجهه، وقد أعجبته اللعبة التي أصبحا يمارسانها يوميا، يصيح بصوت أجش يحمل بقايا شخص مخمور: "لا، سيجارة واحدة بس يا حمار".

فيجيبه ساخرا: وه ليه الغلط، العيبة ما تخرج من فمك يا باشا.

- انت تفهم في العيب يا واد محمود.

- معلش، سامحنا، عقلي على قدي، البرد والمطر بيهاجمني في الليل، السقف صفيح مخرم، بدي بطانية يا باشا. يجيبه بأنفة ولامبالاة: البطانية!!. يا أخي انت مش ح تبطل دوشة على البطانية بتاعتك دي، يا سيد فكرني أجيب له بطانية عشان يبطل زن.

أخرج ورقة نقدية وحدث محمود: روح اشترى بسكويت. أحرجه محمود، سمعه بقية العمال الجالسين بقول: أجيب معايا حاجة ساقعة تبل ريق سعادتك. ضحك بابتسامة ساخرة تكشف عن بخله: "يا أخي وأنت مالك".

- عشان خاطر الباشمهندسين. وأشار إلى عزت وسيد.

- هو حد طلب منك، ولا عايز تتمحلس لهم، بطل نفاق.

- يعني أجيب ميراندا ولا بيبسي.

يستسلم عبد العليم: خلاص الفلوس معاك هات اللي تيجيبه...

يجيب محمود ببرود وضحك: هي الفلوس دي برضه تكفي.

يصرخ فيه ويلعنه ويسبه: هات وأنا أحاسبك يا أخي.

يصر محمود على أن ينكأ بخله: يا سلام أنا أداينك... عيب... عيب... على العظمة والأبهة دي، يا باشا الحساب كتر، ولا أقول لك عشان خاطر الرجالة.

عندما يذهب يعقب عبد العليم: ناس كلاب، تعض اليد اللي بتآكلها... ونظر إلى سيد... دول زي القطط تاكل وتنسى.

كان سيد يعلم أن عبد العليم يدعو للتقيؤ، لا يتورع عن أن يكون مديونا لملاحظ أو غفير، ولا يتورع عن تناسي ديونه... قال: يا باشا محمود يحب يهزر معاك، برضه طامع في عطفك. أيوه هو ابن كلب، لكن كلب أمين... ضحك سعيدا بنفسه للنكتة التي أطلقها.

في آخر الشهر كانوا يقبضون رواتبهم بشق النفس، وعبد العليم يتفنن في تأخيرها، متحججا بأخطاء القياس، طالبا إعادته، في اليوم التالي يختفي فلا يظهر في المواقع أو المكتب، يمضي يوم وآخر وثالث وهو يبحث عن حجج ما، خاصة مرضه الذي صار معروفا لدى العمال، لم يكن أحدهم يستطيع أن يعرف هل تم صرف المستخلص أم لا، محمود فقط، كان يميل على الحاج حميدة مستفسرا منه:

- المستخلص يا حاج.

يرفع حميدة رأسه في ثقة وكبرياء: عمر بوزى ما يأخر درهما على عامل كيف بمقاول، ريسك أخذ مستخلصه، تبي تِحَوِّل فلوسك، هاتها أعرف واحد موثوق فيه، حاج حسن من مرسى مطروح.

- طبعا يا حاج أنا وعبد الله والمبروك وبقية الرجالة، نعطيك تحول لنا، بكم؟

- أعلى سعر في السوق السوداء وعليه بعشرة قروش، باهي...
- باهي يا حاج.

عندما يواجه محمود عبد العليم بك بأنه علم بصرف المستخلصات يبدأ موعد دفع الأجور، يتراخى العمال، ويتباطأون وتنخفض الإنتاجية، ولا يجرؤ أحد أن يطالبهم بالجدية في العمل، وعندما يحضر ومعه النقود، ويتجمع حوله مقاولون الباطن والأنفار، يصيح قائلا بصوته المرتعش المخمور متبجحا:

- احنا ما ناكلش عرق حد، وكل واحد عندنا لازم ياخد فلوسه على داير المليم، انتم عارفين مين كفيل الشركة دي، واحد مليونير لازم نحافظ على سمعته.

ويحلو لمحمود أن يسأله: وأنت تبقي إيه... مش مليونير ولا إيه؟

فيتغاضى وكأنه لم يسمع شيئا، ويخرج العمال يعيدون حساباتهم، فيجدونه قد خصم مبلغا ما، مقللا من قيمة إنتاجيتهم، يرحل الماهرون والمخلصون، وتمضي الشهور ويتحول طابور عمالته إلى مجموعة من العجزة والكسالى واللصوص والمرضى وحاملي البطاقات الليبية.

لم يكن يثق بأحد، يعبر عن ريبته في كل إنسان، مدققا في دفاتر سراكي العمال، طالبا من عزت أن يتأكد من عددهم يوميا، معبرا عن شكوكه في سيد.

- انت بتزود العمال يا سيد؟
- طلبات الشغل.

- انت فاهم يا سيد، هي السراكي ح تحفر إزاي؟
- إزاي يعني؟
- يا غبي؟ العمال بتزيد على السراكي بس يا سيد...

يضحك سيد ضحكة صفراء يقول بلهجته الإسكندرانية: أيـووه يـا جـدع، عقلـك بـيروح فـين، أزود عـدد السراكي، هي عزبتي... أُمَّال خميس وعزت يروحوا فين؟ يحملق بهم جميعا دون أن تطرف له عين: كلكم عصابة واحدة يا سيد، أنا عارف كل حاجة.

ما أن يحضر عبد العليم بك حتى يسارع محمود بتقديم كرسيه الوثير، ويبدأ في ممارسة هوايته المفضلة في النفاق، وإيهامه بأنه رجله، يخبره بكل ما دار أثناء غيابه، ما أُخذ من العدة ومواد الإنشاء، من دخل الموقع ومن خرج، من عمل ومن توارى هنا وهناك بحثا عن راحة مدفوعة الأجر، يهتاج الرجل وكأنه يرى تراخي العمال لأول مرة، فيخصم من هذا نصف يوم ويصب لعناته على ذاك، ويصيح ثائرا: ارفع البالة فوق، اللي يشتغل كويس ح أعطيه واللي ما يشتغلش يتكل على الله فاهمين؟

يقول سيد: يا باشمهندس دول عصابة، قبيلة واحدة، وريسهم خميس، مش ح تقدر تعمل معاهم حاجة، وبعدين مين اللي قال إنهم ما بيشتغلوش، أُمَّال احنا بنعمل إيه؟ يتجاهله عبد العليم محدثا عزت: شوف النشيط وأعطيه ساعة إضافي. بعد أن يرحل يشيعه سيد في تهكم: يا عم هو بيقعد هنا أسبوع على بعضه، دا كل يوم من مصر لإيطاليا أو بيروت...

في إحدى المرات تساءل عزت: مش مؤمن عليكم؟

عقب محمود: تأمين إيه يا باشمهندس دي القوة سلاكة.

- الله إزاي الشركة بتخصم الضرائب والتأمينات منكم ليه؟

في أخر الأسبوع هطل المطر بشدة، سارع العمال بالاختباء بجوار بناء حجري قديم، وفي الثانية عشرة، حضر عبد العليم فوجدهم متفرقين جماعات، نادي على سيد صارخا: العمال مبطلين شغل ليه؟ هو أنا فاتحها لوكاندة...

أجابه سيد: يا باشمهندس الدنيا بتمطر، الجو قدامك أهه.

- طيب روحهم النهارده نصف يوم.

ضحك سيد: لا يا سعادة البيه احنا في ليبيا مش في مصر، العامل هنا ياخد معاشه لو قعدته في بيته، هنا بيعملوا كده... رفع يديه مشيرا إلى أن الأمر خارج إرادته. صرخ وقد احمر وجهه: طيب والعطلة دي!! خليهم يشتغلوا.

- تحت المطر!

- يعني ح ياخدوا برد ولا سل، دول بهايم، قول لهم يشتغلوا، ح جيب فلوس منين.

- افهم يا باشا... افهم، هنا الدنيا لما تمطر العمال تبطل، وتاخد يوميتهم حتى لو اشتغلوا ساعة واحدة بس، الله دي حاجة من عند ربنا، اطلع بقي حاسبه، قوله معطلنا ليه، وبعدين ما تعملناش مشاكل، فاضل يوم ونخلص منها خالص، خلينا نسلم الهباب ده...

لم يكن قد نزل من سيارته فعاد غاضبا إلى الطريق الذي جاء منه، مال سيد على محمود قائلا: راجل متوحش، أهو دا بقي من الإقطاعيين بتوع زمان اللي طردتهم الثورة، تقول إيه

للمجنون دا عايز يشغل العمال في المطر، أهي المطرة بطلت، لو كنت روحتهم مش كان زعل، وصرخ في بعلو صوته وقالي "روحتهم ليه يا سيد، ح تخرب بيتي يا سيد، روح لمهم من بيوتهم يا سيد"، سيد العبد بتاعه، أنا ناقص... أعوذ بالله.

نظر محمود إليه بعيني الذئب: طيب ما نشوف مصلحتنا يا عرب. ضحك سيد: اصبر لما ننتقل للمرحلة الثانية نمشي. الواد عزت، الجو يخلى، واللقمة الهنية تكفي اتنين.

- ٢ -

كثر لغط حول بدء العمل في المناطق الجديدة، وقد أثار دخـول المقـاول المصري لهـذه المواقـع لـدى السـوريين والفلسطينيين الجنون، هنا الأراضي البكر، المنشآت الجديدة الـتي تـدر ذهبا، عمـولات المقـاولين، قومسـيونات وسمسرة المهندسين وموردي المـواد، سرقات المخازن بالاشتراك مع الخفر والسائقين، إتاوات الصنايعية وتجارة رؤوس الأنفار، في البداية لاحظ عبد الله والمبروك الثراء الـذي بـدأ يظهـر عـلى محمود، لم تكن تلك الملابس القليلة التي اشتراها، ولا الموقد الغـازي الصـغير والسرير، والفـراش النظيـف، ولا براكتـه الـتي ابتناها له وحده بالطوب الحجري وصب أرضيتها بالخرسانة أو السرير الخشبي الجديد الذي انفصل به عنهم، ولا المسجل الكبير ذو الصوت الواضح النقي، لم تكن هذه معالم الثراء، ولا أسباب الشـك التي شـعرا بها تجاه صديقهما ورفيـق رحلتهما منذ الحرب وحتى دخول بني غازي، الإحساس البالغ بالأمان الذي أصبح يلوح في كل حركة من حركاته، الغموض الذي أخذ يحـيط بـه نفسـه وتصرفاته، سـكناته الـتي يتصرف فيهـا

بحساب، العلاقة المريبة التي توثقت بينه وبين سيد وسمعان وسائق ليبي يحضر لهم ليلا، لم يحاول عبد الله أن يفهم شيئا ولم يرغب في الفهم، ورغم أن محمود كان السبب في تركهم العمل مع عبد العليم بك، والعودة إلى المؤسسة إلا إن علاقة الثلاثة ظل ظاهرها وثيقا، أما باطنها فكان يموج بالشكوك والهواجس.

في إحدى ليالي يونيو الحارة، دخلت الموقع ثلاثة لوريات من الخشب تبحث عمن يستقبلها، أسرع نحوها محمود وسمعان اللبناني، طالبا من سائقيها تفريغ حمولاتها في موقع عبد العليم، وطوال اليوم التالي كانت الشاحنات تتوارد على الموقع، حيث كان يتقاتل عليها مهندسو ومقاولو المواقع المختلفة، وعندما انتهى توريد الخشب استلم سيد بقية الخشب المخصص لمواقع عبد العليم على الورق، وتاهت الشحنات الثلاث الأولى، وبيعت شحنات مماثلة لم تأت المواقع قط، وطيلة أسابيع كان سمعان يجر أطنان حديد التسليح المخبأ تحت الأتربة إلى مواقع عبد العليم بك حيث يتم تشغيلها بدلا من شحنات قيل إنها وصلت الموقع حديثا، مقدمين الإيصالات الدالة على ذلك، ولم تكن قد وصلت قط، ولم يكتفوا، بل اختفت ثلاث مانعات للصواعق يبلغ سعر كل منها ألف دينار، ثم فقدت هزازات وموتورات كهربائية صغيرة دون أن يشعر بضياعها أحد.

شيء غامض بدأ يشتعل في رأسه لا يدري ما هو، الخوف الذي كان يتسلل داخله أحيانا، ربما لأن اختفاء الخشب والحديد لم يثر انتباه أحد، أو ربما لأن الحاج حميدة شعر باختفاء تلك الأشياء الصغيرة، الموقع يعلم الآن بأن هناك

أشياء تختفي، وأن يدا تعبث بالمعدات الصغيرة، وربما كان سمعان الماروني متهورا مندفعا، وربما لأنه يفكر في شيء ما، شيء يتسلل داخله وهو ينظر تجاه سيد حينا، وحينا تجاه عبد العليم بك، وطيلة شهر تحول إلى ثعلب يشم الهواء... أين يخبئ سيد نقوده؟ في البنك، ربما راتبه فقط... عبد العليم بك لابد أن لديه آلافا منها، الأفضل الحانوت!! الحاج حميدة... كيف؟ إذا كان ثمة شيء فلابد من يوم عطلة حتى يتمكن من الخروج من بنغازي... لا... لابد من الخروج من ليبيا كلها في نفس اليوم، مرة واحدة وتستريح... الخروج من ليبيا أسهل من دخولها، ربما تدخلها في شهرين، لكنك تستطيع الخروج منها في اثنتي عشرة ساعة ، ولكن من؟ وكيف؟

*   *   *   *

في أحد الأيام الأخيرة من يونيو، زار عبد العليم بك بالموقع ثلاثة من رجال الأعمال المصريين، برفقتهم شاب هو ابن أخته، استقبلهم بحرارة، وجرى محمود في الأرجاء بحثا عن مقاعد ومشروبات مثلجة، تحدثوا بحرارة وود شديدين، وبعد أن شربوا القهوة قاموا يتفقدون الموقع، ثم عادوا ثانية متأهبين للمغادرة، وقبل رحيله معهم نادي على سيد وقال:

- اشترى خمسة كيلو لحمة.

رد ببلاهة: لحمة شوي.

- ليه ح نشوى خمسه كيلو، شَكِّلهم يا حمار، وتيجي بيهم على طول.

- إزاي؟

نظر إليه في بلادة: أبعت لك العربية، وأنت، انت يا محمود تعال بعد العشا... رفع محمود يده مجيبا بالتحية العسكرية: طوارئ يا افندم، بس مش عارف البيت ومين ح يحرس الغنم.

- خلى حد يقعد بدالك، سيد ح يدلك وتعال وحدك.

مضى راحلا، وحتى الثالثة ظهرا ظل سيد بانتظار السيارة في قلق، عندما ظهر السائق رفاعي، كان منهك القوى، أشعث الشعر، صرخ فيه سيد بغضب لتأخره:

- الراجل مش قال لك تيجي بعد ساعة.

رد بوقاحة: باهي يا أخي، كنا نتريح بالحوش.

- تتريح... شد سيد شعره، بتروح الحوش تعمل إيه؟

وسبه سبابا قاذعا، ضحك الفتى: ليش شنو تبي تعرف أنت. ؟

- يا ابن (....) فيه حد...

- لا... لا... تباهت في عويل قدامك!

- طيب مالك كده منكوش ومفرهد.

اندفع الفتى بالسيارة إلى الأمام مسرعا، وهو يقول: جارتي قالتلي "تعال"، دخلتني غرفتها، كان فيها صاحباتها وقالت: "أنت رفيع وصغير، نبي نشوف مين يغلب انت ولا صاحباتي". رقدوا علىَّ الِـِ◌◌تنين بقينا نتعارك، ما قدرت أتخلص منهم، حتى هربت من الشباك. أخفي محمود عنف توتره تحت ابتسامة بلهاء، سمع سيد يقول: آه يا ابن (....) وتنادوا بالإسلام. ارتفع صرير العربة وهي تندفع إلى الأمام، والفتى يقودها بجنون: كنك انت ومال الإسلام. هادى أمور شخصية أنتم ما مسلمين؟

- طبعا موحدين بالله.

- شنو، قولي كيف الأغراب ينزلوا الإسكندرية والهرم غادي، ويديروا في بناتكم كِيف ما يديروا...

صاح سيد غاضبا: دول اللي تدوروا عليهم مومسات مش بناتنا.

- طيب... خلاص كل بلد فيه هَكٍّ[64] وهَكٍّ.

تراجع سيد: صح، حاسب على عربية الراجل يا مجنون، لحسن يوديك في داهية. ارتفعت من حلق رفاعي بحة تنم عن الاستهتار والاحتقار وعقب:

- منو...!! الفوال هذا.

- 3 -

تنامت الشائعات حول أفعال الحاج حميدة السرية، وناوش المصريون البدري بعبارات جارحة، واجتنبه العمال السلكاوية الذين استضافهم يوما، وفي إحدى الليالي المقمرة شوهد البدري يخرج ليلا، وهو في ارتباك من حجرة الحاج حميدة، ضغطوا عليه فانكمش مذعورا، وشعر أنهم عرفوا سره، في نهاية الشهر انتظر البدري مجيء الصراف، كان قلقا من قدوم الحاج حميدة، بعدما غابت الشمس، جمع حاجاته في بقجة صغيرة وتسلل هاربا، مغامرا بالسير وسط معسكرات الجيش المتناثرة، واحتمالات القبض عليه وترحيله.

* * * *

64) هَكٍّ: هكذا

الفصل الثاني والعشرون

- 1 -

في الثامنة مساء عبر محمود مدخل إحدى عمارات شارع جمال عبد الناصر الفخمة، على الباب الخارجي وقف عبد العليم بك مرتديا (روب) أحمر فاخرا من الحرير، تفوح من فمه رائحة الخمر، وجسده يسد باب الشقة يمنع القادمين من التلصص، دهش عندما وجد محمود يقف أمامه، بادره بالسؤال وعيونه تمتلئ بشك متوطن داخله تجاه البشر.

- عايز إيه؟ إيه اللي جابك؟

وقف محمود محدقاً به فاغرا فاه، بصعوبة وقبل أن يستدير عائدًا قال: انت قلت لي الصبح تعال الساعة ثمانية. وكأنه يفيق من غيبوبة: أيوه... أيوه. ادخل. يا كاميليا. ادخل

هات فحم وولعة، تعرف تشوى؟ أجاب محمود وعيونه تبتسم بعد أن هرب الدم من وجهه:

- نشوى أي حاجة يا سعادة البيه، حتى البني أدمين.
- انت يا واد إيه؟ مجرم! قَتّال قُتلَه!
- أيوه... بس عدوك يا بيه.

في شرفة غرفة الاستقبال الفاخرة جلس محمود يشوى، وهو يمسح الشقة بعينيه الحادتين، وقبالته جلس الرجال الثلاثة والشاب يواصلون ما انقطع من الحديث. قال الرجل البدين: السادات يصلَّح ما أفسده غيره، عشرين سنة والدخل القومي ينفق في اليمن وفلسطين ومؤامرات في سوريا والجزائر، حروب لا طائل من ورائها سوى الخراب، خير البلد أراقه أحلام رجل مجنون.

تساءل عبد العليم: صحيح السادات ح يتصالح مع إسرائيل؟

تصايحوا: طبعاً، هو ده أول كارت لازم نقدمه لأمريكا للحصول على ثقتها.

قال ابن أخته: السادات فتح السوق للقطاع الخاص والرأسمال الأجنبي. يا خالي القاهرة تُعد لتستعيد مكانتها من بيروت، وتكون المركز التجاري للمنطقة.

قال القصير: زي ما قال ابن أختك، مصر تنادى أولادها اللي سابوها بسبب الظروف الصعبة، لازم يرجعوا، البلد داخلة على مجاعة، إذا تخلفنا ح تقع في إيد الشيوعيين.

ساد الامتعاض والغضب، أنتفض الأصلع متحفزا: انت بتخرف يا دكتور وصفي بتقول إيه... السادات سحقهم لحظة

عبور القنال... عايزين الحرب... حارب وانتصر، وحقق اللي فشل فيه عبد الناصر... في ضربة واحدة هزم إسرائيل وتحالف مع الأمريكان، ورجع مصر لحضن الدين، النهارده يتم توسيع نطاق الطبقة الوسطى، السور الحقيقي لحماية المجتمع من الأفكار والاضطرابات الاجتماعية والحركات الهدامة، النهارده يتم تحجيم القطاع العام وخفض الإنفاق الحكومي، في نفس الوقت يعطى الضوء الأخضر للرأسمال الخاص الوطني والأجنبي وبكل التسهيلات اللازمة.

- أنتم فهمتوني خطأ، أنا قصدي أحفز عبد العليم بك على الرجوع.

قال البدين بدهاء: انت بتخليه يطفش. ضحك وجامله الآخرون بالضحك، استطرد: اللي يحفز عبد العليم بك على الرجوع حجم اللي ح يبلعه... وصنع بيديه من ينوى التهام ديك رومي. ابتسم الجميع وساد جو من الارتياح، وكأنه قد أعاد الموضوع لمكانه الصحيح، ومنذ هذه اللحظة أرخى ذراعيه وهو منتشٍ كمن التهم أنثى طيبة النهدين.

دق جرس التليفون ومن الداخل خرجت غادة حسناء شقراء في الثلاثين، ذات وجهُ ثلجي، نادت عبد العليم: سمعان.

أجابها بصوت أجش: عايز إيه؟

- شو بِيعرَّفني!

قال بغلظة: قولي له ما يجيش النهارده.

انتفض وجهها كهرة: ع ليش بدى أقوله.

- عندي ضيوف، خلاص.

هزت رأسها بلامبالاة: بلى... يلا... وعادت تحدث شقيقها.

نادي عبد العليم: ثلج... ثلج يا نبوية...

جاء صوتها من الداخل: نبوية مو هون، أنا بجيب الثلج.

عبرت الصالة إلى غرفة الاستقبال، حيث قدمت لهم قطع الثلج وهي تحييهم، عندما أظهرت رغبتها في تناول كأس من الويسكي، سارع الدكتور وصفي بتقديمه إليها، أخذت ترشقه على مهل، جذبتها، رائحة الشواء.

- قومي... اللحم طيب.
- بَعِرف.

دخلت الشرفة حيث وُضع الشواء، وجلست على كرسي قريبا من باب الشرفة واضعة ساقا على ساق، سارع محمود بانتقاء بعض القطع الجيدة وقدمها لها، وهو يختلس النظر إلى ساقيها، تناولته على مهل وقد بدا عزمها على البقاء، قطع صوته الأجش الصمت: اتركينا أنت...

قالت مستسلمة: إيه... يلا.

دارت في ردهات الشقة بتذمر، ثم عادت تجلس في الصالة أمام التليفزيون، ولكن صوته طاردها: اطفي التليفزيون يا كاميليا. فعلت بعصبية، ثم جلست تشعل سيجارة.

عاد القصير للحديث: عبد العليم بك اسم كبير مضمون عند الأوروبيين والأمريكان، راجل له تاريخ، لم يهزمه التأميم ولا المصادرة، بعد أن خرج صفر اليدين، هاجر وبدأ من جديد، اليوم حان وقت العودة، أمامنا السوق المصري، الصناعة أفضل الاستثمار، بعد ما نستوعب السوق المحلية، نخرج للسوق العالمي.

قاطعه عبد العليم بغضب: سوق عالمي إيه، وصناعة إيه انت ح تعمل لي عبد الناصر، ح ندخل منافسة مع الأمريكان ولا اليابانيين، يا سيد مصر. بلد زراعي، إيه الكلام ده، لما نوفر الطعام نبقي نتكلم عن الصناعة.

قال الشاب: يا خالي، مطلوب استثمار يعتمد على العمالة الرخيصة، صناعات يكون عليها طلب في السوق المحلي والعالمي، السادات ح ينشئ منطقة حرة زي بيروت.

- فين يا عوني؟
- بورسعيد.

انتشى. وجهه: عشان الكلاب تبطل طنطنة بحرب ستة وخمسين، طول عمره جمال عبد الناصر بينهزم، ويرجع يغرق البلد بالأكاذيب.

قال البدين ملطفا: كل ده السادات نظفه، عموما نرجع لموضوعنا

قاطعه عبد العليم: أنا استثمر مليم واحد في الصناعة؟ شايفني مجنون!!

قال الدكتور بخيبة أمل: ممكن سعادتك تشتغل في الاستيراد والتصدير، ده مجال يِكَسِّب دهب، ممكن نوفر عقد نقل للشركات الأمريكية اللي بتشتغل في البترول، إذا كنت شايف دخول ميدان الصناعة غير مجز، فيه طرق جديدة، ممكن تشترى علامة أنتاج مصنع جاهز لملابس الجينز، ماركات عالمية لصناعات الأدوية ومنتجات التجميل والروائح، معجون الأسنان وشركات السياحة، مدن سياحية، ميزة الصناعة توسيع مساحة الطبقة الوسطى، وعندك البنوك أفضل شيء النهارده.

هتف مندهشا: البنوك... ممكن؟

- طبعا، فائدة مضمونة وربح مضمون.

- السادات جريء قوى.

- السادات عازم بشكل جدي على فتح كل المجالات أمام القطاع الخاص، على سبيل المثال: قطاع النقل العام، السكة الحديد لابد من وقف أي إنفاق حكومي عليها، طيب باقي إيه؟ باقي إن كل واحد معاه ألفين جنيه يشترى عربية بيجو أو ميكروباص، ويشغله على خط أجرة عشان يصبح مالك، له مشروع خاص، إذا أنا مَكَّنت هذا الإنسان صاحب النقدية البسيطة من عمل مشروعه الخاص، نكون قدرنا ننشر الحلم الأمريكي الكبير، يا خالي الباشا، ما هو الأمن الاجتماعي؟ الأمن الاجتماعي هو بيع الأحلام.

- وانت ناوي تبيع لي أي حلم يا عوني؟

- لا... تعال بقي نتكلم يا خالي، تنكر لما عبد الحميد بيه طلب درية بنت أختك للجواز، وخالتي وافقت، يومها كان بينك وبين الشلل لحظة، كنت أسمعك تصرخ وتقول لأمي: "إزاي درية سليلة الحسب والنسب، بنت الباشاوات تتجوز ضابط جربوع من أولاد الهلافيت!"، في الحقيقة خالتي كانت على حق، عبد الحميد بيه حمى العيلة طول العشرين سنة اللي فاتت، هرَّب الدهب بتاعهم، حماهم من مصادرات لجنة حماية الأموال، هرَّب الأرض من لجان الإقطاع والمصادرة، شاركهم في مصانع التجميل والأدوية، النهارده هم موجودون، انت غير موجود، بابا أتأمم مرتين ولم يهاجر، سلم لهم شركته وحولها لهم قطاع عام، وفي كل مرة كان يقسم إنه لازم يرجع فلوسه على داير مليم وبالفوائد، ومن فين، من القطاع العام

الاشتراكي، يوم ما أحيل على المعاش حاولوا يقدموه للمحاكمة، لكن خلاص كان الوقت فات، تاني يوم الصبح كان على مكتب كل عضو من أعضاء مجلس الإدارة كشف بما يخص كل واحد منهم؛ الهدايا والعمولات والسمسرة والأهم السرقات، سرقاتهم، عمليات النهب والنصب الرسمي، كان لازم ملفه يتقفل على الفور...

- ....

- يا خالي الواحد يحتاج أحيانا النظر لدورة الحياة من الخارج، لا تظن إن أيام الملك ستعود عشان ترجع مصر... التَكَيُفْ... التَكَيُفْ هو الحقيقة الوحيدة للإنسان المصري، التَكَيُفْ وليس الانتظار، قبل الثورة كنت منتظر الملك ينعم عليك بالباشاوية، والظاهر إنك لسه في انتظارها، كان ممكن ببساطة تتكيف مع الملوك الجدد، ضباط الثورة، مقدرتش، والآن لابد من التكيف مع ورثة العرش القادمين.

- ومين هم يا فالح.

- السادات اكتسب شرعيته من ثورة 23 يوليو، وعندما يرحل سيستقى الحكم العسكري شرعيته من حرب أكتوبر، ولكن عندما يحكم الضباط الصغار فيما بعد من أين سيستقون شرعيتهم؟ ليس ثمة ما يرتكزوا عليه في الحكم سوى القوة العسكرية، هؤلاء الطغاة الصغار سيتقدمون للاستيلاء على السلطة المدنية، لينشروا الفساد المنظم...

... مصر نصبة كبيرة، طابونة اسمها مال سايب مال الدولة مال القطاع العام، سيرك منصوب، سيرك لاعبوه وجمهوره مجتمع من اللصوص، كل فرد فيه ينطوي على لص ما، خلقت الثورة أنواعا غريبة من اللصوص، لص يسرق لنفسه، لص

يسرق حقوقه، ولص يسرق شعبه، لكن الغنيمة فين؟ كنز على بابا، على بابا الذي سرق اللصوص...

... عبد الناصر جمع ثروة البلد كلها ووضعها في خزنة الدولة والقطاع العام، كنز ما ورد على بني آدم، كنز ما وردش في تاريخ بلد، ثروة بلد بالكامل معروضة مش للبيع، إنما للنهب، لأن البيع مش ممكن، شفت حد اشترى فلوس بفلوس، لا... شفنا حد سرق فلوس، طب إزاي يسرق الكنز ده من تحت السيطرة الاسمية للشعب، إزاي تسرقه... الحكومة... الموظفين... بالمناقصات النظيفة؟! مستحيل... بالفساد ... ممكن، وبانتقام الموظفين من فقرهم، انهب، انهب، انهب، يا باشا، السحب لسه ما بدأش، كله دلوقت تسخين، النهب الكبير يبتدئ بعد تراكم الثروة في أيدي الطغاة الجدد، الضباط وكبار موظفي الدولة من المدنيين.

يا خالي ثروتك كام مليون، أتنين، عشرة. اللي ح يمد أيده من دلوقت في مغارة على بابا يعبى ع الجمال من الكنز، عشر سنين ح يبقي ملياردير، يا تفهمها دلوقت يا تصير بمليوناتك فقير. ثروة مصر معروضة للبيع شرط أن يكون لرمز الحكم النصيب الأكبر، وكي يكون لديهم فائض للشراء وبالثمن البخس؛ يجب علينا أن نبني نحن ممثلي الرأسمالية المصرية شبكة واسعة مع الوصي على البيع، هذا عالم ثالث عايز تعيش فيه؟ أتحالف مع العسكر، ممكن تلزق ذقن، صحيح فاشية مقنعة، لكن الله غالب، هذا هو الواقع، ولحد اللحظة لم يبدأ المزاد، والسؤال تحب تتكيف وتشارك، ولا ح تنتظر إنعام الملك عليك بالباشاوية.

قال متأففا: جنرالات تانى.

- يا باشا إذا كانوا هم القوة الوحيدة التي تملك السلاح في بلاد لا تعرف الديمقراطية، فلابد من تقاسم الثروة معهم.

أفكار خطرت على ذهن محمود، وهو ينظر ببلاهة إلى الدكتور الشاب، ردد لنفسه... أبو الغلابة مات، عبد الناصر مات، وقعنا في ايدين اللي ما يرحم... اصطدمت عينا محمود بعيني عبد العليم، شعر بهما مملوءتين بالانبهار، أشار إليه بالخروج.

- روح اشوي في الصالة.

- الهباب يا بيه يوسخ الفرش.

- انت مالك هو كان فرش أبوك!

- اه... واني مالي، واني مالي، أني تحت أمرك... قام بجمع بقايا المائدة، دخل بها عبر حجرة الضيوف إلى الصالة، حيث تتمدد كاميليا على الأريكة.

في الطريق إلى المطبخ كان كل ركن من أركان الشقة ينطبع في ذاكرته، الباب ذو الثلاثة أقفال، المطبخ ونافذته المطلة على المنور الداخلي خالية من الحديد، أطل منها، قربها من السطح، الدور قبل الأخير، لحظة أن استعاد رأسه من النافذة. فوجئ بعبد العليم يسد باب المطبخ، داهمه الاضطراب، ضعفت عيناه أمام الرجل الضخم وصوته الأجش يهاجمه: بتعمل إيه يا واد؟

لم يكن يستطيع التنفس، وانحبست الكلمات داخله، سمع عبد العليم يستطرد: عمال أنادى عليك من الصبح، هات ثلج؟

تنفس الصعداء: حاضر يا باشا، كنت بغسل الصحون.

– جدع يا واد، وهي بتعمل إيه؟

– الست نايمة. حدث عبد العليم نفسه: عايزه تيجيب سمعان! طب افرض بنتكلم في أسرار، ييجي سمعان ليه؟ عايزين يعرفوا كل حاجه هي وأخوها. استند بجسده على الثلاجة، كان مخمورا ينثال من جسده عرق غزير، وكلما تجشأ انبعثت رائحة النتن للمخمورين، سنده محمود بحرص:

– عايز إيه يا بيه وأنا أجيبه.

– ثلج يا واد.

– حاضر، أقعد انت بس وأنا أجيبه حد عندك.

– لا... دلوقت.

– حاضر يا بيه.

تحدث بصوت مخمور: تعرف يا محمود أنا حبيتك، عشان باين عليك ولد جدع، أنا استأمنك على حاجتي؛ على مالي؛ سمعان الشهر اللي فات سرق ميتين دينار، أنا عارف هو اللي خدهم، لكن انت باين عليك ابن حلال، انت مصري زيي، وابن بلد.

في هذه اللحظة تيقن محمود مما ينوى فعله، لقد تجسد له هدفا مكشوفا، وهو يتحرك نحوه بأمان واستقرار بالغين.

- يا بيه انت مُرادي وغيتي، أنا نشيلك في عينيه، أحط صدري يحوش عنك الرصاص، ومش عايز من سعادتك شيء، يكفيني رضاك.

أثلجت كلماته صدر عبد العليم واستدار خارجا سعيدا بنفسه، راضيا بالحماية المجانية التي تُعرض عليه، هاتف داخله يعنفه، جرى إيه يا عبد العليم، هو يشتغل بلاش! لو

طلب زيادة؟ ... لما يطلب، هو انا ح أكون الحكم بين خصمين أحدهما أنا.

- ح -

من داخل البوفيه، ظهر غلام هادئ الحركة، أجعد الشعر قوى البنية، غبي الملامح، في الثالثة عشرة من عمره، تنام عيناه في وجهه المدور الأسمر على بحر من البؤس والتيه، تذكره عبد الله، كان رفيق تلك الليلة السوداء التي عبروا فيها الحدود.

- واد يا رضا، رضا، إيه اللي جابك هنا؟
- خال عبد الله! الرزق يا خال.
- يا أبني انت قد التعب ده، لسه ما رجعتش مصر.
- رجعت مرة واتنين.

قال المبروك بسخرية: والحال عامل إيه؟

أجاب الفتى بصدق: الحمد الله، الأشيا معدن.

- ليه... اشتريت أرض ولا بنيت عمارة؟
- يعني مش كده يا خال... أهه... ورانا اللي بيروح مدرسة، واللي على وش جواز.
- يا بني مش تبطل هجس وتهويل! ده انت عايز حد يوديك مدرسة.

قاطعهما المبروك: أوعاك تصدقه، تلاقيه هربان من أهله.

- أبدا والمصحف الشريف، مش مصدقني، وربنا المعبود أجرى على غيري، هو الواحد لازم يحكى... كادت الغصة تخنق الصبي.

قاطعه عبد الله: خلاص يا رضا... خلاص، بس خد بالك من الحاج حميدة، هه.

لم يفهم الصبي ما يعنيه عبد الله، وعندما وقف في صف العمال فكر لوهلة، عاد إليه مسرعا: اسمع، لازم أقول لك، الحاج حميدة، راجل مش ولابد. نظر الصبي نحوه مستفهما، استطرد: فهمت؟ خد بالك من نفسك، تنام عندنا.

أسود وجه الصبي خوفا: طبعا يا خال، والله أنا عايل هم النوم.

عندما شاع في الموقع أن المهندس عبد العليم استلم نصف المواقع الجديدة، دوى الفضاء بحرب مريرة، واستدعي السوريون على عجل مهندسيهم ومقاوليهم من مشروع سرت، وأمام عيني المهندس عبد العليم وطاقمه المصري كانت اللوريات المحملة بأخشاب البناء يتم خطفها من الطريق الرئيسي، وتفرغ عنوة في مواقعهم، وهو عاجز عن فعل شيء، اشتكى للحاج حميدة الذي ابتسم، ورفع يديه غير مبال: هذا ما يهم عمر بوزى في شيء، نشهد الله السوريين يشتغلوا كيف الشياطين، هو يبئ الموقع يقيد نار، هات خشب، اشترى خشب يا باشمهندس واشتغل.

صرخ عبد العليم: العقد مش مذكور فيه خشب، أشترى خشب على حسابي؟

- ما ليش دخل.

*   *   *   *

الفصل الثالث والعشرون

- 1 -

غدا عطلة من يومين، الجمعة والسبت، غسل ثيابه ليلا واستحم، في الصباح الباكر ارتدى ثيابا نظيفة، وتناول الشاي، تشمم عبقه المختلط بالنسائم الباردة لفجر صيف معتدل، وقد خيم السكون على مواقع العمل، وبدت المنشآت كأشباح عبرتها جحافل البشر، ثم خلفتها تاركة الهدوء المثير الذي يصنعه يوم بلا عمل.

هدوء يرخي بأجنحته الممتدة تحت شمس باردة، هدوء خال من المشقة الجسدية للعمل، والمشقة النفسية للعلاقات البشرية التي يخلفها ثقل الإدارة الوطنية على المازجرية، خرج يخترق الجزء الباقي من الغابة الذي لم يجتثه الجيش بعد لحساب منشآته، جحافل من الحشائش الخضراء الكثيفة الملونة ببقع الشمس الضوئية، تنفذ عبر أغصان

الأشجار العملاقة، تنفس الهواء المنعش الجميل متوغلا في الغابة، وقد عاد لكل شيء، الأرض، العشب، الأشجار الضخمة، الهواء إلى بكارته الأولى.

في بقعةٍ خضراءَ وارفةُ تحيط بها زهور زاهية الألوان، تمدد على ظهره ناظرا إلى السلاسل الضوئية المتسللة عبر الأشجار يداعبها بعينيه، شيء ما يخدر روحه وقد أصبح الزمن خفيفا، تنفس سحر الطبيعة، الكوخ الخشبي حيث ثمة بشر. تحيا، رجل وامرأة، تحلل ذهنه المكدود وأخذ يتلاشى، غفا... وسط الغموض أطلت على استحياء عينان عميقتان شديدتا السواد تسبح على بحر من الصفاء العميق.

... عيناك واحة في غربة الشيطان، والندى على وجهك الخمري برد وسلام... بحبك كما حب الأميرة شامة الملك حسان.

– تحبني... انت تحبني... إيه اللي تعرفه عن الحب يا ابن عبد الجليل، إيه اللي تعرفه عن الحب؟ بعد ما سلمت لك أنصاف السويسية عرضها، صرت تحسب نفسك أبو زيد الهلالي سلامة. تسمع في الليل فتحي سليمان الشاعر، تغنى له، مرة عن الهوى ومرة عن النزال و ركوب الخيل، ترجع الصبح والأرض مش حملاك، ديك منفوش، طب تشوف إزاي ضيق الرداء بالنهد، ولا وجيب القلب في انتظار عودتك، ولا صرخة الآه وأنت بتخطب م البنات كل من هب ودب، أنصاف السويسية ما كانت تهمني، في يوم كان لازم تغادر البلد وتعود منين ما جت، لكنك ما كنت تراني، آه يا ابن الكلب، إيه اللي تعرفه عن الحب وكل شيء تحصل عليه بالساهل، لا انت

سهرت من الجوي، ولا النوم جافي عِينَّيك، ولا في يوم حطيت صباعك في «فيشه» الكهرباء تبغي الانتحار.

– ليه يا بنت الناس بعدك مثل الجمل مخزنة.

– لأنه يصعب عليك لما تعرف إن اللي بتحبيه حمار، ماشي ورا أهله عاوج طاقيته زي عرف الديك، يعرضوه في سوق الجواز مثل اللي يبيع في سوق البهايم فحل، وأنا الحزينة يجيش قلبي من الفرح لما الخطوبة تبور، بتحبني يا ابن عبد الجليل... ليه؟ عمري ما أصدق... كنت بتخبط على باب دارنا، وأنت نازل من الجيش إجازة قبل ما تعدى تشوف أمك وأبوك، زي ما كنت تفعل مع بنت الغنايمة! وأنا اللي كنت كل يوم أتسمع أخبار الحرب، وقلبي يرتجف عليك، أفرح إنك لسه حي، وأنت راجع من سهرة ليل طويلة من عند واحدة خطبتها.

– كنت لسه صغيرة، كان عمرك اتناشر سنة لما دخلت الجيش.

– سبع سنين وأنا بحبك يا ابن المفحور، ولا انت داري، لا أَمِّلَّ الانتظار، أترصدك وأنت خارج، وأنت راجع، أصطدم بيك في طريقك، علك تراني بعينك اللي أصابها العمى، فالح بس تتعارك مع أولاد عبد الرؤوف، لما يعاكسوا البنات الراجعة بالليل في درب الوسطاني، وأنا عليٍّ باب الدار قاعدة في الضلمة آكل في نفسي.. يا ترى انفتحت دماغه ولا جرحه صغير، وهي بنت الحاج هباب فيها إيه عشان يضيع نفسه عليها، سبع سنين وأنا في انتظارك، ولما تجبني دارك تفوتني، وتقول لي عزمت على السفر، سبع سنين أتحمل الوحدة على فراش خالي، ولما تصير حليلي، أشم ريحتك، أريح جتتي

المشتاقة على صدرك تقول مهاجر... حرام عليك... دا بخت دا ولا قدر مكتوب؟

- دلوقت صرت حليلتي.

- حليلتك بعد ما ضيعت من عمري السنين، وأدى انت ماشي مهاجر كمن اشترى زوجة ورماها في مدود بهايمه ورحل، إيه... أسوى بيك إيه، وأنا لم يمر شهر من زواجي عليك، إيه راح أسوى من غيرك يا ابن عبد الجليل، وأنت بعيد عنى والفراش خالي، الرحمة يا ربي، ليه العذاب مكتوب على بني آدم.

- اتكلمي... لا تتوقفي عن الكلام، أعشق شفايفك المرجان، وفي العينين بحر الحنان، اتكلمى وأطلقي رأسك لليمين والشمال، مهرة في البيادى وعلى الشطآن، يطير شعرك الأسود على الوجه الجميل، يرخى على النهدين؛ فرخين حمام، يطل الفجر من ظلمة الليل الطويل، الآن أرقد في بحر السكون والعتمة، والليل يسجى على بخيمته الحالكة، لا نجوم ولا مصابيح، اتكلمى لا تمنعي شلالات الابتسام، لو أنني لم أضم فرعك العالي، حمرة الفخذين، وهج الشجن، سيل الحنين، لو لم ينحفر في الذهن طلاوة النهدين، ظهرك العاري، ما كنت آمنت بأني عبرت هذه الأرض، مين ينتشلني من جدب مفازة النفط، غير الذاكرة ووجهك الجميل، محاكمة الأعراب لنا طول زمن الاغتراب، الاتهام بالخيانة، والسب بالفقر، وأكل الفول، والمفاخرة بانتهاك عاهرات القاهرة والإسكندرية، وشبكات القوادة خاصة لما تديرها زوجة العقيد فلان، وكأنه أمر القصد منه الإساءة لسمعة الجيش المصري.

نسمع حكاياتهم، فخر غريب، غرور جيوش الفاتحين، نشوة الغزاة، اجتياح قبائل القرود للبندر، شاهرة سلاح الذهب، تخيم عليك رياح المذلة والهوان، عجيب لما يتحكم الأجلاف في الحضر. نام يا ابن عبد الجليل، نام، اهرب من المتع والترضيات اللي يحصلها الحاج حميدة من عاهرات الإسكندرية، ومن سرقة عجل سياراته الفاخرة في حواريها، ومن حكايات عارف المهينة لما يبقي كل اللي يحمله من ذكريات القاهرة تلجم اللسان بالحيرة...

اطلب الرحمة للي فات سدود، حسن مرعى، لما حرمت عليه القاهرة عريها المنهوك والمنتهك، ورمت به رمى الكلاب لغرفة وضيعة في حي من أقذر أحيائها، يداعب الكسل في بحر الحشيش، ويغيم مع الوسن في حضن بائعة اللبن.

صوت أنثوي منغوم تداعت ألحانه وسط شدو العصافير في فضاء مفعم بالفتنة، استرخى يرى امرأة شابة، تخرج من فناء منزل صغير، يقع على حد الغابة الغربي، حاملة بين يديها الحب والماء لحظائر الدواجن والطيور وثلاث عنزات صغار، لمحها مشمرة أكمامها، يتبدى ساعداها أبيضين كالقشدة، وعندما انحنت أمامه عب من لدونة ساقيها البضتين، وتقاسيم مؤخرتها القوية يبرزها سروالها الذهبي المقصب، تخطه خطوط حمراء عريضة زاهية، استدارت نحوه لا تراه، وجهها الحاسر مستدير ناصع البياض، مشوب بالحمرة الدافئة، شفتين ناضجتين كحبات الكرز، وبين جدائل شعرها الأسود الغزير ارتكز وجهها على عنق أملس طويل، حدقت في الأرجاء بعينين تملؤهما خضرة الغابة عائدة إلى منزلها، ظل يتابعها متلصصا، تروح وتجيء، تزيح جفاف الحياة الذكورية،

التي يعيشها منذ ثمانية أشهر، أمضاها منذ عودته من الوطن للمرة الثانية في مواقع العمل الشاق.

على امتداد زمن طويل ظل يسرق على مهل كل قطعة من جسدها، ساعديها، استدارة النهدين، كبر حجميهما، وجهها البدري الشبق، ومن المخيلة ظل يشكل مكدودا كل جزء لا يراه، ظهرها القوى العريض الخالي من الشحوم المقام على خصر ضيق وعجز فرس قوية، بطنها الكثيب، فرجة الساقين المصبوبتين من الرخام، حمرة النهدين القانية طائرين يقفزان على صدرها العريض، سرق جسدها وتاه به وصعد في خضم عينيها النجلاوين، وسط دخان السجائر...

عندما غفا ثانية تاه وسط الحشائش العالية، وفي نومه جرى خلفها، طاردها في جميع الأماكن، الصحراء القائظة، سفوح جبال الجنوب بين أشواك أشجارها القزمية، ذؤابات المياه لبحر بلا شاطئ، عندما اختفت خلف نجوم المجرة ظل يفتش عنها، وراء كل كوكب، وكل نجمة يجمع أشباهها، وأشباه ابتساماتها، ونظراتها الخدرة، وتلك العطوف، والمستنكرة، ونظراتها اللعوب، وخلف إحدى الجزر البدائية اصطدم بعنف بجسد غاب عنه الوجه، امتلأ كل كيانه بالشبق حتى صعد ذروة موجته، أسرع يستعدل من جسده وهي تتوه عنه ثانية، تتلاشى وسط الفضاء، وعندما فتح عينيه كانت الغابة تفوح برائحة الجنس.

عب دخان سيجارته بعمق، حاول ارتقاء جبل الشبق ثانية، تاركا جسده يستجلب أجساد النساء من أنحاء الذاكرة، تبادلته أمواج اللذة عاتية تطيح به بلطماتها، وهو يبحث عنها

في كل مكان، يجرى خلفها، تفر من أمامه عارية كجنية بحر، تملأ سطح المياه بالنشوة، وعندما اختفت كان يلهث.

تقلب على العشب، كان جسده الآن يرتطم بعنف، وأمواج النشوة تتقاذفه، ترك جسده معلقا بين التيارات المتعارضة والبحر إلى جزر بدائية شتى، مسافات لانهاية لها حتى عادت له جزيرته الأولى، عندما ألقاه الموج على سفحها مكفيا على وجهه، يمتشق جسدا ذهبيا، موغلا في الغوص، ممسكا بكل ملامحها في مخيلته، تتبخر مسام جسده تمتزج بالتربة الحمراء للغابة، يتلاشى كل شيء... يتلاشى الأفق... تتلاشى الذاكرة، يتجمع كل شيء في ذكورته، تيحيئه تضغط عليه بجسدها المهري، جاوبها باندفاع كشهاب يخترق الفضاء من العدم تنبعث النشوة، صاخبة حينا وحينا مراوغة، مرة كالعلقم وأخرى كالشهد، يجمع جسدها الشهواني بين جسده قبل انفراجة الشهوة في قيظ الاستواء الملتهب، لا يطفئه وجدا، ولا شلالات المطر المنهمر، إنما تجعله يخبو رويدا رويدا ثم ترحل تاركة وراءها مرارة العلقم، وصداعا في الرأس، وبللا في سرواله، قام في وهن ميمما شطر البراكات الخالية، وعلى فراشه المتسخ المصنوع من الإسفنج الرخيص تمدد ليرحل في غفوة من هامش العدم، استيقظ بعد غروب الشمس على محمود يطرق بابه.

- تعال يا وَلَه.

قام يجرى خلفه: جرى إيه يا واد يا محمود؟

شاهد المواقع الخاصة بالمهندس عبد العليم مضاءة كالنهار، والعمل قائم بها على قدم وساق، والقلاَبات المحملة بالخشب لا تتوقف عن القدوم، وقد تصاعد ضجيج

البلـدوزرات تحفـر كـل شـبر تسـتطيع الوصـول إليـه، كـان السـوريون يهـاجمون المواقـع المصريـة، جـرى كلاهمـا نحـو الموقـع وأمـام منشـآت خزانـات الميـاه الـتي لـم تصـل إليهـا البلـدوزرات بعـد، كـانوا يحـاولون إزالـة الخنـازير الخشـبية الخاصة بمواقع عبد العليم بك، تصديا لهم بالعصي، توقف السوريون وبدا أن الجميع على وشك الاشتباك، كانت عيون محمود تؤكد ما ينتويه... من بعيد ظهر أبو النديم مبتسما... تبادل وإياهما التحية. قال عبد الله لأبو النديم: الموقع متسور بالخشب.

- إيه... فهمت عليك...

عقب محمود: معقول يا أبو النديم، دا كلام.

- طول بالك شوي.

حـدث أحـد المهندسـين السـوريين، ودرئـا للعـراك، أشـار المهندس السوري لرجاله بالانصراف عن هذا الموقع... قبل أن يستدير راحلا قال وعلى وجهه سيماء الحزن:

- تدروا أيش جرى لنبيل؟
- صرخ عبد الله: لا! فيه حاجة.
- الشرطة قبضت عليه.
- إزاي؟
- زوج البنـت هاديـك، صـار يترصـده، ولمـا صـار هيـك سوى إلُه كمين.
- فين؟ عندها.
- لا... أنـتم مليـح اللـي غـادرتم درنـة، وإلا كنـتم مشـرفين معـاه بالسـجن، هـو دار شـغلانة مـو نظيفـة، ووضـع

عنـده دهـب وفلـوس وهيـك أشـياء وصـار يتهمـه بسرقتها.

ضرب عبد الله رأسه بقبضته في انزعاج، ومحمود يهتف:

- واه يا بوى، ضاع نبيل يا ولداه، ضيعته "القحبة".

زام أبو نديم: ولو، وقفت معه مثل الرجال، هلئ بتوقف له محامي وتزوره، وبعدها طالبة الطلاق من زوجها.

سأله عبد الله متجهما: امتي تنزل درنة.

- ليش بدك تروح إِلُه.
- ما في شك.
- لا، مـا تسـتطيع تقابلـه، بتعـرف أنـتم في موقـف لا تحسـدوا عليـه، اكتـب لـه رسـالة، وهيـك أشـياء، وأنـا بزوره كل ما بروح على درنة.
- نجمع له فلوس ونعطيها لك توصلها له.
- خلى عنك، مو محتاج، هي بتصرف عليه وبتقضي له كل أغراضه.
- ولو لازم فلوس له من أولاد بلده.

* * * *

في الصباح فـوجئ عبـد العلـيم بـاحتلال السـوريين لثلـثي مواقعـه، كـانوا قـد انتهـوا مـن الحفـر، وبـدأوا في صـب الخرسانات، وقف رجاله حائرين، ذهب يهز جسده الضخم يشتكي للحاج حميدة: هو نهب، هو نصب، هو احنا في غابة، دا كلام مـا يـنفعش، أنـا معـاى عقـد، هـو الشـغل مـالهوش صاحب.

لم يكن أحد يستمع إليه، وأمامه وقف مهندسان يكشران عن أنيابهما:

- احنا معنا أمر بالشغل من المهندس زياد.
- طبعا، سوري زيكم، أنا معاى عقد من بوزوى، الله يا حاج حميدة ساكت ليه؟

أجاب بلا مبالاة: المهندس زياد مدير الموقع، ها دول مهندسين، وأنا هنا ملاحظ.

- أنا ح أروح أكلم عمر بوزوى.
- لا تغلب نفسك، عمر بوزوى في إيطاليا، مو موجود.
- أكلم الأخ عمران.
- مسافر معه.

صاح بصوت عال: يعنى مسافرين وسايبين الموقع سايب.

حدثه المهندس غسان بغلظة: حدد كلامك يا باشمهندس، انت هنا مقاول، وعمر بوزوى ما يسافر ويترك الموقع سايب، عندك مدير الموقع المهندس زياد كلمه.

- أيوه أنا أعرف إزاي أكلمه، دا عقد، ارفع بيه قضية على مؤسسة النصر.
- خلاص هذا موضوع آخر، أتفضل هو موجود بمكتبه بالإدارة.

واستدار تاركا إياه حيث كان سيد يشتبك مع أحد سائقي عربة الخلط الخراسانية السودانيين يحاول منعه من صب الخرسانة بالقواعد وهو يصرخ: دي ورشة الدبابات الخير كله فيها، القاعدة فيها بمكسب عمارة، انتم عالم كفرة.

يجيبه السوداني بلطف: يا زول بَعِّد ما تصيح، هاذي أوامر المهندسين.

شاهد المهندس السوري قادما فرفع من صخبه وبقي السائق في عربته حائرا نادى عليه المهندس غسان: كيفك عم إبراهيم، هيا، رد للوراء، هيا يا إخوان مستحيل هيك، بدك تعطل العمل!

تراجع سيد وهو لا يتوقف عن الشكوى فلما شاهد عبد العليم ينسحب، تهاوت مقاومته، وتراجع مقهورا والخرسانة تنساب تملأ قواعد ورشة الدبابات.

عندما عاد عبد العليم في الظهيرة، علم الجميع أن اتفاقا قد تم، بأن يستكمل السوريون عملهم في المواقع التي استولوا عليها، ويؤجل الموقف بأكمله لحين مجيء عمر بوزوى، على أن تتحول سيارات الخشب منذ هذا اليوم إلى مواقع المهندس عبد العليم، الذي جلس أمام الكشك الذي ابتناه محمود بجوار المخزن يندب حظه:

– يعني انت يا سيد إيه لزمتك، شايف السوريين بياكلوا الخشب أكل، يسرقوه زي الشياطين، جن مصور، وأنتم تاكلوا وتشربوا وتمرعوا، وآخر يوم في الشهر لو مليم اتأخر تموتوا عليه، ما هو شغلي شغلكم، ورزقي رزقكم، لما يكون عندي شغل مين يشتغل غير المصريين، بس مصريين إيه؟ الله ينعلكم وينعل جدودكم، تاكلوا في بعض زي الديدان، شوف السوريين، عصابة تقوم قومه راجل واحد. نظر إلى سيد، حرام عليك لقمة العيش اللي بتاكلها، كنت فين يا "سبع البرمبة"، كنتم قاعدين تحششوا.

لم يأت على ذكر محمود بكلمة، كان يعلم أنه الوحيد الذي استطاع أن يحتفظ له ببعض المواقع، كان يفكر... أين ذهب الخشب، شهر ونصف ولم تدخل مواقعه سوى ثلاث شاحنات خشب، أقام بها الشدة الخشبية لمبنى القيادة ومحطة البنزين فقط، في الوقت الذي زرع السوريون ثلاثة عشر مبنى من المباني الضخمة.

- بتعملوا إيه يا بهايم يا ولاد الكلاب.

وقف سيد أمامه غاضبا: بقولك إيه... روق دمك... انت ناسي إنهم واخدين الشغل لحسابهم... احنا بنشتغل باليومية... أيوه فوق... فوق لنفسك وما تندبش زي المرة... انت عارف انت بتعطيني كام، تسعين دينار، باشتغل لك ملاحظ ومهندس وسباك وخفير، واشترى لك اللحمة والخضار، وأصلح لك العربية، ومش عاجب، كمان مدير مخازن، ومحاسب، وصراف، اتقى الله يا مؤمن، جرى لك إيه... انت عارف السوريين بيعيشوا إزاي... أسرة واحدة ياكلوا ويشربوا مع بعض، مش زي حضرتك عامل بيه واحنا عبيدك. لا... ظنك أموت نفسي عشان خاطرك، أفتح مطوة ولا سكينة، أضرب بيها حد منهم، بأمارة إيه بقي... عيالي اللي ح يتيتموا، ولا العيش والحلاوة اللي عمرك ما ح تبعتهم لي وأنا في السجن، إذا كان حد ح يشوفك، ما احنا بنشتغل عبيد عندك، خدامين عند سعادة البيه، والله العظيم ما أنا مشتغل... هه... واستدار راحلا.

جرى خلفه محمود وبعض العمال، وأمسكوا به، لكنه أصر على الرحيل، تخلص منهم وأسرع نحوه صارخا، وعبد العليم ينظره مذهولا: احنا بهايم... عيال... احنا ولاد كلب، طب على

الطلاق بالتلاتة لآنى تارك الشغل معاك، ونبقي نشوف يا خمورجى يا سُكري، يا اللي عايش في الحرام ح تعمل إيه.

لم ينطق ببنت شفة... رمشت عيناه وتغضن وجهه، ثم سقط على الأرض مصابا بأزمة قلبية حادة. في المستشفى تراجع سيد عن قسمه وقال: أنا نصوم تلات أيام عشان خاطره، لأنه في المستشفى، وهو مصري، واجب علينا نعمل فيه خير، بس اليهودي أحسن منه... وعاد سيد للعمل، الآن يعلم أن عبد العليم لا يستغنى عنه.

- ٢ -

عندما عاد عمر بوزوى من الخارج ذهب إليه عبد العليم شاكيا، تعلل المهندس زياد ببطء العمل وتأخيره في مواقع عبد العليم.

– في الموقع ما في فرق بين حدا، سوري فلسطيني، مصري... ليبي، كلنا نخدم عمر بوزوى، أنا لو تأخر سوري أطرده بره، وأدخل عبد العليم بك، وما تظن أعمل هيك من شأن أنا سوري وأنت مصري، حتى المقاولين اللي أخذوا العمل ما فيهم حدا سوري. أيده المهندس الفلسطيني عارف.

حاول عبد العليم أن يشرح لبوزوى أن مقاولي الباطن سوريون يعملون لحساب زياد، وأنه يأخذ منهم عمولات وقمسيونات، أما الفلسطينيون فتابعون لعارف، لكنه توقف عن الحديث، كان يوشك أن ينتهك أحد أسرار المهنة، تابو متعارف عليه بين المهندسين والمقاولين، لو أنه استطاع أن

يشتري أحدهم لفعل، اكتفي بأن يشكو لبوزوى ندرة الخشب، أجابه بدهشة: ليش ما تاخد في الخشب.

- يا عمر بيه بيخطفوه، أنا اشتكيت للحاج حميدة وقف ساكت، قال مصلحة بوزوى. قاطعه حميدة مقطب الجبين: واصلك ثلاثمائة متر خشب، والله أكثر من نصيبك، وابتسم معتزا بنفسه.

صرخ عبد العليم: كام، ثلاثمائة متر؟!، أنا كل اللي وصلني (69) متر فقط...

قطب بوزوى من جبينه متسائلا: الباقي وين؟ والتفت يحدث حميدة، توا تعمل جرد للخشب. هاج عبد العليم: يعمل جرد للخشب، أنا عايز اشتغل يا عمر بيه.

قال بوزوي: باهي نزل للمهندس عبد العليم الخشب بيش ما يتعطل، وتعمل انت وزياد لجنة جرد للخشب بالموقع، بلكي عند السوريين. أنا نخرج السوريين من المواقع اللي نزلوها، وتبقي للمؤسسة تحت إشراف المهندس عبد العليم، بس أنا نبي سباق بينك وبينهم، بيش ما تظن إنك تأخذ في المواقع تخللها، لازم يصير فيه شغل من نار.

ظهرت السعادة على وجه عبد العليم بك لقد رفعه بوزوى ليصير في مرتبة زياد، قال وهو لا يستطيع أن يخفي سعادته: أنا تحت أمرك يا عمر بيه، تحت أمرك.

قبل أن يركب السيارة ناداه فتى ليبي: المهندس زياد يبيك. نزل مسرعا والتأفف يعلو وجهه: فين؟

- في مكتبه.

استقبله المهندس زياد في ترحاب وابتسامة واسعة تملأ وجهه.

– ما تغضب مني عبد العليم بك، هادى سوق العمل وأنا أعمل في خدمة عمر بوزوى، وتهمني مصلحته، تعلم، الليبيين ها دول هوائيين، صاحب الأمس ينقلب عليك اليوم... أنا ما ظليت بمكاني هون إلا لسبب وحيد، في مصلحة العمل ما أعرف أخي، انت تظن إن اللي حدث سوريين ومصريين، لا... لا وألف لا، وأكرر، العمل عندك بطيء ما في شك، أسمح لي مافي مهندسين يساعدوك، أنا أعلم إن تربطك بعمر بمصلحة، وإن فيه توصية من أصدقاء عمر بالقاهرة، وأعرف إنكم تبوا تعملوا مع بعض في القاهرة هذا خير ما في شك.

– والله يا باشمهندس زياد اللي حصل دا لا يسر ولا يخرج من ناس أودام، وأنا اعرف إنك ابن أودام، أنا عشت في بيروت ستاشر سنة، من سنة التأميم، لي أصحاب وأصدقاء سوريين كتير وحتى اليوم، اشتغلنا مع بعض وعملنا بزنس مع بعض.

ضحك زياد: بزنس، هو دا الكلام، اسمع... انت أسلوبك في العمل هنا شوية مو صحيح عرفت كيف؟

– كيف... بصرني يا أخي.

– أنت، تبي تاخد كل العمل، مو هيك يصير مقبول.

قاطعه في عصبية، وظل يحلف بأغلظ الأيمانات ينفي هذا الأمر: لا والله، لا والله العظيم ما خطر في بالى كلام من ده.

– اسمع عليَّ، هذا ما فيه عيب، لكن أقول لك المشكلة، اسمع عليِّ، اسمع عليِّ.

وعندما توقف عبد العليم عن حديثه العصبي استطرد: انت بدك تكسب... مو هيك؟ هادا مو عيب، لكن مو على حساب الوقت، مو على حساب الجودة.

- لا. اتهام غير مقبول، مش أسلوب للكلام.

- بَعِرّفْ... بَعِرَفْ... مو قصدي، أصبر على شوي، انت تريد تعمل كل الشغل بنفسك وهذا ما يصير، لازم يدخل مقاولين باطن، مقاول هنا، ومقاول هناك، هذا يكسب درهم وأنت تكسب ليرة، بوزوى دينار، وهاذاك ينافس هذا، انت رجل أعمال كبير وما يصير أنا أوعيك.

- يا سيدي أيدي على أيدك، عندك مقاولين؟ دلني عليهم أنزلهم من الصبح.

- أيوه ومو سوريين أحسن تظن إن لي مصلحة... فكر عبد العليم... لك مصلحة؟ طبعا لك عشرين مصلحة... استطرد زياد: ومن شان تطمئن... هم ليبيين.

- بس الليبيين؟

- يا أخي اسمع الكلام، بدك تدق الحديد بالحديد مو بالنحاس، بدلك على مقاول ليبي، تصير إلك عند عمر بوزوى وعمران والحاج حميدة كلمة مليحة.

- يا سيدي ماشي، وأنا تحت أمرك.

فهم زياد مقصده وابتسم في تواطؤ. استطرد: يا باشمهندس زياد احنا مصلحتنا مع بعض، تأكد ولو عايزني أمشي، أترك الموقع فورا.

- متشكر كتير على هذا الشعور، اليوم بده يكون عندك بالموقع.

- وأنا في انتظاره.

خرج عبد العليم بك من مكتب زياد كفأر يهرب من مصيدة، وكان ذهن محمود بعد أن علم بنية حميدة على جرد الخشب، هوة يتقاتل بها كلبان، وذئب، وحنشان، أيهرب اليوم أم ينتظر، كل شيء صار معدا، ولم يبق على صرف عبد العليم لمستخلص هذا الشهر سوى ثلاثة عشر يوما، في صباح اليوم التالي لم يجلس على مقعدته للحظة، كان يمد البصر إلى الطريق القادم من بوابة المعسكر يحاول أن يلمح كل سيارة تمر، متوقعا وصول لجنة الجرد بها، وعندما تنحني السيارة بعيدا كان يتنفس الصعداء، في اليوم التالي علم بسفر المهندس زياد ما استدعى تأجيل لجنة الجرد لحين عودته.

خلال ثلاثة أيام كان علي الزواوي المقاول الذي أرسله زياد للمهندس عبد العليم قد حفر خمسة مواقع بآلياته الحديثة، وبدأت الخلاطات في صب القواعد بالخرسانة، وأخذت مجموعات العمل المصريين الذين أحضرهم في العمل تحت إشراف المهندس عبد العليم، الذي تفجرت مشاعره بالسعادة، والفرح، والشعور بالقتامة؛ إذ أنه لم يستسغ أيضا أن تقل أرباحه، وعندما صرف أول مستخلص حدث المقاول الليبي متفكها: احنا لنا نسبة ف المستخلص.

– ليه؟ المستخلص كله باسمك يا باشمهندس.

– مش دا يا على يا زواوى، ما أنا عارف إن المستخلص دا بتاعي، وأنت فيه مقاول باطن عندي، أنا بتكلم عن المستخلص اللي ح اصرفه لك من شغل المواقع اللي أخذها أولاد الهرمة السوريين.

- نسبة ليش، ما اتفقنا.
- إشراف يا أخي، هو أنا أتعب نفسي ببلاش.
- باهي يا باشمهندس، أمرك، اللي تبيه خده، بس الشغل هيك ما يسوى.
- لا... يسوى يا على يا زواوى، عاوز 10%.
- كتير والله يا باشمهندس عبد العليم.
- لا مش كتير.
- المستخلص يصير كام.
- أربعين ألف دينار، لي فيه أربعة آلاف.
- خليهم 5%.
- لا... 10% يعني 10%.
- أمرك يا باشمهندس.

صمت على الزواوى قليلا ثم قام مقتربا من عبد العليم:

- تبي الحق ولا ابن عمه؟

أجاب عبد العليم مستاء: بتهزر يا زواوي: الحق طبعا.

- انت ما يحق لك شيء.

صاح مهتاجا: إزاي؟

- وطي صوتك واسمعني، هو انت اللي عطتني العمل؟
- لا
- خلاص ما يحق لك شيء عندي، النسبة حق المهندس زياد.

قال بصخب وهياج: هو المهندس زياد بيشرف على شغلك، أو يستلمه، أو ح يحسب المستخلص معاك، إيه يا

زواوى فوق، انت لا معاك مهندس ولا حاجة، ثم أنا اللي بوقع المستخلص.

- بدك تشتغل مهندس عندي.
- عندك!
- باهي إذا، أعطيك 150 دينار في الشهر.

صرخ بأعلى صوته: ليه... دا أنا أتعشى بيهم في ليلة.

- هدى نفسك، تبي أربعة آلاف، أنا نعطيك ستة، زيد المستخلص ستين ألف.

تساءل: ستين ألف، طب إزاي.

- زيد الحفر.
- ما هو محسوب، آه!!! أزور في المستخلص.
- هه، من وين أجيب دنانير، بلكي أطبع لك.
- عشرة آلاف دينار.
- باهي عبد العليم بك.

- 4 -

كان يوما قائظا مرًّا كالعلقم، أصلت به شمس الصيف الحارة الأرض دون هوادة، ومنذ الصباح الباكر نزل العمال المصريون على أعمالهم بعيون زائغة وأكتاف متهدلة، منكسة وجوههم الكابية إلى الأرض وقد التصق بهم ظلهم المكسور المرتعد والعداء يحيط بهم من كل جانب، وقد فهم هجوم السوريين على مواقع عبد العليم أنه إهانة للمصريين، عمت شائعة سرقة الخشب الموقع بأكمله، كانت قلوبهم مع رجل

لا يعرفونه إلا لكونه مصريا، وكان عجزهم يشلهم، ذهب عبد العليم بك ومعه محمود للشركة لاستلام المستخلص، وعندما تفرقوا لأعمالهم، انهمر عليهم طوال اليوم سيل من الاتهامات، قاوموا وهم في حالة دفاع المتواصل، والحاج حميدة يدور في الموقع كالمجنون، يسبقه سيل من السباب القذر:

– فوال، هيا أسرع يا فوال، سلكاوى، اتفضل يا صاحب السعادة، هيا أسرع يا سلاكة، غلابة يا مصرية، شو المصرية شعب صابر مسكين، هذا معروف عنهم، يضربوا بالكرابيج آلاف السنين، بس شنو تقول يشهد ربي الشيطان، ها دول مو فراعنة، الفراعنة شعب آخر.

والشمس تقترب من كبد السماء أنهت إحدى عربات خلط الخرسانة، صب قواعد مستودعات السيارات، بقي بها قليل من الخرسانة، نودي على مرعى العامل المسئول عن الصب وقيل له:

– إرمى الخرسانة الباقية في قواعد السور.

كان السور يبعد حوالي نصف كيلومتر، ركب بعض العمال بجوار سائق الخلاطة السوداني، ووقف البقية على الرفرفين، عنَّ لمرعى أن يقف على السلم الخلفي للخلاط ويغنى، كيف لمحه الحاج حميدة؟ وكيف انشقت الأرض عنه؟ إذ فجأة شوهدت سيارته الجيب الزرقاء تنهب الطريق الترابية لتعترض سيارة الخلط، نزل قافزا ككلب مسعور، والسائق ينظره في تعجب، قفز العمال المصرية جميعا بعيدا عنها والسباب ينهال عليهم، تركهم جريا إلى مؤخرة العربة، حيث كان مرعى لا يزال يعتلي سلمها الصغير.

- انزل يا "شرموط"، انزل يا تيس يا قواد.

وقف مرعى مثل طريدة بأعلى شجرة بأسفلها ذئب يكشر عن أنيابه، تردد للحظات لكن حجرا فح بجوار رأسه جعله يقفز، قبل أن يفيق كان الحاج فوقه يكيل له الضربات بقدميه ويديه، أخفي رأسه بين يديه، تجمع عشرات من العمال والمقاولين يشاهدون إحدى نوبات ساديته، تقدم عبد الله ببطء ووضع جسده بين الحاج حميدة وبين مرعى، توقف الحاج حميدة عن الركل بالقدم، ظل يضرب بقبضته خاصرة عبد الله، وعبد الله صامتا مقطب الجبين زاما شفتيه في غضب، دقائق طويلة قبل أن يتقدم مفتاح وجبران ليغلا يدى الحاج حميدة ويجذبانه للخلف، أخذ عبد الله مرعى جانبا، التقت عيناه بعيني الحاج حميدة، كانتا مملوءتين بالوعيد، قبل أن يرحل عائدا إلى عمله صاح به مفتاح: عبد الله، هادى البطاقة تبعك.

استدار نحوه: شنو مكتوب.

قرأ أبو نديم بصوت عال: بطاقة المحاربين القدماء.

جذب عبد الله بطاقته بعنف وعاد راحلا، وأبو نديم ينادى عليه:

- تعال يا راجل تعال هون يا بطل لشو زعلان؟

في نهاية يوم العمل، ذهب إلى مكتب المهندسين يبحث عن الصبي الذي اعتذر قائلا: الحاج حميدة قال لي أوعاك تترك البوفيه، هي البرّاكة فين يا عم عبد الله.

أشار له ناحية الجنوب الغربي وقال: تروح تسأل.

- باهى يا عم عبد الله، أنا أجي في الليل.

حذره: خد بالك، ما تنفردش بالمسعور دا أحسن يضرك.

- ما تخافش يا خال.

تمدد أمام البرَّاكة تحت خيمة الليل، ومرعى يروى قصته مع الحاج حميدة بلهجة صفراء. لم يكن يشعر بالإهانة، فالكل هنا معرض للضرب، قال المبروك:

- ما تزعلش، حميدة خايف على صوابعك من سيور الخلاط.

قاطعه عطا الله مقطبا وجهه: تقصد خايف على الخلاطة من صابع مرعى.

قال مرعى بخجل: بس لو ما كانش يضرب بالطوب.

قال محمود ساخرا: صحيح أمك جابت راجل يا مرعى يا منياوى يا ابن الكلب.

استطرد عطا الله: آه يا وِلْد، أمك ولدتك، ومكتوب على جبينك الحاج حميدة.

ضحكوا، حتى مرعى ابتسم بخجل. قال المبروك وهو يشعل النار لعمل الشاي:

- الضرب ضرب، بالطوب أو بالجزمة يا روح أمك، المرة الجاية ح تقول والنبي يا حاج حميدة اضربني بمسطرة التلامذة.

قال مرعي: يعنى هو الواحد قابل بكيفه، حكم الرزق.

عقب عبد الله: طول ما الكلب منا يتحمل الإهانة، وضرب الطوب ح ننضرب بالجزم، واللي يقبل ح يقرفص ويركبوه.

قاطعهم محمود: وحق النبي لو كنت هناك كنت كسرت له رقبته.

عقب المبروك ساخرا: وحق النبي انت كنت عارف وشايف بس اختفيت.

انتفض محمود: أنا!

قال المبروك هازئا: في مشاكلك.

كان يشير من طرف خفي إلى الخشب المسروق، وقف كل منهما قبالة الآخر موشكين على العراك، جذب عبد الله محمود من الخلف، وأخذه جانبا، في حين أدار المبروك رأسه جهة عطا الله وهو يدمدم.

فُتح الباب وأطل وجه صغير تنم ملامحه عن القلق والتوجس، هتف الفتى:

- الخال عبد الله موجود.

صاح به المبروك: ادخل يا رضا... تعال.

دخل الصبي مجهدا. قال عبد الله: شد الحلة والأطباق من تحت السرير وكل.

قال الفتى وهو يلهث من التعب: أشكرك يا خال، أنام أحسن.

- ليه يا بني لازم تاكل؟

- أصلي تعبان.

استدار عبد الله: فين المبروك، قوم هات له أكل

زأر المبروك: هو اللي ح يخدمنا ولا احنا اللي ح نخدمه، كل يا رضا، وبعدين نام عندك سرير فاضي، أفرش عليه فرشة بعد ما تاكل.

- حاضر يا خال مبروك.

عندما وقفا خارج البرَّاكة نظر كل منهما للآخر بتربص، كان محمود يستطلع في نظرات عبد الله معنى ما، لكن عبد الله أبقي على نظراته خاوية، قال محمود مترددا: لازم تسيب الشغل من بكرة انت والمبروك.

تساءل عبد الله: ليه؟

- الحاج حميدة ناوي لك على نية. أنا سمعت النهارده من سيد.
- من أمتي بتخاف يا محمود.
- أنا بحذركم، أنتم أخواتي.
- حذر نفسك يا محمود، اللي انت ماشي فيه مش ح ينفعك، أحسن لك انت لم أغراضك وأمشى.
- ليه، يعني يا مكسور الرجل فاكرني سرقت الخشب؟

قال عبد الله وهو يستدير عائدا: ما عرفش، حالك يحكى عنك، مع السلامة.

سمعه محمود فكأنه إيذانا بالانفصال، صاح به:

- بكرة نتقابل. لكن عبد الله أغلق الباب خلفه.

للحظات وقف محمود مترددا مهتاجا، وذهنه يهتف سوف يصيبهم ضرر بالغ، السجن، لكنى نبهتهم.

عندما استدار عبد الله عائدا، كان وجه رفيقه قد تاه وسط الليل، في البرَّاكة وجد الصبي يغط مجهدا في نوم عميق، غطاه بإحدى البطانيات القديمة، وكان الجميع قد تجهز للنوم.

في ظهيرة اليوم التالي، ضرب لودر يقوده فلسطيني مكاتب المهندس عبد العليم المقامة في مواقع ورش السيارات، وكان قد طلب منه نقلها لكنه تلكأ، تجمع عمال الموقع كله، وكاد أن يحدث اشتباك لولا تدخل مهندس سوري طلب إعطاء عبد العليم مهلة أخرى، صاح المهندس الفلسطيني عارف: بعد أسبوع بدخل البلدوزرات تقلعه، ما في وقت للكاعة، الجيش بده يستلم المواقع، باهى يا خوي.

عاد الجميع إلى مواقعهم، يتحدثون، سباب وشتائم وكراهية مقيتة رددت نفس المعاني بلهجات مصرية، سورية، فلسطينية، ليبية. ألفاظ واحدة منتقاة لنفس اللغة الأم، لكنات مختلفة لكن قلوب تنبض بالكراهية والمقت والمرارة.

قرب العصر انفجر الموقف بأكمله، إذ باغتت الشرطة عبد العليم بك متلبسا بالرشوة من على الزواوي؛ كان كمينا أعد له بمهارة، ليس لأنه مرتشٍ فقد كانت العمولات والقومسيونات قانون المنضدة السوداء الذي كتب بحروف خفية، تقال ولا تكتب، كان الأمر خاصا بالسيطرة على سوق المقاولات. وعلى طول الطريق، تجمع العمال والصنايعية ومقاولو الباطن والمهندسون وسائقو الآليات، مصريون وفلسطينيون وسوريون وليبيون يشاهدون عبد العليم بك مقبوضا عليه في سيارة الشرطة إلى قسم القوراشة، شوهدت الدموع تتساقط من عينيه على وجهه الأجعد، يمسحها بمنديله الناصع البياض، ويديه الضخمتين ترتعشان وهو يهمهم:

- عايز محامي بدى محامي.

قبل أن يخطو من العربة إلى القسم همس مدير المؤسسة: ما تخاف شيء عمر بوزوى يحب المصريين.

قضى الأمر في عشر دقائق، تراجع على الزواوى عن اتهامه، وأُقفل المحضر. قبل أن يُفتح وغادروا... كان فيض من الكلام محبوسا داخله، كل ما ردده:

- أنا كَبَرتْ، صحتي ما عادت تستحمل، لازم أرجع مصر، أنا ح أموت هنا.

في مكتب الشركة وقَّع على أوراق فسخ العقد وهو صامت لا يتكلم، خرج مدير المؤسسة، وبقي زياد، وبينما كان يجمع أوراقه دخلت امرأة شابة، فارعة الطول، بيضاء جميلة هتف في داخله، هذه مريم زوجة زياد.

- ليه السوريين يعملوا كده في المصريين؟

هز زياد رأسه نافيا: احنا ما عملنا شيء، ليش، انت فاكر إن احنا دبرنا كل هيك.

- يا أخي دا أنا عندي ذبحة صدرية، مش انت اللي باعته لي.

- مين؟ الزواوي، أقسم بشرفي ما بعرف شيء، وعلى كل حال آسفين يا أخي آسفي، حتى أنا حكيت مع عمر بوزوى، قلت له يا عمر ما بيصير هيك، الرجال بعده كبير ويروح فيها، ما بيتحمل سجن، لا انت فاكر إن أنا اللي فعل هيك، مطلقا وحياة أبي ما فعلنا هيك.

قال عبد العليم بانفعال: أقسم بالله السوريين... قلت لك ستاشر سنة في بيروت وأنا معاشرهم، كنا أصحاب وكنا أصدقاء، وكنا بنختلف لكن ما كان بيصير مثل هيك، بهدلة

وفضيحة، وشرطة، ليه؟ انت ما بتاخد عمولة من المقاولين السوريين تبعك؟ هه يعني انت ما بتاخد؟ قول، قول يا باشمهندس زياد.

نظر إليه مندهشا، وهو يصيح في وجهه بانفعال، أوقفه صوت مريم البارد:

- مو هيك يا عبد العليم بك، مو هيك، هذا سوق عمل، الأخ بيتقاتل فيه مع أخوه، يذبحه إذا بيقدر، أيش دخل مصر وسوريا بالموضوع، انت كان بدك تقلعنا، مو هيك يا رجل الأعمال الكريم، احنا في بلاد النفط الأسود مو في الجمهورية العربية المتحدة. نادت على زياد باستهانة: عمر بوزوى بده إياك، هيا.

انطلقت خارجة وخلفها زوجها، لملم عبد العليم نفسه وقام راحلا.

- 6 -

في الثامنة مساء وبعد تناول العشاء طرق باب البرَّاكة طرقا خفيفا، وعلى الباب وقف محمد السوداني وخلفه مفتاح وجبران، ألقوا على الجالسين التحية، وعندما بدأ عبد الله في تنظيف الجوزة ابتسموا جميعا. قال محمد السوداني: الأخوة يبوا[65]، وأشار بيده إلى رأسه. افتر وجهه عن ابتسامة واسعة، لمعت عيناه وقال: يعمروا المزاج.

– أيووه، صاح جبران... نعمر المزاج، هز رأسه مؤكدا.

---

65) يبوا: يريدون

- باهي.

لـدقائق طويلـة نظفـت الجـوزة جيـدا، وملئـت بالميـاه المثلجـة، وأشـعلت النـار في جمـرات الخشـب، وبينما كانـت أكـواب الشـاي تقـدم للجالسـين، أخـرج عبـد الله قطعـة الحشـيش، دفـع مفتـاح إليـه بقطعـة أكـبر، رفـض عبـد الله بإصرار... هز مفتاح رأسه: بس شوف هادى.

فتح عبد الله عينيه الواسعتين وتشممها: أيوه... صنف معتبر. أجاب مفتاح بثقة: طبعا تذوق يا أخي. ارتكز عبد الله بجسده الضخم على فخديه: تمام، بس خذ ودوق دي...

وضع كل منهما قطعتي الحشيش تحت ضرسه يعتركها، وقبل أن ينطق مفتاح سبقه عبد الله: على أية حال حطها في جيبك اليوم أنتم ضيوفنا.

انتقلـوا جميعـا إلى الخـارج، جلسـوا في الليـل الـدافئ أمـام البرَّاكة، ولنصف ساعة تجمع في المكان أبو نديم بصحبة ثلاثة مـن الشـبان الفلسـطينيين، تحـدثوا كثيرا عـن أم كلثـوم، وعبـد الحلـيم، وفـيروز، والأكـلات الشـعبية، وتبـادلوا القفشـات والنكات، كان نصيب الحـاج حميدة النصيب الأكثر، وظلل المكان ضحكات عالية، وبعد ساعة كان الحشيش قد وحدهم.

عنـدما لمـح محمـد السـوداني ظـلال الدهشـة والشـك في عيون المبروك، مال عليه وهمس: اسأل عم عطا الله الذي قال: أصلهم ما كنوش مصدقين إنه مصاب حرب، لما حكيت لهم قالوا هذا مو مصاب حرب هذا ثور حرب.

عقب المبروك: إيه اللي عرفهم؟

- البطاقة.

في آخر الليل أمسك عبد الله بالربابة وغنى:

عمال أحايل في بختي مش راضي...
وأنا كل ما قول له سير بالعدل مش راضي...
لي حبيب عنى ليه مش راضي...
ومن عوايده يصالح ناس ويرضى...(*)

- 7 -

في منتصف الليل لم يشعر عبد العليم بك بصوت الباب وهو يفتح، كان قد أمضى يوما قلقا، صفى خلاله أعماله بالمؤسسة، بجواره حقيبة الرواتب الخاصة بالعمل، وبها ما صرفه بالأمس من آخر مستحقاته، مستخلصات قيمتها خمسة وستون ألفاً من الدنانير، متى فتح باب غرفة نوم عبد العليم، كان محمود يعلم بوجودها، وكان يعلم أنه يجب أن يكون قد اخترق الحدود الليبية المصرية قبل مرور ثماني ساعات.

عندما تحرك عبد العليم بك، بجسده الضخم لم تر عيناه المفتوحتان عن آخرهما سوى النصل الحاد للسكين الطويلة وهي تنغرس في منتصف قلبه، لم يتح له الصراخ، حتى التأوه، وعندما تركه محمود كان فمه وعيناه مفتوحين عن آخرها والدم يملأ الفراش.

في الصالة الخارجية خلع محمود ملابسه وفي جراب جلدي وضع النقود حول جسده، ثم عاد يرتدى ملابسه، وعلى الشاطئ الداخلي لبحيرات بنغازي ألقى بالملابس المخضبة بالدم، وانطلق بعدها إلى حي الفندق، حيث تنتظره

سيارة بيجو، انطلقت به كالسهم في طريقها إلى مدينة مساعد الحدودية، حيث لا نقاط تفتيش ولا مراكز مرور للعربات المتجهة إلى الحدود المصرية.

في الحادية عشرة من صباح اليوم التالي، كان عبد الله يقف على حافة إحدى الشدات الخشبية، والمبروك يناوله ألواحا من الخشب، سمعا صياحا يأتيهما عن بعد: عبد الله، تعال... تعال.

كان جبران يقود سيارة جيب صفراء، وبجواره جلس مفتاح يندفعان نحوهما بسرعة هائلة، صرت فرامل السيارة وتصاعد غبار كثيف.

- وين مبروك؟ وين مبروك؟
- أهو...
- هيا. هيا يا راجل أقفز... تعال.
- إيه فيه إيه؟
- أنتم مو أصحاب محمود؟
- نعم، إيه جرى؟
- هيا ما في وقت، الزامل قتل المهندس عبد العليم والشرطة بتدور فيكم.

وجم عبد الله للحظات، وصرخ فيهما مفتاح: هيا... هيا.

صاح بالمبروك: وهم يقفزون معا لمؤخرة السيارة:

- طب وحاجتنا، أغراضنا وفلوسنا؟

قال جبران: أنا نحفظها لكم.

انطلقت السيارة نحو الغابة حيث عبرت في طريقها سيارة الشرطة القادمة، في منتصف الطريق نزل جبران، صاح بمفتاح: اذهب الحوش عندي، وأنا بعود أعرف الأخبار.

– ليش أنا أخذهم عندي، ثم أنا نجى معك.

قال عبد الله متوترا: لازم تعدى للشرطة تثبت أن احنا كنا معاكم طول الليل.

أجابه مفتاح وجبران معا: ما تخاف ولا تتهز شعرة من رأسك.

عقب عبد الله: كمان كان أبو النديم: أيوه كان معنا دلوقت، وهو راح يقابل الشرطة ليقول نفس الكلام. تنهد عبد الله طويلا، وهو يعصر رأسه بين يديه، وقد حل عليه الصمت.

* * * *

في الصابرى لأول مرة منذ دخوله ليبيا دخل منزلا ليبيا، استقبلوه بحفاوة بالغة، خرجت له الأم وجلست تحادثه بلكنة مستعصية على الفهم، ومفتاح يغمغم في فخر، هذا بطل حرب. ثم خرج عائدا للموقع، قالت العجوز كلاما كثيرا بالكاد فهم أطرافه مثل؛ نحنا نحب مصر والتليفزيون المصري، المصرية شاطرة، أنا نجوز أخوه لمصرية، قالت كلاما كثيرا فهم منه أنها تخفف عنه، وفي الظهيرة عندما آن أوان الطعام، خرجت زوجة مفتاح كاشفة عن وجهها الجميل، وهى تعد لهم مائدة طعام الغذاء، ثبتا بصريهما في الأرض، وانكمشا يعصرهما الخجل، وكأن سفور زوجة صديقهما أول اعتراف بآدميته، الغضب والامتنان والحنين إلى الوطن، وهلة ثم غفوا في نوم مضطرب، في المساء حضر مفتاح وجبران وأبو نديم حيث كان كل شيء قد أنتهى، أصر عبد الله على العودة إلى البرَّاكة، على مدخل المعسكر وجد رضا جالسا بانتظاره.

– رضا! عامل إيه يا ابني؟

- عال.
- ما تروح بقي، قاعد هنا تعمل إيه؟
- ليه يا خال أروح أنا، ولا تروح أنت، طب ح نعمل إيه؟
- ليه؟ هو الوطن اختفي ولا إيه؟

من على مبعدة شاهد جمعا من العمال، غمغم... فضحتنا يا محمود يا ابن الكلب.

- إزيكم وكيف الحال، هو كان صاحبكم؟
- نعم بس زمن الغربة غير زمن الحرب؟
- وعملت الشرطة إيه معاكم؟
- اتركني، أنا تعبان، عايز أنام.

جذبه رضا للداخل، قال يخفف عنه: قلقان وتاعب نفسك يا خال، ملايين بتعدي الحدود، عايزه تاكل، تحسن من طعم الغموس.

- ملايين بتعدي الحدود، حقيقة دي ولا خيال؟
- الجوع، نام يا خال، بكره الصباح رباح.
- نام يا بني نام... أشفق عليك القول، بأن هذا الليل بلا صباح.

جفاك النوم يا ابن عبد الجليل... النوم جفاك... والليل طويل من غير رفيق... ليه نتحمل البؤس، ليه نتحمل الإهانة، لما افتقدنا في الوطن الشعور بالكرامة.

* * * *

الفصل الرابع والعشرون

جفاك النوم يا ابن عبد الجليل... النوم جفاك... والليل طويل من غير رفيق... ليه نتحمل البؤس، ليه نتحمل الإهانة، لما افتقدنا في الوطن الشعور بالكرامة.
جفاك النوم... النوم جفاك... والليل طويل من غير رفيق... والذكريات لهب تحت الرماد... بحره عمقها الزمن... الطفولة والصبا والشباب، قصص قصيرة عن المحبوب، جنون هوى مشبوب، والهوى هو سدود.

أذكر الأستاذ "سمير مجر"، الشاب الصغير السن، لما أطل علينا من قرية دمليج كان التلاميذ زهور تعوم في بحر البلادة، وهيئة التدريس رمياهم في المداود مع الغنم، وعلى جسور الترع يرعوا زي الفراخ والبط، لأن الأولوية عندهم للتجارة في

البهـايم، والانضـباط في حضـور أسـواق السـبت والاثنـين والخميس، والكتابة والحساب في إجادة عقود شرك البهايم.

لما دخلنا الفصل فوجئنا به «مذنب» ثلاثة أرباع الفصل، وتعـددت الـتهم؛ التـأخير، الـدخول دون اسـتئذان، حضـور المدرسة حافين، والزى المدرسي جلاليب، القشف، الوسخ على الأجساد قراريط، يقلب بأصابعه الدقيقة ملابس الأطفال الداخلية، تظهر بقع حمراء لنفايات براغيث، بق، قمل.

لحظتهـا أعلـن الحـرب ضـد الوسـاخة، وسـاخة الجسـد والعقل، ولم تمض ستة أشهر حتى كانت المدرسة مرسومة بألوان زاهية، وصور فرعونية جميلة، معابد مقدسة، الملك مينا، وعربات أحمس ورمسيس الثاني الحربية، وصور رموز الاستقلال؛ مصطفي كامل، وعرابي وسعد وعبد الناصر، وبدأ التدريب الشاق على العروض الرياضية والمسرحية.

قبل نهاية العـام الثاني لقدومه، كان المحـافظ في سـدود يشـيد بـالعروض الرياضـية والمسرحيات الـتي قـدمتها مـدارس القرية الثلاث.

أذكـر احتفـالات المـدارس بعيـد النصر، كنـا نسـير حـاملين الطبلة النقارة، نعزف المارشـات العسكرية، كل تلميذ يرتـدى حذاء كاوتش، بدون شراب، وفانلة صبغتها أمك بعد ما هددتها بأنـك ح تـرمى نفسـك تحـت القطـر، شـورت أبـيض أطـول مـن لباس أبـوك عبـد الجليل، هـوووه نضرب الطبـول بقـوة... لأن العمدة قال طابور العرض يتوقف عليكم.

كـل مـا كـان يجـرى كـان فخـرا لمعلمـك الأسـتاذ سـمير، الأمهـات انهمكـوا في صـبغ الفـانلات، وخياطـة مرايـل التيـل، المتــاجر امــتلأت بالأحذيــة الكــاوتش، افتتــاح المدرســة

الإعداديـة، والتبرعـات لمدرسـة ثانويـة، المدرسـين يهرولـوا بطـول الطابور، في عيونهم نظرة التشـجيع والثقة، والتلاميذ طلبة وطالبات تنشد في عزم وحماس الأغاني... من نسر مصر ارتفع إلى والله زمان يا سلاحي اشتقت لك في كفاحي.

امتى افتقـدنا الاهتمام... لما الأسـتاذ خلف مسـك حسـن حمـاد في آخـر دكـة بالفصـل يمـارس الاسـتمناء، ومـن فـين يوجعك هات يا ضرب، كان يقوله ح أقطعه لك يا ابن خضرة اللئيمة يا نطع يا ابن النطع.

امتى افتقـدنا الشـعور بـالاحترام، لما الأسـتاذ فـرج مـدرس اللغة العربية والدين فعل أمامنا الحرام، كان غريب عن البلد، أخنف، عجوز، وجهه كوجه البوم، العصا لا تترك أيده، في كل يوم يوزع نصيب الفصل من المعونة الغذائية المدرسية تلات أجـزاء، تلتـين لولديـه؛ أحمـد وعـادل، يقـول لهمـا بصـوته الأخنف، وكل تلميذ في الفصل ينظر لهم التلاتة بغل: خد يا احمد منابك.

أدى ثلث حقوقنا راح، ثم يعطى الثلث الثاني لعادل: وأنت يا عادل خد منابك.

أدى الثلـث الثـاني راح، يكـتم الفصـل ضـحكته خـايف مـن عصـاه، لـم يبـق إلا الثلـث الأخـير يوزعـه عـلى الفصـل؛ سـتة وثلاثين طالب وطالبة، ولا يبدو على وجهه الخجل، ويمكن تكون الحصة حصة دين.

لما أرسل البسيوني وسيف في حصة النحو، يشتروا له من الغيط حزمة قصب، رجعوا بعد نص ساعة، ومعاهم لبشة قصـب، لـم يعجبـه الـثمن، غاليـة نـص قـرش، حصـة النحـو

تحولت لدرس في الضرب، وبعود خيزران ظل يضرب الاثنين، كل واحد على رجليه.

- كنت فين؟
- بجيب القصب يا افندي.
- هو دا قصب يا بن الكلب انت وهو... دا زعازيع!

والفصل كاتم نفسه من الضحك.

امتى افتقدنا الشعور بالضمير، وإرادة الاجتهاد، لما الأستاذ عصام ربيع قفل علينا باب الفصل، وباع امتحان المواد الاجتماعية في الظلام بجنية، كل تلميذ رجع يسأل أبوه ثمن الامتحان، كان أسهل جنية حصلنا عليه... لم ينهرنا أحد... لم نواجه بالاعتراض، لم يخبرنا الكبار بأن دا خطأ كبير، وأن هذا هو بداية التدمير.

امتى انهارت قيم الحق والحقيقة، أمتي أصبح الغش فضيلة، والصدق رزيلة، أمتي انهار الجدية في طلب العلم والاجتهاد من أجل النجاح، لما اتفق الأهالي مع إدارة المدرسة، وهيئة التدريس على رشوة لجان الامتحان، هكذا بدأت طقوس الغش الجماعي...

... ياه دا الفساد كان عميق...

البلهارسيا، كنا ناخد عشر حقن، كل حقنة عشرين سنتيمتر، عذاب، وعلاج ولا علاج البهايم، ورغم كده قصفت رجال في عمر الشباب.

امتي اكتشفنا أن الاستقامة ليس لها سعر في هذا الوطن، لما يضيع من الذاكرة الأستاذ "مصطفي عياد" شهيد الصرامة والجدية في العمل، مات في عز الشباب عفيف اليد، بلا تمثال

يقدس فيه نبل القيم، ولا تأبين يعيد على السامعين، فداحة الشرف في زكم يحكم فيه اللصوص، ويُعبَد دين الفساد.

امتى افتقدنا الشعور بالأمان والاهتمام بالحصول على مكان في الـوطن، لمـا اختلـف الشـباب عـلى مجلـس إدارة النـادي، وانقسمت البلد نصين، أكترية شباب النواحي تطلب التغيير، وأقلية مع مجلس الإدارة القديم، الشيخ فلان والحاج علان والأستاذ كذا، وعندما تـم الانتخـاب نجـح الشـباب، مجلـس جديد كلـه حمـاس، ورغبـة في امـتلاك حريتـه، وقبـل مـا يبـدأ المجلـس الجديـد عملـه، كانـت شـكاوى الشـيوخ وأصـحاب مصالح لا تفصح عـن نفسـها عنـد المحـافظ، تحـذره بأن اللي تعرفه أحسن من...!

بجرة قلم أطاح الغبي بشعور متمكن في الصدور، بأن هذا الوطن يتم بناؤه بمشاركة أبنائه، أمر بحل المجلس المنتخب ضارب برأى الأغلبية عرض الحائط، وعين مجلس إدارة من عنده، مجلس عجيب وغريب، أول طلب طلبه من الشباب أن يجلسوا في دورهم، ويتوقفوا عن الذهاب لمركز الشباب، وأن الفتى المحترم يقعد يذاكر في داره، طيب والفتى المحترم يعمل إيه في وقت الفراغ؟

لا تتعب دماغك لن تجد من يفهمك، دهس الغبي بكعب حذائـه اللامـع أحلامـا عـن المسـتقبل، وإيمـان عنـد الشـباب بوجـود مكان في الـوطن، وأن الكلـب وكل كلـب آخـر يجـب أن يعلـم أن الانتمـاء يبتـدئ مـن الحـق المقـدس لحريـة الفـرد في الاختيار، وأن البشر من أي جنس ولون ليسوا في حاجة لوصاية أغبياء مهزومين منافقين، لصوص وأصحاب مصالح سرية.

بعدها بأسبوع أتهاجم النادي بالليل، اتسرق منه كل شيء، الطاولة، الشطرنج، ترابيزة البنج بونج، وشبكة الكرة الطائرة، وأوزان الحديد وثلاث كور قدم، اتحملت على حمارة حسن مرعى، كان انتقاما من المحافظ، الموظف الكبير اللي قاعد في المحافظة ياخد قراره، هدفه هذا الطلسم العجيب المسمى بالأمن واستتباب النظام العفن. أما الذي حدث فيما بعد، نصف الشباب لعب الكرة في المستنقعات الواقعة خلف الكنيسة وقبلي البلد، أما النصف الثاني عشق السهر على صوت أم كلثوم الشجي، والسباحة على مهاد الحشيش الزئبقية.

أذكر أنه كان يحضر من القاهرة كل عام الأستاذ خميس، يظل ينبح في صوته شهرا في بروفات مسرحية، حيث لا تخلو مسرحية من تعريض بالعمدة.

كان رضوان يقول: منطق... إزاي ح نعرض الغريب لكامي، ولا الذباب لسارتر، وبعد شهر من العذاب يأتي يوم العرض، أول ما تيجي سيرة العمدة سواء بالخير أو بالشر يتحول المسرح لضلمة، وكرسي هنا وكرسي هناك وتالت في الكلوب، يتعارك الجميع، وفي الآخر يقول الكبار: من خرج من داره اتقل مقداره، الشاب المحترم يقعد في بيته، الآن لا تفهم لماذا ترتسم الدهشة على الوجوه عندما تعلم أن كثيرا من الشباب يتعاطى الحشيش، ويشرب الخمر، ويوصى العائدين من السفر بإحضار زجاجات النبيذ والويسكي الفاخرة.

الذكريات لهب تحت الرماد...

بحرة عمقها الزمن...

والذاكرة تاريخ للأشياء... الطفولة والصبا والشباب...

قصص قصيرة عن المحبوب... جنون هوى مشبوب...

والهوى هو سدود...

لما اتهجم على النادي وانسرق واتحقق الانتقام، كنت أشعر أمام رضوان وحسن مرعى بالاحترام، بالإعجاب الشديد لحسن خليل وأحمد عبد الحليم، رجال كبار، لا يوجد لديهم سؤال تصعب الإجابة عليه، كل شيء في الكون موصوف، معلوم ومجرب، تتسع أفواهنا، وتومض العيون، عندما يتكلم حسن عن الشعور الباطن، عن الأنا والهو والمجتمع الكبير، والبرود الحاصل من ختان البنات، وأن الإنسان انعكاس لبيئته، أما الحياة فموقف ما بين الجبر والاختيار، مثل ما قال ابن رشد، إنك تستطيع أن تختار لكن في دائرة جهنمية من الجبر، وأن هذا المجتمع مقفول لا يعطى أبناءه مسارات للمرور.

الحشيش بحر من الكسل... من الترف الثقيل... زي ما تكون نايم على فراش هارون الرشيد، بين الوجود التقيل للسلطانة زبيدة، وخزائن العباسة، تلك التي تحتوي على الذهب والنفائس، وتلك التي تحتوي على الشبق العميق للجواري الذي لا يجد من يشبعه، أو عائم على البحيرة الزئبقية للأمير خماروية، وبؤبؤ العينين يهيم ببطء بحثا عن عرى الخيزرانة، تنهل منه شبقا ولا ارتواء...

الحشيش عالم من الضباب تتوه فيه الوجوه، يموت الزمن عنده ولا يقف، ويحل فيه الوجود الحقيقي لمن خرج عن طوع الكبار... الصراط المستقيم والقانون الجهنمي الذي صنعه الآباء للأبناء، وأولئك الذين لفظتهم القاهرة... الساحرة العجوز العاهرة... كل الذي كان خارج اللحظة عبث... غير حقيقي... هكذا كان يحكى رضوان عبد الجليل ابن عمى الكبير.

الرجال النافذون، بدل تلمع، ربطات عنق وعيون مطفأة، قفا عريض وخواتم ذهب وفصوص لؤلؤية، تتشدق أفواههم الكلبية عن الاشتراكية والحرية والمساواة بين الأثرياء والفقراء... المضاجعة الذهنية للبنات التي ترتدي الميني جوب. وسلاسلهن الذهبية... أفخاذهن البضة الناصعة... سيقان النساء ونهر النهود خلف مقود السيارات المسرعة، تنهش مخيلتك، الرغبة في رؤية المزيد من اللحم الجنسي... لا تجده... لا تحصل عليه ولن... اللعنة إذن على شهوة تخلف وراءها جسدا مضنيً، وعقلا خصيا.

كنت أشوف رضوان يتكلم، ألمح عينيه تائهة بعيد، أحس بالاحترام، وأشعر أن داخله حزن دفين يدفنه في الحشيش.

أحمد عبد الحليم، تاجر مواشي صغير، يصلح راديوهات، ويصنع إن أراد غسالات، ثلاجات، ومَكَن، يتحدى إن كان هناك شيء يستعصى. عليه، كان يسير في الشوارع في جلبابه الناصع النظيف برشاقة وخيلاء، عاري الرأس حينا، وحينا متوجا بطاقيته المنتقاة، ماسك عصا خيزران أو مصنوعة من غصن زيتون، تراه وكأنه أمير، لم ينس أبدا أنه الوحيد بين الرفاق الذي لم يذهب إلى مدرسة، وإن كان عقله الذهب وكل ما يعرفه ويستطيع معرفته من حِرَفْ لن يرفعه بوصة عما هو عليه، فأدمن الحشيش حتى النخاع، ولو أن شيئا في الدنيا أطلعني كيف تكون عزة النفس لن يكون سواه.

أحمد عبد الحليم، أبوه الذي قتل بليل وهو عائد من السوق، وأخوه الذي رحل إلى القاهرة العاهرة، ولا يعود إلا في الأعياد ومعه أطفاله العشرة من زوجتين طلباً للنقود، الآن يريد بيع نصيبه في الدار الصغيرة ليتزوج الثالثة، يصرخ فينا:

- مِنْ فين نسد حنكه بالفلوس؟

يجيبه حسن خليل بتثاقل، وصوته ينضح باللامبالاة والسخرية: مش أنتم قاعدين في الدار، يضرب دماغه في الحيط، لا تشترى منه ولا يحزنون، ما تسألش فيه.

- ح يبيع للجار ع المشاع.

يرد محمد أبو عزام ببساطة: سيبه يبيع، حقه ح تمنعه عنه ليه.

يرد أحمد في غضب: هي الدار تساع، دا أنا حسبت نصيبي فيها لقيته تلاتة متر طول في اتنين متر عرض.

يضج الجميع بالضحك، ينتشر الصخب في فضاء المقعد الكبير... يباغته شاكر مخلوف بنبرة جد: بالمنافع ولا من غير.

تطقطق الجدران من الصخب وقسوة المفارقة... يتابعه رضوان: طب يقدر أرسطو يحل دي؟

تزيد القهقهات، ترتفع، تتحد، تنتقل من الحلوق للعقول، عنيفة تزلزل المكان كالعواصف، وتهبط كموج البحر، في الدماغ انبساط يُكابد الألم، والانبساط يزيح الألَم العميق بالحشيش... دائما تجد واحدا يقول: خلاص يا ولاد الكلب ح تفوقونا... ح تطيروا حتة الحشيش م الدماغ.

في الليل ينهمك العشماوي في غسل البرطمان، مية الطلمبة المثلجة، سيخ الحديد المحمي يخترق عنق الجوزة، والبوصة، والحجارة، يسلكهم، تشم رائحة الخشب المحروق من رشق جمر السيخ في القلب، حفيشة مهمته يولَع المنقد، يُرص القوالح مرة على هيئة هرم ومرة مربعات، ويمد يده إلى السقف يشد غلف كوز ذرة يشعل به النار في الحطب، وعندما

يرتفع اللهب، يميل أحمد عبد الحليم على قطعة رخام نظيفة، أُحضرت خصيصا من أجل هذا العمل الهام، وينهمك في صمت بمطواته الحامية، ينكب على قطعة الرخام اللازورد المقدّس باهتمام، مثل باحث دكتوراه في علم الخلايا، يقسمها قطع صغيرة، ثم يفركها بحركة مخصوصة تحت ضرسه، يرصها قطعةً جنب قطعة، عندما ينتهى من غسل أوراق المعسل، ويرصه على الحجر، من هنا يبدأ السمر.

الحشيش بحر من الكسل، من الترف الثقيل، يموت فيه الزمن التعيس، زمن الغضب، زمن افتقاد الهدف، زمن الشعور بأن المستقبل ملك للآخرين، أما فيما يخصنا فهو طريق مقفول، الغد مثل الأمس، ولا أمل في الخلاص.

الحشيش بحر من الكسل، يحل فيه الوجود الحقيقي للذين لفظتهم القاهرة، الساحرة العجوز، العاهرة، عندما تبدأ صناعة البهجة، يعلو الضباب السُندسي، يتحول كل الذي خارج اللحظة إلى عبث، غير حقيقي، يتحد في داخلها كل المريدين، المحلّقين حول جمره، كل المحبين السابحين في عطره.

... الهدوء والسكينة، صناعة الأهداف البديلة، الطرب بالسخرية من الذات، الشعور بالعزة المفقودة، والتوحد العام مع صوت أم كُلثوم، وعمر الخيام، وعبد الحكيم عامر القائد العام، وجيشه المغوار الذي تولى الدفاع عن الوطن بإدمان الحشيش، وإحكام الحصار حول العاهرات، وقادة الشرطة محترفي سحق البشر، ومسح الجزم بالقانون، اللصوص العظام اللي مهمتهم إقامة القانون وحفظ النظام.

رضوان كان سيّد الجميع، عاش طول عمره متفوق على طلبة القرية، كان الأهالي يباهون به أبناءهم، لما طلع الأول في

الثانوية العامة صمم على دخول كليه العلوم، قال: هندسة إيه يا بجم، الرياضة أم العلوم، وخاصة البحتة وقسم الفلك، في القاهرة تاه، رسب سنة ورا سنة، والحلم الكبير ضاع على جوزة ومنقد آخر الليل، وبعد زمن ترك القاهرة العجوز، رجع يقول الحياة كون فسيح، واحنا ذرة ضئيلة جاءت إلى الوجود صدفة، وربما بالخطأ.

وبعد عراك وصراخ وضرب، انفصل وحده في المقْعَدْ[66] العالي... محدش فاهم حد، الكراهية بذور تنتشر في كل زرعة أمل، عنكبوت مسموم يمد خيوطه في الأنحاء بدأب غريب، في مقعده العلوي كنا نلاقي أدوات غريبة، تليسكوب وأحجار شطرنج وزهور جفّت لا تزال تحتفظ بعبقها الجميل، فراشات في زجاجات، وخرائط عليها رسوم النجوم، وخطابات عن الحب لم ترسل.

كنا نجد عشرات الكتب، لغات أعجمية بحروف منمنمة ورسوم غريبة الشكل، بعضها كتب عن كيفية صناعة الإحباط، والأساليب الحديثة في زراعة اليأس، والنظر في الظلام والعمى في النهار، والابتسام للسخافة، وكيفية نمو الشخوص السمجة، والبكاء عندما يجب الضحك، ومذكرات كتبها عن ألف طريقة وطريقة ناجحة، وثبت مفعولها عن الحرث في البحر، والصعود إلى الفضاء على مراكب من أشعة القمر.

الفلاحين نفاية... هو كان للحرب غاية، إذن تبا لك ولأحلامك الهلالية، تلك التي ماتت قبل أن تولد... وتلك التي ولدت بلا أجنحة، تبا لك ولأحلامك الهلالية التي سقطت

66) المقْعَدْ: حجرة من الطين اللبني، تبني على سطح الدور الريفية الطينية

وهي طائرة، وتلك التي ضاعت في الفضاء، لأن بحار الظلمات والجزر المسحورة وشياطين العالم والجنيات الساحرة، أرحم من القاهرة تلك العاهرة.

- إزاي تحب بنت جميلة، وانت ببنطلون قديم مقيح مرقع، وقميص وحيد ياقته مهترئة وفانلتك زي المنخُل مخرمة، إزاي تقرب منها وسيقانها محفوظة في جزم برقبة من الجلد الطبيعي، عندما تجلس في المدرجات ينكشف باطن الفخذين المقدس... طيب ح تكلمها... ولا ح تكلم النهود، هضبتين عاليتين بينهما نهر صغير، تراه ونظرك ينسرق خلفه، تريد أن تبحر على نهره، حيث تختفي سلاسلها الذهب، كي تكتشف مصبه ومنتهاه، ونظرات الامتعاض والاحتقار سد منيع، وكأننا كلاب جربانة، وهو احنا كلمنا حد منهم ، دا احنا فلاحين، عشان تعاكس، أو تتعرف على بنت منهم، لازم تعرف تفرق بين الجاموسة وبنت خالك مِسعدة، دا الواحد منا أول ما وعى، وعى على أمه مستنية أبوه وهى غاسله شعرها بالجاز، ومرطبة أيديها قبل ما تنام بالجلة.

حسن مرعى أوقات لما كان يجلس في أول المدرج، كان يحلم باليوم اللي فيه بنت تقرب ناحيته، لكنه بالنسبة لهم كان كلب أجرب، كانت البنت تلف تقعد هناك عند آخر الطرف الآخر، ولما تدخل الطالبات واحدة ورا واحدة، يظل يحلم طول المحاضرة باللحظة التي ستصبح واحدة منهن جواره، يتوقف صف البنات عن التقدم، يبقي مقعد خالٍ في انتظار فتى قاهري خليع، تنادى عليه واحدة من الطالبات.

في نهاية المحاضرة عند مدخل المدرج، حيث يتزاحم الطلبة لحظة الخروج والدخول دفعوه بشدة، اصطدم

بحورية منهم، شقراء متبرجة فائرة الجسد، يلمع بريق الذهب على صدرها، يتدلى شعرها الغجري على قرط ضخم في هوج مجنون، كتلة من الذهب وكتلة من اللهب، كائن من كوكب بعيد عن الفلاحين، دفعته بطرف ايدها امام الدفعة بقرف، تمنى لو انشقت الأرض وبلعته، ظن أن كل من في المدرج رآه، وأقسم وهو في طريقه عائد إلى حجرته، أنه لن يذهب إلى الجامعة بعد اليوم إلا في ملابس جديدة، وفعل.

... يحكى حسن: لما تتعود الكسل والاستيقاظ في الضحى، والنزول للسير في شوارع القاهرة ظهراً بلا غاية، وهو المنوفي الذي لا يعرف الكسل، اختيار المكان المناسب في الترام يقتنص مذعورا قنص الهوام، ثم يغادر الترام حزيناً كارهاً لنفسه، يمضي- في شوارع القاهرة العاهرة يأكل ذاته، لأنه أفضل من هذه الدنايا...

في النهاية ضاع العام الدراسي الأول، والثاني أمضاه في حجرته بين الحشيش وبائعة اللبن، امرأة رشيقة في الخامسة والثلاثين شديدة السمرة، خالية الجمال، لكنه الاشتياق وإرضاء مطالب الجسد الذي مر عليه بالضبط ثماني سنوات من يوم ما عرف سن البلوغ، تأتيه باكرا وقد فرغت الشقة من الطلبة والموظفين، وهو لم ينل من النوم سوى ساعتين بعد سهرة حشيش، وتتركه مهدود الحيل، مكدود الذهن، عاجزاً عن مغادرة الفراش وقد أضناه الوهن، تمضى الأيام على هذه الحال، تدخل عليه تقضى منه وطرها وهو بين اليقظة والنوم، يشعر بها كأضغاث أحلام، ثم تتركه جثة هامدة.

لم يذهب حتى لدفع المصاريف، عندما علم أبوه طرده من الدار... فتوقف عن الدراسة وبقي في القرية لا ينتقل منها، مكتفيا بصحبته ولعن الوجود.

لما كبرت وضاع الفرق في السن، كنت أمضي. إجازة الجيش مع الصحاب، نسهر في الليل تضيع الملامح في ضباب الحشيش، والجدع من يعب الحشيش عباً، يشد نار الحجر حتى يلتهب الجمر، وتطير على سطحه ذؤابات اللهب الخالص بين صفرة داكنة وزرقة فسفورية، والجدع من يبلع النفس، يحبسه داخل الرئتين مدة من الزمن، قبل أن يخرج من الأنف والفم نسايم طرية.

هالات كثيرة انطفت... حسن خليل اللي تقيأ جوفه بعد ما تقّل في عيار الحشيش، حلة العدس اللي أكلها كلها سرقة من أمه، وبرتقال مثلج عشان يبرد جوفه... رضوان لما رفع السكينة على "ابوه" يطالبه بالفلوس... وحسن خليل لما بعت لحميدة رسائل الغرام على ورق قرمزي، مرسوم على أطرافه سهام الحب وقلب، طلب صورتها عشان يحتفظ بيها في المحفظة جنب قلبه، وراح يحوم حول دارها مثلما حام قيس في حمى ديار ليلى، ترنو له بنظرة من خلف خصاص النوافذ، يصطرع بسهام عيونها المعمصة، يخرج في الفجر ينتظرها على المحطة لما ييجي موعد القطار وهى رايحة المدرسة تضحك له ضحكة خفيفة، يعطيها رسالة غرام، تعطيه قطعة لبان، ملبسة، يترك آخر محاضرة، لأجل يلحقها في الظهيرة ياخد منها الرد، في ليلة غاب عنها القمر، انضرب حسن، لم يعرف من الذي ضربه، ولا من خطف العباية

والعصا، حدث له نوع من الرعب، لم يمض شهر حتى كانت الزوجة الثالثة لرجل عجوز، كل ما يملكه مال وطين وأرض...

مع الزمن تاه حسن، صار يمضي الليل في المقابر، بين عواء ابن آوى وأرواح الذين سكنوا القبور، يكتب قصائد عن الموت وظلمة الوجود، ويحكى إن أم كُلثوم ح تدخل الجنة رغم أن ما تقوله رجس(بعيد بعيد وحدينا)، فلا يوجد رجل وامرأة في خلوة إلا وكان ثالثهما الشيطان، وهذا قول فصل، أما أنها ستدخل الجنة فذلك لأن العالم زبالة، حثالة، هوام كُتل حشرات، ويحكى أن ابن الفارض كتب قصيدة من سبعمائة بيت في توحد الذات الإلهية، ويستطرد بعين زائغة:

- ربما كتبهم في ذاته، بعد أن توحد الوجود وحل فيه الله.

يقاطعه حسن خليل: يا كافر يا ابن الكلب...

- ما تسألش فيهم، دول شوية بهايم، شعب جاهل، يفهم إيه عن وحدة الوجود والحلول، إلا إذا كانت الحلة حلة بصارة وفول... اللعنة... إذا ما كان دا بغاء، نوعا من بغاء العقل، لأنه إذا كان العشق العفيف جريمة يبقي البغاء ضرورة، وإلا مشاعر الإنسان السوي ح يفرغها فين، إما الشذوذ السلوكي أو الكبت، والكبت قيد غير مرئي زي نسيج العنكبوت، يلف على العقل يسجنه، يضغط عليه، يخلق فيه مناطق تشوه، ورم سرطان، يتحول العقل الجميل دون إدراك، إلى سلوك مشوه مدمر، ربما للغير، وربما للذات، يقول حسن بخبث: طب مين يحل دي؟

يقول رضوان: فرويد وعاجز، وأبيقور يعلقوا لك مشنقة.

يتساءل أحمد عبد الحليم: ليه ما تكون عفيف.

- رجعنا للبداية... عفيف لما تكون عندك تمنتاشر سنة يا جحش، تكفيك نظرة من عيون الحبيب تحفظها في زلعة مش، وتحلم بيها طول أسبوع، لمسة من أنامل رقيقة، تهمس كما أجنحة الفراشات، وتغيب وفي جوفك لهب، لكن لما تشيخ ويصير عمرك تلاتين سنة، ولا زلت عاجزا عن أن تمارس الجنس، تتوحد مع طبيعتك، مش ح يكفيك الاستمناء مع أجساد النساء المصورة في مجلات من ورق مصقول.

يـرد حسـن خليـل: كـل شيء دافعـه الجـنس... حـتى بـين الطفل وأمه فيه علاقة.

يترك حسن مرعى الجوزة فوراً، يقاطعه وابتسامة عريضة على وجهه:

- يعني حضرتك كنت عاشق لامك... امشي يا جحش...

يضج الجميع بالضحك، إلا حسن خليل كان يرفع نظارته ويرد بتجهم: طبعا جاهل حمار، فاكر الناس طوب ودبش، إذا كان عقل أبوك أصغر من عقل دابة، ح يكون عقلك إيه؟ عقل صرصار.

تلتمع العيون بأمواج من ابتسامات التهكم، يسبح الجميع في بحـر من السخرية اللاذعـة مع العالم والوجـود، يسـوطون الذات، برغم ذلك لم تكن فتاة أحلامهم تقل جمالا عن مارلين مـونرو، برجريـت بـاردو، سـالومى رمـوز الجـنس، وأن قصـص حبهم ستكون أعنف من قصص الحب العذري لقيس وليلى، وكثير وعزة، وعبلة وعنترة العبسي.

جفاك النوم يا ابن عبد الجليل...

والذكريات لهب تحت الرماد

سدود بحيرة ناعسة تسكن الهدوء... الحياة خارجها طريق للضآلة... للموت... النبذ من عموم الناس، تقبل الأمر الواقع في ترفع وبلادة، إذ أنه أشرف من مجاراة العادة والأخلاق القديمة التي تقتل الطموح والمعرفة، وتخفي حياة الكآبة، جوع الشيوخ خلف الوقار، والشرور للنفاق، وللجشع والطمع والسيطرة على مقادير الآخرين، ونفس الشعور للآباء، المقت، الكراهية الغضب لأحلام حقيقية تم وأدها.

ظل الظهيرة الناعس تحت أشجار الكافور على جسر المصرف الكبير، حيث يحلو تراشق الأفكار والنظر في شئون الكون، حسن كان يتكلم بجدية وكأنه في حالة حرب: بيكون قال: انس كل القضايا القديمة الموروثة والأحكام القبلية، وتعامل مع التجربة في الواقع الحي كي تخرج بنتائج صحيحة، لأن استخدام أي معيار سابق تاريخيا عن الواقع لقياس الفعل الإنساني سيعطيك نتائج غلط...

- زي كده ما توزن القمح بالمتر الطولي، وتقيس النجوم بالشبر والفدان بالوزن، تبا لك ولأحلامك الهلالية... كل شيء يتقدم والجنيه المصري يتأخر، والشقق تقفل أبوابها على الفراغ، والفلاحين نفاية، ديدان صغيرة تعيش على ظهر النيل، منذ أكثر من ألفي عام، وهم تحت احتلال كل غرباء العالم... مصر وُهِبَت لعمرو بن العاص لقاء خدعته للإمام علي، وعندما اغتصبت الخلافة قطعت السلاطين علاقتهم بالإسلام الأصولي لحساب دين معاوية المنافق، السؤال الكبير... من أوقع الفلاحين وخيرات الوطن في شباك معاوية المنافق... قوة المعتقد أم قوة السلاح؟ من كبح الفلاحين الذين آمنوا بمحمد

رسول الله عن الثورة ضد الاستبداد المعاوى[67] طوال هذا الزمن؟ من أبقي على مصر محمية تنتج القمح للخلافة السياسية، والمجاعات والطواعين تسحقها؟ من أطاح بشخصيتها ومن أعادها لها؟

قال حسن خليل: نابليون بونابرت

– - أبدا... مصر بزغت من جديد لما نطق حجر رشيد... مش بونابرت اللي أعادها لعجلة التاريخ... الحجر لما نطق... ماذا تفعل قوة الأفكار... ماذا أنتجت الرسالة التي تركها الفراعنة لأحفادهم؟ ... اكتشاف الذات... الشفاء من الفصام الجمعي التاريخي...

يهز حسن مرعى رأسه غاضبا: انت ح تكفر يا كمال؟

– لا... ارصد معي هول الحقائق... مئات السنين والنيل يغذى الآخرين... البطالمة اللي يدينوا بآمون... روما الوثنية ورومية المسيحية... الإسلام المعاوى في دمشق وبغداد... الإستانة... ستمائة عام تحت حكم المجلوبين والعبيد المماليك... أرصد معي هول الحقائق، وقف معي بصلابة أمام الواقع التاريخي... عندما اكتشفت تاريخها القديم وتوقفت عن أن تكون تكية للآخرين... عندما اكتشفنا أنها مهد حضارة الإنسان، أنها من وهبت له الأخلاق... نظرة إلى الماضي السحيق، اختراق لطبقات الوعى، قفزتين إلى عالم الغد... لن يصمد شيء أمام العالم الجديد... سوف تتلاشى قوميات، وتمحى شعوب، وتترسخ أخرى... تتضاءل أديان، وتسقط

67) المعاوى: نسبة إلى معاوية بن أبي سفيان

أيديولوجيات، وتبزغ أخرى... ولن يكون ثمة وجود إلا لقداسة العلم والعمل وحرية إنسانية بلا حدود...

– والفلاحين.

– الفلاحين نفاية، لم يعد لهم مكان في هذا الزمان... لما جاء عرابي في آخر المطاف وخرج الفلاحون وراءه على امتداد الوادي، ليعلن على الملا وفرائصه ترتعد، بعد أن اتهموه بالكفر... نحن نؤمن بالخلافة العثمانية، إذ كيف يمكن أن تعيش مصر بدون قهر اسمه الخلافة، حتى لو كانت خلافة البربر... وزعم أنه يبقي على الخديوي توفيق حاكما على مصر... ماذا كان يريد عرابي إذن... أن يستعرض الفلاحين أمام الخديوي!، وكيف تتحرر مصر من عبوديتها لأي أجنبي حتى ولو كان عبدا مملوكا؟

اكتب في داخلك إذن؛ عن التماسك والقلق... التماسك القديم والقلق الجديد والقصيدة اللولبية وتائية ابن الفارض... لأن القصيدة اللولبية هي التي كتبت على الورق ثم تقرطست في قراطيس يباع فيها اللب والطعمية... اكتب إذن في داخلك أن أحداً لم يدعنا إلى الوليمة، فإذا جاءت الهزيمة فليس لنا بها شأن، وإذا أراد مسئول أن يواجه نفسه، فليسألها من ينتج الفساد والإحباط واليأس العام، فإذا لم يجد إجابة فليتنحى، ربما تتغير الدوال في هذه المسألة المعقدة... لكن هؤلاء بغال... أرأيت بغلا يحاسب نفسه... والأفضل أن تعيد عرض المسألة قائلا... أرأيت ذئابا وخز ضمائرها التهامها للأغنام...

هذا شعب من الأغنام، وهذه مراع للقتل، هذا شعب أنتزع الطغاة عقله بأظفارهم القذرة، وألقوا به لصفائح القمامة،

وأبقوا لنا نمطية الخوف، وحدسية الغزالي، وسلوكية الهتاف، والتربية في مراع تمهيدا للذبح... الدونية بأن تعلن نفسك عبدا، وأن تتعلم أن تخفي حريتك.

والأبهى أن تحتقرها، كي لا تصبح قعيد السجون، وتُنبذ كالمصابين بالجذام، وحتى تتأهل للفصام الجمعي، المشهود له بأنه يعمل بكفاءة في صناعة التقدم نحو البلادة، وانتشار الفساد الجمعي، اتركني إذن يا ابن عبد الجليل، واذهب لابن عمك رضوان، غوصا معا في ضباب الحشيش، واطمئن فهو ومباحث أمن الدولة وقوات الأمن المركزي من أعمدة الأمن القومي العام... ودعني مع أتراح الهوان، وأم كلثوم والسنباطي المظلوم، وعمر الخيام، والكأس والراح... إذا لم يعد في هذا الزمان أي أفراح... وآه للزمان القديم...

سدود واحة وسط الخراب الحزين، ممكن تلاقي فيها ناس تكره بعضها حتى الثمالة، ممكن تلاقي ناس مدمرة، ممكن تلاقي للجهل والحماقة مكان الصدارة، ممكن تلاقي فقر المادة وقلة الحيلة مع الزمان، لكن النفوس هنا غنية، ثرية بالمودة.

سدود... أهرب إليك وأعود، خارج حدودك لا اتصال ولا وصال، ريحة ترابك زعفران، الحياة هنا نفط وغضب، صديد أسود. سدود أهرب إليك أعود، والعن اليوم اللي اتولدت فيه في هذا العصر. وكل العصور السابقة، لأن هذا الوطن تعلم أن ينهزم أمام الغزاة، لأن هذا الوطن تعلم أن يفتح صدره للأغراب بلا حساب، أن يستضيفهم بدلا من المقاومة، لأن قادة هذا الوطن لم يحترموا أبناءه، أو أن أبناءه مجرد قطيع من الماشية...من يستطيع أن يحمى جسدي من مراعى القتل النووي القادم.

* * * *

الفصل الخامس والعشرون

يا خسارة الحر يحكم فيه ردى الخال، ويواجعه بالكلام عند المنازل خال، من مقصده الجنة يصلى ع النبي، سبع مدن للنبي بيضونها، نادى أبو زيد الهلالي سلامة: صحيح دي الغربة تورى غبونها... (*)

في أحد أيام الجمعة نزل المبروك في الصباح الباكر إلى المدينة يتسوق، وبقي عبد الله يغالب الكسل، استيقظ في الضحى متعبا مكدودا، اغتسل والصداع ينهش رأسه، من بعيد لمح السيارة الزرقاء الخاصة بالحاج حميدة تمرق هنا وهناك، داخلت ذهنه أسارير الوجل وعدم الاطمئنان، لكن ذهنه كان مرهقا عاجزا عن التفكير، على فراشه الإسفنجي الرخيص تمدد ليرحل في غفوة وعندما استيقظ قرب الظهيرة، كان أبو نديم يطرق بابه يدعوه للغداء.

على أطراف غابة القوارشة تجمعوا حول الشواء، خروف صغير وقف كل من مفتاح وجبران يطهوانه فوق نار الحطب المتوهجة، وفي قصعة كبيرة جلس ثلاثة يصنعون السلاطة، وسط جمال الطبيعة الخلابة سار مخترقا الأعشاب الخضراء العالية، وشجيرات الشوك الصغيرة، ملتفا حول أكوام مخروطية عالية من جذوع وأغصان الأشجار الجافة، جمعها الحطابون لصناعة الفحم، ترك مسامه تستنشق شدو الطيور وزقزقة العصافير، لون الزهور وخضرة الغابة، تراقص الأغصان بين أحضان الرياح، ألوان قوس قزح تلقى بها الشمس من ثنايا الأشجار، طيور النورس تحلق إلى أجواز الفضاء.

أمام جذوع الأشجار الضخمة، وقف ينظر في غيبوبة من التساؤل، يملأ عينيه منها ويشربها على مهل، وَدَّ لو يطلق جسده للغابة المفعمة بالحرية، والزمن القديم، لا شر... لا كراهية... الأرض يا ابن عبد الجليل... الأرض، امتى تكون ملك يمينك أرض؟ تظن نفسك مالكا لها وأنت لها عبد، تحسب لها حساب الشهر القبطي، وترويها، ترمى البذور فتنمو العيدان الدقيقة، تتمنى تبيع مراتك عشان تحميها من الرياح، وتضحى بابنك ولا يطيح بيها برد الشتاء، تحصدها، ويصيبك الهم لأن ثمرة وقعت قبل ما تنضج، أو أن كلبا غوَّط في غيطك أو دهس، وتقف حيران قدام الجمعية الزراعية وهي تنهب المحصول، حابل بنابل لا تترك لك غير قميص دمور وحزام تيل لأجل ما ينكسر وسطك من الفلاحة.

نادى عليه أبو نديم: شو أبو الشباب بدك تُوكَلْ[68] على الجاهز.

أجاب مقلدا لهجته الشامية: الشباب ما تركوا حاجة أعملها، بدك أتقاتل أنا وياهم.

قال مفتاح: باهي يا سيدي، بس تزاحمنا عند الأكل.

- بس اللحم يجهز وأنا أخلص عليه.
- تمام هونيك افرش الفرشة.
- على العين والراس.

كانت قطرات الدهن تنز على الفحم، فتتصاعد رائحة الشواء في الفضاء، تحرك الجوع في البطون وتسيل اللعاب... عندما انتهوا من الشواء اندفعوا يتناولون اللحم المشوي في نهم، وحده أكل دون حماس، ترك الطعام مبكرا، واستدار يصنع الشاي.

فاجأه أبو نديم: وين كان يخدم أبو الشباب؟

- قبل ما أجي.
- بلى.
- كنت أعمل في النيل للطرق والإنشاء.
- مو قصدي بالحياة المدنية، بالخدمة العسكرية.
- بالدفاع الجوي.
- بلى، وين بالدفاع الجوي؟

ابتسم عبد الله: المدفعية المضادة للطائرات.

---

68) توكل: تأكل / لهجة السورية

- كفك خيو، وإذن نحن رفاق حرب، فرّجني على وسام الحرب تبعك.

نظر بشك، لكزه أبو نديم: فرجني يا أخي، فرجني يا بطل، ليش انت بخيل؟

أخرجه وهو يسأله: وانت اشتركت في الحرب.

- إيه بلى، حاربتم وحدكم يا مصرية!
- كنت في أي سلاح؟
- إيه أخي... فتح مخك (وضحك) ما بقول لك نحنا رفاق سلاح.
- الدفاع الجوي؟
- إيه الدفاع الجوي.

تبادل الشباب الوسام يقلبونه بين أيديهم. قال مفتاح:

- والله هذا عظيم...

استطرد جواد وأبو العبد: نعم رِجَّالْ والله.

عقب مهندس فلسطيني يدعى عصام ضاحكا: مو وحده اللي حصل وسام، كتير حصلوا على أوسمة، ولو... خراي على هيك أوسمة.

قاطعه جبران: أيوه... ترى أنا ومفتاح كنا نخدم بالجبهة.

سأله بانبهار: فين؟ بالدفاع الجوي!

قال مفتاح: باللواء المدرع الليبي، كنا نخدم في الاحتياطي الاستراتيجي للجبهة المصرية، ضم جسده للأمام ضاحكا، ترى كنا مع اللواء المدرع الجزائري، والحرس الجمهوري المصري، وحدنا أمام المدرعات الإسرائيلية بعد حصار الجيش الثالث.

قاطعه جبران مهتاجا: ترى والله، وحق النبي، أنا كنا نروح نطوع، واستدار إلى مفتاح: صح ولا لا، كنا نبغى الموت في سبيل مصر، مفتاح، صح ولا لا مفتاح.

قال مفتاح باستهانة: ليش تحلف، وين ما تدافع عن مصر، وين ما تدافع عن فلسطين عن سوريا عن العرب، ترى اسأل أي ليبي بالطريق، قول له مصر... يقول لك خذ قلبي، مصر في قلوبنا يا راجل.

قال أبو نديم: نعم... بس أنتم يا مصريين تخليتم عنا.

– ليه... احنا عبرنا من غير مشاكل حتى 13 أكتوبر، حتى انهزمتم أمام الإسرائيليين، هاجمنا بالمدرعات عشان نخفف الضغط على الجبهة السورية.

– مو صحيح هذى حجج بيخفي بيها القادة المصريين هزيمة المدرعات المصرية.

تدخل عصام: مو هيك القضية، أنتم بعدكم بتديروا ظهوركم للعرب، وتمدوا يد المصالحة مع إسرائيل، النظام المصري صار عميل للأمريكان، والسادات باع القضية الفلسطينية والعربية، بده المعونة الأمريكية، خليك موضوعي أخ عبد الله.

استطرد جبران: أيوه، السادات باع العرب، ترى حتى نفسه يبيعها.

قال عبد الله بغضب: كل الأنظمة العربية عايزه تعمل اللي عمله السادات، والحقيقة هي عملته بس في الظلام، ثم إيه اللي أخدناه من الروس.

قال جواد الحداد الفلسطيني: السوفييت عطوا مصر. اللي ما عطوه لحدا، بتعرف كيف، انت ما كنت جندي بالدفاع

الجوي، أديش كان تأثير الدفاع الجوي بالحرب. استطرد عصام: بلى، مو سمعت عن حائط الصواريخ، أكيد سمعت، المُشكل مو في السلاح... المُشكل في كفاءة استخدمنا نَحنَ العرب للسلاح.

عارضه عبد الله: في فرقتنا كانت كفاءة استخدام السلاح 100%.

– أيش 100%؟ الاختراق الإسرائيلي بدأ بضرب قواعد الصواريخ بالدفرسوار...

– انت عامل بتفهم...تدرّج وجه محدثه بحمرة قانية... دي مش مشكلة الدفاع الجوي، دي مشكلة المساندة الأرضية والجوية... وبعدين الاحتياطي الاستراتيجي للجبهة حاصر الإسرائيليين لما حاصروا الجيش الثالث.

ضحكوا، سبقهم عصام معقبا: بعدك بتصدق الإذاعة المصرية.

– أُمَّال أصدق إذاعة فتح، والبيان الألف بعد المليون، حررنا القدس وفتحنا تل أبيب.

ظهر الضيق البالغ على وجه عصام، غمغم: مو هيك... مو هيك... الواحد بده يكون فهمان، وما تستخف بنضال الشعب الفلسطيني.

قال عبد الله مقلدا إياه: وانت ما تستخف بالشعب المصري، ولا الشعب الفلسطيني أكثر قداسة من الشعب المصري.

تدخل أبو نديم: كل العالم بيعرف إنه كان بمصر أقوى دفاع جوى بالمنطقة.

- أيوه دفاع جوى ومش سلاح هجومي، ومش طيران كفء.

قال جواد بغضب حزين: أديش نحن شعب سيكوبتك، يصيبنا العمى عن أصدقائنا، ونعشق اللي بده يسحقنا ويحتقرنا، من دون السلاح السوفيتي ما كان باستطاعة نظام عربي من هيك أنظمة أن يواجه إسرائيل، شوف أخ عبد الله فوق دلتا نهر النيل استشهد طيارون من الشعب السوفيتي، وما كان الغرض حماية حقول النفط، أو مصالح استعمارية كيف ما تفعل أمريكا ويفعل الغرب.

تدخل عصام: سلاح المدرعات المصري كان يملك أقوى دبابات في العالم، طراز (T-60)، وانهزم في 48 ساعة.

قال جبران: حتى الدبابات المصرية وقعت في إيد إسرائيل.

أيده أبو نديم: نعم كل السلاح السوفيتي وقع في إيد إسرائيل في عام 67.

قاطعه عبد الله: وكان بالقرب من الرئيس تبعكم أخطر جاسوس إسرائيلي، أقرب له من حبل الوريد، وأضاف ببغض: صعبان عليك وقع السلاح الروسي في أيد إسرائيل، كل فلسطين وقعت في إيد إسرائيل.

لوهلة بدا وكأن الجميع على وشك الاشتباك بالأيدي، تدخل جواد منفعلا: يا جماعة الخير خلونا موضوعيين، يا جماعة الخير يعنى هو السلاح المصري وحده اللي وقع في يد إسرائيل، ما السلاح السوري والعراقي وقع هو الآخر بيد الإسرائيليين... مو هيك؟ والله العيب على اللي عنده سلاح وما حارب.

تدخل عبد الله رافضا راية السلام التي رفعها جواد: طب ليه ما بتحاربوش، إيه اللي مانعكم، شطار في بيع أراضيكم، ضيعتوها وسافرتم، وتركتوها للإسرائيليين تحتلها، وسببتم لنا كل البلاوي، أشاح برأسه غاضبا:

– مال مصر ومال الحرب...

قال عصام: حبيبي إسرائيل لها أطماع في مصر، مثل ما لها أطماع في الوطن العربي، حتى السعودية إسرائيل إلها بيها مطامع.

– لما إسرائيل لها أطماع في السعودية، طعنوا عبد الناصر من الخلف، وأهانوا الشعب المصري، ودعموا الاقتصاد الأمريكي اللي بيدعم الجيش الإسرائيلي، اللي كان بيحاربني ويحتل أرضي.

قال أبو نديم: كلنا بنعرف ان النظام السعودي متحالف مع إسرائيل رأسا، قريت في مجلة ألمانية حوار بين صحفي ألماني وصحفي إسرائيلي، الألماني سأل "أنتم والعرب أولاد عمومة، إسماعيل كان أخا لإسحاق، ليش الحرب والعداوة بيناتكم، ع ليش ما تصيروا إخوة وتعيشوا بسلام". تدري أيش قال الإسرائيلي، قال "كلامك صحيح، نحن بالفعل أولاد عمومة، وهذا يثبت حقنا في مكة والمدينة والقاهرة وبغداد ودمشق، من الواجب أن يفتحوا الحدود لنا". استطرد أبو نديم: إسرائيل بدها كل شبر من الوطن العربي، وما بتكتفي بفلسطين فقط.

أضاف جبران: يا حبيبي أطماع إسرائيل ما لها حدود.

قال أبو نديم: من النيل للفرات أرضك يا إسرائيل، فهمت على.

- قول الكلام دا لنفسك، احنا كسبنا الحرب على الجبهة المصرية.

قال أبو نديم غاضبا: مو هيك القضية هذا سلوك وتصرف انتهازي، المبادئ، إما بتصير مبادئ، أو لا تصير، ما بيصير على الإنسان يعطى مرته لرجال لأنه أقوى منه، إما بيحافظ عليها، أو بيموت أمامها وإذا ما فعل هيك بيصير معرص.

ضحك الجميع باشمئزاز بالغ، وتجمع الغضب في وجه عبد الله، تساءل مفتاح:

- ترى وين المصريين؟ وين الفراعنة؟ يا أخي، ها دول ليسوا كيف الفراعنة ها دول خليط من أجناس، أتراك، يونان، رومان، مماليك، تركمان، حتى مو أفارقة...

قال عبد الله بغضب: نعم احنا مش عرب، احنا المصريين فوالة، سلاكة من السلك الدبلوماسي، وكلامكم اللي جاي ح يكون المصريين فقراء غلابة، مساكين.

قال عصام بهدوء: وهذه حقيقة، الاقتصاد المصري اقتصاد منهك، تنكر هادى، أديش ديون مصر توا.

قال مفتاح: أيوه، ترى بالله بالمصريين غلابة، أنا كنت مع الصابرى بدرنة نهدر بالسيارة اللاندروفر بالجبال، نبحث فيهم تحت المطر والبرد، نوزع عليهم في الغطا ونلم الجثث من السيول.

قاطعه عبد الله: وبعد شوية ح تدور أسطوانة، المصريات، شراميط أقحاب.

- مو هيك. -قال عصام بتواضع-القضية مو هيك، يا جماعة الخير، الشعب العربي متخلف وانت ما تعرف كيف

تتصرف مرتك، لأنها ما بتصير تقولك إنها قحبة، بدك تعرف مصرية اسأل عنها الليبي أو الفلسطيني أو الخليجي أو السوري، اسأل عنها الغريب اللي مو من أهل البلد، أنا كنت بجامعة الإسكندرية، سكنت بالعطارين وبالرمل وسيدي بشر، عرفت كيف، كانت التلميذات بالمدارس الإعدادية، والله وأنا كنت حزين، كن يجئن أربعة يدقوا الجرس بالسابعة صباحا.

صاح جبران مندهشا: السابعة.

– نعم... وبملابس المدرسة وحقيبة الكتب، وأيش يديروا، بدهن مصاري، ملابس داخلية، عطور، كنا نحصلها من غزة، طبعا نوعية جيدة مو مثل اللي بالقاهرة.

تساءل مفتاح باحثا عن إجابة معينة: يشحذوا؟

أجاب عصام بابتسامة صفراء مقتضبة: ألا يا ريت، بدهن اللي هيك...

صاح جبران مندهشا: شراميط!

– إيه... يعنى كده. تحدث باللكنة المصرية نكاية في عبد الله.

قال عبد الله بغضب: شراميط بيدوروا على شراميط، شارع الهرم مليان بالمومسات، احنا في مصر عملنا الهرم، عشان ناخد فلوسكم، نسوانا بتضحك عليكم، معاكم حق، في مصر النفطي بيصرف ألف جنيه على صدر راقصة في لحظة، ينام مع مومس نعم، يصرف مائة ألف جنيه على شرموطة، إنما يفتح مصنع، لا... يستصلح أرض... فلا وألف لا... عايزين مصر ضعيفة ولعلمك دي خطة مدروسة من النظام، والأسرة المالكة السعودية شيء نتن.

قال مفتاح: لا، أنا ما نروح الهرم، أنا نقعد في شقة مفروشة وهم يدورون فيك بالتليفون، ترى أنا نعطيك مو نمرة واحدة عشر نمر، ترد عليك أحسن ممثلة.

استطرد عصام بخبث ينكأ جرحه: مفتاح ما بيقصد هيك، تعرف عبد الله أنا بحكي لك، أنا نحب مصر. والعرب من غير مصر ما يسوا، لكن أفهم عليَّ، لأني بعرف اللي يقصده مفتاح، ها دول اللي يشتغلوا بالتليفون يعيشوا حياة عادية، ربات بيوت لهن أطفال، وصبايا، خريجات جامعة، موظفات، بدهن مصاري، ترى الرجال ما يعرف عن مرته شيء، بتخرج في النهار، بتقول أنا رايحة عند واحدة صاحباتي، بيكون زوجها بالعمل، وتكون هي على فراش راجل آخر.

- مش ممكن اللي بتقوله.
- ليش لا، هَلَّىء انت ما بتعرف مرتك أيش تسوى، هه، بتعمل عليها رقيب، لازم تفكر بموضوعية بيش تفهم.
- أنتم بتكرهونا، احترم نفسك انت ما تعرف مصر، وما حد يعرف مراتي زي ما اعرفها أنا.

قال عصام بوقاحة: أنا ما أقصد الريف، ها دول بيعيشوا على الفِطرة، بتعرف قصدي الموظف المصري ما يعرف أيش تسوى مرته، وها دول بيحضروا بالتليفون.

صاح جبران: ساعة زمن.

استطرد عصام: نعم... ساعة زمن ويعودوا لمنازلهم، اسمع عليَّ، كيف ما قلت لك، ما بيعرف إلا الغريب، لأن المرأة ما بتصير شرموطة على راجلها وأخوها، لكن الغريب ما يمسك عليها شيء، لأنه أساسا هو يبغى متعته وخلاص هيك، هه، فهمت؟

قال جواد بعصبية: فهم أيش، انت بتخرف، تتكلم عن مصر. كيف الخبير، هم بس نسوان مصر. شراميط، ما في كل العالم نسوان هَكِ وهَكِ، وما الفرق بين الشريفة والشرموطة، بعدك ساعة تحاول تثبت للرجال إن نسوان مصر. شراميط، يا أخي العربي رجل فصامي... تعرف تقول لي، وأيش الفرق بين المرأة المتحضرة وبين الشرموطة؟ عند الرجل الشرقي ما في فرق، إذا كان هو موضوع الحب صار متحضرا تقدميا، وصارت المرأة عنده متحضرة. وكل ما تقترب من الفراش بتصير أكثر تحضرا، أما إذا كانت مع رجال غيره، المرأة اللي كانت بالقبل متحضرة تصير شرموطة، وعلى كل بنترك وصف نساء الشعب المصري بهاي أوصاف لشعوب أكثر تخلفا، تعرف مهندس عصام توا بعرف ليش عمرنا ما بنتقدم خطوة للأمام.

تدخل عبد الله بقرف: معلش سيبه، من ساعة ما عبرت الحدود أنا سمعت الكلام دا كتير، على طول الطريق من مساعد لبنغازي تشاهد إعلان على يافطة عريضة، زي إعلانات البيبسي وشركات الطيران، مكتوب عليها «اتق شر من أحسنت إليه»، إيه ده؟ ما تفهم تصرف عاقلين ولا مجانين، مين اللي أحسن ومين اللي فعل الشر، احنا من سنة 1952 وكل دخلنا القومي يُصرف على فلسطين وعلى العرب، أبو نديم، بتحكي إن مصر تخلت عن العرب... مش مصر. اللي تخلت عن العرب، أنتم وبالذات السوريين والعراقيين اللي تخلوا عن الوحدة، دلوقت تبكي عليها، مين اللي ضرب الوحدة في 62، حاسب نفسك الأول...

أنا كنت في المدرسة أضرب على الطبلة والنقارة، وكل طالب في المدرسة يهتف بأعلى ما في عزيمته تحيا الجمهورية

العربية المتحدة"، ولو كان حد قال موت نفسك عشان الجمهورية العربية المتحدة كنت رميت بجتتي في النار من أجلها، أنتم طلبتم الوحدة لما كان الجيش التركي بيهدد حدودكم، ولما ما عدش لكم فيها نفع انفصلتم، ما دافعتم عنها، عبد الناصر في 1958 أول ما سمع إن الخزانة السورية مفلسة، قدم لها تسعة ملايين جنيه مصري، فاهم يعنى إيه تسعة ملايين، يعنى 10% من الدخل القومي المصري، ما شعرنا بانكم أخدتم فلوسنا أو إنكم شحاتين، مطلقا، من عنده الاستعداد لبذل روحه ليس للنقود قيمة لديه...

... تعال بقي خلى دولة عربية نفطية الآن تدفع 10% من خزانتها لمصر، خصوصا لما تكون في حالة حرب بلاش ال 10%، يكفي تخلى الأولوية للعمالة المصرية، بلاش، احترمونا، لا تسبوا نساءنا مش كل واحد نزل الإسكندرية أو القاهرة ودخل كباريه ونام مع شرموطة يظن أن كل نسوانا شراميط، دا أنتم ولاد كلب، بتكرهونا، أنتم اللي خربتم الوحدة العربية عشان مصالحكم، لا تحدثني اليوم عن الوحدة، لما يعيش كل عربي في رغد وسفه، لما تعاملونا في بلادكم مثل الأسرى والعبيد...

... لما يصير هذا المنحط اللي جالس هناك (وأشار جهة عصام)، يقبل اليد اللي علمته ويحترم الأم اللي ضايفته خمس سنين. لما يفهم اللي بينفقوا الملايين على موائد القمار، ويتخموا البنوك المعادية للعرب، إن فيه خطر على الأماكن المقدسة اللي يدنسها وجودهم، إن فيه حرب، لحد ما يحدث هذا ح يكون رجوع سيناء أهم من أي شيء، كل واحد يدور على مصلحته، احنا دخلنا حرب 67 ونصف الجيش المصري

في اليمن، ونصف العرب شاهرين خناجر الخيانة في الخفاء ضدنا، إيه أخذناه من اليمن، شهداء وضحايا، وهجوم القبائل المدعومة من السعودية وضياع مخزون الذهب المصري، تتحرر اليمن، وتحتل سيناء ويصبح للسعوديين كلمة لها شأن، السلاح الروسي... كان معكم سلاح روسي والجيش السوري كان يسيطر على إسرائيل من الجولان، لماذا لم تنتصروا، كل حرب تدخلوها تخسروها، عدا الحرب اللبنانية، رفاق سلاح إيه الخيبان دا، الجيش الإسرائيلي أنتقل كله على الجبهة المصرية...

... كان لازم أنتم والأردن والعراق والسعوديون المترهلون تخلصوا على إسرائيل، ما هو دور الأسرة السعودية والهاشمية في تاريخ هذه الأمة؟ الخيانة - واستدار لعصام - يقول الإسرائيليون إن لهم حق في السعودية، ياخذوها كلها، ياخدوا الخليج زي ما عمل شاه إيران، هم خدوها بالفعل... إسرائيل بتحاربنا بملايين المليارات اللي وضعها أصحاب الجلالة السعوديون وأمراء الخليج في أمريكا، طب مصر بلد فقير وهؤلاء يساندون القتلة، أحارب عشانهم ليه، استدار لمفتاح وجبران، أنتم نسيتم ولا إيه إن كل واحد اتعلم فيكم وفي كل بلاد العرب من أيام الملك فاروق وحتى ظهور النفط بواسطة مدرس مصري، من عرق كل مصري، بعثات المدرسين كانت تيجيء لكم مجانا، مئات السنين والمحمل النبوي وتلت خراج مصر بيروح لأرض الحجاز للإنفاق على أهلها، واليوم عشر سنين في الحرب كل اللي تعرفه شعوب النفط شراميط وعاهرات مصر، عرب؟.

خطف الوسام من يد أبو العبد: إيه اللي تعرفوه عن الحرب، احنا حاربنا في 48 عشان فلسطين وحاربنا في 56 و67 و73 افتقرنا، بعضمة لسانك، خلاص يا أخي زهقنا من الحرب، تعبنا، دمر اقتصادنا، لا لقمة ولا هدمة، القاهرة عايمة على بحر من المجاري، أطفالنا تشرب مياه ملوثة، لا تصعد أكثر من الدور الأرضي، والناس تنتظر القطارات والأتوبيسات بالساعات، وتسطح على ضهرها عشان مش لاقية مكان، عمرك سمعت عن حد يبيع بطاطا فوق سطح الأتوبيس.

قال عصام بهدوء وبرود أعصاب: يعني خلاص ما بدك تحارب؟

أجاب بغضب مكتوم: وأحارب عشانك ليه؟ انت بتحصّل راتب في الشهر 400 دينار، وعندك عربية وشقة، وتاخد عمولة 10% من المقاولين، والمؤكد بتشاركهم أيوه، عايز تعرف الحقيقة، كل شوية تقول خليك موضوعي، ولا أنا عارف موضوعي إيه ولا يحزنون، عندك عربية وشقة واسعة وتليفزيون ملون، وبتاكل فاكهة وتشرب ويسكي، وأنا باكل جبنة حادقة، وألبس من سوق الظلام ملابس مستعملة، لا كملت تعليمي ولا عارف إذا كنت ح أقدر أعلم أبني، وأنت بكرة تصير مليونير زي كل الفلسطينيين، وأمراء الخليج والسعوديين، أحارب عشان كم ليه؟

قال له ببرود وهو يعبث بالوسام: وهلىء عليش تحمل في الوسام.

خطفه عبد الله من يده بسخط وسخرية: هو أنا كنت خدته منك، وبعدين أهه... وألقى به في النيران وهو يقوم غاضبا: مش عايزه... أنا راجع البرَّاكة.

خطف أبو العبد الوسام من قلب النيران، وقفز جواد خلف عبد الله يمسك به: انت ليش خلقك ضيق عبد الله، هذا نقاش يا أخي كل واحد يقول اللي بده إياه.

- دا نقاش ولا إهانة.
- يا أخي مصر أُم لنا.

- المهندس المحترم بيسب كل مصري في مراته، يقول يعرف عنها كل شيء، يعرف إيه اللي فقد حتى الشعور بالعرفان، ما عمل حساب، كل كلمة تسبها فيها كأنك تسب أمك، يا متعلم.

قام عصام مهتاجا هو الآخر وهو يلوح بيده: نعم... والأم اللي تتخلي عن أطفالها للشوارع، ما تستحق قدسية الأم.

جلس عبد الله حزينا، يرى أبو العبد يصرخ في عصام: إيه انت بتخرف... استدار عبد الله يحدث جبران ومفتاح: تعرف معنى بطاقة ص. ش.؟

قال جبران: اعرف... صحراء شرقية...

- باهي، أيام الاحتلال الإيطالي هرب ليبيين لمصر، وأثناء المجاعات، استوطنت مصر. قبائل ليبية، الجهمة والعبيدات تسكن الفيوم وأسيوط وسينا، أولاد على اللي يقتلوا المصريين على الحدود ويسرقوا أغراضهم القليلة... صحيح؟

وجه السؤال لجبران فأجاب: أيوه صح.

- أول مرة أعرف دا كان هنا في ليبيا تعرف دا معناه إيه؟
- شنو.

قال عبد الله في فخز وسخرية معا: معناها، إما احنا شعب عظيم فتح صدره لكل خلق الله في أيامهم العصيبة، وإما إننا شعب اهبل ابن كلب... تعرف ليه؟

- ليه؟

- لأن مصر جعلتهم مواطنين مصريين، لا عايرتهم ولا قالت عليهم بتوع الفاصوليا والشطة، ولا سكان التنك والخيام، أو يا فقرا، الملك السنوسي عاش في مصر. لما طرده الطليان، ولما حكم العقيد نزل الأمير رضا لمصر في ضيافة عبد الناصر.

قال جواد بجدية: ترى عبد الله، أوضح لك شيء، القذافي اشترى ب 11 مليار دولار سلاح بده يعطيه لمصر، هو ما في بينه وبين إسرائيل حدود بيش يحاربها، وكمان فكرتك عن الفلسطينيين غير صحيحة.

- إزاي؟

- الفلسطينيون ما باعوا أراضيهم، هادى قصص من أنصاف الحقائق اللي يبرر بها الحكام العرب تخاذلهم وتهاونهم، اسمعني، أنا كنت بالجرش لما الملك حسين صفي سبعين ألف فلسطيني من الفدائيين تبع المقاومة الفلسطينية، يا أخي ما هو مش بس الإسرائيليين اللي قتلوا الفلسطينية، الجيش الثوري العراقي وقف يتفرج على ذبحنا بيد مدرعات البدو في عمان وجرش وعجلون ويقول "ماكو أوامر"، أو أقولك قبل ما يكون العيب على الملك حسين كان العيب على القيادة الفلسطينية، وهلئ، القائد، المناضل حافظ الأسد ذبحنا في تل الزعتر.

صرخ به عصام: كيف تحكى يا زلمة.

قاطعه أبو العبد: بدك تكون ديمقراطي يا زلمة، اتركه يتكلم.

- له... نحنا قبل قيام الملك بالمذبحة كنا نسيطر على عمان، كان كل فلسطيني مدجج بالسلاح، صار الفدائية تسب في الملك ورجال الملك، وصار ما في انضباط، لما ان هاجم الملك حسين وسار يكنس في الفلسطينية كنس بدبابات البدو، تماما مثل ما فعل الأسد في الفلسطينية بتل الزعتر، اليمين اللبناني ما هزم تحالف حركة المقاومة الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية، هزمهما سلاح الطيران السوري وحافظ الأسد.

صاح أبو نديم: يعني كان بدك يحارب إسرائيل.

صاح عبد الله وجواد وجبران: أهه... استطرد جواد: وإذا ما بدك السوريين يحاربوا، لشو بدك يحارب المصريين؟ قول يا أخي، تهاجموا الرجال حتى يصير كيف الطير الجريح، هذا هو لب القضية (أشار إلى عبد الله)، هذا الرجل حارب، وأنت يا أبو النديم حاربت وأنا حاربت، مو المصريين بعد اللي الفقرا...

... يا أخي عبد الله بالمخيمات الفلسطينية ترى الفقر الحقيقي، المجاعة، الأطفال تموت على صدور أمهاتها، العائلات اللي يصل عددها العشرين وما يتبقى سوى الواحد، الشهداء عندنا براعم ورد تخطفها يد المنية من قبل ما تتفتح، شعبنا ما باع أرضه، وأرضنا ما بتزرع غير الشهداء، بيع الفلسطينية لأرضهم أكذوبة من مئات الأكاذيب اللي بتستر بها الأنظمة العربية عوراتها، وعورات هذه الأنظمة قد أيش قبيحة، قد أيش مورمة ع صديد وقيح...

... الفلسطينية يا أخ عبد الله ما باعوا ارضهم، اللي باع هن العائلات الغنية، عائلات معروفة، فلسطين بتعرف كانت تحت الاحتلال العثماني، صار السلطان يوزع الأراضي على المخاتير لجباية الضرائب، بعدها امتلكوا الأراضي مو هكتار ولا مئة، بل قرى بأكملها كانوا يملكونها على هيئة هبات، وهذه عائلات كانت أصلا مو عائلات فلسطينية، أتراك وشركس ومماليك وكذا، عليش بدهم يحاربوا اليهود ويظلوا تحت النار، ها دول اللي باعوا أراضيهم لليهود، مو فلسطينيين، وما كل الأراضي بيعت، الباقي أغتصب بقوة السلاح...

... فعلا انت تراهم أثرياء وأصحاب وظائف عليا، في ليبيا والخليج والسعودية، وأوروبا وأمريكا، كمان فيه فلسطينية بالمخيمات...شعبنا عبد الله يسكن المخيمات، وما توقف القصف عنه لحظة وما انتهت حربه في يوم من الأيام، بلكي يحارب كل الدنيا بيظل يحارب... تقول القاهرة ما عاد بها شبكة صرف. المخيمات ما فيها صرف على الإطلاق، في المخيمات تعيش العائلات على إعانة وكالة غوث اللاجئين، اللي بيغضب الإخوان إن خروج مصر من الحرب بيجعل إسرائيل تنفرد بالباقين، واحنا من غير مصر ينقصنا الكثير، كمان بدى أقول شيء، الخطر ما راح عن مصر بصلحها مع إسرائيل... هاى المشكلة.

قاطعه عصام: وإذا هو بيعرف (قاصدا عبد الله)، السعودية والخليج أعطوا أديش معونات لمصر، مصر بتاخد معونات من ال 67 من كل مكان بالعالم، من الشرق والغرب والاتحاد السوفيتي وبعده الولايات المتحدة الأمريكية، حتى إنها تنافس إسرائيل الآن على حجم المعونات، وين راحت

هادى الملايين، وزعها السادات على عصابته بيسرقها، الفساد منتشر بمصر. مثل الهواء، ليش تلوموا العرب إذن، أنا بأعرف كل شيء عن مصر لإني كنت بمصر.

قال عبد الله بضجر: مش مشكلتي.

عقب جواد محدثا عصام: انت بتعرف، مثلك مثل دعاة أنصاف الحقائق، هادى الشعوب العربية ما بتملك مصائرها بأيديها، اللي بيملك مصائرنا أنظمتنا الحاكمة، وهذا هو الفرق، نحن حاربنا لكن النتائج السياسية للحرب بتتمكن فيها أنظمة متهالكة، أنظمة ضعيفة، نخب حاكمة تدور في مصالحها.

قال عبد الله بقرف: كل دا ما يلزمنيش، عايزين تحاربوا تفضلوا، الميدان مفتوح يتقدم العرب جميعا أولا، احنا بعد كده نحارب، لكن في المؤخرة، مش البعض يتبرز في مراحيض دهب وشعوب تاكل النفايات.

ضحكوا وضحك هو الآخر مستكملا حديثه لمفتاح وجبران: احنا فوالة، يا بتوع اللوبيا، لوبيا على الفطار، سندوتش هريسة متحدق بلوبيا وتقولوا، فوالة.

ضجوا جميعا من الضحك.

تحدث جواد: ما تقدر تقول على الأكل الفلسطيني شيء.

قام المهندس عصام مبتعدا في ضيق، وقد اختلط العبوس في وجهه بالضحك:

- لا، ما تستطيع تقول شيء على الأكل الفلسطيني، لكن ما بناكل فول.

أجاب جواد: إيه بتكذب، ومين ما ياكل الفول.

تساءل عبد الله: الأكل السوري.

صاح به أبو نديم مقلدا اللهجة المصرية: لا، إلا كده، الأكل السوري ما في مثله، مثله مثل اللبناني والفلسطيني، الأكل الشامي واحد.

- أنتم تطبخوا الملوخية من غير ما تخرطوها، طعمها ماسخ زي السبانخ.
- لكن هذا هو ما مثل الفول.
- يعنى هو أنتم ما بتاكلوش الفول؟
- إيه بلى بناكل فول وفلال.
- وهو فيه حد يا أبو نديم يعمل من الباذنجان مربى؟

ضحك أبو النديم من قلبه، وقال وهو يهز رأسه بابتسامة واسعة: وفيه حدا يخلل الحامض... يقصد الليمون... هرش عبد الله رأسه، وقد التمعت عيناه: مش عارف، إيه. قال أبو النديم: بس تعرف أنا حبيت الليمون المخلل، أكلته عند صديق مصري، عندك هون ليمون مخلل؟

قال مندهشا: بالبرَّاكة.

- هون فيه؟
- زلعة؟

ضحكوا ثانية، قام مفتاح يرقص ويغني: وأنا نازلة ادلع أملى الزلع.

قاطعه عبد الله قائلا في جد: أنا عندي ملوخية، بكرة أعمل لكم ملوخية، بالأرانب.

- إيه عظيم. صاح أبو العبد، وقال: وانا باعمل لكم تبولة.

- لا -قاطعهما جواد- بنعمل لهم «لينة» بتاكلوا صوابعكم.

صاح عبد الله وهو ينظر لأبو نديم بظفر: مكدوس.

- من وين عرفت المكدوس.
- صديق سوري.
- منو؟
- أنت...
- أنا أكلتكم مكدوس!

قال جبران: وأنا باعمل محاشي.

- شنو محاشي؟ تساءل جواد.

صاح أبو نديم: ما بتعرف المحاشي... خصية الخروف يا زلمة.

- بكرة أنا ح أعمل لكم ملوخية بالأرانب.
- هيك لا، نحنا بدنا نسوى أكلة فلسطينية.
- يا حبيبي كل شيء جاهز مكدوس، تبولة، وغيره.
- أنتم في ليبيا باهى، أول ما تاكلوا المحاشي، باهى، إيه بس بدك تغنى... إيه بلى، هات الربابة وغنى.
- أنا!

* * * *

الفصل السادس والعشرون

- 1 -

كانت الشمس تتهيأ للمغيب، تابعها تسقط بهدوء في الأفق، دخل البرَّاكة يلفها الصمت، انتابه القلق، تساءل، لِمَ لَمْ يعد المبروك وعطا الله؟ وفين رضا؟ خلع نعليه وبنطاله وقميصه الرث، شعر بحركة في ركن الفراش الخلفي، استدار منزعجا، كان رضا مكوما على نفسه وقد دفن رأسه في الحائط، نادى عليه:

- واد يا رضا مالك، قوم، كنت فين؟

عندما لم يسمع من الفتى إجابة، شد الغطاء، كان وجه الفتى به كدمات، وعيناه تتساقط منهما الدموع... جذبه بعنف: مين عمل فيك كده، قول يا وَلَه، الحاج حميدة عملك حاجة؟! هز الغلام رأسه نافيا.

- إزاي إيه اللي حصل، قوم، قوم، فز... ارتعد الصبي فشعر عبد الله بالعطف، استطرد مهدئا: قول حصل إيه؟

أقام الصبي جذعه مبقيا وجهه للحائط، تحدث هامسا: محصلش حاجة، د أنا افتح بطنه، هو... بس أنا... بس أنا لو ما كنتش... جريت منه... أيوه كان الباب مفتوح.

- طب يا أبني، اوعى تروح عنده، وبكره تلم حاجتك وتمشى.
- فلوسي، شقاي أسيبه واللي ورای، د أنا بتحرق، اعمل فيهم إيه... أجهش بالبكاء.
- أنا ح اتصرف، اوعى تخرج من هنا، فاهم.
- طيب.
- معلش يا ابنى، مقدر ومكتوب علينا، قوم، قوم اتعشى.
- مش عايز.
- قوم، تعرف مبروك وعطا الله فين؟
- ليه، هم بره لحد دلوقت؟
- أيوه.
- يا نهار اسود، الشرطة بتمشط بنغازي.

في الحادية عشرة ليلا، فتح الباب فجأة، دخل المبروك لاهثا:

- فين عطا الله؟
- اتمسك.
- وأنت!

- كنت معاه، الشرطة قبضت علينا، لمونا من سوق الظلام، ياه، خلق مالها عدد، كل واحد شايل حاجة، شنطة، هدوم، أجهزة كهربائية، واللي شايل مسجل، جمعونا زي الفراخ، ورمونا في لوريات الجيش وكله على الحدود طوالي.
- وأنت عرفت تيج إزاي؟
- طب ضابط جيش، أخد ثلاث لوريات تشتغل عنده في معسكر للمشاة، نجارين وحدادين وعمال، ظلينا نشتغل طول اليوم، وعم عطا الله يعوى، أغراضنا هدومنا يا خلق هوه، شقا الشهور، احنا نشتغل سخرة ولا إيه؟ بس مين يسأل فيه، خرج له ضابط وقال له: ما في سخرة في ليبيا.
- واحنا دلوقت نشتغل بأجرة، ولا بنشتغل بأكلنا.
- انت تعمل في ليبيا من سنين... باهى... لما تشتغل أسبوعين في ليبيا أيش يجرى؟
- يعنى سخرة... وفلوسنا الأخرى، ستة شهور عمل.
- ما يرحل مصري وما ياخد حقه، ترى انت في ليبيا.
- لما إجى الليل غافلت الحرس وهربت.
- حمدا لله على سلامتك، قوم كل، الأكل أهه.

دفع بأطباق الطعام بينما كان رضا يصنع له الشاي، صاح المبروك:

- هات سيجارة.
- انت عمرك ما دخنت!
- ح أدخن.
- طب لما تاكل.

كان يأكل ويدخن بنهم، سأله عبد الله: هم تركوك من غير أكل؟

- سممونا، عيش وفاصوليا.

فتح الباب فجأة وأطل الحاج حميدة بجسده العريض، تراجع المبروك خوفا، واختفي رضا من فوره، لكن صف الأسنان اللؤلؤية للحاج حميدة كانت تنم عن ابتسامة واسعة طمأنتهم: شنو اللي حصل؟

- الشرطة بتلم في السلكاوية.
- وانت أيش فعلت؟
- هربت.
- وعطا الله؟
- عطا الله رجل عجوز.
- نشهد الله أنك راجل صحيح، توا نروح لعمران مدير الشركة نرجى في عمالنا، لما ياخدوا من عندنا مائة وعشرين عاملا، ترى كيف عمر بوزوى ينهى أعماله، كيف نخلص في كل هادى المنشآت، هو الجيش يبي العمل ينتهي في التو والساعة، نستورد في عفاريت؟

قال عبد الله: يعنى وأيه يهم لما يرجع العمال مصر.

أجابه في اهتمام: لا عبد الله... ترى انت غلطان واجد [69]، العامل المصري طوبة في هذا البناء تقدر تبنى عمارة من غير طوب وهذا هو.

---

69) واجد: جدا

قال عبد الله بلا مبالاة: أنتم تيحيبوا في شركات تركية ويوغسلافية وبولندية، تتركوا في المصريين وتدوروا في غيرهم.

– تعرف هذا أكبر خطأ، هذه الشركات ما تخدم الوطني الليبي، الشركات، هادى تيجي وتحضر معها كل شيء، حتى الطباخ والسيارة وسائقها والمعدات تبعها، ترى فيه شركات تحضر لعمالها الأجانب طعامها من بلادها، تحضر حتى الخبز، مقاول ليبي ما ياخد عمل من الباطن، صاحب بناية ما يلاقي مين يسكن عنده... مالك معدة لورى ما يجد مين يؤجرها منه، سائق ملاحظ ليبي ما يشتغل، التاجر ما يجد السوق اللي يبيع في سلعته، المصري يعمل، وفي ذات الوقت هو جزء يعتمد عليه في حركة التجارة، جزء من راتبه ينفق هنا، وهذا ينعش السوق، ترى هذه خسارة في خسارة، حتى السكن ما يسكن الأجانب عند الوطني، يبنوا لعمالهم معسكرات للنوم بها مطابخ ودورات مياه ليش؟ ما يستعملوا شيء من البلد، وما يصرفوا حتى درهم في البلد، هادى خسارة حتى عمر بوزوى يخسر. يشهد ربي هذا الكلام صحيح، توا أنا نروح غادي مع عمران، لضابط كبير في سلاح المدفعية بيش يحل مشكلة العمال هادى، وأضاف وهو يرحل: أنا بنفسي. نروح نجيب عطا الله، وين كنتم؟

– معسكر المشاة على طريق القوارشة.

عندما اختفي نظر كل منهما إلى الآخر مندهشا:

– إيه اللي حصل له؟

– دا عمره ما قال صباح الخير.

– ضبع مسعور، الشهر يخلص نمشي. نروح بلادنا بلا رجعة.

- أيوه بلا رجعة، نجهز أغراضنا ونشوف مين يحول لنا الفلوس.

- لابد واحد مضمون، ننام والصباح أكلم جبران، رضا طفي النور.

تمدد في الظلام، يقاتل نفسه وعيناه محدقان في الفراغ...

جفاك النوم يا ابن عبد الجليل... النوم جفاك... والليل طويل من غير رفيق... ترجع يا عبد الله مصر... أرجع ما ارجعش ليه... والعمل ح تعمل فيه إيه... هو انت تقدر تلاقي عمل في أي مكان الآن... لازم تكسب قضيتك مع مؤسسة النيل، رد شرف وحكم بالعودة للعمل...

آه يا زمن العجب... الشريف يندهس بالجزم واللص ينام الليل مرتاح ضامن الجنة... ما يكدر صفوه لمحة ذعر في العين... شعور بالقلق... خوف من المستقبل... ذعر انعدام الأمان... إزاي ح يخاف؟ ومن مين؟ ... والشرطة فاتحة عيونها على كل من يهتم بحقوقه، أما الحرامي يلاطفوه... يسألوه المشاركة في الغنيمة... صار الفساد عميقا...

جفاك النوم يا ابن عبد الجليل... النوم جفاك... والليل طويل من غير رفيق... ليه البؤس... ليه نتحمل الإهانة، طب إيه العمل بعد ما عاد في الوطن لقمة ناكلها بكرامة... طب واللي جرى في الحرب...

* * * *

الفصل السابع والعشرون

- 1 -

يناير *1974* أحد الأيام الممطرة، فوجئت به أمامي في ردهات مركز تأهيل مصابي الحرب بالعجوزة.

- سيادة العميد عادل صبري.
- إزيك عامل إيه.
- تمام يا افندم، كل شيء عال، كنت عايز أرجع النصف فدان المتأجر، أصل أخوي الكبير استولى على أرض أبوي، كتب الحيازة باسمه وأنا ما ليش مصدر رزق، وسيادتك عارف... الحالة ضنك، مزنوقة، الواحد زهق من الحال، والبطالة وحشة.
- مستحيل يا عبد الله ترجع أرض من مستأجر.
- حاولت بالقانون والعرف، وفشلت.

- اسـمع تشـتغل في شركـة النيـل للطـرق والإنشـاء، ح أعينـك في أقـرب مكان لبلـدكم، انـت مـن منـوف، فيـه مشروع نواحي هناك.
- تمام يا افندم.
- أنا ح أكلم الورداني يعفيك من الحضور والانصراف، إيه رأيك، ولا اسيبك تفكر.
- أفكـر! يـا سـيادة العميـد دا انـت نجـدة وهبطـت مـن السما، أنا زهقت من البطالة، ربنا وحده يعلم، الواحد قاعد يرتكب ذنوب من قلة الشغل.

قال العميد وكأنه أهين: ليه. احنا اللي حاربنا، ولنا في البلد دي حقوق، أخدت تعويض إصابة الحرب؟

- تمام يا افندم بس تكفي إيه، خُلصت في بنا الدار.
- خد الكارت ده واطلع على الورداني رئيس قطاع التنفيذ بالمؤسسة، عدى عليه في مكتبه، ح تتعين على طول.

قال بانبهار: والله العظيم يا افندم.

أجابـه العميـد غاضـبا: أُمَّـال فـاكر إيـه؟ البلـد دي بتاعتنـا، امسك الكارت واطمئن.

- ٢ -

تحتـل مكاتـب إدارة شركـة النيـل للطـرق والإنشـاء إحـدى شركات القطاع العام عدة طوابق، في إحدى عمارات القاهرة، الواقعة وسط المدينة، والتي تفوح منها رائحة العطن والقدم، المداخل القذرة، السلالم المتآكلة، الأثاث المتهالك المكدس،

وسط بقايا القاذورات، تمتلئ بها الممرات الخارجية، حوائط عارية مدهونة بطلاء الجير تشيع الكآبة، بين فينة وأخرى تعبر الطرقات كائنات غريبة، وجوه بشرية نحتت من الصلصال، طعجتها قبضة شيطانية نزعت عنها إنسانيتها، وأبقت لها دناءة وقدرة الكائنات الدنيا على التكيف، وسط عفن طبيعة ضنينة، ظربان، غربان، فئران، قطط، ذئاب، ضباع، عناكب، عقارب، موظفون جهلة تآكلت عقولهم، يخفون براعة لا نظير لها في إنتاج البلادة والفساد، ونساء دميمات لزجة تنتمى لعالم أفراس النهر، وسعاة صفر الوجوه، مقوسي الظهور، يواجهونك بنظرات هي خليط من المسكنة الشحاذة وتمكن الضعفاء وانسحاق التسول وفجور الابتزاز.

الطابق التاسع مكتب رئيس مجلس إدارة المؤسسة ورؤساء القطاعات، لا يمت لباقي الطوابق بصلة، إلا من حيث غثاثة الذوق الحيواني، ممرات فرشت بالسجاد، وجدران مطلية بدهانات زيت رمادي قبيح، معلق عليها صور لمشاريع الشركة.

في مكتب رئيس القطاع التنفيذي جلس مدير عام مديرية الطرق والكباري، يحيط به عدد من مهندسيه، في مواجهة رئيس قطاع التنفيذ بالمؤسسة وعدد من مهندسيه، قطط وجرذان، وفوضى عائلية، قطط وفئران تبادلت مواقعها، جرذان الحكومة وقد خلعت جلد الجرذان النتنة، وارتدت جلود القطط التي تنازل لهم عنها مهندسو المؤسسة عن طيب خاطر، وانتفخت أوداجها بفرح وابتهاج، وقد غمر قلوبها عشق ووله شبقي لتمثيل دور السلطة في العلن، وفي الخفاء المسكنة والمذلة لأولياء نعمتهم، مهندسى الشركة.

- هيا يا باشا إمتى ح ترسل العطا؟

سأل المهندس سعيد جرذ المديرية، الورداني قط الشركة الشرس، ورئيس القطاع التنفيذي للطرق، الذي أجاب وكأنه يعود من سماء بعيدة: على طول يا باشا، الحمار اللي جنبك (وأشار ناحية أحد مهندسيه)، بيدرسه.

تدخل مدير المديرية: جرى إيه يا سي مجاهد، عايز حد يفوَّقَكْ.

أجاب مهندس في السادسة والثلاثين من العمر: أبدا يا باشا، أنا في انتظار أوامرك. اهتز جسده الممتلئ المدملك منتفضا، واستدار إلى مهندسه مستفهما وهو يشوح بيديه: الله! هو مش كل شيء واضح.

أجاب سعيد مؤكدا بإيماءة من رأسه: طبعا يا باشا كل شيء واضح.

نظر ناحية مجاهد تاركا له مهمة فتح الحديث، لكن مجاهد فضل أن يطرح جرذان المديرية عرضهم بأنفسهم، غير راغب في أن يتحمل مسئوليته، ولا أن يمد لهم يد المعونة، إمعانا في إذلالهم، وحتى يمنع عنهم جني ثمار المنة التي سيمنون بها على الشركة من هذا العرض، اكتفي متعللا في نظراته التي تبادلها مع سعيد من وراء ظهور الآخرين، إنه لم يجرؤ على عرض هذا الموضوع على رئيسه، برغم أنهما في حقيقة الأمر قتلاه البارحة بحثا.

مسح المهندس سعيد المكان بنظرات قلقة، كان يعلم أن رئيسه سيغضب إذا قاما من جانبهم بطرح الأمر على الشركة، سيبدون مثل امرأة عجوز تعرض على شاب مضاجعتها... هز رأسه بلا مبالاة عاهرة، صوب ناظريه إلى الورداني، مائلا

بجذعه نحوه، وقد أفتر ثغره عن ابتسامة واسعة ملأت شدقيه: هيء... هيء... هيء... هو مجاهد ما قالكش ولا إيه؟

استدار الورداني ناحية مهندسه متصنعا الغباء: قال إيه؟

زفر سعيد زفرة امتعاض: أعمل فيك إيه يا مجاهد، ما تصحى للون.

هتف الورداني لمجاهد بغضب: فيه إيه؟

عقب مدير المديرية: هو كل مهندسيك من النوع ده؟ ما تنقيهم يا ورداني.

تدخل سعيد: لا يا افندم، مجاهد مهندس حلو يعجبك، بس المرة دي مش عاجبني.

تدخل مجاهد بخبث: أنا كنت اليومين اللي فاتوا في المنوفية، والله العظيم أول مرة أشوف الباشا دلوقت، المهم إيه المشكلة... !! أدى الجمل وأدى الجمال.

- هيء... هيء... هيء... خير... خير.

عقب الورداني وقد آن أوان الحديث: خير؟

أشار سعيد لرئيسه: سعادة الباشا له رأى... تدخل مختار السيد بغضب وعصبية واضحة: لا...

توقف سعيد عن الضحك، واستطرد بابتسامة لزجة: واحد مجهول له رأى يفيدنا كلنا، -وأكمل بجدية-باختصار بدل ما تتعبوا نفسكم تنزلوا مناقصة، ممكن تكسبوها وممكن تخسروها، طبعا احنا بنساعدكم، لكن مفيش حاجة مضمونة، ممكن شركة تطلع لك متعرفش منين.

عبرت وجوه الجميع بحمية عن الموافقة والامتنان، قال ممكن العملية تنزل لكم بالأمر المباشر، ويا دار ما دخلك شر.. أدار الورداني رأسه بتثاقل.

- هو مين اللي يقدر يعمل كده؟

- بالضبط وهو دا الموضوع.

- ما انت عارف يا سعيد، إسناد العمليات بالأمر المباشر، موضوع له حدود، وحد أقصى.

- هيء... هيء... ما هو عشان الحبايب، الغالي يرخص، انت مش عارف ولا إيه، ما كوبرى(6) أكتوبر ، واخده عثمان بالأمر المباشر، وما أدراك ما كوبري (6) أكتوبر.

- اللي أعطى كان السادات، واللي أخد عثمان، ومتأخذنيش يعني، إيه جاب لحاب.

ضحك سعيد وهو يشير إلى رئيسه: طب ما هو الباشا من العائلة العثمانية.

فكر الورداني ... عارف، لكن لو سارعت بالتعبير عن البهجة سيركبنا جميعا، الآن يقيس كل منا الآخر... طبعا... ما السادات وضع كل أعمال المقاولات في جيب عثمان، كل البلد في السلة العثمانية، فكر أن إدارة الشركة كلها تنتظر مفاوضته التي يجريها الآن مع مدير مديرية الطرق الجديد، لم يكن يظن أنه سيكون واضحا هكذا... لا... أتركه يعرض كل ما عنده...

قطع مختار السيد أفكاره: اسمع يا ورداني بيه أنا شايفك قلقان، يهمني إنك تعرف الآتي، أولا دا عصر المليون، اللي مش ح يعرف يعمله النهارده عمره ما ح يشوفها، ثانيا... أناح أقسم المديرية أربع أقسام، كل شركة من الشركات الكبيرة ح تتولى

أعمال الرصف في منطقة من الأربع مناطق، لا تقولي مناقصات ولا عطاءات، ولا تقولي مديرية ولا شركات.

همس سعيد منشكحا: يعني كله على كله.

واستطرد مختار السيد: لازم يسود التعاون بين الجميع.

قاطعه مجاهد: طبعا يا افندم التعاون موجود.

- عارف... لكن التعاون اللي فات حاجة، واللي جاي حاجة ثانية، واضح يا ورداني؟

- واضح يا باشا واضح جدا.

... فكر الورداني... ليس هناك أوضح مما تقوله...

- لأ مش واضح، التعاون اللي ح يخلينا كلنا شركة واحدة، وافهم انت معانا ولا لسه ح تفكر، شايفك عمال تفكر م الصبح. ضحك الجميع وضحك الورداني بنعومة... منجم دهب اللي يتأخر خسران، قال: يا باشا واحنا نقدر نقول لا، احنا كلنا تحت أمرك.

انزاحت أثقال التوتر من الغرفة وخيم جو الارتياح على النفوس، استأذن الورداني خارجا لقضاء حاجته، وذهب مباشرة إلى مكتب رئيس الإدارة، أمضى عشر دقائق، ثم عاد ثانية إلى مكتبه، هذه المرة لم يجلس على مكتبه بل دعا مختار السيد للجلوس عليه.

- خلاص يا مجاهد (قال سعيد) ألغي بقي موضوع دراسة العطاء، واعمل لنا قائمة أسعار ولا إيه يا باشا؟

قال مختار السيد: ما عنديش مانع.

نظر مجاهد مفكرا: بس الموضوع يا افندم في إيد المهندس منير.

قال مختار: طب وأيه يعنى.

- حضرتك عارفه مزودها شوية.
- اقلبه، ح يتم نقله لعمليات وسط الدلتا فورا.
- طب والأسعار؟

عقّب سعيد: زود زي ما تحب، وقال بصوت أقل مستوى وهو يبتسم، ما كله ح يتقسم بينا.

مد مجاهد يديه معبرا عن احتياجه للتحديد: المدى!

فرد سعيد ذراعه: زوّد أسعارك 200%.

فتح الورداني فاه على مصراعيه...

- طبعا، انت تحط أسعار عالية جدا، واحنا ننقص شوية، هي العملية مش محدودة بينا بس، المرة دي فيه رؤوس كبيرة.

قال الورداني بتلطف موجها حديثه لسعيد: ما تنساش يا سعيد بيه إن احنا حكومة، وفيه رقابة إدارية وجهاز مركزي للمحاسبات، يا مختار بيه، أنا رأيي إن احنا نرفع الأسعار وكل حاجة، بس من خلال مناقصات موجهة، مسيطر عليها وباتفاق بين الشركات وبعضها، ونرفع الأسعار زي ما سعادتك عايز (*20% 30% 50%*)، شوية وبعدين يا سيدي حتى (*300%*) مش مهم، حد يكره الخير لنفسه.

بان الاعتراض واضحا على وجه مختار السيد، قال مجاهد: طب يا افندم نستخدم البنود الوهمية، نظروا نحوه بوجوه مستغلقة على الفهم.

فاستطرد: البنود الاختيارية، نرفع السعر بنسبة معقولة، بالإضافة إلى خمسة أو ستة بنود وهمية، تاخد اللي سعادتك عايزه.

قال سعيد لرئيسه بفجور وابتسامته اللزجة الواسعة تملأ فمه:

- ما احنا شغالين برضه مش ساكتين.
- بنود وهمية، بنود وهمية زي إيه؟

هزّ الورداني كتفه، نظر مستنجدا بمجاهد الذي قال: كتير يا افندم، الميزانية الشبكية، أعمال الحفر والردم، نوع التربة؛ طينة ولا رملية ولا صخرية، تكسير خرسانات، وغيره.

استطرد المهندس سعيد باهتمام مبالغ فيه يحدث رئيسه: تكسير الأسفلت، يعني يا افندم بنود زي دي بقرة بتحلب ذهب، احنا عمرنا ما كسرنا الأسفلت القديم، منين؟ حضرتك عارف، شركات الرصف لا تملك معدة واحدة تكسر متر مكعب أسفلت، كلها معدات معدومة، لكن ولو، كل الأسفلت القديم لازم ينزل المستخلصات متكسر، ما هو انت مسفلت فوقه حد عارف إيه اللي تحت.

قاطعه رئيسه مختار السيد: انت ربنا ح يدخلك النار حَدّفْ يا سعيد... ضحك الحاضرون... أجابه بمكر: مدام ح نكون صحبة مع الباشا. تصاعد الضحك.

استطرد سعيد: يعنى سعادتك لما تحسبها في شارع بطول كيلومتر، مش أقل من 60 ألف جنيه صافي، حسبة على الورق، شوية مستندات، ما تصرفش عليها فلس، ما تبذلش نقطة عرق، شوف بقي احنا بنسفلت كام كيلومتر في السنة.

هز الورداني رأسه بالموافقة، لكنه فوجئ بمعارضة قاطعة من مختار السيد:

- ممكن استخدام حيل وألاعيب زي دي للشبرأة وبرو الحنك... على العموم بكرة أبعت لك أسعار العمليات اللي أرسيت بالأمر المباشر، اختار أعلى الأسعار، فاهم أعلى الأسعار يا ورداني، اللي يشوفنا يقول علينا بنفض بكارة واحدة عذراء وخجلانين، لا لا لا... انت باين عليك مش عايز تفهم يا ورداني...

نظر للجالسين وأشار لهم بالخروج: سيبونا شوية يا ولاد، برة أنتم دلوقت.

هز سعيد رأسه بابتسامة صفراء سعيدة... وقال مجاهد بجدية:

– أوامرك يا سعادة الباشا.

لحظات حتى خلى المكان، قام متجها ناحيته، طرق كتفه برفق وهو يشير إلى ثلاثة مقاعد وثيرة في نهاية الحجرة.

– تعال نقعد هناك يا ورداني، يمكن ناوى تسجل لي. وضحك.

– أنا يا افندم.

– انت صدقت، اسمع.

– طلباتك يا باشا.

– ابعت هات عزمي صليب.

أشار إليه باستهانة وعلى وجهه نظرة مستغلقة:

– ابعت هات رئيس مجلس إدارة شركتكم، موجود ولا مش موجود، أنا عارف إنه موجود.

- أيوه موجود يا افندم ثواني وييجي.

قام يحضره... عندما حضرا سويا؛ قدم كلا منهما إلى الآخر، فاجأهما بالحديث: طبعا بتقولوا الرجل دا مخبول، جالنا منين (ضرب بيديه الفضاء)، بلاش المقدمات، العرض اللي عرضته عليك يا ورداني لنا فيه قد إيه، طبعا عزمي عارف كل حاجة، ولا محتاج نبتدي من جديد. أبقيا على صمتيهما.

- كويس.

قال الورداني عاجزا عن كظم غيظه: ما أنا قلت، طلبات السيادة؟

- عرضك؟

نظر المهندس عزمي إليه بقلق وقال: الشيء المعقول والعادي.

- أعرف إيه هو؟

- المهندس الورداني يوصله شهري راتب 200 جنيه طبعا حضرتك عارف... بره مرتبه... ويا باشا سعادتك ما تقلش عنه... حضرتك تاخد زيهم...

انفجر مختار السيد يضحك بصخب بالغ... انثنى للأمام ممسكا معدته:

- وده يبقي مليون في كام سنة إن شاء الله لا... لا....

قال المهندس عزمي: تفضل نسبة؟ سعادتك ألأمر... (3%) حلوين...

شوح بيديه غاضبا: هو أنا عيل بتفرحنى ب(3%) احنا بنتكلم عن ملايين، وأنتم يا بتستعبطوا يا مش فاهمين.

نظروا إليه في حيرة... ونظر إليهما وعقله يفكر كيف يشرح لهما الأمر...

قال الورداني: يا باشا نورنا، قولنا إيه اللي في مخك، خلينا معاك في الصورة عشان نفكر سوا.

- جميل اسمع يا ورداني، عندك كام مقاول باطن في العملية.
- والله ولا واحد.
- يعنى بتدخلهم بالنسبة.

هز رأسه بالنفي. فكشر عن وجهه متراجعا.

- لا الكلام دا مينفعش، اسمع الحكاية دي، لما واحد يموت ويسيب ثروة كبيرة قوى وأنت الوصي عليها، الحساب يروح لمين، للورثة، لكن لما يكون الوريث مريض بالغيبوبة، تبقي الثروة ملك مين؟ للي حارسها فهمتم. طبعا لا.

وضع كفه على مقدمة ركبة عزمي صليبة وقال بصبر: عبد الناصر جمع ثروة مصر وحطها في الحكومة والقطاع العام ومات، الله يجحمه، فكركم ح ترجع لباشوات الملك، أبدا...!! احنا حارس على ثروة مالهاش وريث، طب الاشتراكية وانتهت، يبقي القطاع الخاص، هو فيه قطاع خاص؟ فيه دكاكين قطاع خاص، لسه مفيش رأسمالية متركز في أيدها ثروة البلد؟ لأن الخزنة لسه ما اتفتحتش...

... السادات أعطى الضوء الأخضر، قال لرشاد عثمان: إسكندرية بتاعتك يا عثمان، بالعقل كده هو ح يشجع القطاع الخاص إزاي؟ مش لما يبقي فيه قطاع خاص، طب يا ولاد الكلب قاعدين نعمل إيه، نشتغل في القرش والقرشين والراتب

الشهري! ... هو انت فاكر أبقي أنا متحكم على ميزانية الطرق بالمديرية، ملايين الجنيهات كل سنة، عشان ييجي عيل فافي، ولا مقاول بلبدة ما يساوى نكلة، يحطهم في سيالته ويهرب، وأنا وأنت لسه موظفين نقبض ملاليم آخر الشهر؟ لا يا بهوات، جحا أولى بلحم توره... هو دا يا ورداني مربط الفرس، لعبة الكراسي الموسيقية ح تبتدي، اجري والحق كرسي وإلا ح يكون مصيرك في الباى باى.

وقف الورداني، وقد أثارته رؤية فأر حكومي يتحول إلى قط شرس، قال باستياء: إيه الكلام الفارغ ده، تور مين وبتاع مين... انت شارب؟

أجاب مختار في ضجر غاضب: اقعد يا ورداني، احنا مش في اتحاد اشتراكي، ملفك عندي، انت والعيال المقاولين بتوعك، أنا عارفهم واحد واحد والملف بالصور، عايز أمارة، الواد صديق ابن أخوك اللي محتكر الأرصفة، أكمل يا عزمي؟

قال ضاحكا: يا مختار باشا مفيش داعي، الورداني مش فاهم.

- أهو دا عيبه، كده نتعطل ومفيش وقت. استطرد ساخرا: هو متوتر شوية، وده يعجزه عن التفكير، يخلى مخه تخين. استدار إليه: فتح معايا وبص يا خوى...

اتجه ناحية المكتب، وخلع سترته الشمواه فجأة، وألقي بها إلى أحد المقاعد مشمرا عن أكمامه وقفز فوق المكتب، وعيناه تنظران إليهما، وبحركة مسرحية قال: بص خزنة مصر... حتة منها مش كلها... تحت رجلي لمدة خمس سنين

يمكن عشرة، ربنا وحده اللي يعلم، أعمل إيه... أمسك في أيدي جاروف.

انحنى يتحرك بجسده جيئة وذهابا، صارخا بعصبية بالغة: واقلب. واقلب. واقلب... طبعا محتاج حد معاى يعبى، مقدرش أعمل المهمتين في وقت واحد، أنا ح أغرف وهو يعبى، أنا وأنتم نغرف واحنا الاتنين بقي شركة سوا، بس محتاجين حد يعبى، طبعا دي معروفة وأنتم عارفينها، ولعبتوها، وبتلعبوها، بس زمان كانت سبوبة صغيرة، حتة على المقاس عشان متنكشفش، الفلوس كانت عورة أيامها، النفوذ كان في السياسة، في الاتحاد الاشتراكي، لكن دلوقت وضع تانى، ثروة البلد كلها في كوم مالوش صاحب، ولحظة بدء الإشارة... الشعب كله جاهز للاندفاع للهبر، والهبش، واللي قاعد على حاجة هو اللي ح يكسب، والباقي تعيش أنت، ح يبص ويحلم، لكن احذروا، أول ما يترفع الستار عن كومة الدهب، كله ح يرفع الجاروف، وكله ح يشتغل غرف من الحتة اللي تحته.

انحنى وقام عدة مرات وكأنه يعبئ من كومة وهمية. استطرد: ح يبقي فيه صرعة نهب، زي حمى البحث عن الدهب، الجاهز ح يكسب، وأنا ح اعتمد عليكم في إن الجاروف يكون لودر، ببلدوزر، عايز في آخر المشوار أكون أنا وأنتم البزنس مان الحقيقي اللي في أيده سيجار، يلبس صوف مستورد وجزمة لميع، ويسافر أوروبا في طيارة خاصة، وننسى بقي فيلات الضباط الأحرار الكحيانة، وعزب الثلاثين فدان، والفيلتين اللي أدعى عثمان أنه أهداهم للحمار الغلبان جمال عبد الناصر عشان بناته تتاوى فيهم ويتستروا...

... أيوه يا اخويا، ننسى معاش الحكومة، ونفكر في القصور والمرسيدس بسواقها، وأرصدة البنوك، وفيلات نيس ومونت كارلو، البزنس مان اللي جاي لازم يكون أنا، رجل بنوك، وإذا كان حد تاني فلازم أكون شريكه، اسمع يا ورداني إن كنت خايف... السادات ح يعطل شغل الرقابة الإدارية، وأفهم إذا كنت عايز تفهم.

هز الورداني رأسه والبهجة تكشف عن نفسها في وجهه، وغمغم:

– احنا تحت أمرك يا سعادة الباشا، نحط المبادئ.

ضحك مختار وهتف بفُجّرْ: هأووو، أول مبدأ تفتح لي مخك، والتاني لازم "تشبرأ" العيال اللي برة، لازم لكل واحد فيهم، سبوبة وسبوبة حلوة، لما أخد مليون يبقي الواد سعيد لازم تكون عنده عربية، وشقة، والواد مجاهد لازم يتحين كويس، عايز المجاري تبقي سالكة للفلوس، ما يكونش فيه نقط اختناق، أما المبدأ التالت... هو أنا ح أقول لكم كل حاجة. لا انت وجعت دماغي كتير.

– يا افندم، دا دماغ سعادتك دهب.

– عايزين نوزنها.

– الليلة يا افندم، قُلِنا بس صنف سيادتكم إيه.

– قبل ما نتكلم على الصنف، نادى ع الواد الخول اللي اسمه مجاهد يعمل قايمة بالأسعار.

غمغم مجاهد: ما نبنا إلا الشتيمة.

نظر الورداني إليه مصطنعا الغضب: ليه يا روح أمك؟ كبير على الشتيمة.

– لا يا باشا شتيمة معالي الباشا مديح، غزل.

– أيوه يا (...... .) أمك ح نبتدي! يلا هات الجاتوه والساقع، قبل ما الباشا يزهق ويزعل مننا.

– حاضر، ثواني يا بيه.

عاد الصخب والفوضى يملآن المكان، وبينما كان السعاة يرتبون المكان ويقدمون الحلوى والمثلجات، قطع الحديث دخول شاب في أوائل الثلاثينيات من العمر، شق طريقة باتجاه المهندس مختار السيد: اسمع يا منير سلم دفاتر العمليات للمهندس سعيد، وجهز نفسك تنتقل لعملية في وسط الدلتا، انت مش زهقت من شغل المكاتب، انزل أشرف ع التنفيذ.

– والعطاءات اللي مطلوب دراستها.

– خلاص ح أشوف مهندس آخر.

ولم يكمل إذ نظر إليه مصعوقا وهو يردد: آه سعيد يدرسها.

واستدار خارجا منسحبا في قرف، بعد أن عبر الباب بخطوات شاهد عبد الله، انفرج ثغره عن ابتسامة واسعة بهيجة، ابتسم عبد الله متذكرا، هتف: باشمهندس منير بشحمه ولحمه.

– عبد الله... !! تدافعا يتعانقان.

تساءل مجاهد: تعرفوا بعض؟

– خدمنا في نفس القطاع ع الجبهة، انت بتدور على عمل هنا. هز عبد الله رأسه مؤيدا، صاح منير في صخب: لا يا رجل دور على مكان نضيف... أبدى عبد

الله مشاعر العجز والاستسلام، فزم شفتيه مشيحا بكلتا يديه قائلا: الله غالب.

- مر عليّ، مستنيك...

دخل مجاهد وانحنى على الورداني هامسا، سأله: هو فين؟

نظر مجاهد ناحية الباب حيث كان وقف عبد الله قلقا، أشار له أن يقترب.

في المسافة بين مدخل الباب والمكتب الضخم استعاد ذهنه انطباعاته عن المكان، الفشل، الخسران، الضآلة، مشاعر عصرت قلبه بقبضتها القوية، ممر طويل مفروش بالسجاد، ثلاث ساعات من الانتظار. الجالس وراء المكتب، رجل عفي لا يبدو عليه السن، لسانه أوسخ من بلغة فلاح يخوض في روث البقر، له وجه الكباش وشعرها الصوفي الغزير، والتماع عيني البقر، خلفه وقف في انتباه المهندس مجاهد يرتدى نظارة سميكة، طويل القامة، ضعيف البنية بشرته لها لون بشرة سيده، وجهه وجه فأر لا ينشر سوى الطاعون، فأر أجرب يجمع في دأب فتات سيده الأكثر منه جربا، بعد أن يلعق ظهر يديه وباطن قدميه، وعلى المقعدين الوثيرين جلس بارتخاء مهندسا وزارة النقل، مختار السيد، قصير، ربعة، أبيض، عيناه خضراوان، له شارب هتلري، والآخر سعيد، قامة متوسطة في الخامسة والثلاثين من العمر، أمامه يمتد كرش صغير، تنم ضحكته الناعمة الساخرة المليئة بالاستهزاء عن شعور بالثقة والاطمئنان، وإحساس عميق بالأمان، وليس ثمة ما يخاف منه من حساب أو عقاب.

قرأ الورداني من ورقة قدمها له مع الكارت: تعال، هو عادل صبري فاكرنا مستشفى، ولا جمعية خيرية، كنت مصاب، ولا

حالتك إيه؟ إيه بقي حاصل على وسام بطولة الحرب، كنت معاه في الدفاع الجوي؟

- أيوه...
- واسقطت كام طيارة على كده؟

أجاب والعرق الغزير ينسال من وجهه: طائرتين يا افندم.

نظر نحوه بامتعاض غير مصدق: يا أبني هم كانوا كام طيارة وقعت... الكدب ح يشتغل. ضحك كل من في الكتب.

- والله يا أخي احنا بلد العجائب. واستدار يحدث مختار السيد: اتفضل يا سيدي.

قال سعيد ساخرا وضحكته اللزجة الممطوطة تسبقه: كوسه دي، تلاقيه واحد كوسه، وتابع ضحكته. عقب مجاهد بجدية: حتى في الحرب! بقي دي بلد ح تنفع، خلينا، خلينا في اللي احنا فيه، مين رماه علينا!

ألقى الورداني إليه بكارت التوصية: العميد عادل صبري، يا أخي بتوع الجيش دول، الواحد يتعين في المؤسسة فوق نافوخك تقول عليه موسى، أدب وذوق، شوية وينسى. أنه في المَدَنِية ويطلع فرعون. قاطعه مختار السيد: لاء وبكره ح يفرضوا عليك فرضا. قالها بثقة من يعرف بواطن الأمور: خطة تأمين القيادات العسكرية، أو تقول تسكين الجيش، بعدين ح تشوف الآثار الحقيقية لهذه السياسة.

عقب سعيد: خطة عزب المماليك... لا مؤاخذة يا افندم... البلد عزبة أصحابها العسكريين، هز مختار السيد رأسه بلا مبالاة: كلامك مضبوط، حتى أنا ح اقلع عينيك النهارده لما نرجع الإدارة... ضحك الجميع... بقي سعيد

مبتسما راسما الانزعاج على وجهه... هتف مجاهد: أيوه، أوقف انتباه، ذَنِبْه يا افندم.

مال مختار بجسده الممتلئ للأمام، واضعا يده في جيب، ولمس بالأخرى ركبة الورداني برقة، وهز رأسه، رافضا دعابة مجاهد، همس: يا رجل أطلب منك فيلم أتفرج عليه أنا والجماعة، تطنشني. ضحك سعيد ضحكة خليعة، ودار رأسه دورة كاملة، انتقلت ضحكته إلى الورداني، استطرد مختار السيد، بابتسامة خفيفة: نعمل إيه البنزين خلص، مطلوب بنزين عشان المحرك يقوم.

- ما انت بتعتمد على عالم أي كلام، حاضر يا سعادة الباشا، يوم ويكون عندك المطلوب.
- ليه مش النهارده؟
- الله... عندي تعمير محركات الليلة هو احنا مش زي الناس. انفجر المكتب بالضحك. قال سعيد: الله يا باشا، كنت فاكر إنك لسه بخيرك، مش محتاج مثيرات صناعية.
- التحبيش مطلوب يا سعيد.
- تمام يا افندم، طلبات سعادتك إيه؟ سويدي ولا أمريكاني.
- لا صعيدي...

ضحكوا حتى اغرورقت عيونهم بالدموع، استدار يحدث عبد الله: أيوه يا أخينا، مش فاهم، قلت لي إصابة حرب، الواحد ممكن تصدمه عربية شاردة في الطريق، هه... أشار له أن يقترب منه، أمسك بذراعه يجذبه، ضغط بأصابعه

المخلبية يجس فخذه وسمانة ساقيه بشده، مثل نخاس، وعبد الله يبتلع الإهانة بصبر.

- مش فاهم إيه إصابة الحرب، انت ما شاء الله جتة، وحش.

سمع عبد الله مجاهد يهمس: عجل.

رآه يضحك بسرور وهو يبتسم لمختار السيد، استطرد الورداني: يعنى عايز تشتغل، ولا تتعين وتقعد في بيتك، يعنى أفهم.

ظهر الاضطراب على عبد الله، باغته ثانية باستهزاء دون شفقة: فين إصابة الحرب وقدميك طبيعيتين، لا ايد مقطوعة ولا رجل ناقصة.

قال عبد الله متجهما: كسر. وتهتك في الساق وتهشم في عظمة الفخذ تسبب في عجز 20%.

- عجز يعنى سعادتك مش ح تشتغل، خلينا نقولها بوضوح.

مال المهندس مجاهد على الورداني، قال بصوت خافت، لم يهتم بما إذا كان عبد الله سيسمعه من عدمه: يا افندم العمالة الزائدة مدمرة للشركة، ورفع رأسه محدثا مهندس مديرية الطرق، البطالة المقنعة غول بليد نهم، قاعد على قلب الشركة، يأكل فيها ببطء، يخرب بيته مطرح ما راح، خربها ورحل. قاصدا جمال عبد الناصر...

استمر الورداني: عامل عجز! ولا عامل عجز ولا حاجه، ما انت زي البغل، بذمتك، مش تقدر تجر ساقية؟ الإصابة، حصلت إزاي؟

علق سعيد ساخرا: أكيد وهو متشعبط في القطر الحربي، ها ها، ها... تجاوب معه الجميع ضاحكا... عقب مجاهد: أو كان مسطح على القطر...

- هربان من الكمساري... هيء... هيء... هيء...

لم ينطق عبد الله لكن الورداني ظل منتظرا الإجابة، ولما أبقي عبد الله على صمته أعاد سؤاله: صحيح قلت لي اسمك إيه؟

- عبد الله عبد الجليل رزق.

- صحيح يا عبد الله، وأنت بتعدي بين عربات القطر الحربي... وأنت متشعبط! قول متخافش.

استقام لأول مرة منذ دخوله الحجرة وتدفق بالحديث: لا يا افندم، أنا مش بخاف، سبب الإصابة صاروخ (جو -أرض)، أطلق من طائرة فانتوم (4)، وأنا على مدفع شيلكا، أثناء قيام العدو بإحكام الحصار على الجيش الثالث في *19* أكتوبر *1973*. واحنا على الضفة الغربية للقنال...

ساد صمت طويل والورداني يحدق نحوه مغتالا، من فوق نظارة القراءة المحملة على وجهه البقري:

- طيب، مجاهد، انت طالع العملية دلوقت. خذ عبد الله معاك، فرجه على الموقع ومكان الشغل وسلمه عمله.

- والأوراق يا افندم؟

- أوراق إيه يا مجاهد.

- أوراق التعيين.

- أسبوع كفاية يا عبد الله.

- ايوه يا افندم.

قالها عبد الله بلهجة نشطة تعبر عن امتنانه، وأن ما حدث منذ قليل قد نسيه.

- طيب يخرج دلوقت على مكتب شئون العاملين، ياخد بيان بالأوراق المطلوبة، وبرضه تطلع مع مجاهد، وبعد أسبوع سلمه للمهندس أميل، ينزل معاه عمليات المنوفية، ورق ناقص مش ناقص يستلم، فاهم.

- والباقي يا افندم.

- يا مجاهد بطل لؤم النسوان ده. ضحك الجالسون وهز سعيد رأسه: مجاهد، يا لطيف، نفسي. فيفي مراتي تبقي زيك ولو في حاجة، أيوه أصل اللؤم في الزمن دا فصاحة... واستطرد في ود: وأنت يا أخي عليك فصاحة.

- ما تغَضَبْشْ سعيد بيه، دا مهندس الحكومة، يطير رقبتك ورقبة اللي خلفوك، واللي يتشدد لك حتى لو كانت فيفي.

- يا افندم هو احنا نقدر على سعيد بيه.

- طيب، تعينه، والورق اللي مجهزش يكتب تعهد بأنه ح يجيبه، وآدي خطاب لشئون العاملين بالتعيين، أعطيه للسكرتيرة تكتبه، يلا يا عم مبسوط، اسمك إيه؟

- عبد الله محمد عبد الجليل رزق، شكرا يا افندم ألف شكر.

قالها متراجعا إلى باب المكتب... صاح الورداني من فوق نظارته: ريحه يا مجاهد، ريحه متتعبوش، وبعدين يا مجاهد

معلش يا بهوات لازم أكلمه، أحسن مجاهد دماغه بتاكله، يموت في الأذية، أفهم الراجل اتعين وفي أقرب مكان لسكنه، لا تقول له اختبار ولا يخزنون، دا مصاب حرب، طائرة ميراج... همس سعيد: فانتوم.

قال الورداني مصححا: فانتوم ولا حتى عربية كارو، موضوع ما يهمناش، ضربته بصاروخ (أرض - جو)، همس عبد الله مصححا (جو - أرض) ... نظر إليه بإمعان لوهلة ثم استطرد... (جو – أرض)، يعني مصاب حرب، وعلى قلبك، قاعد على قلبك، مش ح تقدر تعمل له حاجة، فريحه ريحه يا مجاهد.

- تمام يا افندم.

- 3 -

في ظهيرة اليوم دخل عبد الله والمهندس منير في سيارة بيك آب، تابعة لمؤسسة النيل العامة للطرق والإنشاء، موقع إحدى وصلات الطرق الرئيسية بوسط الدلتا، لم يكن ثمة أحد، وفي الأرجاء تناثرت أعداد من معدات الطرق الثقيلة، وآليات متهالكة ملقاة بإهمال، خردة عاف عليها الزمن، يمما شطر المخازن، حيث التقيا بالبسيوني أمين المخزن، كان مفترشا الأرض في ملابسه الداخلية، سروال متسخ من الكتان وفانلة قطنية وحوله ثلة من العاملين بالمؤسسة؛ مهندسون وسائقو معدات ولوريات، وفنيون ومقاولو أنفار، وبجواره إناء فوق موقد غازي ممتلئ باللحم يفوح منه بخار كثيف، قال البسيوني مرحبا: الخير على قدوم الواردين.

أجاب منير بجفاء: أشكرك... المهندس مجاهد؟

أجـاب مهنـدس الموقـع إميـل: سيصـل مـن القـاهرة خلال أسبوع... وعقب... حضرتك مهندس المديرية.

- نعـم، وهـذا عبـد الله رزق، معـين للعمـل معكـم بالمؤسسة.

حيوا عبد الله باقتضاب وحذر، وقد أخذ عليه قدومه بصحبة مهندس الحكومة، قال البسيوني متصنعا البلاهة: أهلا بالبيه المدير إنشاء الله ح تشرف على المشروع؟

- نعم... مين المهندس المسئول؟

- أنا... أجاب إميل.

هز منير رأسه متفهما: إمتى نبدأ.

قال البسيوني ببلاهة: بسرعة كده، إيه يا بيه، احنا لسه بنقول يا هادى.

حـدق منـير باسـتغراق، وارتسـمت عـلى فمـه العـريض ابتسامة باهتة شديدة السخرية: حضرتك مين؟

أجاب الآخر بابتسامة واسعة يخطب بها وده: بسـيوني السيد، المخازن دي كلها تبعي... وأشار إلى الخلاء ضاحكا.

ضـحك منـير وعقـب: مخـازن مـن الفـراغ أُمَّـال فـين التشـوينات، أنـتم طـالبين ربـع مليـون جنيـه تشـوينات، أيـن التشوينات يا خازن المخازن؟

سـاد ارتبـاك سـببه ضـخامة المبلـغ المـذكور، قـال إميـل بحماسة وقد بدا كمن أسعفته قريحته: موجودة، التشوينات موجودة يا سعادة الباشا، جزء مشون على جانب الطريق، والباقي استخدم في الرصف.

مط شفتيه متصنعا الدهشة: رصف الطريق؟

عقب البسيوني في حماسة: أيوه يا باشا، عن آخره.

عقب متصنعا عدم التصديق: عن آخره! المفروض تطلبوه أعمال منفذة، تحصلوا على فلوس أكتر. بدا البسيوني كمن وقع في شرك، تدخل إميل مقاطعا: مفهوم طبعا حضرتك، لكن التشوينات استخدمت بعد عمل المستخلص.

قال منير بسخرية: ياه، نَفَّذْتُم في أسبوع أعمال موادها فقط بربع مليون جينه، ما شاء الله! بس أنا مش شايف معدات؟

هز راسه متعجبا ناحية إميل: ممكن، ممكن ده؟!

قاطعهما البسيوني: عموما الباشمهندس مجاهد يوصل بعد أسبوع.

هز منير كتفيه: أسبوع! أظنكم مستعجلين على المستخلص.

تراجع البسيوني من فوره، قال بعد أن أوقعه منير في حيرة: طبعا مستعجلين يا بيه، مين قال غير كده (أشار إلى الجالسين)، الناس دي كلها جيوبها فاضية، وعايزه تملاها، والبركة فيكم.

هز منير كتفيه كمن ليس بيديه شيء: ننتظر المهندس مجاهد، الله غالب.

قال البسيوني بجديه: وليه يا بيه ننتظر الباشمهندس مجاهد. (أشار إلى إميل)، قدامك مدير المشروع، مهندس ملو هدومه. قال ببرود يخفي سخرية: فين؟ وعقب: آسف، المهندس إميل طبعا. حدث إميل: بكرة نبدأ في مراجعة الأعمال، يومين ونبدأ العمل في المستخلص، واجهته صيحات

الاعتراض استطرد: عارف، عايزين ننهى الموضوع في ربع ساعة، كل شركات المقاولات يصيبها السعار، لما يحين أوان المستخلص، سننتهي منه في يومين.

صاح البسيوني بانفعال وَلَهجة مملوءة بالرجاء: ليه يا يبه؟ دا مستخلص جارى، زائد ناقص مش مهم، الناس يا يبه أعمالها واقفة، عمال منتظرة أجورها، ومقاولين عايزين يسددوا التزامات عليهم، بنوك، وعمال، وموظفين، وإيجار معدات وعدة. تدخل أحد مقاولين الباطن: أيوه يا بيه، والله العظيم وأيمانات المسلمين عندي إيجار معدات ثلاثين ألف جنيه غير المعدات وخلافه.

كان يبالغ... وقبل أن يتحدث منير تدخل البسيوني ثانية: احنا أصبحنا ع الحميد المجيد... ضحك الجميع، واستطرد البسيوني ثانية: أُمَّال بالكم ندور في مصلحتكم وننسي مصالحنا.

ضحكوا ثانية... قال إميل: عداك العيب يا عمدة.

لوح منير في وجهه وهو يضحك: انت بقي العمدة.

- أيوه، أنا عمدة المنطقة، يعني مصلحة لك أنا نخلصها طوالى، مزاج والذي منه، أي خدمة من مأمور المركز ورئيس المباحث ذاته، والله أتكلم جد، شوقي بيه، خيرنا عليه... قصدي، وضحك بفجور: خيره علينا.

- تعرف يا بسيوني المشروع السري العام.

أجاب البسيوني باستهزاء: مش اللي جنب المطار السري، أيوه نعرفوه، ونعرف أمه اللي ولدته، واللي خلف أبوه... شحن

فضاء الحجرة الواسعة فجأة برائحة التحدي الفظة، وانفجر المكان بالضحك.

- عليك نور، تنفع فيه.

قاطعه: مدير المشروع.

- بالضبط.

- أيوه يا بيه، المدير السري، معاك حق، أشار إلى الخلاء الذي يحيط بهم، ضحك الجالسين، ومنهم إميل الذي ضحك على مضض، عقب البسيوني مبتهجا: الله دا الباشمهندس فاهم الفولة بقى... واستطرد بصوته الجهير:

- طيب يا عم خلص المستخلص عشان أشوفك.

كان التعريض واضحًا... أجابه منير: على بركة الله، بكرة نمر أنا ومدير المشروع المزيف، بعد بكرة نبدأ في المستخلص، والآن نرحل... واستطرد موجها حديثه لعبد الله: ح تبقى، إن شئت لا ترتبط بي.

أجابه إميل: لا يا سعادة البيه، الأخ يروح دلوقت، ويحضر بكره.

قال عبد الله: الله يبارك فيكم. وبينما منير عياد يغادر المكان انتحى إميل بأمين المخزن جانبا يستشيره في أمر ما، ولما انتهى سارع باللحاق بالمهندس منير. عندما بلغه كانا وحيدين.

- يا باشمهندس، اتفضل مفاتيح الفيات.

- وأنت تركب إيه؟

قال مبتسما: ح نتصرف، ح نشوف مقاول يحضر سيارة بكره.

– دا يفيدني بشيء؟ احنا لنا سيارات على العقد.

كاد يصدر عنه صوت قبيح، لكنه كظم غيظه، وأجاب يوافقه، مصطنعا الدهشة: حتى لو مفيش، احنا في خدمة الباشا. وبعدين دي تعليمات الورداني بيه.

- 4 -

الليل والمطر والشمس مختفية خلف الغمام ترتعش بالغضب، امشي يا ابن عبد الجليل، سير على حواف الطريق لا تدري أين المبتدأ ولا أين المستقر... اللعنة على نفوس البشر...

العالم شرايين من الأسفلت، أسفلت أسود من ظلام الليل، تسبح على صفحته سيارات السادة، وشاحنات الجنود الذاهبين للحرب، ويطويه العبيد ببادة... مين كتب عليك هذا المسير الطويل حافي القدم... فين الخيول يا أبو زيد، فين الرماح تطيح بهامات ردى الخال، وأشباه الرجال، فين القلوب تشد الرحال للسماء، ما أسهل الخيانة، ما أسهل التراجع والانسحاب، ما أسهل الاستسلام للغواية، فين السيوف يا أبو زيد، فين المنايا... فين العدا... فين النجوم تشرئب لها رأس الفتى... فين الجيوش تطوى البيادر... فين الرايات والبيارق تعانق السما... أسفلت دا ولا دما... أسفلت هذا أم دماء... أسفلت أسود من ظلام الليل، ناعم كالحرير، تتجرعه مسام باطن القدم التعيسة من السير الطويل... مطحون لحم ودم... الْعَقْهُ يا ابن عبد الجليل الْعَقْهُ...

منبر طوى إميل تحت باطه، وفي تلات أيام حصر. المشروع من بدايته، ووضع عليه توقيع أميل، ولما أنتهى ضحك بمكر، همس بابتسامته المعلقة على نهاية الفم.

- عبد الله، وضعت هؤلاء اللصوص تحت الضرس اليمين.

وكأنه الجحيم، في ليلة بعد العشاء حدث هياج في البلد، كل من قابلني يقول لي: الحق سيارة شيفروليه واقفة على باب داركم فيها ناس مهمين، بهوات كبار، انت عملت إيه؟

- الصبر يا جماعة الخير.

أمام الدار وجدت بسيوني في لباسه المتسخ بالدهن، ومعاه المهندس مجاهد واقفين، وفي السيارة مقاول الباطن المعلم حسن على عجلة القيادة، وفي الخلف بيه كبير في بدلة بيضاء، ما قدرتش أتعرف عليه، قلت للجميع:

- تفضلوا.

أشاح مجاهد بوجهه: ح نكون ضيوفك نصف ساعة ممكن؟

- يا خبر! على راسي من فوق.

ضحك بسيوني بخبث وقال: عبد الله كله مجدعة.

في المندرة سألتهم: شاي! أحضر الجوزة؟

لكمني بسيوني في كتفي: لا شاي ولا غيره، صاحبك عملها، مش ح تيجي البر، حذره، يسلم التقرير الموقع من الحمار إميل، وإلا يعلم، اللعب بالنار يحرق صاحبه، قوله، نبهه؛ عيار طائش على الطريق الزراعي بليل، طقم مباحث المركز كارت في جيب الصديرى الصغير، ألبسه قضية حشيش، خمسة

وعشرين سنة أشغال شاقة مؤبدة، ومن الحشيش اللي بيوصلهم كل ليل، مش ح يحتاجوا يدوروا عليه.

تدخل مجاهد: أسمع يا عبد الله، لك في أول كل شهر حسنة، سبوبة صغيرة...

- ليه؟
- التقرير، خذه منه واحرقه، لا أسرقه.
- أخون صاحبي فعل الخيانة مش طبعي حتى مع الغريب.
- صاحبك، عقله.
- أعرف عَمل إيه؟

هجم عليَّ زي كلب مسعور: عاملي فيها شريف، ولا عايز لهطة كبيرة؟ مواصفات، تجارب أسفلت، اختبارات على الدقشوم، ما فيه طريق في مصر من الشمال للجنوب، اتعمل عليه تجارب، ولا طُبق عليه مواصفات، لا أسفلت ولا ردم.

قاطعه بسيوني: ولاح تحصل في مصر، يا عم خليك على البركة.

استطرد مجاهد: إزاي ح تأكل الناس دي؟ من أين ترزق، خلاص دي تعودت على الشكولاتة، تجارب على الأسفلت عشان طريق جديد، يترفض ليه؟ دا قطاع عام، مال حكومة مين يتحمل إعادة تسوية طريق، أو إعادة رصف طبقة أسفلت، لما يكون غير مطابق للمواصفات.

قاطعه عبد الله: مسئولية اللي أنشأه.

- معاك حق لكن دا حلم تحلمه في المنام، يعطيني خطاب موقع بإعادة الرصف وأنا بشرفي ألبسه قضيتين ومش حشيش، الأولى تعطيل العمل وغرامة تأخير، والتانية تبذير أموال الدولة، جناية وإهدار أموال القطاع العام، دا المحافظ افتتح طريق الهرم، وفي اليوم الثاني عملت الشركة صيانة له، وفي خلال سنتين كانت تعيد رصفه من جديد، وعلى حساب المحافظة، فاكر انت احنا نسرق، لا، هو دا سعر البند، أنا وأنت إيه في أيدينا، نقف ضد التيار، للأسف لازم نسبح معاه، ثم أن الناس دي جمعت ملايين، من فين؟ من عمل تجارب على الأسفلت؟ الحاج حسن، انت مش غريب... شغال لحساب عبد الرحيم بيه العشماوي رئيس مجلس الإدارة ومدير منطقة وسط الدلتا، نبيل مقاول الحوائط الساندة، شغال لحساب رئيس قطاع التنفيذ وعضو مجلس الإدارة، الحاج شعير كان مجرد خفير في الشركة، ثم صار أمين مخزن زي الحاج بسيوني، ربنا يفتح علينا وعليك زي ما فتح عليهم، جنبك قاعد، عمارتين وعزبة تلاتين فدان، وتلات عربات نقل، وكرش يربى فيه، أحسده؟ دا رزق وربنا عطاه...

... الحاج شعير حول المخزن الرئيسي- قلعة مسلحة، السلاح لا يغادر جيب الصديرى، يخدم في طوب الأرض روح اسأله في طلب، لا يرفضه، يكون عندك قبل ما توصل بيتك، رجل عظيم يا سلام، ولا تقولي مشغل المؤسسة لحسابه وحساب الروس الكبيرة، مديرين ورؤساء، لما بدأ عمله في المؤسسة كانت الروس الكبيرة للشركة مهندسين صغار، كان يوكلهم، يشغل دا لحساب ده، مرة لنفسه مره لغيره، شوية هدايا، قرش حشيش، سهرة في شارع الهرم، شقة في المعمورة، شاليه في العجمي، تكبر المهندسين الصغار،

ويصبحوا مديرين عموم، رؤساء قطاعات ثم مجالس إدارات، وزراء يتغيروا جميعا وهو الباقي، ومرة تلعب البلية يصبح المهندس الصغير وزيرا، آخر مرة أعطى سكرتيرة رئيس مجلس إدارة مائة جنيه عدية، طب رئيس مجلس الإدارة نصيبه كام؟ كان بيأكل الجميع من الخفير للوزير، يروح فين مهندسك منير، «دبانة» طايرة في الفضاء، رشة بيرسول في مهب الريح، مش ح أقول خرطوشة بارود ضالة.

- إيه المطلوب مني؟

- عقله... والله العظيم وحق الكعبة، اليوم قابلت الورداني بيه، قلت له مهندس المصلحة عايز يعمل اختبارات على الأسفلت، قال لي اختبارات على إيه...قلت له ركام وصلادة واحتكاك وغيره، تعرف رد على قال إيه؟

هز عبد الله والبسيوني رأسيهما مستفهمين: "اختبارات إيه يا روح أمك، قول له يلم عزاله ويروح وإلا امسح به مصر محافظة محافظة"، أنا اتهنت بسببه، تظن أني عايزه يعمل شيء غلط لا، لكن زي ما شفت، تقول كلمة الحق، تتهان... تنضرب على قفاك، وانت مطلوب منك إن تقول له، مفتاح شقة يختارها في المكان اللي يريده، مصر الجديدة، المهندسين، حتى في الإسكندرية، بس يخلص المستخلص.

- وإذا رفض، أظنه سيرفض.

- وحياة أمي لا... خليه يوافق، وفعلا قبيحا بيده... جرب انت وح تشوف، بس هو يوافق، ولك حلاوتك، ماشي، سلام عليكم...

- أنا مش عايز حاجه، شكرا يا عم.

- خلص الموضوع وح أكلك شكولاتة يا عبد الله... هأ... هأ... هأ.

خرجت أبحث عنه، وكل ما أحكى له عما حدث، يتسع فمه العريض، وتنتقل الابتسامة الساخرة على فمه من ركن لركن.

- انت قلقان ليه، تظن أني ح خاف تهديداتهم، احنا فتحنا صدورنا لرصاص الأمن المركزي، واجهنا هراوته الثقيلة، وتلقفنا القنابل المسيلة للدموع ورميناهم بيها، كانوا فرق من ضباط وجنود، وكنا جموع دخلنا عرين الأسد مباحث أمن الدولة، وكنا حصى صلبة، يصعب عليه قرشها، تلقفتنا زنازين مصر العتيقة من طرة والقناطر إلى القلعة، إوعاك تظن إن السادات أخذ قرار الحرب، القرار اتخذ في مظاهرات الجامعة وإضرابات عمال مصانع حلون وشبرا الخيمة والمحلة، ورغبة وإصرار ضباط الجيش المصري على محو العار (قهقه ضاحكا)؛ تلفيق قضية حشيش لي... !! لا لا يليق، ممكن قضية انتماء لحزب شيوعي، أو إقامة تنظيم سرى، هذا يناسبنا أكثر، التهديد بالاغتيال ما الفرق؟ من فاته الموت في الحرب ضد الاستيطان والتوسع الإسرائيلي يلتحق بالموت في الحرب ضد الفساد، الحرب ضد الفساد في هذا الوطن التعيس... في حاجة إلى فيض من الشهداء.

صمت وشحبت عيناه، ضاقتا، ماتت الابتسامة على وجهه، قبل أن يستطرد ثانية: أما فيما يختص بالشقة أو الفيلا والشاليه، سيارة أو أرنب، بقدر ما تقدم لهم من خدمات، يقولون من لا يستطيع هبش المليون جنيه في عصر السادات مش ح يقدر يعملها بعد كده (هز رأسه): اسمع... كل ثروة

جمعت في هذا العصر، ثروة غير شرعية، ويحق للشعب استعادتها...

عاد للصمت طويلا قبل أن يعود للحديث ثانية: لماذا يعتقد هؤلاء الحيوانات أن كل البشر تستطيع أن تمضغ خبزا مغموسا في دم الآخرين... شقائهم، تعاستهم، لماذا يخوضون بأحذيتهم الثقيلة في لحم أجسادنا، لماذا ينعمون بسماع قرقعة عظامنا، لماذا يمانعون في أن يكون لهذا الوطن الحق في طفولة سعيدة، وبشر أصحاء على المستوى الجسدي والنفسي، ومواطنين أحرار ينعمون بالحرية الشخصية والسياسية، لماذا يمجدون الدجل والجهل، ويقاومون العلم، ويشيعون القبح النفسي والخرافة؟ لماذا لا يدركون أنهم لن يتركوا هذا الوطن إلا وهو أشلاء مدمرة؟

سألته: التقرير؟

- إيه؟

احكى لي، فيه إيه؟

- رأسمالية منحطة وقطاع عام بؤرة مشعة للإفساد على المستوى القومي والعام، أكاديمية لتدريس النهب الجماعي المنظم، من أين جمعت ميزانية القطاع العام؟ ببساطة مني ومنك، ثروة خمسة وأربعين مليون مواطن، لكن هل سمعت عن خمسة وأربعين مليون حرامي؟

... ماذا فعل القطاع العام الاشتراكي المزعوم إذن، دمر الذمم والأخطر قيم العمل، وأفسد الضمير الجمعي، وأطاح بشرف الأمة، وأشاع في المناخ العام طقسا جمعيا شيطانيا، بدأ بأن يسرق الناس أنفسهم وانتهى بأن يحتفوا بسعادة خالصة وبابتهاج بليغ، بنهب وتدمير الآخرين لهم، وحال كل منهم يقول أرجوك اخدعني، انصب على، دمرني، دوس على بالأحذية... انهب مجهودي وربنا معاك... أنتم السابقون واحنا في انتظار الدور...

... ثروة الأمة كلها موجودة ضمن ملكية القطاع العام. مغارة على بابا، مالي ومالك ومال المصريين، خزنة تنهبها بانتظام مافيا منظمة.

ثروة صاحبها شعب سقط في غيبوبة، وترك ثرواته في خزانة تحت حراسة جيش من كبار الموظفين، كل شيء يخرج منها يلزمه تصريح، وفي ظل النوم العميق لصاحب المال يصير لكل تصريح بالنهب ثمن... نصيب، وفي ظل الغيبوبة وخدر الأوهام يتحول الحرّاس إلى عرائس، خيوطها يمسك بها المماليك الجدد من العسكر وشركة المنصر، يتأمم كل شيء لحساب حلبة النهب التاريخي الكبير، تنهار كل أنواع الأيديولوجيا، ويبقي جراب وحاوى وحلبة لسيرك، وشعب منوم يشاهد كيف تنشل ثروته، ولا يخرج سوى آهة شجية، لأن الحاوي يمسك بذاكرته، بوعيه، يخرب فيها كيفما يشاء، ويلائمها طبقا لمصالحه، فإذا كان العرض المقدم على المسرح الاشتراكية، ففي الكواليس يحتل قمة القطاع العام حفنة من اللصوص، ويصب فائض القيمة في أنشطتهم الخفية، وعندما يتحول العرض إلى رأسمالية، ينزع عنها أهم ما بها، حرية الفرد السياسية والفكرية، يطيح الرشوة والفساد والنفوذ بحقوق المنافسة في الأسواق، ولا يعود الصراع الاقتصادي على الأسواق قائم على الأفضلية أو التنمية، إذ أن شركة جديدة من كبار موظفي الدولة والقطاع العام ورأسمالية تنمو على حجر البيروقراطية، أو من قلبها، منهمكين جميعا في شفط ثروات الوطن من مغارة على بابا بأسرع وقت ممكن، وهى لا تستغنى في هذا عن فرسانها من الرأسماليين الجدد الذين هم المعبر الذي لا غنى عنه، للخروج بالمنهوبات من مغارة الأربعين حرامي لقصر على بابا...

كدا تصير العلاقة بين الدولة والرأسمالية علاقة شركاء وليس أُجراء.

ماذا تكون النتيجة عندما يتعجل موظفو الدولة الوقت كي يصيروا رأسماليين ومالكين كبارا، فساد، فساد، فساد، تنهار القيم، قيمة العمل، التعليم، الإنتاج، تطوير الاقتصاد، التنمية، زيادة الدخل القومي، الصناعة الثقيلة، استثمار موارد الوطن، أنتشار مفزع للبطالة، وتحل البلادة، يتحول التعليم إلى تجهيل، والعلاج إلى مجزرة، واستصلاح الصحراء إلى دجل، يطاح بإرادة الشعوب، قدرتها على تحديات العالم الجديد، الرغبة في التقدم إلى الأمام، أن يتوفر إنسان حر يستطيع أن تكون له مقدرات البقاء في عالم القرن القادم المهول، كل شيء يتلوث، وليس هناك من يجد وقتا للنظر في هاوية لا تتوقف عن الاتساع، إذا أن الجميع منهمك في النهب، وعندما تسود الأزمة العامة، يرتدى الحاوي على حلبة السيرك مسوح الدين ويبيع الجنة للبسطاء بالقطعة.

قاطعته: جميل... لكن الكلام دا لا يهز شعرة من راس مجاهد.

ضحك: معك حق تريد أن تعلم ما الذي وقع عليه إميل؟

- بالضبط.
- نهب المال وتدمير الموارد القومية.

وأخذ يُعدد له: أولا... كيلومترات من أسفلت لشوارع ومناطق وهمية تم صرف مستحقاتها ولم تنفذ على الإطلاق، طرق لم تنشأ بها خطوط الصرف الصحي بعد، وَلَهذا لا يمكن إدخالها خطة الرصف. وتمت سفلتتها على الورق وصرفت مستحقاتها في مستخلصات سابقة، تكسير آلاف الأمتار المسطحة من الأسفلت، لشركة لا تملك معدات تكسير أسفلت، توجد معدة معطلة بالمخزن الرئيسي، كسروا بها

مطب المدخل الشرقي في تلات أيام، وبعد أربع حوادث سيارات مروعة، هه، انظر ثلاثة أرباع المتر المسطح في ثلاثة أيام، أخبرني إذن كيف تستطيع مؤسسة النيل العظيم للكذب والدجل تكسير عشرة آلاف متر مكعب من الأسفلت، بقيمة نصف مليون جنيه، هل تعتقد في ذلك؟

لم أستطع الإجابة كيف لي أن أجزم، قلت: يمكن، ربما.

- إيه قولك لو عرفت أن المناطق دي لم ترصف من قبل؟

كنت فاغرا فمي على سعته عندما استطرد: المواصفات هي التوصيف الذي يجب أن يكون عليه المنتج، لقاء مبلغ مقبول من المال، من أجل استخدامه في أداء غرض معين، والإخلال بنوع مواد الأسفلت المستخدمة، وعدم دمك طبقات التراب جيدا، أو تنفيذها بإهمال وعدم مراعاة أصول الصنعة، جريمة وإهدار للمال العام، سيتحول الطريق إلى مطبات خلال أشهر قليلة، يتهاوى عمره الافتراضي، الحائط الساند لكتف الطريق الشرقي بالرياح، متر ونصف عرض وارتفاع تلات أمتار بطول كيلومتر، وكل المطلوب تكسية لجسر الرياح، بناء ضخم مدفون في التراب ليس له قيمة، ولا لزوم له... لماذا يتعين على المواطن أن يدفع الثمن، لماذا يحرق المال العام، الأسفلت شريان الحضارة، لماذا يسرقون حلم التحضر من البسطاء، لماذا تهدر الموارد الوطنية من أجل أن تملأ مافيا الأسفلت جيوبها بالمال، رأسمالية منحطة وقطاع عام يشع في الوطن الإفساد القومي العام.

الليل والمطر والشمس مكفية خلف السحاب ترعش بالغضب... امشى يا ابن عبد الجليل، سير على حواف الطريق لا تدرى أين المبتدأ ولا أين المستقر... اللعنة على نفوس البشر... فين الخيول يا أبو زيد، فين الرماح تطيح بهامات ردى الخال وكسر الرجال... فين القلوب اللي تشد الرحال بحثا عن المنون، ما أسهل الخيانة، ما أسهل التراجع والانسحاب، ما أسهل الغواية، فين السيوف يا أبو زيد، فين المنايا... فين العدا... فين الجيوش تطوى البيادر... فين الرايات والبيارق تعانق السما... أسفلت دا ولا دما... أسفلت هذا أم دماء... سير يا ابن عبد الجليل، سير وسط ألوف السائرين على غير هدى... هج من أرض الوطن كما يهج مئات الألوف بانتظام... يتلطعوا على أرصفة شوارع مدن الغربة جثث... جثث مرمية بالمئات، وكأن مناجل الطاعون تحصدهم من أرض الوطن وتزرع فيها الموت اللئيم... ترميها لعواء الرياح الضالة وشماتة العويل واحتقاره.

* * * *

الفصل الثامن والعشرون

- 1 -

لثلاثة أيام خيم على المواقع الهدوء الشديد، توقفت حركة الآليات والمعدات الثقيلة، وبدت جثثا هامدة، وأشيع أن عمر بوزوى الذي يحب المصريين سوف يرفع أجر الذين بقوا ولم يغـادروا، ويعملـون باليوميـة نصـف دينـار، عمـل عبـد الله في صمت وهدوء، وتوطدت علاقته مع أبو نديم ومفتاح وجبران وجواد وأبو العبد، وعاد رضا إلى عمله بعد أن وعدهم الملاحظ الليبي مصطفي بأن أحدا لن يتعرض له.

في الواحدة ليلا من مساء الجمعة، سمع ضجيجا بالخارج، وامتلأ المكان بالحركة وأضيئت البراكات، فتح العمال القدامى براكـاتهم، وفتحـت البراكـات الـتي خلـت مـن أصـحابها للعمـال الجـدد، تـابع عبـد الله والمبروك القـادمين، حـدقا في وجـوههم الغريبة علهما يجدان عم عطا الله، لكنه لم يظهر، رحل مع

حاملات الجنود التي غادرت الموقع، باتجاه مساعد قبل وصول مدير المؤسسة المهدى عمران، تاركا خلفه راتب عمل لشهور ستة، وثلاث حقائب محملة بالملابس، والأجهزة الكهربائية والأغراض، وعنوانا مجهولا لا يعرف عنه أحد شيئا.

طوال الليل جلسا والوجوم يخيم عليهما أمام حقائبه في صمت، وحولهما جلس بعض العمال القدامى، ومعهم مفتاح وجبران ومصطفي وأبو العبد وجواد، وبين فينة وأخرى يحضر الحاج حميدة وعلى وجهه سيماء الحزن ثم يرحل... تحدث عبد الله وعيناه للفراغ: طب وشقي الراجل، دا جهاز بنته سنة ما رجعش مصر عشان يجهزها.

قال جواد: بس يا جماعة الخير، هو ما ترك عنوان؟

- لا. في قلق شايعه الجميع، قام جواد والملاحظ مصطفي يبحثان في أنحاء البرَّاكة، في النهاية استدار مصطفي واقفا، خرج للحظات ثم عاد.
- باهى أنا نروح وراه.
- تروح وراه وين؟
- هو مو حملته لوريات الجيش اليوم؟ في أي وقت؟
- مرعى كان معاه. قال، إنهم أخذوه الظهر.
- توا الساعة اتنين فرق ساعتين، باهى نحصله، العربات الزل تسير كيف البط، أنا نروح حتى مساعد.

قال جبران: وأنا أجي معاك.

- ج -

جفاك النوم يا ابن عبد الجليل... النوم جفاك... والليل طويل من غير رفيق، الشفقة فينا حرام، الرحمة تجوز على ولاد المسلمين... الفلاحين غلابة، شغيلة تثابر على لقمة العيش؟ نمل تدهسه الأقدام بلا شفقة، أم بغال تحيا، ليه نتحمل البؤس، ليه نتحمل الإهانة؟ جفاك النوم يا ابن عبد الجليل، النوم جفاك، والليل طويل من غير رفيق، كل واحد ناعي هم لقمته، ولقمة ولاده، جبناء! طب واللي جرى في الحرب، كداب يا ابن عبد الجليل كداب، ورحمة أبوك كداب، مستعد تحط الراس تحت المداس، إذا كان التمن قيراطين أرض، كلهم مثلك شايلين عقولهم من دماغهم، حاطين مكانها بلغ قديمة، يعلموا علم اليقين أن ظهورهم عريانة لكرابيج النخاسة، كلهم عبيد حلم امتلاك الأرض، سيبك من المراوغة وقول يا صبح.

جفاك النوم يا ابن عبد الجليل، النوم جفاك، والليل طويل من غير رفيق... كمال يا ابن عمى... طيفك يقهقه في الخيال ليه؟

لأنك حمار، عمرك ما اخدت كلامي مقام الجد، الفلاحين على مر التاريخ لم يكن لهم مكان من الإعراب، مفعول به للنهب، هوامش صفحة تتسخ بمداد الآخرين، سجل حروفه زحف الغزاة وكرابيج الطغاة ونشوة السادة، لما يحني الفلاحين رؤوسهم، يبتسموا في بلاهة، معبرين عن سعادتهم، بالشكر العميق أمام الأسياد، هأ هأ، تشتاق لفتحي الشاعر لما يغنى للهلالية، تحفظه عن ظهر قلب، غبي، لا تعرف أن رحلة قبائل الهلالية من أرض الجزيرة لتونس كانت خراب على الفلاحين،

وأن الأعراب على حدود الوطن كانوا منذ أقدم العصور قطاع طريق...

جفاك النوم يا ابن عبد الجليل، النوم جفاك، والليل طويل من غير رفيق، يا ابن عمى طيفك يقهقه في الخيال ليه؟

لأن الفلاحين محل للنهب منذ أقدم العصور، لما مات الإمام على بحسرة تراخي وانفضاض الجميع من حوله، وانتصار غالبية القوم لمغتصب الخلافة، معاوية عدو آل البيت، بعدها تراجع الإسلام الصحيح عن الحكم، أصبح في قلوب الناس حكايات عن عصور ذهبية مفقودة، وجنة موعودة، ودان الزمان لمعاوية ويزيد بن أمه، تعرف يا ابن عبد الجليل الثمن الذي قبضه عمرو بن العاص لقاء تحالفه ضد الإمام علي؟

- م حدش قال لنا حاجة.

- أمَّال إيه اللي بتتعلموه في المدارس؟ اعلم إذن... مصر كانت ثمن الخيانة، ومع بداية حكم معاوية ويزيد بن أمه، والفلاحين في مصر ضحية لحكم الطغاة والطواغيت... طبقة من العسكر وأخرى من المنصر، خاضعين خضوع الغنم لمن دك الكعبة على راس عبد الله بن الزبير، وعندما اكتشف أن هدمها سيفقده الأسانيد الغائية التي تبقي على وجوده في حكم الأمصار، أعاد الإسلام السياسي...

... لماذا لم يمتهن الفلاحون مهنة الحرب، لأن الفلاحين في مصر. كان مخصصا لهم دور مشهود؛ دور شغيلة النحل، عليهم العمل ولسدة الخلافة الترف والبذخ، ينتجون العسل ولا يأكلوه، كفاهم الطاعون، والكرابيج، والحلم بالجنة، ولا حول ولا قوة إلا بالله، الفلاحون هواهم هناك مع الصالحين وحلقات الذكر... ... عبد الناصر أبو الغلابة، أول فلاح حكم مصر منذ آلاف السنين، نسيه الفلاحون، وارتضوا حكم العبد، أحمق من يغنى للهلالية، أبو زيد وعنتر والمملوك الطاغي الظاهر بيبرس، هذا تاريخ مقلوب.

... عبد الناصر أبو الغلابة، أول فلاح حكم مصر. منذ آلاف السنين، نسيه الفلاحون، وارتضوا حكم العبد، أحمق من يغنى للهلالية، أبو زيد وعنتر والمملوك الطاغي الظاهر بيبرس، هذا تاريخ مقلوب.

أحمق من يغنى للماضي القديم؛ دموية الأمويين، وفحش العباسيين، وسفه ابن طولون، وحجرية الأتراك، وخصاء المماليك، يا ابن عبد الجليل اسمعها من ابن عمك كمال، إيها الفلاح التعيس ليس لك مكان سوى الوحل والعفن والعيش في زلع المش بين الجبنة المدودة.

... ليه يا ابن عمى صبرك على شوى، لما فتحت صدري للنيران والطائرات ترعى في السما، كنت أظن انى واقف على أسوار تونس الخضراء... كنت أظن أن الحرب باب ومقفول صراها، لما اعبره أصير في جنة عدن، بالموت أو الحياة، لكن ما بال إن اللي جرى غريب، صراط غير الصراط، وكأني دخلت الجحيم، ورضوان كان شيء غريب، كلامه تختلف معانيه، أنا عشت زمن كنت أظن أن كل شيء لابد ويصير تمام...

ضحك الخيال وقال... مش قلت لك... بتغني للهلالية، أصحاب الركيز والحربة، يا ابن عبد الجليل، اسمعها مني... أحمق من يغنى للهزيم والزمن القديم وبيع الجلا في الفلا، كنتم وما كنتم، والقيظ يشوى مرابعكم، والنمل تسعى في الظلام، تخال الوحا ضحا، والموت مثل الحبوب في الرحى، تبا لك ولأحلامك الوهمية، أحمق من يغنى للهلالية، اهتز اليقين، واهترأت اللغة، فحلت البلبلة.

تبدلت الأقنعة، فلا تعرف من الذي كسب الحرب؟ جنودها أم كتائب تجار المخدرات، وفرق مدرعات السوق السودا، وسلاح طيران التوكيلات الأجنبية، وكتائب الحرس الجمهوري للمافيا التي شكلها الرئيس المؤمن بنفسه، وقدم لها الوطن ضحية...

... راية العلم والتقدم تنزوي باحتقار في المؤخرة، والجهل سيد الجميع، الجهل صنو الخوف والتخلف، كل شيء في العالم يتقدم، والجنيه المصري يتأخر، قوم من قدامى يا ابن عبد الجليل بتجيب لي العصبي.

- يا ابن عمى لما انت عارف ساكت ليه؟

... المثقفون في هذا الوطن تجار، طول عمرهم يتاجروا في الفلاحين، سلموهم لمحمد على تاجر الدخان صاحب الأربعة آلاف عسكري، لا تستنكف إذن، إذا كان عقل الفلاحين أردأ من عقل حكامهم، خصاء المماليك، ومكر محمد على، لا يوجد فاصل بين حرية بلا حدود، واحترامك لإنسانيتك، ولا تستنكف حدوث هذا، إذ أن جسدي وجسدك سيكون مرعى للقصف النووي القادم، والقنابل النيتروجينية النظيفة، لأنه لم يعد هناك مكان في العالم للعقول النباتية، وأول وآخر شتاء

نووي سيكون في القاهرة، لأن قادة الجيش يتاجرون الآن في الجبنة والسلاح، ولأن قادة الجيش لم يعودوا يرغبون في البطولات الحمقاء والأناشيد الحماسية...

... البرجوازية القديمة، والمافيا الجديدة تريد أن تأكل وطنها على مهل دون ضجة ولا إزعاج، يكفيها عقلنا الحسي الذي صاغه الغزالي، فاختفت الحقائق البسيطة للحياة، وهي أن المسؤولية والواجب وحقوق التكليف تنبع في الأساس من حرية الإنسان، حرية بلا حدود، تستطيع بها أن تكتشف الدجل الذي يحيط بنا، وفساد اللغة، وأن إسرائيل لم تتخل عن أحلامها في أرض الميعاد، من النيل إلى الفرات، ولم تتخل عن نظامها العنصري، وتحتفظ بمخزون نووي من القنابل الذرية، وتجلد سبعة عشر مليون يهودي في العالم للهجرة لأرض الميعاد، أين سيذهبون إذن؟ على قلبك وقلب من يخفي هذه الحقائق عن عقلك، ولك الله يا ابن عبد الجليل، وتائية ابن الفارض، ومأساة الحلاج، وقمع المعتزلة، وسيادة الغزالي، واندثار لغتك الهيروغليفية القديمة، ألا تعرف إذن؟ تبا لك ولحصرك النفسي، ولفصامك التاريخي، ولتاريخك المقطوع بين أوزوريس الموصول بعمرو بن العاص، المنافق التاريخي الذي أطاح بعلي بن أبي طالب، إمام الفقراء، وهو يقهقه، ويأخذ مصر هدية من يهوذا الأموي...

... وعندما تسمع بكاء معاوية فأخرج لسانك، لأنه قلب الأمة رأسا على عقب، وأشاع فيها كيف تتكون شعوب من طراز سيكوبتك رفيع، واعلم أن تاريخك هو تاريخ التشوه النفسي، وفساد اللغة، تاريخ الانتقام بين العدل والسلطة، بين الثورة واستبداد الطغمة، والفلاحون قطعان في المراعي

للذبح، ماشية تسير على غير هدى، ترعى للقتل، واسأل نفسك... عندما لا تكون هناك في الأفق راية، لا يبقي أمامك سوى الأفول... أقول...

عندما لا تكون هناك في الأفق راية...
أين تذهب الخيول؟

- 3 -

في عصر اليوم التالي حضر مصطفي وجبران حاملين أغراض وحقائب عطا الله، وعلى وجهيهما ارتسمت معالم الإحباط، قالا:

لم نجده، لا يمكن أن يكون سبقنا!! ماذا حدث إذن؟ لا أحد يعرف، قالها سوري، فلسطيني أو شخص لا شأن له، ربما حملوهم لأحد معسكرات الجيش كي يعملوا ثانية بالسخرة... قال مصطفي بصدق بالغ: أنا نحب عم عطا الله واجد، عموما تبوا تاخدوا أغراضه معاكم؟ باهي، تتركوها لحين يرسل عنوانه، قسما بالله نحملها له مصر. بنفسي، أنا نسافر مصر طبيعي.

عقب مفتاح: حتى أنا نعرف سواقين واجد على الخط موثوق فيهم، نستطيع نرسلها مع حد فيهم.

- ما ترك عنوانه.
- يرسل يا راجل، حتى يعود ييجي... ضحكوا. فاستطرد: تضحكوا توا نشوف.

عادت للموقع الحركة الدائبة، وانطلق ثانية ضجيج الآليات الثقيلة، وعادت عجلات الترلات واللوريات المحملة،

وأزيز البلدوزرات المجنزرة، تتوه ملامحها وسط الغبار الكثيف، تنساب أصوات ماكينات وخلاطات الأسمنت، وسط هذا كله انتشر جو خاص، جو عجيب، اختلطت فيه المودة، بالقلق، ثم ما لبثت أن توقفت الحملات الحكومية لإنهاء عقود المصريين وترحيلهم لفترة شعر فيها الجميع بالاطمئنان.

* * * *

الفصل التاسع والعشرون

- 1 -

في يونيو 1977 حملت الأنباء حدوث مناوشات عسكرية بين الجيشين الليبي والمصري، على نقاط الحدود في السلوم والكفرة، ثم توالت الأنباء بزيادة الحشود العسكرية بين البلدين، وتوالت الأخبار عن فسخ الشركات والمصالح الحكومية عقودها مع المصريين في غالبية المهن الثانوية، وإعطائهم مهلة محددة لمغادرة ليبيا.

في المساء انزوى السلكاوية في براكاتهم، منكمشين على أنفسهم منطوين على ذواتهم كدجاجات تنتظر هجوم قطيع الثعالب، تدور حول الحظائر، وتخمش الأبواب، وتهاجم الحظائر الضعيفة، تفتك بها، وبينما عاودت الحاج حميدة شهوة الضباع، بدا لعبد الله والمبروك أنهما أخطآ في البقاء حتى نهاية الشهر، وسقطا في هوة من الحيرة والتردد، وسط

المناخ المتردي العام بين البلدين، تبودلت حملات الهجوم الشرسة، وازدادت حوادث الصدام بين الجيشين، ثم حدث أن قدم الجيش الليبي المياه العذبة للجيش المصري، وتلا ذلك قرار ليبي بالانسحاب من على خط الحدود بين البلدين. وحول شواء لم يدع إليه المهندس عصام هذه المرة، تحدثوا وقد خيم عليهم الوضع العام، قال جبران: موقفنا صار واضحا الجيش الليبي انسحب من الحدود.

عقب أبو نديم: إيه بلى الكرة الآن في ملعبكم يا مصريين.

داهمه جواد: يعني حابب الجيش المصري يهاجم ليبيا؟

انتفض أبو نديم مستنكرا: هادى ما فيها نقاش، وإذا حدث أن الجيش المصري يهاجم ليبيا، بتصير مهزلة، ترى والله الجيش المصري بيطيح بالسادات، هذا جيش وطني ما يقبل يترك حدوده مع إسرائيل، من شان يهاجم عمقه الاستراتيجي وحليفه بالحرب، ولو... بدك انت الجيش المصري يهاجم ليبيا؟

- وليش تقبل أن الجيش السوري يهاجم الفلسطينية بلبنان؟ ليش تقصفوا المخيمات الفلسطينية بتل الزعتر بقاذفات القنابل والمقاتلات؟

- يا أخي لو كان كل نظام من هاي الأنظمة، لما أنه يفشل يستقيل! لكن هاداك انهزم وما بيتركنا، كل الأنظمة العربية بدها صفيحة قمامة.

- ولو وهي بعدها ما مسيطرة مليح، لكن ليش النظام السوري بيغتال كمال جنبلاط، وبيضرب الحركة الوطنية اللبنانية حليفه الأساسي، ويصير يخرج من لبنان أسوأ شيء الطائفية.

- شو انت ليش عم تقول هيك؟

- هاي لحظة تاريخية، توا تري الأنظمة القومية بعد هزيمة 67 بتسلم الراية للفاشية الدينية، كلٌ بطريقته، وكلٌ يغني على ليلاه، الأسد بده يلعبها بقوة، أما السادات يلعبها بخبث، الأسد بيضرب الفلسطينية، والسادات بيضرب ليبيا، ومن شان هيك بدك تفهم الظرف اللي صار فيه الشعب المصري، السادات بده يقدم ترضية للأمريكان، بده يثبت لأمريكا أنه الحليف الأقوى بالمنطقة، والبديل لإسرائيل، وأنه يقدر ينفذ مهام ما تستطيع إسرائيل تنفيذها، وأنه إذا بترجع سينا بالمقابل، إذا نزلت المعونات الأمريكية مصر، وغرق الشعب في الزيت والقمح والسكر، يبقي المصريين أيضا أخذوا الثمن...

... مو السادات وحده أخذ الثمن، أما الأسد فيرتكب أبشع جريمة لما أن يحول الصراع من كونه صراع بين القوى الوطنية والفاشية إلى صراع قذر، صراع طائفي، سنة وشيعة وعلويين، ومارونيين، ومسيحيين، والقائمة تطول، لكن أسمع مني هاي النبوءة، بده ييجى اليوم وتشرب سوريا ونشرب كلياتنا من هاي الكأس المسموم.

عقب أبو نديم: بعرف، النظام السوري أعفن نظام بالمنطقة، مزنوق بين الهزيمة السياسية، والمأزق العسكري اللي وضعته فيه إسرائيل.

قال أبو العبد: أمريكا ما بتعطي السادات شيء، وما تأخذني يا أخ عبد الله، الشعب المصري غلبان، جعان همه على بطنه، يبقي ما في غلط في الكلام.

اعترضه جواد بضيق: ما في قاموس الثورة كلمة اسمها شعب غلبان أو شعب متخاذل، الشعوب ما بتتحاكم، ما في حد في التاريخ عدا النازي قال بأن هذا شعب أفضل من هاك، هيك علمنا التاريخ، الحقيقة فيه فترات مظلمة في تاريخ الشعوب، بيكون الشعب غير واع بذاته، هون الزمن الصعب، بتسود الأنانية والنفعية والقدرية وانعدام الفاعلية الإنسانية، وبعدين أنا رأيي نفضنا من السياسة، الرجل بده يرحل وما بدنا نعكر دمه.

عقب عبد الله بحماس: معاك حق خلينا نشرب كرسي حشيش أحسن. ضحك الجميع وكان أكثرهم ضحكا جواد: ندخل في التوهان، ونتناول السم الذي اجتمع على الاتجار به الخصوم، إسرائيل، والأنظمة العربية.

- ح -

في الظهيرة أثناء قيادته لمجموعة صب خرسانة سقف ورشة الدبابات، شاهد سيارة جبران تأتي باتجاهه، أصابه القلق، نادى عليه جبران: يا بطل الريح هنا طيبة، هسه نديروا غدوه، باهي.

- باهي.
- ما تدير شيء، الجماعة يحضروا في الغدا.

على الغداء قال أبو النديم: أخي عبد الله، بدك تعرف أني ما بدى أفارقك، لكن يصعب عليِّ يصير معاك متل ما صار مع عطا الله، إذا بدك ترحل بنصير نساعدك، هذا يرجع إِلَكْ، إذا تحب غد بعد غد... أسبوع... أنا طوع أمرك، بعرف ضابط كتير آدمي بينزل معنا أي وقت تبغي، بس راعى لما يكون القرار بأيدينا غير لما نكون مضطرين، فهمت عليِّ.

صعبت عليه نفسه قال وصدره يختنق: نمشي- آخر الأسبوع أحسن، نجهز أغراضنا، وناخد فلوسنا ونرحل. هتف مفتاح: ليش اقعد لآخر الشهر تاخذ راتبك، إذا هديت الأحوال تظل، إذا ما صار هيكًّ، أنا ناخذك بنفسي- وفي سيارتي حد السلوم، وما تخاف شيء.

صدق جبران على حديث مفتاح: أيوه، تظل براحتك هنا، نحنا نبيكم براحتكم هنا يا مصريين، هذا اللي يصير مو معقول.

مسح جواد أنفه في حرج، قال هدوء: يا أخي ليش نترك الأمور للريح، انت ما سافرت على مصر مرة ورجعت؟ هز عبد الله رأسه بالإيجاب.

- باهى أيش يفرق رحيلك اليوم عن آخر الشهر، ثلاثة أسابيع ما تسوى، إذا تحسنت الظروف بترجع مرة ثانية هون. قال مفتاح: انت بتعرف ضابط أنا بعرف عشرة، وأنا المسئول عنه، أنا باخذه بنفسي- هو والمبروك، ما في شرطة ولا جيش يقرب منه. كانا يتحدثان وكأنهما يدافعان عن كرامتهما.

قال جواد بصوته الرخيم الواثق: يا جماعة الخير المسألة بدها شوية عقل. صاح جبران بغضب: أيش تقصد؟

– اليوم يرحل أحسن من غد.

- قال لك مو جاهز اليوم، تقول عقل وما عندك عقل.
- قصدي الإسراع بالرحيل أفضل إله.
- لا... عليّ الطلاق ما يرحل إلا معي.

قال أبو نديم: إذا صار هيك، خلاص.

حاول جواد الحديث لكن أبو نديم قاطعه: خلاص، الجماعة ما بيتركوهم، وصار في هيك طلاق، خليها على بركة الله.

سأله أبو نديم: انت تصرفت في فلوسك؟ شفت حدا يحول لك، أنا أعرف واحد مضمون وبأعلى، سعر، مو مثل اليوم، إيه بالطبع، تعرف أن سعر التحويل صار قليل، تواكل المصريين يحولوا فلوسهم في السوق السوداء وفي الظروف هادى.

قاطعة جبران بنبرة زهو: خلاص يا راجل خلاص... أنا تصرفت له.

سأله أبو نديم: رِجَال مضمون؟

- أيوه يا أخي.
- بدى أعرفه.
- الحاج حميدة.
- على ضمانتك؟ ليبيين ما يخدعوا بعض، وإذا حدث وغدر؟

صاح جبران: أقطع رقبته، وما يكفيني رصاصة في كرشه.

قبل أن يتوارى الأربعة... ناداه مفتاح: بنعدى عليك في المساء، جهز الجوزة والشاي. أيوووه. وعقب جبران: أيوه الجوزة... روق دمغاك يا وحش، ما تفكر كتير.

* * * *

الفصل الثلاثون

- 1 -

الشمس تأفل في المغيب، وأعداد كثيرة من العمال خارج برّاكاتهم، البعض يشترى طعام العشاء، والبعض الآخر يجهزه، يجلس الباقون أمام البراكات هربا من الحر، يتبادلون الحديث مع الشاي. من بعيد ظهر ذلك الغبار الذي تثيره السيارات المسرعة... اقتربت العربة الجيب الزرقاء الخاصة بالحاج حميدة، سمع الجالسون صرخة استغاثة، يشوبها الرعب والهلع، كانت معركة حامية تدور بين الصبي والحاج حميدة الذي كان يقود السيارة بيده، ويمسك بالصبي بيده الأخرى، محاولا عبور البراكات بسرعة متجها إلى الغابة.

اشتد صراخ الصبي، فجأة انفتح باب العربة وقفز الصبي على جانب الطريق، تدحرج جسده كثيرا قبل أن يتوقف منكفئا على رأسه في سكون، والدم ينسال من رأسه، كبح

الحاج حميدة السيارة ونزل مندفعا مكشرا عن أنيابه، ملقيا على أسماع الصبي أقذع الشتائم، تجمع العمال على مبعدة لا يستطيعون الاقتراب من الصبي، محتمين بالصمت، ظهر الانشداه على الحاج حميدة قبل أن يتراجع إلى الخلف، قافزا إلى العربة، رحل وهو يدمدم بألفاظ لم يفهموها، عندما غادر المكان اقتربوا من الصبي.

حلت الظلمة وعبد الله يعبر الحافة الشمالية لحدود الغابة، وأمامه كان الموقع هادئا يخيم عليه الصمت، شعر وهو يقترب من البرّاكة بشيء غريب، كان العمال قد تجمعوا في حلقات واجمين، وحول البرّاكة جلس عدد كبير منهم، وعندما وصل إليهم كان يتساءل، ماذا جرى؟! على الفراش الإسفنجي المتسخ القديم كان جثمان الصبي مسجى، جلس عبد الله والمبروك يحكى له ما حدث، عندما انتهى كان كيانه يهتز، وقلبه يدق بعنف ويداه ترتعشان، لم يعقب بشيء وجلس طويلا صامتا، وعلى قدر ما كان حزنه لم يجد لديه أي رغبة في الانتقام، كان عقله يعمل مثبطا أي قدرة على الفعل، قبل أن أقتل الحاج حميدة يجب أن أستعيد منه نقودي أنا، ثم لماذا أمضى. العمر مسجونا في أمر لا ناقة لي فيه ولا جمل، يكفي نبيل، رضا صبي أهله مسئولين عن تشرده، ما كان يجب أن يتركوه وحيدا بين ذئاب الغربة...

... لي ابن لم ير النور في حاجة إليّ، أعمل مع الحاج حميدة معركة... لا... انسحب. انت في أرض غريبة يا ابن عبد الجليل والمدرعات ما زالت تحاصرك، اهرب إذن، انسحب، موت رضا أو موت روحك ألا يا أبو زيد، أبو زيد مين يا ابن الكلب... طب لو مت وصار ابنك يتيم، مين ح يمد له يد المساعدة، يا نهار أسود،

ما عدش فيه نهار، لسه عندك جرأة، انت دودة ولا تسوى، لما اخترقت القوة الضاربة للمدرعات الإسرائيلية خط القناة، وضربت أول قاعدة للدفاع الجوي، صنعت ثغرة للطيران المُعادي، بعدها انهار خط الدفاع الجوي، كر زي[70] سبحة وانقطعت.... ... ما كانت مسئوليتنا الحرب ضد المدرعات، والانهيار في الجبهة يتحمله غيرنا، أعتذر لك يا رضا، لا، لا اعتذر، دمك في رقبتي دين لا أستطيع أن أسده...

... ألا يا أبو زيد، لسه عندك جرأة يا ابن عبد الجليل، انت دودة تسبح في الوحل، في العفن ولا تسوى... لما تشوف النسور في السما اخجل، لما تشوف الشمس طله في الصباح طاطي عينيك واختشي، لما تشوف النجوم حِيدْ بعينك للظلام، لما تشوف السادة انحنى وبوس الأيادي، لأن طبع النسور في السما غير طبع سكان الجحور... غرغري يا عين بالدموع...

همس مفتاح وجبران في أذنه: القواد عرض خمسة آلاف دينار دية، تبوا الشرطة تحت أمركم، ما تكسبوا شيء، الدنانير مصلحة لأهل الصبي، أيش تقول يا عبد الله، أخزى الشيطان عارف أنك ناوى تقتله.

فكر عبد الله... ولا أقدر على ضرب صرصار بالوطا.

همس المبروك: ضحى بحياته عشان أهله، نسلم الدنانير والجثة للقنصلية وبس، نخزى الشيطان، الأمير في أرض الغربة نكرة.

... حتى انت يا مبروك ما زلت تظن في المستحيل.

70) زي: مثل/ عامية مصرية

همس والدموع في العين: بكرة نمشي. وإلا ح أعمل جريمة هنا.

- ج -

في الصباح الباكر وقفا أمام البرَّاكة، وبجوارهما ثلاث حقائب وعدة أكياس من النايلون، وحولهما تجمع عدد قليل مودعا، عندما أزف بدء العمل، رحل الجميع ولم يبق سواهما وجثمان الصبي، بعد نصف ساعة حضر. مفتاح ومصطفي من الإدارة حاملين راتبيهما ونقود الصبي، وأوراق موته موثقة من الشرطة، نتيجة حادث قيد ضد مجهول، وقع على استلام نقود الصبي، سألهم مفتاح:

- باهى تبو نتحرك؟

حمل الجثمان ثلاثتهم، جذب مفتاح إحدى الحقائب، وحمل كل منهم حقيبته، وقفزوا بجواره، عندما عبروا الموقع، ألقى كل منهما بنظرة على المنشآت الضخمة التي انتهت، والتي مازالت تحت التشطيب.

عام ونصف أمضوها بمعسكر المدفعية بالقوارشة، الكائن غرب بنغازي، رجعا أثناءها مرة إلى الوطن، ثم عادوا، وها هما يرحلان للمرة الثانية، ربما عنَّ لأحدهما أن يعود ثانية يوماً ما، فلا تزال حاجته للنقد الأسود لم تنته، ربما أن شعوراً قاسياً بأنهما لن يعودا ثانية، وأن فقراً وعوزاً مريراً ينتظرهما في الوطن.. فكر.. مهندس مجاهد يا حرامي يا ابن الكلب.

عندما مرا أمام مكتب المهندسين لمحا القاتل طليقا لا يزال واقفاً بصدره العريض، وقامته القزمية الراسخة، وكرشه الساقط أمامه، محمولا على جذعين قويين يملآن الفضاء،

شاهدهما فحول ناظريه عنهما، وتجاهلا وجوده، بقيت زاوية صغيرة جمعت أشياء من هنا وهناك، زاوية من التجاهل، ومساحة عابرة من النظر تمر به وترحل، دون أن تبقى بالذاكرة، قرب منتصف المسافة بين بوابة الموقع الخارجية، وطريق طرابلس الأسفلتي تساءل مفتاح:

- قلتم وين تروحوا بعد القنصلية؟
- ابن خال مرعى ساكن في حوش بالصابرى، نقضي عنده تلات أيام لحد جبران ما ياخدنا للحدود.
- توا أنا نروح معاكم الصابرى، وهناك تدلوني على الحوش بيش نجيلكم، باهى.

* * * *

الجزء الرابع

الفصل الحادي والثلاثون

- 1 -

في شقة بالدور الأرضي أقام هو والمبروك، يتعجلان سرعة مغادرتهما البلاد، منذ دخلاها والوخم ينتشر في جسده، امتلأت خياشيمه بالرائحة العطنة لشقة يسكنها عُزَّاب، في الأرجاء كانت القذارة تملأ المكان، الحائط الملوث بالخطوط والبقع الدهنية السوداء، وبقايا الطعام المتناثرة، كسرات خبز جافة مر عليها أسابيع، بقايا جبن جاف، خضراوات عفنة، جرائد استخدمت في حمل المشتريات، حقائب ممتلئة بسلع رخيصة. وأقمشة، وأجهزة تسجيل، المرحاض المشروخ، غطت لونه الأبيض طبقة سميكة سوداء من بقايا الغائط، صنابير ومرحاض تتسرب منهما المياه بلا انقطاع، والعبارات المبتذلة والرسوم البدائية لأجساد النساء على الجدران وباب دورة المياه... شعر بأوصاله تتفكك، وقدميه تنوءان أسفل

جسده، جرى ناحية الفراش الملوث بالدهون، وبقايا الشحوم والوسخ، وأغطية لم تغسل قط امتلأت برائحة عرق الآخرين، حاول أن يستلقي لكن الدوار أصاب رأسه فسقط مغشيا عليه.

ظل عبد الله محموما لا يفيق لمدة ثلاثة أيام، وأصدقاؤه يحيطونه بالرعاية اللازمة، لم يكن باستطاعته الذهاب إلى مستشفى حكومي في هذه الظروف، أحضر له أبو النديم طبيبا سوريا، عاده مرتين، وكتب له علاجا اشتراه المبروك، عاده مصطفي الذي أصر أن يأخذه إلى مستشفى الجلاء:

- نحن خوت، كيف ما يخدم الأخ أخاه إذا هك؟ هيا... هيا ناخدك معي بالسيارة إلى مستشفى الجلاء، أنا نعرف المدير، ترى ما تخاف إنك سلكاوى، ونظر للجالسين وضحك...

لم يجاوبه أحد، فقط رفضوا شاكرين، عندما بدا أنه يعاني من الوهن غادر المبروك بنغازي بصحبة أبو النديم للاطمئنان على نبيل بسجن درنة قبل عودته إلى الوطن، على أن يلحق به عبد الله خلال الأيام القادمة.

- ٢ -

رحل المبروك وبقي هو، عندما أفاق كان جسده مرهقا متعبا، قام يستند بجسده وحيدا على الأثاث المتهالك بالشقة الخاوية، فتح النوافذ فغمر الحجرات ضوء قوى، وأمامه شاهد الليبيين في العمارات المقابلة والمنازل المجاورة، يحيون حياة طبيعية، الرجال يجيئون ويروحون، ونفير السيارات يقودها شباب تتدلى شعورهم الطويلة، وأصوات نداءاتهم الغليظة، وخلف النوافذ

والشرفات تمرق النساء والفتيات كما تمرق الشهب في السماء، ومن الشارع ينبعث الضجيج الصاخب للأطفال والصبية.

داهمته الغربة وهاجمته الوحدة، شعر بذاته تخوض في وحل الضآلة الآسن، فانثنى يتناول إفطاره، رشف الشاي الجميل وحيدا شاعرا بلذة فائقة، والفضاء يحمل إليه الأصوات الأنثوية الحادة المنغومة عبر النوافذ الداخلية للمنزل، تناديه إلى المنطقة الرخيمة للاشتهاء الجنسي، تلك التي اختلسها منه زمن الذكورة الطويل، أشهر تسعة بعد قدومه الثاني إلى ليبيا وزواجه من نجاة، أمضاها بمواقع العمل الذكورية، الآن يحمله عبق المرأة عبر الحجرات الخاوية تتسلل إلى مسام الجسد رويدا، رويدا، يدور باحثا في مخيلته عن أجساد النساء وعريهن، ينجذب إليهن حتى يصبح أسيرا للشبق...

يومان وجسده يتجرع كؤوس الراحة من العمل المرير، بينما ذهنه وعيناه تتلصص من خلف النوافذ بحثا عن وجه شارد، خصلات شعر يطيرها الهواء، صوت أنثوي تأتي به الرياح، يمتص ذهنه الخواء والغربة، تهاجمه الهواجس السوداء يتلقاها ذهنه مكدودا، فيعود مهموما إلى فراشه، عندما يفيق يعود إلى الشارع، يتابع الحياة من خلف خصاص الشرفات الضيقة لملاطمة اللذة من جديد.

القلق حليفه، نشرات الأخبار يبثها التليفزيون الليبي دون توقف، عودة الاشتباكات الحدودية بين البلدين، زيادة الحشود العسكرية المتبادلة، هجوم شديد على النظام المصري، مشاهد من طرد المصريين العاملين، كان المتوقع نموا حادا للكراهية بين الشعبين، إلا أن تلك المشاعر العدائية

التي تنبئ عنها احتمالات الحرب، والشائعات حول نوايا السادات بالاستيلاء على منابع البترول الحدودية، أزاحتها مشاعر المودة، وإحساس بالغ بأهمية العلاقة بين البلدين، بالخطأ الفاحش الذي يرتكبه النظامين، كل هذا مصحوب بتحذيرات حادة من الحكومة الليبية بعدم المساس بالمصريين العاملين على الأراضي الليبية.

- 3 -

في اليوم الثالث غامر بالخروج، معتمرا اللاسة الفلسطينية باتجاه حي الفندق، المقاهي خاوية من المتسللين الذين رحل أكثرهم، أو رُحِلُّوا بواسطة الشرطة، دار بين العربات المحملة بالسلع والمصنوعات الرخيصة، ثم انثنى على المقهى يتناول الشاي، قبل أن يطلب شيشة داهمه الخوف عندما تبين أنه المصري الوحيد الجالس في المقهى، أنهى الشاي على عجل، وقام متجها نحو سوق الظلام، عبر شارع عبد الناصر، السوق غاصة بالمارة من كل جنس، طليان، بولنديين، أخذ يسرق بعينيه أجساد النساء، باكستانيات وهنديات يتدلى شعرهم الناعم الأملس على خواصر مكشوفة، وجوه النساء المصريات تبدو عليها ملامح التعب واللامبالاة، يتسوقن مع أزواجهن، يدفعن عربات أطفالهن إلى الأمام، ليبيات ترتدين أحدث ثياب الموضة، على وجوههن، ومن أصواتهن، تنبعث الثقة المغالية بالنفس، قادرات على دهسه بالأقدام، لبنانيات تفوح منهن الصحة والعافية، أجساد ونهود قوية تهتز في رفق تحت إزار مكشوف، وأرداف جميلة، أصابته الغصة، عند سوق الذهب،

مال على بائع يشتري سجائر، أهمله طويلا وهو يحادث ويبيع لآخرين، بوغت به يصرخ:

- سَجِّدْنا، شنو تبي؟

قال بابتسامة محملة بالعتاب: علبة سجائر مش أكثر لو سمحت.

ألقى له بعلبة السجائر، دون أن يمد يده لأخذ النقود، فتركها له راحلا... عندما ترك الحانوت خال أن وجوه البشر تحدق به، محملة بالوعيد، ذئاب جائعة بانتظار التهام الفريسة، حدث نفسه، ها هم هناك يمشطون المحلات، انعطف لطريق جانبي، رأى جمعا من البشر حول شابين يتعاركان، أسرع بالفرار جهة البحر، ونفسه تتوجع بأسى، وقد جلدته غلظة العجوز وجفاؤه، على البحر وقف يعب من رياحه المنعشة لعصر أحد أيام يوليو الحارة... بنغازي مدينة ثرية، لا تمد زراعيها للغرباء. جميلة هادئة تجاور البحر في تعال وأنفة، أحياؤها الفاخرة، وطرقاتها الواسعة العريضة تحيط بها العمارات الحديثة، وتتناثر على أرصفتها الأشجار والخضرة، وواجهات المحلات المكدسة بالسلع الثمينة الباهظة، هنا قتل محمود رب عمله، وسرق مائة ألف دينار وهرب.

كل المدن مخادعة، خدعت القاهرة رضوان بن عبد الجليل... وخدعت درنة نبيل... كل المدن مختالات، عاهرات شمطاوات، سافرات، محجبات تشع الشهوة من عريهن، أو من عيون تومض من خلف الخصاص... أما سدود فلا تخدع أحدا، كل شيء فيها مكشوف، الحاضر والماضي، ثمة سفور، وثمة مواراة، جدران ضنينة تفوح بسيرة الأجداد، وفي العشية لا تبقي لأحد على سر... سدود انت الهوى، أرحل إليك وأعود،

أحفظ كل ذرة من ترابك عن ظهر قلب، تاريخك المكتوب علامات على نواصي الدروب، على مآذن جوامعك، شطآن ترعك، تسرى في أرضك شرايين دم، تاريخك اللي يبتدى من درب الوسطاني، منقوشة علامات الصليب على هامات الدور، العَّلامية، المندرة القديمة، درب المربع، جوامعها ومآذنها العالية، يتعارك الرجال، من الذي سينول شرف أداء آذان الفجر، بوابة العَّلامية، يتجمع عندها الرجال ساعة العصر، وفي العشية أمام حانوت الشيخ البسيوني، وجهه الأشهب المدور، مسك وعنبر، أمامه يتبادلون الحديث ولعب السيجة، والعالم أمامهم شيء معروف بتفاصيله الدقيقة، زمن البذار والحصاد، تاريخ الموالد، وقصص الرجال والنساء، وأزمة الطحين والسكر، والحاج سيد نصر يتابع السائرين من على مصطبة داره، يخوض مع الخال عزام معارك الشطرنج، دوار الإمبابية، مطلع درب الوسطاني، دكان المعلم شفيق، ودكان عكاشة، بينهما يتجمع الشباب، يكبرون على أحلام المراهقة والمراهنة على تكسير أعواد القصب، سوق الأحد يبدأ من درب الوسطاني وينتهى عند دار الإمبابية، عند مطلع بحرى يلاقيك مصطفي شعلان بالصخب الجميل، مندرة الشيخ إبراهيم خضير، تحتفي القرية كل عام بالمولد النبوي، تلاوة القرآن وإنشاد ورد الشاذلية، بعدها يطل عليك الحاج «أعلى عياد» العمدة بوجهه الهادئ وابتسامته المنورة على قسمات وجه حاد الذكاء، من عينيه العميقتين تفوح رائحة العزة، المدرسة والنادي والوحدة الاجتماعية تتهادى الترعة البحرية، المطاوعة، عزبة الشقنقيرى، داخلها تسكن خمس حوريات، المخالفة، يسير الطريق، يلتف معوجا لقبلي،

المراعوة، والتعالبة، والدوانية، والياسانة، قبل أن تعود ثانية لبوابة العَّلامية.

يحكى حسن خليل: سدود حالة وجود في العدم.

يجاوبه مرعى بصخب: صح يا فالح يا مثقف يا ابن المثقفين، سدود حالة وجود في العدم، يحدها الخط الحديدي من الشرق، والنعناعية من الغرب أما الشمال والجنوب مفتوح للنسيم العليل.

يقارعه رضوان دون اهتمام: هذا إذا كان الوجود محددا بالمكان، ربما... ولكن المؤكد أن التاريخ كما قال هيجل هو أس الوجود.

يقول حسن مرعى: هيجل أم الأستاذ عبد العظيم هيكل؟

يحدثه رضوان: لا فرق، لا فرق يا ابن مسعدة ما دام بقالك ساعة تشد في نفس الحشيش، ح تعرف الفرق بين هيجل وهيكل، ولا أرسطو ومسطرد، ولا العيش المفقع وابن المقفع.

يقاطعه حسن بسخرية: أو بين ابن المعرى وعرى مارلين مونرو؟

ينهمك رضوان في سحب نفس عميق من الجوزة، عندما ينتهي ينظر إليه قائلا:

- مارلين مونرو؟

يرد حسن مرعى بتحد: أيوه مارلين مونرو؟

- طب اسمع... زلعة ستك فايقة، فيها الجبن الحادقة كهرمان، تعرف حطَّاها فين؟
- عايز تفوق... نفسك غمة عليك.
- قول بس حطَّاها فين؟

- على السطح.

- يا خايب يا ابن الخايبة... مش عارف ستك فايقة شايلة الزلعة فين، وبتتكلم عن مارلين مونرو، عيشوا عيشة أهاليكم. مخبياها في الزريبة، عشان تطيب على عبق رائحة البهايم والجلة[71]، قوم هات حتتين، أوعى تنسى- وانت في الزريبة تفرق بين مارلين مونرو والحمارة، تعملها يا مرعى يا ابن الكلب، وحياة أبوك تعملها...

ضج الجميع بالضحك... قذفه حسن بالمركوب... عقب رضوان... كنت رحت معاها المدرسة... مش عارف يا أخي واحد ما عاشر إلا الحمير يفكر إزاي في مارلين مونرو، وانت بقي يا ابن عبد الجليل، إيه بقي، سدود حالة وجود في العدم! ليه شعبها متصوفة ورهبان، نسيت لما عمك سرق أخوه عبد ربه في الدار، ولا دبحه للبهايم الوقيع، والشهادة الزور في سرقة كيماوي الجمعية، خال ابن عمك كمال لما لهف حق إخوته البنات في ورث أبوهم، والأستاذ عبد الصبور اللي ما داوم على الحضور للمدرسة مثل ما داوم على حضور سوق البهايم، وبقية الأيام يقعد في الفصل يعد الألوف حتى صار مليونير، أجيال من الأطفال ضاعت ومنهم أخوك إبراهيم... وزن القطن على الفلاحين بالخسارة، سقية الزرع بالكيماوي يهرى كبد الصغار، سحب الطلمبات لمية الشرب من جنب خزانات المجاري...

... سدود حالة وجود في العدم! ... القول الفصل في هذا المقام... سدود حالة عدم في الوجود، وما تفوقنيش، سيبنى

71) الجلة: روث الجاموس والبقر

وحياة جدك عبد الجليل، وقوم شوف الواد مرعى، وهات منه الجبنة، أحسن أقوم أبطح دماغه، شوفه عمل إيه مع مارلين مونرو... لا قصدي الحمارة.

لكنه مات، مات الشاب الجميل، مات حسن مرعى، دهم القطار الأعمى الميكروباص بمن فيه والمزلقان مفتوح، يومها خرجت البلد تعويه، تلم أشلاء الضحايا من على القضبان، مات الشاب الجميل البهي... المتعايق... أنيق الملبس، صاحب المزاج والألم والحزن الدفين على أحلام ما كانش منتظر لها في يوم تتحقق، ليه تركوه يستمع لأم كلثوم، تغنى لشوقي وحافظ إبراهيم، عن الريم وعشق النيل والنخيل، وبيرم والورد الجميل، وفروسية أبي فراس، مات نتيجة خطأ حكومي، رعونة تعبث بأرواح الخلق، تماما كما عبثت بأحلامهم، هل حوسب أحد، الموت يسرح في البوادي رفيقا للمرض، الكهنة سلاحه المبين، موظفين عايشين في البلادة... الرحمة له كانت في النهاية غلطته، لأنه فارق سدود...

بالمقاس دا حسابك عسير، طب هو مات على بعد أربعة كيلومتر منها، وانت على بعد ألف... لو إني أطول رقبة أخوي عبد الرحيم الكلب كنت قصفتها... لكن الآن... الحمد لله اليوم أملك تمنتاشر قيراط طين، ودار صغيرة عايزه توسع...

يومين... تلات أيام أوصل مرسى مطروح، وآخذ فلوسي من الحاج حسن، وأنزل على البلد اشترى بقية الفدان، وبهيمة وأكمل بنى الدار... عبى صدرك من هواء البحر النقي، وجر قدميك... حان وقت الرجوع.

قرب ميدان البركة جمد للحظة، وقد تلبسه الرعب، وعلى الناحية الأخرى من الميدان، لمح سيارات الشرطة، وطابورا

من لوريات الأمن ينزل منها عشرات الجنود مدججين بالسلاح، خمن على الفور المهمة المنوطة بالقوة... ارتعشت ركبتاه، وقد أمسك بتلابيبه الخوف والقلق، فلا حقيبة معه ولا جبران الذي سيحمله للحدود موجود... سار هادئا تورى في شارع جانبي، ولما لم يجد أحدا أطلق ساقيه للريح.

* * * *

الفصل الثاني والثلاثون

- 1 -

من مقصده الجنة يصلى على النبي، سبع مدن للنبي يبيضونها... قال أبو زيد الهلالي سلامة: صحيح دي الغربة تورى غبونها، نادى الوهيدى معبد قوام دلوا المشانق، يلا اشنقوهم لحسن دول سبب غبونها، جابوا خشب شوم وفي طرفها البكرة، نزلت شبيه الرعد إذا أطلقونها، تعلق بها مرعى وما مهل، أشنقوني أنا السبب والعبد دا سيبونها.

أبو زيد صرخ... يا مرعى فلا تقل هكذا، كلام الذل عيبة وأكبر عيبونها، يلا اشنقونا وارتاحوا منا يا عرب، لو عشت أنا لازم تشفوا غبونها، لو كان هنا حمرة تماثل حمرتي، وبيدي يماني يغلب على البرق لونها، لاهجم على تونس واهد علوها، ولابد عن واقعة ولو جردونها، لابد من لطمة على باب تونس، يبقي الدما يا ناس ها هنا قوام ينزفونها.

سمعه الوهيدى معبد نهشته ضمايره، نهشته أفعى تايهة يا عرايب، قال يا زناتي يلا اشنقوهم، هيا اشنقوهم دول سبب المتاعب، جابوا خشب شوم وفي طرفها البكر، نزلت شبيه تعبان إذا ما الباب موارب.

قال أبو زيد اشنقونا يا عرب لو عشت أنا لأخرب بلاد المغارب، ومرعى يقول ما تسمعوش له دا عبد مسكين خايب. أكثر كلامه من الموت هايب، ويحيى يقول هيا أشنقوني أنا السبب، أنا سيدهم اللي على العتايب، وأبو زيد يقول الذل عيبة ومعيرة، وما تقول كلام الذل دا الذل عايب، وحياتك يا عين طابت لنا البلد، كما طاب للجزار لحم الغصايب.

مرعى يطفيها، وأبو زيد يقيدها، يحط لها حلفا تفك اللهايب، ولو كنت يا مرعى ويحيى ويونس، أنتم وراي في بلاد المغارب، لأنفد بكم من وسط قوم الزناتي، ولو كانوا عدد الحصى والترايب. (*)

بدأت المطاردة، عندما دخل الشقة وجد ما يزيد على خمسة وعشرين عاملا مصريا من المتسللين، يتحركون في جنون.

- الشرطة تلم السلكاوية من الشوارع والبيوت، الدور علينا.

تضايقوا، تصارّخوا، بدأ البعض العويل، أسرع يجمع أغراضه وعقله يعمل كالبرق، أين يجد مفتاح أو جبران أم فات الوقت،

صرخ: مفيش فيكم راجل، هم ح يعدموكم، ح يعلقوا لكم المشانق، خلاص مرحلينا مصر... مصر يا بهايم، مش إسرائيل.

أجابه أحدهم: عامل لي فيها راجل؟

- أحسن ما أكون مرة... ح نتمسك، خلاص... عايز تهرب اهرب، لكن ماتبكيش زي الولية.

قام له أحدهم: انت مين، جيت هنا أمتي، بتصرخ ليه، عامل راجل علينا، أقعد ساكت، وابعد عننا، سيب كل واحد يغرق في همه...

تبدى له آخر: اسكت يا ابن (......) ولا أكسر نفوخك.

- تكسر نافوخ مين يا بن الملاعين؟

اشتبكا في عراك مخيف، لم يتدخل أحد، انهمك البعض في ارتداء ملابسه بينما الباقون عاجزين عن دس أغراضهم في الحقائب.

طرق الباب بعنف، وكُسر، واندفع عشرات الجنود للداخل: هيا هيا يا فوالة... هيا يا تيس انت وهو... سرَّع يا خنزير.

- حاضر يا بيه، حاضر أنا جاي... آني تحت أمرك.

جروا منحني الرؤوس، منحني الظهور... بعضهم يُعَبِئ حقائبه، والبقية تستكمل ارتداء ملابسها، معاطف وبنطلونات وجلاليب لا حصر لها... صرخ الملازم ضئيل البنية: هيا يا عرص.

- حاضر والنبي يا بيه.

مؤخرة بندقية في كتف أحدهم. قبضة في ظهر آخر، دفعت ثلاثة للخروج بحقائبهم مفتوحة، والبقية لا تزال

تجمع أغراضها... سقط أحدهم وتبعثرت حقيبته فانكفأ يلمها وهم يوسعونه ركلا وضربا، وكان أحد الجنود لا يتوقف عن الركل، أمره ضابطهم بالتوقف.

- كنك انت شنو تبي فيهم، عرب مو يهود... استدار إلى العامل المصري: "أنت سَجِّدْنا، عجل شوى ما تخاف نستني فيك".

كان قدر كبير من شهوة الجنود لإهانتهم وإيذائهم، دافعه رعب المتسللين، ومسكنتهم، وقدرتهم الفائقة على اصطناع التذلل طلبا للبقاء، ربما لو تصرفوا بشكل يليق بكرامة البشر، لكانت الأمور أكثر هونا.

في الأيام الأولى من شهر يوليو لعام 1977 جلس عبد الله على سطح إحدى ناقلات الجنود المكشوفة، وأمامه حقيبته ينظر للفراغ مذهولا، موكب من الشاحنات تتقدمه سيارات الشرطة، تطلق صفارتها وأضواءها التحذيرية، ومن الشرفات وعلى جانبي الطريق تجمع مئات المارة يشاهدون موكب الأسرى من المصريين.

- ع -

على الطريق الدائري للمدينة ومداخلها وعلى المفارق الرئيسية والنقاط الحيوية لها، أقامت قوات الشرطة الليبية الحواجز الثابتة والمتحركة ودوريات الشرطة المنقولة و اللاسلكية، للقيام بأضخم عملية مطاردة بحثا عن المتسللين من العمال المصريين السلكاوية، كما يحلو للجميع أن يسميهم، في الوقت الذي أقامت فيه بقية القوات بالتعاون مع

قوات من الجيش على القيام بأكبر عملية تمشيط للأحياء الشعبية التي تقع على أطراف المدينة، والتي تكتظ بعشرات الآلاف منهم، كانوا قد تسللوا لسبع سنوات متواصلة عبر الحدود المصرية الليبية تحت سمع وبصر حكومتي الدولتين، وتشجيعا من شرطتي البلدين على الأغلب، كان الاقتصاد الليبي وقبله المصري ولأسباب متباينة، في أمس الحاجة لهذه العمالة، الآن أصبحوا أفرادا غير مرغوب فيهم، ودون التونسيين والسوريين اقتصرت حملات المطاردة على المصريين، وجندت ثورة الفاتح المئات من شبابها للمعاونة، فأوقفت الباصات العامة، والبيك آب التي تحمل العمال من الأحياء إلى مناطق العمل المختلفة للتفتيش على بطاقات الإقامة، والقبض على من لا يحملها فورا، وإرساله لأقسام الشرطة ومعسكرات الجيش تمهيدا للترحيل.

ازدحمت الطرقات واكتظت خطوط السير وعندما تتوقف السيارات تماما، وتنتقل تلك العبارة السحرية والمثيرة للفزع... الشرطة... يداهم الرعب جماعات العمال المصريين، وتبدأ الوجوه في الاصفرار والترقب لما سوف يأتي به المجهول، وكلما تقدمت السيارة قليلا وسط الزحام، خطت نحو فوهة المصير، وأحكم الحصار... وفي مؤخرات السيارات البيك آب يدور حديث هامس:

- قلت لك نمشي بكرامتنا... قلت لي كل شيء يتصلح.
- أعمل إيه حد كان متصور... دي حكومات بنت كلب مفيش حد حاسس بينا...

وتحل نظرات الإشفاق وعبارات الأسى من الآخرين؛ عرب ليبيين.

- غلابة يا مصريين... غلابة!

ويعاجله ليبي: أيش تبي هادى حكومات، ويجاوبه آخر وعلى وجهه ملامح الحزن والإحباط: لكان هيك ليش تركوهم يعبروا الحدود أصلا.

- يا أخي بده يرجعهم بلادهم، فإذا ما يحسنوا حل أزمتهم الاقتصادية يصير هيك ضغط على السادات...

يرد مصري عجوز بغضب مكبوت: احنا ما نضغط على السادات، ومش ح نضغط عليه، في بلادنا ح نلاقي اللقمة، فيه خير كتير.

حاول سائق إحدى سيارات البيك آب الفرار، إشفاقا على حمولته، وعلى الأضرار التي ستصيب شركته من جراء ترحيل العمالة المصرية عائدا صوب الاتجاه المعاكس، عاجلته صيحة حادة منعته من استكمال ما بدأ... وقد قطعت عليه الطريق السيارات الخلفية. يضج الطريق بأبواق النفير، ويغمر السائق عرق غزير، والضباط تنظر نحوه شذرا... يتوقف أمام حاجز الشرطة... في الخلف تبرز وجوه الجنود المدججين بالسلاح: هيا انزل يا فوال، انزل، عدى غادي.

شاهد عبد الله وهو قابع على سطح الشاحنة، الجنود يدفعون العمال المصريين، بعنف، مكشرين عن أنيابهم، ذئاب تدفع بالشياه للمصيدة، والمتسللون يحاولون الفرار في ذعر كأفراخ تتساقط من فوهة الأقفاص، سمع أحدهم يتساءل وهو يتلفت برأسه يمنة ويسرة:

- فيه إيه يا أفندي؟

دفعه جندي بكعب بندقيته في مؤخرة كتفه الأيسر، فسقط متعثرا، قام يجرى ناحية الناقلات المتراصة فوق الأرصفة وفي داخل السيارة قال لأحدهم: معاى بطاقة عمل، اتفضل سيادتك.

– غادي... عدى غادي وإلا بحق النبي نقطعها.

كشف غطاء السيارة عن الشمس، وظهور العمال تقفز في سرعة إلى أسطح الناقلات، وعلى صفحة السناكي، برقت الشمس بأشعتها الملتهبة، وخلفها امتدت سماء لا حدود لها، ضم حقائبه في يده، مرتكزا بجذعه على كراسي الناقلات الخشبية، يتحاشى تدافع البقية على أرضية الشاحنة، وجه شاب شامي... لمح في عينيه الشفقة، شعر بالحنق يغمره، مد قدميه يرتكن على الباب الخلفي لمؤخرة السيارة، وتعلق بيده اليسرى في هيكلها المصنوع من مواسير الصلب.

في لحظة لمح كعب بندقية آلية يأتيه صوب جبهته، رفع كلتا يديه بشكل غريزي يحمى رأسه متجنبا هجوم أحد جنود الحراسة الليبيين، قام وهو يتساءل كيف ينفذ بجسده من المطاردة، كانت ثلة من الجنود تصيح فيه بعنف أن يهبط من الناقلة، دفعوه إلى طابور آخر طويل من آلاف المتسللين، جلسوا في ساحة أحد المعسكرات، تواردت آلاف الأشياء، وخلف غابة الذاكرة نما وتشعب ظلام مجهول بقوة لا تبقي ما عداها، وسط عدوانية تحاصره، وهلع من كعوب الأحذية، والبنادق المتحفزة، وسيل الشتائم والسباب، ونظرات الكراهية المغلفة بالقوة والعنف، وعودة مذلة مهينة إلى الوطن، وقد مسحت بكرامته الأرض، ود لو يقول... كنت يوما رقيبا أول بكتائب المدفعية الصاروخية، حاربت على مدافع ال

100 مم المضادة للطائرات، وإني أمسكت بكلتا يدىّ مدافع الشيلكا ذات الأربعة آلاف طلقة في الدقيقة، وليس مدفع رشاش صغير كالذي تختبئون خلفه، ود لو يقول... إنني واجهت الطيران الإسرائيلي المسلح بأعتى الأسلحة الهجومية في العالم، وإنني واجهت على مدى ست سنوات متواصلة القصف المتواصل لطائرات الفانتوم، والميراج، والسكاى هوك... لكن... !!

فكّر وهو يشاهد أقرانه من المتسللين المقبوض عليهم... كل هؤلاء حاربوا بجوارك يا ابن عبد الجليل، لماذا يستسلم أبطال الحرب لضرب العصى باستكانة؟ ليه يستسلموا للإهانة؟ ليه الخوف مكلبش في الصدور؟ ليه تفيض الوجوه بالذل والمهانة؟

رغبة في النجاة بالحياة... وسيلة للبقاء... مين قال إن التذلل والخضوع للغير تمسك بالحياة؟ ... وأيه معنى عزة النفس؟ عار... عار يا وطن... الخضوع والمذلة عار... الآن لا أرى سوى قطيع من الشياه... لا أرى بطلا يقاوم عصى الرعاة... ياه... مسكين يا ابن عبد الجليل... ملعون اللي يكون مريض بالوهم... من يوم ما غادرت الوطن ولا ترى سوى قطعان من الغنم... غنم... غنم... غنم... كل ما أراه بشر مطبوع على هيئة غنم... غنم بيرعي في مراعى الخوف والهلع... قطعان بترعي في طريقها للمسالخ.

لا أرى أمامي سوى قطيعٍ من شياه... شياه مصابة بالجرب، تُساق كما سيقت للحرب من قبل... تُلقى عبر الحدود... الآن يومض الذهن... تومض الأسباب كالبرق... امتى كنا نعامل في بلادنا معاملة البشر؟ امتى كنا في بلادنا

أحرار؟ امتى كان الطغاة يعاملونا باحترام، لم يرانا المسئولون عن البلاد إلا هوام، حشرات يلزم التخلص منها.. طول عمرنا كنا مطايا في الوطن، حتى المغامرة بالحرب... أدخلونا إليها مثل القطيع... حرب هدفها موطئ قدم على الضفة الشرقية، ثم رفع رايات السلام، والجلوس على مائدة المفاوضات والاعتراف...

حرب لازم ينتهوا منها بأي شكل وأي ثمن... استلزمت المخاطرة، لأنها أصبحت عقبة... حائل مثل سور الصين العظيم، يقف بينهم وبين الغنائم...... اقتسام الوطن...

- 3 -

في المعسكر الرئيسي، وقف ضابط ليبي أمام جمع غفير من المتسللين مفسرا سلوك الحكومة الليبية، ومبديا اعتذاره:

- سامحوني إذا بقول هيكٍ... نحنا خوت... لكن لما صار السادات يحشد الجيوش على الحدود الليبية، صار واجب علينا نفكر... ترى فيه نصف مليون مصري في ليبيا، سبق تجنيدهم بالجيش المصري، وأغلبهم شباب خاض الحرب، والشعب الليبي بأكمله اثنين مليون، إذا كان نية الحكومة المصرية خوض الحرب ضد ليبيا، صار يمكنها إرسال آلاف الجنود، مثلا... مائتا ألف ضابط وعسكري يتسللون عبر الحدود تحت ستار عمال أو شنو، هذا بالله عليكم يؤثر على أمن البلاد... والسادات صار يهددنا وينقل الجيش المصري من جبهة قناة السويس إلى الحدود الليبية...

سامحونا... أنا نقول احنا ما نستغني عنكم ونحن خوت، لكن هذه مسئولية يتحملها السادات وحده... كان عليه أن

يفكر في شعبه هنا، وأشار نحوهم... وهو يقدم خدماته للأمريكان...

الحياه والموت... الوطن وعزة النفس... ليس ثمة فرق... الدوي الذي غطى سماء الجبهة معلنا بدء الحرب... المدفعية المصرية الثقيلة والصاروخية تفتح براكينها، ملقية بحممها شرق القناة، وخلفها مليون جندي مصري يتحرقون شوقا لاستعادة الأرض المغتصبة... جنود لواء المدفعية المضادة للطائرات، تستعد للتقدم في تشكيل من كتائب صواريخ سام (6) المتحركة، والوحدات المساندة لمقدمة الجبهة ارتقابا لتطوير الهجوم... في هذه المرة عمل وطاقمه على إحدى وحدات مدافع الشيلكا، العاملة ضمن كتائب الصواريخ بعد تزكية مباشرة من قائد اللواء...

... هل سيرحلونهم إلى الحدود؟؟... فليكن برفق كما سمحوا لهم بالدخول، من يعارض حقوقهم السيادية... لكن هل يتعين والحال هكذا الحديث عن وحدة عربية؟ صاح أحد المتسللين: الشنط... الهدوم يا عالم. فلوسنا... ستمائة دينار، حرام والله عرق الشهور...

السكون يقطعه ضجيج الناقلات الأولى التي بدأت في التحرك، وأمامه كان لا يزال طابور العمال طويلا وقد امتلأت حدقات عيونهم بالذعر، لم يبق أمامه على صعود الشاحنة سوى عشرة أفراد... تساءل عجوز بصوت منخفض عندما رأى الشاحنات في التحرك: هو احنا ح ناخد هدومنا وأغراضنا، ولا إيه يا حضرة الصول؟

أجاب بعنجهية: تخرف يا مصري توا تحمل فيك السيارات للسلوم.

قبل أن يصعد ظهر الشاحنة مال العجوز ناحية ضابط برتبة نقيب وسقط يبكي: والنبي يا سعادة البيه، هدومي وهدوم العيال، ينصر دينك ودين الإسلام. راتبي لسه ما أخدته، عرق ست شهور، ربنا يطول في عمر معمر يا شيخ، عندي عيال لسه بتتربى، وبنات عايز أجوزها، أنا أمشي على السلوم طوالي، بس أغراضي.

ركله الضابط بعيدا عنه كعلقة. لكنه عاد يرجوه: دا احنا كلنا عرب... استقام واقفا وهو يهتف بطريقة مدهشة... يعيش معمر القذافي بطل العرب... يعيش العقيد بطل العروبة... عاد يحاول إثارة عطف الجنود: يعيش الأمين... أنا ورب العزة اشتريت هدمتين ومسجل، ولي راتب عند الحاج أبو صالح عبد المجيد الله يرضى عليك.

دفعه الجنود بشراسة وهو يقاوم صارخا. تذكرتُه... كان عم دسوقي الجزمجي الذي رافقنا عبر الحدود!

- أنتم عرب، ست شهور اشتغل زي الطاحونة، مين يقبل على نفسه الحرام، تاخدوا خيري يا سلام، ساعة زمن وارجع يا ناس...

قال له الرقيب متلطفا: يا أخ كل درهم لك تأخذه، ما تغادر البلاد قبل ما تحصل أغراضك، باهي، ما تخاف. تراجع الرجل يفهق واختفى في مقدمة الشاحنة.

عندما جاء دوره تعثر وانفتحت إحدى الحقائب البلاستيكية، مال يجمعها، دفعه جندي للأمام. حاول أن يتقيه، فظن أن عبد الله يهاجمه، فعاد يضربه بكل قوته في فخذه الأيمن، ارتج وكأن الجندي قد شعر بالإهانة لخوف غير منطقي فعاد وضربه بكل قوته في البطن ... آه... تلوى في الفضاء

الفسيح، وخبا رأسه للأمام والخلف، وفي الهواء تناثرت خصلات شعره الناعم الغزير، لم تر عيناه سوى الوجوه الضيقة لبشر جفاة القلوب.

حمله الجنود وألقوا به على ظهر الشاحنة، وخلفه تدافعت أجساد، نشب عراك صغير، وتبودل السباب بين المتسللين حول أماكن الجلوس، ارتفعت صيحة آمر القوة، صفق باب الشاحنة الخلفي بشدة، قفز جنديان مسلحان لمؤخرة السيارة تبادل السائق وبعض صغار الجنود صيحات زاعقة، صفق السائق بابه بشدة هو الآخر، كان هذا إيذانا بالتحرك...

بدأت القافلة في التحرك، تململت الشاحنة وهي تغادر الرصيف، دوى محرك الشاحنة التالية، وهي تتقدم لاحتلال مكان الشاحنة الراحلة، عندما كبح السائق فرامل السيارة، كانت العجلات تدهس أغراض عبد الله ورفاق آخرين، تناثرت على الأسفلت، أز محرك الشاحنة واهتزت لكثرة المطبات، فارتطم كل منهم بالآخر... زمن قليل حتى خلفت بنغازي وراءها، عندما انعطفت إلى الطريق الرئيسي، شاهد طابورا طويلا من شاحنات الجنود المحملة بالمتسللين المصريين تنهب الطريق باتجاه الحدود...

حدق في السماء...ثمة طائر يأتي من جهة الشمال...... ونسائم تأتي من جهة البحر... وسحابة تائهة.

* * * *

الفصل الثالث والثلاثون

- 1 -

على رأس الكوبري المتحرك الذي أقامه سلاح المهندسين عبر القناة في ساعات محدودة، جلس الملازم منير على رأس المعبر واضعا رأسه بين يديه مشدوها، يتابع مرور الفرقة السابعة مشاة إلى الضفة الشرقية للقناة، تحت القصف المتواصل للمدفعية المصرية المتوسطة والثقيلة والصاروخية، التي تهدر على طول الجبهة، مع أشعة السحر الأولى لصباح العاشر من أكتوبر، ناداه صوت فوق إحدى عربات مدافع الشيلكا المجنزرة، نظر باتجاه الصوت، كان عبد الله يناديه مشرق الوجه، وقد أطل بنصف جسده يشير إليه بفرح جنوني صارخا:

– الجيش عبر القناة، خليك قاعد عندك.

كان يهينه لعشرات المجادلات التي دارت بينهما، حول الحرب والبرجوازية والسادات والتدريبات العسكرية والأهداف السياسية للطبقة الحاكمة وانتهازيتها، عجزها عن الحرب وتوجهاتها إلى الغرب، العدو التاريخي، كان عبد الله يعاتبه حينا وحينا آخر يهاجمه... والجبهة الداخلية لازم تكون سليمة، ليه الطلبة تخرج في الشوارع؟ عايزين الحرب يحاربوا، حد منعهم، الميدان أمامهم، إيه اللي يعرفوه عن الحرب، الحرب يعرف عنها الناس الكبار، وكان منير يجادله عن النتائج الواضحة لسيطرة حكم المافيا الساداتى... لا توجد مسألة أو قضية أكبر من العقل الإنساني، مهما كان موقعه، بونابرت احتل القاهرة وعمره ثلاثون عاما، نحن لا نتكلم في التفصيلات الفنية، نحن نتكلم عن السوق السوداء، عن التفاوت الطبقي، عن الحقوق الديمقراطية، عن العسكرية المحافظة حينا، والمهترئة حينا آخر.

فيجيبه عبد الله غاضبا... إزاي، واحنا كل يوم نروح ضحايا، احنا بننتحر هنا تحت التدريب، الدانات لا تفرق بين عسكري وضابط، وانت تقولي فكر عسكري محافظ... ويجيب منير مترددا: الفلاحين كانوا وقود الاستبداد، الجنود كانوا وقود المعارك، أما القادة فلهم أكاليل الغار واقتسام الغنائم، افهم يا عبد الله، افهم ما تحرقش قلبي، المشكلة في البناء الاجتماعي والسياسي للفكر العسكري نفسه، أسهل شيء أن يضع النظام قائدا مثل عبد الحكيم عامر لتأمين الجيش من الثورة المضادة، فيتحول هو نفسه إلى أداة لتدمير الأمة، في 67 هرب القادة إلى منازلهم، تاركين جنودهم للهو الطيران المعادي، والثمن، هزيمة مروعة، وتدمير وجدان الوطن...

... فكر شوية، وعبد الناصر يخوض حربا ضد الغرب، لماذا لم يتمكن من رؤية الخراب الذي عليه الجيش... افهمني... عندما نهزم هزيمة ساحقة لا يتم إصلاح الجيش بالضبط والربط والتدريب على أداء الحرب فقط... قرود... حيوانات في سيرك... الطاعة العمياء والتكرار والتدريب على أداء عجين الفلاحة... إذا أردت أن تنتصر على أعداء متفوقين في الحرب... تعامل مع شعبك بكونه بشرا... وفرق البشر عن الحيوانات، هو أن الحيوانات تعيش طبقا للضرورة، أما الإنسان فيعيش طبقا لمبدأ الحرية. فهل هذا شعب من الأحرار؟ هل هؤلاء الجنود والضباط أحرار؟ لهذا لن تكون ثمة حرب.

ويرى عبد الله في حديث صديقه منطقا غير مفهوم، ويجيبه بحماسة متحدثا عن مشاعره، وكأن الجيش بأكمله تحت قيادته: أنتم بتكسروا الجبهة الداخلية، واحنا هنا نموت، تخرجوا في مظاهرات تدمر البلد، تحرقوا المحلات، تنسحب بسببكم كتائب من الجبهة لحماية القاهرة، والروس بتوعك بيسلمونا سلاح قديم، أسلحة دفاعية نعمل إيه؟

إسرائيل قوية... إذا طلّينا من الخنادق أطاح القصف برؤوسنا، وإذا أخفضناها تنحني ظهورنا، نمضي اليوم من مطلع الفجر وحتى الغروب في الخنادق البراميلية، حفر عرضها 60 سم وعمقها متر ونصف، تحت شمس الموت، وقصف القنابل والأكل المعجون بالدم والتراب.

- يا عبد الله الجبهة صامتة منذ مبادرة روجرز، والسادات بيغازل الأمريكان، انت بتدافع عن نفسك ولا عن السادات. يجيب غاضبا: أنتم بتلعبوا مع البنات في الجامعة.

- انت حمار بهيم، عمرك ما ح تفهم، فلاح في عالم ما عاد فيه فلاحين، البنات دول أشرف من اللي شوهوا عقلك اللئيم، صحيح ما جدوى بقاء الفلاحين في الأرض.

الآن يشير إليه ها هو الجيش يعبر القناة... كان يريد أن يقول له كيف لي أن أعلم أن البرجوازية المصرية لها ألف روح، وأنها تغير جلدها كما الحرباء... كان يريد أن يصرخ قائلا: لقد فوجئت... اكتفي بالتطلع إليه، وعلى وجهه ابتسامة صفراء باهتة، وعبد الله يشدد عليه النكير وكأنه قصاص خاص، قصاص شرقي.

– عشان تتظاهروا في القاهرة.

قال بعصبية: احنا اللي طالبنا بالحرب أجبرنا النظام على خوضها.

صاح به من منتصف الجسر: تبا لك ولاشتراكيتك الهزيلة...

سار مجروحا بضع خطوات وقد تفجر به الغضب:

– وأنت... يا منحوس سلم رقبتك للصوص...

سمعة جيدا... لكنه فكر... هذا أمر آخر... عاجله قائلا:

– نتقابل عند المضايق.

طوال يومي 12 و13 أكتوبر قاتل دفاعا عن اللواء 11 مشاة ميكانيكي الذي كان ينفذ تعليمات تطوير الهجوم الذي بدأ منذ الساعة 6 صباحا، طبقا لتعليمات غير دقيقة... إذ أن أوامر

القيادة بتأجيل الهجوم 24 ساعة لم تصله، فانطلق يقاتل وحده.

- ج -

... ولم تأت المضايق...

لم تأت المضايق، طوال يوم 12 أكتوبر، هوجمت الكتائب الصاروخية التسعة للواء، بأسراب من طائرات الفانتوم والميراج في أمواج لا تنتهى، سحابات من الجراد تنتشر في الفضاء، ملاك الموت والدمار، دانات المدفعية الثقيلة من عيار 175 مم تمشط الأرض شبرا، القنابل الفسفورية، قذائف المدرعات، النار من كل صنوف الأسلحة... صراخ... أنين... قتلى... أشلاء في كل مكان، أطراف مبعثرة... وجوه الجرحى، أنينها، صراخها يطلب المعاونة، وسط انفجارات قنابل الألف رطل، الألم يحز في أعصابك مشارط حادة... ضجيج ونيران، دخان وَلَهب، سحابات الغبار، ينعدم السمع، ويحل السكون.

خلال يوم واحد أصيبت ست كتائب صواريخ، وأبطلت فاعليتها، ولم تتمكن قوات الجيش الثالث من تأمين قوات الدفاع الجوي المتقدمة، ولم تقدم القوات الجوية الدعم اللازم! ... وتبقي تكتكات أجهزة اللاسلكي وصوت اللواء الغمرى:

- أنا في أشد الحاجة للدعم... أنا بانضرب بكل أنواع الأسلحة.
- أيوه... محتاج بسرعة لدعم جوى أو حماية أرضية...
- أنا فين... دا كلام... هو أنا خروف وتاه...

- معقول تكون دي معلومات القيادة! ... أنا على الضفة الشرقية...
- عبرت امبارح...
- ليه... موقعي!
- لأ مش على مزاجي يا سيادة اللواء... تعليماتكم... تعليمات بدء تطوير الهجوم وصلت الفرقة امبارح...
- اتأخر 24 ساعة إزاي؟ ... إزاي ما توصلنيش تعليمات تأجيل الهجوم؟ وهو أنا واخد لواء صواريخ، ورايح اتفسح بيه على النيل... أنا خسرت حتى اللحظة ست كتائب صواريخ.
- عايز إيه؟ عايز حماية جوية... عايز القوات البرية تحميني، هو احنا بس ندوق السم عشان نحمي قوات الجيش عند العبور ولما نحتاج نتنسى... لواء صواريخ يتنسى، هو أنا عربية كارو!
- أنسحب ليه؟
- طبعا يجب أن تقاتل جنبا إلى جنب، سأنسحب، يا عادل أعط القوات أمر الانسحاب.

... جاءه صوت قائده عبر اللاسلكي: انسحب يا رقيب عبد الله.

- إزاي يا افندم؟
- احنا جينا غلط... الهجوم اتأجل.
- تمام يا افندم...

لم يفهم طبيعة ما يجرى... كانت كتائب الصواريخ وسرايا الدفاع الجوي تتراجع بجوار اللواء الحادي عشر ميكانيكي،

الذي كان يتراجع هو الآخر بعد أن وصلته أوامر الانسحاب، وقد أصيب بخسائر بالغة...

انسحب يا ابن عبد الجليل... اصرخ في الرجال... يلا يا رجالـه... لموا المدافع... علقوها في عربات الجر... اوعى اشوف رعشة قلق... نط يا وَلَه على ظهر الناقلات، فيه جريح... احملوا الجثث... اجمعوا سلاسل الموت من على رقاب الرفاق... اوعى أشوف بكا على الصحاب... دول أصبحوا شهداء في رحاب الله والوطن...

* * * *

على معبر الكوبري شاهد الملازم منير يقوم بأعمال الصيانة لم يحادثه، بل أدار وجهه للناحية الأخرى... كان يشعر بالكراهية له...

الساعة السادسة والنصف من صباح 14 أكتوبر إيذانا ببدء تطوير الهجوم، وقبل أن تلتقط الكتيبة أنفاسها جاءت الأوامر بالاستعداد للهجوم، لم ينبس أحد ببنت شفة... وعلى طول الجبهة كانت المدرعات المصرية تقوم بشن هجومها الحاسم... وحتى منتصف النهار لم يكن قائد اللواء قد استطاع تجهيز قواته للهجوم، وفي انتظار تجهيز القوات كانت كتائب الصواريخ المتحركة تتحرق شوقا للمشاركة، عندما جاءت الأوامر بإلغاء الهجوم.

تناقل الجنود التعليمات في حالة من الإحباط والوجوم، لقد ضاع الوقت نتيجة تخبط القيادة... ولم تلبث الأخبار والشائعات غير القابلة للتصديق أن تنامت... لقد أصيبت القوات المدرعة المصرية بهزيمة مريرة... وعلى المدافع

والآليات حام الجنود بقلق حول أجهزة اللاسلكي يتنسمون الأنباء... صيحات الغضب... وأحاديث الضباط.

- كيف يصبح الاحتياطي الاستراتيجي في المقدمة؟
- لقد وزعت ألوية المدرعات على فرق المشاة.
- تحولت إلى مدافع ثابتة، فقدت القدرة على الحركة منذ البداية.
- القادة يخوضون الحرب بالمقلوب...
- يخوضون حرب الحركة بعقلية الثبات.
- من فعل ذلك؟
- الخوف... فقر الخيال... النمطية... انعدام الحرية...

صوت يصرخ في اللاسلكي بلهجة آمرة:

- المجنبة... القتال على المجنبة... احمي المجنبات يا غبي...
- ليس ثمة مجنبة... نحن في حاجة للاستطلاع... إنهم ينتظروننا أينما نذهب...
- أين؟ لا أعرف... يا افندم، أنا في حاجة ماسة لدعم جوى... مش ضروري يقاتلوا معانا... محتاج استطلاع... أنا بحارب في الظلام.
- أرسل سرية استطلاع.
- استطلاع جوى... بدونه مستحيل...
- ابعت سرية استطلاع أرضي... اتصرف يا سيادة العميد... تقدم ولا تنتظر.

- ليس ثمة مناورات... ليس ثمة خدع، ما إن نخرج حتى نضطر لفتح النيران، العدو متمكن من الأرض...
- متمكن من أي أرض يا أفندي؟
- من الأرض يا افندم... من الأرض بالمفهوم العسكري.
- قاتل على المجنبات.
- كيف وقد امتلكها... نحن نتحرك في أرض المعركة على الطريق الأسفلتي الموازي غرب القناة زي البط الأعمى.
- يا حضرة الضابط اتحرك... انت واقف مكانك ليه؟ دي حرب حركة يا غبي.
- بالضبط حرب حركة يا افندم... بس هم... حولونا لأهداف ثابتة... هي دي المشكلة اللي ما حدش فاهمها.
- بدل ما ترد وتناقش الأوامر انزل من دبابتك وشوف اللي قدامك.

بدا وأن صوتا قد تدخل على موجة لواء الدبابات: كفاية بقي... إزاي تعطى أمر لضابط مدرعات بمغادرة دبابته... لسه بتبيعوا جبنة؟

- اسمك إيه؟ ... اديني اسمك يا أفندي، وجهز نفسك لمحاكمة عسكرية... لم يجاوبه أحد، إذ توقف الجهاز عن البث...

- 3 -

ماتيلدا العجوز المريضة بالنظافة تعبر دروب سدود، جسدها المحدودب، ذيلها المرفوع حتى لا يلوثه تراب ووحل الطرقات، يطاردها الصغار بصخب، يبصق أحدهم فتتراجع مذعورة، ويمخط آخر فتصرخ لاعنة، والراشدون لاهون عنها، تاركين الصغار يضيقون الخناق على حصرها النفسي، ما كانت تستطيع الهرب، كيف؟ ودواب القرية، تتزاحم في الطرقات، وتشيع في الفضاء رائحة روثها الدافئ، تتخاطفه نساء وشابات صغيرات بأيديهن العارية، يختلط الروث بلون الحناء...

هيت لك... ما أجملك... شهاب هوى، والهوى والعشق صنو لك، كل شيء في السماء منظوم في الفلك، وعلى الأرض تعبث الأقدار، رحمتك... يا ابن أبي، ما أبأسك... تغتصب ما ليس لك، وتلقى بي لحياة ضنك، أي يا عبد الرحيم وزوجتك، هذه الدبق، قلبها الأجوف ليس به مكان لأحد، ونعمات بئر كراهية، يا ابن عبد الجليل هيت لك، شهاب يهوى والعشق موت لك، مات حيا من بقي في داره فقيرا، وتاه من خرج، بعجاج الرياح هلك، ما أبأسك... في زمن ليس لك، لا الفتوحات القديمة ولا عدل الخطاب دال لك.

ألا إيها الليل الطويل تبا لك... تبا لك ولصباحك المزبلة الذي غافلك، وولى ولم يعد لك... تبا لك ولأحلامك المضعضعة، والعمر يمضي بلا مرجعة، لا تونس الخضراء فتحت أبوابها، ولا ظهر العنقاء انحنى لك، ما أغباك... ما أعمى بصيرتك، الحياة طنين ذبابة، وأنت خفاش يهوم في

هوامه... دودة قبيحة عقيمة، ما أجهلك، تبا لك ولأحلامك المضعضعة ولعقلك النباتي.

ألا إيها الليل الطويل... تبا لك... تبا لك ولصباحك المزبلة.

- 4 -

بين مدينتي البردية ومساعد اعترض «القول» عربتا جيب عسكريتان، نزل ضابط برتبة رائد وأوقف الناقلات بعصبية، وأمر سائقها أن تتحول جهة الجنوب... تصادمت الأجساد بعنف... لماذا تغير الشاحنات من اتجاهها؟ ربما سيلقون بنا على حدود السلوم مباشرة... ربما هنا على الطريق... ربما سيتعين علينا أن نرحل على الأقدام، كيف ومعنا حقائبنا؟

فتحت أبواب الشاحنات الخلفية، نادتهم الأصوات الآمرة بالنزول فتساقطوا فوق بعضهم، حاملين حقائب، يتجمعون في دوائر صغيرة، وعندما أفرغت الشاحنات حمولتها، حدثهم رقيب بجفاء:

- هسه تريحوا من السفر نبي هون شوية عمل.

* * * *

الفصل الرابع والثلاثون

- 1 -

أز الكريك وضربة الحجارى... كيف احكى عن اللي في جوفي، ومين يطفى في ناري... بس لو اعرف... ولا صنف حد قالي... رمز في حلم... هزة في كابوس... علامة من علامات السما... إشارة تنبهني أن الموت حفرة بعمق متر في بطن الجبل... احفر... يا ابن عبد الجليل... احفر قبرك بإيدك... واسمع لصوت الأزمة والكريك... تشيك تشاك... بوم به... اسمع الصوت ده... احفظه وغنيه وانت بترفع بفم البالة كسر الصخور، دقشوم حجر... لحنه وغنيه... وانت بتجري فوق سل صبار البراري طريده بين الجبال... آه... أهه... أهه يا ابن عبد الجليل... ازعق... اصرخ في الفلا... إنّ بأنين الألم... بوجع انحناء الظهر تحت كرابيج السخرة ومساخر الزمن... مين يجيب الكتب ويقرأ... لما قرينا في المدارس أن تاريخ العبودية لولادك يا مصر أنتهى...

أز الكريك وضربة الحجارى... كيف أحكى عن اللي في جوفي، ومين يطفي في ناري... ازعق... اصرخ في الفلا... إنّ

بأنين الألم... اسبح في ألحانه، ونوح بالغنا مثل فتحي سليمان الشاعر، لما يغنى للهلالية، أبو زيد ويونس ومرعى ودياب بن غانم، رزق بن نايل وخضرة الشريفة، الملك حسان وشامة، وشرع الرماح على رؤوس اللئامة، انزل اتمدد في خندق الحفر الطويل، عرض جثتك لا يزيد، أما الطول طويل، أطول تابوت للكريم، ابن الأصول عبد الله عبد الجليل رزق.

يا فرحة أمك بيك، تابوت في حجر صوان، تضرب الأزمة فيه، ترد في درعاتك كما صدى الصلب لما يندق في الصلب الصمم، ترتج دفقات ضغط الكمبريسور في عظمك، كما تدك عجلات القطر قضبانه، ينحل وسطك، تنخلع كل حتة في جتتك، ينسلخ عظمك... مثل الكلاب الجيفة مرمية على أجناب الطرق... يا همّ غربتك، بينك وبين أرض الوطن، جنود وقبعات، وهراوات، وأقنعة، وصفوف من المدرعات، هزيع من الليل وأنت هنا في معسكر السخرة أسير...

على مرمى البصر. يم الجنوب متاهة الصحراء طيات من سهوب... صفرا، وديان الجفاف، مكسية شوك صبار... في الشمال وحتى حد السما تمتد أمواج من بحار العطش، وانت بينهم واقف ضئيل، غريب على ظهر الجبال المستوحشة، اطَلْع وراك... ثكنات الجنود، مخازن الذخيرة، في البعيد الأسطح الواطئة لمدينة مساعد... وصفوف من الأسلاك الشائكة... ارثِ نفسك بنفسك... ارم بها في تابوتك الطويل واسترح راحة الموت الأخيرة، أو إن خط الميه هذا أهم من روحك، من ابنك الذي لم ير النور... وإذا يا حمار يا ابن الحمار كيف يعطوك حفرة للموت قبل ما تمد الميه لمعسكراتهم.

أز الكريك وضربة الحجارى... كيف أحكى عن اللي في جوفي، ومين يطفي ناري... لو كان حد نبهني... بس مين يقدر والكل قدامك غنم مطبوع على هيئة بشر؟ ... غنم بترعي في مراعى الحجر... تكسره... تشق فيه خطوط المياه لأجل الغير ما يزرع... يفرش صحراء الجدب خضرة... يبنى عمارات... تنكات للمياه... معسكرات للجيش...

... ويلاه... هذا اللي في الكتب، حقيقة أم خيال، كذب أم أنه محال، لما قرينا في المدارس إن تاريخ العبودية لأولادك يا مصر انتهى... أنصت... هدير المحركات... شاحنات الجيش تدخل باب المعسكر... يا ترى الشحنة إيه؟

من أول "القول" هبط ملازم وخلفه ضباط الصف يصيحون، وهم يندفعون إلى مؤخرات الشاحنات.

- هيا، هيا انزلوا غادي.

- كنك هناك... شنو تبي العرص... تختفي! توا نجيبك من قفاك...

- هيا... هيا يا فوالة... صفين قدامى يا تيوس...

من مؤخرات الشاحنات تساقط مئات من المتسللين على الأرض، حاملين أمتعتهم القليلة، يتخبط كل منهم في الآخر، مرعوبين مثل قطيع نعاج تعتورها الذئاب من كل جانب... عاد المساعد يملأه سخط جارف لاعنا في صخب:

- ربي الشيطان ما ينفع فيكم غير ضرب القوايش يا حثالة الكلاب...

واندفع يخلع القايش... دوائر صنعتها قوايش العسكر في الهواء... على مماساتها تراجعت قَطعان العمال في فوضى

وهلع تطلب الهرب... على الحواف تساقطوا متعثرين في جلاليبهم المهلهلة، وإلى الخلف استدار البقية في هرج واندفاع يتقاتلون طلبا للنجاة... وعلى الأرض تناثرت أجهزة تليفزيون، مسجلات ملابس قديمة رخيصة، تحت قدميه أقعت الضحايا تتوسل إليه، تطلب الرحمة تزيد شهوته للعنف... جذبه الملازم الشاب غاضبا: كنك تشبح فيهم... هيا غادي...

نادى عليهم: يا مصرية... يومين وتعدوا غادي لبلادكم... سامحونا... نبي ننهى خط المياه هذاك... وبعدها تعدوا لدياركم وللعويلة... الله غالب شنو نسوى... صفوا صفين بيش نوزع التعيين.

الألم في الفخد يروح ويجي... يختفي كما تختفي القطارات، ويعود كما تعود بضجيجها... أخص على الرجال... مين يقول السبب... هي دي أرض العرب؟ يجمعونا بالألوف... يشحنونا في الشاحنات وقبل ما تقلبنا القلابات على الحدود مثل البهايم، تميل بينا يم الجنوب... وماله يومين سخرة...

هذا الليل طويل، مين يحسب، ومين بالجاري داري؟ غني... غني لحن الموت، غني عَلَّ الألم من الساق يغيب، إنّ بأنين الألم... بمساخر الزمن... آه يا ابن عبد الجليل، الطريق إلى تنكات المياه لا يزال بعيداً... أشعة الشمس تحرق الدماغ مثل فحم المناقد... ميه... شوية شاي يا خلق... امتى يوزعوا الجراية... رغيف من عيشهم الزفت... وعوم يا ابن عبد الجليل في بحور الفاصوليا وأزان المعكرونة بالهريسة، تقول جدايل السفيرة عزيزة.

الصول ابتعد عنك... أرمي الفاس وانصب ظهرك التَّعب... امسح عن جبينك بحر العرق المهدور رخيص... وقعت يا ابن الناس في مصيدة قسوة الوطن وتحكم الأغراب.. انظر أمامك المئات من الوطن مبدورين في الفضاء... صبار ينبت على ظهر الصخر.. حرس بلا كرابيج كفاية سيارات الجيب العسكرية والبنادق الآلية...

- كنك... يا مصري !! تبي تروح... خلص الحفر هذا اليوم واحنا نترك فيك تروح مصر... الفول غادي واجد... تراك مشتاق له... هاها...

سمع عبد الله كلمات الرقيب بدهشة... تابعه والغضب يصعد في دمه... نظر في خط الحفر الطويل... صرخ: حضرة الصول... حضرة الصول... يا أخ... استدار الرجل نحوه يتفحصه بعينيه الضيقتين في استهانة: لحظة لو تفضلت... أنا... نحفر في خط الميه... هز رأسه في ضجر: وأيش تبي؟

- بحق جاه النبي يعنى فاضل كام متر وارحل...

قال بجدية وهو يستدير مبتعدا بكل ما في منطقه من عبث:

- ترحل! خمسين متر... باهى...

قفز عبد الله خارج الحفر يجرى خلف الرقيب بجنون: خمسين متر؟ دا ولا خمسة شهور... دا حجر صوان... أخلصهم إزاي؟

لم يأبه به الرقيب، عندما بلغه جذبه من كتفه فاستدار يشتاط غضبا... لم يمهله عبد الله الحديث: انت عارف بتقول إيه... عايز تموتني، هات كومبروسور، هات حفار، إذا عايز تموتني موتني وخلاص. صرخ الرقيب: كيف تمد أيدك

علىّ!! هادى تهمة... توا أنا نحطك في السجن، نضربك بالنار...

انتابته هستيريا: ليه! هو انت مين... موشى ديان... دياب بن غانم... كلنا كنا في الجيش وعارفين، ونعرف عن الجيش أكثر من اللي يعرفه عشرة زيك... واستطرد صارخا: هو احنا يهود... دا احنا عرب يا عالم... فين العقيد أكلمه... خدونى له... حطونا في السجن... ح تموتوني... ما احنا بندوقه من ساعة ما دخلنا الهبابة دي... أنتم فاكرينا إيه... حيوانات... بهايم... دا احنا ولاد ناس، مش عبيد...

توقف العمل تماما في المعسكر... شاهد العمال المصريون الجنود الليبيين يحيطون به دون أذى، وجميعهم يطيب خاطره: انت تصدق هذا، نحن نقول المصرية يفهموا، خذ، خذ السيجارة هاذي، هيا يا راجل.

– خذ الشاي هاذا... أكلت... باهى... حضر له الطعام... أقعد أستريح، كل واشرب شاي، ودخن سيجارة، روق... دمدم غاضبا: قالوا ليبيا أرض العرب، لكم فيها رزق جينا... غلطتنا... نرجع بلادنا... الإنسان لما يغلط يعدموه؟ أبدا يعاقبوه... واحنا اتعاقبنا كتير، غلطة نصلحها، وإصلاح الخطأ إزالة له... تمام.

– يا أخي احفر اللي تحفره، وبكره روح غادي مصر... شو نسوى، كيف نحفر الخزانات هاذي بعد طرد المصرية... صرخ كالمخبول: تقوموا تشغلونا سخرة! لما أنتم عاوزنا تطردونا ليه، ما كنا قاعدين.

ظهر على وجه الجنود الليبيين الحيرة... قال أحدهم بتفكه: ما ندرى يا أخي... ما ندرى... ترى تركك خسارة... توا

تريح عندك... كُل... اشرب شاي، خذ علبة السجاير هادى مني أنا، واشتغل كيف ما تبي، وبكره تعدى للعويلة، ما تخاف... باهي؟ انت شو اسمك...

اشتغل وانحنى أكثر لأجل ما يعدى هذا النهار الثقيل بدون إهانة، يصبح صباح الليل البهيم تعود لأهلك... لسه ما كملت دارك... زمان المبروك عدى الحدود بالعشية... اليوم يكون في مرسى مطروح عند الحاج حسن ياخد فلوسه، ويكون آخر النهار نايم وسط أهله... صوت البلدوزر اللعين... سحابة الغبار الكثيف... الوجع في الساق ينهش كنهش الدياب... قاع الخندق... الحجر الجيري الرطب... لا أحد يراك... اتمدد تريح شوية... اغفي ربما تجد في النوم الهرب.

- ح -

استيقظ على صوت نداءات الحرس... منتصف الليل، السكون وأزيز الحشرات... همهمات الجنود تأتيه عن بعد... أطل برأسه من خندق الحفر... حدق النظر في فراغ ساحة جمع الجنود... الأضواء الشاحبة لثكنات الجنود... لم يكن هناك سوى الصمت، ناحية الغرب تجمع أقرانه داخل سياج كبير، تكومت أجسادهم، وكلٌ متشبث بأغراضه، مستغرقين في نوم عميق... فكر أنهم قد يستبقونهم أسابيع... أزعجته الفكرة... الهرب... الهرب فورا... على مرمى البصر امتد الأسفلت على حافة الهضبة.

أيـوه يـا ابـن عبـد الجليـل... إذا بلغتـه... عـبرت نحـو الجنـوب... دورة واسـعة للجنـوب... نصـف قـوس باتجـاه الشرق... عشرين كيلو مترا وتصبح في بر مصر...

قفز هابطا في نعومة الفهد، عبر منخفض الـوادي ركضا، تسلل صاعدا إلى قمته... غمر الطريق ضوء أحد المصابيح الكاشفة فتوارى منكمشا إلى الخلف، وأمامه تقدم "قول" من ناقلات الجنود الليبية باتجاه الحدود... دقائق طويلة مرت قبل أن يعود الظلام، قفز إلى حافة الطريق، فتساقط خلفه سيل من الحجارة...

صرخ أحد جنود الحراسة: منو هناك؟

لـم ينتظـر، عـبر الطريـق زحفـا ملقيـا بنفسـه إلى الناحيـة الأخـرى منـه... لمحـه أحـد الحـراس فنـادى عليـه بـالتوقف، وامطـره بوابـل مـن الرصـاص، لـم يأبـه وانطـلق يعـدو هابطـا الناحية الأخرى من الوادي، حيث ينحدر الوادي بشدة، تدافع المصريون رعبا، تدخلوا كل في لحم الآخر كالشياه المذعورة... همـس الـبعض... دا الـواد عبـد الله... عبـد الله عبـد الجليـل رزق... ... ارع يا ابن عبد الجليل... ارع يا بقرة يا ابن البقرة... مراعى ما لها تحت السما حدود.

- 3 -

تلمس مواطئ قدميه في الظلام، يتعثر في اندفاعاته، هوى متدحرجا ككتلة حجرية، داهمه خوف غريزي محاولا التعلق بأي شيء... قام يبسط ناظريه حوله... يجب أن أصل للأراضي المنبسطة قبل الصباح...

إذا أردت أن تعبر هذا الليل... اجر بعزم الخيل... اجر كما تنهب الرياح البرية... الهاوية تحت أطراف القدم... اهتزاز القلب... الرعب... الارتجاف... ببطء... لا تنفعل زي ديك جربان...

أكيد مبسوط يا عبد الرحيم يا اخوى... لو تشوفني الساعة... الابتسامة الصفراء على وشك عرض فدان... بلعت أرض أبوي... يمكن لو أموت أريحك منى... لو كان في قلبك رحمة، كنت تاوتنى معاك في التلات فدادين اللي تبقوا من أرض أبوك الله يجحمه، ولو إن الرحمة تجوز على الميتين... يمكن لو يشوف حالي يصيبه الندم... آه... آه يا ابن المفحور... سبحانك يا رب... العشب الأخضر ينبت في قلب الصخر، وقلب البشر لا ينبت إلا الكراهية...

اضحك يا رضوان يا ابن عمى... السخرية تطل من سحابة عينيك... اضحك واسخر كيفما شئت... انت الملك... سلطان على جزيرة الغياب، والانفراج في عصر الغموض، وحل المشاكل بالطرب وأكاسير الملل... انت وحدك مملكة... مركب شراعها يلاطم الأمواج السعيدة بأحلام النجوم... تسبح في تراخي الخمول للمبحرين على نهر الحشيش العظيم، وسندسه العسلي الجميل... اضحك لا تخفي في ضحكتك روح الشماتة... توا أجيلك ونقعد نحكى كتير، يقطر الفم منك سخرية ومرار... تضحك القاعدين علىّ... كنت اعمل إيه... تمنتاشر سنة وأبوي ومن بعده المحروس ابنه الكبير راميني بره الدار... لا تركوني أكمل علامي، ولا فات لي طين أزرعه.

- اشتغل نفر مياومة؟
- عيب يا عبد الله.

- طيب عيب ليه يا عبد الرحيم؟

يرد بوجهه الكالح: الناس تقول إيه ما عندناش أرض!

- دخلت الجيش وخرجت ما تعلمت غير الرماية على السما بالمدافع المضادة للطائرات... وصيد الكواسر من الطيران المعادي... أصير بطال؟

- ليه ما انت خدت تعويض من الجيش؟

- طب دا أدعى إنك تساعدني... رد لي نُص الفدان اللي أبوك مأجره للحاج عبد الودود.

- انت بتفتح علينا موال ما لهوش نهاية، دا غير الخسارة.

- طب إزاي؟ هي مصلحة أخوك خسارة؟

- لا... ح تخلى ولاد الحاج عبده يطلبوا الفدان ونص اللي لهم عندنا بالإيجار.

... الملعون عينه على مصلحته وبس.

أمي تقول: أقعد أنتظر فرج الله.

وانتظرت... مصاب حرب وَلَه أولوية التعيين الفوري... أقرب مكان لمحل السكن وكارنية لحظة ما يبرزه ينول ما يشتهيه... العمل مع لصوص الأسفلت... اللعنة... مافيا... شبكة واسعة تمتد من رئيس مجلس الإدارة حتى الغفير... أفكار كما الشياطين... وثراء غير محدود... نهب منظم يفوق نهب الإنجليز لمصر... لأن في هذا الوطن غير مسموح أن تقول الحق... وإن فعلت يتنصب لك كمين وخية وقضية، وأنا اللي كنت في يوم بطل من أبطال الحرب...

... اضحك يا رضوان... اضحكوا كلكم... لما ح اوصل سدود، ونقعد سوا نحكى، المجلس ح يبقي كبير... والضحك يطقطق في النافوخ... اضحك يا حسن خليل، اضحك يا أخويا شاكر... انت فين دلوقت!! نفسي احكى لك... أنا كنت فاكر إني ولد... لكن ولو... نجاة استلمت بأسمى التمنتاشر قيراط اللي خلصت حقهم الشتاء اللي فات، دلوقت تزرعها بطاطس، في الصباح لما أوصل مرسى مطروح، وأقابل البيه الكبير الحاج حسن، وأعطيه الورقة دي استلم مالي... تسعة شهور عمل في بلاد النفط... اشترى أرض الحاجة (حافظة)، اللي فاضلة من الفدان وعجلة وجاموسة، يتبقى خمسمائة جنيه أعمَّر بها الدار... واضحك يا ابن عبد الرحيم... اضحك يا رضوان اضحكوا كلكم... تظنوا إني ح افشل... لا... وألف لا...

صحيح هذا الليل صار طويل... لكنى ح اجعل لهذا الليل نهار... انعطف إذن الى الممر الضيق الهابط لأسفل... اضبط بقدميك الخطى ومس الأرض مسا... سابق الريح... الآن يقل الانحدار تبلغ منطقة الهضاب اعدو بكل سرعتك... وارتدى ثوب الظلام حتى تبلغ الحدود مستترا، لا يكشف عنك نور الصباح للجنود، ولا تسقط في فخاخ الموت لأولاد على... آه... تعثر القدم في نتوءات الجبل... اختلال التوازن... الانكفاء على الوجه... السقوط بعنف، ارتطام الجسد بالأرض... الاندفاع زحفا... صدمة الرأس في الصخر... احتكاك بشرة الركبتين بحبات الرمال... التمدد على البطن...

الألم ينبح بكل قطعة من الجسد... السكون عدا اللهاث... ألهث كما لهث الطرائد، خلفها الوحوش سايل لعابها... يجري العرق على بشرة الجسد حبات نار كاوية... تمدد على ظهرك

حيث السماء تملى النظر... يخف اللهاث... أمعن الشوف في بحر المجرة اللا نهائي... شيء غامض يراقبك... أتراه هناك خلف النجوم يقبع في الزرقة الداكنة... شبحا هائلا انتصب في الظلمة، والجسد مركب تهالكت من لطمات الموج، تتفكك أوصالك، اسبح وحيدا في بحر الوحشة... اللعنة إذا كنت خائف... الخوف كان هناك على شط القناة... ... قصف المدفعية والطائرات تمشط الأرض بطلقات الفيكرز... صواريخ جو أرض... قنابل عنقودية، وأخرى زنة ألف رطل... نابالم... حيث الموت راجل تجالسه... تشرب معاه الشاي وتدخن سيجارة... تغمس معها المش، وتقرا جريدة الصباح التي لا تأتي بأسماء الشهداء، ولا بوجوه من حصدهم... وهو قاعد جنبك يضحك معاك يلاغيك وأحيانا يخاصمك... وقبل غروب الشمس أو مع أشعة الصباح الأولى يسبح في الفضاء ناشرا جناحه على خط الجبة، ، تخرج تبارزه بدانات المدافع الـ 100 مم ومدافع الشيلكا... تخرج الطلقات للسماء كالحمم ترفعه من طيرانه المنخفض لأعلى، حيث تكون في انتظاره صواريخ سام...

قابض الأرواح سارح في البوادي والسهول ناشر منجله... ملاك الموت يقتل من غير شفقة. من غير لحظة ندم، من غير حسبة الخسارة... في الحرب... الموت وحش رهيب تنهشه نار جوع لا ينطفئ لقصف أرواح الرجال... دائما كسبان... عمره ما خسر معركة، ويمر يوم ناكل ونشرب... وأيادينا على زناد المدافع... وخلف عقولنا نجهز نفوسنا لمعركة جديدة معاه... الموت... يأتي صباح جديد وكأننا غنم بترعي في مرعى الحياة... نتربى له، يتربص بنا، يركض على ساحات المعارك يحصد أمامه كل حي يبغى الصدام... كل حي صار عليه الدور.

بس اوعاك يا ابن عبد الجليل تنسى إن الموت رابض هنا في الصحاري... جوز ديابة جرح لعابها الجوع... ضبع يبحث في البراري عن فريسة، عقرب نايم بين الصخور... أفعى ساكنة في فلق حاطط راسك عليه... والصحراء تنتظرك، ربما تضيع. تقبض عليك داخل كهوفها، تدفنك في بحر الرمال، والصهد وقبض العطش آاااه... يا ابن عبد الجليل... الموت على شط القنال لحظة... خاطر في الخيال... وجوه الرفاق اللي خطفهم لا تلبث أن تتوه، وسط الرفاق الجدد أما هنا فأيام.

... قوم... قوم اجرى، يلا قوام... اجري بعزم الخيل، كما تنهب الرياح البرية... انزل من الهضاب الوعرة لحد الصحراء... لف حولها... عدى الحدود قبل الفجر... لا يعثر فيك حراسها ولا تتعلق ثيابك على أسلاكها الشائكة... لا يطخك واحد من أولاد على برشاشه، تسقط على الأرض مثل كلب ضال... نفاية من نفايات الشوارع، صاده صياد آخر الليل، وتركه يموت في بطن الجبل... تنهش في لحمه الكواسر وجارح الطير... اجر يا ابن عبد الجليل، اطلق سيقانك للرياح، مثل الفريسة في المراعي، تشم رائحة الموت ولا ترى صيادها... وفي اللحظة التي تظن فيها النجاة... يعلن القدر حكمه المرير...

* * * *

الفصل الخامس والثلاثون

ساعتين من الزمن وتوصل البيجو مرسى مطروح، يشرد الذهن التَعَّب ويعود، فاضل إيه بقي ويطل الصباح؟ أما توصل مرسى مطروح تستلم مالك من الحاج حسن، ألف وثمانمائة جنيه، ساعات قليلة وتصل سدود وتشترى بقية الفدان والبهيمة، توسع الدار، يضرب عبد الرحيم راسه في الحيط، إيه اللي كان فاضل واعمله، لحست دهاليز الحكومة والمحافظة أرسلت لسيادته البرقيات، قلت له أنا بالباب أنتظر، أريد النصف فدان، ورث أبوي ومستأجره فلان، وأنا ليس لي أرض أزرعها، ولا حرفة تسد شظف العيش، علما بأنى مصاب حرب، ولدى نسبة عجز، وأنا بتواضع كما تعلمون يا سيدى بطل حرب، وانتظرت حتى تيجي سيارات الحرس، تنقلني إليه مباشرة، واللي حدث ورقة من المحافظ تقول إن العلاقة بين المالك والمستأجر معروضة للبت.

... يشرد الذهن التَعَّب ويعود... والأسفلت حد فاصل يتلوى بين انبساط الصحراء، وصفحة البحر الوسيعة... أمواج صفراء... أمواج زرقاء، وشريط ضيق من الصخر المنبسط، والسيارة تنهب الطريق... توقفها كل لحظة نقطة التفتيش، يتبادل السائق مع الصول الحديث، يدفع العساكر وجوههم الباردة داخل السيارة، ينظرون للركاب نظرة بلاهة وابتسامة صفراء.

- حمد لله على السلامة... الجوازات... مفيش ختم دخول وخروج... معاكش بطاقة... نزل الشنط.

حديث هامس سريع بين الركاب اللي معاه تأشيرة جنيه... واللي متسلل اتنين، مامعاكش مصري ادفع بالدينار... كله ماشي... تخرج المحافظ... تتناقل الأيدي النقود إلى يد السائق، منها إلى اليد الخفية للبيه الصول، يستدير الصول بعيدا، تتراجع رؤوس الشرطة، تعاد الحقائب قبل أن تفتح، تلمح إشارة لبزة عسكرية يعلوها وميض النجوم، ينفتح مزلاج بوابة المرور، وتعود السيارة إلى المسير، ومع أول انحناءة تختفي نقطة التفتيش، تنطلق العربة بأقصى سرعتها إلى مطروح.

يشرد الذهن التَعَّب... يغفو من طول السهر، ويصحو مَكدُود حَزِين... كنت فاكر يوم خروجي من الجيش إن ليلى انتهى، ست سنين في الخنادق تحت قصف من كل نوع، واقف ورا المدافع المضادة للطائرات زي واحد قاعد على برميل بارود... مذبحة... لما سلمنا المخالى قلت انكتب لك عمر جديد، واللي جي أحسن من اللي راح، البطالة والتسكع على بوابة العَّلامية... دكان عكاشة... العدلي... المعلم شفيق... خلف الكنيسة لما تجف المستنقعات بعد فيضان النيل، نلعب

اللقم والحكشة، وفي الليل بات يا واد بات... ساعتها كان الليل صباح، البال خالي، والجبنة في الزلعة فوق السطوح، لكن لما يكون مضى من عمرك ستة وعشرين عام، وصرت زي البغل... طويل، نطع زي باب دوار الحاج منصور، والسكون في عينك بركان مكتوم، وبعد ما ينهد حيلك آخر الليل، تسأل نفسك، أيش تكون يا ابن عبد الجليل؟ تكون الإجابة... لا شيء... ياكلك الغضب... تبقي عايز تفتح باب القاعة عليه وهو نايم تذبحه... يا أخي كفاية غل... آخر خطوة في طريق الليل تاخد فلوسك، تلحق قطر الساعة خمسة، توصل سدود في قطر الفجر، ويا مَتَعَبْ اللي راح، يا مَسَعدْ اللي جي.

يشرد الذهن التعب... يغفو ويعود... مرسى مطروح في الصباح الباكر صبية، سلمت شعرها الطويل لنسائم البحر الندية... عندما غادر السيارة لم يغلق الباب خلفه... عد الخطى بقامته المديدة مسرعا باتجاه فيلا البيه الكبير، تاجر العملة السوداء... من سنة لم يكن بناها...

قبل الفيلا بشارعين... ليه الخلق متجمهرين؟ جماعات واقفة على النواصي، وجماعات مفترشة الأرصفة... لم يتوقف للسؤال. ناداه صوت يعرفه:

- عبد الله... الحق الراجل بيقول مفيش فلوس آجت...

استدار ناحية المبروك: مين اللي قال كده؟

- ابن الحاج حسن.

مقطب الجبين، عاقدا الحاجبين، لامع العينين كالثريا، ردد دون أن يتوقف:

- واحنا مالنا... يهمنا الحاج حسن نفسه... مفيش فلوس!

... لم يفطن لمصيبته جيدا، وفي طريقه، تحرك خلفه أقرانه من المتسللين صامتين، وجوه كالحة السواد متجهمة كالصخر، تنطق بمعالم الكارثة... أمامه أخذت رءوس تبرز من خلف بوابة الفيلا، كلما اقترب كان عددها يزيد، فلما بلغها وجد خمسة عشر رجلا، طُبعت على سحنتهم معالم الشر... إغلاق البوابة أثار التوتر العام... فاندفع الجميع في غضب... من الداخل وقف في منتصف البوابة رجل قصير القامة تلمع عيناه بالفراغ... مد رأسه تجاه عبد الله مستفهما الذي وضع يده على البوابة بقوة، يهزها بعنف، ورجال الحاج يقاومونه وفي عيونهم تهديد ووعيد.

- عايز إيه يا أخ؟
- الحاج حسن؟
- ليه قريبه... تعرفه؟
- عندي عليه وصل أمانة.
- بتاع إيه إن شاء الله.

تفوه بكلمة قبيحة... واستطرد صارخا: عرقي... شقي غربتي...

- الحاج ما أخدش حاجة...
- ما أخدش حاجة؟
- معاك إثبات؟

صرخ نافرا كل عرق في جسده: الوصل... الوصل دا... أخرق بيه عينيك وعينين اللي يتشدد لك.

قال الرجل باستهانة: بِلّه واشرب ميته.

صرخ مشوحا بغضب: أبله واشرب ميته. دا أنا اشربك المالح... فلوسنا يا ولاد الكلاب... عَرَقنا... عايز الحاج حسن أقابله، أنا صارف منه السنة اللي فاتت ألف وثلاثمائة جنيه، أشوفه أتفاهم معاه...

جن جنون الجميع... صرخوا من خلفه: أيوه نشوفه... نكلمه.

- يا عالم يا ظلمة... يا وحوش.
- أنتم ما تعرفوش ربنا... يا لصوص.

من المؤخرة ظهر رجل ربعة القوام، يرتدى عباءة ثمينة... عينين نفاذتين، شارب كثيف، لحية شهباء، وسحنة قمحية رخوة... رفع يده بالسبحة، فهدأ المكان وحل الصمت: أنا الحاج حسن... وأحب أقول لكم... فلوسكم ما جتنيش... ابن الحرام ما بعتهاش... ولعلمكم مش ح يبعتها... أنا معاى الفلوس اللي وصلت في مايو... واللي له مليم أبيع ابنى وأعطيه حقه... إذا هربت منكم أهرب من ربنا فين... أنا عايز واحد معاه وصل قبل شهر مايو...

تصاعد الضجيج: واحنا، وفلوسنا؟

- فلوسنا ح تيجى امتي؟
- لا... اسمعوني. شوية سكوت... اللي له فلوس قبل مايو، فهي معاي... معاي يعنى مش ح ادفعها من جيبي... معاى لأنها وصلتني... الفلوس اللي بعد هذا التاريخ الراجل لم يرسلها، ولن يرسلها...

ارتفع الصياح ثانية: إزاي... طب ونعمل إيه؟

- يا جماعة اسمعوني لحظة... أنا ممكن أقول لكم تعالوا بكره... وتظلوا تيجوا يوم ورا يوم لكن شهادة لله وللحق، الراجل سرقها.

- إيه اللي عرفك؟

أجاب متهكما: الحرب... حشد الجيوش على الحدود جارى... يا اخوانا الراجل طمع في الفلوس... يعوض عليكم ربنا... قالها وهو يدفع نقودا لعمال تقدموا نحوه وأيديهم مرفوعة بورقة صغيرة.

صاح المبروك: انت يا واد انت وهو، مش صرفتم فلوسكم امبارح.

صاح العمال بصخب: دا ملعوب يا رجاله... والله العظيم ملعوب.

معركة حامية نشبت عند البوابة، وتحت ضغطهم انفتحت على مصراعيها... تراجع البيه إلى الوراء محتميا برجاله، واختفي داخل الفيلا مغلقا خلفه الأبواب... وخلفه كان العمال يدمرون ما تصل إليه أيديهم... لا يذكر متى سمعت صفارات الشرطة... كل ما يذكره أنه بينما كان الكل يجرى متفرقا في الأنحاء هربا، جرى هو ناحية عربات الشرطة مخرجا بطاقة، يلوح بها على طول ذراعه وهو يصيح...

لم يفهم العقيد شيئا من كلامه... وبينما كان الجنود يطاردون العمال في كل مكان ويدفعونهم دفعا للشاحنات، وقف ثلاثة من الجنود في حيرة، هل يمسكون بعبد الله ويلقون به لإحدى اللوريات أم يتركونه؟ وهل هو مع العمال أم من أتباع الحاج حسن صديق العقيد؟ ... وما أهمية البطاقة

التي يحملها؟ ... وقفوا يتابعون عيني العقيد بانتباه كلاب الصيد تتشمم رغبات أسيادها.

- يا سعادة البيه أنا مصاب حرب... أنا مصاب حرب... والراجل دا سرق فلوسي ألف وثمانمائة جنيه... هو ما يعرفش احنا شقينا بيها قد إيه... دا حرام... هات لي حقي الله يرضى عليك.

- أوقف بعيد... إيه مصاب الحرب دا... هو مصاب حرب يكشف حرمة البيوت.

فهم الجنود دورهم فاندفعوا نحوه كلابا مسعورة ينهشونه. كان وسطهم مثل شجرة كافور تحيط بها أقزام... قاومهم بشدة وهو يصرخ.

- أنا ما دخلتش بيت حد... دا أخد شقانا، دمنا، عرق الذل والمر.

استطرد العقيد في لهجة تنضح بالقرف والقسوة والاحتقار: فين إصابة الحرب دي... انت بتستعبط ما انت زي الحصان أهه. ومد يده بغلظة يفتش في صدره ويمسك بعضلات ذراعيه... خفف الجنود من قبضتهم عليه بآلية كاملة، محاولين أن تتناسب أفعالهم مع رغبات العقيد، جعلوا منه مستقيما كلوحة للعرض... عندها رفع ذيل جلبابه وأنزل سرواله القطني الطويل، كاشفا عن جرح غائر. بطول فخذه الأيمن، ومكان آثار تهتكات في اللحم نتيجة جراحات الترقيع المتكررة... الآن كل شيء واضح أمام العقيد... يستطيع أن يصيح كما يشاء: خذ لي حقي من الحاج حسن يا سعادة البيه... فلوسي الله يرضى عليك.

لكن العقيد أشار بإصبعه، فشدد الجنود عليه، واستطرد في لهجة باردة شعر منها عبد الله أن العقيد لا يعاديه فقط، ولكنه يتربص به:

- تعال... فلوس إيه... انت داينه في حاجة؟
- فلوسي اللي اشتغلت بيهم في ليبيا وبعتهم مع...
- بعتهم! ... انت معاك جواز سفر...

حار عبد الله واختنق حلقه. عاجلة العقيد:

- انت متسلل من الحدود؟ ... سلكاوى... هه؟

شعر بصفعة داوية باغتت وجهه كالصاعقة... اهتز لها جسده الفارع وسط ضحكات ضباط الصف... وتشفي الجنود... ورجال البيه الكبير... وصوت العقيد يأتيه من خلف سحابات الطنين:

- انا ح اوريكم يا ولاد الكلاب، يا خونة، يا جواسيس، مصاب حرب... واندفع يهاجمه ثانية: انت مزور الكارنية دا يا ابن الكلب...

اختنق في حلقه كل ما كان يمكن قوله... شعر برأسه تسحقها جنازير الدبابات المعادية، فكر إذا كان هناك ثمة من يجد لديه إجابة لسؤاله أين ذهبت الفرقة الرابعة واللواء الواحد والعشرين مدرعات؟ لماذا تركت كتيبته مكشوفة كمن نزع عن مؤخرته سرواله؟ ... اللعنة... حاول الفكاك هز جسده الفارع الطويل فتساقط العساكر الثلاثة من حوله كأوراق الشجر... هتف في وجهه العقيد:

- أنا مش مزور... مزور انا؟!

قبل أن ينتهي كان كل من له صلة بالعقيد يندفع نحوه... ضباط وعسكر يشدون من وثاقه، وينهالون عليه بأحذيتهم وقبضاتهم... ثانية جاءه صوت العقيد ممتلئا هذه المرة بالسخرية:

– طب واصبت فين؟

أجاب وهو يقاومهم دون استسلام: في الدفرسوار... في آل...

قاطعه العقيد: يعنى في الثغرة اللي دخل منها اليهود... !! هه؟ يا أخي خيبه عليك وعلى امك.

... شاهد وجه العقيد مليا، وهو يستدير منهيا حواره معه، مزهوا بذاته، ممتلئا بالسعادة والرضا بالذات... والجميع ينفجر من الضحك... حتى أقرانه من العمال السلكاوية رأى في وجوههم علامات الضجر والتشفي... لو أنهم جمعوا أسراب الطيران المعادي ما فعلوا به مثلما فعلت كلمات العقيد... لقد اعتصره كذبابة... سد حلقه بحجر... قتله كما يقتل صرصارا ببلغة قديمة... لم يكن يفهم كيف ينتهي ما حدث على هذه الشاكلة المغلوطة، انهار، وهو يقاوم، ويصرخ في غضب:

– مش مزورة. هو احنا اللي كنا في الثغرة بس... انا دفاع جوى، احنا حمينا الهجوم كله... اسألوا عن المدرعات والسلاح الجوي...

... عن ماذا يتحدث الآن... لماذا استدرجوه بعيدا عن المشكلة الحقيقية... فلوسنا يا وحوش يا حرامية، أنتم ما تعرفوش ربنا، عيب على الدقن يا حاج بيت الله.

صول عجوز اقترب منه يواسيه: يا أبني أحسن لك ترحل لمصر، وتستعوض تعبك عند ربنا... خذها من قصيرها

وارحل... أولا... الحاج حسن واصل لفوق... قصره مفتوح طول الصيف لبهوات مصر الكبار... وثانيا هو عمره ما يرضى بالحرام... ولو كان معاه فلوسكم ما كانش حاشها عنكم... دي خدمة بيقدمها للناس الغلابة اللي بيسافروا من غير جواز سفر ولا بطاقة... سلكاوية زيك...

لم يستطع أن يجيبه بشيء، سوى نظرة حزن عميقة.

في اللورى جلس القرفصاء مكتئبا... يحدق في الفراغ... عينين لامعتين واسعتين يتوهجان بضوء ساطع مثل نوافذ أبنية الأجهزة الغامضة... في قسم الشرطة دفعوهم بعنف للداخل، والهراوات وأحذية الجنود في مؤخراتهم حتى تكدست التخشيبة بهم... جلس واضعا خده على كفه في كآبة... واستلقى العمال مستسلمين للأمر الواقع...

عرضوا عليه طعاما... رفض... كان شَرِها للسجائر... وفي داخله يعبث القلق... منذ وعى الحياة وهو قلق... يوم باع أبوه الفدان الثالث لأبناء عمه، وتزوج امرأة صغيرة... كان لأبيه سحنة عجوز شرير تلهيه ملذاته الرخيصة الفاجرة... يفتنه أكل اللحم، وملء بطنه بالطعام، ومعاشرة امرأة صغيرة السن، يقضي في منزلها القيلولة، وزمن الليل وهو ملقى بالشوارع لا يجد ما يقيم أوده... عشر سنوات مضت من عمره قبل أن يعي أن له أعماما وأبناء عمومة يكرههم ويكرهونه، وهو ابن محمد الذي ورث عن أمه ستة أفدنة، ولم يرث أي منهم سوى واحد وعشرين قيراطا، جعلتهم يتربصون بأرض العجوز صاحب الكيف الرايق.

بالخارج حدثت جلبة شديدة تداعت لها أبدان الجالسين كشياه في حظيرة... فتح باب التخشيبة ودخل الصول

العجوز، ومعه ذلك الرجل الصغير الذي دفعه أمام بوابة الفيلا...

– كله يقعد يا جماعة، شوفوا فاعل خير... الرجل الطيب الحاج حسن بناء على طلب سعادة الباشا العقيد ح يعطى كل واحد منكم خمسين جنيها زكاة عنه، عارف إنكم مش محتاجين، لكن فلوسكم اللي راحت... ربنا يعوض عليكم... تكاليف السفر... تاخدوا حاجة للعيال...

صرخ عبد الله: مش عايزين هبات ولا زكا... عايزين فلوسنا...

جاوبته صيحات ضعيفة مؤيدة، وفي عيون البقية لمح تعبا وإرهاقا، ونظرات ولاء وأشخاصا تقول: ربنا يعمر بيته ويحسن له...

عندما حاول أن يعارض ثانية أدار الصول ظهره لهم خارجا، لحظتها جوبه بمعارضة ولا مبالاة لآرائه، وابتسامات ترسل إشارات صريحة للصول والرجل القصير بالقبول والدونية... لحظة توزيع النقود تدافعوا يتقاتلون قرب الرجل القصير... قال أحد العمال: الله يعمر بيته الحاج... معاى دنانير ليبية... ياخدها الحاج ويعطيني بالمصري؟

نفي بحزم، فعقب العامل: يعني ح يتأثر بالعشر دنانير بتوعي.

– لا... الدنانير دي تبلها وتشرب ميتها... وضحك وقال قولا قبيحا...

حاول الصول أن يعطى عبد الله نقوده فرفض... همس في أذنه: خدهم أحسن من عين الكلاب، أنا سمعت الحاج بيكلم البيه... الراجل الليبي لم يرسلهم فعلا... اسمعني... خدها مني

نصيحة... الحاج لا يكذب على سعادة البيه، لأنهم سوا... وانت عارف اللي زي الباشا ما يقدرش حد يخبى عليه... انت اولى بالخمسين جنيه.

غمغم غاضبا: يعنى ح يستحرموا على نفسهم الفلوس كلها...

عقب الصول مستسلما: أنا كان غرضي أوعيك...

تركه الرجل خارجا... بعد مضى ساعتين، كان الحال قد هدأ... اهتز باب التخشيبة وسمع صوت الترباس يفتح... وقف العسكري في منتصف التخشيبة... صائحا: فين اللي بيقول إنه مشوه حرب ده؟

رفع رأسه ناحية العسكري: تعال، قوم فز، عامل فيها بطل.

- قصر في الكلام وقول عايز إيه؟
- سعادة البيه عايزك.
- أنا عايز البيه المأمور.
- مش موجود... قوم وبطل "لآمة"[72].

في حجرة جانبية متهالكة كان العقيد يحادث أحد رجال الحاج.

- خلاص يا عرفة تاخد البنايين والسباكين زي ما الحاج قال لك على الفيلا عندي... المدام توريك الشغل.

نظر الرجل لكل من العقيد وسيده بدهاء مصطنعا التردد... قال بنظرة متواطئة: عايزين أسمنت ومواسير نص

---

72) لآمة: خبث الفلاحين/ عامية مصرية

بوصة، وتلاته متر قيشاني، عايزين عمال يا باشا... وكمان... قاطعة العقيد ثائرا: جرى إيه يا (......)، هي دي أول مرة تعمل الشغل دا... ضحك الرجل بلؤم... تدخل الحاج حسن مصطنعا الحزم.

- عدى على المخزن خد طلبات الباشا... نفذ له كل طلباته.

امتلأ وجه الرجل بابتسامة ماكرة: احنا لنا إيه غير راحة الباشا... بس السماح... صاحب المال يأمر وأنا أنفذ حمامة.

- بلاش وجع دماغ... يلا اتكل.

- حاجة واحدة. مفيش عمالة يا حاج... ودى في ايد سعادة الباشا.

- انتظر يا فصيح...

نادى العقيد: يا حسن... انت يا حمار يا اللي واقف بره.

أطل عرفة خارجا ثم عاد: مفيش حد بره يا باشا... ما انت بعتهم يجيبوا الواد السلكاوى من التخشيبة... اهم جم.

دخل الغرفة على عجل أحد جنود الخدمة المجندين ترتعد بنيته رعبا... وبصحبته عبد الله... ضرب الأرض بقدميه مؤديا التحية العسكرية: تمام يا افندم...

سأل العقيد عرفة: عايز كام... خمسة؟

قال ضاحكا بجرأة: يا باشا هم بيكلفوك حاجة... عايزين... عشرين... تلاتين.

- ليه بجيبهم من على الطوالة...

أجاب عرفة بجدية هذه المرة: تحميل الردم من قدام حمام السباحة، الصنايعية عايزه عمال تشتغل وراها...

فكر العقيد: خمستاشر كفاية.

أجاب دون خجل محركا يديه دوائر: الحكاية والرواية... فضلة خيرك... وعشر عساكر عند حبيبك الحاج، نوضب السلم اللي قدام قعدة الطراوة في الليل.

- قوى... قوى، يا سلام عنينا للحاج... بس زمان حسنين وزعهم.

- كله تمام يا باشا الأوامر عنده بكل طلباتك... هأ هأ هأ...

رفع العقيد رأسه مستفهما وعلى وجهه ابتسامة خفية. فرك عرفة بجدية أصبعي الإبهام والسبابة، مشيرا إلى علامة النقود، كرر حركته مرة ثانية وبسرعة، وضج الحاضرون بالضحك...

صاح العقيد: انت ح تفسد لي القسم يا سي عرفة، أنا عارف انت أس الفساد.

فكر عبد الله... والله ما حد عارف مين أس الفساد الحقيقي، سخرة في الغربة، وسخرة في الوطن، إذا كانت هي دي معاملة النفر منا في بلده، عايزين الغريب يحن علينا ليه؟

نادى العقيد على الأومباشى حسنين من الحملة: أجرى يا ابن الخنزير انده له... قبل أن يستدير حدث عرفة: استني، ما تروح معاه تخلص اللي انت عايزه... استدار باتجاه عبد الله، ينظر له بعداء... وعرفة يجيبه خارجا:

- تمام يا باشا.

... فكر عبد الله وجبينه مقطب بحنق: فكرك ممكن تؤذيني، لا... دا بعدك... مش انت اللي تقدر تحاسبني.

... تنحنح الحاج... مد يده لعبد الله بمائة جنيه:

- خد يا ابني... مائة جنيه انت مسكين وغلبان.

خطفهم من يده: لا... دي أول مية جنيه من مالي...

في اللحظة ذاتها التفت للعقيد بغضب: بطاقتي مش مزورة... لو مزورة قوم بواجبك... قوم بواجبك واحبسني... ابعت مصر اسأل...

تحولت الغرفة لحالة من الهياج... الجالسون قاموا، والواقفون اندفعوا نحوه يمسكون بأي جزء يطولونه منه... العقيد كان أول من انتفض من كرسيه المتحرك صارخا: الكلب دا ما يستحقش خردلة... خد منه الفلوس يا حاج... مش عاجبك يا ابن (....) ... انا ح اربيك يا روح أمك...

لم يأبه عبد الله لا بالذين يشدون وثاقه، ولا بالمخبرين الذين كالوا اللكمات له في كل مكان من جسده... كان أهم شيء لديه العقيد... سارع بمقاطعته بأعلى صوته: لا... ما تقدرش، ومش من حقك.

... جأر العقيد بالصراخ وقد تحولت اللكمات إلى ضربات من كل نوع.

- مقدرش يا (......) أمك... ح احطك في الحبس ستة أشهر... كعب داير يا ابن الشرموطة... ح ارميك ورا الشمس يا خول يا ابن القحبة، حطه في الحبس الانفرادي، مش ح اخلى حد يعرف لك طريق جره.

وفي كل مرة كان العقيد يلفظ ألفاظا نابية، كان عبد الله يقاطعه صارخا هو الآخر: ما تشتمش... مش من حقك.

... كان يريد أن يجيبه بأقذع الألفاظ، يعرف إن فعل ذلك سيمكن الكلب منه، وحدك يا عبد الله، هم يحتمون خلف بزاتهم، نجومهم المصقولة... عساكرهم المغلوبين على أمرهم، سلاحليكه والنظام المعفن اللي أنتجه... سمع العقيد يصرخ به مهددا: وحياة أمك ح اعلقك على العروسة، ح اعلقك من رجليك وايديك، ح انفخك زي المعزة، ح اسوط ضهرك بأسلاك الكهرباء يا ابن المرة (......) ...

رد عليه باستهانة من بين ركلات الأحذية وضربات الفائش: ما تقدرش... أيوه ما تقدرش... آنى مش هفية بين إيديك، مفيش حد له حق يحاسبنى إلا الشرطة العسكرية. وجأر بأعلى صوته... قوللي مطهوم علىّ ليه؟ ... فهمني... ليه مستقوى على الضحية؟ هو آنى اللي سرقت عرق الغلابة اللي بره ولا آنى اللي نهبتهم؟ ... ليه تكون نديم الجاني... ميزان العدل مالت كفته... شوف الجاني يا حضرة الضابط...

- شرطة عسكرية يا (.........)

لحظتها تدخل الحاج: خلاص يا باشا سامحه في الظروف دي... الفلوس كمان مش ح ترجع...

صرخ العقيد مقهورا: خدوه من قدامى... بره... طلعوه بره... بكره كله يتحمل على المحطة... اشحنوهم في قطر (واحدة) اللي نازل مصر...

أشار الحاج لأتباعه أن يأخذوه بعيدا... حملوه على ظهره وهو لا يتوقف عن القول: لو كنت عارف إني ح احارب عنكم وعن أمثالكم... لو كنت عارف إني ح احارب عنكم...

ألقوا به على أرضية الزنزانة الحجرية... تمدد وهو يزأر من الألم والغضب، تباعد عنه الجميع، جاء المبروك يطيب جروحه وهو يردد في إشفاق:

- العوض على الله... العوض على الله...

بقي ينظر للفضاء من كوة في سقف الزنزانة لا يجيبه حتى غفى.

ما ألعنه زمن الحرب... ليل صباحه هم، دم، وكرب. كانت أيادينا طوال اليوم تجمع أشلاء الرفاق، ورجلينا تخوض في برك دمهم، والطائرات في السما تتحدى اللي يرفع رأسه من على وش الخنادق... ما أغربه زمن ها الوقت، ولداه... يا ولداه... في سنين الحرب كان الدم دم... ألم واضح كما الشمس... العمر فيه قصير... ينبتر كومض البرق... يمضي الضحايا إلى رحاب الموت فايتين خلفهم لوعة وأسى وشجن لدى من لم يصبه الدور بعد...

...الآن فالموت أبشع من كل موت... كل يوم غم... لا يأت صباح إلا وعلى الهَمِ هَمُ... نوع غريب من الذبح الطويل الأمد... قتل عمد... حبات من الرمل تضغط على الدماغ... تعربد في خلايا المخ... تمزقها ببطء غريب... عذاب رهيب... ح تتجنن ولن تُجَنْ... ستطلب الموت... تتمناه... تجرى وراه لا تجده... سراب المستحيل... يكفيك إنك على هذا النوع من القتل تعيش طول عمرك.

آه... آه يا ابن عبد الجليل... أين المدرعات؟ كيف تم تدميرها؟ كيف اختفت أنوارها؟ ... أين هدير محركاتها؟ ... تلاشت... تلاشت وأنت في أمس الحاجة لضجيج جنازيرها... تلاشت وتركت لك ليلا طويلا ما له من نهاية... أين

المدرعات؟ ؟... سؤال عسير من يجيب عليه؟ ... ألا إيها الليل هل لك من نهار؟

– هدى من روعك يا خوى... هدى من روعك. دا مش نهاية العالم... افترض إنك ما جيتش ليبيا افترض... صار عندك تمنتاشر قيراط...

– تسع شهور... اشتريت الأمل بكاس الذل... أشربه ويا الصباح واتعشى بيه في المسا... مين يحق له يسلبني ثروتي؟

– افترض إن القضية خسرتها، وليبيا كانت بدل سنين الحبس.

– ليه؟ واتحبس ليه؟ ... هو أنا اللي سرقت في سمك الأسفلت؟ ... ولا صرفت مستخلصات بالباطل!! ولا زودت في عرض الطرق على الورق، ولا انا حاسبت على سعر حفر الطين بسعر الحجر عشان يعبوا من الجنيهات ملايين؟! هو كان فيه أسفلت من أصله. يا شيخ... انظر حواليك، كل من في الزنزانة هم المظلومون... واللي بره هو اللص...

– طب دا اللي بيجري وحاصل، وأيه تعمل يا خوى... تاكل في نفسك... يطق لك عرق تموت.

– هه... ما تخاف... الموت بعده بعيد... اتركني دلوقت... لسه الليل طويل... وأنا تعبان... تعبان قوى يا مبروك.

– طيب نام وريح بدنك.

– إذا جه النوم.

* * * *

... الحزن في القلب دفين، وشعور عميق باليتم... لما وضح أن الأمر انتهى، واستسلم العمال للحال، أيقظوهم للسفر، وصاح

الصول إفراج... الآن تحط ديلك في سنانك وعلى المحطة... القطر واقف هناك مخصوص... من غير فلوس ح يودي كل واحد بلده، واللي ياكل لقمة... يشرب شاي، بس كل واحد يصحى باله، الحراسة هي هي، حس واحد يفكر يمشى. هنا ولا هنا... البنادق فيها نار.

الشحن في اللوريات بعد الفجر... لا تفترق في هذا مرسى مطروح عن بنغازي... طبرق أو المرج... في المحطة اتخلق (لا تعرف إزاي)، فول وجبنه... ليمون... زيتون... عيش قديم. مش... وكركر الشاي وطاف عطره الجميل بالكل... نام اللي نام، واللي ظل صاحي عاش قلق الانتظار يرجى الصباح؟

... لما جاء قالوا امتي ييجي القطر... ولما برز قادما من مخازن السكة الحديد بان كئيباً... اعتراف بالخسارة... وفي العيون طافت دموع تشتكي شهور الكدح... وغربة لم تأت بثمنها... يشكوا لمين... إذا كانت هي دي معاملة المسئولين في الوطن.

الحزن في القلب دفين، وشعور عميق باليتم... هذا القطار اللعين بان جميل، شوق للبيوت الدافئة والعيال وأمهم، المبيت تحت سقف بعد ليالِ الطل...

قبل أن يدخل القطار الرصيف قفزوا جميعا، وعادت العادات القديمة... صياح... ضجيج... وسع... تعال يا واد يا عبد الله... ناداه المبروك... أقعد هنا جنبي...

جلس يفكر وعينه سرحانة لبعيد... وصوت اللواء الغمرى يصيح عليه في الميدان

... قاتل يا جندي ... حقك لا تفرط فيه...

... يا سيادة اللواء... إزاي وأنا وحدي أعزل من السلاح؟

الحزن في القلب دفين، وشعور عميق باليتم... والقطر واقف يتلكع... شيطان رجيم... زي الغواية لما تخلع ثيابها... تتجاذبك العواصف بين الرغبة في الفعل والخوف من المجهول... قوم يا بدين اتحرك... خلصني من عذاب الفكر ولاّ لا... أنتظر... يمكن...

تحرك اللئيم، وفي القلب حزن كئيب... ضاع كل شيء... تمنتاشر قيراط كنت تطلع بيهم على وش الدنيا... تمنتاشر قيراط تلاشت كما الخضرة تحت أسراب الجراد... لكنه الملعون بعد كيلومتر من السير، وقف عند التحويلة! ... اللعنة... قفز كالملدوغ...

- هات الدنانير اللي معاك.

- ليه؟

- من غير ليه... هات... تروح على البلد... تقابل مراتي بلغها ما تقلقش... أنا راجع... بعد اسبوعين بالكثير ثلاثة... أوراق الدار والأرض والبهايم عند عمي الحاج رزق... وإذا حصل شيء وحد من ولاد الكلب ضايقها... تروح للأستاذة وفاء المحامية ولا تهتم، هي تعرف تتصرف إزاي... واوعى تنسى تسمى الواد على اسم سيدنا على، إمام الغلابة والمقهورين.

... ثلاثة عشر دينارا خطفهم... جرى ناحية الباب، والعجل على القضبان بيصفر... قفز للأرض راجعا ناحية المحطة، والمبروك يجرى وراه:

- ارجع يا عبد الله... رايح فين؟

- مش راجع إلا ومعايا حقي...

سار على الفلنكات يجد السير... جرى المبروك وسط عربات القطار:

- يا رجاله عبد الله راجع وحده يا ولداه... ح يعدى الحدود، ويسير لمساعد وطبرق، ويرجع تاني للطريق، والليل العويل... درنة وبنغازي... حد معاه دنانير؟

... طقطقت القلوب في الصدور... واللي معاه شيء صاح... خذ... الليل طويل والبرد والمشي فوق الصخور أميال ورا أميال... ورم القدم حتى أن تصير مثل خف الجمال... والهرب من سيارات الشرطة لسائقي البك آب حد بنغازي... عند أول نقطة مرور يقول لك... باهى... نقطة مرور هسه أدور بعد غادي. لحظة نزول الرجال يلهف الأجرة، ويهرب، يتركهم للطريق والليل العويل، المبروك جمع سبعة وستين دينارا... جرى وسط العربات والكل... يصرخ... ينادي: عبد الله... واد يا عبد الله انتظر...

وقف هناك بعيدا واستدار... في آخر القطر رمى المبروك حقيبة كبيرة، خبز وأكل وزوادة سفر، وفي علبة سجائر قديمة وضع النقود وهو يلوح له:

- مع السلامة، الفلوس في علبة السجائر... طب لو بنت؟

سار عبد الله ببطء حتى الحقيبة... فتشها، لمح النقود، نظر لصاحبه بعرفان، وظل يلوح له... غاب المبروك بسرعة... تضاءل ليصبح نقطة صغيرة في مؤخرة القطار... ظل واقفا يتابعه والقطار يعب الخطوط الحديدية عبا، انحنى عند خط الأفق حتى غاب هناك... وهلة استدار للخلف، وبدأ المسير باتجاه الغرب تاركا قدميه تتألف مع فلنكات السكة الحديد.

* * * *

الفصل السادس والثلاثون

- 1 -

ترك القطار وراءه، وتحرك ببطء عائدا إلى المحطة، نظر باتجاه الغرب بقلق... تسعمائة كيلو متر إلى بنغازي، زفر من صدره زفرة حارة، للمرة الثالثة تحملك قدماك المتعبتان هذه المسافة فكر أن سدود تبعد خلفه خمسمائة كيلو متر، شعر بالوحدة تسري في أوصاله، وعزيمته تخور... راجع برجليك للجحيم! ليه؟ مش عارف... بات النهارده في مرسى مطروح، وادفع جنيه وعشرة صاغ، واركب القطر اللي راجع يا عبد الله، تنام في القاهرة، والصبح توصل سدود أرحم لك... انتبه مشوارك طويل، والناس راجعة لمصر مطرودة، وانت ح تعدى الحدود؟

تناقلت قدماه على رصيف المحطة وأمامه جلس صول في الخمسين من عمره. عيناه الذئبتان تتابعانه بتربص، عصف

الجوع به فعزم أمرا قبل أن يبدأ البحث عن الطعام، توجه إلى الشرطي، أخرج سيجارتين من جيبه وقدم له إحداهما:

– السلام عليكم، ألاقي عود كبريت مع حضرة الصول؟

تناول الرجل السيجارة قبل أن يخرج الكبريت، فركها بين أصابعه، دق بها على ظافره، أخرج ولاعة، أشعل لنفسه ثم أشعل لعبد الله.

– امتى ييجى قطر السلوم؟

– الساعة خامسة.

– وامتى يرحل؟

– طوالى.

– ويوصل السلوم؟

– تلات أربع ساعات، مالوش ميعاد... بنظرة باردة استطرد: ليه؟ مسافر السلوم؟

عشرات الأجوبة عبرت ذهنه قبل أن يومئ للصول بالإيجاب، كان يريد المعونة، ضاقت عينا الصول: ومعاك تصريح حربي؟

قال من فوره: أيوه معاى.

نظر الصُول غير مصدق، أدار رأسه بلا مبالاة: توا الشرطة العسكرية تدور في اللي نازل السلوم... هسه صارت منطقة عسكرية.

أجاب باضطراب ملحوظ: معاي. وحياة النبي ما تعرفش حد يبيع أكل هنا.

أشار بقرف ناحية برَّاكة بنيت من الصاج على طرف خط من البراكات المتناثرة، جد السير إلى هناك، باتجاه بقالة

صغيرة ونصبة لعمل الشاي يديرها أعرابي قصير قوى البنية، في العقد الخامس من العمر، اشترى علبة من علب السلمون المحفوظ وخبزا شاميا، طلب من الرجل قليلا من الملح والزيت وانهمك يأكل كالمفجوع، أحضر له البدوي كوزا به ماء، ووضعه أمامه، سأله وهو يأكل:

- شاي بالله عليك، شاي.

سأله الرجل: ليش ما ركبت القطر؟

صدمه السؤال وامتلأ بالتوجس، أجاب في ريبة: أي قطر؟

- اللي راجع غادي مصر...

تشاغل في الطعام وعقله يعمل بسرعة.

- عندي مصلحة أقضيها وأسافر في اللي نازل بالليل.

عندما شعر بالشبع جمع حاجاته وقام عائدا، في منتصف المسافة استدار خلفه، كان الراجل يغلق البرَّاكة ويرحل مبتعدا، أسرع الخطى... ربما شك فيه؛ سلكاوى راجع من ليبيا، غير عملته وجيوبه مليانة فلوس، عندما بلغ المحطة بحث عن الصول لم يجده، شعر بالحيرة لا يدرى ما يفعله، فكر هل يأخذ الطريق إلى السلوم، إنه الآن مليء بنقاط التفتيش، لو كنت في ليبيا لاختفيت تحت جسر الطريق، أما هنا فالطريق يمتد على سطح الصحراء عاريا ليس به ما يخفي أحد، أما أن أرحل سيرا على الأقدام فوق السكة الحديد... فكر أن هذا أسلم حل، ستكون خالية من نقاط التفتيش، لن يضطر لسلوك طريق جانبي يخسر فيه جهدا ووقتا طويلا، تمدد يحاول النوم، وقبل أن يغفو ثقل عليه أن يسير، عزم على أن يغامر بركوب قطار الخامسة، عندما استيقظ كان يقف فوق رأسه محدقا به، وعندما استقام جسمه لاحظ وجود

ثلاثة رجال من أولاد على يقفون بعيدا على طرف المحطة... حيا الصول الذي حياه هذه المرة بتحية بشوشة أسقطت منه كل حذر، وعندما قدم له الصول سيجارة، عزم عبد الله أن يحكى له مشكلته عله يجد لديه حلا، كان يدور ينتظر الفرصة وعندما عاجله بالسؤال:

- وعايز تروح السلوم ليه، عندك عمل هناك ولا انت دفعة؟

حكى عبد الله قصته والصول يهز رأسه مظهرا تعاطفه، غير مصدق في قرارة نفسه، وعندما انتهى: سأله في بلاهة: دلوقت انت راجع ليبيا معاك جواز سفر؟

هزّ عبد الله نافيا: إزاي بقي يا حضرة الصول، إزاي أنا بحكي إيه من الصبح، لو كان معايا جواز سفر كانت فلوسي تحولت عن طريق البنك... ورجعت راكب بيجو، أشار له بيده: مش عارف أعمل إيه؟

ظلت نظرة الصول له باردة لا تقدم له المساعدة فاستطرد عبد الله:

- تعرف حد من اللي بيعدوا الحدود؟

صمت الصول، أخرج عبد الله ورقة من فئة الخمسة جنيهات ووضعها في جيبه العلوي، قال وكأنه لم يشعر بشيء: ما انت كنت عندهم.

نظر عبد الله ناحية البرّاكة، فوجدها مفتوحة: هناك، بياخد كام؟

- ما انت عارف.

قام من فوره إلى البرَّاكة، وهناك طلب الأعرابي خمسين جنيها: توا الجيش متجه إلى هناك وما نخاطر بأقل من هذا المبلغ، الجيش المصري من ناحية، والليبي من ناحية تانية.

استعطفه بتأثر: يعلم الله... ما معاى الا عشرين جنيها، والله يا حاج نرجى فيك وفي عطفك، أنا راجع في طلب، والله نرجى فيك يا شيخ كرامة للنبي محمد، خدمة لإنسان غلبان، عهد الله وأنا راجع نعطيك خمسين كمان، توا ما معي غير عشرين.

- يا أخي العشرين ناخدهم على الراس، نرحل قافلة من مائة رأس بألفي جنيه في الليلة، توا تريد نعديك وحدك بعشرين جنيهاً، وتحت الرصاص، ما يسوى، أنا ليه باخدك، توا نعدى في خمرة وحشيش، وانت تعدى معاهم.

انفرجت أساريره، لكنه عزم ألا يدفع سوى عشرين جنيها، كان قد تعلم ألا يظهر من النقود أكثر مما هو مطلوب، أما بقية نقوده أخفاها في جيب سحري بملابسه الداخلية، وإلا فسوف يسلبه أولاد على. وافق الرجل وأغلق البرَّاكة: باهى تعال وراي.

- 2 -

سار الرجل أمامه يمد الخُطى، وعبد الله يجرى خلفه لا يستطيع اللحاق به، يمما جهة الجنوب، عبرا الطريق الأسفلتية تاركين المحطة خلفهما، سار الرجل داخل الصحراء شطر أبنية بعيدة، ما لبث أن أخذت تتضح معالم قرية

صغيرة، تتوسطها أبنية عارية متباعدة المسافات من طابق واحد، لونها لون الرمال، يشقها طريق في المنتصف، وحولها تناثرت الخيام وبراكات التنك، وقليل من الماعز، عندما بلغها كان الرجل يسبقه بمائة متر.

جرى خلفه صوب الطريق الذي يتوسط المباني، كان المكان خاليا من البشر تقريبا، وفي طريق جانبية حاد الرجل يسارا، كان عبد الله وحده، الآن عاوده التوجس والريبة، سمع دقات قلبه بوضوح، عبرت الطريق عنزة وخلفها صبي صغير، وعندما استدار خلف الرجل كان أمامه ثلاثة من الأعراب الملثمين، حاول الهرب لكن أحدهم عاجلة بضربة عصا على أم ظهره، اندفع إلى الأمام ساقطا على ركبته تعثرت يداه بحجر، وقبل أن يهاجمه الرجل أطاح رأسه بالحجر، فسقط أمامه مضرجا بالدماء، قفز جانبا كان ينجو من الموت، العصا التي صوبت نحوه على بعد شعرة من أم رأسه، تهشمت بالحائط الحجري، ويداه تبحثان بجنون عن مطواه داخل ملابسه، لكن الرجل الثالث ركله بقدمه في جانبه، فانقلب يتأوه من الألم، وعندما قام كانت المطواة في يده اليمنى، تراجع ناحية الجدار ثانية يحمي ظهره، ثمة ثلاثة أطفال ينظرون نحوه بلا مبالاة، ونافذة أطل من خلفها وجه حاد القسمات وأغلق دون اهتمام، الكل ينتظر موته وهو محاصر بين الرجلين.

- ما معي شيء أقسم بالله ما معي شيء، أنا رايح ليبيا مش جاي، أنا عندي عويلة عشان خاطر جاه النبي، ح اقلع لكم هدومي لكن وجاه النبي ما تقتلونيش.

استعطفهما بمذلة وانكسار بالغ فيهما، كان يخلع عنهما حذرهما، يزيد طمعهما فيه، تقدما نحوه لقمة سائغة، وبلمح

البصر، كان حد المطواة منغرسا في فخذ أحدهما، خر الرجل ساقطا على الأرض، جذبه بعنف مستديرا نحو الثالث الخالي من السلاح، ورآه يتراجع إلى الخلف ثم يستدير راكضا،

صرخ كل ما في جسده بالهرب، الهرب قبل أن تبدأ المطاردة، سيمزقونك إربا في هذه البقاع السحيقة، جرى، كما لم يجر من قبل، لم يفكر أن ينظر وراءه حتى عندما عبر الطريق الأسفلتية، ظهرت المحطة عن قرب، نظر خلفه لم يجد أحداً... الصول... يجب أن يختفي عن الصول... هذا ما فكر فيه.

كان كل شيء مكشوفا في العراء، والمحطة خالية من الأحياء، تتناثر أبنيتها كشواهد للقبور، رأى أحد قطارات البضائع يقف خارج مبنى المحطة الغربي، أخذ يستطلعه في قلق، كان يخشى أن يراه أحد من أهل المكان سوف يرشدهم إليه، زحف نحو القطار وكأنه يزحف تحت نيران البنادق الرشاشة، قفز في إحدى عرباته المكشوفة، ضمّد جراحه ومسح الدم عن وجهه، وفي رُكنٍ قصيٍ من العربة جلس يترقب، رآهم على مبعدة، خمسة من الرجال يتقدمهم الرجل الذي فرّ أمامه قادمين باتجاه المحطة، بحثوا في المحطة عنه، ثم توجهوا فرادى يفتشون خلف أبنيتها وحول المباني المحيطة وخلف أرصفة القطارات، عندما لم يجدوه توجهوا ناحية قطار البضاعة حيث اختبأ، قفز من العربة وزحف يجري على طول القطار نحو المقدمة وكل ما في داخله يهتف:

... المدرعات يا ابن عبد الجليل... أين المدرعات؟ ليه تتخلى عنك في الأوقات الحرجة... كل شيء كان يسير سيرا حسنا... أحد عشر يوما والقوات تحارب تحت سماء محمية

من سطوة سلاح الطيران الإسرائيلي... دفاعنا الجوي شل فاعليته، طلعه برة معادلة الصراع والحرب... لكنها المدرعات... ماذا تفعل قواعد الصواريخ الثابتة أمام المدرعات المعادية... ماذا نفعل؟

فوهات مدافعنا تتجه إلى السماء، ونحن نُهاجم من الأرض... أجرى إذن... اهرب من هزيمة المدرعات، واختراق القوات...

مُدرعات مجهولة الهوية على المجنبات... ثقب مروحي في الدفرسوار... مدرعات مجهولة الهوية مدعمة بقوات المظليين تقترب... أين المدرعات المصرية... أين الاحتياطي الاستراتيجي... أضواء خافتة في الظلام... أشباح تتسلل نحو قاعدة الصواريخ، هجوم مباغت... انفجارات في قاعدة الصواريخ... شرخ في حائط الدفاع...

مد يد المساعدة للرفاق... مد يد المساعدة عل أحدا ينجو من هذا الدمار وقصف النابالم... لم تعد هناك في الأفق راية... اهرب وسط المئات من جنود المؤخرة الذين حاقت بهم المدرعات واختفاء الرايات والبيارق... اختفي في إحدى العربات المغلقة المحملة بجوالات الدقيق... اقفز وابحث عن مكان يتسع لجسدك، ارفع عدة جوالات واكمن القرفصاء واستعيدها فوقك، امسك بالعصا الحديدية في يد، والمطواة في اليد الأخرى... وترقب قدومهم... و ... هجومهم.

ها هم يقتربون، أنصت واسمع حديثهم، تنفس في عمق، ثم توقف عن التنفس، باب العربة يُفتح، أحدهم يقفز إلى داخلها، ترقبهم وتحفز... ساد الصمت ثانية، تتلاشى أصواتهم وتبعد.

قسوة أبوك... أخوك لما سرق نصيبك من الأرض... لما احتال وأخذ تحويشة العمر... مين يطاردك... ليه همشونا من الحياة... جعلوا منا غنم ترعى في مراعى الجهل والخوف...

مين صيادك... مافيا الأسفلت... المهندس مجاهد حاش من عملية المنوفية عشرة فدادين وبنى عمارة تسعة أدوار في مدينة نصر. واشترى عربة بيجو 504 من راتب لا يزيد على مائة وستين جنيهاً.

أيه تملكه لما يكون صيادك؛ نقاط المرور وحرس الحدود والشرطة المصرية، وأولاد على وتاجر العملة وصديقه الباشا العقيد... آاااااه ... مين يطاردك؟ مين المُطارِد ومين المُطارَد؟ ... مين الصياد ومين الضحية؟

ياه... إيه اللي تملكه يا ابن عبد الجليل لما يكون كل هذا الجمع صيادك... مستحيل... مستحيل هذا الفصام العميق... مغادرتنا للوطن بمثل هذه المهانة، سبة في جبين أصحاب السيادة... دخول وخروج نصف مليون متسلل مصري كل ستة أشهر ليبيا... لم نكن أشباحا، كان يمكن منعنا من الدخول، ليه تنافي الفعل مع ما يشاع من قول... ليه كل هذه الإهانة؟ إيه السبب؟ ... كنت رايح أرض العرب أبيع قوتي على العمل... موضوع بسيط، أخد أجرى وأرجع، من المسئول عما حدث...

ليه اتْسِرق؟ ... ليه يتم نهبي؟ ... مين رمى بي على تاجر العملة؟ ملايين يحصلها من غير أدنى مجهود، إزاي هرب بغنيمته؟ ألم يكن هو الآخر خارجا عن القانون؟ يا ولاد الكلاب... مين المسئول عن إهدار ثروة الملايين من أبناء

الـوطن، وأيـه العلاقـة بـين الحـاج حسـن، سـبحته ولحيتـه الشهباء، وسعادة الباشا العقيد.

آااااه ... آه يا ابن الحمار...

كل من اتّاوى جوه زي شرطة يتهجم عليك، يصرخ: معاك جواز سفر... هه... سلكاوى؟ ... أوراقك وانزل بسرعة... تقول الدنيا ح تطربق عليك... يجمع السائق الإتاوة... الله... حتى العقيد يصرخ فيك ويتهمك بالخيانة... وتاجر العملة اللص مصاص الدماء معزز مكرم في ضيافته... يا ابن الحمار يصعب عليك الفهم... تاجر العملة مش صبى أو ولية تبيع فلايات ونوجة على الرصيف، يهجم عليها المخبرين، تجرى، تهرب يترمى رأسمالها الفقير في التراب، تترمى زي كلب أجرب في بوكس البوليس، وتتهم بتقبيح وجه المدينة القبيح، تاجر العملة محتاج لمنفذ بيع يتميز بالثبات، مؤسسة تتاجر في الملايين، لا يمكن الحياة خارج القانون إلا بدعم كبير من مسئولين في البلاد، ومشاركة مع العقيد، نسبة زي نسبة مافيا الأسفلت... طبعا، دون ذلك وجوده ووجود كل الفاسدين المفسدين لا يستقيم...

اغفي ونام دا الفساد والفصام صار عميق... لا... أوعاك تغفي لحظة بين غمضة الجفن والوهن تضيع... زمن طويل قد مر... ارفع الجوالات وطل من باب عربة البضاعة... تلصص... أين يختفي صيادك؟

... انظر... اهم هناك... قاعدين على رصيف المحطة يمسحون المكان في انتظار حفلة الصيد العظيم...

أذان العصر... ساعة ويطل القطار، قوم انتظر قدومه في تحفز.

عندما ظهر من بعيد، لمحهم وهم يندفعون واقفين. تناثروا حول القطار من الناحيتين في المقدمة والخلف، يحيطون به، وينظرون شذرا، يمسحون محيط المحطة بحثا عنه.

زحف تحت قطر البضاعة، في العربة قبل الأخيرة، نظر ناحية القطار الرابض على الرصيف، كان على بعد مائة متر لن يستطيع عبورها، حتى لو صعد سيصعدون خلفه، يهاجمونه، يقتلونه، يلقون به من القطار، تراجع خوفا من أن ينظره أحدهم، وعاد صاعدا العربة، معاودا الاختباء ربض ينظر إلى القطار في قلق، وعندما بدأ يتحرك نزل ثانية حيث اختفى تحت العجلات.

كان بينه وبين القطار سكتان، هناك كانوا يشيعون القطار بنظراتهم متحفزين كالنمور المتربصة بالفريسة، وعندما بلغه القطار، ظل رابضا في سكون، ينتظر أن يزيد القطار من سرعته حتى يعجزوا عن ملاحقته، الآن بينه وبينهم مائة متر، إما القفز في القطار، وإما الموت...

عندما ظهرت العربة قبل الأخيرة، قام يجرى صوب القطار جرى بعنف، رآه أحدهم فصرخ على البقية... كان القطار يزيد من سرعته...كيف أمسك بذراع آخر أبواب العربة الأخيرة؟ لا يدري... لكنه اندفع بكل ما فيه من عزم، متعلقا بدرجات القطار السفلية واستقام واقفا، كانوا وراءه يجرون، والقطار يبتعد عنهم رويدا رويدا، رآهم يخففون من ركضهم في استسلام، صرخ بعزم ما في صوته:

- ارجع يا ابن الكلب انت وهو...

جاوبه سباب وشتائم ضاعت في الفضاء وقبضاتهم الملوحة نحوه تتضاءل مع أجسادهم الصغيرة الضامرة.

قرفص منكمشا على نفسه في قلق بانتظار قدوم محصل القطار والشرطة العسكرية خوفا من المفاجأة، قام يتسلل عبر العربات، متوجها إلى المقدمة، محاولا أن يعرف موقعهم...

بالعربة الثالثة وجد المحصل، فتراجع عائدا إلى العربة الأخيرة، وفي المحطة التالية توقف القطار، دقائق ثم عاد للسير، كانت الشرطة في العربة التي تسبقه مباشرة تطلب من الجالسين إبراز بطاقات الهوية، تراجع منزعجا يفتح أبواب العربات...لو أني قفزت إلى رصيف المحطة، وانتقلت إلى مقدمة القطار، كنت تواريت عنهم، هل أستطيع أن أصعد ظهر القطار وهو في سرعته هذه؟ كان يحك رأسه متجهما يحدق فيما حوله يبحث عن مخرج كفأر وقع في مصيدة.

عندما فتح باب العربة الأخيرة شاهد الفلنكات تهوى إلى بعيد تاركة القطار، نظر إلى مؤخرة العربة، رأى سلسلة من المقابض الصاعدة إلى ظهر القطار، لم يكن أمامه خيار، فقد دخل العربة ثلاثة جنود من الشرطة العسكرية، استدار صاعدا لأعلى بصعوبة، عندما بلغ سطح القطار لفحه الهواء، هزه بعنف، تماسك ثم قفز لأعلى السطح، عدّل من موقعه زاحفا إلى الأمام، مرتكزا بجسده على فتحات القطار العلوية، وعندما اطمأن إلى وضعه، تمدد تاركا الهواء يعصف به، على يمينه ظهر البحر ممتدا حتى يلتصق بالسماء، على يساره كانت الصحراء شاسعة تلتقي هي الأخرى على مبعدة بالأفق، كان يندفع فوق ظهر القطار الذي ينهب الأرض نهبا متجها إلى

الغرب، والسماء قبة تنحني فوقه، نقطة تافهة ضائعة في الفضاء.

- 3 -

ملقيا بجانب رأسه على سطح القطار، محدقا نحو البحر والسماء والشمس الراحلة إلى الغرب تنعكس أشعتها في عينيه بين فينة وأخرى، تراءت له موجات الألم العميق، والساعات العصيبة التي عاشها على مر حياته، صور متتابعة، صور مشوشة يدفعها عقله الباطن التساؤلات المضنية من اللاشعور إلى اللحظة الراهنة.

انظر لهذا الجدب، هذا العراء، معلقا من ساعديك كوطواط موت، تنطلق في أحشاء قبة السماء على الخط الفاصل بين البحر والصحراء مندفعا كسهم وحيد، لا تدري أكان الألم المنبعث من معصميك أقوى، أم من ساعديك، عضلات كتفيك الممزقة، أم هو الألم المنبعث من عقلك، بقعة من تراب سدود، صحن جبن، نار منقد وإبريق شاي. لماذا الاغتراب؟

ما هو الخير؟ ما هو الشر؟ ... يا ابن عبد الجليل كنت بعد في الثانية عشرة من عمرك، قطعة نقود معدنية فقدت من محفظة أبيك، دفعك المجنون للعراء، قيدك بحبال النخيل، وزوجة أبيك تهمس في أذنه:

- شايفاه بعيني يدعبس في الصديري:
- اسأل البحيري.

... مدرس الرياضة أخذ منك قلمك الحبر الصيني، وهو يبتسم بلطف:

- مش قلمك دا قلمه.

كتمت صرخة مدوية في الصدر، تنظر إلى مدرسك العجوز نظرة ألم، كان واثقاً أنك سرقته، هتف ضارعا:

- القلمان شكل بعض، هو اللي ضيع قلمه.

لم يعاقبك بالضرب، لم يطردك من الفصل، لم يوبخك أمام التلاميذ، لم يكشر حتى في وجهك، لكنه كان يؤمن أنك سرقت قلما لم تسرقه، لم تستطع أن تشرح له ثانية، لأن التلاميذ بالفصل أصدروا حكمهم عليك، ألم، ألم... يخنق روحك، عار عشت أياما طويلة قبل أن يغيب في عالم النسيان.

جأر بالصراخ وهو على سطح القطار، تلفعه تيارات الهواء بعنف والألم يعصر معصميه، الكراهية ابتلعها (هو بعد في الخامسة من عمره) من عبد الرحيم ونعمات وإخوته والصبية ينبذونه، الكراهية وهم يكررون معه لعبتهم القاسية كل يوم، الكراهية، وعبد الرحيم يتفنن في ضربه، المقت لذاته، عندما ضرب أخاه الأصغر محمد، وهو يكرر اللعبة معه، عزله، ونبذه، الكيد له، جمع الصبية للتسلية والسخرية منه، حربا طويلة شنها ضده دونما سبب، عراك وضرب غاشم متواصل، وكأن محمد الصغير يستطيع أن يتحمل منه كل هذا العنف، كل هذا التحدي لكن ما كان يدهشه أنه يستميت في المقاومة.

يوم جاءت جارة تشكو عبثه بأحد مذاود البهائم، لا يفهم كيف عجز عن أن يمسك نفسه، أخذه على غرة ولطمه على وجهه بعنف بالغ، الصفعة المفاجئة التي صفعها له تحولت إلى سكين حادة ظل يؤرق ضميره دون توقف، لحظتها نظر

الصغير له بدهشة، طفرت من عينيه الدموع، لكنه لم يبك أبدا، وهلة ثم عادت لعيني الصغير، نظرات التحدي، اللعنة على كل مداود البهايم، اللعنة على اليد التي صفعتك، لتقطع ولتأكلها الكلاب، اللعنة على من علمك لعبة العبث بآدمية الآخرين... مات محمد في حادث مروع...

جأر بالصراخ وامتلأ قلبه بالبؤس الحزين، نادى أخاه الصغير الذي مات دون أن يعتذر له، دون أن يسأله الصفح، اللعنة على البشر الذي يورثون الأخرين الكراهية.

مثقل الضمير مغترب، لو استطعت أن أعيد الزمن إلى الوراء لقبلت يد الصغير طالبا الصفح، نظرة الألم التي تركها محمد في الذاكرة، ظلت تعذبني طول حياتي، لعنة الله عليك يا عبد الرحيم انت ونعمات وعلى ألعابكما الشيطانية... جأر في الفضاء، أكرهكما معا، وأكره هذا المسخ المدعو عبد الحميد، تآمرتم عليّ، وأنا أقدم لكم كل ما أملك على طبق من فضة لقاء قليل من الحب، كيف لي أن أعرف أن أحدا لا يحب أحدا، وأن كل شخص يريد أن يسلب روح الآخرين، أأكون الزاهد الوحيد، أم الأشد حماقة!!

أناخ بجسده على سقف القطار وقد صارا معا قطعة واحدة، وعيناه لا تطرفان، تنعكس عليهما صور الروابي الواطئة، والجزر الملحية المتناثرة، وشريط الأرض، ونباتات الصحاري، وصفحة البحر اللانهائية، وهي تجرى متتابعة تتباعد خلف القطار لتسكن واحدة خلف أخرى في البعيد اللا متناهي، كل شيء يهبط في اللاشعور.

- 4 -

غابت الشمس وخيم الليل بكآبته على الكون المترامي الأطراف والصحراء خيمة من الظلام، والبحر مرايا مطفأة وزبد من زؤابات الأمواج، وانعكاسات لأشعة النجوم، وهو ممدد فوق سطح القطار، مندفعا مثل سهم يغوص في قلب الظلمة.

ألا إيها الليل هل لك من صباح...

اقشعر جسده والبرد ينخر عظامه، والألم يمسك معصميه ناداه دفء وأمن الجدران الأربعة المسقوفة بالخشب والطين، وجسد امراته الضامر ورقة قلبها، حاول النزول من على سطح القطار، عائدا لداخل العربة، لكن الظلام والخوف من السقوط تحت عجلات القطار، دفعاه للصبر على البرد والرياح وهزات القطار أمواج تغزو جسده بالعذاب... ومن بعيد ظهرت أنوار السلوم، وكان قد ظن أنها لن تظهر بعد أن خدعته مرارا أنوار المدن الصغيرة الزائفة.

تسلل خارجا من المحطة منزويا على نفسه، ضاما معطفه الأسود حول جسده، مخفيا وجهه داخل ياقته العريضة، هبط إلى سفح المدينة مسرعا متحاشيا حرس الحدود والشرطة المصرية وأبناء المدينة، لا يلوى وجهه على أحد، وعندما ترك المدينة خلفه عابرا الطريق الأسفلتية جنوبا إلى الصحراء جلس يأكل والفكر يعصف بذهنه، غامره تردد جارف وهو على وشك المغامرة... سبعمائة كيلو متر لبنى غازي، تمشيهم على رجلك!! لا، امشي حد طبرق مائتي كيلومترا، ولا

تمشى. لحد درنة أربعمائة كيلو متر، أيوه، خمسين كيلو متر في اليوم...

ثمانية أيام مشيا، يا نهار أبوك أسود، هل تتحملني قدماي المنهكتان، ارجع يا ابن عبد الجليل، انت النهارده جوّه مصر، تركب القطار اللي كنت فيه، وبكره الضهر تكون في دارك يا عبد الله، بس العيال بتوع مرسى مطروح ح يستنوك بكره وبعد بكره، مش دا المهم، الفلوس اللي راحت عليك، فلوس تيجيب بقية الفدان وجاموسة.

الواد اللي في بطن مراتك لازم ينزل يلاقي طين يقدر يصرف عليه، يعلمه، مش لازم يتربى في الدروب زي أبوك ما رباك، الذل وهذا الليل، لازم يكون له نهاية.

عند هذا الحد من التفكير انتفض واقفا على قدميه، اندفع سائرا باتجاه الجنوب في التفافة طويلة عبر جبال البطنان، في دورة واسعة حول مدينتي السلوم ومساعد، عائدا من جديد إلى طريقه الطويل، والوحدة، والليل العويل.

* * * *

الفصل السابع والثلاثون

- 1 -

وحيدا في عمق الظلام تجرى متتبعا من عمق الذاكرة رحلتك الأولى، تطوى الرمال، تغوص في طيات كثبانها، تتعثر، تنهض لاهثا، تتسلق الجبال، تتوالى سلاسلها لا تنتهي، تزحف فوق صخورها بصبر جنوني، تنغرز شفراتها في باطن قدميك وتنسحب نزيفا أسود...

وحيدا تغوص في قلب الظلمة، تطوى المسافات والزمن... كل شيء أمسك أنفاسه، توقف بذاته عن الصيرورة... والمكان ينحسر عن العذاب المحض... تتلوى بين شقي آلامك الجسدية وعذابك النفسي... وطاحونة الأفكار تعصر خلايا عقلك، تسحقها كرأس وقعت تحت جنازير الدبابات الثقيلة... لم تعد الأشياء التي تتنافس على تعذيبك تكفي... الآن يفيض العذاب ممتزجا بالقهر من ذاتك ظلاما...

مثقلا بالضآلة، موغلا في الصغر، ورقة خريف تطيح بها العواصف، تتساقط في دوراتها الحلزونية لتنتهي بك إلى مكان مجهول، حشرة تدهسها المدن الغربية ... هذه الصحارى القاحلة... هذه الأراضي الجدباء... هذه المدن تتيه زهوا وخيلاء... سدود وبابك الموصود، بيني وبينك حدود وحرس مشدود، وأسلاك شائكة وطرق معبدة بالشوك... سدود متى أعود... الحياة خارج حدودك عدم، خواء ، تذكرة للجحيم، وأنت واحة من الدمار، جزيرة للشجن، وهن أسيان وسط بحر المحن... سدود وبابك الموصود، بيني وبينك صحارى، وهاد عميقة، جبال تطاول السما ومدن تضوى بأضواء الكراهية... أخاف وكل ذرة في جسدي تنادى ضوء مسرجة يطل من كوة في دورك الدافئة، حصيرة ممزقة، فرشة على جسر ترعة، قطعة من سندسك الأخضر، منقد مولع بالحطب تحت القمر، وصحبة من البشر.

أجرى ثم أجرى، أسقط منهكا، ألتقط أنفاسي وأقوم لأجرى، تتشابه المسافات لكنى أظل أجرى... أسبح في بحر الذباب البشرى، تعبث بي كتل الديدان... هذه العصابات الدودية من أباح لها نهب دمى... سدود يا واحة من الدمار المرير أسير في الهجير... أين المصير؟ ... هذه المسافات التي أطويها تحملني بعيدا عنك، ضاع الطريق.

قعقعة السلاح، نداء جهوري... منو هناك... التجمد في المكان... القعود على الأرض... تتجمد مختفيا من أضواء كشافات حرس نقاط الحدود الليبية... حائرا لا تدري ما تفعل، وصوت كالزئير يدق الأرض يتصاعد يهزها يملئك بالفزع في الظلام... المدرعات الليبية تتحرك على الطريق، لا

تجد بدا من البقاء في مكانك، وكل جزء من جسدك يناديك أن تعود...

الحدود وراءك الآن، أغمض عينيك... تغفو قليلا، وصوت اللواء الغمرى... ينادى عبر اللاسلكي... أين المدرعات؟! أين الحماية الأرضية؟! ...

بعد زواجه بشهرين... في الصباح الباكر جاء استدعاء من القوات المسلحة... نجاة وحدها ودعته بقلق:

- هي الحرب ح تقوم تانى ولا إيه؟

أجاب بابتسامته العريضة، وعيناه تتألقان كعادتهما عندما يبدو عارفا بالأشياء: حرب إيه يا نجاة، جارى فك الاشتباك والمفاوضات على قدم وساق... أمسكت يديه، وعيناها نجمتان تومضان بالقلق، لا ينسى نداوة الكفين، والدفء يجرى إلى القلب شلالات من المحبة، ترعاه حتى يغيب في الطريق، الذي يبدأ من الكنيسة وينتهي بالجسر الحديدي على المصرف الكبير.

يمسك وجهها من نافذة القطار، يتذكر... كل محاولات الزواج التي جرت أثناء وجودك بالخدمة باءت بالفشل، ولكن بعد عودتك الأولى من ليبيا أصبح زواجك مهمة الجميع، أخوتك، أقاربك، أصدقائك، وهي أمامك... ناضجة شهية في التاسعة عشرة من عمرها، يمتد عودها الخمري رشيقا يانعا... لم تعد تلك الطفلة الصغيرة التي صفعها يوما وهى في الثانية عشرة خوفا على سمعتها من معاشرة المهاجرين... لم تعد الصبية التي تجرى مهللة إليه كلما عاد من الجبهة، يتلقاها متجهما، وتتراجع حزينة، تجلس على مصطبة دارهم، تمد رأسها وسط أقرانها تنتظر قدومه، وعيناها الناعستان تحيطان

به، تتبعانه بصبر وأناة، تنقل له بنات أعمامه حزنها لما فعلته معه بنت الحسيني، غضبها لاستيلاء إبراهيم على ما ادخره لديه.

أثناء تسجيل عقد شراء الأرض بعد عودتك الأولى من ليبيا، عزمت على الاقتران بها... عارضوك جميعا... فقيرة... وأهلها من يكونوا؟

عندما علمت بمعارضتهم، وكان تعلم ما يدور في داره حرفا حرفا ومن فم أمه... انطوت جريحة، وأغلقت باب دارهم، وابتعدت عن طريقه، أما هم فقد تقاتلوا عليه بشراسة... عليّة زوجة عبد الرحيم عرضت عليك أختها نبوية... لم يكن ليستسيغ زوجة أخيه، فكيف بأختها ووجهها الشاهق البياض، الباهت الملامح... يكفي من الدست مغرفة... زوجة عبد الحميد قالت: بنت عمى...

أما نعمات فقد عزمت على أن تزوجك لابنة زوجها وعينها على ميراثها من أمها، ضاربة برأيك الشخصي عرض الحائط... لحظة أن شعرت عليّة بأن الأمور لا تجرى كما تشتهى، أشاعت بأنك تقدمت لخطبة أختها بالفعل، لكنهم رفضوا (ولم تكن فعلت)، وأوضحت للجيران:

- كيف تتزوج ابنة شيخ فاضل من حشاش، وفاسد فاسق، يضيع فلوسه على سهرات الحشيش والخمرة.

أما نعمات فجاءت بك وسط مجلس العائلة، وملأت الدار صياحا... كيف تتقدم لابنة زوجها، ثم تنكث بوعودك بعد أن حصلت لك على موافقة أهلها، لقد فضحتها في الدرب، أين تذهب بوجهها الذي أكله الناس، وأقسمت أنه لن يؤذن أذان هذا العشاء حتى يذهب معها عبد الرحيم والحاج رزق إلى

منزل العروس حيث ينتظرونهم لقراءة الفاتحة، مهددة إذا ما حنث بوعوده فسوف تلقى بنفسها في النعناعية.

كان مذهولا حانقا يملأه الغضب، كيف تستبيح لنفسها الكذب ثم تصدق كذبتها، كل الذي يأكل رأسها الفاسد ضم أرض ابنة زوجها، حتى ولو كان المقابل جنازته، تراجع عبد الرحيم عن الذهاب معهم بعد أن أصلته زوجته علية بنظرات محذرة تطق شرارا، قال دون اهتمام:

– كفاية أبوك الحاج، معاك كبير العيلة، عازاني ليه؟

دمدمت نعمات وهي تكظم غيظها: طبعا ما هي الجوازة مش على مزاج الست؛ تقصد عليّة. قام عبد الرحيم إليها ممسكاً ببلغته، ينوى ضربها لولا وجود الحاج رزق واختفاء عبد الله من المكان، الذي خرج يتنفس الهواء... ذهب يشاور الأصدقاء.

– انت ابن كلب، راجع من ليبيا عايق، مش عارف مصلحتك، ابعد عن أهلك المصاريع ولاد الحمير، وخد الحمامة الوديعة اللي ح تطير منك يا حمار، ح يخطفها الغراب ويطير، ما يبقي لك إلا الندم، نبوية أخت مرات أخوك عبد الرحيم، بهيمة، لوح تشيله من هنا وتحطه هناك... غير تُقل الدم، وعشق النكد دي غية، مزاج في عيلة الشيخ عبد السلام، ومش ح يهدَى لها بال إلا لما تركب فوق دماغك ودماغ أمك وأبوك واللي خلفوك، وتدلدل رجليها... دا صنف عمولة...

– قوم شوف حد كبير خده معاك وخلص نفسك، انت قدامك شهرين ومسافر تانى، أخواتك مش عايزين مصلحتك.

– طب اعمل إيه؟ رافضين، مش عاجبهم النسب.

خفض كمال رأسه مفكرا: من الناحية دي ما تشيلش هم، لو نطق واحد بكلمة ح ينضرب على صدغه بالبلغة، يوم الخميس تاخد أبوك الحاج رزق تقرا الفاتحة، أسبوعين تنهى كل شيء وتدخل على عروستك.

طوال الشهر كانت تعبر الطريق أمامه حمامة من الجمال، تبتسم كشمس الربيع، لم يحضر أحد من إخوته الفاتحة، قاطعوا شراء الأثاث، وأثناء كتب الكتاب والدخلة، وقفوا غرباء.

في ليلة زفافكما خجلت منك، اختفت تحت شرشف الفراش، وعندما أتيتها دفنت عريها في عريك، طوال الليل كنت تطوى بين ضلوعك أزهارا وندى، واللذة تفيض عذوبة، من أين تتفجر ينابيعها، الخمرة التي ترشفها من عينيها الهادئتين، جسدها النهري الممشوق، تسبح على صفحته طائرا، وتحط فيه على شواطئ من الجنة.

- ٢ -

الآن تجد المدرعات، كانت تثير الغبار طوال طريقك إلى الكتيبة، تطوى الأرض بجنازيرها الثقيلة، وأمام أحد الكثبان الرملية هاجمك الصوت الذي تذكره جيدا، الطيران المنخفض، ثلاث طائرات سوخوى، رفع رأسه يتابع اختراقها لحاجز الصوت، وبجواره مباشرة، كادت إحدى دبابات (T-63) الثقيلة، توشك أن تحتك به، قفز جانبا ليسقط على الأرض، وعندما قام كان قائد المدرعة يصرخ به ساخطا: إيه انت ماشي في صحرا يا دفعة؟

- أُمَّال ماشي في شارع رمسيس؟

ضحك طاقم المدرعة وقد أمطره وقوفها المفاجئ بوابل من الرمال، أثار منظره الإشفاق، قال جندي: خد بالك.

- وانت طلعت منين؟ ظهرت مجنزرة القيادة... أشار قائدها وعلى وجهه ملامح الاهتمام لقائد المدرعة بالتحرك، نادى عبد الله: أنتم بتعملوا إيه؟

- مناورات!

قال آخر: مناورات للاستيلاء على المحاجر.

لم يسمعه، صاح: إيه؟

ردد الجندي: المحاجر، وأشار ناحية الشرق.

الآن يعلم أين تذهب المدرعات... تابع سيره وعلى جانبي الطريق شاهد جماعات من الأعراب، يجلسون في حلقات متناثرة، وعلى وجوههم معالم الوجوم والبغض، ألقى عليهم السلام فلم يجبه أحد، سار لا يبالي، وقبل أن يصل موقع لواء الصواريخ ارتج المكان بقصف جوى على مبعدة كيلو مترين، ارتفع وجيب قلبه، والشك يراوده... أهي الحرب؟

استجمع نفسه، وشدد خطاه دلف إلى مكتب اللواء مسرعا، وهناك تجمد مشدودا في وقفة عسكرية، كان قائد اللواء الغمرى يصرخ على التليفون:

- أنا مش فاهم أنا باعمل إيه هنا! قائد اللواء المدرع بيستولى على المحاجر، وقائد القاعدة الجوية طايح فينا، يستولى على الأراضي، يستصلحها لحسابه والاثنين عاملين مناورات لإرهاب العربان، ومخلينا رافعين درجة الاستعداد.

– سيادة اللواء قائد القاعدة الجوية فاكرنا أسلحة ملحقة، أسلحة في خدمة سيادته، أنا السلاح الذي حمى الجبهة من 6 أكتوبر لحد ما انهار سلاح المدرعات، واختفى، زيه زي السلاح الجوي لما اختفي من سماء المعركة، أيام ما كان عدد الطلعات الجوية للعدو في اليوم الواحد 600 طلعة مؤزرا بقصف ميداني من العدو... ساعتها كانوا فين؟ الآن ظهروا وعايزين دعم مني.

– عشان إيه؟ ألف متر مربع محاجر، رمل وزلط لحسابه الخاص، لم تكفه المحاجر التي ضمها وشغلها على طريق السويس، والكارثة كل واحد مشغل معدات الجيش لحسابه، الجنود العادة والحرفيون والمؤهلات، سرايا المهندسين الملحقة سخرة، معدات بملايين الجنيهات.

– ملك مين، الأعراب، أعراب مين، دي ملك البلد؟

– الدفاع الجوي هو اللي حمى الجبهة أثناء العبور، هو اللي مكن فرق المشاة من العبور، والاستيلاء على خط بارليف، بدونه ما كان هناك لا حرب ولا غيره، طيران مين، قادة بيتصرفوا وكأنهم أباطرة.

– أيوه حدث تصادم بين مجموعة من ضباطنا وضباط الطيران، عاملونا بطريقة مش محترمة.

– أنا عارف... لا... أنا ما قلتش عندي صواريخ بالستية أو عابرة للقارات، الجهد الرئيسي والاحتياطي، الجنود العادة والمؤهلات، معدات الكتائب المعاونة، كتائب المهندسين شغالين في تسوية الأراضي، وبناء أسوار، ومد قنوات للري، وحفر جور لزراعة الشتلات.

- ويحتاج مناورات بالدبابات، وطلعات طيران، ورفع حالة الاستعداد عندنا، ليه؟ أُمَّال لو إسرائيل حاربتنا ح نعمل إيه؟

- أقول الكلام دا لأن أنا مش طرطور، مش كداب زفة.

كان اللواء الغمرى منفعلا يكاد يطفر الدم من وجهه.

- أخد، أخد إيه، خمسة آلاف فدان، ابيعهم بالقطعة.

- معروض مائة فدان للكبار، المهبط الرئيسي.

- اسمها المنزلة.

- العربان اخدوا مبلغ صغير ترضية، المشكلة مع عربان المحاجر.

- أنا... لا... شكرا، منظري إيه أمام جنودي وضباطي، لما أسخرهم، وأسخر معدات فرقتي لحسابي الشخصي، واغتصب أراضي الدولة، دا مفرغ رائد شغلته ناظر عزبة.

- الحرب انتهت! مين قال إن الحرب انتهت... كان وجه اللواء الغمرى يسود وهو يرد على محدثه... فصل القوات، طبعا، طبعا مع سيادتك حق، كل واحد لازم يدور على مصلحته، تقصد ينهب اللي يقدر عليه، البلد بقت عزبة.

- معاك حق، طول عمرها عزبة.

- طيب، طيب بكره ح أقدم استقالتي.

رفع العقيد عادل صبري رأسه، التي كانت مدفونة في غابة المستندات، مندهشا لسماعه كلمة اللواء الأخيرة، نظر إليه مستفهما... عاجله اللواء الغمرى بالسؤال: هه وانت ناوى تعمل إيه؟

ضحك العقيد عادل صبري، تراجع إلى الخلف مفكرا... قال وهو يبتسم:

- أجهز للهجوم على القطاع العام... ربما المحليات.

وقف عبد الله مبهوتا، أفاق على الصوت الكثيف المكسور للواء الغمرى يحدثه:

- انت بتعمل إيه هنا يا عبد الله، هم استدعوك؟

شد من قامته مؤديا التحية العسكرية، رافعا صدره للأمام كما فعل أمامه وهو يقلده وسام البطولة، وكان لسان حاله يقول، انت قائدي الوحيد حتى ولو استقلت.

- تمام يا افندم. لسه واصل.

ضحك اللواء ضحكة هادئة واستلقى على مقعده.

- أخيرا وجدنا المدرعات.

سرح ببصره بعيدا وقد نسيه، ناداه العقيد عادل صبري بصوت خافت:

- سلم نفسك للمساعد أول الضبع.

صفق بقدميه الأرض مؤديا التحية العسكرية، عندما خرج كان شيء غامض يعتصر قلبه، وحش أسطوري يكمن في مكان ما ربما خلفه، ربما يملأ الفضاء، يمتص عظامه يلتهمه، ويتفله بسخرية.

كان قد بلغ حدود الأراضي التي ينوى قائد القاعدة الجوية الاستيلاء عليها، ألف وخمسمائة فدان هي الامتداد الطبيعي للأراضي التي اغتصبها واستصلحها من قبل، وأمامه وقف عشرات الجنود يمدون على مرمى البصر الأسلاك الشائكة، ومجموعتان للمساحة تقومان على مد الشواخص المساحية،

يحددون مواقع الأسوار وخلفهم عشرات الجنود يقومون على حفر الجور التي سيتم زراعة شتلاتها.

وقف مبهوتا: سخرة يا ابن عبد الجليل... دا عصر السخرة يا وَلَه.

كان يشهد حدثا جللا: ألف وخمسمائة فدان، لم يدفع فيها مليما، لا في شرائها ولا في استصلاحها، ومحاجر تدر ذهبا، شعر بانقباضه قوية في قلبه، وقد أمسك الخوف بتلابيبه، وداخله يتصاغر، يتضاءل، ورأسه تقيد بقيود حديدية ضاغطة، خمسة آلاف فدان تحت سمع وبصر الجميع، وقائد لواء مدرع يستولى على المحاجر، ثراء بلا حدود، وفقر بلا حدود، سلطة، ونفوذ، واستبداد ساحق، ضآلة وضياع... تابع سيره متمهلا، وعلى مبعدة ثلاثمائة متر رأى كل منهما الآخر، كان المهندس منير يشير إلى سائق "جريدر" برتبة رقيب لتسوية الأراضي وتمهيدها للزراعة، كان مكتئباً حزيناً، تصافحا، سأله منير: امتى حضرت؟

- اليوم.
- أنا هنا من أسبوعين.

بجوار خيمة منصوبة جلسا القرفصاء يتناولان الشاي.

- كيف حالك؟

نظر أمامه غاضبا قال: لا أرى سوى كارثة، في الغرب يتشكل نوع جديد من البشر، نوع ينطوي على تطور نوعى

للكائن الحى، إنسان يسيطر على قوى علمية ومادية مرعبة تمكنه من السيطرة بتسارع على كل من الطبيعة والمجتمعات المتخلفة، سوف يشهد القرن القادم أول تطور نوعى في الجنس البشرى، البشر المتفوق والبشر القردة، الإنسان السوبر والإنسان العادي، لن يُقبلوا بوجودنا الطفيلي على سطح الأرض، لم تعد هناك أية منفعة من وجودنا، الإنسان السوبر قادم، ونحن لا نزال ننظر للوراء، منظومة أفكارنا مكبلة بقيود غير مرئية من الماضي، تكبح فينا إمكانية التقدم، نعجز فنخفي رؤوسنا في الرمال، ونبرر تخلفنا بشتى الحجج، سَنُزْال من على وجه الأرض بملقاط، كما تزال الأمراض والحشرات الضارة، سَنُزْال ونحن على هذه الشاكلة من التخلف والفصام الجمعي، سيُحتفظ بعينات منا في حدائق التاريخ بجوار القردة وحيوانات ما قبل التاريخ، سيلقى بنا وبتاريخنا إلى المزبلة.

سعادة اللواء "كَهَنْ" "بلدوزر" من آليات الجيش ثمنه ربع مليون جنيه، في استصلاح أراضي خاصة، وسخر عشرات الجنود والضباط للغرض نفسه، أرض ومعدات ملكنا، وملك الوطن، هذه النخبة التي تقود الوطن لا يمكن الركون إليها، إنها تتشكل من اللصوص الذين ترعرعوا بين أحضان القطاع العام، والمافيا التي شكلها الرئيس المؤمن، وطبقة الباشوات القديمة، السمة المشتركة بينهم جميعا هي كونهم لصوصا، كيف يتسنى أن يسلم لهؤلاء مقادير الوطن، وهم لا يعرفون سوى النهب والفساد، لا يجيدون سوى الطرائق المؤكدة لإنتاج التخلف.

انهياراً مريعاً يحمله القرن القادم لنا، هذه عصابات وهؤلاء هم قادتها، قادة هُزموا نفسيا قبل أن يخوضوا الحرب، قادة

تخلوا عـن مهمـتهم الأساسـية وهي حماية الـوطن، وتفرغـوا للنهب المنظم، طغمة ليس في خطتها مكان للفقراء، مات عبد الناصر، مات أبو الفقراء، مات بعد أن دمر العقل المصري، وتشرذم اليسار وتلاشى بعد أن خاض حربا ضروسا مع نفسه، والآن لم يعد للمحرومين راية، أخبرني يا بن عبد الجليل...

عندما لا تكون في الأفق راية؟

أين تذهب الخيول؟

* * * *

الفصل الثامن والثلاثون

- 1 -

وحيـدا في عمـق الظـلام تجـرى عائـدا إلى الجحـيم، وقـد تحول الزمن إلى عذاب محض، تطوى بقدميك جانب الطريق الأسـفلتي المتجـه إلى بنغـازي للمـرة الثالثـة، فزعـا مـن أضـواء السـيارات كحيوانـات الجبـال الضـئيلة، تلهـث وأنـت تلـقى بنفسك جانبا كالملدوغ، تتنفس العداء في كل شيء يحيط بك، هذه الرمال التي لا تنتهى، هذه الأراضي اليابسة، هذه الصخور الحادة، هذه المدن؛ مساعد، مدينة الحدود الصغيرة، طبرق عشيقة البحر، يهجرها أصحابها تحسبا للقصف القادم، هذه الطوابير العسكرية التي تتحرك باتجاه خط النار تثير في قلبك الفزع، لماذا تدمر أجهزة الرادار، استعراضا للقوة، أم أضحية تقدم لآلهة جديدة...

مثقلا بالضآلة موغلا في الصغر تجرى، تطوى جوانب الطريق الأسفلتي تقاتلك أشباح الذاكرة، وجه تاجر العملة الحاج حسن، عقيد الشرطة، وجوه فصائل الأمن المركزي على السور الدائري لكوبري مشاة التحرير، ذئاب دموية ضارية، تطاردك، تلحق بك، تحاصرك تحيط بك، تشرع في نهشك، اطلع على اللورى يا ابن الكلب، انت رايح فين؟ تيحيب حقك، عدى روح بلدك.

وجه ابن عمك رضوان الساخر بالمودة، وجه حسن خليل اللا مبالي، يسبح في ضباب الحشيش، حسن مرعى وأعضاؤه المتناثرة على طول فلنكات السكة الحديد، جمعتها قطعة قطعة كي يصلوا عليها في النعش المخضب بالدماء.

كمال عبد الجيل يحاصرك، يلاحقك صوته مثل كرباج قديم: لا يا ابن عبد الجليل... لم يعد في هذا الزمان للفلاحين مكان، قطعوا خطوط السكة الحديد والطرق دفاعا عن سعد باشا زغلول، طب ماذا أعطاهم الباشوات، وزعوا عليهم الأرض؟ مستحيل.

- والدفاع عن الوطن ضد الاحتلال الإنجليزي.
- معاك حق... طيب بعد كل ده، الوطن يكون ملك مين؟
- طب وانا! حاربت الموت والاحتلال على جبهة القنال.
- فهمت سر غبنك، اشرب ثمن جهلك...

... أيام طويلة في العراء أتمنى لو اغتسل... آه... لو أستطيع الاغتسال من الرمال، وقبح الرجال، والجرب النفسي، والزمن المهدور، والبنور، حقل النور المسحور، البحر ع الشمال، يغسل أرض الخليقة منذ ملايين السنين، اجرى يا ابن عبد

الجليل، ثمة شبح يفارقك يخرج من جسدك ضخما طويلا يبلغ حافة السما، يغادرك باتجاه البحر يسير وئيدا ثم لا يلبث أن يهبط، تأخذه الأمواج ويرحل، تذكر النعناعية وأجساد الرجال تستحم في مياه النيل قبل الوضوء، وأثناء صيد السمك، الجسد العاري القوى، عضلات الظهر، الإليتين المدمجتين الخاليتين من الشحوم، كيف بها بإليتي التجار الثقيلة الناعمة، الصدر المصبوب من الرخام الصخري والذكورة القوية تخب أسفل المياه، من يخصب هذه الأراضي البكر؟؟ من يخصب وأدى النيل كل عام، أوزوريس إيها الحامل للمياه والفأس، اخرج من جسدي، من وسخي، اغتسل وانتقم.

وحيدا في عمق الظلام تجرى، تطوى المساحات، والمسافات، والزمن، أشباح تطاردك، وجه زوجتك الصغيرة، قائد القاعدة الجوية، لواء المدرعات، الأول قصير القامة، ذو السحنة التركية، والثاني ضخم عربيد، اللواء الغمرى يترك مقر قيادته، مخنوق الوجه، وقد داهمته الشيخوخة، لمح القائد الجديد ونائبه يضحكان في تواطؤ.

وحيدا على رمال الألم تطوى الطريق إلى بنغازي طيا، مضموما محصورا بين شقي رحى، جسدك الذي يفيض بالألم، وعقلك المطحون يفرز مخاطا أسود من الأفكار المتلاحقة، كمال يحدثك:

– عرب النفط يكرهوننا، لا يرونا إلا جنودا تموت في المقدمة، وهم يلقون خطب التعضيد من على مراحيض الدهب، بينما خناجرهم تمتد إليك من الخلف في الخاصرة، امرح وافرح لأن عرب النفط هم الامتداد الطبيعي للإسلام

المعاوى، الذي جعل من مصر. شرايين تصب دمها في سلة الخلافة السياسية ألف وأربعمائة عام. افرح وامرح إذن لأن جسدي وجسدك سيكونان مرعى للقصف النووي الذي سيحل بالقاهرة، سيتصالح العالم على حساب عقولنا المخربة... شيء ما يعشعش في عقولنا، كائن ضبابي يحجز الرؤية والبصر، ربما يحتاج مبضع جراح، أو ينتظر حتى يطيح به انفجار فطر عش الغراب.

وحيدا في عمق الظلام تجرى عائدا إلى الجحيم، تتنفس العداء في كل شيء، وقد تحول الزمن إلى عذاب محض، تطوى بقدميك الأسفلت المتجه إلى بنغازي للمرة الثالثة، فزعا كطيور مهاجرة تطاردها قوافل الصيادين.

مثقلا بالضآلة موغلا في الصغر تجرى، تقاتلك أشباح الذاكرة، على حافة الأفق امتد طابور طويل من المدرعات ونجمتها السداسية، القبعات وهراواتها، المافيا وأصحاب الأقنعة، تقطع عليك الطريق تحاول إحكام الحصار فهل لهذا الليل نهار...

... التفت يا ابن عبد الجليل... ناور... ابحث عن منفذ للعبور للزمن القادم...

- 2 -

في مساء اليوم الرابع لتسلله عبر درنة منهوك القوى، ألقى بجسده في وهدة صغيرة يلتقط أنفاسه، غاب في نوم عميق، أشرقت شمس الصباح وعبرت الضحى إلى الظهيرة وهو ممدد جثة هامدة، عندما بلغت الربع الثالث من السماء، شعر

برطوبة تبلله، رفع رأسه متعجبا، أعلاه مباشرة اصطدمت عيناه بعيني رجل في منتصف الأربعين، قصير القامة، عريض المنكبين، بقايا شعره مدها من جانب الرأس إلى المنتصف، كان يتبول، تراجع الرجل منزعجا باعتذار:

– آسف، أنا ما شفتكش، بتعمل إيه هنا يا ابني؟

سمع لهجته المصرية بوضوح، قام واقفا، على وجهه سيماء البؤس، نظر الرجل إليه بخوف، كان يرى هيكلا عظمياً يقف أمامه متهالكا.

– أنا رايح بنغازي.

– بنغازي ليه، انت معاك إقامة؟

قال عبد الله وهو ينظر إلى السيارة من طراز 124 وقد امتلأ قلبه الأمل:

– - لا... سلكاوى.

– - الله، طب رايح بنغازي تعمل إيه؟

تحدث عبد الله بصوت ممتلئ بالرجاء والتوسل، فلوسي أعطيتهم لراجل يحولهم مصر في السوق السوداء مقابل 40% لما وصلت مرسى مطروح تاجر العملة أنكر وصول مليم له، أعطاني مائة جنيه، طب أنا لي 960 ديناراً، ألف وثمانمائة جنيه.

هز الرجل رأسه بحزن: يعنى انت عديت الحدود ورجعت تاني؟

– ......

– ورايح بنغازي؟

بكي: أنا مقدرش أحكى إيه حصل... رجلي دي مكسورة، المسمار البلاتين اللي فيها اتخلخل...

– رجلك مكسورة! ... طب انت عايز دكتور...

– لا دي وارمه، أقدر أمشي عليها بس... بس حضرتك رايح فين؟

– بنغازي.

– أبوس رجلك خدني معاك، أبوس رجلك وحياة أولادك، سقط على الأرض منهارا وبكى، كل شيء كان يعوى في داخله.

– قوم يا ابنى قوم، تعال أنا ح اخدك بنغازي.

قفز وراءه قفزا.

– ألف وثمانمائة جنيه، ياه، وطبعا مش منك بس، لا... حرام تروح عليك فلوسك، ولاد الكلاب، طبعا عارفين إن ما حدش ح يرجع بعد الحرب، عصابات محترفة تستحق الاعدام.

– كان واقف عند بيت الراجل أكتر من خمسمائة نفر.

– ياه، شوف البنى آدم، لما انت ومئات الالوف غيرنا، تكد وتعرق وتطفح الدم عشان تعلم ابنك أو تصرف على أهلك، شقة تتجوز فيها، بدل ما الشاب يخلل ويكبر ويشيخ، ييجي كلب لا يساوى تعريفة، يساعده وزير وعميد شرطة وينهبونا، احنا عمرنا يتحرق وهم يعبوا من الفلوس بلا حساب، انت تمشى في عبد الخالق ثروت أو شامبليون تلاقي تجار العملة واقفين على أبواب المحلات والأكشاك، حتى الهيروين يباع علنا قدام مدارس الأطفال، وعلى بعد خطوات واقف رائد شرطة يرتدى نظارة شمس أحدث طراز، والطبنجة في وسطه عشان يرهبك يا غلبان، وانت مش محتاج لحد

يرهبك، لأن الخوف لابس عقلك، هو شايف التاجر وعصابته ولا يقرب منه، طبعا تواطؤ مدفوع الثمن، فالح بس يقف عاوج راسه وفارد رجليه وأيده في وسطه بفَتّونة زي كاوبوى، يصرخ ويشاور بوقاحة، " انت هناك اطلع على الرصيف"...

... الحياة في مصر كابوس، عفن، تعرف، أنا كنت اشتغل في شركة مصر للحلويات 60 ألف عامل، الإدارة شنت علىّ الحرب، لأني شريف، أول مرة خط البسكويت عطل، بسكويت منفوخ وفيه سكر زيادة، عملت خلطة وتركيبة جديدة وسلمتها لهم، أوقفوا الإنتاج، ألغوه وبعد ستة أشهر أعادوا الإنتاج بنفس تركيبتي، ونسبوا الفضل لهم، لما تحصل مشكلة يسألوني حلها، أسهر أسبوع في عنبر الماكينات لا أنام، لحد ما اعرف العيب، ولما احلها يقولوا ما احنا كنا عارفين، تتوقف المصانع خارج القاهرة عن العمل، اروح أحل المشكلة، كانوا يفسدوا العينات، معمل شركة الإسكندرية كان يحط لي دقيق بدل كربونات الصوديوم، اشتغل تبوظ العينة، حضر رئيس الشركة قلت له... مش أنا السبب، تعال شوف المعمل والله العظيم، وضعوا في العينة دقيق بدل كربونات الصوديوم، رحت واقف مشمر وبأيدي عملت أربعين عينة، كلها نجحت... لما أعطيت البسكويت اللجنة، الخبير الإنجليزي قال حاجة ممتازة، طلب مني التركيبة عشان يحسنها، قلت لا، اعمل انت تركيبة وأنا احسن تركيبتي... هه... قولي:

- اسمك إيه؟

لم يجد إجابة إذ أن عبد الله كان يغط في النوم العميق، ضحك الرجل وهمس: لا حول ولا قوة إلا بالله، نمت، كان

زمانك يا مسكين بتشد الخطاوى على الطريق بيادة من درنة إلى بنغـازي، ضـغط فرامـل السـيارة نـزل منهـا، فـتح البـاب المقابـل، جـذب ذراعـا يقـع أسـفل مقعـد عبـد الله، أسـقط المسـند إلى الخلـف فاسـتيقظ مـذعورا، اسـتقبله بابتسـامة هادئة: نام، ريـح نفسك اعدلها ونام.

نظر إليه عبد الله شاكرا، وغط في نوم عميق، على مشارف بنغازي أيقظه... قام عبد الله، كانت أضواء بنغازي على مبعدة هتف: أخيرا وصلنا.

– بس انت كده تهمة، لـو شافك طفل في شارع يعـرف إنك سلكاوى، والحالة جيم يا اخوى، انت رايح فين؟

– الصابرى.

– اسمع... ح انزلك في حي البركة... أكثر من كـده تكـون مخاطرة... فجأة وقف بالسيارة جانبا في منطقة هادئة وقال له بحـزم: انـزل... اخلع الخمسين بالطو والجلابية اللي انت لابسهم، منظرك شُبهة.

نظر إليه عبد الله مستطلعا وهو يفتح باب السيارة الخلفي واستطرد: حطهم في الشنطة دي... اعطاه حقيبة متهالكة... خـد... يلا بسرعة، الجـو حـر وانـت لابـس زي واحـد مـاشي في الجليد.

أفـرغ إحـدى الحقائـب، ثـم وقـف ينظـر إليـه مسـتغرقا في الفكر: يا ابنى اعمل إيه، قميصك المقطع دا يودي في داهية، البنطلون معقول، اخلعه، خد...

أخرج له قميصا متوسطا من قمصانه: البس كده، كويس، اغسل وشك، بس كده، اركب... بعد ثلاثمائة متر توقف أمام إحدى كافتيريات الطريق السريـع:

- يلا ننزل ناكل لقمة ونشرب كبايه شاي.

حاول عبد الله الرفض فقال له معنقا: انزل وانت لحم على عضم، تلاقي فمك ما داق لقمة من ثلاثة أيام.

- أبدا.

علق ساخرا: ليه بتدخل المطاعم؟

- كان معاي خبز.

تنهد الرجل لا عنا الفقر في سره: يلا قوم انزل... بلد بنت الكلب...

نـزل مستسـلما، قبل أن يـدخلا أشـار إلى جانـب الكافتيريـا، وهمس: انظر، دورة المياه هناك... خد المشـط، ادخل اغسل وشك وسرح شعرك، ما تنساش تدخل بيت القدم. هز رأسه موافقا.

دجاجـة كاملة وصحـن أرز، وخضـار، وعشرين دينـارا، أصر أن يأخـذها عبـد الله، وبـرغم أن عبـد الله أراه الـدنانير الـتي جمعها له المبروك وهو يغادر القطار من مرسى مطروح، لكن الرجـل لـم يبـال، كـان يعلـم في قـرارة نفسـه أن عبـد الله لـن يحصل على فلس من نقوده.

- خـد... خـد... احنـا اخـوات ولازم نسـند بعـض وقـت الشدة، دا انت في ظرف، ربنا يكون في عونك.

في شـارع جـانبي لميدان البركـة ودعـه متمنيا لـه التوفيـق. طمأنـه: على فكـرة ما تخـاف، الأوامـر مشـددة بحسـن معاملة المصـريين، رغـم كل شيء دلوقـت بنتعامـل أحسـن معاملـة، حاجات غريبة، مش كده. مع السلامة.

كانت الساعة قد بلغت العاشرة ليلا، جرى كالمجنون باتجاه منزل صديقه السوري أبو نديم، وقد زاد عرج ساقه المصابة تورمها.

- ادخل يا بنى، يا ضنى أمك... الشباب عم يدور عليك قلبوا الدنيا ادخل عبد الله...

رد عليها متعجلا: معلهش يا أمي أبو نديم موجود؟

- لا يا ضنى امك هو بدرنة وبيجى اليوم هو وجواد... ادخل... انت وين كنت؟
- أنا عديت الحدود ورجعت.
- لهوى يا أبني... انت اجننت.
- فلوسي يا أمي ما رضى الراجل يعطيني إياها.
- العمى، ملاعين ها دول اللصوص، كنت أعطيتهم لأبو نديم، وهو بيحسن يتصرف.
- أعمل إيه... أعطيتهم لجبران ومفتاح، طيب يا أمي أنا أرجع بعدين.
- لا... ولو لازم تدخل.
- معلش أنا أروح لمفتاح وجبران عشان أجيب فلوسي وأمشى... كان يتعلل، فلم يكن يعرف الطريق لمنزل أي منهما.

حدثته بعنف: دلوقت!! ... الصباح رباح، ادخل كُل... ادخل كُل يا ضناى.

ابتسم: أكلت بالطريق.

- مع من أكلت. الشرطة في كل مكان.

- واحد مصري، قابلته في الطريق ربنا يكرمه.
- ويكرمك يا ضناي.
- مفيش وقت. أنا أمشي بس أترك شنطتى هنا.
- العمى، بلى يا حبيبي، اتركها، ما تريد تأكل.
- والله العظيم تلاته أكلت.
- بالله عليك ما نغيب عبد الله، تيجى هون يا أبنى.

خرج يتسلل إلى شوارع بنغازي ضائعا دون وجهة، والليل يلقى عليه بأمواجه السوداء لا يدري ما هو فاعل، يتحاشى دوريات الشرطة حتى بلغ أطراف الفويهات، هذه المدن الغريبة، هذه المباني الساكنة تطل من نوافذها أضواء تنبئ عن ناس تعيش في الدفء، وهو يزحف على طرقها الأسفلتية، حشرة ضالة في بحر الظلام.

ملفوظا كان يسير لا يدري من الذي لفظه، كل شيء تعقد من حوله، نقوده التي سرقت، ألمه ورغبته في أرض، قوة خفية تصفعه بكفها الضخمة، تضغط عليه بأقدامها الثقيلة... تسحقه، يصير قطعة صلصال مشوه، لا شكل لا هيئة لا معنى، لا تلبث أن تزيد عنفها حتى يصير شذرات محطمة، نفاية عفنة.

على شاطئ بحيرة بنغازي، اختفي من أضواء الشاطئ وراح في نوم معذب... نوم متقطع متوارياً بين سور قديم متهالك ومبنى مهجور، وقبل ساعة من قدوم الفجر أيقظته برودة الصباح فقام يسير الهويني، متوجها إلى منزل صديقه السوري.

في بئر السلم غفا جالسا، وفي الصباح الباكر كان جواد يوقظه غاضبا، نزل أبو نديم مسرعا وهو يهتف، ليش تسوى هيك، ما تطلع عبد الله، انتظرناك طوال الليل.

- معلـش... أنـا عـايز أروح لمفتـاح أو جـبران معـرفش بيتهم.
- أنا رحت لجبران ما لقيتك، وهو ينتظرك بيتجنن، كيف إن الراجل ما أعطاك الفلوس؟
- لا...
- اطلع كل... هيا...

نصف الساعة تناولوا الإفطار والشاي، ثم اندفع ثلاثتهم إلى جبران، كان ينتظرهم بقلق، ومعه مفتاح ومصطفى اللذان قدما على عجل عندما عرفا بالأمر.

- 3 -

في الطريق تساءل جبران.

- اتصلت بحسن بوبكر؟

هز مفتاح رأسه: توا يحصلنا على حوش التيس حميدة...

طـول الطريـق كـان جمـيعهم يسـب الحـاج حميـدة في سخط... صرت عجلات السيارتين أمام الحوش... منع جبران أبو نديم من الدخول.

- أنتم تخليكم هنا، واحنا نخلص الموضوع.

صاح جواد: ليش ما ندخل سوا.

- لا... أنتم مالكم دخل بالموضوع.

عارضه أبو نديم: ليش ما ندخل سوا بنخلص الرجل ونمشى.

قال جبران بحزم: ما يدخل غير أنا ومفتاح ومصطفى وعبد الله.

نفخ جواد غاضبا: وعليش هيك.

– هذه شئون نخلصها نحن الليبيين، أشار إلى صديقه... هيا نشوف الزب الخنزير... عندما فتح الحاج حميدة، كان يبتسم متعجبا لهذه الزيارة المبكرة، دفعوه دون أن يدري السبب، لوهلة زالت دهشته عندما رأى عبد الله جرى في أنحاء الحوش، جرى ثلاثتهم خلفه كان يقفز بين الأثاث يصيح شنو تبو، هذا السلكاوى أيش يسوى هون والله، ربي الشيطان نبلغ عنه الشرطة، انتم تحموا سلاكة أنا ندخلكم السجن، أنا نكلم عمر بوزوى، يطردكم من العمل، باهى انتم مفصولين.

بحث عن التليفون ومفتاح يصيح به: وين فلوسه يا كلب؟

عقب جبران: أنا عطيتك إياها، تطلع حرامي يا كلب، وين فلوسه، ترى تدير في حيله بيش تاكل عرقه، وين فلوسه أنا اللي قلت له أعطيتها للحاج حميدة، ترى انت حجيت لوين يا لص... لكباريه!

- شنو دخلك في هذا المصري؟

صرخ جبران ودمه يتصاعد إلى رأسه وحميدة أمامه، قصير ربعة بوجه الشيطان، وهو يختنق بالكلمات: شنو دخلي فيه، هذا المصري شنو دخلي فيه؟

كان يريد أن يقول له هذا مو مصري... هذا ليبي، كان يريد أن يقول أنا مو ليبي أنا مصري، كان يريد أن يقول نحنا خوت، هذا هو

صديقي، هذا أخي، لم يجد سوى كلمة أبو نديم، صرخ فيه بأعلى صوته وهو يهوى عليه بقبضة يديه الثقيلتين:

- هذا رفيق القتال.

لم يفهم الحاج حميدة، ولم يقاوم، انثنى مبتعدا، تضربني يا جبران، تضربني شنو تبو، ترى أنتم تريدوا شنو؟

- فلوسه، اعطه فلوسه.

- فلوس من؟

قالها بهدوء... وهو يتجه ناحية عبد الله الذي وقف يتابع ما يجرى، لا يتدخل... وبغتة انقض الحاج حميدة عليه، ضربه بعنف بكلتا قبضتيه وقدميه، كان يفرع حقدا حمله طيلة عامين ويزيد، هذا السلاكة يبى فلوسه، هادى هي فلوسه، خذ.

أخذ عبد الله على حين غرة، سقط منهكا على الأرض يحاول أن يحمى نفسه من المفاجأة... خلص نفسه منه بصعوبة، كانوا قد أمسكوه له، انفجر وانقض عليه كالمجنون، كان يضربه وكأنه ينتقم لذاته من كل ما يسحقها، جسده المنهار، عقله المدمر، كان يضرب كل ما يطاردها بلا رأفة.

في الخارج صرَّت عجلات سيارة أخرى، ثوان كان يقف بالباب ضابط شاب برتبة نقيب. وأمامه كان كل شيء مقلوبا رأسا على عقب، اندفعوا يمدون يد المساعدة لمفتاح وجبران، جذبوا عبد الله بعيدا عن الحاج حميدة الملقى على الأرض، تقدم الضابط الشاب مصوبا سلاحه لرأس الحاج حميدة، تكة السلاح قام بعدها الحاج حميدة، أخرج من خزانته خمسمائة دينار، قائلا:

- ترى الباقي الآخر أخذها الحاج حسن تاجر العملة المصري...

دفعه النقيب فسقط جانبا وهو يحدث عبد الله: أد أيش فلوسك؟

أجاب جبران قبل أن يجيبه عبد الله: تسعمائة وستون ديناراً.

- كم تخسر إذا حولت الدنانير بالمصري؟

أخذوا يحسبون لفترة قبل أن يقول جبران: ألف دينار.

لم يتبادل الحديث مع الحاج حميدة، توجه ناحية الخزانة، فتحها، أشار له، أعطه ألف دينار. صرخ الحاج حميدة: ألف وخمسمائة دينار، هو أعطاني تسعمائة وستين ديناراً... قاطعة جبران: هو يحول الدينار بتنين، هسه ما يحصل في مصر هيك سعر...

- أيش دخلني فيه؟
- سرقته يا عرص وسرقت مئات غيره.
- مو وحدي، غادي بمصر سرقوه.
- باهي هو أعطاني الفلوس هنا، وإذا نعطيها له هنا.

تدخل النقيب وبنبره وعيد واحتقار: ما يؤثر فيك عشرة آلاف، أديش أخذت من باقي السلكاوية؟ ... أعطه خمسمائة دينار زيادة مقابل رجوعه، هيا هيا.

صرخ حميدة: لا... ولا درهم.

- ستمائة دينار وإذا تحدثت سبعمائة وإذا تزيد بأحضر لك الشرطة.

استدار لعبد الله... توا أخذت ألف وخمسمائة دينار، كم يساوى بالمصري.

- حوالي *1800* جنيه مصري.
- باهى، هذا حقك أخذته ونحن آسفين يا أخي.

قال جبران: بترحل امتى؟

هتف عبد الله: اليوم، أنا أمشي.

- يـا أخي نقعـد سـاعتين زمـن، وبناخـدك بنفسيـ حـد مساعد، باهى.

عقب النقيب: بتعدي علىّ، بنزل معكم مساعد وأرجع.

- 4 -

في سـيارة بيـان فيـو مـن طـراز *524* يقودهـا مفتـاح، عبـوا الطريق عبا باتجاه مساعد وحتى درنة كانوا جميعا يتحدثون في ألفة وحبور وسـعادة، الكل راض، وقلـب عبـد الله يسـبقه إلى الـوطن، لـم يتحـدث أحـدهم عـن القصـف المصـري لمـدينتي مساعد وطبرق الذي جرى صباح اليوم، بعد درنه أخذ التوتر يخيم على الجو، كانت التحركات العسكرية تزداد كثافة على الطريق، والسيارات المحملة بأغراض قاطني المناطق الشرقية تمتلئ بها، كانوا يهاجرون، وعلى مشارف طبرق ساد الصمت وحـل الوجـوم، وأمـامهم كانـت طـبرق خاويـة، وآثـار قصـف الطيران المصري للمدينة واضح للعيان، اهتاج مفتاح لوهلة ثم غمغم:

- ترى لو أعرف إن هذا يحصل ما كنت رحت مصر. غادي مع المدرعات الليبية بُكًّلْ.

- أو النفط اللي قدم لمصر أثناء الحرب.

قال النقيب مستطرد: كيف يتقاتل رفاق الحرب.

لم يعلق أحد بكلمة، وصمت عبد الله... لم تكن لديه أية إجابة.

كانت مشاهد القصف أكبر من أن تجد كلمات لتبررها، غمغم النقيب: ترى احنا سحبنا الجيش الليبي من الحدود بيش يكون واضح ان احنا ما لنا رغبة في صدام مع الجيش المصري... ترى والله ولا المصريين لهم رغبة في صدام معنا نحن الليبيين، نحن خوت، صنيعة الأمريكان هذا أيش يريد؟ ترى ما حدا يعرف.

لم ينبس عبد الله ببنت شفة، كان يشعر بالخجل، وذهنه يراوده، نحن لنا مصالح هنا ورزق، وبيوت مفتوحة من عرق شبابنا اللي يعمل هنا، غمغم بلهجة كئيبة بصوت خافت:

- طبعا احنا خوت، طبعا خوت، الناس في مصر. وليبيا ما تقبل باللي بيجرى.

قال جبران حزينا بصوته الضخم: ترى شنو جاب الجيش المصري هنا بالقرب من مساعد، الجيش المصري مكانه سيناء بالشرق احنا مو أعداء لمصر، أيش فعل القذافي؟ يبي يعطى لمصر كل ما يملك الشعب الليبي، اشترى 11 مليار دولار سلاحاً، لمين بده يعطيهم، احنا ما في يهود على حدودنا كان يبى يعطيهم للجيش المصري.

لم يتحدث عبد الله، كان يريد أن يقول إن سيناء عادت لمصر، كان يريد أن يقول إن الحرب انهكتنا... أهلكتنا، كان يريد أن يقول، إن الحرب لا تترك وراءها سوى الضنك،

والفقـر، والفاقـة، والغربـة، والسـير عـلى الأقـدام مئـات الكيلومترات.

شيء ما كان ضائعا بينهما، شيء لم يكن أحد ليستطيع تفسيره، لماذا تجرى الأمور على هذا السوء، لماذا لا نستطيع أن نتعامل بشكل يماثل مشاعرنا الحقيقية.

عبروا النقاط العسكرية بسهولة، بعد غياب الشمس بساعتين، كانوا يقفون على الشريط الضيق لجانب الطريق الأسفلتي قبل مساعد بعشرة كيلو مترات، حيا كل منهم الآخر بفتور، وبقي الضابط الليبي في السيارة، كان في النهاية مجرد عامل متسلل مصري سلكاوى تسلل عبر الحدود من أجل لقمة العيش، قدموا له أكثر مما يمكن أن يحلم به.

حمل حقيبته وقبل أن يستدير غمغم بصوت واطئ... أنا شاكر جميلكم، لم يستطع أن يكمل، صاح: السلام عليكم.

ردوا عليه السلام بصوت خافت... كانوا يريدون... أن يقولوا له... تعال... تعال... احنا نبعث لك في عقد، ليش تيجى سلاكة؟ عنوانك معي، سأرسل لك عقدا، كان يريد أن يعانقهم، ترتطم أجساد الرجال، تلتف السواعد، ينتقل الإحساس العميق بالأخوة، بالود، لكن أحدا لم يجرؤ، كان الفضاء مشبعا بآثار الدمار ورائحة الحرب، قبل أن يغيب في الظلام صاح عليه جبران بصوته الجهوري:

- عبد الله.

التفت نحوه مسرعا: أيوه.

- معاك السلامة، معاك ألف سلامة، نحن خوت، ترى سادات، ترى القذافي، ما يهم، احنا خوت.

عاد جريا نحوه، تعانقا، هو وجبران، جرى ناحية مفتاح وتعانقا، وثلاثتهم يردد والابتسامة العريضة السعيدة تملأ وجوههم: "نحن خوت".

انتهيا بصعوبة، نظر ناحية النقيب، نزل من السيارة مبتسما، شد كل منهما على يد الآخر حييا، قال النقيب: نحن خوت...

فرد عليه عبد الله بحماس: نعم نحن خوت...

هاجمه جبران: أنا نرسل لك في عقد، آه والله تصدقني ولا لا.

حاول أن يقول... لن آتى بعد الآن لكن جبران لم يعطه الفرصة:

- أنا نرسل لك في عقد، العنوان معي، هيا معاك السلامة.
- السلام عليكم.

ظلوا يتبادلون السلام حتى اختفي في لُجة الظلام.

* * * *

الفصل التاسع والثلاثون

الحياة هي الحياة... الفرح... ضوء الفرح من حولك يضيء الظلام... اجرى يا ابن عبد الجليل... حسس على بطنك... اتأكد من فلوسك المربوطة بشال جدك الجليل، واجرى... بينك وبين الحدود ساعات وتصبح ليبيا خانة في الذاكرة... غصة مرارة... لمعة حزن ورفاق أحبة... أبو نديم، مفتاح، جبران جواد... ونبيل بعده في السجن... اجرى كما جرى الخيول... اجرى كما تجرى الرياح الدبور على البحار، تمس زبد الموج بحوافرها... اجرد كما تجرى سنابك الخيل على ذؤابات الوهج وسط اللهب... مس أطراف الصخور كمس الندى للزهور... لا تترك أقدامك أثراً في الرمال... تختفي وسط الظلام لا يراك أحد عدا النجوم... لا تترك وراك غبار... لا علامة... لا دليل... لا يشعر بك العسكر ولا المنصر. من أولاد على ذئاب هذا الزمن المهول.

اجري... ساعات وتصير في مصر... تصبح ليبيا خانة في الذاكرة، عم عطا الله فلوسه وخلقاته مرمية في برَّاكة على أطراف بنغازي، محمود قتل صاحب عمله وعدى الحدود، أبو رحاب جثته في بطن وادي الكوف... اجرى كي ما يصبح هذا الزمن اللعين علقة مرارة في الحلق... تتذكره وانت قاعد متَّاوى جوه جدران بيتك، في حضن مرتك، وهج القوالح وحطب القطن، رشفة الشاي الأسود... اجرى... اجرى سابق الجنون... اهرب من المنون للفرح الجميل...

اجري واضرب بقبضتك الفضاء... ناطح السحاب... الحياة هذا اليوم بين أيديك، دخلت ليبيا من أيام قليلة وحيد، تطلب في حقك ورجعت بيه، لا معاك بطاقة هوية ولا جواز سفر ولا سيف بن ذي يزن، ولا وراك قبائل الهلالية، احضن فلوسك كما تحضن الأم الوليد... اجرى يا ابن عبد الجليل... طير على أجنحة الفرح الجميل... بكم يشترى المرء دفء الوطن... بكم يا وطن كم اعبده...

... حُضن مرتك في انتظارك... نهودها الصلبة... سكون العين... عود فارع قوى. شعرها الطويل، نخيل يدلع على النيل، والصبر الجميل على مساوئ الغير، اجرى لأجل ما تعانق عريها الجميل... انسياب الفخذ بين حفيف أوراق الشجر، جمال الخصر. انفتاح الصدر دلتا فرعى النيل، اجرى للأمان... طير كما تطير الطيور المهاجرة لأراضيها، طير للأصدقاء... للجلوس وسط الصحاب تحت شجر الزنزلخت على راس غيطك، راكية النار، الشاي والمعسل، الدره المشوي، جبنة حادقة... هدمه مرقعة... فرشة حصير... يا وجد يا جميل...

... سدود أرحل إليك وأعود، أنام على صدرك الناعس بين النعناعية والمصرف الكبير... أغصان الشجر، أكمات البوص، صيد السمك على ضفاف الترع... ظل الظهيرة الناعم تحت أشجار الكافور، المدرسة الابتدائية القديمة على الترعة البحرية، يتجمع الرجال والشيوخ والأطفال والنسوة لصرف الدواء ومعاش الكبار، تدور ساقية المعلم جابر يونس تعبى من وهج الغضب بصدور الشباب، الفقر، الضنك، الأحلام، البؤس، هموم العشاق، افتقاد الآخر، خلافات الدور وضيق الأهل بالأبناء... عسف الحياة، وسؤال يلح في الدماغ من غير إجابة...

... لما أنتم مش قادرين توهبونا حياة كريمة جيبتونا للفقر ليه، فقر النفوس قبل فقر المادة؟ تمتد فرشته تحت الشجر... سخريته، ضحكته، حكمته، تزيح الهموم، تمسح العبوس لأجل ما يضحك شباب مهموم، يعود الصفاء وسط ضباب الحشيش، والنبيذ، تنطلق جياد المرح والسخرية من الحياة، من عبثها الغريب بالبشر.

ظل الظهيرة الناعم، الساكن بالهدوء تحت أشجار الكافور... الصباح الباكر، بوابة العَّلامية، صخب التلاميذ الصغار في زيهم التيل وأحذية الكاوتش تعبر الدرب، دكان عكاشة، العادلي، دوار الإمبابية، سوق الأحد... دوار العمدة ينادى عليك الحاج "أعلى عياد"، تقف أمامه طفلا صغيراً، وجهه الأبيض، وابتسامته منورة كالشمس، يقول لك بمحبة، "عايزك يوم الاحتفال بعيد الثورة، تَنشِد بأعلى ما في عزمك الأناشيد الوطنية، تِسَمْع الخلق في النواحي، يوصل الهتاف لعبد الناصر... خد التعريفة دي اشترى حلاوة"...

... سير يا ابن عبد الجليل، تعدى تاخد من الحضري سندوتش طعمية، تعبر الجسر، تملى عينك من عيون حميدة البحراوية، تعدى الوحدة الاجتماعية... صخب الفلاحين، يدق جرس المدرسة، يصطف الطابور وانت على الطبلة الكبيرة والنقارة... يرتفع العلم، تهتف بكل عرق في دمك... تحيا الجمهورية العربية المتحدة... ولو نملك ما توقفنا عن الهتاف.

سدود أرحل إليك وأعود خاوى الوفاض، لا أرض الوطن سأعتنى، وفي بلاد العرب هاونني... سدود أرحل إليك وأعود، لظل الظهيرة الناعم تحت أشجار الكافور.

* * * *

هنا اتسرق النادي، ومال الكثير للسهر والحشيش... تبتدى المسير على شط الترعة البحرية، درب الوسطاني... مئذنته العالية... كثيرة هي الصلبان المرسومة أعلى الدور مصنوعة من طين... المعلم شفيق، المعلم بنوب، ضحكته الصاخبة، المعلم قسطندى... ثلاثة أجساد قوية مديدة وطيدة... ثلاثة وجوه سمراء عريقة...

اجرى يا ابن عبد الجليل... امرق من هذا الضباب اللعين كما يقطع السيف الفضا... شق قلب الرياح... أجرى كما تجرى الخيول على حافة الفلا... خلى ليبيا خانة في الذاكرة، غُصة ألم لما تحكى عن اللي فات... طير يا سندباد على بساط الفرح حامل كنوز شقا السفر... اهرب من ظلمة بحور الاغتراب، من جُزر السحر النائية، على سفينة قلاعها في

السحاب، تمخر عباب البحر، تطوى المسافات بحثا عن ضوء الفنارات ومرافئ الوطن.

اجرى يا أبو زيد كما البرق على جوادك الكلهاء، اطوي الفيافي والصحاري الشاسعة... اطوي الجبال والصخور، سطح السهول، سهم ينهب الزمن... دار صغيرة نظيفة قدامها جنينة وتكعيبة من العنب، وشلالات من اللبلاب، بساط من العشب وأرض منظومة، صفوف شجر تميل بطرح الثمر، تسبح على لون الذهب والفضة؛ قمح بالشتا وقطن في الصيف...

انظر... في الأمام، المدرعات المعادية، القبعات، الأمن المركزي، صفوف مرصوصة من حلف المافيا الجديد تسد جانب الطريق... اصرخ عليهم... قول لهم... أنا جبتهم من هناك... من ليبيا... ابعدوا... ليه (سَدْيِّن) الطريق. يا رب إيه المصير... كمبيوتر لأبنى على... كمبيوتر لازم اشتريه... لازم اتعلم... تتعلم يا ابن عبد الجليل... يا مجنون... أبدا ورب العزة... الجهل هو الجنون، الجهل صِنو الخوف، والخوف طريق العبودية والموت المجاني... اجري يا سندباد طير على بساط الفرح... عديت الحدود... لا... أكيد عديتها... مش عارف...

ليه السهب لم يظهر أمامك... لأنك أغرقت كثيرا باتجاه الجنوب. طب ونور المدن... لم يظهر يا ابن عبد الجليل... لا تضاء المدن زمن الحرب... جيشنا ح يلقنهم درس... الغطرسة والحماقة... لا... هذا خطأ كبير، هذا شيء كالمستحيل... من حقهم يطردونا... حق السيادة على أرضهم... ثم إن مشكلتك دخولك بدون هوية... اتجه إلى

البحـر... لا اجـرى باتجـاه الشرق حـتى لا تصـطدم بنقـاط الحراسـة وخنـادق المشـاة الأماميـة... بـس انـت أكيـد عـديت الحدود... مش متأكد... طيب إزاي ح تعرف...

... يمكـن لمـا القمـر يظهـر يكشـف عـن أشـباح المـدن، صفحة البحـر في المـدى البعيد، طيب اجـرد يا وَلَـه، خـد في وشـك نـص سـاعة كمـان مـش مهـم... لكـن مـش مـن حقهـم يطردونا... مش من حقهم يكون فيه مكان عمل في بلاد النفط ويُفضِـلوا غريـب عـلى مصري، مـش مـن حقهـم يـيجي تـركي، بولنـدي، ويشـتغل في مكان أقـدر فيـه أنـا أشـتغل... مـش مـن حقهم يستحضروا جنسيات غربية، واحنا في احتياج... امتي أظهرنـا روح الكلال... هـل خاضـوا القتـال كمـا خضـناه... لا... ابعـد عـنى... ابعـدوا كلكـم... أحسـن عفاريـت الـدنيا في وشى... مش طايق حد... بالذات لما الجميع يبقي عارف إن الزمن جار عليّ، وصرت في حاجة للعمل والمال، يمسكوه عني!! يجعلوه عليه ذلةّ!! كان ليه إذن حروب العرب...

... مـين اللـي حـارب مـن عـام 48 لحـد الأمـس... مـين قعـد سـبع سـنين في الخنـادق تحـت خـط النـار، كل أنـواع القصـف الجهنميـة وآلـة الحـرب المخيفـة... ليـه يتـوه عـرب الخلـيج وسـط الآلاف مـن إيـرانيين وباكسـتان، هـو ملاك المـوت كان بيقصف عمر مين؟ ... هو احنا ناقصين فلسطين تانى...

لما كنت أقف تحت العلم أهتف بكل ما في جسـدي من ذرة فرح... تحيا الجمهورية العربية المتحدة... سوريا ساعتها كانـت حلـمً جميـل... دمشـق... سـوق الحميديـة... الجـامع الأمـوي... بـردى شـقيق النيـل... كـان لمـا يقـول المـدرس: حلب... اللاذقية... أشعر بأني كبير، تمتد عروقي على سطح

الأرض، بطول المسافة من أسوان إلى الحسكة... كنت أشعر أن لـواء الإسـكندرونة لازم نسـتعيده... ليـه يشـتغل مكاني في ليبيا تـركي إذن؟ وانطـرد أنـا، هـو أنا اللي سـلبت فلسـطين... أو جـزر بحـر العـرب... اللعنـة عـلى زمـن الـدبق... ليـه أبـو نـديم زعلان من المصريين... ليه السادات وصل سدة الحكم... لأن سـوريا أول مـن طعـن حلـم الوحـدة الجميـل في المهـد... أول مسـمار في نعش البطل جمال عبد الناصر كان من اللي بكـوا عليه... أنا مسئول عما يفعله النظام في مصر، كما أن أبو نديم مسؤول عن الانفصال المر... لما ينفتح معاى كشف الحساب لازم ينفتح للكل... وكما أن كل نفطي ساهم في تعبئة صالات القمـار وخـزائن الولايـات المتحـدة بالمليـارات وأنـا جوعـان... اللعنة على زمن الجرب، وساسة الجرب، وقادة الجرب.

شبح اللواء جلال الغمري، يحبو كالسراب البعيد، تطاول قامته الفضـاء، فاتحا قدميه ويديه إلى الـوراء... "إلى الأمـام... الـركض بـالخطوة السـريعة... حـارب يـا مُقاتـل... دافـع عـن معركتك"

اندفع يجرى بعنف وهو يقفز في الفضاء، ملوحا بقبضته صارخا بأعلى صوته وكله فرح: تمام... يا أمير يا بطل... الدفاع الجـوي صامد... ضحك وهـو يردد... الدفاع الجـوي صامد... برغم انعدام الدعم الجوي، وتلاشى المدرعات زي قطرة مطر في الرمال...

اجـرى يـا ابـن عبـد الجليـل اجـرد يـا وَلَـه... امـرق كمـا يعبر الشباب زمن الصبا... كما يطل القمر من خلف الغيوم الداكنة، ويعود يختفي... امرق كسيف اللهب واعبر بين آلية السخط والغضب.

لوح بيده... إلى شبح ابن عمه كمال... السعوديين بيدعموا الاقتصاد الغربي بالمليارات... والغرب يضخ في الاقتصاد الإسرائيلي، يبني المستوطنات، يحصل على أحدث أنواع السلاح، سلاحه النووي وصواريخه الحاملة، وأنا أنزع ثمن الرصاصة من جلدي، وأقف في طوابير الخبز بالساعات.

هاتفه شبحه... بس انت بتنهب من الداخل أيضا.

... معاك حق... تجارة العملة والمخدرات، مافيا الأسفلت، الأغذية الفاسدة... الفساد معشش في دماغ الناس، وكأن فيه حل مشاكلهم، بس دي مسألة على رأى جيران داخلية، نتحاسب فيها بعضنا البعض...

... اجرى إذن يا بطل... خلاص قرّبت...

... الحياة هي الحياة... اسبح في بحر الفرح يضيء ظلام الليل... بينك وبين الحدود ساعة زمن، ربما تكون في بر مصر... حسس على بطنك، شال جدك الجليل... موجود يا وَلَه؟

وسع الدار واشترى جرار بالتقسيط... اشتغل عليه، لو أمك عايزه بقرة كمان اشترى لها، لو عبد الرحيم عايز الدار ياخدها... الدنيا مساعدة... بس واحد يتصرف بندالة ينضرب بالصرمة فوق الدماغ... ولا أقولك مش مهم... سامح... سامح الكل... أبو زيد غفر... ما دام ربنا فتح عليك سامح... دا انت جبت حقك من فم الأسد... كيف أن هذا الوطن تمرغت رأسه في التراب من العفن، هذا شيء معقد ولا أعرفه... حرية المساحة أم النظر في المرايا، أم غسل النفوس من الفساد والتلف، والسباحة في الهواء الطلق...

اجري... لن ترى أكثر مما رأيت... على شط القنال كان الموت رفيقك... ارفع رأسك الى عنان السما... هذه آخر لحظات الذل والمهانة... آخر لحظات الخوف... اللي جاي كله براح وصدق، حقيقة... لازم يكون عبد الله عبد الجليل مثال الشرف والاستقامة... ظهر كبير حمول للولايا، واللي ضاقت بهم سبل الحياة... الصراحة يا ابن عبد الجليل... الصراحة... إن كانت تخرج من فمك كلمة نفاق أو كذب... تكون جبان رعديد... ما عاد هناك شيء يساوي ... لن ترد أكثر مما مضى بلاوى...

كمال ابن عمك، أمير هذه الحياة ولا يقارن، عاش زي حد السيف... زهرة في جمال الحقيقة... لم يضئ للشر فتيلة، كمال عبد الجليل هذا النبي المهضوم، لم يهادن عبث اللغة، ميوعتها، رنين الذهب في تجارتها... لم يهادن التواري خلف أكاذيب القبيلة... كمل تعليمك... مشوارك صعب، خمسة ملايين كمبيوتر لهذا الشعب الجاهل المسكين... معاك حق... لازم أعرف ليه هذا الليل طويل...

الحدود... الحدود... هذا هو سلكها الشائك خطها المستقيم... الآن عبرت... الآن صرت في الوطن الجميل... كم أحبك يا وطن رماني بعيد...

* * * *

ساعة زمن ويطل البحر، هذه السهب طريق الأسفلت، تترك وراك صخور الجبل، الصبار... كثبان الرمال تتلوى على البيداء... تواري من حيات القطا وأولاد على... ازحف إلى محطة السلوم يا بطل، وامتطى ظهر القطار اللعين حتى تصل إلى النور... سدود وبابك الموصود أرحل إليك وأعود... أنزل

أغتسل في النيل العظيم أزيح عنى رمال الصحراء، وأنفض هذا الجرب... امرق إذن من هذا الليل اللعين، امرق كما يشق الرمح الحشا، كما تشق السهام المدى، كما تنساب السكين في رقبة الثور العفي، كما تنهب الأرضَ الخيولُ، اركض كما ركض الحوافر ع السهول، امرق كما يسافر اللهب على سطح الهشيم، كما يمرق البشر من الجحيم للنعيم...

خلاص... خلاص يا وَلَه نفدت من غلظة البدو لما يتحكموا في أولاد الحضر... من سطوة أغنياء النفط على أولاد الأصول، من فداحة تنافي الفعل مع ما يشاع من قول... اجرى يا ابن عبد الجليل بعمرك، ضنى شقاك عرقك، اترك المفازات اللعينة... امرق كشهاب عبر هذا الليل الطويل... امرق كبرق السحاب في العتمة، ومیض سيف يقطع شمس القيظ، هذا زمن الجري...

اجرى علك تجد مكانا في ضيق المسافة، في ضيق النفوس... تلوثها... عب دخان الحشيش أو أحسن اتركه، كل شيء مطلوب إعادة التفكير فيه... وعقلك حصانك الوحيد في متاهة ما بعد الوصول يا ابن الأصول... سبيل الحقيقة الوحيد، نصل حاد يزيح عن الأشياء قشورها، تطلع في كنهها علك تصل للجذور، تفهم حقيقة الأشياء في زمن الأفول...

اجرى يا ابن عبد الجليل... انهب السهب كما تنهب الخيول المراعي... طير لابنك الوليد... وحاذر أولاد على وصولات البوليس، رزالات الدم وعساكر الأمن المركزي اللي عايشين كما صراصير المجاري... أما الجيش فلا تخشاه... جيشك... اره تصريح مرورك؛ بطاقة قدامى المحاربين تمر... اجرى يا ابن عبد الجليل... انهب السهب... طير الى ابنك،

أيده الطرية الصغيرة المنمنة تنتظر كفك الخشن، تستمد منها القوة، ترضع الشعور بالأمان، صرخته على صدر أمه تنادى عليك... أبا... طير إليه بالدفء الجميل... اطو الصغير جواك، احميه من التساؤلات المضنية، من الدهشة المريعة، من الغيلان، أبو رجل مسلوخة، والساحرة الشمطاء، لا تتركه يشعر بفزع الخوف المميت أمام الأغراب، ولا بضراوة الزمن لما يعصف بالصغار...

... انهب الأراضي كما تنهب العواصف البحار... اركض كما يركض الرهوان الفَتِي، مد أيدك إليه، اخطفه من على سطح الفراش اللين، ارم به للسماء حتى أن ضحكته البريئة تجلل في الفضاء، تفيض من عينيه شلالات الفرح، والدهشة لهذا العالم الجديد عليه، ينزل إليك تتلقاه بين ساعديك، يشعر بالأمان... يضحك... يبتسم... يلاغيك... كي ترسله للفضاء من جديد...

اجري إليه... خلِ راسه الصغيرة تنام على ساعدك العفى، وآخر نظرة يقفل عليها عينيه وجهك الكبير، يصحى يجرى يدور عليك في نواحي الدار، يعيط، يبكيك، ينادى في الفراغ اسمك، ترجع إليه في العصاري، يصوصو كما البلبل الصغير، يجرى إليك بالدمع الجميل، وكل واحد منكم فارد دراعه للتانى، يتوه في حضنك الوسيع، يدفى بالأمان، لا تستطيع أن تتسع لفيض السعادة، فهذا هو الفرح بالولادة.

حافظ على توازنك من انحدار الجبل... لأجل ما تصل للسفوح، للأسفلت للمدن، للحضارة... طريقك لسدود واحة م السكون في الزمن التعيس... ساعتها ح تكون ليبيا غصة مرارة، خانة في الذاكرة، تنس طعم المرارة وتبقي ذكرى جميلة

عن الشقا والسفر، والرحيل إلى بلاد النفط، والغجر، والفيض، والزبد، ودياب بن غانم، وأبو زيد، والزناتي خليفة، وخضرة الشريفة، وعزيزة، والوهيدى معبد، وتونس الخضرا، وأحاديث الشجن الليلية، وأحلامك الهلالية.

... يا رب... صوت رصاص هذا؟ أم إنه برق سحابة صيف؟ رعد السما، أم إنه إعلان بالخطر؟ ارفع راسك في الفضاء، مد أنفك شم الرياح كما غزال يرعى في مراعى القتل والدمار... طلقة رصاص بالفعل... بندقية نص آلي... أقعد على الأرض يا وَلَه... اتلفت حواليك علك تخترق غلالات الليل العميق... ولا... قوم... اهرب كما تهرب الحياة من المنية... أين المدرعات تنقذني من هذا القصف المخيف.

* * * *

ها هو الرعب يتسلط عليك، كما تتسلط قواطع السيوف على هامات الرجال... اجري يا ابن عبد الجليل... اركض رغم صوتك العالي وسط الجنود، وحثك لهم على الصمود، وعدم الخضوع للخوف، ها هو الرعب يعود إليك... لما تكون رؤوس الفرسان مرفوعة على ذؤابات الرماح... لما تتوه كتائب الفرسان وسط القلاع الغريبة... تحاصرها الدبابات في ساحة الميدان تحت القصف العنيف... انسحب كي تستعد للهجوم ثانية...

اجري يا ابن عبد الجليل... ها هو الرعب يعود إليك، وانت تعبر حدود الفلا... وكأنك تعبر القناة، ببقايا كتائب الصواريخ، كي تفلت من كماشة الحصار... يطاردك القصف المعادي، لا دعم جوى، ولا حماية من القوات الأرضية... اجري يا ابن عبد الجليل للوطن الجليل...

15، 16 أكتوبر الحرب على أشدها... عقب الخسارة الفادحة التي منيت بها الفرقة الحادية والعشرين مدرعات وتدمير معظم دباباتها، تنامت الإشاعات بعبور "قول" إسرائيلي القناة عبر ثغرة، نجح في اختراقها عند الدفرسوار... وأن القوات الإسرائيلية تمكنت من استعادة توازنها على طول الجبهة، وأنها أصبحت تمتلك تفوقا موضعيا بنسبة 2:1 في المنطقة المعدة للاختراق، وأن اللواء الثالث مدرع من الفرقة الرابعة المدرعة قاتل بشراسة ونموذجية، لكن لم يلق الدعم الكافي، فتراجع إلى قاعدته برأس الفرقة التاسعة عشر مشاة، وأن اللواء الأول مدرع من الفرقة الحادية والعشرين تعرض إلى غارات جوية مكثفة، وعانت مجنبته اليمني من نيران الأسلحة المضادة للدبابات، وهو لا يزال في طريقه للفتح، ما أحدث به خسائر فادحة، وأن اللواء الرابع عشر مدرعات تعرض لنيران الأسلحة الصاروخية المضادة للدبابات والقصف الجوي المركز، وغادرت بعض الأطقم الدروع، وأن الفرقة الحادية والعشرون مدرعات خسرت نصف قواتها، وبقي النصف الثاني يقاتل في شراسة، غرب القناة وحول الدفرسوار.

17 أكتوبر عبرت القوات الإسرائيلية القناة، وتم دفع اللواء الخامس والعشرين مدرع من الشرق باتجاه (كثيب الحبش)، لمواجهة الاختراق الإسرائيلي عند الدفرسوار، دون حماية جوية أو غطاء من الدفاع الجوي، ورغم معارضة الفريق الشاذلي رئيس الأركان وقائد الجيش الثالث الميداني، وطلبهما أن يكون الدفع باللواء المدرع من جهة غرب القناة، حتى يمكن تأمينه من الطيران المعادي بقوات الدفاع الجوي ومظلة حائط الصواريخ، إلا أن طلبهما رفض، وأصر القائد العام على الدفع ببقايا القوات المدرعة وتدميرها...

... طوال يومين جرى التعامل مع العدو، بينما سقط اللواء المُدرع الخامس والعشرين في كمين أقامه العدو من المدفعية الصـاروخية المضـادة للـدبابات، يسـاندها لـواءان مـدرعان إسرائيليان، وتحت سيطرة جوية معادية، تحت ستار الليل انسـحب اللـواء بعـد أن خسر سـتين دبابـة... وطـوال الليـل تناثرت عبارات الضباط الحادة عبر أجهزة اللاسلكي:

- من الذي دفع بالمدرعات للشرق دون دعم جوى، لقد سُحبنا من أنوفنا لوكر الذئب.
- كيف نقاتل دون توازن في العمق الميداني.
- كيف يدفعون بنا للقتال دون حماية جوية ولا دفاع جوى.
- من خطط لمعركة المدرعات!
- نفس الأخطاء المُرة.
- تذوّق اللواء المدرع الخامس والعشرين نفس الكأس التي جرعتها القوات المدرعة قبل ثلاثة أيام... نفس الأوامر... نفس الأخطاء... ألم يكن واضحا ما حدث؟
- غباء... ماذا تنتظر من تاجر جبنة !!
- هل هناك اتفاق سرى؟
- من أجهض الجيش... من أجهض الحرب؟
- لابد من محاكمة قيادة المدرعات.
- لابد من محاكمة قادة الجيش.
- من فعل بالمدرعات هذه الكارثة.
- هل يوجد في هذا الوطن من يحاسب أحدا... هذا الوطن مرتع للدجل.

على مدى ثلاثة أيام تم الدفع بتجهيزات من احتياطي المدرعات المصرية لاحتواء الاختراق الإسرائيلي للجبهة على التتابع، دون تأمين استطلاع لها وتوفير حماية جوية، فأحبط هجوم أحد مفارز اللواء 116 مشاه ميكانيكي... في 16 أكتوبر فشلت علميات اللواء 116 مشاة ميكانيكي بسبب النقص في المعلومات عن العدو، وفي 17 أكتوبر فشلت عمليات الهجوم، التي تمت بالتعاون مع اللواء الخامس والعشرين مدرع، انهارت بقايا الفرقة الحادية والعشرين المدرعة، وفي ذات اليوم هاجم اللواء 22 مدرع دون معونة جوية، وخسر عددا كبيرا من دباباته، وكان هذا اللواء آخر مدرع لدى قيادة الجبهة، وكأنها عزمت بروح جادة على إجهاض القوات المدرعة... لم يكن هناك سوى لواء واحد مدرع من الفرقة الرابعة كلف بواجب حماية النطاق التعبوي للجيش الثاني الميداني... وتمركز في وصلة عثمان، ولواء من الحرس الجمهوري المدرع...

في ليلة 16 أكتوبر تمكنت المدرعات الإسرائيلية من اختراق الجبهة والتدفق عبر أول كوبري أنشأه سلاح المهندسين الإسرائيلي لعبور القناة، وعندما أشرق صباح يوم 18 أكتوبر 1973 كان للعدو فرقتان مدرعتان في الضفة الغربية للقناة... وبهذا أصبح على حائط الصواريخ المصري أن يقاتل منفردا ضد المدرعات الإسرائيلية وسط عجز بَيْن من قوات الجيش الأخرى، وتوقف عن التأمين والدعم.

في الأيام الثلاثة الأولى من الحرب، أسقطت وحدات الدفاع الجوي من صواريخ سام (3) وسام (6) ومدافع الشيلكا ثمانين طائرة معادية، أصابت العدو الإسرائيلي بالذهول، ومنذ

بدء الحرب واقتحام القنال وطوال إحدى عشر يوما تم شل فاعلية سلاح الطيران الإسرائيلي وإخراجه من الحرب.

في صباح 17 أكتوبر ظهرت من جديد أول طائرة لسلاح الطيران الإسرائيلي على ارتفاع عال تصدت لها كتيبة الصواريخ بصاروخ من طراز سام (2)، لكنها رحلت مبتعدة، وبعد دقائق كانت السماء تهدر من الجنوب بتشكيل من عشر طائرات... تهاجم من على ارتفاع منخفض للغاية... فتحت السرية نيران المدفعية المعاونة، ثوان وتحولت الكتيبة المجاورة إلى جحيم... لم يبق شيء لا يطاله اللهب، المدافع، مخابئ الجنود، مخيمات الضباط، الخنادق، مخازن الذخيرة، كانت الصدمة قوية اهتزت لها الأرض، وتأرجحت معها مدافع الكتيبة... لوهلة كان يصرخ فيهم... يخرجهم من ذهولهم:

- عمَّر يا وَلَه...

وكأنهم في انتظار صيحته المدوية، في ثوان كان الجميع في مواقعه ثانية والمدافع العشرة للفوج جاهزة للإطلاق... بعد خمس دقائق من الترقب، ظهر في الجو تشكيل آخر من طيران العدو خمس عشرة طائرة، تتقدم هذه المرة من الشرق، كانت تتهادى وقد بدت عليها الثقة على ارتفاع متوسط، وعندما صارت على مسافة كيلومترين. انطلق إلى الفضاء من مواقع الكتيبة التبادلية خمسة صواريخ طراز سام (3) ... فوجئت الطائرات المعادية بالصواريخ... تابع الجنود في قلق المطاردة المميتة... إصابتان... هاج الجنود بالمكان... كانت الكتيبة ترد الصاع صاعين... صرخ بهم: أنتبه يا ابن الكلب... استعد ثوان قبل أن يصرخ بفصيلته:

- اضراااااااب...

تحولت السماء إلى جحيم... وقبل أن تنسحب الطائرات المعادية كانت قد خلفت وراءها طائرة أخرى تهوى إلى الأرض، لقد أصبحت الكتيبة شوكة بارزة في خاصرة الطيران الإسرائيلي، طوال يوم كامل تابعت مواقع الجيش المصري، المجاورة الحرب المستعرة بين الخصمين... تناول الجنود طعامهم على المدافع، قبل أن يعودوا ثانية للمواجهة، قبل العصر بنصف ساعة قاربت الذخيرة على النفاد...

نادي عبد الله في اللاسلكي: الذخيرة يا افندم؟

- **أيوه يا رقيب عبد الله؟**
- **الذخيرة يا افندم... قاربت على النفاد...**
- **اتصرف يا بطل... الجنود تطفي ا لنيران... اتصرف يا عبد الله.**
- **تمام يا افندم...**

كان هذا كافيا له... اتصرف يا بطل... وبينما كانت معركة جوية حامية تدور في سماء الكتيبة، كان جنود الفصيلة يجرون مهرولين، حاملين صناديق الذخيرة زنة مائة رطل من الخطوط الخلفية، ولمسافة مئتي متر عبر الخنادق، لم يعد هناك جندي في حاجة لمن يدفعه للحرب، لم يكن هناك من يشعر بالعجز أو الضعف... وعندما عاد الطيران لمهاجمة قاعدة الصواريخ المجاورة، كان يقف متأهبا داخل مدفع الشيلكا، تابع طائرات العدو على شاشة الرادار الصغيرة، صوب فوهة مدفعه، أنتظر، كان يشعر أنها تتجه نحوه، هذه المرة نسي كل شيء حوله، تلاشى كيانه العضوي، ويديه تلتحم بالمدفع، تلتف حوله، تمتص خلايا جسده صلبه البارد، لم تأبه به الطائرة... لم تره... لأنها قدمت إلى الشرك مباشرة...

الآن... الآن... 4000 طلقـة طلقـة في الدقيقـة انطلقـت الطلقـات فجـأة... وقبـل أن تطلـق الطـائرات حمولتهـا مـن الصـواريخ والقنابل كانت النيران مشتعلة بها... دخان خفيف... ما لبث أن تزايد ليتحول إلى وهج، والطائرة تصعد إلى أعلى لتنفجر في الفضاء.

* * * *

... يا رب صوت رصاص هذا... أم أنه برق سحابة صيف... أم أنه رعد السما... دوى الرصاص... صياد في البراري، أم أنه قنـاص، حامـل في إيـده بندقيـة قـنص... اجـري مـن رعبـك المخيف... اقعد على الأرض مرة وانظر للوراء... لقدام... انظر لكل مكان... اخترق غلائل هذا الليل الطويل... والله يا ليل خانك الصباح... مين قناصك مين... فين قاعد... ربما يدلك عليه وهج سيجارة... لمعة ابتسام صياد يسخر من الفريسة وهي تنهب الأرض هربا من فخاخ الصيد... لحظة شعورها بالانفلات من الكمائن، ولمعة ابتسامة النجاة يكون قد احكم الحصار...

انظـر هنـاك... المـدرعات الإسرائيليـة تتوغـل عـلى يسـار الكتيبة، تحوط بها سرايا المظليين، تطلب القيادة...

- سيادة المقدم غبريال.
- أيوه يا عبد الله؟
- فيه مدرعات معادية على جناح الكتيبة.
- حدد موقعها.
- □□□□ متر من اليسار.
- العدد؟

- تلاته... يحوط بها مظليون.
- راصدها تمام؟
- تمام يا فندم... في وضع الثبات لا يتقدمون...
- اتعرف عليها؟ يمكن تكون مصرية؟
- بنفسي... إسرائيلية يا فندم.
- تمام يا عبد الله.

اجري يا ابن عبد الجليل... الآن أصبحت فريسة مكشوفة للمدرعات بعد أن كنت صيادا للطائرات... الليل والهجوم الليلي للطائرات المعادية... الدفاع الشرس... أضواء غريبة في الأنحاء... ثلاث مدرعات إسرائيلية جهة اليسار... ثلاث أفاع مصحوبة بالمظليين... من ينتبه لها تحت القصف، وقد تم تثبيت الكتيبة في موقف الدفاع ضد هجوم الطيران المعادي... عشرات الأشباح تقترب... هل تم رصد قاعدة الصواريخ؟ ... عقب آخيل... من لم تهزمه الطائرات تقتنصه المدرعات.

الآن تحكم المدرعات حصارها، الآن صرت غزالا أمام بنادق الصياد... أسد عجوز تحت أقدام قطيع هائج من الأفيال... قذائف المدرعات، هاونات فصائل المشاة المساندة... بلغ سيادة اللواء، نبهه عن الانقضاض المرتقب...

لو سقطت قاعدة في حائط الصواريخ ينهار خط الدفاع بأكمله... تنهار المنظومة... سبحة وانفرط عقدها.

الاختراق... شرخ في حائط الصواريخ... الآن يحكم الحصار.

انفجار بملجأ التحكم والسيطرة... انفجار بملجأ ماكينات الديزل... أجهزة الرادار، انفجار في قاذف الصواريخ... انفجارات بملاجئ الأفراد، جثث الجنود تتطاير في الفضاء.

أيـه العمـل... اجـرى طـفي الحرائـق يـا وَلَـه، انـزل مـلاجئ الجنود، اخلى الجرحى، اجمع الجثث قبل الانفجار الأخير... لا... انت منوط بحماية القوات ضد قصف الطيران المعادي... يدوي الفضاء بالجحيم، يصعد اللهب لعنان السماء... الآن جاء دور انفجار مخازن الصواريخ...

... صوت الغضب المخيف على أجهزة الاتصال، صارخا:

- أنا بتعامل مع طائرات مش مع مدرعات... المفروض إن احنا في نسق، كل واحد يقوم فيه بواجبه ناحية بقية الأسلحة... انا حميت المنطقة بتاعتي لحد ما الجيش عبر، قدمت لسلاح المدرعات فرصته الذهبية، أبطلت فاعلية سلاح الطيران الإسرائيلي، جعلته يهاجم في حماية من القصف الجوي المعادي... أعطيته لأول مرة في تاريخ الحرب بيننا وبين العدو القدرة على خوض الحرب مع المدرعات الإسرائيلية وجها لوجه... احنا أخرجنا سلاح الطيران الإسرائيلي من الحرب لمدة أحد عشر يوما متواصلة... لكن لواء الصواريخ قدام المدرعات الإسرائيلية في حماية مشاه معادية، بطرابض على الأرض... هدف رماية ثابت عاجز عن المقاومة...

- انسحب.
- انسحب... انسحب تانى، أنا في غرب القناة، سيادتك؟
- انسحب يا غمرى ثلاثين كيلو للخلف.
- انسحب ليه... والقوات البرية شرق القناة؟
- عارفين يا غمرى...
- والمدرعات...

- قلنا الهجوم فشل.
- إيه معنى ده؟
- يعنى مش عارف؟
- والاحتياطي... الاحتياطي الاستراتيجي؟
- اتوزع على القوات البرية قبل الحرب.
- يعنى المنطقة من القناة خالية من المدرعات والمشاة؟
- في قطاع الجيش الثالث، لنا أربعة لواءات مدرعة... اللواء الجزائري والليبي واللواء....
- والحرس الجمهوري؟ ...
- في المؤخرة، يحمى الطريق للقاهرة... انسحب عشرين كيلو مترا... مش طالب حماية أرضية.
- لو اذ سحبت الجيش الثالث ينكشف... اذ سحابنا يعرضه للخطر... يا افندم سماه ح تكون مفتوحة للطيران الإسرائيلي، ح يصبح معدوم من الدعم المضاد للطائرات... ما هو موقف قواعد الدفاع الجوي الثابتة على الأرض؟

صوت آخر جاءه كالرعد، صمت بعده اللواء الغمرى من فوره.

- انت بتدخل في اللي مالكش فيه ليه؟ ... ح نتسامر؟ ... نفذ الأوامر من غير نقاش، ولا تحب تروح بيتكم.
- تمام يا فندم... تمام ح اذفذ تعليمات الاذسحاب... تمام... لو تكرمت أنا مسئول عن اللواء ولازم أفضل معاه... عادل يا صبري... تعليمات بالتراجع...
- ماله قائد الجيش؟ ...

– بدل ما يدرس تاريخ المنطقة الحربى، والمستقبل الاستراتيجي الوطن، طلع يستثمر عبقريته العسكرية في تجارة الجبنة، يحارب بالتقسيط، الحرب عايزه العلم والجرأة والشجاعة... مش عالم تتعامل مع بقر... السادة بيخوضوا حرب المدرعات زي اللي باعت سرب وز يلقط رزقه على جسر الترعة... بهايم معصوبة العينين بتدور في سواقي... يناور بأفضل كتائب الصاعقة... ويرمى بالكتيبة □□ صاعقة من الطائرات للأسر المباشر... بيتصرفوا في نفوس الخلق بلا مسؤولية، يلقوا بهم للموت بلا حساب، ولما يتكعبلوا يغمضوا عيونهم من الخوف، ويقطعوا الطريق نهبا إلى الأمم المتحدة، يطلبوا وقف إطلاق النار.

لمح العقيد عادل صبري، وهو يغمز بعينه في ظهر اللواء الغمرى يقاطعه:

– يعنى لازم تناقشهم.

– هو أنا ناقصك يا عادل، هو احنا في مناورات بالأسلحة الفشنك... دا احنا في حرب والموت بيحش الرقاب... البلد مش ممكن تتحمل هزيمة ثانية.

– بس دي مش مسئوليتك، احنا لواء صواريخ، عمل اللي عليه، وهم يتحملوا نتائج تصرفاتهم.

– إيه النتيجة لما تاجر جبنة يقود الحرب.

– احنا عبرنا يا سيادة اللواء.

– بالضبط... أنا ناسى هذه الحقيقة... نفذ الانسحاب عشان سلاح الطيران الإسرائيلي يحمى مدرعاته، وهي تنجز الحصار... أما الجيش الثالث الله معه...

- يا عبد الله.

هكذا جاءه الصراخ عبر أجهزة الاتصال اللاسلكية... صرخ بأعلى صوته: ا لدفاع ا لجوي ثا بت يا ف ندم، اح نا نوا جه ا لدبابات بأجسادنا، سلّحت الـ سرية بالأ سلحة الشخ صية، ومدافع الآر بي جي...

- إيه؟
- أيوه يا افندم ثلاثة مدافع آر بي جي...
- جبتهم منين؟
- أ سلحة الـ شهداء يا ف ندم، جمعنا ها من الـ ضفة الشرقية.
- والذخيرة؟
- بالذخيرة يا فندم.
- ... انسحب يا عبد الله... انسحب يا بطل...

ها هي المدرعات الإسرائيلية تحكم الحصار... فهل لهذا الليل نهار؟

انسحب يا ابن عبد الجليل... والرفاق على الضفة الشرقية، نعيش سوا أو نموت سوا... إيه اللي فهمك في الحرب يا إيها الحمار... ح تعمل الأمير بركات ولا الملك حسان... امتى نبطل انسحاب؟ انسحب وانت ساكت، من غير سؤال...

امتى نبطل انسحاب. أمام الفقر والشقا والزمن التعيس، امتى نلاقي السعادة؟ امتى ح نبطل نطاطي أمام أثرياء القوم، ونهرب من الطريق لما يعبره ضابط شرطة، ونخاف ندخل قسم البوليس، وكأننا موصومين... عبيد أمام سادة لا تفارق أياديها السياط... امتى ح نبطل انسحاب ونهرب كالطرائد أمام

الصـيادين... يـا زمـن يـا لعـين... لا أفهمـك... كـل شيء فيـك اختلط... أسقط إذن في حلكة الظلمة، الانهيار...

أحكمت المدرعات الحصار... فهل لهذا الليل من نهار؟

يا زمن يا لعين... انجى بجلدك... هـو دا وقـت السـؤال!! نصف ساعة وتصل طريق الأسفلت، ساعتها يبقي للحديث حديث... جالس الأحباب... كل شيء يتنسى. في حضن مرتك نجـاة... وابنـك يضـحك بـين أيـديك... كـل شيء يتـوه وسـط الصحاب والضباب الجميل للحشيش، تسقط الهموم في بئر النسيان العميق.

* * * *

أضـواء عـلى شاشـات الـرادار... نقـاط صـغيرة... صـفارات الإنذار بالهجوم... ثماني موجات من طائرات الميراج قادمة من الشرق... رفع درجة استعداد الوحدات... الآن تقاتل وحدك... لـيس ثمـة قواعـد للصـواريـخ في الأنحـاء... لـيس ثمـة صـواريـخ سام (6) أو (3) ... شرخ في جدار منظومة الدفاع...

مد منزاتك يا أبو زيد.

مد منزاتك يا أبو زيد... مدْ بقايا القوات...

وانتظر الهجوم الشرس.

يا ليل أنا والخيل لا نكمل بالدما...

ثمـاني موجـات مـن الطـائرات... ثمـاني موجـات مـن جهـنم، ثمـاني طـائرات معاديـة تشـق السـماء، تـأتي مـن قلـب الغسـق الأحمـر الـدموي... الشـمس تهبط للغروب والفضاء كتلة من

الدماء... لهب على الأرض، سحب دخان في السماء، حقول نيران وأصوات صخب، هدير فولاذ تعقبه انفجارات مروعة، شيء يحمله لأعلى ثم يهبط إلى الأرض... تتلاشى الأمواج... يسود الصمت والسكون... إلا من صوت النار وهي تأكل الأشياء... قام متثاقلا يعبر حقل اللهب... كل شيء يحترق حولك وأمامك لا يزال جنود الفوج ويا للفخر، في أماكنهم متخذين أوضاع القتال.

أمر ما كان يتتابع كومضات برق في الظلام، يأكل عقلك... السكون الفناء... البقاء... الكون الهستيري والموت المجنون... جحيم المنون... شيء ما يعبر عينيك كالسهم... مراعي من القتل... حقول من الجنون...

يا ابن الكلب... انت ماشي فين؟ ... جهنم الحمرا..

... **عمّر يا وَلَه**...

...**عمّر يا ابن الكلب**...

أحد لا يتحرك... عمَّر يا وَلَه... عمَّر يا ابن الكلب... تجهش بالبكاء وانت تجرى في الأنحاء... تصرخ...

عمّر يا وَلَه... **الحرب لسه ما انتهتش**...

ثماني موجات من الطائرات... ثماني موجات من جهنم... ثماني طائرات تأتد من قلب الغسق الدموي... الموت والمنون... الموت المجنون.

البقاء والفناء... **الكون الهستيري**...... **جحيم المنون**...

يا ابن الكلب ماشي في الجحيم... الرفاق قاعدين على المدافع تحية للسلاح بلا رءوس... بلا عيون... جثث طارت إلى الفضاء هاماتها... اجساد انقصفت رقابها... تاهت ملامحها، وبقيت رائحة الشواء... يا لحن الجنون... الشَعر فين وفين العيون... تركت وراها الفراغ... الآذان التحمت بجلد الوجوه المسطح... لا أنوف... أفواه فاغرة عن التساؤل الرهيب... الجماجم شُقت نصفين، تسيل منها المادة الهُلامية للعقل الإنساني المقدّس، ملوثة بالتراب معجونة بالشفق الوردي للشمس الغاربة والدماء...

اجري يا ابن الكلب... تتعثر في الجماجم، أطراف الصحاب، أنظر سيقانهم المدلاة من على سبطانات المدافع، الرءوس المحنية ع الرقاب... عيون جاحظة وأخرى فارغة وأفواه مفتوحة عن آخرها تعلن صرخة الموت... ربما تصرخ من الجنون قبل أن تطالها يد المنية... ربما تبكي... ربما تزأر والموت ينشب أظافره في الرقاب الفتية...

ربما كان الملازم سميح... ربما كان الرقيب حسن، ربما كان حضرة الصول عبد المسيح... لا يفرق الموت في اللون... لا يفرق في الرتب لا تحمى خانة الدين أحدا... لمن هذه الكف السخية التي تدلت ممسكة بدانة تلقمها للمدفع؟ لمن هذا الشعر الغزير الملتصق بفروة الرأس يتناثر على سبطانات المدافع؟ ... ومن هؤلاء الرفاق الذين سحقت المدافع المقلوبة أجسادهم؟ ومن هؤلاء الذين بقرت بطونهم؟

أحشاؤهم التي خرجت تزحف تبغي النجاة... اجرى عَلَّ أحدهم لا يزال حيا... اجرى واصرخ.

... **عمّر يا ولَه**...

...**عمّر يا ابن الكلب**... **الحرب لسه ما انتهتش**...

لا تزال طائرات العدو تعبر سماء الجبهة... لا يزال القصف المدفعي... لا تزال أجهزة الرادار تنبئ عن الهجوم المنتظر، نقاط ضئيلة على شاشة الرادار، موجات مهاجمة من جهنم، من يمنعها من التوغل.

الأزيز القادم من الشرق البعيد... تعرفه جيدا... تجرى متجها لمدفع الشيلكا... تصعد إليه... تجرى اختبارات التشغيل... عطب في دورته الإلكترونية... شغل مانيول يا ابن عبد الجليل... انظر إلى الفضاء عبر دوائر التصويب ترقب قدوم الطائرات المعادية... خلايا الجسد تذوب في فولاذ المدفع... طائرة تأتي على مهل في المقدمة... راقبها وأنت تصعد بزاوية سبطانة المدفع الرباعي متقدما مسارها... تشبث بالمدفع جيدا... تفتح النار لحظة دخولها حقل نيرانك... كل شيء يهتز حولك... تنفس مدفعك... كتله واحدة تتحرك بانسجام... يعبرك باطن الطائرة إلى الخلف... تستدير تتابعها، وهى تختفي من السماء في الأفق البعيد... وتبقي انت ومدفعك وحيدين...

من الجنوب وبموازاة القناة عبره سرب من خمس طائرات... دقائق وعبر سرب آخر... تابع إطلاق النيران عليه وهو يختفي شمالا، والمواقع القريبة تتابع ما يجرى بقلق... للمرة الثالثة حلقت الطائرات الخمس فوقه في تشكيلات متنوعة على شكل زهرة الأقحوان، بدا واضحا أن الطيران الإسرائيلي يعربد في الفضاء إذ لم يعد هناك مقاومة... هل انهار سد الدفاع؟

الطائرة الأولى جاءته من الشرق. كانت تطير على ارتفاع منخفض للغاية، أز صوتها بعنف، عبرته دون أن تطلق طلقات مدافع الفيكرز، ربما كان قائدها يسخر منه... ربما كان يلقي إليه بتحية الموت، حيث لا مكان لألعاب قبائل الهلالية في ميدان الموت الميكانيكي... الآن... عبرته طائرتان من الجنوب إلى الشمال وأخريان من الشمال إلى الجنوب... كانوا يقومون بمناورة... ربما تكتيكا ما... وقبل أن يفيق كانت الخامسة أمامه مباشرة... فتح النيران على الفور لثوانٍ قبل أن يسود المكان انفجار رهيب....

صعدت الطائرات الخمس أجواز الفضاء عاليا قبل أن تتهاوى إحداها، وهي تدور حول نفسها ثم ما لبثت أن استقامت مندفعة كالبرق في اتجاهه مباشرة... كان الجميع ينتظر قصفا... لكنها لم تفعل... بل صعدت فوقه مباشرة لترحل مع التشكيل المهاجم باتجاه الشرق...

ثلاث مدرعات يا افندم... ثلاث أفاعي تهم بالانقضاض على الجنب...

* * * *

وسط الصمت كانت إحدى سيارات الجيب تتجول ببطء في مواقع الدفاع الجوي التي دمرت منذ قليل... تحرك متراجعا إلى الوراء قبل أن يغشى عليه ثانية. بعد فترة لا يدرك مقدارها شعر بجسده يهتز، فتح عينيه بصعوبة... لمح وجه المقدم غبريال وثلاثة من وجوه رفاقه تحلق حوله... سمعه يهمس ضاحكا: لسه فيك روح. هز رأسه موافقا... كانت ساقه تؤلمه... عقب محمود: نحمد الله. قال نبيل: طلعت عينهم...

قبل أن يغيب عن الوعي: رايحين فين؟ ابتسم قائده: إلى المؤخرة يا بطل... أولا عشان إصابتك، وثانيا لأنهم يحكمون الحصار.

*   *   *   *

.... **آهـــــــــــــه** ...

دوّى الفضاء بصوت الرصاص... دفعة في الظهر مثل ضربة قبضة ثقيلة... اهتزاز الجسد... تساؤل البرق... هو إيه ده؟ ... على خط القناة أنا أم على حافة الفلا... الاندفاع للأمام... تَرنُح الجسد... ارتفاع الرأس للوراء... خفقة خصلة الشعر الكثيفة راية في الفضاء... ارتفاع الساعدين... كبوة الجواد الراكض على الوهاد... الاندفاع ... الانكفاء إلى الأمام... السقوط بثقل الجسد على الأرض... الارتطام...

... **يا ليل كابس على**...

... **يا ليل ليه الأسية**...

... **قـــــــــــوم**...

... قوم... أشباح الرفاق تصرخ في الفضاء...

قوم يا حصان يا أصيل... يا كريم... يا جمل يا حَمُول... اجرد على سطح الفلا جرد الرياح الدبور... طير على جناح الفضا طير النسور... شق السما... شق السهول... عدد الصحارد والبحور...

... أنا ح اموت هنا...

قوم... اهرب من صيادك المجهول... من مرمى رصاصه وأسرع تجاه الأسفلت... اجرى لأنوار السيارات العابرة، وضوء نوافذ المدن... اجرى من غلظة البدو للحضر...

... ألا ترون... على حافة الورى أرتال المدرعات المعادية... والقبعـات العسـكرية وعصـابات اللصـوص تخـتفي خلـف الأقنعة، تقطع علىَّ الطريق للعودة للوطن... موتى قابع هنا، وما عاد للقدمين أن تتحملا... ما عدت قادر ع النظر، تهيؤات وأخيله، أشباح يا ابن عبد الجليل أشباح...

صـوت طلقـات الرصـاص أم انفجـار القنابـل... الـدم مـن الكتف اليمين على الجسم سايل...

- أنتبـاه... لكـل الفصـائل... تعـبر سـماء كتيبـة اختبـار الصواريخ المعسكرة بجوار مطار القاهرة طائرتان مصريتان طراز ميج 21 من مطار بنى سويف باتجاه الجبهة... الكتيبة متمركـزة بجـوار كتيبـة اختبـار الصـواريخ بغـرض الاختبـار... تطلعنـا للسـماء، الطائرتـان تتقـدمان نحونـا بثبـات، لكـن مـن اتجـاه الجبهـة ولـيس مـن الجنـوب... ثـوان وفتحـت علينـا الحمم... الانفجارات المريعة... مخزن الصواريخ... الانفجار المهول لسائل وقود كتيبة الاختبار... الدمار... اجرى عليهم... اجرى إليهم... مد ايد المساعدة عَلَّ حد في يوم محنتك يمد ايـده لـك... اجـرى إلى جنـود كتيبـة الحراسـة... الأحذيـة... القبعـات، خـوذ الجنـود ملقـاة وحيـدة في الأنحـاء تـنعى أصحابها... اضحك يا موت... قهقه للضحايا... أجساد تطل من الخنادق وكأنها غزلان جزت رءوسها... أطراف الصحاب متقطعـة، متنثـورة في كل حتـة... شـواء معفـر بـالتراب، انظـر سيقانهم العريانة، جواربهم المرتقة مكشوفة للجميع، تحكى عن الفقر المريـع، اجمعها... هذه الأشلاء المحطمة... هذه السـواعد الملتصـقة بأجسـادها... هـذه الوجـوه المذابـة

بالنابالم، ووقود الصواريخ المنفجر... هذه الورود ينطق لحمها المشوي بطراوة الشباب الصغير...

حسام الألفي... العود الأهيف الطويل... راح عمق العينين، وحل محلها لحم سايل على الخدين، عاش طول عمره يفكر في الانتحار... أخواته البنات يكبروه في العمر، بنات ليل يرجعن قبل الفجر، يراهم مع الصحاب على الناصية ينزوي خجلا، يدخل، يصرخ يضربوه، يحاول يرمي واحدة منهم من الشباك، تطل كل نوافذ الحارة، يصيبه العجز والفشل في الدراسة، والشعور بالعبث، يعبث في بنات الناس بالفساد... تزوجت كبراهن وتبعتها الأخرى، فكر في حياة مستقيمة، وأقبل على الدنيا يعوض زمن الفشل، حقق نجاحا في الدراسة، وخطب بعد قصة حب، لكنه مات، و لا تعرف من بودرة النابالم أم من سائل الصواريخ، لأن الوجه كان كالفحم أسود بلون الرماد...

ثروت سعيد ندا، ملازم أول وكان ح يترقى نقيب، عاش حياة، مرفهة بين انفصال أمه عن أبيه، يموت في الفشر والادعاء... اليخت اللي يملكه، سقوط الممثلات الشهيرات في هواه، وعندما يأتي الليل ينام مفزوعا، يقوم هربانا من الكوابيس، يصرخ ينادى أمه، يرقص، وراه المقدم غبريال... تعالى لي يا امه... الآن يرقد في سلام... لا فزع بعد الفزع... ولا خوف بعد الموت الزؤام... ولا بكاء بعد أن جفف الوهج البشع وَلَهب الغضب كل الدموع...

تحكى عن مين ولا مين... أحمد عبد السلام... حداد سمرته من سمار الطين... صوته الأجش... جسده الرفيع الضامر عود خيزران... إيده الواهنة أشد من صلابة الحديد...

في الليل يضحك مع أنفاس الحشيش... أما النهار يمضيه في غضب وشجار مع الجميع، لا فرق بين قادة الكتيبة أو جنودها، لكن أحدا لم يضايقه، لأنه كان أول من ساهم في بناء دشم حائط الصواريخ حول القاهرة... الموت مدبحة... أشلاء مبعثرة... يصعب عليك وصفها... شيء واحد يماثله، صيد قوافل السمك بالديناميت.

... لكنه انكتب له عمر جديد، ولما جند بالجيش طلب الالتحاق بالدفاع الجوي:

- **سلاح الصواريخ، دي دشم يصعب على الجن اقتحامها، رصيت حديدها بإيدى...**

الآن، أصابعه الخمسة مفرودة كأسياخ الحديد، أما أصابع كفه، الشمال فمنطبقة بعنف على صلب السلاح، بعد أن ذاب الجلد واتصل ببعضه... وجهه لا يزال يطل مملوء بالغضب... أين باقي الجسد... لما جذبته لأعلى رفض، وكان منكفئا على السلاح ممسكا به باستماتة...

- **خف أيدك يا أحمد عشان اخدك مستشفى الميدان...**

هز رأسه بالرفض، كان عايز يقول كلام... استعفيت عليه، أقول في بالى ليه يرفض أحمله للأطباء... المرضى دايما يرفضوا المساعدة، أنا الغبي... استعفيت عليه... لما رفعته من تحت باطه كان خفيف... طلع معاى نصفه الأعلى، أما باقي الجسد، الإلية والساقين لم يكونوا موجودين...

عبد الله يا ابن الحمار... الشاب راح يا ولاد... حملته وكل حتة في جتتى مكلبشة بالرعب... أحشاؤه اللي تسربت من تحته، جمعتها... أشلاء مخلوطة بالرمال وحملتها وجريت حامل نصف جثة وأحشاء بتجرجر على التراب، أخفيت بقاياه

عن الرفاق، أصرخ بجنون... افتح يا وَلَه البطانية، وشوف حتة أفرشها فيها... مد إيد المساعدة للحبايب... لم أشلاءهم المبعثرة، غطيهم برفق... أنعى فيهم ورد الشباب الجميل، ومجد الحرب، وروح الانتقام، سلام وتحية لأحمد عبد السلام.

أطلق نفير الشهداء... نوبة رجوع للبطل... نظمي عبد المسيح ميكانيكي ديزل الكتيبة اللي اندفع وجعل من جسمه حاجزا بين تنكات الوقود السائل وبين مخازن الذخيرة... لم يبق سوى وشم الصليب، ورأسه سليم لم يمس، ووجهه المدور الجميل بقايا باهتة، ابتسامته الهادئة تخفي وراءها سخرية عميقة من الوجود، عيناه فقط امتصتها خلخلة الانفجار تاركة كهفين غائرين... نظمي عبد المسيح... أين ذهبت عينيك اللي كانت تضفي ع المكان إحساس الأمان، لا خلاف لا شقاق مع الجنود، الصيانة، وقطع الغيار... كل شيء مطلوب ح يتم مهما كان محال...

تحكى عن مين ولا مين... سيرجى ميخائيلوفتش... لا تفرق الانفجارات في لون الجسد، ولا هوية البشر، خيط الدم الرفيع ينسال من الأنف والأذن، ونظرة الأشباح للفراغ، ورحيل الخلايق إلى حتفها... نقيب في الثامنة والعشرين من العمر، ومعلم تدريب، خبير اختبار صواريخ أرض جو... لم يسعفه القدر كي يحضر معركة النهاية وهو الذي درب أولى كتائب سام (3)،دخلت الحرب، وشكلت أول صخرة في حائط الصواريخ واللي بدونه لم تكن مصر تستطيع عبور القناة... سيرجى ميخائيلوفتش... لا يفرق النابالم في لون الجسد، ولا هوية البشر، ولا الدمار الناتج من قصف القنابل في شكل موت

الجنود، حمرة البشرة الثلجية، خصلة الشعر الذهبية ضاعت ملامحها في اخضرار الموت...

... تحكى عن مين ولا مين... ليه تتوه في دوامات التذكر... قـــوم... قـــوم...

اجرى... ليه الأسفلت لم يظهر، هل تاه الطريق أم ضاعت الاتجاهات... عند مرمى البصر. أرى لسطح البحر انعكاسات... ألم القدم والكتف... يا ابن عبد الجليل... جرها على الرمال... صارت تقيلة زي الشوال... جرها وغد السير نحو... آهــه...

عند اشتباك الأسنة... نركب ظهور الضمر
بالسيف لأبلغ مرادي... لو يطـــول العمــر(**)

ارتطام الجسد بالأرض، لهث الجياد التي أنهكها طول السفر... ح اموت هنا... مستحيل... دا أنا بَعْدِي لسه صغير ع الموت، باقي لي من العمر الكتير... شد رجليك بإيدك... ثقيلة... شوال الطحين... يا وجد يا حزين... وما هذا البلل الرطب... دم... دم... مستحيل... ازحف... توارى من الموت الكامن في الظلام... فين الأمان؟ قـوم... مش قادر... مستحيل...هل ممكن أموت؟ ليه... يا رب عملت إيه؟ عبد الله هو دا وقت الشكية... ازحف... اداري بين الصخور... أيوه هنا كويس... مدد الجسد على الرمال، اسند الظهر في فرجة بين الصخور، واكتم النفس حد ما نشوف نهاية اللعبة، أو يطلع الصباح... يا ترى نهاية اللعبة إيه؟ اخلع جلابية من جلاليبك... قطعها حتت... شد بيها على جرح رجليك المصابة، أوقف نزيف الدم... لكن مال العتمة تأتى بأشباحها

أجساد بلا هامات... هذه الوجوه المشوهة بالدم تتجمع حولك، تلتصق بك، تناديك أن تنقذها من شقائها... لمها... اجمع كل رأس على جسده... هذا ما فعلته... ربما دفنت جثة ناقصة ساق! ... هو كان فيه شيء سليم... قصف النابالم لا يترك من الإنسان هذا الشيء الجميل سوى أشلاء مشوهة... تريح يا ابن عبد الجليل... تريح شويه... التقط أنفاسك... قبل ما تنطلق من جديد... لكن ما بال الجسد أصابه الوهن يا رب إيه العمل رحمتك... أشباح... أرى أشباحا على صفحة الرمال، وأسمع صهيل الخيول، من أين تأتى؟ ... أهي الحياة أم الموت... الأفول أم البزوغ؟

يا ليل أنا والخيل لما تكحل بالدما   والريح لما في البر زاد مداه
من ريس البحرين منهم واشتهر   والمنحدر م المستقر أهو تاه
هاتوا الميدان بينهم وفرقوا حدوده   لقوا الميدان كالبحر زاد أساه
والخيل زي مراكب الميه   والريح جاي عاصف بكل أساه

نادى شبح ابن رضوان...

... الآن أموت... يجب أن تظهر المدرعات...

... **قـــــــــــوم** ...

... **قـــوم** ... **فـز**... اقفز كذئب الفلا، حتى لو كنت جريحا حتما تعود لمأواك....

- **أين المدرعات؟**
- **قوم ... قوم يا عبد الله، دايما معرض جسدك لكل أنواع الردى... اجري واهرب من السكون، قاوم المنون.**
- **المدرعات... أين المدرعات؟**

... عن المدرعات لا تسل فقد خرجت ترعى للقتل منذ مئات السنين... قتلها الكهنة، ومعاوية وابن العاص، وجبرية الجهمية، وحدسية الغزالي... عن المدرعات لا تسل، لأن المدرعات خاصتها الحركة، والحركة لزوم العقل، والعقل لزومه الحرية، وقد استأصلوها منذ مئات السنين... تركوا لنا عقلا نباتيا... قاتل واخرج من دائرة العقل المحاصر إلى العقل الحر الخالص... قاتل... فوجودك في العالم على وشك التلاشي...

أوقف الذهن عن الحديث بصوت مسموع... أنصت، اصغ يا ابن عبد الجليل... هذه الأصوات تحملها إليك الرياح... خطوات الأقدام... ها هم يقتفون آثار أقدامك في الظلام... الويل لك يا ابن عبد الجليل الويل لك... بينك وبين الموت شعرة... يا رب بعد كل هذا المرار... مستحيل...عملت إيه أنا... اصغ السمع يا ابن عبد الجيل بطل بكاء... طبع الرجال في الصعاب يبان، أوقف الذهن عن الحديث بصوت مسموع...

... لهجة ليبية أم لهجة الأعراب؟ ... مصريين؟ يقتفون آثار أقدامك في الظلام... الويل لك يا ابن عبد الجليل... الويل لك... لا تظهر الرياح لهجة السفاح... أقال... هذا هو الزب... أم قال هو دا الكلب؟

... وجيب القلب وابور سكة حديد... ظل الظلام الذي أخفى عنى وجه السماء... أشباح رجال أربعة... أحدهم انحنى... عسكري مصري أو ليبي ربما من أولاد على؟ ... الجيش المصري مستحيل... هل هو الحاج حميدة... يا ربي لا أعتقد... يده تعبث في جسدك تبحث عن فلوسك... الحاج حميدة... لا أعتقد... لا تستطيع النظر برغم انحنائه عليك...

يا لوهن الجسد... أهذى هذيان الموت... من أين جاء الموت... من أطلق الرصاص...

... أنا فين؟ على شط القنال ولا على حد الفلا... صوت القصف الجوي جي منين؟ ... اجرى على المدفع يا وَلَه... اجرى يا محمود، يا نبيل، يا مبروك... واد يا أبو رحاب انت فين؟ ... في قاع وادي الكوف، أم على لوحة رادار الرصد؟ ... اجرى يا ابن الكلب... حملوا الذخيرة من الخطوط الخلفية... الطيران الإسرائيلي مش هفية...

... بس أنا بهذي... الحرب... دا كان زمان... انت فين الآن؟ دوامات الذاكرة... دوامة النسيان... افتقاد الأمان... من أطلق الرصاص؟ مين سلب شقا غربتي وعمري... عصابات أولاد على؟ ... هم واحد ولا عشرة... أربعة وراهم عسكر كتير، ولا دي زغللة العين... مين أطلق الرصاص يا ابن عبد الجليل... ولا ح تموت من غير ما تعرف قاتلك... يا رب اعميهم... ما يعثروا فيك...شقوا الهدوم عنك... أيده عثرت على الفلوس... مستحيل... ابعد ايديك يا ابن الكلب ابعد عن فلوسي شقا عمري التعيس...

تدفع الشبح الذي يعبث بملابسك بكل قوتك، تقوم تحاول الفرار... كعب البندقية الصلب في مؤخرة الدماغ... السقوط في دائرة الفراغ وهاوية بلا قرار... الغثيان وغيبوبة النسيان...

* * * *

الفصل الأربعون

انتباه... انتباه...

أطلقوا النفير... أطلقوا لحن نوبة رجوع للسماء... اضربوا في الفضاء البكر طلقات دانات المدفعية... انشدوا التحية للشهيد... ألقوا بجثته في حفرٍ مجهولة... هِيلوا عليه التراب... حيث لا يجب التذكر...

انتبـــاه ...

حان أوان توزيع الغنائم، وانتهاك جسد الوطن النبيل ... كل من خان شرفه وذمته، يمد سكينه، ويقطع من جسد الغلابة... ينتهك مصر الصبية... مصر العجوز المريضة... مصر الدميمة...

انتباه... انتباه...

أطلقوا النفير وسط الفرح والابتهاج... وسط البلادة للضمير اللي مات... واختموا عليه جميعا بالشمع الأحمر... أنتهى ومات من سكات...

أرعبوا الأطفال باسم الدين... اجعلوا اللّه مماثلا للجحيم...
دمروا التعليم... اشطبوا عقولهم كي ما يبزغ الدين
الجديد... يعبدوا آلهة البلادة... يعبدوا آلهة المتاهة...
ترتفع ع العرش آلهة الفساد...

* * * *

- 1 -

شمسُ الصباحِ حلّت على الأرض البراح، افتح عينيك بصعوبة وإعياء، انظر وأنت وسط بركة الدماء، هدومك الممزقة بشفرة المدية، تكشف عُرى البطن، شال جِدك الأبيض مُلّوث بالدماء مرمي على مرمى البصر، ليه الصباح أسود من ظلام الليل... انسرقت... جمجمة الرأس خواء وفحيح... خلايا العقل مكشوفة في العراء، مشدودة كالوتر... ألمْ... ألمْ... أُريد أن أغتسل... ألمْ... ألمٌ ساخنٌ مريرٌ... صُداع... شلالات البكاء... عزة النفس لما الزمن يتحكم في ابن الأصول...

النشيج، كل قطعة من الجسد تنفض... أنهار الدموع على الخد... طعم الملح في اللسان... أنعى نفسك بحزن... عمرك ما بكيت... معلش أي ذنب ارتكبت يا رب... أي ذنب ارتكبه ملايين عبروا الحدود... دا شيء ماله علاقة بربنا... وإلا ح يكون الحساب كفر... قوم يا حبيبي قوم... قوم شوف بِركة الدّم... بكاي فك الأربطة... قوم دافع عن حياتك... بينك وبين الموت شعرة... لو أقدر أفهم إيه جرى! إيه اللي بيحصل على وجه البسيطة... لا يرى المرء إلا صورا متجزأة... ليه يطاردني

الانحطـاط والفشـل... ليـه طـريقي كلـه مسـتنقعات، شراك للموت الطويل... ابكي... ابكي يا عبد الله... خلى الدموع تبرد نـار القلب، تطفي لهب الـدماغ القايـد حرائـق... يـا حبيبـي مـا تعيطش... هو الأبطال بتبكي... بكاي كان خوف أم اندهاش...

... المـوت أتاني على حين غرة... ح دُوق كأس المنية... لا ح شـوف ابـني ولا أرجـع سـدود... سـت سـنين عـلى الجبهـة، طيران إسرائيلي، وقصف مدفعي يومي، هجوم المدرعات... كل أسـباب المـوت المقنعـة... طـب إزاي أمـوت هنـا في الفضـاء غريـب... وأنـا ع المـوت بعـدى صـغير... مـن ذا الـذي رمى بي للـردي واقتـنص الغنـائم... مـن المسـئول؟ ولا الجريمـة ح اتمضى. بلا حساب... احنا حاربنا سواء، لم يفرق الموت بين الفلاحين وقادة العسكر... فين قبرك؟ فين تربتك؟ يا غربتك... حتى جثتك مصيرها للعراء... وليه الطائرات الميج بتقصف باتجاه الغرب؟ هو أنا على شط القناة ولا على حد الفلا؟

كانت الإجازة لحظة استراحة من انتظار الموت، والعودة للجبهة عودة للموت، يخطف حياة الرفاق... يقطف رءوس الأحبة، يبقي الدور عليك... هو أنا فين؟ على شط القناة أم عـلى حـدود الفـلا؟ ومـا صـوت هـذه الطـائرات؟ هـل تقصـف العدو في الممرات ولا مساعد وطبرق؟ مين اللي أخرج الموت مـن عقالـه. يـا تـرى رجعـت يـا مفتـاح ويـا جـبران بنغـازي، ولا مـرابطين عـلى الحـدود... مـين الـلي يلعـب بـالخلايق، ويقـامر بأرواح نصف مليون مصري...

... قوم بلاش فلسفة... ازحف إلى الأسفلت... شد رجلك المصابة شبر شبر... علك تلاقي من يساعدك، ساعدت كتير مـن النـاس وآن رد الجميـل... لا تمـوت في جـوف المغـارات،

ازحف للفضاء الوسيع، القى بجتتك للصحراء، إزريها للرياح... علها تحمل روحك الضائعة للوطن، لا تكون محمد أبو رحاب... اخنق العبرات في الحلق بزفرات الشجن، بالغضب الحزين... ابكيه وابك نفسك، ابكي نزيل السجن، وانت بتزحف لتبة الرمال البعيدة.

ها هي الشمس من الشرق طلّة، والرياح تأتي حاملة رائحة البحر... خُطوة خُطوة باتجاه الأسفلت، إلى المسارات العابرة والبشر... يعتر فيك من ينقذك من فم الموت المخيف... بدل الدموع يكفي دمك المسفوح، اضغط على الآلام، ازحف لابنك الوليد... ح تلاقيه يلاعب العشب والطين...

هذا الدوي المكتوم. صوت انفجارات مخازن الذخيرة... كانوا يبغون تسليمها لمصر... ازحف وبطّل فلسفة... هو فيه حد بيعطي حاجة ببلاش؟ لو يعثر عليك رجال الجيش، كنت أبرزت بطاقة مصابي الحرب... ازحف إذن... علَّ سرية تراك أو عسكري شارد يقضي حاجته في الخلا... ازحف وشم ريحة البحر... ميل بجسدك اللي عاث فيه الضعف من نزيف الدماء... اصعد تبة الرّمال... ها هو صوت البحر وضجيج السيارات، الأسفلت الأسود شريط صغير، شريان يعبر عليه البشر للأنحاء وللحياة... كم المسافة متين متر... لا... في هذه الصحراء خمسمائة متر، انظر على حافة الأسفلت... تتشكل وجوه وتختفي... مال عيني لا ترى سوى المدرعات المعادية، القبعات والهراوات، قنابل الدخان وانعدام الأمان، جيوش مرصوصة من اللصوص تتوارى خلف الأقنعة، تقطع عليك الطريق إلى الأسفلت القريب...

... أشباح... هذه أشباح... نام... نام... راسك بتلف بيك... ريحها ونام... عبد الرحيم يا خوى ح اموت، أمه، نعمات، إبراهيم... الله يسامحكم... وي... نجاة...

- ج -

يــــــــاه ...

الشمس صارت في كبد السما، وانت بعد في مكانك لا تستطيع الحركة... فوق من منامك، انصرف قبل ما يفوت الأوان... حاول... ازحف... جهّز مكان لك، واعدل من جسدك المنهار، مد رجليك، اربط جرح الدم وامنع النزيف، استعدل قعدتك، عَلَّ أحد يراك... لو أن أخوي سأعنى... لكن إزاي؟ المكان صار قليل والنفوس ضاقت بالجميع، لهفي عليك يا أبني من زمن الجياع والوحوش، ما حد يتحمل هم غيره...

كنت عايزك دكتور في قلبه رحمة، أو مهندس شريف، عالم رياضة تقدر تحل ألغاز الحياة... الجيش المصري يهاجم ليبيا ليه... آلاف ماتوا هنا... طوتهم الرمال... تم اغتيالهم غيلة وغدرا، وهم في طريقهم للرزق، مين سأل عنهم؟ مين دافع عنى؟ علام الحرب مع ليبيا إذ لم أكن أنا... من أطلق الموت من عقاله؟ ولأي مصلحة؟

دوار ودوخة في الدماغ... اغفي قليلا... نام على لحم العظام... استعيد وجه قاتلك في المنام... ليه هو أنا ح اموت؟ وحيد ما في حد جنبي... مستحيل... دي ما في جنازة خرجت من سدود، إلا وكنت حامل نعشها، أتعارك مع الرجال لأجل أهوِن الحمْل الثقيل، علّ أحد يتخانق على حمل نعشك لما

تنولك المنية... يقرأ الصحاب على روحك الفاتحة، يتذكرك الخلق بالرحمة... وحيد يا ابن عبد الجليل... الموت ينال منك وحيدا، لا تعرف سبب موتك، ولا وجه قاتلك... حكمة ربنا... يد القضاء والقدر... لا... هذا موت الفساد... مافيا الأسفلت... تجار العملة، الشرطة، الحاج حميدة... هل كانت جثة حسن مرعى الممزقة وسط أشلاء سبع جثث على السكة الحديد، قضاء الله أم فساد المشرفين على نظام السكة الحديد؟ ... هل كانت اليد القابضة على منجل الموت اللي حش رءوس الرجال على القنال... يد الله أم يد العدو الإسرائيلي؟

... **الحيـــــــــــاة**...

الحياةُ تذكرةُ للجحيمْ... قطارٌ سريعٌ للموتْ...

جسر للوحشة... يا لهف جسد مرتك للرجال، ويُتمْ ابنك المبكر... الحياة طول العمر ملتاعين؟ لا يعرفوا إن كنت عايش في بلاد الغربة، أم أسير زمهرير الموت والصقيع... نار العذاب والشك... تطوحهم الشائعات...

- عبد الله يا أم عبد الرحيم شفناه في بنغازي...
- حد كلمه؟
- لا... يمكن الواد ابن مِسعدة...
- عبد الله يا عبد الرحيم شفناه مجاور للسّيد البدوي مع المجاذيب.
- قال لحد حاجة؟ ومين جاب الخبر؟
- أيوه... وقال أنا جاي...

يا ربي... مش كفاية عذابي، ليه تعذّب أحبابي؟

... سـدود... يـا عبـق وردة مـن الهـوى في فسـاد الـزمن... الخروج من رحمك آلام... لـم يكـن في هـذا الـوطن للفلاحـين مكان... نمل... نحل شغيلة... أما البشر... !!

... سدود... يا واحة من الدمار المرير... أين المصير... من قـوادي القـاهرة العـاهرة... تجّـار الموبقـات، والـذين يختفـون خلف البدل المرصّعة بالنجوم...

الـزمن يمـر عليـك قطـر غشـيم يسـحقك ولا يحميـك... يسرقك ولا أحد يطل عليك... طلع بطاقة مصابي الحرب يا وَلَه... امسكها في ايديك كويس، حد يعثر عليك حي أو ميت يتعرف عليك، تحن في قلبه الشفقة على أهلك، يحميهم من لوعة الجهل بمصيرك... مثواك الأخير... مستحيل... يحمل جثتك في سيارة الموتى إلى بلدك، تنام النوم الأخير... يمكن يحملك في إسعاف للمدن القريبة، عَلَّ حد يعالجك...

هـــــــــــه...

تبا لك ولأحلامك الهلالية...

زعمك تعيش يا ابن عبد الجليل... زعمك تعيش!! تحلم بالحيـاة... نزفـت كـل الـدم الـلي في عروقـك... لـو وقعـت في مستشفى أميري؟ ح يعاملوك زي مرضى الجذام، ولو مستشفى خاصه ح يقفلوا الباب في وشك، الفلوس قبل الدخول... ما عـاد في قلـوب النـاس رحمـة ليـه؟ الحيـاة صـارت رخيصـة، والموت سهل المنال...

يا آمال العمر اللي تسربت في الرمال.

مين علمك الحلم يا ابن عبد الجليل مين علمك؟ ... بؤس الشوارع أم وحل الحواري؟ الخوض في روث البهائم أم الجوع لحب الناس؟

مين علمك الحلم يا ابن عبد الجليل؟ مين علمك يا ابن الكلب؟ البرد تحت المطر، والنوم على زوايا الدور وشطوط الترع، أم ضيق المكان؟ ... انعدام النَّفَس في القيعان؟ جدران من هباب، تنفس دخان الفرن... تضيق السما الصافية... تبهت أضواء النجوم، تتوه في المدى خلف الرزانة الصغيرة.

مين اللي علمك الحلم يا ابن الكلب؟ مين علمك يا حمار يا لئيم؟ ... الحلم بدفء الشتاء والجوع المرير... أم ضيق النفوس وبؤس المشاعر؟ ... النوم على طوى البطون ولا جفاف القلوب.

مين اللي علمك الحلم يا ابن عبد الجليل؟ ... مين؟ ... العزيق في سباخ الزرايب عند الغُرْب ولا السرح بالبهايم في الغيطان؟ انت باتجاه الغيط، والصحاب باتجاه المدرسة... جدك المهاب أم خالك أبو خطاب... القربة[73] اللي جريت وراك من جميزة القراموس لحد باب الدار، والعنزة المقطوعة الراس، والساحرة العجوزة تسير بقدم عنزة، وتطير على مقشة، والجان وأرض الجنان. الغريب اللي طُرد من بلده مظلوم، ولما دخل المدينة وحط على راسه الطائر الأبيض، توج ملكا على الجموع... هل كانت هذه مدينة الحياة، أو أن هذا طائر الموت الجميل.

الشمعدان العظيم، يخرج منه للشجعان أحجار كريمة، وحور حسان... أما الجبان فسبعة من العبيد السود يضربوه بالسياط حتى الصباح... غضب سيدي إبراهيم الدسوقي لما اختل في يد القدر ميزان العدالة... يثور سيدي الدسوقي أمام

73) القربة: جلد الماعز بعد سلخه، ويعمل منه قربة لخض اللبن، ويشار إلى أنها أحد أنواع الجن التي تطارد الفلاحين أثناء عودتهم من الحقول ليلا.

المشيئة... الظلم يطوى البشر... يطوى الحياة تحت جناح الظلام، يا رب فاق الامتحان قدره الإنسان... ينزل بجسده النار... يملا الجحيم بجسده الشريف... تبرد الكف العفية النار، لونها الأشهب يقطر بالبرودة... يحل الثلج على الجحيم... يصرخ على الخطاة، اذهبوا فأنتم الطلقاء...

يهيج عقلك الصغير... التساؤل المر ولا إجابة سوى شوق للعدل والحرية... وعيشه بلا حراس ولا أباطرة تنهش لحم الناس، سيدنا المبجل إبراهيم الدسوقي... عندي سؤال... هل فيه فرق بين القضاء والقدر وبين ميزان العدل؟ ... هل فيه مساحة بين المشيئة وقدرة البشر؟ ... هل يستطيع الإنسان في المسافة اللي أشرعت فيها سيف العدل... أن يقاوم قدره؟ ... أم يرقد بانتظار ما لا يأتي؟ ... سيدي إبراهيم... أرجوك... احضر في الحال...لا يزال الظلم في كل مكان، لا يزال اضطهاد الفلاحين ظلا لهم... لا زالت الحياة في حاجة لرحمتك... يا ابن عبد الجليل الله يجحمك... مريض بالوهم والأفكار فاكر نداء الصول على الجنود بعد انتهاء الحرب...

- كتيبة خطوة معتادة... معتدل مارش...

يتحرك الجنود؛ تلبيةً للنداء، بالسير على اللحن الذي يصيغه الصُول العظيم.

- اطلع من الفخد... انزل من الكعب...

- يا ابن الكلب... كتيبة... قف.

انضُ عنك ملابسك، واغتسل في البحر... اغسل عنك الرمال، وسخك الجسدي، جربك النفسي، قبل أن تطالك يد المنون، وهذا الزمن الملعون...

مين علمك الحلم يا ابن عبد الجليل؟ ...

مين اللي أطلق في عقلك الصغير السؤال اللعين؟

مين علمك فتح الباب الأربعين؟ ...

ترى الرخ العجيب، والبحور السبعة، وأرض الجان، وجزر الجنان، وبنات الحور، والقصر المسحور، تدخل على الغول اللعين، تخطف الأميرة والحياة الرغيدة، شهر من العسل والتين، وآخر من الزيتون والحلم الميمون؟

- **يا حزن حلمك الدفين؟ ... مين اللي علمك يا مسكين؟ ... مين علمك التساؤل اللعين؟ ... مين أشار عليك بفتح الباب الأربعين...**

لأن التسعة وثلاثين باب غير موجودين... لا ذهب المعز، ولا فضة صفي الدين، ولا جواري هارون الرشيد الحسان، ولا قصور علاء الدين، ولا أميرات الجن الأزرق، وقصورها المشيدة في قاع بحر الزبرجد... ولا حتى ح تنال نصيبك في الحياة يا قصير العمر... ادفع ثمن أحلامك، موت وحيد غريب، طريدة يطاردها الصيادون على حدود الفلا... سحابة صيف لا يعرف من أين جاءت وإلى أين تسير؟ ... موت... موت وحيد غريب... لا ركبت خيول الهلالية، ولا مسكت مصباح علاء الدين... وقعت في فخ الباب الأربعين... أطاح بك السفاح، وجشعه اللعين، موت غريب، تنهش في لحمك ذرات الرمال، تطويك الرياح... ربما يعثر عليك وربما لا...

ربما يعثر على عضمك غريب، يسأل وهو يبتعد من الخوف... عظم كلب ضال من أضواء المدن، ولا بشر. تاه في البجادي... صابك الدوار من جديد... عينيك بتغفي غصب عنك... المدرعات... ربما لا تزال تبحث عنك... عن أي المدرعات تسأل... تلك التي أضاعها تاجر الجبن، أم بائع

العسل المغشوش... أم سماسرة الأسلحة، تجار المخدرات والأغذية الفاسدة...

لغز عبد الحكيم عامر والسادات، غريب كلغز الشمعدان... موتك جرى وحكم عليك بيه القضاء، يوم أن عجزت المدرعات عن الدفاع عنك. ساعتها قرر السادة أن يعيشوا وحدهم ويتركوا الموت للجنود... يطلقوا كل أنواع المنون... الفقر والجهل والمرض... يعبدوا روح الفساد يجعلوا منه إلها لهم... نقدم نحن له القرابين... القيء الذي يقيئه الوطن... حكم العبيد والعسكر وطبقه المنصر... اغفي وروح في النوم إذن... اغفي وروح في النوم...

... آهـــــــــه...

... الشمس مالت للربع الثالث من السماء... السكون والصمت حال في الكون... ما عدت قادرا على السمع يا عبد الله... خواء... ملعون... صدى مكتوم... طريق الأسفلت الشوف فيه معدوم.

... يا خلق...

... يا خلق...

... يا خلق... هووووووه ...

... لا خرج من الفم صوت... ولا رجع من الكون الصدى... الموج على البحر يجرى، والسماء ملء البصر، والسيارات على الطريق تنهب من العمر السفر...

السكـــــــــون...

السكون حال في الكون... لا... انت اللي مُصاب بالصمم...
هذه النسور في السما تنعق... ولموج البحر في التقائه بالشاطئ

الـصخري دمد مة... وللر ياح عواء في قـلب الكـهوف، و فوق الفيافي والفلا...

السكـــــــون...

تروح اليقظة من الذهن التعب وتعود... يأتي البصر. روح السكون، السماء ملء النظر والموج على البحر يجرى، والسيارات تنهب الطريق، والنسور في الافق تسبح على جناح الريح... لحظة كالبرق يذهب كل شيء، يبقي الظلام في الذهن الكليل... بؤر ضوء في العقل تضيء طفلا مقيدا في الليل على جذع جميزة تناوشه العفاريت والجنيات... طفلا في الثانية عشرة يهتف بصوت مسموع... تحيا الجمهورية العربية المتحدة... صفوف من الجند في ساحة الميدان... قدم موضوعه في الجبس... والجسد المنتصب مشدود للأمام... يتقدم نحوه اللواء الغمري... نيشان... وسام... شهادة أداء الأعمال البطولية... انفجارات القنابل النابالم... دوي الصواريخ... الكتل الصغيرة القاتلة للقنابل العنقودية مندفعة كالبرق تحش الرقاب... الأحشاء... اللحم المحترق... الصوت الضعيف لقدوم طائرات من بعيد... يجئ وئيدا قويا عنيفا... يرتفع الدوى... الدوى... تخترق الطائرات المهاجمة لطبرق حاجز الصوت... تخترق حاجز الذاكرة... يهتز الجسد بعنف الدوى المسموع، لا تلبث القدرة على السماع تتلاشى مع صوت الطائرات الراحلة... تضيق دائرة المدرعات والقبعات والعصى والهراوات والأقنعة.

...**السكـــــــون** ...

... **السكون حال في الكون... لا... انت اللي مصاب بالصمم... هذه النسور في السما تنعق... ولموج البحر في التقائه بالشاطئ**

الصخري دمدمة... وللرياح عواء في قلب الكون وفوق الفيافي والفلا... الآن تتلاشى الصور ويحل الظلام.

... بقعة ضوء تطل من وراء زجاج سميك... صوت القطار يعبر محطة كمشوش كاشفا عن الحقول في المدى... صفوف الأشجار متراشقة على جسور الترع... خط الأفق بين خضرة الحقول والسماء... عنده تتكئ سدود على خاصرة الفضاء... هناك حيث تصل الدور بين خضرة سنابل القمح وزرقة الكون الفسيح، السحاب، تربطهما مئذنتان، وصليب وحزم لا نهاية لها من عيدان الحطب... الدروب الملتوية الطويلة... لعب الشيوخ السيجا في رمضان. ختمة القرآن في المنادر، السهر ليلة العيد حتى الصباح، وفي الفجر برجاس الحمير والخيول، سباق الشباب بين النواحي... طوابير الرجال والشباب بعد صلاة العيد تلف نواحي البلد للتهنئة... المولد النبوي الشريف... مندرة الشيخ إبراهيم خضير بحري البلد... يتدافع الرجال لتقبيل يد شيخ طاهر الذيل منور الوجه...

الحياة شريط في الذاكرة... انطباع مباشر لتاريخ إنسان يموت... صمت... سكون... طويل... ظلام في العقل... غيبوبة الوهن والضعف... الارتخاء كما تشرب الرمال سيل المياه... الارتخاء كما تنام أشعة القمر على أوراق الشجر...

ألم مرير ينفجر كانفجار وقود كتيبة الصواريخ في مرابضها... تهيج الأرض، ينتشر الغبار في الفضاء، يحل الظلام، على أطرافه زرقة وهج الحرائق واللهب، تصبح صفحة السما متشربة بالدماء... يا عتمة النظر في ظلام العقل... يا صوت نفير الحرب... يا لحن نوبة رجوع للشهيد وسط طلقات

الرصــاص... تنطلــق البنــادق في الفضــاء بالتحيــة وأعمــدة الدخان، وصبي في الثانية عشرة يصرخ أمام العلم بالتحية...

تحيا الجمهورية العربية المتحدة.

السكـــــــــــون...

... **السكون حال في الكون**... لا... انت مصاب بالصمم... الآن تتلاشى الصور ويحل الظلام... بقعة ضوء من خلف زجاج سميك... ارتقاء السطوح... الجوع يلح بسرقة كيزان الذرة لشراء سردين مملح وفحل البصل ورغيفين بتاو... زوجة أبيك تطلق فيه روح الانتقام... قسوة الضرب بالفرقلة ولذع برد الشتاء... خيالات الجان وروح الجميزة، جنية... نعمات ترميك بحذاء قديم... المهانة... قلب طفل يبكى بلا توقف... جدك المهاب عبد الجليل والحرب القديمة... عمك مصطفي أبو النصر... العفيفي... العراك بالشوم... وسيطرة الزوايدة على الميه من بهواش... يا حضرة البيه الحاكم بأمره على بهواش... لا تمنع عن سدود الميه... الأرض عطشانة والعيال... كل ما نملك من دهب نعطيه لك إتاوة، بس افتح علينا الميه نروى الزرع... الزرع بيموت من العطش وح نموت معاه...

ساحة القرية، أرض المستنقعات القديمة... وكل أهل البلد سهرانين في ضوء الكلوبات والمشاعل... الشاعر يغنى على الربابة، عن عرب عَربة، أصحاب النفير والحربة، وعن فارس الفوارس الأمير سلامة، نصير الضعفاء والمنبوذين، يهزم الطواغيت... تكبر مع أبو زيد الهلالي... تركب جياد الصعب، ترمى بجسدك لنواهل الرماح وامتشاق السلاح... سيف المستحيل...

غـنِ بصـوت مسـموع، إن كنـت لا تسـتطيع... هالـة مـن الذاكرة... خيال في المخ... تهويمات لا تنبس بها الشفايف... لا ينبس اللسان بالصوت...

ء ن د... مـــــند احتـــ .... ســـبـــاق الأسنة
نـــ ررر كب ظهـــ ..... ـــــور الضُمر
بالسيف لأبـــــــ.......ـــلغ
مـــــــر.....رادي
لو لو لو لو يطـ..........ـــــــــــــول
لوووووو بطول العمر
احنا سمعنا مَثَل ناس
قبلنا قالوا..................... الشاب
اللي يحيب اللقا
اللي يحيب الوفى
اللي يحيب القتـال... القتـــــــــــــــــــــــــال
يوصفوه بطول العمر
... آهـــــــــــــه ...

... آهه يا ابن عبد الجليل... تبا لك ولأحلامك الجنونية... أحمق من يغنى للهلالية... سدود... يا هوى مشبوب... الحياه خارج حدودك عدم... تذكرة للندم... اغف يا ابن عبد الجليل إغفاءة المحارب في زمن الجرب... الوقت بيمر ولا أحد يطل عليك... غـوص في بحـر الـوهن، وانسـياب الـدم عـلى صفحة السـما... بحـيرة حمـراء لزجـة عـلى صـفحة مـن الزرقـة اللانهائيـة... لازورد... لازورد... نـام اغـف، غـوص في غياهـب الصمت... اسقط في بئر السكون اللانهائي... ازحف في مغارة ظلام العقل... نام كما يغفو المحارب بين الكر والفر... تعلق

على صليب القلق وانعدام التماسك، وانخفاض سعر الجنيه المصري، وسيطرة الأوباش على مقادير الوطن...

- 3 -

لحظات قليلة ويحل الغروب... **قـــــــــــــــــــوم**... **قـــــــوم**... **قوم إلى البحر القريب**... اغتسل قبل ما تنول منك المنية، قبل ما تقبض روحك المنون، غالب الضعف والوهن... الحياة قدامك هناك وانت غير قادر على مسها... الأسفلت الأسود طوق نجاتك وأن كنت أشعر... فات الأوان... الوقت بيمر ولا واحد عاوز يطل عليك... روح بتطلب النجاة، ولا من يشوف ويمد يد المساعدة... ما هذا العمى الذي أصاب الناس... لو أنك الآن على الأسفلت يمكن يدهسوك... العمى في القلوب قبل البصر... مد أيدك شوية... ازحف إلى طوق الأمان إلمس الأسفلت بإيدك، كما يمسك الغريق طوق الأمان... ارم بجسدك من فوق تبة الرمال ما دام العمى أصاب البشر... ازحف وقاوم للأمام...

خـــطـــوة........................ **خـــ طـــ وتـين**

تـــــ .... **لا ته** ... **اررر ررر اررررررربعة**

خمــســــــة...

تمـــــــانـــيــــــة...

تــــــــســــــــــــعة

... **ع ـــــــــــــــــــشـــــــــــــــــــــــرة**

- 4 -

السماء بلون الشفق، والغروب قاني بلون الدم، والشمس فوق جبين البحر تستريح ثواني قبل أن تسقط في كهف الغروب بعد مشوارها الطويل عبر المجرة... خلاص انهت عملها هنا وراحت تستريح... يا رياح البحر الجميل... طرى وجهي العليل من العطش والجوع... وارسلي لأبنى نسمة علّها؟ ؟ ؟ ...

من زمن وأنت مصاب بالصمم، والظلام يروح ويرجع لكنى أرى الفضاء الفسيح... هذه السماء هذا البحر هذا الزبد... هذه الشمس لما تختفي في الغروب ترحل روحي معاها... لن ترى نهاية الليل إذن... نعم ولا الصباح... الآن كل شيء يستوي... ولا يشقيني سوى يتم ابني الوليد...

... سوف يبكي من الشقاء، تنزل دموعه على وجهه الوديع، لا تجد بين الوحوش كفا يمسحها... ربما لا يرى النور، ربما يرى ما لم أراه... نهاية هذا الليل البهيم... ربما لا يستطيع العَّلام... يغيب في سجن الجهل والظلام... بركة العسكر وشلة المنصر... ربما يباع في سوق النخاسة... مين البائع ومين المشتري؟ ... مين النخاس؟

... الآن كل شيء سواء... هذا الفضاء الوسيع الرحب... قبة السما وزرقتها الصافية، لازورد البحر الداكن... الزبرجد، حوم النسور في الأفق... دمدمة الموج في التقائه بالشاطئ الصخري... شريط الأسفلت الفاصل بين رمال الصحراء وامتداد الأراضي السبخة، قبل الشاطئ الصخري وِسَادَة البحر العظيم... هذه الفلا... هذه الصحراء... هذه الكثبان... هذه

الأمواج المحملة بالعطش... هذه الجبال الشاهقة، قممها المعتمة ترمق موتك في جلال، أم ضباع يتلمظ لعابها بانتظار الوليمة القادمة؟ ...

هذه الرمال، هذه الأعشاب الشوكية... هذا الهدوء... هذا السكون... هذه السيارات المسرعة تحمل في جوفها بشرا في طريقهم للحياة... هذه الصفوف المتراصة من المدرعات، والقبعات، والعصى، والهراوات، واللصوص الذين يختفون وراء الأقنعة، لا تزال تقترب... تضيق عليك الخناق... ما هذا العمى الذي أصاب الناس، أين أنا؟ على حافة التقاء البحر والصحراء، أم على أعتاب برزخ الموت الرهيب... برد... برد الموت أم زمهرير... يا عبد الجليل الكبير... يا خال أبو خطاب... حرامك الصوف... العمى صاب الخلايق...

ضم خلقاتك على جتتك... الليل طويل، والوقت يمضي. ولا حد يمر عليك... دمعة من عينيك طعمها على الشفايف مر... لا يرحل الفخر من عينيك، حتى لو كان المصاب علقم مر... مد ساقيك للأمام واتكئ بظهرك على تلال الرمال... ازحف بعينيك للأمام، مد النظر للحياة البعيدة، ما أبعد الأسفلت؟ ... تاه لونه الآن في الظلام... يحده ضوء السيارات الضعيف... غوص في الوهن... في الصمت العميق... جلال السكون...

غوص في الوهن... في الصمت العميق، نام كما ينام المسافر بعد طول السفر، كما تنساب مراكب العشاق على سطح النيل الجميل، كما ينام الوليد على صدر أمه يطلب الحنان، غوص في جلال السكون... والامتنان لهذا الكون... كل

شيء غـاب الآن في الظـلام، كـل شيء ضـاع في عتمـة المـوت الزؤام...

... فرجـة الضـوء الصــغيرة تنفـتح عــلى عـالم سريــع التشـوهات... الوقـوف تحـت العلـم، اللهـاث بـين الشـوارع... الكتيبة التي استشهد جنودها ثلاث مرات... اصطفاف الجنود والبروجي... الوسام.

... نجـاة... كمـال، رضـوان، حسـن خليـل، أحمـد عبـد الحلـيم، سـدود... تتضـارب الوجـوه... تتقابـل... تتحـول إلى حيـات تنهشـك... تـرى وجوهـا تعرفهـا... الآن تـبزغ أشـباح قاتليك؛ الـورداني، مختار السـيد، مجاهـد، عبد العلـيم، تجار العملـة، الأغذيـة الفاسـدة، العقيـد، حميـدة، عبـد الـرحيم، قصـف القنابـل، المـدرعات الإسرائيليـة الـثلاث، أفـاعٍ شرسـة تسـتعد للانقضـاض مـن المجنبـة، الهجـوم... المـدرعات والقبعـات والهـراوات والأقنعـة، الانسـحاب إلى الخلـف، الارتعـاد، مـد يـديك وأنـت محمـوم، تـدفع عـن نفسـك شـبح المـوت... صارخا بأعلى صوتك... عملت إيه يا رب...

[redacted]...

... لا تـزال الشـمس تـتكئ عـلى سـطح البحـر حـد الأفـق... ثـوانٍ قبـل أن تغيـب... ثمـة شـبح يفارقـك... الـبرد ينخـر في العظـام... حـمى... رعشـة... وهـن... ضـاع الشـعور بـأطراف الجسد... دموع حارة... هاذي دموع ولا عرق؟ ... بكا أم وهن الغياب؟ ... صور من ضباب أم دم انسفك؟ ...

الرحمة لك يا ابن عبد الجليل الرحمة لك... ارحم نفسك بنفسك... هذا زمن الوحدة... شفيعك من دفنتهم بإيدك...

وانت لم تجد من يدفنك... حرقة قلب أمك عليك، لهفة البنية اللي عاشرتها شهرين من الزمن، وهجرتها تعوى اللقا... حزن ابن لن يرى وجهك، لن يلمس بيديه طعم الأمان، يصير لأولاد الحواري والرجال ملطشة... انت يا عبد الرحيم... كنزت الفلوس والطين، شاركت على البهايم وتركت لي الموت.

... يـــــــــاه ...

ده انت عشت عيشة البهايم، ما حصلت تموت بكرامتها... الآن أفهمك يا كمال يا ابن عمى... الآن أفهم عزلتك... الآن أفهم قولتك.

الفلاحين نفاية... هو كان للحرب غاية...

يا وطن ليه تظلمونا... عملت إيه تذلني... ليه تدهس كرامتي بالصرم... ليه هذا القدر من الهوان... يا من حبيتك ولم تحبني... الحرب هنا ليه؟ ... أنا سامع صوت قصف القنابل، ما هذه الضوضاء تأتي من بعيد تخترق حاجز الذاكرة... ما لصوت القصف يخترق حاجز الصمت اللعين؟ ...

لا أسمع الأشياء لكنى أرى الموج يجرى على البحر، والصقور تسبح في الرياح، والبروجي ينعى بنوبة رجوع... هو أنا على شط القنال... ولا حدود الفلا؟ ... اصرخ يا ابن عبد الجليل في الفضاء السحيق عَلَّ حد يسمعك... ما بال الناس أصابها العمي؟ ... الدم ينزف من الجسد لم لا يراني أحد في محنتي؟ اصرخ يا ابن عبد الجليل.... ح اموت وحيد، لا عدو يشمت فيك، لا حبيب يبكيك، ولا حد من دمك المهدور يقرا على جثتك الفاتحة، يدعو لك بالرحمة، أحضن العطش، خلى الجفاف يشرب دمك المهدور... يا وجد يا حزين... ليه عبرت

الحياة في هذا الزمن المشؤوم... لو أني أعرف من الذي قدر لي هذا القدر.

كم أني أحببتُ ترابَ هذا الوطن...

كم أني صِرتُ أكرهه...

أكره فيه الأفاعي اللي في ترابه المقدّس عششتْ، أكره فيه الفضاء الملوث بالفساد... أكره عبدته... أشباحه... كهنته التي تختفي خلف البدل المرصعة بالنجوم.. حلف اللصوص الجدد، وشبكة المافيا المقنعة... يا وطن منهوب... تبا لك ولأحلامك المشؤومة... أحمق من يغنى للهزيم، والرعد القديم، بيع الجلا في الفلا... أحمق من يغنى للهلالية... ملعون أبوه ابن الكلب، هذا زمن لعق التراب والأحذية...

قد كنت أحبك يا وطن رميت بي جيفة على أسلاك الحدود... أنزف ببطء شديد... أرى في الفضاء حومة النسور تنتظر غفوتي... الآن أموت غريب... في أرض العرب هانوني... ذلوني... دهسوني بالأقدام، في حضن مصر. ما لقيتش الحنان أو حتى الأمان.

... الآن أدرك فقط أن كل القبعات العسكرية يجب أن تلقى للمزبلة، وأن ساسة العرب مرضى بالجرب. على أي شيء كانت الحرب إذن... كسب من ورائها من كسب، واحنا كسبنا الشقا والاغتراب اللعين...

يــــــــــــــــــــــاه...

... **يــــــاه** ...

... لو أن فيه من العمر بقية... قُطعان غنم تُرعى في مراعٍ للقتلْ، لحمُ الضحايا يتربّى فيها للغير في انتظار المذبحة... إذاً

كانـت الحيـاة خُدعـة عـلى هـذا الشـكل... اصرخ مـن دون صدى...

سرقتم حياتـي...

الفاتحة لك... اقرا الفاتحةَ بنفسك على نفسك، ما عاش غير المبروك، لم يحلم الفتى بشيء... لا بذهب الوهيدي ولا ببنته عزيزة... زمانه في رملة الأنجب قاعد في حُضن عياله، وأنـت هنـا ينازعـك المـوت... الفاتحـة لـك عشـت زي دكـر النحل، واليوم تموت غريب.

قد أحكمت المدرجات الحصار... فهل لهذا الليل نهار؟

ما هو البؤس يا ابن عبد الجليل؟ ... ما هو البؤس؟ ... الخدمة عند الأغراب؟ ... أم السفر في بلادة العقل؟ ... ما هو البؤس يا ابن عبد الجليل؟ ... ما هو البؤس؟ ... لما تكون ثروة البلاد منهوبة من حرّاسها، والمسؤولين عن البلاد لُصوص... حاملين بدل السلاح كرابيج وفي اليد التانية جاروف للنهب السريع قبل ما تنفض الموالد... زبالة في بِدل صوف إنجليزي، وشعر مصفوف يلمع بدهن الدناءة... ولسان يقطر أكاذيب في أكاذيب.

ما هو الحزن يا ابن عبد الجليل؟ ... ما هو الحزن؟ ... النوم على الطُوى؟ ... ولا لما تصبح الحواري مأوى للصغار، والضواري، والضّباع. والوحل.

ما هو الاغتراب يا ابن عبد الجليل؟ ... ما هو الاغتراب؟ ... الغربة خارج الوطن؟ ... أم العفن في أسن المجاري؟ ... ما هو البؤس يا ابن عبد الجليل؟ ... ما هو البؤس؟ ... الموت في عز الشباب؟ ... أم الحياة في النفوس الضعيفة؟ ...

ليه فتحتْ على نفسك باب التساؤل اللعين؟ ... ليه مديت أيدك على الباب الأربعين؟ ... لأن التسعة وثلاثين بابا غير موجودين... لا ذهب المعز، ولا فضة صفي الدّين، ولا جواري هارون الرشيد الحسان، ولا مصباح علاء الدين... ألا يا أمير سلامة... هِيت لك... ما أجملك... الرياح تطْوى الجسد بذرات الرمال... تجعل منك نصباً تطويه الكثبان... تمدد على فراشك الأخير، وانتظر زائر الموت المبجّل...

اكتبْ وصيتك... عندما خان الوطن أبناءه... أو خان الأبناء الوطن...

... أيام طويلة في العراء تحاصرك المدرعات والقبعات والهراوات والأقنعة... آه... لو أستطيع الاغتسال من الرمال، وقُبح الرّجال، والجرب النفسي، والزمن المهدور، والبنور، وحقل النور المسحور.

البحر ع الشمال، يغسل أرض الخليقة من ملايين السنين... ثمة شبح يفارقك... يخرج من جسدك ضخما طويل القامة يبلغ حافة السما... يغادرك باتجاه البحر يسير وئيدا... الجسد العاري القوي... عضلات الظهر... الإليتين المدمجتين الخاليتين من الدهن الدبق... الصدر المصبوب من الرخام الصخري والذكورة تتدلى أمامه منتصبة قوية... تراه يعبر المدرعات، والقبعات، والهِراوات، والأقنعة، لا يلبث أن يهبط في البحر، تأخذه الأمواج ويرحل.

إنهاك الجسد... انهيار الأعصاب... وهنٌ على وهنْ... العقل مطحون بين شِقى الرحى... نوء الجسد بالحمل ناء... انكفاء الظهر إلى الخلف... الاتكاء على تبْة الرمال... ناظرا إلى

البحر... قابضا بكفه على بطاقة المحاربين القدامى، رافعا إياها قليلا للأمام...

مـثقلا بالضـآلة... مـوغلا في الصـغر... وحيـداً في قلـب الظلمة...

بقعـة حياة تـتلاشى في بيـداء الجـدب... دمدمـةُ المـوج في التقائـه بالشـاطئ الصـخري... الصـمت والسـكون وحـوم النسور...

... الآن غابت الشمس... آن للمحارب أن يغفوَ قليلاً...

(تمــــــــــــت)

مصادر السيرة الهلالية:

(*): مـن السـيرة الهلاليـة – غنـاء الشـاعر فـتحي سـليمان (جروان-منوف-منوفية).

(**): المصدر السابق بقليل من التصرف من المؤلف.

(***): السيرة الهلالية-طبعة بولاق-سور الأزبكية.

يا ليل أنا والخيل لما تكحل بالدما..
والريح لما في البر زاد مداه...
من ريس البحرين منهم واشتهر..
والمنحدر م المستقر أهو تاه..
هاتوا الميدان بينهم وفرقوا حدوده...
لقوا الميدان كالبحر زاد أساه...
والخيل زي مراكب الميه..
والريح جاي عاصف بكل أساه..
حرص على الشاغول وأوصى الملهمة..
وإن زاد عليك البحر لو غضباه...
إن زاد عليك البحر وهبط..
قوام اركن إلى البر وشوف لظاه..
لما البيارق والرايات م السما تختفي....
وين تذهب الخيول يا بو زيد... ويلاه..

9789777513593